رسائل جامعية
٦٠

الدروس المستفادة من

العقوبات الإلهية في القرآن الكريم

قبل الرسالة المحمدية

تأليف
عبد الهادي بن سعد بن هادي الشهراني

دار ابن الجوزي

الدروس المستفادة من

العقوبات الإلهية في القرآن الكريم

قبل الرسالة المحمدية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٧هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٧هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -
جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

اصل هذا الكتاب أطروحة علمية نال بها المؤلف درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة أم القرى.

المقدمة

وتشتمل على ما يلي:

- بيان السبب في اختيار موضوع البحث.
- المنهج الذي سرت عليه في كتابة الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له؛ ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(1) [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

فمما سبق من معرفة بحثي المعنون بـ (الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية) لقد استنتجت معانيها من كتاب الله ـ تعالى ـ؛ أشرف كتاب، وأبين كتاب، وأهدى كتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم ما جاء على لسان محمد ﷺ من الأحاديث الصحيحة المفسرة لما جاء فيه من منهج عظيم هدى به الله الإنسانية، وزعزع به كيان الوثنية، وردها إلى جادة الصواب؛ بوحي من العزيز الوهاب.

---

(١) هذا جزء من خطبة الحاجة، أخرجها أحمد في المسند (١/ ٣٩٢)، برقم [٣٧٢٠]، [٣٧٢١]. وأبو داود، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح (٢/ ٥٩١)، برقم [١١٠٥] وقال: حديث حسن. وابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١/ ٦٠٩)، برقم [١٨٩٢]. انظر: (صحيح سنن ابن ماجه) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (١/ ٣١٩)، برقم [١٥٣٥]. حيث تتبع طرقها رحمه الله في رسالته «خطبة الحاجة» ص(١٤)، نشر المكتب الإسلامي.

ولا شك أن منهج القرآن في عرضه لقصص الأولين، وسبب عقوباتهم، ونوع عقوباتهم؛ كان الغرض منه العبرة والعظة؛ للعمل به وتطبيقه في عالم الواقع؛ لئلا يصيبنا ما أصاب تلك الأقوام الغابرة.

ولقد اكتسب القصص القرآني أهمية عظمى في تحليله للأسباب والنتائج، والأحداث والوقائع، حتى لكأن الإنسان يقرؤها لأول مرة، أو يسمعها لأول مرة، أو لكأنه يشاهدها رأي عين، وهذه الخاصية التي نستطيع أن نسميها (إحياء المشهد المعروض) لا توجد في غيره، يعرض المشهد تلو المشهد، والواقعة تلو الواقعة دون تكرار في صور ومشاهد تكاد أن تكون ماثلة للعيان.

ولعرض القصص القرآني آثاره في الأفراد والجماعات وبخاصة إذا تخللته العبر والمواعظ؛ لما لها من وقع عظيم في نفوس الأمة لبناء مجتمع فاضل يحيا على القرآن، ويعيش مع القرآن، ويمتثل لأمر القرآن، وينتهي بنهي القرآن؛ لأن الإسلام يريد مجتمعًا فاضلًا؛ لا آحادًا فضلاء؛ فالإنسان يصلي فيستقيم قلبه، ويزكي فتزكو نفسه، ويصوم فتقوى إرادته، ولكن الفضائل لا تنمو ولا تزدهر إلا في ظل مجتمع فاضل يتخلق بأخلاق القرآن؛ ولهذا كان علم القرآن وتفسيره وأخذ العبر والدروس منه أشرف صناعة وأربح بضاعة، رجفت عند تلاوته القلوب، وذرفت عند سماعه العيون، واقشعرت للذة تدبره الجلود.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن هو حبل الله الذي أمر به، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن اعتصم به، ونجاة لمن تمسك به، لا يعوج فيقوّم، ولا يزوغ فيشعب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن ردّ. اتلوه؛ فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات، لم أقل لكم: (الم) حرف؛ ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)، برقم [٦٠١٧] من طريق سفيان بن عيينة =

والقرآن ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب كما يقول الشيخ ابن سعدي: «لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله المعجز. فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب، وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدينية والأخروية، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة، ويعيد المعاني النافعة على العباد؛ ليتم علمهم، وتكمل هدايتهم، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم علمًا وعملًا»(١).

وهذا الكلام ظهر لي في كثير من آيات القرآن التي تحدثت عنها؛ في قصة إبليس - اللعين - في امتناعه عن السجود لآدم ووسوسته له، ثم ما جاء في قصص الأنبياء عليهم السلام من اختلاف في الألفاظ وكمال في المعنى المؤدي لقصد واحد.

أما عن أسباب اختيار هذا الموضوع فهي كما يلي:

أولًا: الإسهام في الدراسات القرآنية.

ثانيًا: الوقوف على جانب من سنن الله في خلقه، والكشف عن أسباب العقوبات ونوع كل عقوبة، والتأكيد على أنها دروس من الماضي للحاضر.

ثالثًا: المجتمعات المتقدمة حادت عن طريق الله وعن هَدي رسل الله؛ فضلّت وأضلّت، فعاقبها الله عقابًا شديدًا، وعذبها عذابًا نكرًا، وكان عاقبة أمرها خسرًا.

= عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود. وقد تكلم الأئمة في إبراهيم الهجري هذا، إلا أن رواية ابن عيينة عنه صححها الأئمة؛ لأنه مَيّز حديثه.
انظر: (الجرح والتعديل) للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (٢/ ١٣١ - ١٣٢)، ط دار الفكر، الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (أبي أحمد عبد الله بن عدي) (١/ ٢١١ - ٢١٣)، ط دار الفكر. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ٤٣)، الطبعة المحققة؛ حيث قال المحقق د/ سعد آل حميد: وللحديث طرق كثيرة عن إبراهيم الهجري، وجدت منها أربعة عشر طريقاً، منها أربعة طرق موقوفة، وعشرة طرق مرفوعة. انظرها من ص(٤٥ - ٤٨). ومعنى فيشعب: أي فيصلح.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط الثالثة، ص(٦).

أما المجتمعات المعاصرة فقد حادت عن منهج القرآن دينيًا، وفكريًا، وأخلاقيًا، وحضاريًا، واقتصاديًا ـ إلا من رحم الله ـ بعكس ما كان عليه الرعيل الأول من هذه الأمة حين صدقت الله صدقها الله؛ لأنها وعت سنة الله التي لا تتبدل، فأحببت أن أبيّن بعض ما عاقب به الله الأمم؛ لئلا يصيبنا ما أصابهم.

رابعًا: إبراز حقائق المنهج القرآني في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال القاسمي في تفسيره: «في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة، ومالوا مع الأهواء، وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا، ويفرق كلمتهم، ويوهي قوتهم، ويسلط عدوهم»[١].

خامسًا: حبي الشديد منذ بداية دراستي في جميع مراحل التعليم للقرآن الكريم، وما يتصل به من علوم أخرى، ورغبة في اختيار موضوع يتعلق بالقرآن والسنة النبوية، وتقربًا إلى الله ـ سبحانه ـ بأحب الأعمال إليه، وإيمانًا مني بأن صلاح هذه الأمة لا يكون إلا بالرجوع إلى كتاب ربها، وسنة نبيها محمد ﷺ، والعمل بهما.

سادسًا: آلمني وآلم كل مسلم غيور ما حل بهذه الأمة العظيمة من ضعف بعد قوة، ومن ذلة بعد عزة، ومن فرقة بعد وحدة، فأحببت أن أبين سنة الله ـ تعالى ـ في تعذيب الأمم وفنائها حين تركت أمر ربها، وحادت عن طريقه المستقيم، ونهجه القويم، فلعل قارئًا أوعى من كاتب، أو مُبَلّغًا أوعى من سامع، يستفيد من قصصه وعبره، وينقلها لمن يفيد ويستفيد؛ لأن المؤمن لا يكمل إيمانه بمجرد إصلاحه لنفسه إذا لم يهتم بإصلاح غيره؛ فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، وفي الحديث: «**بلغوا عني ولو آية**»[٢].

سابعًا: المتتبع لقصص القرآن الكريم ـ وخاصة ما حصل للأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ـ يجد فيها الدروس والعبر المهمة لكل داع ومصلح من المسلمين؛

---

(١) تفسير القاسمي (محمد جمال الدين) (محاسن التأويل) (٩/ ٣٣٩)، ط الثانية «دار الفكر».

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٢/ ٤٩١)، برقم [٣٤٦١].

ليخرج الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها، وتكون له منهجًا يسير عليه في دعوة أهل زمانه، وما أحسن أن يقص الداعي قصة نبي مع قومه ويستخرج منها الدروس والعبر المستفادة ليعالج الداء بالدواء على حسب ما يقتضيه المقام، وكل هذا موجود في عقوبات الأمم التي عصت ربها.

ثامنًا: هذا الموضوع لم يتناوله أحدٌ من قبل ـ فيما أعلم ـ.

❖ ❖ ❖

منهجي في البحث

➢ **أولًا**: اعتمدت فيه أولًا على كتاب الله ـ تعالى ـ؛ حيث جمعت الآيات المتعلقة بكل عقوبة، وقسمتها إلى قسمين: (قسم أشار إليها بصراحة، وقسم فصل عقوبة كل قوم من الأقوام الهالكين)، متتبعًا عقوبتهم في كل سورة ذكرت فيها حسب ترتيبها في المصحف.

➢ **ثانيًا**: ذكرت لطائف كل عقوبة مفرقًا بينها وبين كل ما سبقها في كل سورة بعنوان (لطائف الآيات غير ما سبق).

➢ **ثالثًا**: عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، فذكرت اسم السورة ورقم الآية مهما تكررت، وكتبت الآيات بالرسم العثماني تفاديًا لوقوع أي خطأ في كتابتها ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

➢ **رابعًا**: استعنت بكتب السنة فيما ذكرته في البحث من الأحاديث النبوية الشريفة، وعزوتها إلى مصادرها الأصلية.

فما أخذته من الصحيحين أو أحدهما رددته إليهما بالجزء والصفحة واكتفيت بذلك.

وما ذكر في بقية الكتب الستة أو المسانيد أو غيرها بينت مكانه فيها، ورجعت في الحكم عليه إلى الكتب المعتمدة عند أهل الحديث ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

➢ **خامسًا**: استعنت بكتب التفسير المشهورة؛ سيما الأمهات منها، ورجعت إلى أكثر من مصدر في المسألة الواحدة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، مع الاستفادة من المراجع الحديثة.

➢ **سادسًا**: جعلت ما نقلته نصًا من مرجعه الأصلي بين قوسين وذكرت مرجعه في الهامش، وما نقلته بتصرف أو عبرت عنه بأسلوبي أشرت إلى ذلك بقولي: انظر: (المرجع).

- **سابعًا**: اقتضى البحث تقديم تمهيد في كثير من العقوبات لما رأيت الحاجة إلى ذلك.
- **ثامنًا**: بينت في الحاشية بعض الكلمات التي أرى أنها في حاجة إلى بيان.
- **تاسعًا**: ترجمت لبعض الأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث ما عدا المشهورين منهم، ورجعت في ذلك إلى المراجع الأصلية التي اعتنت بتراجم العلماء.
- **عاشرًا**: عملت فهارس تفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والآثار، وفهرس الأبيات الشعرية، وفهرس الأعلام المترجم لهم، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.
- **الحادي عشر**: أطلت الكلام في بعض المباحث واختصرت في بعضها الآخر على حسب الحاجة.
- **الثاني عشر**: رتبت عقوبة كل قوم حسب زمنهم التاريخي كما درج عليه أئمة هذا الفن؛ كابن جرير في تاريخه، وابن كثير في البداية والنهاية، وما خالفتهما فيه فقد بينته في موضعه.

وقد جاءت خطتي في البحث على النحو التالي:

- **أولًا**: المقدمة.
- **ثانيًا**: التمهيد.
- **ثالثًا**: فصول البحث.
- **رابعًا**: الخاتمة.

فأما المقدمة فبينت فيها أمرين:

الأول: سبب اختياري للموضوع.

الثاني: المنهج الذي سرت عليه فيه.

وأما التمهيد ففيه:

أولًا: تعريف العقوبة.

ثانيًا: الفرق بين العقوبة والحد؛ ليتبين للقارئ أن الموضوع في العقوبات لا في الحدود.

وأما فصول البحث فقسمتها على النحو التالي:

الفصل الأول

العقوبات الإلهية في بدء الخلق

وفيه ثلاثة مباحث:

* **المبحث الأول**: عقوبة إبليس ـ لعنه الله ـ.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثاني**: عقوبة آدم عليه السلام.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثالث**: عقوبة قابيل.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

الفصل الثاني

العقوبات الإلهية من زمن نوح عليه السلام إلى بداية زمن موسى عليه السلام

وفيه ستة مباحث:

* **المبحث الأول**: عقوبة قوم نوح عليه السلام.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الثاني:** عقوبة قوم هود ﷺ.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الثالث:** عقوبة قوم صالح ﷺ.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الرابع:** عقوبة قوم لوط ﷺ.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الخامس:** عقوبة قوم شعيب ﷺ.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث السادس**: عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة يس.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

الفصل الثالث

العقوبات الإلهية في عهد موسى عليه السلام

وفيه ثلاثة مباحث:
* **المبحث الأول**: عقوبات فرعون وقومه.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تحدثت عن هذه العقوبات.
المطلب الثاني: سبب كل عقوبة.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الثاني**: عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبات.
المطلب الثاني: سببها.
المطلب الثالث: نوعها.
المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.
* **المبحث الثالث**: عقوبة قارون.
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

الفصل الرابع

عقوبات بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

وفيه أربعة مباحث:

* **المبحث الأول:** عقوبة قومٍ منهم خرجوا حذرًا من الموت.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثاني:** عقوبة قوم طالوت.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثالث:** عقوبة أصحاب السبت.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الرابع:** عقوبة بني إسرائيل في أول سورة الإسراء.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

الفصل الخامس

عقوبات بني إسرائيل في عهد عيسى عليه السلام وبعده

وفيه سبعة مباحث:

* **المبحث الأول:** عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى عليه السلام.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثاني:** عقوبة صاحب الجنتين.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الثالث:** عقوبة أصحاب الجنة.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الرابع**: عقوبة أصحاب الأخدود.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث الخامس**: عقوبة أهل سبأ.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث السادس**: عقوبة أصحاب الرس.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

* **المبحث السابع**: عقوبة أصحاب الفيل.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي تناولت هذه العقوبة.

المطلب الثاني: سببها.

المطلب الثالث: نوعها.

المطلب الرابع: الدروس المستفادة منها.

وأما الخاتمة فذكرت فيها:

١ ـ الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام.

٢ ـ التوصيات والمقترحات.

وبعد، فهذا هو المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث، وهذا ما استطعت إظهاره، محاولًا إخراجه في أجمل هيئة، وأبهى حلة، كل ذلك خدمة لكتاب ربنا ﷻ، فما أصبت فيه فمن الله وحده وله الفضل والمنّة، وما أخطأت فيه فمن نفسي وأستغفر الله، وأسأل الله بمنه وكرمه أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه؛ حتى يكون شاهدًا لنا لا علينا، وأن ينفعنا بما فيه، إنه سميع مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

❖ ❖ ❖

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالعقوبة.

المبحث الثاني: الفرق بين العقوبة والحد.

تعريف العقوبة

العقوبة لغة: اسم مصدر من عاقبه يعاقبه عقابًا ومعاقبة: إذا جازاه بشرٍّ على ذنب اقترفه.

تقول العرب: أعقبت الرجل: إذا جازيته بخير، وعاقبته: إذا جازيته بشر؛ فأطلق على الجزاء بالخير عاقبة، وعلى الجزاء بالشر عقابًا(١). ويقال للمتمادي في غيه: واحذر عُقْبَ الله وعقابه وعقوبته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٢) [غافر: ٥].

وكلمة «عقب» تدل على أمرين(٣):

الأول: تأخر الشيء وإتيانه بعد غيره.

الثاني: أنها تدل على الارتفاع والصعوبة.

ومعنى الأول جاء في معنى اسم النبي ﷺ «العاقب»؛ لأنه عقب من كان قبله من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام(٤) ـ.

ومنه: العقوبة والعقاب والمعاقبة؛ لأنها تأتي بعد الذنب.

والمعنى الدال على الأمر الثاني ومنه: العَقَبة بطرقها الوعرة، وجمعها عِقاب ـ بكسر العين ـ وتدل أيضًا على كل شيء له علو وشدة؛ ولذا سمي العقاب من الطير عقابًا؛ وهو أحد الطيور الجارحة؛ لما فيه من الشدة والقوة(٥).

قال الشاعر(٦):

---

(١) (محيط المحيط) ص(٦١٧)، (لسان العرب) (٩/ ٣٠٥)، وانظر: (معجم مقاييس اللغة).

(٢) وانظر: (مختار الصحاح) ص(٢١٠). (٣) (معجم مقاييس اللغة) (٤/ ٧٧).

(٤) انظر: (لسان العرب) (٩/ ٣٠١) مادة «عقب».

(٥) انظر: (معجم مقاييس اللغة) (٤/ ٨٤، ٨٥)، (القاموس المحيط) (١/ ٢٠٣)، وانظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٣/ ٢٦٧).

(٦) كتاب شرح أشعار الهذليين للسُّكَّري (١/ ٢١٣). وانظر: (لسان العرب) ٩/ ٢٩٩ مادة =

فإن كنت تشكو من خليل مخافةً فتلك الجوازي عُقْبُها ونصورُها

والجمع: العواقب والعقب[1].

والحاصل أن العقبى: جزاء الأمر، وأعقبه: جازاه، وتعقبه: أي أخذه بذنب كان منه[2].

أما تعريفها الاصطلاحي فعرّفت بعدة تعريفات، منها:

أولًا: إنها زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر[3].

ثانيًا: الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع[4].

ثالثًا: عقوبة غير مقدرة من الشارع، يهلك الله بها من عصى أمره، وكذب أنبياءه.

ونلاحظ في التعريفين الأولين أنهما يتعلقان بالحدود؛ لما فيها من المصالح العظيمة العائدة على المجتمعات.

وأما التعريف الثالث فهو التعريف الذي يتعلق بموضوعنا (العقوبات الإلهية التي تحل بالقوم المكذبين بعد التبليغ والإنذار).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

❖ ❖ ❖

= «عقَب». ومعنى البيت: إن كنت تخاف مما فعلت فإني قد أعقبتك وجازيتك كما فعلت وانتصرت منك بعدما عاديتك.

(١) لسان العرب (٩/ ٩٩) مادة «عقَب». (٢) القاموس المحيط (١/ ٢٠٣).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص(٢٧٥).

(٤) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة (١/ ٦٠٩).

الفرق بين العقوبة والحد

الحد لغة: المنع؛ ومعناه: الفصل بين الشيئين[١].

وفي الاصطلاح:

عرفه الزيلعي[٢] بأنه: عقوبة مقدرة تجب حقًا لله تعالى[٣].

وعرفه الشربيني[٤] بأنه: عقوبة مقدرة وجبت زجرًا عن ارتكاب ما يوجبه[٥].

وعرفه ابن النجار[٦] بأنه: عقوبة مقدرة شرعًا في معصية؛ للمنع من الوقوع في مثلها[٧].

أما العقوبة السماوية فهي:

أولًا: غير مقدرة بحد معيّن. ومن تتبع آيات القرآن الكريم يجد أن ما عوقب به بعض الأقوام السابقين لنبوة محمد ﷺ كان ساحقًا ماحقًا لهم، فتارة يكون بإرسال حاصب عليهم، وتارة بإرسال صيحة واحدة، وتارة بالخسف، وتارة بالغرق، على حد قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ وذلك لأن البشرية حين بدأت طريقها بدأته مهتدية مؤمنة موحدة لله؛ ولكن سرعان ما

---

(١) لسان العرب (٣/١١٦)، وانظر: التعريفات ص(١١٢)، ط دار الكتاب العربي، انظر التعريف به في: الأعلام، (٥/١٥٩، ١٦٠)، القاموس المحيط (١/٢٨٦).

(٢) انظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص(١١٥) خير كثير، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ص(٥١٩).

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٣/١٦٣)، وانظر: الأعلام (٤/٢١٠).

(٤) انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٥٦١)، الأعلام (٦/٦).

(٥) مغني المحتاج (٤/١٥٥).

(٦) انظر: شذرات الذهب (١٠/٣٩٦).

(٧) منتهى الإرادات (٢/٤٥٦).

يطرأ عليها ما يصرفها عن الحق، فيرسل الله إليهم رسولًا ليردهم إلى جادة الصواب، ويهديهم لطريق النجاة، فمن أطاع نجا وفاز؛ ومن عصى خاب وخسر.

ثانيًا: الحدود مقدرة شرعًا كمًّا[(١)] وكيفًا؛ أما العقوبة الإلهية فليس لها ذلك.

ثالثًا: يصح العفو في الحدود ما لم ترفع إلى الحاكم، فإذا رفعت فلا عفو ولا شفاعة، لحديث: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله** ﷻ...»[(٢)].

رابعًا: حق استيفاء الحدود موكولٌ إلى الإمام أو نائبه، وليس لأحد غيرهما أن يقوم باستيفائه[(٣)].

يتبين مما سبق بأن موضوعي في العقوبات الإلهية لا في الحدود.

❖ ❖ ❖

(١) تبيين الحقائق (٣/ ١٦٣).

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في الشهادات (٤/ ٢٣)، برقم [٣٥٩٧] عن ابن عمر، ط دار الحديث. ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٧٠)، برقم [٥٣٨٣]. ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب الحدود (٤/ ٤٢٤)، ٤٢٥، برقم [٨١٥٧] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني رحمه الله في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٢٢)، برقم [٤٣٧].

(٣) المبسوط لشمس الدين السرخسي (٩/ ١٠٤).

الفصل الأول

العقوبة في بدء الخلق

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عقوبة إبليس.

المبحث الثاني: عقوبة آدم وحواء عليهما السلام.

المبحث الثالث: عقوبة قابيل.

المبحث الأول

عقوبة إبليس

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت هذه العقوبة

تنوعت الأساليب البيانية في تفصيل عقوبة إبليس وغيرها من قصص القرآن في سور القرآن الكريم تنوعًا كثيرًا، يحسب القارئ لأول وهلة أن فيها تكرارًا؛ ولكن بالنظرة الفاحصة يتبيّن أنه ما من قصة أو حلقة تكررت إلا وكان لها نمطٌ جديدٌ وأداءٌ جديدٌ يختلف عنه في السور السابقة ينفي حقيقة التكرار؛ بل لها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره.

أولًا: السور التي أشارت إلى العقوبة دون تفصيل:

سورة واحدة هي سورة «الكهف»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

١ ـ الآية بمنطوقها تبيّن أن إبليس كان من الجن، وإنما تناوله الأمر للملائكة بالسجود لآدم لأنه كان في صحبتهم.

* يقول ابن القيم: «كان إبليس مع الملائكة بصورته؛ وليس منهم بمادته وأصله، كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور»(١).

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»**. كتاب الزهد والرقائق، باب أحاديث متفرقة (٤/ ٢٢٩٤)، برقم [٢٩٩٦]. انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (٢/ ٢٠١)، تحقيق: محمد الفقي، وانظر: تفسير القاسمي =

٢ ـ الاستفهام في الآية يدل على الإنكار والتوبيخ للمشركين إذ كانوا يعبدون الجن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠][١].

٣ ـ الظالمون: هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم، ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذم لهم[٢].

ثانيًا: السور التي فصلت عقوبة (إبليس):

أولًا: سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٤ ـ ٣٨].

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، كما عند الرازي: «اعلم أن هذا هو النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر؛ وهو أنه ﷻ جعل أبانا مسجود الملائكة؛ وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم من قبل بالخلافة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم خصّه بالعلم الكثير في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ثم ذكر هنا ما ذكر، فهذه أربع نعم»[٣].

> **ثانيًا:** الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقة آدم عليه السلام، بدليل

= المسمى «محاسن التأويل» (٢/ ١٠٤).

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور (١٥/ ٣٤١).

(٢) المصدر السابق (١٥/ ٣٤٢).

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وظاهر هذه الآية يدل على أنه لما صار حيًّا صار مسجود الملائكة؛ لأن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟﴾ للتعقيب. وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء، ومناظرته مع الملائكة في ذلك؛ حصل بعد أن صار مسجود الملائكة[(١)].

➢ **ثالثًا:** كان السجود أول تحية تلقاها البشر عند خلق العالم. وقد أجمع العلماء على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة؛ وإنما هو وسيلة تعظيم مجرد من التعبد[(٢)].

➢ **رابعًا:** في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، أبى أن يسجد واستكبر عن السجود؛ فجمع بين الإباء والاستكبار، وهذا يدل على أن إباءه لم يكن لعذر، أو لمانع يعذر به؛ وإنما كان استكبارًا في قلبه[(٣)] ـ كما سيأتي بيانه في السور التالية ـ وقال أبوحيان[(٤)]: «إنما قدم الإباء على الاستكبار مع أن الاستكبار يكون أولًا؛ لأن الاستكبار من أفعال القلوب؛ وهو (التعاظم)، وينشأ عنه الإباء اعتبارًا بما ظهر عنه أولًا؛ وهو الامتناع عن السجود».

➢ **خامسًا:** في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إنّ «كان» تفيد أن إبليس اتصف بالكفر في زمن مضى قبل نزول الآية، وليس المعنى أنه اتصف به قبل امتناعه من السجود لآدم. وقد أكثر المفسرون الكلام حول معنى «كان» هنا، وأحسن ما قيل في معناها: إنها بمعنى (صار)؛ أي: صار كافرًا بعدم السجود؛ لأن امتناعه نشأ عن استكباره على الله، واعتقاده أن ما أمر به غير جار على حق الحكمة، فكان انقلابه انقلاب استخفاف بحكمة الله؛ فلذلك صار كافرًا صراحًا[(٥)].

---

(١) التفسير الكبير (٢/ ٢١٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٢٢)، أحكام من القرآن الكريم لمحمد بن صالح العثيمين ص(١٦٢).

(٣) المصدر السابق ص(١٦٢)، انظر: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، لعبد الرحمن بن محمد الدوسري، ص(٨٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٢٦).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٤٢٦).

➢ **سادسًا**: الأمر في قوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، مستعمل في الامتنان بالتمكين والتحويل، وليس أمرًا له بأن يسعى بنفسه لسكنى الجنة؛ إذ لا قدرة له على ذلك السعي؛ فلا يكلف به[(١)].

➢ **سابعًا**: زوج آدم هي حواء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. خلقها الله منه من غير إحساس، ولو تألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته.

* قال ابن مسعود وابن عباس ﵃: «لما أُسكن آدم الجنّة مشى فيها مستوحشًا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيرة من شقه الأيسر؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، فلما قام وجدها، فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إليها. وهو معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ولهذا كانت المرأة عوجاء؛ لأنها خلقت من أعوج؛ وهو الضلع»[(٢)].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، لن تستقيم لك على طريقة واحدة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**»[(٣)].

➢ **ثامنًا**: اختلف العلماء في الجنّة التي أسكنها آدم وزوجه على قولين:

الأول: إنها جنة المأوى التي هي مأوى المتقين.

الثاني: إنها جنة في الدنيا؛ وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيفة كثيرة.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (١/ ٥١٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٨٥) و(٥/ ١٤٤٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٥٩)، برقم [٨٢٠] تحقيق: عبد الله الحاشدي، وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن ابن مسعود وناس من الصحابة. انظر: الدر المنثور في التفسير المأثور (١/ ١٠٥). وانظر: تفسير البحر المحيط (١/ ٣٠٤). وانظر: البحر المحيط (١/ ٣٠٧)، وانظر: صفوة الآثار (٢/ ٨٥، ٨٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (٢/ ١٠٩٠)، برقم [١٤٦٨].

والأقرب - والله أعلم - أنها جنة الخلد التي وعد المتقون، لما يلي:

أولًا: لما ورد في الصحيح من محاجة آدم عليه السلام موسى عليه السلام:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما... فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت النّاس بخطيئتك إلى الأرض! فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيًّا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدت فيها** ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ **قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»(١).

فدلت محاجة موسى عليه السلام لأبينا آدم عليه السلام أنه أخرجهما من جنة الخلد، ولو كانت غيرها لما حاجه فيها.

ثانيًا: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، وأبي مالك عن ربعي عن حذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله - تبارك وتعالى - الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنّة؛ فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلا خطيئة أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله**» الحديث(٢).

فدل هذا الحديث دلالة ظاهرة على أنها جنّة المأوى؛ وليست جنّة أخرى غيرها.

ولأنها هي المعلومة عند الإطلاق، والأصل أنه إذا كان للفظ معنى مفهوم عند الإطلاق؛ فإنه يحمل عليه إلا بدليل على خلاف ذلك، وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغيره (بمعنى: أن الأصل في النصوص حملها على ما هو معلوم

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب تحاج آدم وموسى عند الله، برقم [٣٤٠٩]، [٤٧٣٨]، [٤٧٣٨]، [٦٦١٤]، [٧٥١٥].

ورواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج موسى (٤/ ٢٠٤٤)، برقم [٢٦٥٢]، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة (١/ ١٨٦)، برقم [٣٢٩].

مفهوم حتى يدل دليل على خلاف ذلك)[1].

> تاسعًا: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

اختلف العلماء في جنس هذه الشجرة[2]، والقول الصحيح في ذلك: إن الله ﷻ لم يبيّن جنسها؛ لأنه ليس هناك ضرورة إلى معرفة جنسها، والمهم معرفة القضية ومغزاها؛ إذ لا يتعلق بعرفانها كبير فائدة[3].

> عاشرًا: إن الله ـ تعالى ـ أضاف الإزلال في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، إلى إبليس، فَلِمَ عاتبهما؟

والجواب: أنهما عند الوسوسة أتيا بالفعل، فأضيف ذلك إلى إبليس، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[4] [إبراهيم: ٢٢].

> الحادي عشر: في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، يرد سؤال إذا اعتبرنا أن في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أمرًا، ففيه مشقة على النفس شديدة، فيكون في هذا التكليف الشاق على النفس سبب للثواب، فكيف يكون عقابًا مع ما فيه من النفع العظيم؟ وعلى هذا يرد سؤال آخر هو: أليست الحدود وكثير من الكفارات عقوبات وإن كانت من باب التكاليف؟

والجواب: أن الحدود واقعة بالمحدود من فعل الغير، فيجوز أن تكون عقابًا إذا كان الرجل مصرًّا، وأما الكفارات فإنما يقال في بعضها: إنه يجري مجرى

---

(١) أحكام من القرآن ص(١٦٨). وهذا ما أردت بيانه من القول الصحيح والراجح ـ إن شاء الله تعالى ـ لدى كثير من جمهور العلماء من أهل السنّة سلفاً وخلفاً، وتركت الأقوال الأخرى خشية الإطالة، ولكونها مرجوحة.

(٢) قيل: هي البر والسنبلة. وقيل: هي الكرم. وقيل غير ذلك. انظر: تفسير البغوي (١/ ٤٩)، زاد المسير (١/ ٦٦)، البحر المحيط (١/ ٣٠٩).

(٣) وهذا ما ذهب إليه الطبري (١/ ٥٢٠، ٥٢١)، وانظر: المحرر الوجيز (١/ ٢٣٩)، التفسير الكبير (٣/ ٥)، البحر المحيط (١/ ١٥٨).

(٤) انظر: التفسير الكبير (٣/ ١٦) ثم استطرد قائلاً: وما أحسن ما قال بعض العارفين: هب أن زلة آدم ﵇ كانت بسبب وسوسة إبليس، فمعصية إبليس حصلت بوسوسة من؟.
وهذا ينبهك على أنه ما لم يحصل الداعي لا يحصل الفعل، وأن الدواعي وإن ترتب بعضها على بعض فلا بد من انتهائها إلى ما يشاؤه الله تعالى، وهو الذي صرح به موسى ﵇ في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

العقوبات؛ لأنها لا تثبت إلا مع الإثم، فأما أن تكون عقوبة مع كونها تعرضه للثواب العظيم فلا[1].

➢ **الثاني عشر**: في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، فيه أمر بالهبوط، وليس أمرًا بالعداوة؛ لأن ما اتصف به إبليس من الحسد والكبر والخداع والوسوسة لآدم وذريته، لا يجوز أن يكون مأمورًا به.

وأما عداوة آدم لإبليس فمأمورٌ بها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. إذًا فالمراد من الآية: اهبطوا من السماء وأنتم بعضكم لبعض عدو[2].

➢ **الثالث عشر**: عطف ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ [البقرة: ٣٦]، بالواو دون الفاء؛ لأنه ليس بمتفرع عن الإخراج؛ بل هو متقدم عليه، ولكن ذكر الإخراج قبل هذا لمناسبة سياق ما فعله الشيطان، وغروره بآدم؛ فلذلك قدم قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ بإثر قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

➢ **الرابع عشر**: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

التلقي في الآية: تلقي استقبال وإكرام ومسرة، قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. ووجه دلالته على ذلك: أنه صيغة «تفعل» من لقيه، وهي دالة على التكلف لحصوله وتطلبه، وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب، بخلاف «لاقى» فلا يدل على كون الملاقى محبوبًا؛ بل تقول: «لاقى العدو»، واللقاء: الحضور نحو الغير بقصد أو بغير قصد، وفي خير أو شر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ [الأنفال: ١٥]، فالتلقي هنا مؤذن بأن الكلمات التي أخذها آدم كلمات نافعة له، فعلم أنها كلمات عفو ومغفرة ورضى، ويدل على ذلك أنه عطف (فتاب عليه) بالفاء؛ إذ لو كانت كلمات توبيخ لما صح التسبب[3].

➢ **الخامس عشر**: لم تذكر توبة حواء هنا مع أنها مذكورة في مواضع أخرى،

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ١٧).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٧).

نحو قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ لأنها تتبعه في سائر أحواله، وإنما لم يرد لها ذكر هنا؛ لأن الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله في الأرض خليفة، فكان الاعتناء بذكر أحواله هو الغرض المقصود(١).

➢ **السادس عشر**: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، لم كرر ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ هنا بعد ذكره في آية ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] قبلها؟

والجواب: للتأكيد، ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾(٢) [طه: ١٢٣]. أو كما قال الرازي: «إن الأمر بالهبوط ما كان جزاءً على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها؛ بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة؛ لأن الأمر به كان تحقيقًا للوعد المتقدم في قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣) [البقرة: ٣٠]».

➢ **السابع عشر**: قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾، وفي سورة «طه»: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: ١٢٣]. فما الفرق بين الفعلين؟

والجواب: أن «فعِلَ» التي جاء على وزنها ﴿تَبِعَ﴾ لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله، و«افتعلَ» التي جاء على وزنها اتبع يشعر بتجديد الفعل، وبيان قصة آدم هنا لفعله، فجيء بـ ﴿مَن تَبِع هُدَايَ﴾، وفي «طه» جاء بعد قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، و﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فناسب (من اتبع)؛ أي: جدد قصد الاتباع، والله أعلم(٤).

* وقال صاحب البرهان: «إن معناهما واحد، وإنما اختار في «طه» ﴿ٱتَّبَعَ﴾ موافقة لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨]»(٥).

ثانيًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٣٨)، وانظر: التفسير الكبير (٣/ ٢٦)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (١/ ١٢٩).
(٢) تفسير الكشاف (١/ ١٢٩)، تفسير الخازن (١/ ٣٩).
(٣) التفسير الكبير (٣/ ٢٦).
(٤) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص(٩٣).
(٥) انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٢١).

إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ٢٥].

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: كيف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب، وخطاب الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالسجود سابق على خلقتنا وتصويرنا؟

والجواب: المراد: ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه. وقيل: ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم في ظهره. والقول الأول هو الأظهر(١).

> **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢ ـ ١٣].

وقال في سورة «الحجر»: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٢ ـ ٣٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/٣١٧ ـ ٣٢٠)، وانظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل» ص(١٤٧).

للسائل أن يسأل: إذا كان هذا في قصة واحدة، ووقع في كلام الله حكاية عما قال إبليس، وعما قيل له عندما كان يظهر من عصيانه، فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكي شيء واحد؟

والجواب: أن ذكر قصص من سبق لم يقصد بها أداء الألفاظ بأعيانها؛ وإنما المقصود ذكر المعاني؛ فإن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود، كان اختلافها واتفاقها سواء.

فقوله ﷻ هنا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقوله في «الحجر»: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وقوله في سورة «ص»: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، فهذه ألفاظ ثلاثة في بعضها اختلاف؛ وفي المعنى اتفاق، وهي: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وأما قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، ففيه زيادة إخبار عن حال لم تكن في الآيتين المتقدمتين.

وأما قوله في سورة «ص»: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وفي سورة «الحجر»: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، وفي سورة «الإسراء»: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، فإنه يحصل للسامع من الآيات الثلاث معنى واحدٌ؛ وهو ذكر ما حمله على ترك السجود لآدم ﷺ لما كان مخلوقًا من النار وآدم مخلوقًا من الطين، ورأى أصله أشرف من أصله وإن كان في إحداهما ذكر بعض ما دعاه إلى ما فعل.

وفي الآيتين الأخيرتين ذكر مقابلة أصله بأصله، وتوهم أنه أشرف، وأن سجود الأشرف للأدون لا يجوز.

وكذلك ما حكاه الله ـ تعالى ـ من قوله في سورة «الأعراف»: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، لا يعارض ما في سورة «الحجر»: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

ولا يخالف أيضًا قوله في سورة «ص»: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧ ـ ٧٨]؛ لأنه إذا أمره بالخروج من الجنّة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾، واللعنة في الحقيقة واحدة؛ لأنها إبعاد الله من يعصيه عن الخير[1].

➤ **ثالثًا:** كيف قال تعالى لإبليس: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]؛ أي: في السماء. وليس له ولا لغيره أن يتكبر في الأرض أيضًا؟

والجواب: أنه لما كانت السماء مقرَّ الملائكة المطيعين الذين لا يوجد منهم معصية أصلًا، كان وجود المعصية بينهم أقبح؛ فلذلك خص مقرهم بالذكر[2].

➤ **رابعًا:** كيف أجيب إبليس إلى الإنظار؛ وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله - تعالى - ويغويهم؟

والجواب: لما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالف ولا تُمانَع، ولا معقّب لحكمه، وهو سريع الحساب[3].

➤ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ - ١٥]، وقال في سورة «الحجر»، وسورة «ص»: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٨، وص: ٧٩ - ٨١].

لك أن تسأل فتقول: ما سبب إدخال الفاء في قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ في سورتي «الحجر»، و«ص»؛ وحذفها منه في سورة «الأعراف»؟

والجواب: لما لم يكن إجابةً إلى ما طلب لم يكن معطوفًا عليه بالفاء؛ وإنما سأل تأخير أجله، فقال: إنك في حكمي ممن أخر أجله لا لأجل مسألتك. أو أنه وقع مستأنفًا غير مقصود به عطف، فلم يحتج إلى الفاء.

وأما في سورتي «الحجر»، و«ص» فدخول الفاء في الموضعين[4] لتقدم ذكر

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. انظر: كشف المعاني ص(١٧٤).

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص(١٤٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٢)، وقال الرازي في تفسير (أنموذج جليل) ص(١٤٧): «لما في ذلك من ابتلاء العباد ليثبت لهم الثواب العظيم في مخالفته..».

(٤) أي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ...﴾ الآية [الحجر: ٣٥ - ٣٦]. وفي سورة «ص»: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ...﴾ الآية [ص: ٧٨ - ٧٩].

اللعن. والمعنى: إن آيستني من رحمتك فأخر أجلي؛ لأنال من عدوي ما أقدر عليه من الإغواء له ولمن يكون من نسله[1].

➢ **سادسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وفي سورة «الحجر»: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

للسائل أن يسأل في هذه الآية عن شيئين:

أحدهما: اختلاف المحكيات، ففي «الأعراف»: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، وفي «ص»: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

والثاني: حذف الفاء في سورة «الحجر» من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وإثباتها في سورتي «الأعراف» و«ص» في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

والجواب: أما عن اختلاف الألفاظ المحكية فيقال فيه: متى حملت الباء على القسم في قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ في الآيتين بشهادة الآية الثالثة وهي ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، لم يكن هناك اختلاف في المعنى؛ لأن المراد في قوله بإغوائك إياي، وهو يحتمل وجوهًا من المعاني:

أحدها: أن المراد: بتجنيبك إياي لأجتهدنّ في تجنيبهم.

وهذا ظاهر الكلام؛ لأن القسم متلقى باللام، ولأن قوله: **(فبعزتك)** في مقابلتهما من الآية الأخرى، وتجنيب الله إياه هو بعزته.

الثاني: أن يكون المراد: بإهلاكك إياي؛ بأن لعنتني. وهذا الفعل أيضًا عزة من الله.

وكذلك إن حُمل على معنى الحكم بغوايته فهو عزة من الله تعالى، وإذا كان كذلك تساوت في المعنى «وكلٌّ قسم»، والإغواء الذي هو الإهلاك والتجنيب، أو الحكم بالغواية، كل ذلك عزة من الله تعالى، فالقسم به كالقسم بعزته[2].

وأما الجواب عن حذف الفاء في سورة «الحجر» وإثباته في سورتي «الأعراف» و«ص».

---

(١) درة التنزيل ص(١٢١، ١٢٢). وانظر: كشف المعاني ص(١٧٤، ١٧٥)، البرهان في متشابه القرآن ص(١٨٣).

(٢) درة التنزيل ص(١٢٢)، وانظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٨٤).

فحذفه من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾؛ لأن الدعاء في المصدر يستأنف بعده الكلام، والقصة غير مقتضية لما قبلها كما اقتضاها قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾، والفاء توجب اتصال ما بعدها بما قبلها.

ثم إن النداء يوجب استئناف الكلام؛ سيما في قصة لا يقتضيها ما قبلها، فلم تحسن الفاء مع قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾؛ وأما الموضعان الآخران[1] فلم يدخل فيهما نداء يوجب استئناف ما بعده؛ فلذلك حسن دخول الفاء[2].

➢ **سابعًا**: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] مسألتان[3]:

الأولى: جملة ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾، إن «ثم» تفيد الترتيب الرتبي[4]؛ لأن مضمون الجملة المعطوفة غرض الكلام من مضمون الجملة المعطوف عليها؛ لأن الجملة الأولى ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، أفادت الترصد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجم عليهم بشتى الوسائل.

الثانية: مُثلت هيئة توسل إبليس إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو؛ إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكن فيها من أخذه، فهو يأتيه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، حتى تخور قوة مدافعته، فالكلام فيه مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة الناس ومخالفتهم؛ لأن الشيطان اللعين لا يأتي إلا من جهة النفس والعقل، والدليل على ذلك أنه لم يرد الإتيان من فوقهم ومن تحتهم؛ إذ ليس ذلك من شأن الناس في المخاتلة.

➢ **ثامنًا**: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

أعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيدًا للأمرين (الأول والثاني)، قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[5] [الأعراف: ١٣].

---

(١) من سورتي «الأعراف» ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]، و«ص» ﴿قَالَ﴾، [ص: ٨٢].
(٢) انظر: درة التنزيل ص(١٢٣). (٣) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ٤٩).
(٤) هو التدرج في الأخبار إلى خبر أهم. انظر: التحرير والتنوير (٨/ ٤٩).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ٥١) في تفسير آية (١٨).

> **تاسعًا**: قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، دل موقع هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس؛ حيث طرده الله من قبل، وأسكن آدم في المكان المشرف الذي كان له من قبل تكبره. ثم إن حصول هذا الأمر بمرأى ومسمع من إبليس فيه زيادة قمع له؛ ليزداد تحسرًا وندمًا، ولأن الإتيان بالضمير المنفصل «أنت» بعد الأمر؛ لقصد زيادة التنكيل به؛ لإفادته التعريض به دون ذكر اسمه(١).

> **عاشرًا**: وقع في سورة «البقرة» ﴿وَكُلَا﴾ بالواو، وهنا بالفاء ﴿فَكُلَا﴾، والعطف بالواو أعم(٢). فالآية هنا ـ في سورة «الأعراف» ـ أفادت أن الله ـ تعالى ـ أذن لآدم بأن يتمتع بثمار الجنّة، وتلك منه عاجلة عظيمة الإكرام، وفيها زيادة تنغيص وتحقير لإبليس الذي تكبر وفضل نفسه عليه، وكان الحال مقتضيًا إعلام السامعين به في المقام الذي حكى فيه الغضب على إبليس وطرده.

وأما آية «البقرة» فأفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة، والتمتع بما فيها؛ لأن المقام مقام تذكير لبني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، والتحذير من كيد الشيطان الذي وقعا فيه، وزاد فيها كلمة ﴿رَغَدًا﴾؛ لأنه مدح لآدم، أو دعاء له.

إذًا مجموع الآيتين دل على مكارم لآدم وزعت في السورتين على عادة القرآن في عرض القصص؛ ليحصل تجديد الفائدة، وتنشيط السامع، والتفنن في أساليب الحكاية؛ لأن الغرض من ذلك كله هو العظة والعبرة والتأسي(٣).

> **الحادي عشر**: إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما؛ بل إخراجهما من الجنّة؟

فالجواب: أن اللام في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ﴾ لام العاقبة والصيرورة؛ لا لام «كي» كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٥٣، ٥٤).
(٢) انظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص(٩٢)، البرهان في متشابه القرآن ص(١١٩).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ٥٣، ٥٤).

﴿وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، وقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب[1]

> **الثاني عشر**: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

دلت هذه الآية على أنّ بدوّ سوآتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة، فزادت هذه الآية على آية سورة «البقرة»[2].

> **الثالث عشر**: الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، للتقرير والتوبيخ، وعطف جملة ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ على جملة ﴿أَنْهَكُمَا﴾ للمبالغة في التوبيخ؛ لأن النهي كان مشفوعًا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة[3].

> **الرابع عشر**: قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهذا من آدم وحواء اعتراف بالعصيان، وأن ضر المعصية قد عاد عليهما، ورأياه بأم أعينهما، فعلما أنه من غضب الله ومن مخالفة وصايته، وقد أكد جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد؛ إظهارًا لتحقيق الخسران، واسترحامًا واستغفارًا من الله تعالى[4].

لكن يرد هنا سؤال وهو: كيف يصدر هذا الذنب العظيم من آدم عليه السلام وهو نبي؟

* قال الرازي: «هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم من آدم عليه السلام، إلا أنا نقول: هذا الذنب إنما صدر عنه قبل النبوة»[5].

ثالثًا: سورة «الحجر»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص(١٤٨). والبيت لأبي العتاهية (ديوانه ص(٤٦)).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٦٢).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٦٦، ٦٧).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٦٧).

(٥) التفسير الكبير (١٤/ ٥٠).

﴿أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٤٢].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ(١) مِّنْ حَمَإٍ(٢) مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧]، في هاتين الآيتين:

أ ـ لأول مرة تذكر كلمتا «الصلصال والحمأ المسنون» اللتان خلق منهما آدم عليه السلام.

ب ـ في هذا الخبر دليل على عظيم القدرة والحكمة، وعلى إمكان البعث، وموعظةٌ وذكرى.

جـ ـ المقصود من ذكر «الحمأ والصلصال» التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحال المهينة نوعًا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة.

د ـ في الآية الأولى إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان.

هـ ـ عطف جملة ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ إدماج وتمهيد لبيان نشأة العداوة بين بني آدم وجند إبليس.

و ـ فائدة قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق الإنسان، وفيه الإخبار بأن خلق الجانّ أسبق؛ لأنه مخلوق من النار، بنص الآية: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ وهي الريح الحارّة، فكما كوّن الحمأة الصلصال المسنون لخلق الإنسان، كوّن ريحًا حارة وخلق منها الجنّ، فهو مكون من حرارة زائدة على حرارة

---

(١) صلصال من حمأ مسنون: أي من طين قد يبس، فإذا نقرته صلّ.

(٢) والحمأ: جمع حمأة؛ وهي الطين الأسود المتغير الريح. والمسنون: المتغير الرائحة من طول مكثه. انظر: تذكرة الأريب في تفسير الغريب (١/ ٢٨٤). وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣/ ٣٤).

الإنسان، والحكمة كلها في إتقان المزج والتركيب[1].

➢ **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ دل على الشمول والإحاطة، وأفاد التأكيد، فما فائدة قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾؟

والجواب: فائدته توكيد بعد توكيد؛ فيفيد زيادة تمكين المعنى، وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل؛ بل يكون نسبة ﴿أَجْمَعُونَ﴾ إلى ﴿كُلُّهُمْ﴾، كنسبة كلهم إلى أصل الجملة.

وقيل: قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدل على اجتماعهم في زمان السجود، و﴿كُلُّهُمْ﴾ تدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معًا في زمان واحد[2].

والأول قول الأكثر، والله أعلم.

➢ **ثالثاً**: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥]، للسائل أن يسأل فيقول:

إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئًا واحدًا فما بال اللفظين اختلفا؛ فجاء في سورة «الحجر» بالألف واللام، وفي سورة «ص» مضافًا؟ وهل يصح أحدهما مكان الآخر؟

والجواب: أن سورة «الحجر» ابتدأت بذكر خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة؛ وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

وكان الأمر في سورة «ص» بخلاف ذلك؛ لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٤١، ٤٣)، م٧. وانظر بعض ذلك في: البرهان في متشابه القرآن ص(٢٣٧، ٢٣٨).

(٢) تفسير الرازي ص(٢٥٢)، التحرير والتنوير (١٤/ ٤٥).

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٥].

فلم تفتتح الآية بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة «الحجر»، ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من سورة «الحجر» بدله ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾، ثم قال في سورة «ص»: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فجعل بدل ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾، ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة، فكان لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾، فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها على ذلك(١).

وعلى ذلك لا يصح أن يكون أحدهما في مكان الآخر؛ لما لكل منهما من خصائص.

➢ **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

الله تعالى ذكر للملائكة المادة التي خلق منها البشر؛ ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها؛ لا بالمادة التي ركب منها(٢).

➢ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٨].

فهنا عبر عن يوم البعث بـ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ تفاديًا من إعادة اللفظ؛ لئلا يختل النظم، ولما فيه من التعليم بأن الله يعلم ذلك الأجل لديه تعالى. ويجوز أن يراد: المعلوم للناس أيضًا علمًا إجماليًّا.

وفيه تعريض بأن من لم يؤمنوا بذلك اليوم من النّاس لا يعبأ بهم؛ فهم كالعدم(٣).

➢ **سادسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٠].

ففي قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ إشارة إلى غواية يعلمها الله، وهي التي جبله عليها؛

---

(١) درة التنزيل ص(٢٠٦)، وانظر: كشف المعاني ص(٢٢٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٤٤)، م٧. (٣) المصدر السابق (١٤/ ٤٩).

ولذلك اختار لها «ما» الموصولة، وزيادة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤، وص:٧٧]؛ أي: إلى الأرض، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] [البقرة: ٣٦].

والتزيين في الأرض يفيد انتشاره في جميع ما على الأرض من الذوات وأحوالها، وجعل المغوين في الآية هم الأصل، واستثنى عباد الله المخلصين؛ لأن عزيمته منصرفة إلى الإغواء، فهو الملحوظ عنده ابتداءً على أن المغْوَين هم الأكثر[2]. والاستثناء غرضه منه ألا يقع في الكذب؛ لأنه لو سكت ولم يستثن لظهر كذبه؛ لأن لله عبادًا صالحين لا يستطيع إغواءهم. وعند هذا يقال: إن إبليس ابتعد عن الكذب وفر منه، فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه[3]!.

سابعًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

والمعنى: أن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويًا؛ أي: مائلًا للغواية، مكتسبًا لها، دون من كبح نفسه عن الشر[4].

رابعًا: سورة «الإسراء»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٠)، م٧.
(٢) المصدر السابق (١٤/ ٥٠)، م٧.
(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٦/ ٢٣٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٢).

ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٢].

في قوله: ﴿طِينًا﴾ حال من اسم الموصول المقدر بـ«الذي خلقته في حال كونه طينًا»، وإنما جعل جنس الطين حالًا منه للإشارة إلى غلبة العنصر الترابيّ عليه؛ لأن ذلك أشد في تحقيره في نظر إبليس، ثم أعيد إنكار لفظ التفضيل بقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ المفيد للإنكار، وعلل الإنكار بإضمار المكر لذريته؛ ولذلك فُصِلت جملة ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ عن جملة ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ﴾، كما وقع في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] كما سيأتي[(١)].

واسم الإشارة في الآية مستعمل في التحقير، كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]. والمعنى: أخبرني عن نيتك، أهذا الذي كرمته عليّ بلا وجه[(٢)]؟

➢ **ثانيًا**: في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، اقتصر على إغواء ذرية آدم، ولم يذكر إغواء آدم وهو أولى بالذكر؛ إذ آدم هو أصل عداوة الشيطان الناشئة عن الحسد من تفضيله عليه، وسيكون له ذرية من بعده يشفي غليله فيهم، ويأخذ منهم من يكون أهلًا لصحبته بعد غوايته، إلا من أخلص العبادة لله فإنه لا يستطيع غوايته؛ إذًا العداوة بقيت مسترسلة في ذريته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[(٣)] [فاطر: ٦].

➢ **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

أعيد في الآية كلمة ﴿جَزَآءً﴾ للتأكيد اهتمامًا وفصاحة، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولأنه أحسن في جريان وصف الموفور على موصوف متصل به دون فصل، وأصل الكلام: فإن جهنّم جزاؤكم موفورًا؛ أي: جزاءً غير منقوص[(٤)].

➢ **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

---

(١) في لطائف سورة «طه».

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٠، ١٥١) بتصرف.

(٣) انظر: المصدر السابق (١٤/ ١٥١). (٤) انظر: المصدر السابق (١٤/ ١٥٢).

﴿وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. أظهر اسم الشيطان دون أن يأتي بضميره المستتر؛ لأن هذا الاعتراض جملة مستقلة، فلو أتى بالضمير العائد إلى جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين[١] في الشعر، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل؛ فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها[٢]. وأما الأمر في (**واستفزز**)، (**وأجلب**)، (**وشاركهم**) فهو للتهديد؛ لا أمر طاعة، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ [المرسلات: ٤٦]، والمعنى: شاركهم في الإثم، لا في المال[٣].

➢ **خامسًا**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

هذا المفهوم يفيد أن الله ـ تعالى ـ قد حفظ فريقًا من عباده من الشيطان؛ حيث جاءت إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب.

فأما الوصف في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ المفيد أنهم تمحضوا لعبودية الله ـ تعالى ـ، كما تدل عليه الإضافة فإنه أن من عبدوا الأصنام والجنّ، وأعرضوا عن عبودية الله ـ تعالى ـ، ليسوا من أولئك.

وأمّا السبب في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ المفيد أنهم توكلوا على الله، واستعاذوا به من الشيطان، فكان خير وكيل لهم؛ إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه[٤].

خامسًا: سورة «طه»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ

---

(١) التضمين يطلق على أشياء:
أحدها: إيقاع لفظ موقع غيره لتضمينه معناه، وهو نوع من المجاز.
الثاني: حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم هو عبارة عنه، وهو نوع من المجاز أيضاً. والثالث: تعلق ما بعد الفاصلة بها. والرابع: إدراج كلام الغير في أثناء الكلام بقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم، وهذا هو النوع البديعي. انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٥).

(٣) كشف المعاني ص(٢٣٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٦).

وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥ ـ ١٢٣].

• لطائف آيات سورة «طه» غير ما سبق بيانه من عقوبة إبليس:

> **أولًا:** قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥].

يخبر الله أن آدم عليه السلام نسي عهد الله ووصيته، وأكل من الشجرة، وإذا كان فعله ناسيًا فكيف وصفه بالعصيان وبالضلال بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وعاقبه عليه بأعظم العقوبة؛ وهو الإخراج من الجنّة؟

والجواب: أن النسيان هنا بمعنى: الترك؛ أي: ترك التحرز من الشجرة، أو عهد الله ووصيته، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]؛ أي: تركناكم في العذاب، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. إذًا معناه: أنه ترك عهد الله ووصيته[(١)]، وتأول وأراد الخير فلم يصبه[(٢)]، أو ظن تدارك فعلته بالتوبة لحب الخلد[(٣)].

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، ولم يقل: فتشقيا؛ والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام فكيف؟

والجواب من وجوه:

أحدها: أن الرجل قيّم على أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاءهم، وسعادتُه تتضمن سعادتَهم، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما تضمنه الكلام[(٤)].

الثاني: أنه إنما أسنده إليه دونها للمحافظة على الفاصلة.

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص(٣٣١).
(٢) تفسير القاسمي (٢/١٠٨)، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٠).
(٣) المصدر السابق (٢/١٠٨)، وانظر: التحرير والتنوير (١٦/٣١٩).
(٤) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص(٣٣٢)، وانظر: التحرير والتنوير (١٦/٣٢١).

الثالث: أنه أراد الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة[1].

➢ **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، وقال في «الأعراف»: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، فما الفرق؟

والجواب: أنه عدى هنا فعل وسوس بـ«إلى» باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم، وبلوغها إياه، وتعديته باللّام في «الأعراف» باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما[2].

➢ **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

لم يذكر النهي عنها هنا، وذكر النهي عنها في سورة «البقرة»، وهذا العرض متقدم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولم يدله الشيطان على شجرة الخلد حقيقة؛ بل كَذَبه ودله على شجرة أخرى، بدليل أن آدم لم يخلد، فحصل لآدم توهم أنه إذا أكل من الشجرة التي دله عليها الشيطان أن يخلد في الحياة. وسمّاها هنا ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠]، بالإجمال؛ للتشويق إلى تعيينها حتى يقبل عليها، ثم عينها له عقب ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١].

➢ **خامسًا**: إن قيل: هل يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا غاويًا من قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ [طه: ١٢١].

والجواب: أنه يجوز أن يقال: عصى آدم كما قال الله ـ تعالى ـ، ولا يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا؛ لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل؛ ألا ترى أنه يجوز أن يقال: تبارك الله، ولا يجوز أن يقال: الله متبارك، ونحو ذلك.

ويجوز أن يقال: تاب الله على آدم، ولا يجوز أن يقال: الله تائب، ونظائره كثيرة...[3].

---

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص(٣٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٥)، م٨.

(٣) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص(٣٣٢).

> سادسًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: ١٢٣]، وفي سورة «البقرة»: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي «الأعراف»: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾ [الأعراف: ٢٤]، فثنى في سورة «طه»، وجمع في سورتي «البقرة» و«الأعراف»، فما وجه ذلك؟

والجواب: إما لأن أقل الجمع اثنان ـ كما قيل به ـ، أو لأن الخطاب يشملهما ويشمل ذريتهما. وقيل: الضمير يعود إلى آدم وحواء وإبليس[1].

سادسًا: سورة «ص»:

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٨٥].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** ورد في السورة تفصيل ما جرى من قول الملائكة، فهو يبين ما أجمل هنا وإن كان متأخرًا؛ إذ المقصود من سوق القصة هنا الاتعاظ بكبر إبليس دون ما نشأ عن ذلك.

> **ثانيًا:** تبين من آيات سورة «الحجر» وسورة «ص» تشابه كبير في عرض الآيات؛ حيث وقع في سورة «الحجر» ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: ٣١]، وفي هذه السورة ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: ٧٤]، فيكون ما في هذه الآية يبيّن الباعث على إباء إبليس.

ووقعت هنا زيادة ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]، وهو بيان لكون المراد في

---

(١) أحكام من القرآن ص(١٧٣)، وانظر: «زاد المسير في علم التفسير» (٥/ ٢٢٧)، التفسير الكبير (٢٢/ ١٢٩، ١٣٠)، البحر المحيط (٦/ ٢٦٥).

سورة «الحجر» من قوله: ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، الامتناع من أن يكون من الساجدين لله المنزهين له عن الظلم والجهل[(١)].

➢ **ثالثًا:** في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ الآية [ص: ٧٥].

فيه دلالة على أن لله ـ تعالى ـ يَدَينِ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومذهب السلف في هذا: أن لله يدين ليستا كأيدينا، ولله سمع ليس كسمعنا، وبصر ليس كبصرنا... منزه عن مشابهة المخلوقين، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

➢ **رابعًا:** إن قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]. يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس هي يوم القيامة ثم تنقطع.

فالجواب: كيف تنقطع وقد قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ولكن مراده: أن عليه اللعنة طوال مدة الدنيا، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما ينسي عنده اللعنة، فكأنها انقطعت[(٢)]؟

➢ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، أُحتُج بهذه الآية على أن الكل بقضاء الله؛ حيث أخبر بأن إبليس لا يؤمن بقوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧ ـ ٧٨]، وصدور الإيمان منه محال مع أنه أمر به، ولأنه تعالى قضى بأن يملأ جهنّم من الكفرة، فلو لم يكفروا للزم الكذب والجهل في حق الله ـ تعالى[(٣)] ـ وهذا محال أيضًا، فكان قوله الحق ﷻ، وقضاؤه الحق ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]..
﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

➢ **سادسًا:** قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. إن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٣٠١)، وانظر: ذكر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أيضاً من لطائف سورة «البقرة» ص(٣٤).

(٢) تفسير الكشاف (٤/١٠٨)، وانظر: تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص(٤٤٠).

(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٣٥).

قلت: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ فالجواب: أنه لا يخلو أن يؤكد به الضمير في (منهم)، أو الكاف في (منك) مع (من) ﴿تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. والمعنى: لأملأن جهنّم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أترك منهم أحدًا. أو: لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوت في ذلك بينهم[(١)].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

كبر إبليس، وعصيانه لأمر الله، وامتناعه عن السجود لآدم

أخبر الله ﷻ ملائكته أنه سيخلق بشرًا من طين، فإذا سواه ونفخ فيه من روحه فليكرموه بالسجود له على وجه التحية له والتكريم؛ اعترافًا بفضله[(٢)]. ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته بما شاء، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٤].

هذا، وقد اختلف العلماء في سجود الملائكة لآدم على ثلاثة أقوال[(٣)]:

القول الأول: إن السجود كان تكريمًا لآدم عليه السلام، وإظهارًا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله ﷻ[(٤)]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمقصود: أن الصلاة لله لا للدلوك؛ لذا جاز أن يقال: صليت للقبلة مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة.

وممن ذهب لتأييد هذا القول ابن العربي في أحكامه[(٥)] حيث قال:

---

(١) تفسير الكشاف (٤/١٠٨).
(٢) سبق ذكره عند ذكر لطائف آيات سورة «البقرة» ص(٣٠).
(٣) انظر: التفسير الكبير (٢/٢١٢، ٢١٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٢٩٣)، وانظر: تفسير البغوي (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (١/٨١).
(٥) أحكام القرآن لابن العربي (١/١٦).

«اتفقت الأمة على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة؛ وإنما كان على وجهين:

الأول: إما سلام الأعاجم بالتكفّي والانحناء والتعظيم.

الثاني: وإما وضعه قبلة كالسجود للكعبة وبيت المقدس - وهو الأقوى - لقوله في الآية الأخرى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، ولم يكن على معنى التعظيم؛ وإنما صدر على وجه الإلزام للعبادة واتخاذه قبلة، وقد نسخ الله - تعالى - جميع ذلك في هذه الملّة»(١).

القول الثاني: إن هذا السجود هو كما جاء في أصل اللغة؛ وهو الانقياد والخضوع، ولو لم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض، وإنما هو الانحناء؛ تحيةً وتكريمًا وإقرارًا بالفضل.

* قال القرطبي في كتابه الجامع: «وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض؛ ولكنه بقي على أصل اللغة؛ فهو من التذلل والانقياد؛ أي: اخضعوا لآدم، وأقروا له بالفضل، فسجدوا؛ أي: امتثلوا ما أمروا به»(٢).

القول الثالث: إن السجدة كانت خاصة بآدم عليه السلام؛ تعظيمًا وتحية له كالسلام منهم عليه، ولا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله - تعالى -، أو كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية؛ ولكنه نسخ في ملتنا، ومنع في شرعنا.

وقد كان ذلك مشاعًا في الأمم السابقة، فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ما كان في زمن يعقوب عليه السلام، والدليل على أنه فعل في زمنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* قال ابن كثير: «وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم؛ إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجانب الرب جل جلاله، وفي الحديث: أن معاذًا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (١/ ٢٥٠).

فقال: «**ما هذا؟**» فقال: إنّي رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ لعظم حقه عليها**»(١).

وقد رجح هذا القول الرازي، وضعف القولين الأولين وهما:

* **الأول**: كونه جُعل قبلة؛ إذ لا يظهر فيه شرف.

* **والثاني**: أن المراد بالسجود: الخضوع لا الانحناء، ووضع الجبهة على الأرض، وهو ضعيف، ويدل عليه ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، ففي الآية أمر بالوقوع؛ أي: اسقطوا وخروا على الأرض. والسقوط يكون بوضع الجبهة على الأرض؛ وليس مجرد الانحناء، وهذا التعليل كاف لضعف هذا القول، فيبقى القول الثالث وهو الأرجح(٢).

أما سبب امتناع إبليس عن السجود:

فزعمه أنه خيرٌ من آدم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ لأنه بزعمه لا يمكن أن يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، ويعني بهذا أنه خيرٌ منه، فكيف يؤمر بالسجود له؟

ثم بيّن وجه هذه الخيرية؛ بأنه خلق من نار، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم، فنظر اللعين إلى أصل العنصر الذي خلق منه، ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم؛ وهو خلق الله لآدم بيده، وأنه نفخ فيه من روحه، وقاس(٣) قياسًا فاسدًا في مقابلة نص وهو قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٢/ ٥٠٩).

والحديث رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٨١)، برقم [١٩٤٢٢].

ورواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة (٣/ ٤٥٦)، برقم [١١٥٩]، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٣٤٠)، برقم [٩٢٦]. ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١/ ٥٩٥)، برقم [١٨٥٢]، [١٨٥٣].

(٢) انظر: التفسير الكبير (٢/ ٢١٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٨١).

(٣) في الحديث: عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم. فقال: إنه خير** =

٧٢]، كما أنه لم ينظر ـ لعنه الله ـ لأمر من أمره بالسجود (وهو الله ﷻ)، ثم إنه في ادعائه أن النار أشرف من الطين ادعاء غير صحيح؛ فإن الطين أحسن من النار، والطين محل النبات والنمو والزيادة، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة[١].

ثم إن امتناعه عن السجود، واحتجاجه بالحجج الواهية، جعله ينضح بما في داخله من الكبر والحقد والحسد على آدم وذريته، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وتعاظم في نفسه أن يطيع أمر الله بالسجود لآدم، فصار بفعله هذا من الكافرين الجاحدين المطرودين من رحمة الله ﷻ.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله**»! ـ وفي رواية أبي كريب ـ: «**يا ويلي! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[٢].

فهذا دليل على قدرته على السجود؛ لذا استحق ذم الله ـ تعالى ـ له وتكفيره إياه؛ لعدم امتثاله الأمر بالسجود. ودليل على تكبره؛ والكبر: بطر الحق، وغمط الناس واحتقارهم ـ كما في الحديث الصحيح[٣] ـ، وانطبق هذا على إبليس؛

= **منه»**. أخرجه ابن جرير بسنده (٢/٣٢٨)، قال ابن كثير: إسناده صحيح. انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/١٩٧)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/١٣٤).

وقال ابن سيرين: أول من قاس إبليس، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس. انظر: تفسير الطبري (١٢/٣٢٨).

وهذا القياس الذي قاسه إبليس من أفسد الأقيسة، وهو باطل من عدة وجوه.

الأول: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقاعدة الأصولية تقول: القياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل.

الثاني: أن قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، يدل على نقصه، وبرهان ذلك إعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم، وأي نقص أعظم من هذا.

الثالث: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب كما ذكرناه. انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٩٨، ٩٩).

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٢/٣٢٧)، تفسير ابن كثير (٢/٢١٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/٨٧)، برقم [٨١].

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (١/٧٨)، برقم [١٤٩].

حيث رأى أنه أفضل من آدم في جنسه وعنصره، فضلًا عن أنه ترك طاعة الله تعالى في السجود لآدم، واعترض على أمر الله وحكمته فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

فأبدى غاية التكبر وأظهر حسده لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة.

* قال ابن كثير: «قال قتادة(١): حسد عدو الله إبليس آدم ﷺ على ما أعطاه الله من الكرامة وقال: أنا ناريٌّ، وهذا طينيٌّ. وكان بدء الذنوب «الكبر»، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم ﷺ، فكان جزاؤه الطرد من الجنّة».

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

لعنهُ وطرده من الجنّة

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧ ـ ٧٨].

تفيد الآيات أن الله ـ تعالى ـ طرد إبليس من الجنّة ومن المنزلة الرفيعة التي

---

(١) قتادة: هو ابن دِعامة ـ بكسر الدال ـ بن عزير، مفسر حافظ، رأس في العربية وأيام العرب، ضرير أكمه، قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. مات بواسط من الطاعون سنة ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٥/٢٦٩)، الأعلام لخير الدين الزركلي (٥/١٨٩)، ط. دار العلم للملايين.

كان فيها، فقال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ - أي: من الجنّة -، فما يصح أن تستكبر عن أمري وتسكن دار قدسي، اخرج ذليلًا مهانًا حقيرًا مدحورًا إلى الأرض التي هي مقر من يطيع ويعصي؛ فمن تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه(١).

وفي الحديث: «**من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في عليين، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين**»(٢).

عندها يئس إبليس اللعين من إدراك مقصده؛ حيث خانه طبعه وجبلته، عندها طلب من الله - تعالى - إمهاله إلى يوم البعث، قال تعالى عنه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ - ١٥].

وقال أيضًا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٨، وص:٧٩ - ٨١].

وهذه أيضًا جهلة من جهالاته الخبيثة حين سأل الله - تعالى - النظرة إلى قيام الساعة؛ حيث أراد ألا يموت أبدًا، فخيّب الله أمله؛ فأجابه بما يبطل مراده، وعامله بنقيض قصده ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾؛ وهو اليوم الذي يعلمه الله فقط، وهو اليوم الذي تموت فيه الخلائق كلها، ثم ينزل الله به سخطه وغضبه وأليم عقابه.

ولما علم اللعين بإمهال الله له كشف عن حقده وعداوته لآدم وذريته وما هو عازم عليه ليضلهم ويغويهم عن صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

---

(١) انظر: تفسير المنار (٨/ ٣٣٤) بتصرف، تفسير القاسمي (٧/ ٢٦ - ٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد (٣/ ٧٦)، برقم [١١٧٤٣]، وصححه ابن حبان في صحيحه، برقم [٥٦٧٨].

وأخرجه ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر (٢/ ١٣٩٨)، برقم [٤١٧٦]، وانظر: ما ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة عنه (٥/ ٤٣٣)، برقم [٢٣٢٨].

وقال عنه أيضًا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال أيضًا: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وأنت ترى ـ أيها المسلم ـ في هذه الآيات أن إبليس يقسم بعزة الله أو بإغواء الله له لئن أخره إلى يوم القيامة ليغوي بني آدم كلهم ويستأصلهم بالإضلال ويقودهم كيف شاء؛ بل ويزين لهم سلوك طرقٍ أخرى؛ فلا يستقيمون على الطريق الحق، ولا يلتزمون بشرع يهديهم إليه، إلا عباد الله المخلصين، الملتزمين بطاعة ربهم، الهاربين من حبائل شياطينهم، المتوكلين على خالقهم، المخلصين في عبادتهم.

والحاصل: أن اللعين مواظب على الإفساد والاعتراض لبني آدم بالوسوسة مواظبة لا يفتر عنها؛ وذلك بأن يزين لهم في الأرض بفعل المعاصي، وتزيين الشهوات، وتحسين القبائح، لما عَلم من ميل بني آدم إلى ذلك.

هذا ما كشف عنه إبليس من حقده وحسده لآدم وذريته، فماذا كان رد الباري ﷻ عليه؟ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]، ومثلها قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤ ـ ٨٥]، ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

هذه الآيات تبيّن جزاء من يتبع إبليس فيما يدعو إليه من خبث وشر؛ وهو نار جهنّم يعذبون فيها ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦ ـ ٣٧]، وعندها لا ينفعهم الشيطان الذي أغواهم؛ بل يقوم فيخطب فيهم ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهذا من إبليس - لعنه الله - تيئيسٌ لهم؛ ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وحسرة إلى حسرتهم.

لذا ينبغي للمسلم أن يعتصم بالله - تعالى - من شره، ويدعو الله - تعالى - أن يعيذه منه، وهذا ما سنتعرض له في استخراج الدروس المستفادة من ذلك.

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة إبليس

➢ **أولًا**: أصول المعاصي ثلاثة[1]: الكبر، والحرص، والحسد.

فالكبر أول معصية عُصي الله بها من إبليس، ثم تلاه كل من تكبر عن وحيه وعتا عن أمره.

وأما الحرص فهو أيضًا أول معصية عصيَ الله بها من الأبوين حين أكلا من الشجرة، ثم تلاهما كل من تجاوز حدود الله في نهيه من بني آدم إلى قيام الساعة.

وأما الحسد فهو أول ذنب عُصيَ الله به في الأرض من جهة قابيل؛ حيث قتل هابيلَ حسدًا. ثم إن جميع الفتن والجحود الحاصلة بين أهل الأرض منشؤها الحسد[2].

لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد؛ لأنهما إثمان عظيمان.

* قال الإمام الرازي: «إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر»[3]. فكان بدء الذنوب الكبر؛ ولهذا جاء التحذير من الكبر، والوعيد للمتكبرين، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[4] الحديث.

---

(١) صفوة الآثار (٢/ ٨٩).

(٢) سنفرد له بحثًا خاصًا عند الحديث عن عقوبة قابيل.

(٣) التفسير الكبير (٦/ ٢٢٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (١/ ٧٨)، برقم [١٤٩].

وحقيقة الكبر: بطر الحق، وغمط الناس ـ كما جاء في تكملة الحديث السابق ـ.

بطر الحق: أي دفعه ورده، وعدم الخضوع والانقياد له؛ استخفافًا به، وترفعًا عليه، وعنادًا له.

وأما غمط الناس: فاحتقارهم والازدراء بهم[١].

وفي الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنّم يقال له: بولس، يسقون من طينة الخبال؛ عصارة أهل النار**»[٢].

فعلى المسلم أن يحذر من الكبر والخيلاء؛ حتى لا يصيبه عذاب الله المذكور. فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض، وبلغوا الجبال طولًا، وصعّروا خدودهم للناس، ولبسوا ثياب الشهرة، وسمّعوا بأفعالهم، وراءوا بأعمالهم، يحشرون كالنمل هوانًا، يغشاهم الذل، يساقون إلى سجن داخل جهنم، ويسقون من عصارتهم، نعوذ بالله من ذلك!.

فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أن يبينوا للناس حقيقة الكبر ومظاهره وآثاره، وأن أخلاق المسلم يجب أن تكون بعيدة عن هذا المرض الخطير.

➢ **ثانيًا:** قلنا من قبل: إن القاعدة الأصولية تقول: «القياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل»[٣].

فلا رأي لأحد مع وجود النص، والواجب على المسلم القبول والتسليم بما ورد عن الله ـ تعالى ـ، أو عن رسوله ﷺ في السنة الصحيحة، والإيمان بذلك بدون تردد ولا ضيق ولا حرج ولا كراهية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٩٦)، (٨/ ٣٣٤)، وانظر: صفوة الآثار (٢/ ٨٥).

(٢) رواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، كتاب صفة القيامة، باب ٤٧، (٤/ ٦٥٥)، برقم [٢٤٩٢]، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني. انظر: صحيح سنن الترمذي لمحمد ناصر الدين الألباني (٢/ ٣٠٤)، برقم [٢٠٢٥].
ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢٤٩)، كتاب الأدب، باب ٢٠٠ ما ذكر في الكبر (٦/ ٢٤٩)، برقم [٥].

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٩٨).

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

➢ **ثالثًا**: قول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، قول لا مبرر له، ولا عذر له في مخالفة أمر الله، وفصل هذه الخيرية بقوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا هو الكبر الصراح الذي يتعلل به كثير من بني البشر حين يعتزون ويفتخرون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر، وقد يكونون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم، مما نشأ عن ذلك الطبقية المقيتة التي أفقرت ناسًا من البشر على حساب جنسهم أو حسبهم، وتركوا الدين بعيدًا عن حياتهم، حتى جعلوه في المناسبات العامة فقط، أو تراثًا يرجع إليه حين الاحتياج.

➢ **رابعًا**: إن افتخار إبليس اللعين بمادته التي خلق منها جهل ظاهر من وجوه(١):

الأول: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، والأقذار التي تعاف من مادة الطعام الذي يُحب ويشتهى.

الثاني: أن الملائكة خلقوا من النور، والشيطان خلق من مارج من نار، وما فوقه دخان، وما تحته لهب صاف، ولا شك أن النور خير من النار. والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسجود.

➢ **خامسًا**: إذا سلمنا جدلًا أن خيرية الشيء تابعة لأصله الذي خلق منه فلا نسلم أن النار خير من الطين؛ فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالواسطة، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها(٢).

➢ **سادسًا**: إن عبارة إبليس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فيها عدة أمور يجب على المسلم أن يبتعد عنها:

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١١، ٢١٢).
(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

أ ـ لو قالها المسلم، فمعنى ذلك أنه تكبر على غيره، والله ـ تعالى ـ أمر أحب الناس إليه بالتواضع؛ فقال له: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال عن المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ب ـ لو قالها المسلم، فمعنى ذلك أنه زكى نفسه ومدحها، والله ـ تعالى ـ قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ج ـ لو قالها، فمعنى ذلك أنه افتخر بأصله ونسبه كالشيطان حينما قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. ومعنى مقولته تلك عند الرازي: «أنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد له؟! وكيف أتواضع له[(١)]؟!».

ومن المعلوم أن التقوى هو الميزان الذي يرفع الإنسان المسلم في الدنيا والآخرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

> **سابعًا**: بيان أن العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة، ويسوقانه سوقًا إلى التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبر بأصله وامتنع عن السجود ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه!.

> **ثامنًا**: بيان جهل إبليس وحمقه حين غفل عما خص الله به آدم؛ من خلقه بيده، والنفخ فيه من روحه، وشرفه بسجود الملائكة له، وجعله أفضل من الملائكة ـ وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة ـ.

> **تاسعًا**: معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة؛ ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات؛ لنعتبر ونكون منها على غاية الحذر[(٢)]. ومعصية الكبر ـ أو ما يسمى (جنون العظمة) أو المخيلة ـ تؤدي في الغالب إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن المتكبر يرى غيره لا شيء؛ فيغمط الناس حقوقهم، ويرد الحق ولو كان مثل الشمس.

ذلك أن المعاصي نوعان: إما مخالفة أمر، أو ارتكاب نهي.

والشنيع الفظيع هو مخالفة الأمر؛ لأنه في الغالب لا يجري إلا من استخفاف

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (١/ ٤٠ ـ ٤١) د/ عبد الكريم زيدان.
(٢) صفوة الآثار (٢/ ٨٩).

بالأمر وانتقاص لجنابه، وعدم مبالاة به؛ ولذا كان منشؤه الاستكبار والغطرسة، كما جرى من ذنب إبليس الذي أرداه وأكسبه الشقاوة في الدارين؛ لأن عصيانه عن تكبر من خبث في نفسه جره إلى الكفر.

وعلى كلٍّ فترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المنهيات؛ لأن تركها منشؤه العزة والكبر. ثم إن فعل المأمور أحب إلى الله من اجتناب المحظور، فكل تارك لأمر من أوامر الله فهو وارث لإبليس؛ كتارك الصلاة فإنه من جند إبليس الذي قيل له: اسجد، فلم يسجد؛ ولهذا وردت النصوص بكفره ووجوب قتله[١].

➢ **عاشرًا:** بيان أن ما سلط به الشيطان على بني آدم لا يعدو أن يكون من المكايد الخفيّة والأسباب الدقيقة؛ ليعلم الناجي أنه إنما نجا بتوفيق الله ولطفه؛ لذا عليه أن يقبل على الشكر متبرئًا من حوله وقوته[٢].

➢ **الحادي عشر:** على المسلم أن يلجأ إلى الله ـ تعالى ـ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، ويكثر من إيرادها عند كل أمر ذي بال؛ فإذا أراد أن يقرأ القرآن فإن عليه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. وإذا ألقى الشيطان في نفسه وسوسة فإنه يشرع له أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأنه لا ينفع معه مداراة، ولا حسن كلام، ولا مقابلة إساءة بإحسان، ولا أي شيء آخر من أمور التلطف؛ إنما الذي يرضيه أن يطيعه في كل معصية لله، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]؛ أي: وإما يُلقينّ الشيطان في نفسك وسوسة ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة والانتقام منه، فاستجر بالله من وساوس هذا الشيطان ونزغه وشره؛ فإنه يسمع استعاذتك، ويعلم بحالك[٣].

والمسلم إذا أراد أن يجيره الله من الشيطان فعليه أن يكثر من ذكره ـ تعالى ـ ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، سرًّا وجهارًا، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

---

(١) صفوة الآثار (٢/ ٩٠).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٨٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٩).

﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ لأن الذكر يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن ويحيا به القلب... إلخ.

وفي الحديث: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[١].

❖ ❖ ❖

---

(١) رواه البخاري، باب فضل ذكر الله تعالى (٤/ ١٧٣)، برقم [٦٤٠٧].

ومن أراد الاستزادة من فوائد الذكر فليرجع إلى كتاب «الوابل الصيب من الكلم الطيب» ص(٥٦ ـ ١٢١).

عقوبة آدم وحواء عليهما السلام

ذكرت عقوبة آدم عليه السلام في ثلاث سور من القرآن الكريم صراحةً هي: سورة «البقرة»، سورة «الأعراف»، سورة «طه».

أما سور: «الحجر»، و«الإسراء»، و«الكهف»، و«ص» فلم تتعرض لعقوبة سيدنا آدم؛ وإنما فصلت عقوبة إبليس فقط، فلْيُعلم ذلك.

* * * * *

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت عقوبته وعقوبة زوجه من سورة «البقرة»

أولًا: سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] [البقرة: ٣٥ ـ ٣٨].

ثانيًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

(١) وقد ذكرنا لطائف الآيات فيما سبق عند ذكر عقوبة إبليس ـ لعنه الله ـ.

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾(1) [الأعراف: ١٩ ـ ٢٥].

ثالثًا: سورة «طه»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥ ـ ١٢٣].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

سيكون الحديث عن سبب العقوبة في النقاط التالية:

- **أولًا: آدم وزوجه في الجنّة.**
- **ثانيًا: تحذير الله لآدم وزوجه عليهما السلام من طاعة إبليس.**
- **ثالثًا: ضعف آدم وزوجه عليهما السلام أمام وسوسة إبليس.**

أولًا: آدم وزوجه في الجنّة:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

---

(١) وقد ذكرنا لطائف الآيات فيما سبق عند ذكر عقوبة إبليس.

بعد أن طرد الله إبليس من الجنّة لاستكباره وامتناعه عن السجود لآدم، أسكن الله ـ تعالى ـ آدم وزوجه الجنّة، وأطلق لهما حرية الأكل من الجنة من حيث شاءا، إلا من شجرة واحدة حددها لهما ونهاهما عن قربها والأكل من ثمرها؛ حتى لا يكونا من الظالمين. وفي هذا امتحان لهما ليظهر ما في استعدادهما وبنيهما من قوة الإرادة والثبات، أو الميل إلى المحظور لمعرفته واختياره أو الشغف به، ثم قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن فعلتما وتجاوزتما ما نهيتكما عنه، ولم يقل: فتكونا ظالمين؛ بل قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من العريقين في الظلم[1]، والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه؛ فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري به وتفضي إليه؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما في حديث رسول الله ﷺ، فظاهر النهي هو التحريم، والمنهي عنه الأكل من الشجرة، غير أنه ﷻ نهى عن قربانها مبالغة؛ ولهذا جعل ـ جل شأنه ـ العصيان مرتبًا على الأكل[2].

غير أن صاحب تفسير «غرائب القرآن» قال: «إن النهي عن الأكل من الشجرة كان نهي تنزيه؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة، والجواز ثابت بحكم الأصل، فإذا ضممنا هذا الأصل إلى مدلول اللفظ صار المجموع دليلًا على التنزيه، وهذا أولى؛ ليرجع حاصل معصيته إلى ترك الأولى، فيكون أقرب إلى عصمة الأنبياء»[3].

ولعله يشير بذلك إلى أنه لا يجوز في حق الأنبياء ارتكاب الكبائر، وهذا حق، ويمكن أن يرد عليه بأن آدم ما نبئ إلا بعد أن هبط إلى الأرض؛ إذ هي دار التكليف، أما وهو في السماء فما كان قد نبئ بعد، وأكله من الشجرة لم يترتب عليه عقاب أكثر من الخروج من الجنّة؛ لأنها ليست دار إقامة لمن يخالف فيها أمر الله تعالى[4].

والخلاصة: أن الله ـ تعالى ـ أسكن آدم وزوجه الجنّة، ونهاهما عن الأكل من

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٨٧).

(٢) انظر: تفسير المنار (٨/ ٣٤٦)، صفوة الآثار (٢/ ٨٦).

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٢٤٨).

(٤) انظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر الجزائري (١/ ٤٥).

شجرة معينة؛ اختبارًا منه - تعالى - وابتلاء لهما؛ ليمضي قضاؤه - تعالى - فيهما وفي ذريتهما.

ثانيًا: تحذير الله لآدم وزوجه عليهما السلام من طاعة إبليس:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥، والأعراف: ١٩].

وفي السورة الأخرى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

فالآية الأولى ذُكرت في سورتي «البقرة»، و«الأعراف» وتكررت للتأكيد على آدم من مغبة طاعة إبليس.

وأما آية سورة «طه» فقد كشفت لآدم عليه السلام العداوة الحقيقية التي تؤدي به في النهاية إلى إخراجه من الجنّة.

هذه رعاية من الله وعنايته؛ حيث نبه آدم إلى عدوه، وحذره عقب عصيان إبليس وامتناعه عن السجود له، ورغبه فيما عنده من خيرات الجنّة؛ فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩]، أما عداوته له فكان أولها بتكبره عن السجود، وحسده له حين أكرمه الله بهذه الكرامات وطرده منها، فكان زعمه أن آدم هو سبب بليته، ولا بد أن ينتقم منه ويخرجه منها؛ فكان لا بد أن يظهر سخطه من جهة كفره بالله - تعالى - أولًا، واعتراضه على قضائه ثانيًا، ثم محاولته إقامة الدليل على عدم استحقاق آدم لهذا التكريم كله ثالثًا.

فهذه ثلاثة أمور، واحد منها يكفي لكفره وإخراجه من الجنة، فالله - تعالى - ما ظلمه؛ وإنما حكم عليه بعدله عز وجل، وانتقامه من آدم وذريته ما هو إلا تحقيق لما قدر الله على آدم وذريته امتحانًا وابتلاء منه - تعالى -، فكان لا بد من تحذير آدم وذريته من مغبة طاعة إبليس وذريته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أي: إن فعلوا ذلك بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٤).

وقال سبحانه محذرًا لآدم أشد مما سبق: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، أي: إياك أن يسعى إبليس في إخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك؛ فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء لا كلفة فيه ولا مشقة ولا عناء[١].

ومما يدل على أن آدم لم يخلق للخلود في الجنة أنّ الله ـ تعالى ـ حذّره من الوقوع في شراك إبليس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وفي هذا إشعار له بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنّة؛ لأن المخلّد لا يحظر عليه شيء، ولا يُؤمر ولا يُنهى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فدل على خروجه منها[٢].

ثالثًا: ضعف آدم وزوجه عليه السلام أمام وسوسة[٣] إبليس:

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ أي: استزلهما بالوسوسة والإغراء اللذين لهما أعظم التأثير في القلوب. وقد أخبرنا عن طريقته في إغواء أبوينا بالكلام المعسول الذي يدخل القلوب، حيث غزاهما بدغدغة العواطف، وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب قائلًا لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وحلف لهما بالأيمان المكررة أنه ناصح لهما فيما يقول.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي: أنزلهما عن رتبة الطاعة والمقام الرفيع؛ حيث ظل يخدعهما بالترغيب في الأكل من الشجرة حتى أكلا منها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

لقد نجحت الخدعة وآتت ثمرتها المُرَّة حين نزلا وتنازلا عن طاعة الله إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٠). (٢) تفسير القرطبي (١/ ٣٠٤).

(٣) الوسوسة: هي حديث خفي مكرر يلقيه الشيطان في قلب الإنسان. انظر: تفسير البغوي (معالم التنزيل) (٣/ ٢١٩)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٨/ ٩٩).

معصيته تحت الضغط الشيطاني المشؤوم، لقد غرهما بالحلف الكاذب، وظنّ آدم وزوجه عليهما السلام أن لا أحد يحلف بالله كاذبًا.

قال قتادة[1]: «حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله».

وكان بعض العلماء يقول: «من خادعنا بالله خدعنا»[2]، وفي الحديث عنه ﷺ: «**المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم**»[3].

عندها نادى الله ﷻ آدم وحواء: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، بغروره ووسوسته، فما كان من آدم وزوجه إلا أن قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومن تأمل كيف وصلت وسوسة الشيطان إلى آدم عليه السلام مع علمه بعداوته، وجد للمفسرين أقوالًا كثيرة يغلب عليها التكرار، وأحيانًا التعارض.

وأحسن من لمح ذلك بثاقب ذهنه الإمام الرازي حيث قال: «لا يبعد أن يقال: إن إبليس لقي آدم مرارًا كثيرة، ورغبه في أكل الشجرة بطرق كثيرة، فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم عليه السلام»[4].

وأما عن كيفية حصول الوسوسة فالصحيح أننا لا نعلم كيف تتم؛ لأننا لا نعرف كنه الشيطان حتى ندرك أفعاله وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه؛ وإنما الذي نعلمه أنه يحصل إغواؤه بصورة من الصور وإيحاء له بارتكاب المعصية؛ حيث يدخل من نقطة ضعفه حتى يقع، نسأل الله العافية[5].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٥١)، صححه محمود شاكر، واستشهد به ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٣٩٤).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٨٠).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٩٤)، برقم [٩١٠٧]. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم [٤١٨]. ورواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في البخيل (٤/ ٣٤٤)، برقم [١٩٦٤] وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وكذلك رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة (٥/ ١٤٤)، برقم [٤٧٩٠].
والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان (١/ ١٠٣)، برقم [١٢٨]، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٤٥).

(٤) انظر: التفسير الكبير (١٤/ ٣٦).

(٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/ ١٢٦٨).

وهنا وقفة تأمل مع آية: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، مع أنه قال في سورة «الأعراف»: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ويعني أن الأمر لم يأت بالسهولة المتصورة حتى ذاقا، فكيف نسي؟ ولماذا عوتب؟

والجواب: قال ابن حزم ـ الفقيه المشهور ـ: «إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيًا بنص القرآن، ومتأولًا وقاصدًا إلى الخير؛ لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله؛ فيكون ملكًا مقربًا أو خالدًا فيما هو فيه أبدًا، فأدّاه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره؛ لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه»[(١)].

وقال الرازي: «في نسيان آدم قولان[(٢)]:

أحدهما: ما هو نقيض الذكر. وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان، وكان الحسن يقول: والله ما عصى قط إلا بنسيان.

الثاني: إن المراد بالنسيان: الترك. وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾؛ أي: لم نجد له عزمًا على التحفظ والاحتراز عن الغفلة».

والقول الراجح في هذه المسألة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس بأنه ناصح، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات؛ أحدها: القسم بالله. إلى أن قال: ولم يظنّ آدم أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا فظن صدقه، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنّة، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة، كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية[(٣)].

---

(١) تفسير القاسمي (٢/١٠٨) نقلًا من كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (٤/ ١٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٢٤).

(٣) انظر: تفسير القاسمي (٢/١٠٨)، وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٨/ ١٠٠).

وهذا ما أميل إليه؛ لكثرة ما يخطر ببال الإنسان إذا أراد فعل معصية فيفتي نفسه ليجد له مخرجًا، إضافةً إلى إثارة حب ما جبلت عليه النفس من بلوغ المراتب العالية، وحب الخلود في النعيم، والقسم الذي أقسمه له إبليس.

كل ذلك كان مسهلًا لوقوع آدم عليه السلام في نسيان ما عهد إليه[(١)]. والله أعلم.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

توضح الآيتان أنه لما أكلا من الشجرة الممنوعة أخذتهما العقوبة ـ وهما في الجنّة ـ؛ حيث سقط عنهما لباسهما الذي كان يستر عورتهما.

قيل: كان لباسهما الظفر[(٢)]. وقيل: كان لباسهما نورًا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه ولا العكس[(٣)].

والقول الصحيح: إنه لا دليل على نوع اللباس الذي كانا يلبسانه في الجنّة، ولم يصح به أثر عن المعصوم ﷺ[(٤)].

والمهم أنه سقط عنهما لباسهما، وشرعا يلصقان عليهما من أوراق الجنة ورقة ورقة ليستترا بها[(٥)].

---

(١) انظر: المستفاد من القصص القرآني (١/ ٢٠، ٢١).

(٢) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٢/ ١٢٧)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٥).

(٤) انظر: تفسير المنار المسمى (تفسير القرآن الحكيم)، لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٩).

(٥) انظر: المصدر السابق (٨/ ٣٥٠).

عندها جاء النداء الإلهي ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ؛ حيث حذرهما سابقًا من عصيان أمره، وأخبرهما أن الشيطان عدو لهما لئلا يطيعاه، فاعتذر آدم إلى الله وتاب وأناب ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. قالها آدم عليه السلام ودعا بها بخشوع وتضرع إلى الله ـ تعالى ـ. وهذا ما يدل عليه المقام وتقتضيه الحال من معنى كلمات آدم التي تلقاها من ربه، وهي التي أشير إليها في سورة «البقرة» في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] [البقرة: ٣٧].

لقد تاب الله على آدم وحواء عليهما السلام كما قلنا؛ ولكن هذه التوبة لم تمنع إخراجهما من الجنّة؛ لأن الله قال بعد دعائهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦، والأعراف:٣٧].

فكان هذا عقابًا آخر على تلك المعصية (معصية الأكل من الشجرة)؛ لكونها ظلمًا منهما لأنفسهما، وهو من نوع العقاب الذي قضت سنته ـ تعالى ـ في طبيعة الخلق أن يكون أثرًا للعمل السيء، مترتبًا عليه ترتب المُسَبب على السبب.

وأما النوع الآخر من العقاب عليه من حيث هو عصيان للرب ـ تعالى ـ الذي يكون في الآخرة، فقد غفره ـ تعالى ـ لهما بالتوبة التي ذهبت بأثره من النفس، وجعلتها محلًا لاصطفائه تعالى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[٢] [طه: ١٢١ ـ ١٢٢]؛ لتبدأ المعركة الخالدة إلى ميدانها الحقيقي، ما تهدأ لحظة وتفتر هنيهة بين الإنسان والشيطان.

وهكذا تحقق وعد الله ـ تعالى ـ وقضاؤه؛ ليكون آدم مخلوقًا لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، وما كان فيها من عقوبات إنما كان تربية لهذا الخليفة، وإعدادًا له؛ ليكون يقظًا لهذا العدو؛ يحذره كل حين[٣]، ويستعين عليه بالله عز وجل كلما نزغه نزغ، أو ألم به هم، أو قذف في قلبه ريب.

* * * * *

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٥١). والآية من سورة «طه»، برقم (١٢٢).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥٨، ٥٩).

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة سيدنا آدم عليه السلام

➢ **أولًا**: إن الله - تعالى - خلق آدم ليكون خليفة في الأرض؛ ليعبده هو وذريته؛ لأنها هي الغاية من خلقهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعبودية المطلوبة من الخلق لا تحصل في الجنّة؛ وإنما تحصل في الأرض موقع الابتلاء والامتحان[١].

➢ **ثانيًا**: إن الله - تعالى - جعل هذه القصة لنا معتبرًا، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيره إلى ما ترى، وحِرْص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك؛ ولكن رحمة الله تكمل الناقص، وتجبر الكسير، وتنجي الهالك، وترفع الساقط[٢].

➢ **ثالثًا**: إن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك، وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية كلها، واعتقدها وآمن بها جميع أتباع الأنبياء، حتى بغت في هذه الأزمان فرقة خبيثة متزندقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل، وأنكروا وجود الباري، وأنكروا خلق آدم وحواء، وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيوانًا قردًا أو شبيهًا بالقرد[٣] حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة؛ خصوصًا ما جاءتهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، ولكن تسرب إلى بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول؛ إذ فسرت طائفة من العصريين[٤] سجود

---

(١) صفوة الآثار (٢/ ١٠٠).

(٢) خلاصة تفسير اللطيف المنان ص(١٠٦).

(٣) وهي نظرية دارون.

(٤) ما ذهب إليه محمد عبده في تفسير المنار.

الملائكة لآدم أن معناه: تسخير هذا العالم للآدميين، وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة، ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأي الأفن، وأنه تحريف لكتاب الله لا فرق بينه وبين تحريف أهل البدع له، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن، وانقلب القرآن بعدما كان تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة رموزًا يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل؛ فيبطل بذلك القرآن، وتعود هدايته إضلالًا، ورحمته نقمة. سبحانك هذا بهتان عظيم!.

والمؤمن في هذا يكفيه لإبطال هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله، وإن زخرفه أصحابُه ولووا له العبارات، ونسبوه إلى بعض من يُحسن بهم الظن، فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغررة أو المغرور أصحابها بها[1].

➢ **رابعًا**: إن الله ـ تعالى ـ اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب ممتزج بداعي الشهوة والفتنة، وداعي العقل والعلم. والعقل والشهوة يتنازعان بمقتضياتهما ليتم مراده ﷻ، وليظهر لعباده عزته في حكمته ورحمته ولطفه في سلطانه وملكه؛ ولهذا كان من حكمته ورحمته أن يذيق أباهم وبال مخالفته، ويعرفه ما خفي عليه من عواقب إجابة الشهوة والهوى؛ ليكون بعد الهبوط أعظم حذرًا وأشد هروبًا من الهوى[2].

➢ **خامسًا**: إن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة كان أول عقوبة لهما ظهور سوءاتهما، فعمدا فورًا إلى سترها بورق الجنة، فدل على أن كشف العورات من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع، مستقبحًا في العقول[3].

قلت: وما يفعله كثير من الناس المنحطين في العصر الحاضر بتعمد كشف العورات وإظهار السوءات علنًا أو من وراء آلات التصوير انتكاس عن كرامة الإنسان وحرمته، وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزلقها.

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير المنان ص(١٤٢).

(٢) صفوة الآثار للدوسري (١/ ١٠٠). (٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٩٢).

➢ **سادسًا**: إن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنّة بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله[1]! فحرِيٌّ بالإنسان ألا يعرض نفسه للعقوبة العظيمة، ويتوب من أعماله السيئة قبل فوات الأوان.

➢ **سابعًا**: إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]. وما دام أنه عدو لنا عداوة أكيدة فإنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان، وألا يخنع له، وألا يأتمر بأمره؛ لأنه عدو، وكل عدو للإنسان فإنه يحمله على أسوأ الحالات[2]؛ إما تدريجيًا أو مباشرة؛ ولهذا حذرنا الله ـ تعالى ـ من الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

➢ **ثامنًا**: إن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يبتليهم بالأمر والنهي؛ ليختبرهم بالطاعة والانقياد وعكسهما، وبالإخلاص من الشرك، وبالصدق من النفاق، والجنّة ليست دار تكليف[3].

➢ **تاسعًا**: إن الله أراد أن يتخذ منهم رسلًا وأنبياء وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلى بينهم وبين عدوهم الشيطان وجنوده في هذه الحياة وامتحنهم بهم، فمن راغم الشيطان منهم، وآثر مراد الله على مراده، وبذل نفسه وماله في سبيل مرضاة ربه، نال من محبته ورضوانه والفوز بجواره في جنانه ما ليس ممكنًا أن يناله لولا ذلك أبدًا؛ فإن تحقيق حصر الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، وبذل النفس والنفيس في ذات الله، أمر لا يحصل من بعض البشر لولا إهباطهم إلى الأرض بمشيئته وحكمته[4].

➢ **عاشرًا**: إنه ـ سبحانه ـ هو الله المتفرد بعقوبة البشر في الآخرة، الآمر الناهي الذي لا يُرد قوله، ولا يُتوقف عند أمره، ولا يُسأل عما يفعل، المشرع لعباده، المثيب لهم، المعاقب والمعز والمذل، فاقتضت حكمته إنزال آدم وذريته إلى الأرض؛ لتظهر آثار ألوهيته وملوكيته؛ بإجراء تلك الأحكام الملكية عليهم

---

(١) أحكام القرآن الكريم (١/ ١٧٦).   (٢) أحكام القرآن الكريم (١/ ١٧٦).

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري (١/ ١٠٠).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٠٠).

التي يستحقون بطاعته وتنفيذ شريعته وإقامة حكمه مثوبته العاجلة في الدنيا من العز والنصر والتمكين والعيشة الراضية، ثم مثوبته الآجلة في جنان الخلد والنعيم، كما يستحقون عقوباته الشرعية والقدرية في الدنيا على مخالفة أوامره والإعراض عن حكمه ونبذ هدايته، ثم يسحبون إلى نار الجحيم في الآخرة[١].

< **الحادي عشر**: أنه لما كان سبحانه يحب الصابرين، ويحب الشاكرين والتوابين والمتطهرين والمحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا، اقتضت حكمته أن يجعل في الأرض من يعمل بمحابه؛ ليجازيهم عليها، وذلك نعمة منه وفضلًا[٢].

< **الثاني عشر**: أنه - سبحانه - أراد أن يتخذ من آدم وذريته من يواليهم ويوالونه، ويحبهم ويحبونه، ولا يحصل تحقيق تلك المحبة إلا بالمسابقة في مرضاته، والصدق معه في بيع النفس والمال، وترك ما يكرهه من الشهوة المحرمة، وهذا لا يحصل إلا في الأرض[٣].

< **الثالث عشر**: لما خلق الله - سبحانه - خلقه أصنافًا، وفضل آدم وذريته على كثير من خلقه، وجعل عبوديته الشرعية الاختيارية أفضل الدرجات، اقتضت حكمته إسكان آدم وذريته الأرض؛ لينالوا فيها تلك العبودية الشريفة التي لا يخرج منها إلا الذي يدخل في عبودية الشيطان، فيفوز من قام بعبودية الله مجاهدًا نفسه وهواه ومراغمًا للشياطين وكان من السعداء في الدنيا والآخرة من نال رضوان الله ووعوده التي لا تتخلف في الدارين[٤].

< **الرابع عشر**: أن الله - تعالى - اختار أن يذيق آدم وذريته من نصب الدنيا وغمومها وأوصابها وهمومها ما يعظم عندهم به مقدار دخول الجنّة المحفوفة بالمكاره، والتي لا تنال بدون ذلك، فيعودوا إلى الجنّة على أحسن حالة وأرفع درجة، والشيء يعرف بحسن ضده[٥].

< **الخامس عشر**: أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، والأرض فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، فعلم سبحانه أن في ظهره من

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ١٠١).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٠١).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٠١).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٠١).
(٥) المصدر السابق (٢/ ١٠٢).

لا يصلح لمجاورته في داره، فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، فمن كان معدنه طيبًا فعمل صالحًا وهو مؤمن كان أهلًا لجوار الله؛ ومن كان معدنه خبيثًا وعمل غير صالحٍ كان من أهل النار (دار الخبثاء)[1].

➢ **السادس عشر**: أنه ـ سبحانه ـ له الأسماء الحسنى، ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء، فاقتضت حكمته إنزال آدم دارًا يظهر عليهم فيها آثار أسمائه الحسنى، فيغفر فيها لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويستر على من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء... إلى غير ذلك من ظهور آثار أسمائه الحسنى التي من أجلها أيضًا قدر المقادير[2].

➢ **السابع عشر**: أنه لما كانت محبة الله وحده هي غاية الكمال والسعادة للعبد ولا كمال ولا سعادة له بدونها، وكانت المحبة الصادقة لا تتحقق إلا بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفس، واحتمال كل مشقة في طاعته ومرضاته، اقتضت حكمته ـ سبحانه ـ إنزالهم في الأرض المحفوفة بالشهوات التي بإيثار الله عليها والإعراض عنها تتحقق محبتهم له؛ ولهذا يحتمل العبد المشاق الشديدة، وركوب الأخطار في هذا السبيل، ولولا ذلك الإنزال ما عمل بمحبة الله[3].

➢ **الثامن عشر**: أنه ـ سبحانه ـ لا شيء أحب إليه من التذلل (تذلل العبد بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه)، وهذا لا يحصل إلا بالأسباب التي اقتضتها حكمته من إنزال آدم إلى الأرض، وإسكان ذريته فيه[4].

➢ **التاسع عشر**: الجنّة ليست دار تكليف، فما شرعه سبحانه من أمر ونهي كله تكاليف يمتحن الله بها العباد؛ ليظهر المؤمن، ويتميز عن الكافر ونحوه[5].

➢ **العشرون**: أن الله ـ تعالى ـ يحب من عباده أمورًا لا تحصل منهم إلا بحصول أسباب لا تكون إلا في الأرض، ولا تكون في الجنّة[6].

➢ **الحادي والعشرون**: أن الله ـ تعالى ـ جعل الجنّة دارَ جزاء وثواب، وقسم منازلها على قدر أعمال أهلها، ولهذا خلقها، وجعل النار دارَ جزاء أخرى

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ١٠٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٠٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٠٣).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٠٣).
(٥) المصدر السابق (٢/ ١٠٣).
(٦) المصدر السابق (٢/ ١٠٣).

للعصاة، وقسمها على قدر أهلها وكفرهم، فلا بد لكل دار من ساكن(١).

➢ **الثاني والعشرون:** أنه لما اختاره للأرض وعَلِمَ بسابق علمه أنه يطمع فيما لا يعرف عاقبته ـ لأنه خلق من عجل ـ أراد الله أن يربيه ويذيقه مرارة العجلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يريه النعيم في الجنّة؛ حتى لا يؤثر الدنيا على الآخرة.

➢ **الثالث والعشرون:** أن قبول الله ـ تعالى ـ توبة آدم فيها دحض لشبهات النصارى المدسوسة عليهم من شياطين الإنس من ماسونية(٢) وغيرها من كون خطيئة آدم يتحملها بنوه البشر جميعًا، وإن صلب عيسى بزعمهم الكاذب لتكفيرها عنه، فالله يقرر لنا أن الخطيئة فردية ناشئة عن حرص وشهوة وقوة إغراء وتلبيس من عدوه، فوفقه الله للتوبة وتاب منها فتاب الله عليه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فلم يبق لخطيئته أثر؛ لا على نفسه، ولا على أحد من ذريته أبدًا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فآدم تخلص من خطيئته بالتوبة المباشرة، واصطفاه الله بعدها؛ لحسن توبته وقبولها، وطريق التوبة مفتوح لكل مذنب من بني آدم، إذا تاب تاب الله عليه، ثم إذا كان صلب عيسى على زعمهم للتخلص من خطيئة آدم، فكيف يجعل عيسى كبش فداء من بين سائر الأنبياء والمرسلين وبني آدم أجمعين؟!(٣).

➢ **الرابع والعشرون:** أن يشهد بنو آدم حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه، وتهيئته أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه؛ ولكنه خلى بينه وبينه لحكم عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله ومنها(٤):

١ ـ أنه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم؛ فلذلك قضى على عبده بالذنب، فإن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة.

٢ ـ تعريف العبد عزة الله ـ سبحانه ـ في قضائه، ونفوذ مشيئته، وجريان حكمه.

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٢/١٠٣).

(٢) الماسونية: هي جمعية أسسها اليهود، هدفها القضاء على الإسلام، والسيطرة على العالم. المرجع (اليهودية والماسونية، للدوسري).

(٣) صفوة الآثار (٢/٩٩).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص(١٦٩) وما بعدها.

٣ ـ تعريفه حاجته إلى حفظه، وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولا بد، والشياطين قد مدت أيديها إليه تمزقه كل ممزق.

٤ ـ استجلابه من العبد استعانته به، واستعاذته به من عدوه وشر نفسه، ودعاءه والتضرع إليه والابتهال بين يديه.

٥ ـ إرادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار؛ فإنه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن أنّه وأنّه، فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلّت، وتيقن وتمنّى أنّه وأنّه..

٦ ـ تعريفه بحقيقة نفسه وعيوبها، وأن كل ما فيها من عِلمٍ أو عملٍ أو خيرٍ فمن الله، مَنّ به عليه لا منْ نفسه.

٧ ـ تعريفه بسعة حلمه وكرمه في ستره عليه؛ فإنه لو شاء لعاقبه على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يَصْفُ له معهم عيش.

٨ ـ تعريفه أنه لا نجاة من عقوبة الله ـ سبحانه ـ إلا بعفوه ومغفرته.

٩ ـ تعريفه كرمه في قبوله ومغفرته له على ظلمه وإساءته.

١٠ ـ إقامة الحجة البالغة على عبده، فإن عذبه فبعدله وببعض حقه عليه؛ وإن عفا عنه فبلطفه ورحمته.

١١ ـ أن يعامل عباد الله ـ تعالى ـ في إساءتهم إليه بما يحب أن يعامله الله به؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه.

١٢ ـ أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعها من البكاء والإشفاق والندم.

١٣ ـ أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته؛ فإن من تربى في العافية لا يعرف ما يعانيه المبتلى، ولا يعرف مقدار العافية.

١٤ ـ أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب إليه ورجع، ويوجب له مزيد محبة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة.

١٥ ـ أنه إذا شهد إساءته وظلمه استكثر القليل من نعم الله، واستقل الكثير من عمله؛ لتحصل له المغفرة لذنوبه الكثيرة، ولو لم يكن في فوائد الذنب وحِكَمِه إلا هذا وحده لكان كافيًا.

١٦ ـ أنّه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده، ويعرّفه من أين يدخل عليه، وبماذا يحذر منه، كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء وأن مثل هذا ينتفع به المرضى؛ لمعرفته بأمراضهم وأدوائها.

١٧ ـ أنه يرفع عنه حجاب الدعوى، ويفتح له طريق الفاقة؛ فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية؛ فإن دوام الفقر إلى الله مع الذنب والاعتراف به خيرٌ من الصفاء مع العجب.

١٨ ـ أن تكون في القلب أمراضٌ مزمنة لا يشعر بها، فيطلب دواءها، فيقضي عليه الله بذنب ظاهر، فيجد ألم مرضه، فيحتمي ويشرب الدواء النافع، فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها.

وكما قيل[(١)]:

لعل عتبكَ محمودٌ عواقبه ... وربما صحت الأجسامُ بالعللِ

١٩ ـ أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب؛ ليكمل له نعمته وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه وأقامه في طاعته، فيتلذذ بها التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال، والشديد الخوف بالأمن، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه، وإن لطف الرب وبره وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته!!

٢٠ ـ أن يمتحن العبد ويختبره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا؟ فإذا وقع في الذنب وقع في الوحشة، وسلب حلاوة الطاعة والقرب، فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه للذة الطاعة، فحنّت وأنّت وتضرعت واستعانت بربها ليردها إلى ما عوّدها من بره ولطفه، فإن أعرضت ولم تحنّ ولم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله.

٢١ ـ أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو لبعضها، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي كان ملكًا، فالذنب من موجبات البشرية، كما أن النسيان من موجباتها، قال النبي ﷺ: **«كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»**[(٢)]، ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك.

---

(١) قائله: المتنبي (أحمد بن الحسين). انظر: ديوانه (٣/ ٢٦٠) بشرح البرقوقي.

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٤٩) ـ (٤/ ٦٥٩)، برقم [٢٤٩٩] وقال: هذا =

٢٢ ـ أن يشغله برؤية ذنبه، وينسيه رؤية طاعته؛ فإن الله إذا أراد بعبد خيرًا سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينه حتى يدخل الجنّة.

قال بعض السلف: إنّ العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنّة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينه، إذا ذكرها ندم واستقال، وتضرع إلى الله، وبادر إلى محوها، وانكسر وذل لربه، وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه، يراها ويمنّ بها، ويعتد بها، ويتكبر بها حتى يدخل النار.

٢٣ ـ أنه يوجب له الإحسان إلى الناس، والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين، فيصير دعاؤه ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، فهو يعرف أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به، ويحتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم.

٢٤ ـ أنه يوجب له الإمساك عن عيوب النّاس والفكر فيها، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النّاس، وويل لمن تفرغ لعيوب النّاس، فالأول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة.

٢٥ ـ أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه؛ فإنه إذا كان مسيئًا مخطئًا مذنبًا مع ربه مع إحسانه إليه وبره ومع هذا فهو لا يستغني عنه طرفة عين، فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟! وكيف يطمع أن يطيعه رعاتُه من مملوك وولد وزوجة فيما يريد وهو مع ربه ليس كذلك؟! فهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم[١].

= حديث غريب لا نعرفه إلّا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة. ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/ ١٤٢٠)، برقم [٤٢٥١]. وانظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزبيدي (١/ ٤٠٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٠٥).

(١) تابع كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين ص(١٦٩) وما بعدها.

➢ **الخامس والعشرون:** إثبات الأسباب، لقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]. وسبب هذا الإخراج أنه لما أكل هو وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وأمرهما الله ـ تعالى ـ بالخروج منها؛ لأنه من المعلوم أن للأسباب تأثيرًا في مسبباتها، لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ لأن الذي أخرجهما هو الله ﷻ، وأمرهما أن يهبطا من الجنّة، والسبب في هذا الإخراج هو الشيطان، فنسب الإخراج إليه لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها؛ ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله ﷻ، فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة، فمن هنا كان من فوائد هذه القصة إضافة الشيء إلى سببه(١).

➢ **السادس والعشرون:** أن الأرض هي مستقر بني آدم؛ بل مستقر آدم وبنيه، لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. ثم إن هذا المستقر والمتاع لن يدوم ولن يؤبد، لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء؛ لأن هذا المؤجل ينطوي بسرعة، ولا يعود مرة أخرى؛ فلهذا يجب علينا أن نستعد وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله ﷻ(٢).

❖ ❖ ❖

(١) أحكام القرآن لابن عثيمين ص(١٧٤، ١٧٥).
(٢) المصدر السابق.

عقوبة قابيل

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تحدثت عن ذلك

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]، معنى ابني آدم: ولداه. وأما ابن آدم مفردًا فقد يراد به واحد من البشر؛ نحو أكثر بدايات الأحاديث القدسية «يا ابن آدم»، أو مجموعًا نحو: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾[1] [الأعراف: ٣١].

> **ثانيًا:** في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، أي: بالغرض الصحيح؛ لا لمجرد التفكه واللهو. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى ما لحق بالقصة من زيادات زادها أهل القصص من بني إسرائيل في أسباب قتل أحد الأخوين أخاه[2].

---

(١) وانظر المرجع في ذلك: التحرير والتنوير (٦/ ١٦٨).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٦٩).

➢ **ثالثًا**: في قوله: ﴿قُرۡبَانٗا﴾ [المائدة: ٢٧]، معنى ما يتقرب به المرء إلى ربه من صدقة أو نسك أو صلاة، إذًا فهو مشتق من القربات، فتقول: قرب قربانًا، ونسك نسيكة، وضحى أضحية، وعق عقيقة، وليس معنى ﴿قُرۡبَانٗا﴾ بمعنى: أدنيا؛ إذ لا معنى لذلك هنا(١).

➢ **رابعًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ [المائدة: ٢٧]، فلمَ لمْ يقل: قربا قربانين، كما قد حصل فعل ذلك؟

والجواب: أراد الجنس؛ فعبر عنه بلفظ المفرد، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: ١٧]، والعرب تطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾(٢) [ق: ١٧].

➢ **خامسًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يَرِدُ سؤال هو: كيف صح أن تكون هذه الآية جوابًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ [المائدة: ٢٧]؟

والجواب: أنه لما حمله الحسد على توعد أخيه بالقتل قال ذلك كناية عن حقيقة الجواب الذي معناه: إنك ما أُتيت إلّا من قبل نفسك؛ لانسلاخها من لباس التقوى؛ لا من قبلي، فلِمَ تقْتُلني(٣)؟

➢ **سادسًا**: لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾ الآية [المائدة: ٢٨]؟

والجواب: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع؛ ولذلك أكده بالباء الموكد للنفي(٤).

➢ **سابعًا**: إن قيل: كيف قال هابيل لقابيل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾(٥) [المائدة: ٢٩]؟

والجواب: أن معناه: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إيّاي وإثمك

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٩).

(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(١١٤).

(٣) المصدر السابق ص(١١٤).

(٤) تفسير الكشاف (١/ ٦٢٤)، وانظر: التفسير الكبير (١١/ ١٦٢، ١٦٣).

(٥) انظر: المصدر السابق ص(١١٤).

السابق في أعمال سواه[1]. وتفصيله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله؛ بل يكفّ عنه يده طالبًا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه[2].

➢ **ثامنًا**: كان مقتضى الإيجاز أن يحذف ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠]، ويقتصر على قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٠]، لكن عدل عن ذلك لقصد تفظيع حال القاتل في تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه؛ إذ حدثته بقتل من كان شأنه الرحمة به والرفق، فلم يكن ذلك من الإطناب[3].

➢ **تاسعًا**: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، يرد سؤال: أليس في ندمه معنى التوبة، فلم لمْ تقبل توبته؟

والجواب من وجوه[4]:

أولها: أن الندم توبة خصت به أمة محمد ﷺ.

الثاني: أنه ندم على قتل أخيه؛ لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه أبواه، فندمه لذلك؛ لا لكونه معصية.

الثالث: أنه ندم على حمله؛ لا على قتله، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم؛ إذ كان ندمه عن عدم جدوى فعلته، وما أعقبه له من تعب وعناء وقلق.

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

حسده لأخيه ثم قتله

قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5] [المائدة: ٢٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/٢١٦ ـ ٢١٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٧). (٣) التحرير والتنوير (٦/١٧٢).

(٤) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٦٧)، الكشاف (١/٦٢٦)، التفسير الكبير (١١/٢١٠)، تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢/٣٢).

(٥) قال الشوكاني: اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين، هل هما لصلبه أم لا؟. فمذهب الجمهور إلى الأول، وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني وقالا: إنهما كانا من =

توضح الآية أن ابني آدم قربا قربانًا معينًا ـ لا نبحث في تفاصيله ـ حيث قرب هابيل أحسن ما عنده، وقرب قابيل أردأ ما عنده، فتقُبل قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل، فحسده لذلك وهدده بالقتل؛ لقبول قربانه، فقال أخوه: وما ذنبي؟! إنما يتقبل الله من المتقين ـ أي: ممن اتقى الله في فعله[1] ـ وأنت إنما أتيت من قبل نفسك السيئة؛ لا من قبلي، فلِمَ تقتلني؟! وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب للقبول[2]؟!

ثم أخذ يعظه ويتلطف معه؛ علّه يتوب لرشده، وينزع عن غيه، فقال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، أن يعاقبني، وإن كان ذلك لدفع عداوتك عني، فما ظنك بحالك وأنت البادئ؟!

فلم يُجدِ ذلك معه، فأخذ يحذره ويخوفه من عذاب الله ـ تعالى ـ، فقال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]، إن عقدت عزمك ومضيت في تدبيرك، فإني أترك الأمر لله مخافة أن يلحقني إثم، أو يتعلق بنفسي أثر العصيان، فتحمل وحدك الإثم ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]. قال هذا بعد أن غلب على ظنه أنه قاتله، فانظر إلى تحذيره إياه وتخويفه؛ حيث خوفه بالله فلم ينفع؛ لأن الله في نفسه غير آبه به. وحذره من حمل إثمه وإثم قتله فلم ينفع؛ لأن المقدم على فعل المنكر لا يهمه الإثم. وخوفه من أن يكون من أهل النار لأنه ظالم، هنا يتردد في قتل أخيه، وكلمات أخيه لا يزال يسمعها وتحدثه نفسه بها؛ ولكن سرعان ما تأمره نفسه الأمارة بالسوء بقتل أخيه، وتشجعه على العودة في التفكير في ذلك، فنفسه بين إقدام وإحجام، مرة يُقدم ويحب أن يقتل، ومرة يحجم ويجد ما يصرفه عن ارتكاب جريمته، وهذا الحس وهذا التفكير يؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل

= بني إسرائيل، فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة، فتقربا بقربانين، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال ابن عطية: وهذا وهم، كيف يجهل صورة الدفن أحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟! قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسمهما قابيل وهابيل. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٢/ ٣٠)، ط. أم القرى.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥).

(٢) تفسير الكشاف (١/ ٦١٤).

والقرابة والهيبة، ولكن ما إن يذهب هذا الصارف حتى تعود نفسه الشريرة وتندفع وتقع في الجريمة، وأخوه لا يدفع عن نفسه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾[1] [المائدة: ٣٠]، طوعت له نفسه وصرفت عنه كل مانع، وذللت له كل الصعاب، وقتل ولكن من قتل؟! قتل أخاه؛ فيا لخسارته! خسر نفسه فأوردها المهالك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ لقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير[2]، وصدق الله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، وتحيّر في أمره ماذا يفعل به؟ لقد غدا جثة هامدة لا حراك فيها، فحمله علّه يجد طريقة يهتدي إليها فيخفي معالم جريمته، وبينما هو كذلك لا يدري ما يفعل؛ حمله لا يفيد، وتركه لا يفيد، لقد حنّ عليه الآن وندم، ويخاف أن تأكله الهوام والدواب وهو ينظر، فبعث الله غرابًا يبحث بمنقاره في الأرض؛ ليدفن فيها غرابًا آخر ميتًا، ففطن ابن آدم القاتل لأمره، واهتدى لفعلته، فقال: يا حسرتي ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة: ٣١]، فأدفن أخي مثله!

وهكذا دفن أخاه ليواري سوءته[3] في عجالة من أمره متعلمًا من الغراب، وليعلّم الله أهل السوء أنهم أحط من الحيوان حين ينزلون في تفكيرهم وخبثهم إلى ما حرّم الله عليهم من الكفر بالله، والصد عن سبيله، وإيذاء أوليائه، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أخرج ابن جرير عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ

(١) وعند البغوي في تفسيره: قتله وهو مستسلم، وقيل: اغتاله، وهو في النوم (٦/ ٤٤).

(٢) انظر: تفسير المنار (٦/ ٣٤٥)، في ظلال القرآن (٢/ ٨٧٦).

(٣) السوءة: المراد بها العورة. وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأن سترها أوكد.

وقيل: جميع جيفته؛ فإن كله عورة، ولذلك كفن بالأكفان. قال ابن عطية الأندلسي: ويحتمل أن يراد بالسوءة: الحال التي تسوء الناظر بمجموعها، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة؛ لا على جهة الغض منه؛ بل الغض لاحق للقاتل؛ لأنه هو الذي أتى بالسوءة. اهـ. انظر: البحر المحيط (٣/ ٤٨٠).

أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[1] [المائدة: ٣١]».

وهكذا شاء الله وأراد أن يوقفه أمام عجزه - وهو الباطش القاتل - عن أن يواري سوءة أخيه، عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير[2].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

لا يتصور القاتل العقوبة الدنيوية حين الهم أو الإقدام على القتل؛ بل همه أن يقضي على هذا البنيان الإلهي بأي وسيلة كانت، وإن فكر أو تردد فسرعان ما يعود إلى سابق عهده، وكل ذلك من وساوس الشيطان، فإذا نفذ جريمته صار خائفًا متوجسًا نادمًا حائرًا، يبحث عن مخرج يتمنى أنه ما فعل، يعض أصابع الندم ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وهذا ما حصل للقاتل قابيل.

كان أول ما ذكر الله عنه أنه أصبح من الخاسرين بعد قتل أخيه وإخماد أنفاسه ظلمًا وعدوانًا؛ حيث حكم الله عليه بالخسران وسوء المصير. ثم انظر إلى التعبير القرآني ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، بعد أن كان في فسحة من أمره، وأي خسارة أعظم من هذه بعد الشرك بالله ﷻ؟ لقد أسخط ربه، وصار إلى النار.

ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**»[3].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن معنقًا**

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٢٢٦)، الدر المنثور (٢/ ٤٨٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨) ص(١٧٦).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٨٧٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]، (٤/ ٢٦٥)، برقم [٦٨٦٤].
ورواه مسلم، كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (٣/ ١٣٠٤)، برقم [١٦٧٨].

صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا..»(١).

ثم ذكر الله حيرته حتى رأى الغراب يحثو على أخيه. وقد ذكر المفسرون في حمله لأخيه بعد قتله مدة طويلة لم يرد بها نص أو أثر صحيح؛ إنما الذي أخبرنا الله عنه أنه رأى غرابًا يبحث في الأرض يواري غرابًا آخر؛ ليعلّمه كيفية الدفن بعد قتله، ولم يحدد مدة لذلك.

ثم ذكر ثالثًا: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، وندمه - كما سلف ذكره(٢) - لم يكن ندم توبة؛ إنما كان لما أصابه من عدم الانتفاع بقتل أخيه وسخط أبويه.

وأما عن عذابه في الدنيا فقد ذكر المفسرون أنواعًا عديدة من العذاب؛ بل وكلامًا متباينًا لا يصح(٣)، والذي صح في عقوبته ما رواه ابن مسعود ﵁ قال:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب تعظيم قتل المؤمن (٤/ ٤٦٣)، برقم [٤٢٧٠]. ومعنى معنقًا: مستعفًا.

(٢) عند ذكر لطائف آية ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

(٣) منها: ما رواه ابن جرير بسنده (١٠/ ٢١٨) قال: «عُلقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذٍ، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج». وفي سنده القاسم بن الحسن. قال محمود شاكر محققه: إنه لم يجده. وقد ترجم الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٧٠)، برقم [٦٨٠٠]، ط. دار المعرفة، للقاسم بن الحسن الهمداني الفلكي عن ابن وهب الدينوري أنه تكلّم فيه ولم يترك.
وأيضًا في سنده الحسين بن داود المصيصي (هو سنيد بن داود) قال في الميزان (١/ ٥٣٤): وهّاهُ النسائي. وقال ابن حجر (أحمد بن علي) في كتابه تقريب التهذيب، ص(٢٥٧)، ط (دار الرشيد): ضُعّف مع إمامته ومعرفته، لكونه كان يلقن حجاج بن محمد شيخه.
وعند البغوي (أنه اسود جسمه بعد قتله أخاه) بدون سند.
وقال مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ﵄: لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتاك الشجر، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأمرّ الماء، واغبرت الأرض.
وقد ضعف مقاتلَ بن سليمان غيرُ واحد من الأئمة؛ منهم: الإمام أحمد بن حنبل، حيث قال: «لا يعجبني أن أروي عن مقاتل بن سليمان شيئًا». وقيل: كان يروي عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما. ومن استحسن تفسيره كان يقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة». انظر: التفسير والمفسرون د/ محمد بن حسين الذهبي (١/ ٨٠، ٨١).
وفي كتاب (الفتن)، لمؤلفه أبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي قال: حدثنا بقية بن =

قال رسول الله ﷺ: **«لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سنّ القتل»**(١).

لأن من سن شيئًا كتب له أو عليه، وقد بوب البخاري في ذلك بابًا بقوله: «باب إثم من دعا إلى ضلالة، أو سن سنة سيئة»(٢). لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]. وفي الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**(٣)، وقوله ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»**(٤).

فهذه الأحاديث تدل على أن ابن آدم القاتل عليه من وزر كل جريمة قتل إلى يوم القيامة، وما أخطأ من قال: «إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة، العذاب عليه شطر عذابهم»(٥). فاللهم إنا نسألك العافية!

وبعد هذه الأحاديث والأثر يظهر أن قابيل عوجل بالعقوبة؛ لأن النبي ﷺ

= الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن فضالة قال: لما قتل قابيل هابيل مسخ الله عقله، وخلع فؤاده، فلم يزل تائهًا حتى مات. (١/ ٦٥)، ط. دار التوحيد، وفي سنده ابن أبي مريم، ضعفه ابن حجر في التقريب ص(٦٢٣).
وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (من عاش بعد الموت) قصة ضعيفة جدًا يذكر فيها: أن رجلًا رأى ابن آدم القاتل معلقًا منكوسًا على رأسه، يريد أن يشرب الماء من بركة فلا يستطيع. انظر في الكتاب: ص(٤٧)، ط. مكتبة السنة.

(١) رواه الجماعة سوى أبي داود. رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته ٦/ ٤٥٢، برقم [٣٣٣٥]. ومسلم، كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل (٣/ ١٣٠٣)، برقم [١٦٧٧]. والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الدال على الخير كفاعله (٥/ ٤١)، برقم [٢٦٧٣]. والنسائي، كتاب تحريم الدم ٧/ ٨٤، برقم [٣٩٨٥].

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٣٦٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/ ٢٠٦٠)، برقم [٢٦٧٤].

(٤) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/ ٢٠٥٩)، برقم [١٠١٧].

(٥) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٢١٨) موقوفًا، الدر المنثور موقوفًا (٢/ ٤٨٨)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص (٤/ ٣٤٠).

قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[1]. وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا. فإنا لله وإنا إليه راجعون[2]!

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من قصة قابيل

➢ **أولًا**: مشروعية التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بما يحب أن يتقرب إليه ـ سبحانه[3] ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ [المائدة: ٢٧].

والقربان: ما يتقرب به إلى الله، وصار في التعارف اسمًا للنسيكة التي هي الذبيحة[4]. وفي آيات الكتاب العزيز قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٣٤].

➢ **ثانيًا**: إنما يتقبل الله من المتقين. التقوى أساس لكل طاعة، فهي تشتمل على ركني القبول: الإخلاص لله ـ تعالى ـ، والمتابعة لهدي النبي ﷺ. والله ـ تعالى ـ لا يقبل طاعة إلا من مؤمنٍ متق، لقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

فاشترط مع العمل الصالح الإيمان. والله ـ تعالى ـ قال: (يتقبل)، ولم يقل:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٥٧) (٤/ ٦٦٤)، برقم [٢٥١١].
ورواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي (٥/ ٢٠٨)، برقم [٤٩٠٢].
وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البغي (٢/ ١٤٠٨)، برقم [٤٢١١].
والحاكم، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل (٢/ ٣٨٨)، برقم [٣٣٥٩].
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم [٩١٨].
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨ ـ ٤٩).
(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (١/ ٥٢٣).
(٤) معجم مفردات القرآن ص(٤١٤).

يقبل؛ لأن التقبل أخص من القبول؛ لأنه ترقّى فيه إلى العناية بالمقبول، والإثابة عليه[١].

➢ **ثالثًا:** كان الحسدُ سببَ أول جريمةٍ قتل في البشر، فهو أصل المفاسد والمعايب والرذائل في المجتمع، فالأمة المتحاسدة أمة متمزقة متعادية متباعدة، لا تجتمع على خير، ولا تلتقي على فضيلة، ولا تتعاون على بر وصلاح، فيهوي بها إلى الذل والهوان والضعف، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء. والبغضاء: هي الحالقة. أما إني لا أقول: تحلق الشعر؛ ولكن تحلق الدين**»[٢]. ثم إنه يرد هنا أسئلة:

إذا كان الحسد يؤدي بالمجتمعات إلى الهلاك والدمار، فما الحسد؟ وما أسبابه؟ وما عِلاجه؟

قال العلماء: الحسد: هو تمني زوال نعمة الغير. بمعنى: إذا أنعم الله على أحد بنعمة، فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد، وإن أردت مثلها فهذا هو الغبطة. أما الأولى فحرام على كل حال، إلا نعمة أصابها فاجر يستعين بها على الشر والفساد، فلا تضرك محبتك لزوالها؛ لأجل فجوره وفساده[٣].

وله مراتب أربع:

الأولى: أن يحب زوال تلك النعمة عن المحسود ـ وإن كان ذلك لا يحصل له ـ، وهذا غاية خبث الحسد.

الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة إليه وأن تكون له لا للمحسود.

الثالثة: أن يشتهي لنفسه مثلها، ولا يشتهي زوالها عنه بادئ الأمر؛ لكن إذا لم يحصل له مطلوبه حسده وتمنى زوالها عنه.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها، وهذا معفو

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٣٤٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٦، برقم [٢٥١٠] (٤/ ٥٧٣). ورواه الإمام أحمد (١/ ١٦٥، ١٦٧). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠) وقال: ورواه البزّار وإسناده جيد. وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٠٧) برقم (٢٠٣٨).

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري (١/ ٣٥).

عنه، والثالث بين الذم والمدح، والثاني على خطر، والأول هو المذموم الخطير(١).

* **أسبابه:**

ذكر العلماء للحسد سبعة أسباب:

أحدها: العداوة والبغضاء؛ سواء كان عدوانًا أو بسبب إيذاء.

ثانيها: أن ينال أحدٌ منصبًا عاليًا فيحسده ويريد زوال ذلك عنه، وقد يسعى بقدرته لذلك.

ثالثها: أن يكون من طبيعته استخدام غيره، فيريد زوال النعمة عمن يستخدمهم.

رابعها: التعجب، كما حكى الله عن أعداء رسله أنهم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧].

خامسها: الخوف من فوت المقاصد، كالمتزاحمين على صنعة واحدة أو وظيفة واحدة؛ فإن كلًّا منهما يحسد صاحبه على كل نعمة تكون عونًا له في الانفراد بمقصوده.

ومنها - أيضًا -: تحاسد الضرات، والإخوة عند الوالدين لنيل منزلة عندهما.

سادسها: حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه، كالذي يكون يسمع بنظير له - ولو بعيدًا - ساءه ذلك وأحب هلاكه وزوال نعمته أو سلطانه.

سابعها: شُح النفس بالخير على عباد الله. وهذا أكثر أنواع الحسد(٢).

* **أما عن علاج الحسد فسنتناوله من جهة الحاسد أولًا، ثم من جهة المحسود ثانيًا.**

أولًا: من جهة الحاسد.

ينبغي للحاسد أن يعلم أن من لوازم صحة إيمانه بالله - تعالى - الرضاء بقضاء الله وقدره، وأنه بحسده لا يكون راضيًا بقضائه، بل يكون ساخطًا لحكمه

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٠٦).

وقضائه، منازعًا له في قسمته التي قسمها لعباده، وعدله الذي أقامه بينهم، وهذه جناية تقدح في أصل التوحيد والإيمان، هذا **من جهة**.

ومن **جهة أخرى**: على الحاسد أن يعلم أنه إذا غش مؤمنًا لأجل الحسد خرج من صفة المؤمنين الذين يحبون لإخوانهم الخير، وشارك إبليس وجميع الكافرين في محبتهم الشر للمؤمنين.

ومن **جهة ثالثة**: فإنه إذا عادى مؤمنًا لأجل الحسد كان مبارزًا لله بالمحاربة.

ومن **جهة رابعة**: يجب عليه أن يتذكر عقاب الله العظيم للحاسد في الآخرة.

ومن **جهة خامسة**: يجب عليه أن يرحم نفسه ويرثي لها من آثار الحسد؛ من الهموم والغموم والكمد الذي لا يفارق قلبه وصدره مما قد ينقلب عليه مرضًا عضالًا. فإذا علم الحاسد واستيقن أن الضرر عليه في دينه ودنياه، وأن حسده لا يضر محسوده؛ بل يضره هو، فقد يقلع عن الحسد، ويسلم صدره منه، فيسلم له دينه، وتسلم له صحته؛ حيث يسلم من الوساوس والمنغصات والهموم والغموم المؤذية بالصحة، والعياذ بالله!

ومن **جهة سادسة**: يجب على الحاسد أن يستيقن أن المحسود لا يزال في نعمة من الله وفضل؛ سواء من نعم الله التي تنزل عليه وهو في الدنيا، أو مما يدخره الله له من الأجر والمثوبة في الآخرة؛ لكثرة ما يذكره من مساوئ له أمام الناس وفي مجالسهم، فإذا علم أن ذلك يزيد في حسنات المحسود، وينقص من سيئاته، إذا عرف كل هذا واستيقن أنه هو الخاسر دونه، أقلع عن حسده وتاب إلى ربه(١).

وبعد هذا كله فَحَرِيٌّ بالمسلم أن يقتدي بأصحاب النبي ﷺ من الأنصار الذين مدحهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأثنى عليهم بعدم الحسد»(٢).

* وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا يجدون حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. وقال الحسن: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/٣٠٧). وانظر: أدب الدنيا والدين ص(٤٢٦ : ٤٣٢).
(٢) تفسير الرازي (٣/٢٣٨).

﴿صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ يعني: الحسد[1]. بل إنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم»[2].

ثم إن على الحاسد ـ وهو يسمع قصص أولئك الأخيار ـ أن يخجل من نفسه، ويستحي من التمرغ في أقذار الحسد، ويدعي أنه من المؤمنين، فلا يليق به أن يبقى في هذا المستوى الهابط، ومن سبقوه من أهل الإيمان قد وصلوا إلى مرتبة الإيثار[3]. فما بالك لو قيل لهذا الحاسد: تصدق، أو ضيّف ضيفًا، أو أقرض فلانًا قرضًا، فماذا يكون شعوره؟ بل فماذا يتوقع منه لو جاء إليه من حسده وقد ألمت به حاجة؟ فالجواب: أنه يتوقع منه التشفي منه، والغيبة فيه ونشر خبره بين الناس، فاللهم لا تشمت بنا عدوًّا ولا حاسدًا!.

ثانيًا: علاج الحسد من جهة المحسود.

* **الأول:** الاستعاذة الصادقة بالله من شر حاسد إذا حسد، ومن فعل ذلك صادقًا لاجئًا أعاذه.

الثاني: الالتزام بتقوى الله ـ تعالى ـ، وحفظ حدوده، فمن حفظ الله حفظه.

الثالث: التوبة الصادقة من الذنوب التي من أضرارها تسليط الحاسد.

الرابع: الصبر على عدوه الحاسد، وعدم التعرض له بأذى أو شكوى؛ بل يكل أمره إلى الله، ويستعين به عليه:

اصبر على كيد الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله[4]

الخامس: قوة التوكل على الله، والتحصن بملازمة كثرة الذكر.

السادس: أن يفرغ قلبه من الاشتغال بالحاسد والتفكر به؛ بل يقتلعه من قلبه ولسانه، ويجعله نسيًا منسيًّا.

السابع: الإقبال على الله بقوة محبته، والإخلاص له، والإنابة إليه، والضراعة إليه وحده.

---

(1) زاد المسير (٧/ ٣٣٨). (2) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٢).
(3) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (١/ ١٢٥).
(4) انظر: ديوان ابن المعتز ص(٣٨٩) ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

الثامن: من الأمور التي لها تأثير عجيب في دفع البلاء ونزول الكرب: الصدقة، والإحسان.

التاسع: الإحسان إلى الحاسد قدر المستطاع ومهاداته؛ لعل ذلك يطفئ حسده، ويليّن قلبه، وهذا شاق[1] ولكن اتباعًا لأمر النبي ﷺ **«تهادوا تحابوا»**[2].

وعلى هذا فإنه ينبغي للدعاة وخطباء المنابر والعلماء التحذير من داء الحسد، فقد لا ينصاع الحاسد من أول مرة؛ وإنما إذا كثر ذلك وسمعه من هؤلاء جميعًا فقد يلين قلبه، ويرجع إلى رشده، ونحن جميعًا مطالبون بالنصح والإرشاد؛ ولكن من الباب الذي يحب هو؛ لا ما يحب الداعية؛ لأن غرضه هو انتشاله من أوحال الحسد، وإخراجه إلى الصفاء والنقاء المتمثل في الجماعة المسلمة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

➢ **رابعًا**: ومما يستفاد: أن الآيات تشير إلى أنّ أول من سن القتل والعدوان هو قابيل، وأن عليه جزءًا من إثم كل نفس تقتل ظلمًا إلى يوم القيامة[3].

قلت: وهكذا تتابعت بعد هذه الجريمة النكبات والمآسي والمذابح البشرية الجماعية، كل ذلك بسبب الحقد والحسد والبغي، ولم تتوقف حتى يومنا هذا؛ بل ازدادت حدة بعد اكتشاف الأسلحة الفتاكة (الكيماوية، والنووية، والأسلحة الآلية)، ولا نعلم ماذا سيأتي بعد هذه الاكتشافات؛ لكننا كل يوم ـ تقريبًا ـ نسمع عن مذابح يصل ضحاياها إلى الآلاف من البشر، وتكتشف المقابر الجماعية لرفات مئات من البشر أبيدوا جماعيًا ولم يعلم عنهم إلا بعد حين من الدهر،

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري (١/ ٣٠٨).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب قبول الهدية، ص(٢٠٥)، برقم [٥٩٤]، سنة١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

ورواه البيهقي، كتاب الهبات، باب التحريض على الهبة والهدية صلة بين الناس (٦/ ١٦٩)، ط. دار المعرفة، سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٦/ ١١٦).

وانظر: فيض القدير على الجامع الصغير للمناوي (٣/ ٢٧١).

وانظره في: تلخيص الحبير (٣/ ٨٠). وقال عنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: إنه حسن (٣/ ٥٦).

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (١/ ٥٢٣).

وهكذا ترخص الدماء ويستباح القتل تحت اسم أي شعار لا يمت للدين بصلة، وخذ مثالًا على ذلك ما يحصل للمسلمين في بقاع الأرض من تشريد وقتل وظلم، لا لأجل شيء؛ وإنما لأجل أنهم مسلمون[1].

< **خامسًا**: تشير الآيات إلى أول دفن في الإنسانية، وكيف أن الدفن في التراب كان وحيًا من الله ـ تعالى ـ عن طريق عمل الغراب، وحكمة ذلك إرشاد الإنسان إلى أن الدفن يمنع انتشار الأمراض، وبجانب ذلك فإنه إكرام للميّت[2].

< **سادسًا**: خير ابني آدم المقتول ظلمًا، وشرهما القاتل ظلمًا[3].

< **سابعًا**: قلت: لا مانع من أن يتعلم الإنسان ممن حوله إذا كان في ذلك عظيم فائدة، كما تعلّم قابيل من الغراب كيفية الدفن، والواقع يشهد بذلك، فالإنسان في العصر الحديث لم يصنع الطائرة حتى فكر في كيفية إقلاع وهبوط وتوازن الطائر، واستفادته من قوة شم بعض الحيوانات، وهكذا ترى الله تارة يقول: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، وتارة يقول: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ [المائدة: ٣١]، والعجيب أنهما في سورة واحدة.

❖ ❖ ❖

---

(١) للمزيد من المعلومات انظر: كتاب أفغانستان الجريحة ص(٣٨)، قضية البوسنة والهرسك ص(٥٢)، الجهاد ضد الإلحاد ص(٣٥) وما بعدها، ملحمة البوسنة والهرسك الجريمة الكبرى ص(٩٦).

(٢) المنتخب في تفسير القرآن والسنة ص(١٥٠)، لجنة القرآن والسنة، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٣) أيسر التفاسير (١/ ٥٢٣).

الفصل الثاني

العقوبات الإلهية من زمن نوح عليه السلام
إلى بداية زمن موسى عليه السلام

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: عقوبة قوم نوح عليه السلام.

المبحث الثاني: عقوبة قوم هود عليه السلام.

المبحث الثالث: عقوبة قوم صالح عليه السلام.

المبحث الرابع: عقوبة قوم لوط عليه السلام.

المبحث الخامس: عقوبة قوم شعيب عليه السلام.

المبحث السادس: عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة «يس».

المبحث الأول

عقوبة قوم نوح عليه السلام

تمهيد

بعث الله نوحًا عليه السلام إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[(١)]. بعثه بعد أن غيّر أهل زمانه أمانة التوحيد، وصرفوها لغير مستحقها (وهو الله عز وجل)، فأرسله ليُعيدهم إلى توحيد الخالق ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ونبذ ما سواه من أصنام وأحجار لا تضر ولا تنفع، فأبوا وكابروا وعاندوا، فحاول جهده أن يدعوهم بلطف وإحسان وحكمة ولين كلام، فما زادهم ذلك إلا نُفورًا، ومع هذا لم ييأس، ومكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ الآية [العنكبوت: ١٤]، يدعوهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، إلى أن أخبره الله ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فدعا الله عليهم ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

* قال الضحاك: «فدعا عليهم لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن»[(٢)].

* وقال ابن كثير: «وإنما دعا عليهم بهذا الدعاء لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا»[(٣)]. واستجاب الله دعوته، وأقال عثرته، فأغرقهم ونجاه، وأضعفهم وقواه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٤٢).
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٩). (٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٦).

لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

* * * * *

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت العقوبة

ذكرت قصة نوح عليه السلام في بضع عشرة سورة، جاء بعضها أثناء الحديث عن الأقوام المكذبين أو عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله، بينما جاء بعضها الآخر قصصًا مستقلًّا.

القسم الأول:

جاء في سور: «التوبة»، «إبراهيم»، «الأنبياء»، «الحج»، «الفرقان»، «ص»، «غافر»، «ق»، «الذاريات»، «النجم»، «الحديد».

فسورة «التوبة»: ذكرت قوم نوح وتكذيبهم رسولهم في هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، فهنا ذكر عدد الأقوام المكذبين، وأن الله ـ تعالى ـ أرسل إليهم الرسل فكذبوا، فكان ذلك منهم ظلمًا لأنفسهم أي ظلم!.

وسورة «إبراهيم»: يقول الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وهنا ـ كما ترى ـ تشابه في الاستفهام باستفهام سورة «التوبة»، وكذلك في ذكر عدد الأقوام المكذبين، وما قاله في سورة «إبراهيم» من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، يشمل أهل مدين وأصحاب الرس وقوم تبع والمؤتفكات وغيرهم ممن قال الله فيهم ـ أيضًا ـ في سورة «الفرقان»: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

وانفردت سورة «إبراهيم» بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩].

* قال صاحب (التحرير والتنوير): «وهذا التركيب لا أحد سبق مثله في كلام العرب، فلعله من مبتكرات القرآن، وله عدة وجوه من الاحتمالات أنهاها في الكشاف إلى سبعة، وفي بعضها بعدٌ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاءً لشدة الضحك من كلام الرسل؛ كراهية أن تظهر دواخل أفواههم، وذلك تمثيل لحال الاستهزاء بالرسل»(١). وأولى من ذلك ما اختاره ابن جرير في تفسيره من رواية عبد الله بن مسعود «أنهم ردّوا أيديهم في أفواههم عاضّين عليها غيظًا على الرسل»(٢).

وسورة «**الأنبياء**»: جاء فيها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧].

وفيها طلب نوح عليه السلام من ربه أن ينصره على قومه المكذبين، فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب العظيم (كرب الطوفان)، ووجه كونه كربًا عظيمًا؛ لأنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مدّه، يلحقهم إذا هربوا؛ فيبقون زمنًا يذوقون آلام الخوف والغرق حتى يغرقوا، وفي ذلك كله كرب متكرر؛ فلذلك وُصِفَ بالعظيم(٣).

وفي سورة «**الفرقان**»: جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٤) [الفرقان: ٣٧]. تقدم ذكرها عند ذكر الأقوام المكذبين في سورة «إبراهيم» و«التوبة»، وزاد أنهم بتكذيبهم نبيهم كأنهم كذبوا الرسل جميعًا، وهذه إشارة إلى أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أمة واحدة، فكان ذلك سببًا في إغراقهم وجعلهم عبرة للناس.

وفي سورة «**ص**»: جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢]. وفي ذكرها في موضعها هذا لطيفة؛ حيث جاءت إثر خصومة

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/١٩٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسند صحيح انظره: (١٦/ ٥٣١ و٥٣٢)، وانظر: ابن كثير (٢/ ٥٤٣ و٥٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/١١٣).

(٤) انظر فوائد الآية في: تفسير القرطبي (١٣/ ١١٩)، التفسير الكبير (٢٤/ ٨١).

المشركين للنبي ﷺ تسلية له؛ وتطمينًا له؛ حيث قال عنهم: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] وذكر الآية.

وفي سورة «غافر»: جاء قوله - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

تكرر ما سبق من تكذيب الأمم السابقة؛ من عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم موسى والمؤتفكات المذكورة صراحة في سورة «التوبة»، وضمنًا في سورة «إبراهيم» ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: فأنزلت بهم من الهلاك ما همّوا به بإنزاله بالرسل، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا، فكيف كان عقابي إياهم! أليس كان مهلكًا مستأصلًا[١]؟!

والاستفهام في الآيات للتعجب من حالة العقاب، وذلك يقتضي أن المخاطب قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب، وترى أنه بنى ذلك على مشاهدة آثارهم في البلاد والديار.

وقد يكون الاستفهام في معنى التقرير، بناءً على أن المقصود التعريض بتهديد المشركين من قريش، وتنبيههم إلى ما حل بالأمم قبلهم[٢].

وفي سورة «ق»: جاء قوله - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤]، مثلها مثل الآيات السابقة ذكرت تكذيبهم، وزاد هنا أنه عقب بأصحاب الرس بعد قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين، وهو جامع التضاد؛ لأن عذابهم كان ضد عذاب قوم نوح؛ إذ كان عذابهم بالخسف، وعذاب قوم نوح بالغرق، ثم ذكرت ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرس من بقايا ثمود، ثم ذكرت عادًا؛ لأن عذابها كان بالريح، ثم ذكر فرعون وقومه؛ لأنهم كذبوا أشهر الرسل قبل الإسلام، وأصحاب الأيكة وهم من خلطاء بني إسرائيل[٣].

وفي سورة «الذاريات»: جاء قوله - تعالى -: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٣٠). (٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٧).
(٣) المصدر السابق (٢٦/ ٢٩٥).

فَسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]، وفيها الوصف الجديد اللائق بهم؛ وهو الفسق. وجاء وصفهم أيضًا بالفسق في سورة تليها في الترتيب؛ ألا وهي سورة «الحديد» مع ذرية قوم إبراهيم ﷺ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وهذه الإشارات السريعة في هذه السور جاء أكثرها ـ كما ذكرنا ـ في معرض ذكر الأقوام المكذبين، بينما جاءت واحدة فقط منها في سياق الحديث عن الأنبياء، ومع ذلك فإننا نلحظ عدم التكرار؛ بل في كل واحدة إشارة ومعلومة جديدة.

القسم الثاني: السور التي فصلت عقوبتهم:

أولًا: سورة «الأعراف»:

كان حديثها عن بعض ما قاله نوح ﷺ لقومه، وبعض ما ردوا به عليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

- **لطائف الآيات في عقوبة قوم نوح ﷺ من سورة «الأعراف»:**

> **أولًا**: لم قال نوح ﷺ: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ـ بالتاء، ولم يقل: ليس بي ضلال ـ كما وصفه قومه ـ وذلك أشد مناسبة؛ ليكون نافيًا عين ما أثبتوه؟

والجواب: أن الضلالة أقل من الضلال، فكان نفيها أبلغ من نفي الضلال عنه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل: ألك تمرٌ؟ فقلت: ما لي تمرة، كان ذلك أبلغ في النفي من قولك: ما لي تمر(١).

ورد هذا ابن عاشور بقوله: «لما تقدم لفظ «ضلال» استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعًا لثقل الإعادة»(٢).

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(١٥١).
(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٢).

➢ **ثانيًا**: لم يُوصَف الملأ هنا بالذين كفروا أو بالذين استكبروا؛ استغناءً بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا(١).

➢ **ثالثًا**: تجريد «ليس» من تاء التأنيث مع كون اسمها مؤنث اللفظ جرى على الجواز في تجريد الفعل من علامة التأنيث إذا كان مرفوعه غير حقيقي التأنيث(٢).

➢ **رابعًا**: التكذيب حصل من قادتهم، فهو بالنسبة للملأ يؤول إلى الاستمرار على التكذيب، وأما العامة فكذبوا رغمًا عنهم تبعًا لقادتهم.

وقدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلًا لمسرة السامعين من المؤمنين؛ بأن إرادة الله ﷻ وقضاءه أنه إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين. إذًا فتقديمه يفيد التعريض بالإنذار، وإلا فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء؛ لأن نجاة نوح حصلت بعدما غرق قومه(٣).

➢ **خامسًا**: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، عمين: مشتق من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق مجازًا على فقدان الرأي النافع، ويقال: عمى القلب، وقد غلب المعنى المجازي على من فقد الرأي النافع حتى صار سجية عنده، ولذلك لم يقل: عميًا كما قال في الآية الأخرى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال الشاعر:

ولكنني عن علم ما في غدٍ عم(٤)

والذين كذبوا كانوا عمين؛ لما قد وصفنا سابقًا من أن قادتهم داعون للضلالة، مستمرون عليها، وأتباعهم متقبلون لدعوتهم، سماعون لها(٥).

ثانيًا: سورة «يونس»:

الآيات التي ذكرت عقوبتهم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٩٠). (٢) المصدر السابق (٨/ ١٩٢).

(٣) المصدر السابق (٨/ ١٩٧).

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، وأول البيت:

وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبله ....

قافية الميم ص(٨٦)، دار صادر.

(٥) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٩٨، ١٩٩).

﴿مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [يونس: ٧٣].

وقال في سورة «**الأعراف**»: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [الأعراف: ٦٤]. فما الفرق بين «فنجيناه» هنا، و«فأنجيناه» في «الأعراف»؟

والجواب: أن «أنجينا» و«نجينا» للتعدي؛ لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة، فكان ـ هنا في يونس ـ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾، ولفظ «من» يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأن ﴿مَن﴾ تصلح للواحد والتثنية والجمع، والمذكر والمؤنث، بخلاف «الذين» فإنه لجمع المذكر فحسب، فكان التشديد مع «من» أليق(١).

➢ **ثانيًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، الخطاب بـ «انظر» يجوز أن يكون لكل من يسمع، فلا يراد به مخاطب معيّن، ويجوز أن يكون خطابًا لمحمد ﷺ؛ فخص بالخطاب تعظيمًا لشأنه، وتسلية له على ما يلاقيه من أذاهم، وإظهارًا لعناية الله به.

ثالثًا: سورة «هود»:

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٠).

أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ
قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن
كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن
قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا
تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن
قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا
ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ
مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ
ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ
لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ
يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ
أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا
لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ
بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٤٨].

• لطائف من الآيات:

> **أولًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥، والمؤمنون: ٢٣]، وقال في سورة «**المؤمنون**» مثلها.

وحذف الواو في سورة «**الأعراف**» بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩].

للسائل أن يسأل عن إثبات الواو في سورتي «يونس» و«المؤمنون» وحذفه في سورة «**الأعراف**»، ثم اختلاف المحكيات بعدها.

والجواب: أن في سورة «الأعراف» دعوى نبوة أو تكذيب قومه له، فهو كلام مبتدأ، أما في سورتي «هود» و«المؤمنون» فقد تقدم ما يشعر بذلك؛ وهو قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، فحسن العطف عليه بالواو؛ تسلية للنبي ﷺ، وتخويفًا لقومه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود: ١٣].

وأما سورة «المؤمنون» فلتقدم ذكر نعمه على المكلفين؛ بحملهم على الفلك الذي كان سببًا لوجودهم ووجود نسلهم، فعطف عليه بالواو، وبقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، فلأنه تقدم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فناسب العطف عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥].

وأما عن اختلاف المحكيات بعد كل آية منها؛ كقوله بعد ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

فالجواب: أن يقال: للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار، ويرجع فيها عودًا على بدء الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله؛ بل الواعظ ينوع مقاله، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه، فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب فيها بالبيان، وقد اختلف في الأصل باتفاقها؛ لأنه قال مرة باللفظ الذي حكي، ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر، وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم، ويختلف كلامهم ومقصدهم، وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه(١). والله أعلم.

➢ **ثانيًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٩] عن نوح، وقال عن هود: ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٥١]، بدون واو، فما الفرق؟

والجواب: لأنّ الضمير في قولهما: ﴿عَلَيْهِ﴾ لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول

---

(١) درة التنزيل ص(١٢٨).

الكلام في القصتين؛ ولكن في قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - وقع الفصل بين الضمير وما هو عائد عليه بكلام آخر، فَجِيءَ بواو الابتداء[1].

والكلام الآخر هو ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨]، وما قبلها. . . أما (آية) ما قاله هود فلا يوجد فصل بينها وبين ما سبقها من تبليغ هود لقومه، والله أعلم.

➢ **ثالثًا**: وقع بعد قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ ﴿مَا لًا﴾، وفي غيرها ﴿أَجۡرًاۖ﴾ فهل من فرق؟

والجواب: لأن قصة نوح وقع بعدها ﴿خَزَآئِنُ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٣١]، ولفظ المال بالخزائن أليق[2].

➢ **رابعًا**: قوله - تعالى -: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ الآية [هود: ٣٥].

قد يقول قائل: ما علاقتها بقصة قوم نوح؟ وما القول في الشرط في الآية ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ [هود: ٣٥]، والشرط لا يكون إلا مستقبلًا؟

والجواب: أن هذه الجملة معترضة وليست من القصة، ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة، تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم لنبوة محمد ﷺ ويعيدوا ذكر ذلك؛ لتشابه ما بينهم[3]. وأما عن الشرط فتقديره: إنْ بِنتُ، أو بَانَ، أو صح أني افتريته فعليَّ إجرامي[4].

➢ **خامسًا**: في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [هود: ٣٧]، المراد بالنهي هنا: المخاطبة التي ترفع العذاب عنهم؛ لا مطلق المخاطبة، ولعل هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته؛ حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف[5].

➢ **سادسًا**: في قوله - تعالى -: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: ٤٠]، تقييد الجملة «باثنين» بيان؛ لئلا يتوهم أن يحمل من كل زوجين واحدًا منهما؛ لأن الزوج هو واحد من اثنين متصلين، ولئلا يحمل أكثر من اثنين من كل

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٢٠٦).
(٢) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٢٢).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٢/ ٦٣)، في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٦).
(٤) كشف المعاني ص(٢١١).
(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٧).

نوع لتضيق السفينة وتثقل[1].

➢ **سابعًا**: إن قيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣]: لا يناسبه المستثنى في الظاهر؛ وهو قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]؛ لأن المرحوم معصوم من الغرق، فظاهره يقتضي: لا معصوم إلا من رحم.

والجواب: أن «عاصم» هنا بمعنى معصوم، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، أي: مدفوق، وقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: مرضية، ومنه قول العرب: سرٌّ كاتم؛ أي: مكتوم[2].

➢ **ثامنًا**: إن قيل: كيف صح الأمر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤]، وهما لا يعقلان، والأمر والنهي إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب؟

والجواب:

أولًا: إن المراد الخطاب للملائكة الموكلة بتدبيرها.

ثانيًا: إنّ هذا الأمر أمر إيجاد؛ لا أمر إيجاب، وفي أمر الإيجاد لا يشترط العقل والفهم؛ لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله ـ تعالى ـ، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، كل ذلك أمر إيجاد[3].

➢ **تاسعًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

* قال الألوسي: «اعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلت مصاقع العرب؛ فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان... إلخ».

وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال: «في هذه الآية

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٢).
(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٠٦، ٢٠٧).
(٣) المصدر السابق ص(٢٠٧).

واحدٌ وعشرون نوعًا من البديع[1]. . . إلخ».

وذكر الألوسي أن شيخه ألف فيها رسالة، وذكر من مزاياها ما بلغ مائة وخمسين مزية؛ إلا أنها فقدت ولم يظفر بها[2].

وقد تصدى السكاكي[3] في «المفتاح» في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية، رادًّا بها على كلام الكشاف فيما يراه ابن عاشور فقال: «والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية. . .»[4].

والمقصود من كل ذلك: أن هذه الآية فيها من المعاني واللطائف والفوائد ما يعجز القلم عن بيانه والذهن عن كشف مكنونه وبيان أسراره، ولولا الطول لذكرت من ذلك الشيء الكثير.

> **عاشرًا**: قوله: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

أولًا: إن نوحًا عليه السلام كان غير منهي عن الدعاء للكفار في حال الدعاء لابنه، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، وكان حال نوح عليه السلام كحال النبي ﷺ حين قال لأبي طالب: «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك»، قبل أن ينزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣][5].

ثانيًا: أدب الدعاء في الآية؛ حيث عرّض بالمطلوب؛ لأنه لم يذكره، وذلك

---

(١) البحر المحيط وبهامشه النهر الماد لأبي حيان، ط. دار المؤيد (٥/ ٢٢٧).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٠، ٨١). والسكاكي: هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي، أبو يعقوب سراج الدين، عالم بالعربية والأدب، مولده ووفاته بخوارزم، من كتبه: رسالة في علم المناظرة، مات بخوارزم سنة ٦٢٦هـ. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي (٢/ ٣٦٤)، شذرات الذهب (٧/ ٢١٥)، الأعلام (٨/ ٢٢٢).

(٤) المصدر السابق (١٢/ ٨٠، ٨١).

(٥) الحديث رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: «لا إله إلّا الله» (١/ ٤١٧)، برقم [١٣٦٠]. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع (١/ ٥٤)، برقم [٣٩].

ضرب من ضروب التأدب، والتردد في الإقدام على المسؤول استغناء بعلم المسؤول، فلامه الله على ذلك لوم عتاب؛ حيث لم يتبين منه جواز ذلك قبل أن يسأل(١).

> **الحادي عشر**: قوله - تعالى -: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: ٤٨]، كان مقتضى الظاهر أن يقول: قال: يا نوح اهبط، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل ليجيء على وتيرة أجزاء القصة من قبل؛ من قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢) [هود: ٤٤].

> **الثاني عشر**: في قوله - تعالى -: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، تعريض بالمشركين من العرب؛ فإنهم من ذرية نوح ولم يتبعوا سبيل جدهم نوح عليه السلام، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أخبر الله نوحًا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم، ونظير هذا قوله - تعالى -: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، أي: وكان المتحدَّث عنهم غير شاكرين للنعمة(٣).

رابعًا: سورة «المؤمنون»:

الحديث عن قوم نوح جاء نتيجة للعصيان المستمر، ثم احتجاجهم في هذا المقطع بتقليد الآباء، وأن الله لا يرسل بشرًا إذا أراد الهداية للبشر؛ وإنما يرسل ملائكة، ثم ختمت الآيات بهداية نوح إلى هذا الدعاء: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

الآيــــات: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢/٨٧). (٢) انظر: المصدر السابق (١٢/٨٨).
(٣) المصدر السابق (١٢/٩١).

ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠].

• **لطائف الآيات غير ما سبق من سورة «المؤمنون»:**

➢ **أولًا:** الحديث عن عقوبة قوم نوح في هذه السورة بدأ بذكر عصيانهم وعنادهم في احتجاجهم بتقليد الآباء، وأن الله ـ تعالى ـ لا يرسل بشرًا إذا أراد الهداية للبشر؛ إنما يرسل ملائكة ترشدهم إلى الحق والهدى، ثم ختمت الآيات بدلالة نوح عليه السلام إلى هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

➢ **ثانيًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال ـ تعالى ـ بعده في قصة هود: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، فقدم الجار والمجرور ثانيًا، فما الفرق؟ ولم عطف جواب الملأ هنا بالفاء؟

والجواب: أن الجار في قصة نوح عليه السلام جاء بعد تمام الصلة والانتقال إلى المقول، فما فصل بين متلازمين، ولو أخره في قصة هود عليه السلام لفصل بين الصلة وتمامها المعطوف عليها؛ لأن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، من تمام الصلة(١).

وأما الجواب عن العطف فلوجهين:

الأول: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه؛ بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

الثاني: ليفيد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر وإعمال الفكر(٢).

➢ **ثالثًا:** في سورة «هود» و«المؤمنون» ورد ذكر الملأ لبشرية هود وتحذيرهم لقومهم ممن يضلهم ويغويهم عما هم عليه، وزادت هذه القصة بحكاية قولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، متذرعين بها خوفًا على سيادتهم، فهم بهذا حرموا أنفسهم وحرموا غيرهم الخير، متوهمين أن الذي يأتي بإبطال عبادة

---

(١) كشف المعاني ص(٢٦٦، ٢٦٧)، وانظر: درة التنزيل ص(٢٥٦)، البرهان ص(٢٧٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٤١).

الأصنام إنما أراد منازعتهم سلطانهم[1].

> رابعًا: كان في سورة «هود»: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]، وجاء هنا: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فما الفرق؟

والجواب: لأن آية «هود» حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان، وذلك وقت ضيق، فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الله الحمل إلى نوح للإسراع بحمل من عينهم الله، حتى كأن حاله في إدخاله إياهم حال من يحمل شيئًا ليضعه في موضع.

وآية ﴿فَٱسْلُكْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان[2].

> خامسًا: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، ترى أنه عطف على جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ جملة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾؛ لأن مضمونها يفيد معنى: أن في ذلك لبلوى، فكأنه قال: إن في ذلك لآيات وابتلاء وكنا مبتلين؛ أي: وشأننا ابتلاء أوليائنا؛ فإن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية؛ لترتاض به نفوس أوليائه، وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية، فتُحمد عواقب البلوى[3].

خامسًا: سورة «الشعراء»:

قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٤٢).
(٢) المصدر السابق (١٨/ ٤٦).
(٣) المصدر السابق (١٨/ ٤٨).

• **لطائف الآيات غير ما سبق من سورة «الشعراء»:**

> **أولًا:** جاء ذكر عقوبة نوح ﷺ في سورة «الشعراء» بأسلوب آخر؛ فيه بلاغة رصينة، ولطافة في الدعوة سديدة، وكأنه في كل يوم يبلغهم بأسلوب، ويتحدث إليهم بكل وجه يرى أنه نفع لهم، ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، لا يفتأ يذكّرهم بتقوى الله، ويحذّرهم عصيانه، وانظر ذلك في أوائل الآيات.

> **ثانيًا:** أنث الفعل المسند إلى قوم نوح لتأويل ﴿قَوْمُ﴾ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، بمعنى الأمة أو الجماعة، كما يقال: قالت قريش، وقالت بنو عامر، وذلك قياس في كل اسم جمع لا واحد له من لفظه، هذا في الآدميين، أما في غيرهم نحو (إبل) فمؤنث لا غير[١]. وجُمع «المرسلين» لأن تكذيبهم برسول واحد مقتض تكذيب كل رسول؛ لأنه ـ أي: كل رسول ـ قال مثل ما قال نوح لقومه.

> **ثالثًا:** لم كرر ذكر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨، ١١٠]، في الآيات المتعلقة بقصة قوم نوح؟

والجواب: يحتمل أنه لطول مدة تبليغهم وأمرهم بالإيمان والتقوى، فكرر ذلك لذلك[٢].

أو بمعنى آخر: كررها لزيادة التأكيد والتنبيه على أن كلًّا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا[٣]!!

> **رابعًا:** تقدم في سورة «هود» أنه قال لقومه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩].

وهنا قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٤ ـ ١١٥]، موقفان متشابهان وبينهما اختلاف ما، فلعلهما موقفان، أو هما كلامان في موقف واحد، حكى أحدهما هنالك، والآخر هنا على عادة القصص القرآني.

فما في الآيتين من زيادة يحمل على أنه مكمل للآخر[٤].

> **خامسًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/١٥٩)، وانظر: تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٤).
(٢) كشف المعاني ص(٢٨١).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٤)، وانظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٥٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/١٥٩).

١١٦]، الموضع الوحيد الذي ذكر صفة العقوبة التي سينزلونها بنوح ﵇، وكان هذا في نهاية الأمر حين أعياهم المضي في الجدل بالحجة والبرهان.

> **سادسًا:** إن قيل: لم كرر قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠]، في أكثر من موضع في السورة؟

والجواب: أن ذلك أبلغ في الاعتبار، وأشد تنبيهًا للقلوب. وأيضًا: فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه، فختمت بما ختمت به صاحبتها[1].

سادسًا: سورة «العنكبوت»:

قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** هذه السورة التي اعتنت بذكر الدعوة من أولها إلى آخرها تقريبًا؛ حيث ذكرت أساليب الدعوة المتبعة، أو التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في تبليغ دعوة الله - تعالى -، ومنها: الصبر على الدعوة والأذى في سبيل الله، ونأخذ ذلك من قول الله - تعالى -: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، وغيرها من مثل قول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره.

> **ثانيًا:** إن قيل: ما فائدة العدول عن قول: تسعمائة وخمسين، إلى قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ مع أن العادة عند أهل الحساب هو اللفظ الأول؟

فالجواب: أنه لما سيقت القصة تسلية للنبي ﷺ بذكر ما ابتلي به نوح ﵇ من أمته، ومكابدته من طول مصابرتهم، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفخم وأعظم[2]، مما يفضي إلى الغرض المقصود[3].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٩٠).

(٢) لأن مراتب الأعداد: هي الآحاد إلى العشرة، والعشرات إلى المائة، والمئات إلى الألف، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير، فيقال: عشرة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف. التفسير الكبير (٢٥/ ٤٢).

(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٩٠).

➢ **ثالثًا:** إن قيل: كيف جاء المميز أولًا بالسَّنَة، وثانيًا بالعام؟.

فالجواب: لأن تكرار اللفظ الواحد عيب عند الفصحاء والبلغاء، إلا لغرض تفخيم، أو تهويل، أو تنويه، ونحو ذلك[1].

➢ **رابعًا:** ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، في الآية إشارة إلى أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإلّا لعذب من ظلم وتاب؛ وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، فقوله: ﴿ظَٰلِمُونَ﴾، أي: وهم على ظلمهم[2].

سابعًا: سورة «الصافات»:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٨٢].

● **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا:** الحديث يتعلق فيها بمنة الله على نوح حين نجاه من الكرب العظيم، وزكاه تزكية عظيمة حين جعله من عباده المؤمنين، وجعل ذكره وذريته في الخالدين، وأغرق قومه الآخرين، فجعلهم عبرة للمعتبرين.

➢ **ثانيًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦]، فهنا ذكر نجاته وأهله، ولم يذكر المؤمنين، فمن أهله؟ ولم لم يذكر المؤمنين؟

والجواب: المراد بأهله: عائلته إلا من حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، كما دل عليه قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، ثم توالت عليه النعم بعد نجاته، **ومنها:** عمران الأرض بذريته. **النعمة الثانية:** أبقى نعمه عليه في أمم بعده. **النعمة الثالثة:** ثناء الله عليه وسلامه. **النعمة الرابعة:** أنه أول من أوذي في الله، فسن الجزاء لمن أوذي في الله، فلربما يكون له من كل جزاء يجازى به

---

(١) تفسير الرازي ص(٣٩١)، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ١١٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٤٢).

من صبر على الأذى في سبيل الله. **النعمة الخامسة**: أن الله جعله مثلًا للمحسنين في جزائهم على إحسانهم. **النعمة السادسة**: أنه شرفه، بأن جعله من عباده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]، ومن المعلوم أن وصف «عبد» إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة. واقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويهًا بشأن الإيمان؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويقلع المشركون عن الشرك(١).

➢ **ثالثًا**: قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، اقتصر السلام في هذه السورة عليه وعلى إبراهيم وموسى وهارون وإلياسين، ولم يرد السلام ولم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إلياس: ﴿سَلَٰمٌ﴾، فلم هذا التخصيص؟

والجواب: أنه سلّم عليهم جميعًا آخر السورة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]، وهذا من إعجاز القرآن في أسلوب نظمه(٢)، إلا أنه زيد في سلام نوح خاصة بأنه في العالمين دون غيره؛ للإشارة إلى أن التنويه بنوح كان سائرًا في جميع الأمم؛ لأنهم كلهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق(٣).

➢ **رابعًا**: إن قيل: كيف مدح سبحانه نوحًا عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]، مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟

فالجواب: إنما مدحه بذلك تنبيهًا لنا على شرف الإيمان وجلالة قدره، وترغيبًا في تحصيله، والثبات عليه، والازدياد منه.

➢ **خامسًا**: إن قيل: كيف قال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]، وما حصل مما ذكر من النعم لنوح والمؤمنين إنما حصل بعد إغراق الظالمين؟

فالجواب: أن «ثم» هنا تفيد الترتيب والتراخي الرتبيين.

ومعناه هنا: أن إغراق الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله أعظم رتبة في الانتصار له، والدلالة على وجاهته عند الله ـ تعالى ـ وعلى عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ ولطفه(٤).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣١ ـ ١٣٥).
(٢) البرهان في متشابه القرآن ص(٣١٦). (٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٤).
(٤) المصدر السابق (٢٣/ ١٣٥).

ثامنًا: سورة «القمر»:

قال الله - تعالى -: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٥].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** جاء الحديث هنا عن نوح وقومه إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة؛ تسلية للنبي ﷺ، وأجملت ما جرى بين نوح وقومه بعبارة موجزة هي قوله - تعالى -: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فاستجاب الله دعوته، وتولى تعذيبهم، ولم يأمر أحدًا بذلك.

➢ **ثانيًا:** إن قيل: ما فائدة إعادة التكذيب في قوله - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] ؟ ولماذا لم يقل: كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا؟

والجواب: أن معناه: كذبوا تكذيبًا بعد تكذيب.

وقيل: التكذيب الأول منهم لله - تعالى -، والثاني لرسوله ﷺ. وقيل: كذبوا بالتوحيد أولًا، وكذبوا بالرسالة ثانيًا[(١)].

والأول أظهر؛ لاجتماع القولين الأخيرين تحته ضمنًا.

➢ **ثالثًا:** إن قيل: كيف قال - تعالى - في وصف ماء الأرض والسماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ [القمر: ١٢]، ولم يقل: فالتقى الماءان؟

والجواب: أراد جنس المياه[(٢)].

➢ **رابعًا:** إن قيل: الجزاء إنما يكون للكافر، لا للمكفور، فكيف قال - تعالى -: ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]؟

والجواب: أن معناه: جزاءً. مفعول له، فمعناه: فتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان سبب إغراقهم جزاءً لله - تعالى -؛ لأنه مكفور به. فحذف الجار، وعدّى الفعل بنفسه، كقوله - تعالى -: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر.

---

(١) تفسير الرازي ص(٤٨٨).

(٢) المصدر السابق ص(٤٨٨).

أو أن المراد به نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به بحذف الجار من الكفر الذي هو ضد الإيمان؛ لأن كل نبي نعمة من الله ـ تعالى ـ على قومه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكأنه قال: جزاءً لهذه النعمة المكفورة.

أو أن «من» بمعنى «ما» فمعناه: جزاءً لما كان كفر من نعم الله ـ تعالى ـ على العموم. وقرئ «كَفَر» ـ بفتح الكاف والفاء ـ أي: جزاءً للكافرين[(١)].

➢ **خامسًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]، عدي فعل «حملنا» إلى ضمير نوح دون من معه؛ لأنه كان إجابة لدعوته. فهو المقصود الأول من هذا الحمل، وقد أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[(٢)] [الأعراف: ٦٤]، ونحوه من الآيات الدالة على أنه المقصود بالإنجاء ونجاة قومه بمعيته.

➢ **سادسًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]، أي: أبقينا سفينة نوح محفوظة لتكون آية يشهدها الأمم الذين أرسلت إليهم الرسل متى أراد واحدٌ من الناس رؤيتها ممن هو بجوار مكانها؛ فكانت حجة دائمة. فلم تنته حتى رآها ناس من جميع الأمم[(٣)].

قال قتادة كما في الصحيح: «أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة»[(٤)]. وفي الفتح: عند ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة قال: «أبقى الله السفينة في أرض الجزيرة عبرة وآية حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة نظرًا، وكم من سفينة بعدها صارت رمادًا»[(٥)].

➢ **سابعًا:** قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٦ ـ ١٧]، ختم به قصة نوح وعاد وثمود ولوط؛ لما في كل

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٨٨، ٤٨٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٣)، التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]، (٤/ ٣٠٠).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٧٦).

واحدة من التخويف والتحذير مما يتعظ به حافظ القرآن وتاليه، ويعظ غيره[1].

تاسعًا: سورة «نوح»:

قوله - تعالى -: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ١ - ٢٨].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** مزايا عامة:

١ - انفردت سورة «نوح» بالحديث عن نوح وقومه من أولها إلى آخرها.

٢ - أن نوحًا عليه السلام دعاهم فيها إلى العبادة والتقوى، ولم تذكر بمجموعها لفظًا في سورة واحدة من قبل.

٣ - هذه السورة ذكرت أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها «ودًا، سواعًا، يغوث، يعوق، نسرًا».

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(٣٣٨، ٣٣٩).

٤ ـ ختمت بالدعاء عليهم بالإهلاك والاستئصال، فلا خير يرجى منهم ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

➢ **ثانيًا**: مزايا خاصة:

١ ـ إن قيل: كيف قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، فإن كان المراد به: تأخيرهم عن الأجل المقدر لهم في الأزل فهو محال، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدر لهم في الأزل، فما فائدة تخصيصهم بهذا؟

فالجواب: معناه: ويؤخركم عن العذاب الذي لا بد منه إلى منتهى آجالكم، وعلى تقدير الإيمان فإنه لا يعذبكم في الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة[١].

٢ ـ إن قيل: كيف أمرهم بالاستغفار، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر؟

فالجواب: أن معناه: استغفروا ربكم من الشرك، واعبدوه وحده[٢].

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، والإنسان ضد النبات، فكيف أنبتنا منه؟ وهلّا قال: أنبتكم إنباتًا.

والجواب: أي: أنبت أباكم من الأرض، كما قال عن عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

أو أن معناه: أنه ـ تعالى ـ أنبت الكل من الأرض؛ لأنه ـ تعالى ـ إنما يخلقنا من النطف، وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

أما لَمَ لمْ يقل: أنبتكم إنباتًا؛ وإنما قال: «نباتًا»؟ فالتقدير: أنبتكم، فنبتم نباتًا.

وفيه لطيفة دقيقة؛ وهي أنه لو قال: أنبتكم إنباتًا، لكان المعنى: أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولما قال: «أنبتكم نباتًا»، كان المعنى: أنبتكم، فنبتم نباتًا عجيبًا[٣].

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٢٨).

(٢) المصدر السابق ص(٥٢٨).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٤٠).

٤ ـ إن قيل: كيف دعا نوح عليه السلام على قومه بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]، مع أنه أرسل إليهم ليهديهم ويرشدهم؟

والجواب: إنما دعا عليهم بعدما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون(١)، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٥ ـ إن قيل: كيف قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]؛ حيث وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال؟ وكيف علم أنهم لا يلدون إلامن يفجر ويكفر إذا بلغ؟

والجواب: إنما علم ذلك بإعلام الله عز وجل له(٢).

٦ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ [نوح: ٢١]، بغير واو، ثم قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ [نوح: ٢٦]، بزيادة واو، لماذا؟

والجواب: لأن الأول ابتداء دعاء، والثاني عطف عليه(٣).

٧ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]، وقال بعده: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، فلم فرق بينهما؟

والجواب: أنه لما قال قبل: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ ناسب قوله: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

وقال في آخر السورة: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وهو دعاء بالهلاك، ناسب قوله: ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾، أي: هلاكًا(٤).

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

لا شك أن نوحًا عليه السلام سلك في دعوته أساليب متعددة لعل وعسى أن يستجيب قومه، وهو مع كل هذا لا يمل من التنقل من أسلوب إلى آخر حسب ما يقتضيه المقام، فتراه مرة يتلطف معهم في الأسلوب، وتراه تارة يظهر شفقته بهم، وتراه

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٢٩)، وانظر: كشف المعاني ص(٣٦٧).

(٢) المصدر السابق ص(٥٢٩).

(٣) البرهان في متشابه القرآن ص(٣٥٠، ٣٥١).

(٤) كشف المعاني ص(٣٦٦)، وانظر: البرهان في متشابه القرآن ص(٣٥١).

تارة يحذرهم من مغبة عصيانهم وعنادهم وإصرارهم على رفض دعوته، وتارة يرغبهم فيما عند الله، ومع كل هذا وذاك يصبر على أذاهم وجهلهم وسخريتهم منه.

نماذج من دعوة نوح عليه السلام:

أولًا: أسلوبه في التلطف معهم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ الآية [الأعراف: ٥٩].

* قال أبو حيان: «فيه استعطاف وتذكير بأنهم قومه، فناداهم بإضافتهم إليه؛ استمالة لهم نحو الحق، فالمناسب ألا يخالفوه»[١].

وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، فكلمة «أخوهم» تثير فيهم عاطفة الأخوة، ونصح الأخ لأخيه أنجع، وكان الأليق أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق، ولكن قومه لم يأبهوا بهذه الصلة، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم: ألا تتقون[٢].

ثانيًا: أسلوبه في إظهار الشفقة عليهم:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وهذا من نصحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي ـ كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم ـ وهو مع هذا يتهم بالضلال، فيرد عليهم ردًّا لطيفًا؛ لعلهم ينقادون له فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]؛ وإنما أنا هادٍ مهتد. بل إن هدايته من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين أعلى أنواع الهدايات وأتمها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، أي: فربي وربكم ورب جميع الخلق بأنواع التربية الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلًا فأمرهم بالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعقائد الحسنة، ثم إن وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأمره ونواهيه على وجه النصيحة

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٢٤)، روح المعاني (٨/ ١٥٠)، ط. دار إحياء التراث.

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٠٧).

لكم والشفقة عليكم[1].

ثالثًا: أسلوبه في الترغيب والترهيب:

علمنا أن سيدنا نوحًا عليه السلام دعاهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، وكان طوال تلك المدة مرة يرغبهم، وأخرى يحذرهم إن هم تمادوا في العصيان والتكذيب.

ولعل أصرح الآيات في ترغيبهم آيات صدر سورة «نوح»، حيث قال سبحانه على لسانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢ ـ ٤]، فهذه بشارة وترغيب لهم بمغفرة الذنوب وطول العمر.

قال ابن كثير: «﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه أوقعه بكم»[2].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١١ ـ ١٢]، أي: إذا تبتم واستغفرتم وأطعتموه كثر رزقكم، وأسقاكم بعد جدبكم، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم بساتين فيها الثمار المتنوعة، وخللها بالأنهار الجارية، وهذا هو مقام الدعوة بالترغيب[3].

أما مقام الترهيب فيأتي بعد الترغيب، وهذا هو الأسلوب الأمثل في الدعوة، وأصرح آيات في ذلك ما كان من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، أي: أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري ولقيتم الله وأنتم مشركون به[4].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، أي: أنذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٤٥ ـ ٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٥٣).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٣٢).

(٥) المصدر السابق (٤/ ٤٥٣)، ط. دار المعرفة.

وقال مقاتل: «يعني الغرق بالطوفان»[١].

وبعد هذا كله من تصح فيه الشفقة والترغيب والترهيب يرد عليها ويحاجهم فيما يأتون من شبهات[٢]، ويدافع عن مبدئه بكل قوة؛ بل إنه لم يستجب لأدنى مطالبهم حتى يؤمنوا على زعمهم؛ وذلك بطرد من آمن به حتى يستطيعوا الجلوس معه بدون هؤلاء؛ بل إنه يخاف عقاب الله لو فعل ذلك.

إذًا فكان مبدؤه واضحًا أمامهم؛ لئلا يجدوا ثغرة ينفذون منها لتحقيق مآربهم، وعندها أيسوا فلجؤوا إلى التهديد والوعيد بالأذى وبالقتل إن استمر في دعوته، قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، قال ابن عباس: «أي: من المقتولين»[٣]. عندها تحداهم نوح عليه السلام وأرشدهم إلى طريقة يفعلونها للتخلص منه إن قدروا، فهو لا يخافهم، ولا ترهبه تهديداتهم.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

أي: إن كان ثقل عليكم لبثي فيكم وتذكيري وتخويفي لكم من عذاب الله، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم، فأجمعوا ما تريدون مع شركائكم الذين تعبدونهم، وليكن أمركم ظاهرًا تتمكنون فيه مما تريدون، فتوجهوا إليّ ولا تؤخروني ساعة واحدة؛ فإني لا أباليكم ولا أخافكم، فأنا ماضٍ في طريقي لا أعتمد إلا على الله[٤].

إنه التحدي الصريح الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عُدّته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه، فماذا كان وراء نوح من القوة والعدّة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا؟

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٤)، ط. إحياء التراث.

(٢) ذكرت ذلك في الدروس المستفادة مفصلة.

(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١٢١).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٠، ٤٤١)، تفسير فتح القدير (٢/ ٦١)، في ظلال القرآن (٣/ ١٨١١).

كان معه الإيمان. . القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجزُ أمامها التدبير[1].

وقفة تأمل قبل نزول العذاب:

وقبيل النهاية المحتمة والغلبة الساحقة يستعجل قوم نوح العذاب، ويطلبون من نبيهم إنزاله عليهم، فقد جادلهم كثيرًا، فلم يعد هناك جلّ فائدة من إبلاغهم، فإن كان صادقًا في نبوته فليدع عليهم بالعذاب الذي يزعم أنه واقع بهم إن لم يصدقوه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

إنه العجز يلبس ثوب القوة، والضعف يرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا، فلسنا نصدقك، ولسنا نبالي وعيدك، فرد عليهم بأسلوب لا يخرجه تكذيبهم وعنادهم عن سمت النبي الكريم، ولا يقعده عن بيان الحق لهم وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم من أن يأتيهم بما أوعدهم، وردهم إلى هذه الحقيقة؛ وهي أنه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا الإبلاغ، أما العذاب فمن أمر الله الذي يدبر الأمر كله، فيعجل العذاب أو يؤجله فهو لا يملك أن يرد سنة الله أو يحولها في عذاب المجرمين[2].

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، أي: بما نعين الله من إنزال العذاب بكم، إذا شاءه أخره لحكمة يعلمها؛ ولكن متى شاء وقوعه فلا بد أن يقع[3].

وبعد هذا أعلم الله نوحًا ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وفي الكلام تيئيس له وأنهم مستمرون على كفرهم، فلن يؤمن أحد إلا من قد سبق إيمانه، ثم دعاه إلى عدم الحزن[4].

وكان من الممكن أن يستمر في دعوته لولا أن الله آيسه منهم، وعندها أدرك

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٨١١).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٨٧٥).
(٣) تفسير الرازي (١٧/ ٢١٨)، ابن كثير (٢/ ٤٥٩)، المنار (١٢/ ٦٩).
(٤) فتح القدير (٢/ ٤٩٦).

أن لا خير يرجى منهم، فقد توصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة؛ من فعال، ومقال، فدعا عليهم، فغضب الله عليهم، ولبى دعوته، وأجاب طلبه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، فألهم الله نوحًا أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر الخالص الذي عمّ وطمّ في زمانه، وأحيانًا لا يصلح أي علاج آخر غير الاستئصال الشامل، والتطهير الكامل لوجه الأرض من الظالمين؛ لأن وجودهم يجمد الدعوة نهائيًا، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين، وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح وهو يطلب القضاء عليهم قضاءً كاملًا، فهم يضلون عباد الله؛ بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة العاتية، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين.

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوًّا يولد فيه الكفار، وتوحي بالكفر للناشئة بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا يوجد فيه فرصة لترى الناشئة النور من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها، وهي الحقيقة التي أشار إليها قول نوح عليه السلام وحكاها عنه القرآن ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل، وينشئون عادات وأوضاعًا ونظمًا وتقاليد ينشأ معها المواليد فجارًا كفارًا كما قال نوح عليه السلام[(١)].

إذًا أسباب العقوبة كما يلي:

أولًا: الظلم كان أهم الأسباب في إهلاكهم، قال - تعالى - في آخر قصة غرقهم: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وفي سورة أخرى قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [يونس: ١٣].

والواقع أن الله ذكر لنا أكثر من آية في القرآن الكريم تبين أن الظلم سبب مؤكد لهلاك الأمم، وأن هذا الهلاك هو من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين[(٢)].

وأعظم الظلم الشرك بالله - تعالى - كما قال سبحانه في وصية لقمان لابنه:

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧١٧).

(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د/ عبد الكريم زيدان ص(١٢١).

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوم نوح عليه السلام قد صرفوا العبادة لمعبوداتهم التي صنعوها وصوروها بأيديهم وجعلوا لها أسماء رجال صالحين، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما «ودًا» فكانت لكلب بدومة الجندل[١]، وأما «سواعًا»[٢] فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف[٣] عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان[٤]، وأما «نسرًا» فكانت بحمير[٥] لآل ذي كلاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدت»[٦].

ثانيًا: إقامة الحجة عليهم.

ما كان الله ليعذب قومًا حتى يقيم الحجة عليهم، فمن سنة الله ـ تعالى ـ في عباده ألا يعذب أحدًا منهم إلا إذا ذكّرهم وأنذرهم، ومن أنذر فقد أعذر، فإذا نسوا ما ذكروا به أهلكهم بغتة وبدون تقدم إعلام ولا إنذار، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ [القصص: ٥٩]، بل لا بد وأن يرسل إليهم داعيًا يدعوهم إليه، ويوضح لهم طريق الهداية، ويبعدهم عن الغواية، وفي ذلك إقامة الحجة عليهم وقطعٌ لما قد يعتذرون به، فلا أحد أحب إليه العذر من الله ـ تعالى ـ، فإذا أعرضوا أو

---

(١) دومة الجندل: مدينة من الشام مما يلي العراق. انظر: معجم البلدان (٢/ ٥٥٤)، برقم (٤٩٣٣).

(٢) سواع: كان صنمًا بمكان لهذيل يقال له: رهاط بينبع من أرض الحجاز من جهة الساحل. انظر: معجم البلدان (٣/ ٣١٤)، برقم (٦٧٢٧).

(٣) الجرف: عند سبأ باليمن. انظر: معجم البلدان (٢/ ١٤٩)، برقم (٣٠٥٣).

(٤) همدان: بلاد همدان باليمن. انظر: معجم البلدان (٥/ ٤٧١)، برقم (١٢٧٤٥).

(٥) حمير: مدينة باليمن غربي صنعاء. معجم البلدان (٢/ ٣٥٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة «نوح»، باب ودًا، سواعًا (٤/ ٤٥٥).

نسوا ما ذكروا به جاءهم الله بنقمته[1]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥]، أي: فتحنا عليهم أبواب الأرزاق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه ـ تعالى ـ وإملاءٌ لهم ـ عياذًا بالله من كل مكروه ـ! ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: من الأموال والأولاد والأرزاق أخذهم على غفلة وغرّة منهم، فإذا هم آيسون من كل خير[2].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

وفيه تمهيد، يشتمل على عدة أمور:

- **أولًا: الأمر الإلهي بصنع السفينة.**
- **ثانيًا: محاولة أخيرة لنوح في الدعوة.**
- **ثالثًا: عظم هول العقوبة.**
- **رابعًا: نداء ومناجاة.**
- **خامسًا: توبة نوح ونجاته.**

إن الله ـ تعالى ـ لا مكره له ولا معقب لحكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

إذا فعل أمرًا فلحكمة بالغة، وإذا عاقب فلمصلحة راشدة، غالبٌ لا يقهر، عزيز لا يذل، قوي لا يخاف ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، أي: لا يخاف من أحدٍ تبعة[3].

---

(١) انظر: أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين للشيخ عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية. ص(٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٧).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٦١)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٧٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٣).

دمر قوم نوح بالغرق ونجاه، وصارعتهم أمواج الطوفان فقهرتهم وقواه، وأشرفوا فإذا الموت يحيط بهم من كل مكان، وأشرف هو على ظهر السفينة فإذا الحياة تحيط به من كل مكان ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]. وإليك ملخصًا لرحلته مع النجاة ومع ما حصل فيها من مشاهدات وأحوال وأهوال:

أولًا: الأمر الإلهي بصنع السفينة:

أخبر الله نوحًا بأن هلاك قومه سيكون بالغرق، وأمره أن يصنع سفينة ليركبها هو والمؤمنون للنجاة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، أي: ولا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم(١).

وامتثل نوح لأمر ربه، وبدأ بصنع السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، أي: بعلم الله وتعليمه بغرس الشجر، والنظر حتى كبر قطعه، وبدأ نجارته والملأ يمرون عليه ويسخرون منه لصناعته السفينة في غير مكانها - بزعمهم -، فيرد عليهم رد الواثق العارف بأمر الله، يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة أنه يبادلهم بسخرية: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]؛ لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، أنحن أم أنتم يوم ينكشف المستور عن المحذور(٢)؟!

وصنع نوح السفينة عظيمة الطول، والارتفاع، والمتانة. وقد اختلف المفسرون في مقدار حجمها، وهيئتها، وعدد طبقاتها، ومدة جريانها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء كما قال ذلك الفخر في تفسيره: «اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلًا»(٣).

وركب نوح عليه السلام السفينة بعد أن رأى العلامة التي أعلمه الله بها، وحمل معه من كل زوجين اثنين، فما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء وأهله

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٠).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٧).
(٣) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ٢٢٤).

من استحق عذاب الله، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠].

وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [هود: ٤١].

ثانيًا: محاولة أخيرة لنوح في الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

الأب ينادي ابنه فيأبى عليه في أحلك الظروف وأصعبها، يناديه لظنه ﷺ أنه مؤمن، ولم يكن يعلم أنه غير ذلك حتى أخبره الله أنه كافر.

دعاه ليركب مع المؤمنين لينجو من الغرق لظنه الظن الحسن به؛ ولكن سرعان ما عصى الابن أباه، وقال له في جفاء: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ [هود: ٤٣]، فسارعت عاطفة الأبوة لتقول له: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣]، أي: ليس شيء يُعصَم اليوم من أمر الله.

فإن قيل: لِمَ نادى ابنه مع أنه كان كافرًا وقد دعا الله عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؟

فالجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: أنه كان ينافق أباه، فظن أنه مؤمن.

الثاني: أنه كان يعلم أنه كافر؛ لكنه ظنّ أنه لما شاهدَ الغرق والأهوال العظيمة فإنه يُقبل على الإيمان.

الثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء، والذي تقدم من قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، كان كالمجمل، فلعله ﷺ جوز ألا يكون داخلًا فيه[2].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٧، ١٨٧٨).

(٢) تفسير الرازي (١٧/ ٢٣١)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢١٠)، ومثله تفسير المحرر الوجيز (٧/ ١٠٣).

وبعد هذا النداء الأبوي الرحيم الذي لم يأبه به الابن، وظنّ أن ما يجري عوارض طبيعية عادية سرعان ما تنقشع، ولكن أنى له ذلك! ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

ثالثًا: عظم هول العقوبة:

يصور القرآن الكريم عظم هول العقوبة ـ أو المشهد الهائل المرهوب ـ في هذه الآيات: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

فهذه الآيات تصف الطوفان كأنه رأي عين؛ حيث تفتحت السماء بماء منهمر غزير، وتفجرت المياه من فتحات الأرض بكميات لم تر الأرض مثلها من قبل، وأخذ الماء في الارتفاع رويدًا رويدًا، والناس يظنون أن ذلك سيزول بعد قليل، وتنقشع السماء، ولكن هيهات! لقد كان أكثر مما كان متوقعًا؛ فقد فقدت البحار هدوءها؛ لتغمر اليابسة، وتغرق كل من عليها دون تفريق بين كبير أو صغير، وغرق كل من عليها إلا تلك السفينة الزاخرة وسط أمواج تتلاطم وتشتد في ارتفاعها وهبوطها، وتفتح بين طياتها للكافرين المعاندين قبورًا، وتراهم يقاومون الموت وهو يصرعهم، ويغالبون الموج فيطويهم ويهلكهم[(١)].

واستمر الطوفان حتى هلكت كل عين تطرف على الأرض، ومن الصعب اليوم أن نتصور هول الطوفان أو عظمته، لقد كان شيئًا مروعًا يدل على قدرة الخالق، والسفينة تجري بالمؤمنين في موج كالجبال حتى قضى الله أمره، كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]، أي: أحكم وفرغ منه بهلاك القوم الظالمين على تمام وإحكام، واستقرت السفينة بعد ذلك راسية على الجودي[(٢)]،

---

(١) انظر: كتاب الأنبياء في القرآن ص(٧٦).

(٢) الجودي: قيل: جبل بالعراق قرب الموصل. وقيل: إن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول الشاعر.

سبحانه ثم سبحانًا يعود له … وقبلنا سبح الجودي والجمدُ =

وقيل: بعدًا وهلاكًا وسحقًا للقوم الظالمين من رحمة الله ـ تعالى ـ.

رابعًا: نداء ومناجاة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

كما قلنا من قبل: إن قلوب الأنبياء الرحيمة لا تكف عن الشفقة والرحمة على أقوامهم حتى يؤمنوا ويوحدوا الله شفقة بهم وخوفًا عليهم من عذاب الله، حتى إن المؤمن البعيد الصلة يصير أقرب وشيجة من الابن القريب الكافر.

وقد حصل هذا الأمر بعينه لنوح ﷺ، فثارت شفقته على ابنه قبل الغرق، فسأل ربه ضارعًا أن ينجي ابنه؛ لأنه من أهله الذين وعد الله بنجاتهم في ظنه، والله لا يخلف الميعاد.

وهذا الدعاء ليس من باب الاعتراض على الله ـ فحاشا لنبي مثل نوح أن يعترض على الله! ـ إنما هو سؤال استعلام، وكشف من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، أي: ليس من الذين وعدت بنجاتهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره[1].

أما امرأته فلم تذكر في هذا السياق؛ لأن كفرها كان معلومًا من أول الأمر لنوح ﷺ، فمثلها مثل قومها الكافرين المذكورين على جهة العموم.

ثم عاتب الله نوحًا ونهاه أن يطلب طلبًا إلا إذا كان على يقين أنه حق وصواب[2]؛ لأن العبرة بقرابة الدين؛ لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة

= البيت لأمية بن الصلت، انظر: ديوانه ص(٣٧٦).
تفسير القرطبي (٩/ ٤٠ ـ ٤٢).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦١).

(٢) تفسير السمعاني (٢/ ٤٣٣)، تفسير البيضاوي (١/ ٤٥٨).

كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه؛ ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله ـ تعالى ـ بأبلغ الألفاظ وهو قوله: (إنه ليس من أهلك)[1]، ولأن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض[2]، العلة ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

* قال القرطبي: «وهذا النهي فيه عتاب من الله لنبيه نوح بكل رفق وتلطف، وكأنه يقول له: إن مقامك عظيم، فشأنك ألا تسأل مثل هذا السؤال الذي لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو شرًّا، وإني أعظك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين. قال ابن العربي حول هذا المعنى: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحًا عن مقام الجاهلين، ويعليه إلى مقام العلماء والعارفين»[3].

خامسًا: توبة نوح ونجاته:

ندم نوح عليه السلام على ما صدر منه واعترف بذنبه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وهذا هو الإعلان الحقيقي للتوبة؛ لأن التوبة تقوم بأمرين، كما في الآية:

الأول: في المستقبل، وهو العزم على الترك، وإليه أشار بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ [هود: ٤٧].

الثاني: في الماضي، وهو الندم على ما صدر منه، وإليه أشار بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[4] [هود: ٤٧].

ويلاحظ أيضًا أنه بدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله مبالغة في التوبة، وإظهارًا للرغبة فيها، وتبركًا بذكر ما لقنه الله ـ تعالى ـ، وهذا أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك؛ لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلًا محذورًا لا محيص منه إلا بالاستجارة بالله ـ تعالى ـ[5].

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢، ٣).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٨٤).
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٤٨).
(٤) تفسير الرازي (١٨/ ٥).
(٥) انظر: القصص في القرآن بين الآباء والأبناء.

ثم ختم اعتذاره برجائه لله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف، وإلا سيكون من الذين خسروا أعمالهم[1].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]. بعد قبول توبة نوح كانت خاتمة المطاف؛ النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته، والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم. والسلام المذكور في الآية ليس خاصًّا بنوح والمؤمنين معه؛ بل لكل مؤمن صادق الإيمان إلى يوم القيامة.

* يقول محمد القرظي[2]: «دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى قيام الساعة، وأما الوعيد والتهديد بالعذاب الأليم فإنه خاص بمن يريدون متاع الحياة الدنيا دون الآخرة»[3].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة قوم نوح عليه السلام

وفيه:

- **١ ـ درسٌ في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ.**
- **٢ ـ درسٌ في قوة العزيمة.**
- **٣ ـ درس في الولاء والبراء حتى من الأقرباء.**
- **٤ ـ درس في حقائق القرآن العلمية من قصة نوح.**

١ ـ درس في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ:

➢ **أ** ـ على الداعية إلى الله أن يتحلى بعدد من الصفات؛ لتحصل الفائدة المرجوة من دعوته، وهذه الصفات ذكرها القرآن الكريم، وحثت عليها السنة المطهرة:

---

(١) القصص في القرآن بين الآباء والأبناء نقلًا عن تفسير أبي السعود (٤/٢١٣).
(٢) هو محمد بن كعب بن سُلَيم بن أسد أبو حمزة القرظي المدني، ثقة عالم، من الثالثة، ولد سنة أربعين على الصحيح، روى له الجماعة. انظر: التقريب ص(٥٠٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٤)، في ظلال القرآن الكريم (٤/ ١٨٨٠).

الصفة الأولى ـ الإخلاص:

وهو أن يقصد الداعية بعمله وجه الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة ابتغاء مرضاته ومثوبته[(١)]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[(٢)] الحديث، وقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٣)].

فهذه الآيات والأحاديث تدل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله. ومعلوم أن ركني العمل المتقبل هما[(٤)]:

أولًا: أن يكون خالصًا لله.

ثانيًا: أن يكون صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ.

* وقال الإمام النووي في هذا المعنى: «بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة»[(٥)].

فما أحوج الداعي إلى الله ـ تعالى ـ إلى الإخلاص؛ لتخرج الثمرة يانعة طيبة مباركة، تعود عليه بالأجر الجزيل والثواب العظيم وعلى الأفراد والجماعات بالخير والثواب الجزيل؛ لأن الرياء يحبط العمل، فكأنه لم يعمل، وعليه أن يبتعد عن الشهرة وحب المنصب والظهور؛ لأنها حبل موصل للسمعة والرياء.

الصفة الثانية ـ التقوى:

وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه

---

(١) أخذًا من قوله ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه**». رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٣٣٢، ٣٣٢).
قال عنه ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري (٦/ ٣٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ١/ ١٣، برقم [١].

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢/ ٣٠٩)، برقم [٢٨١٠].
وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، برقم [١٩٠٤].

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٤).

(٥) شرح الإمام النووي على مسلم (١٣/ ٤٩).

ومعاصيه، قال الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وهي وصية الله للأولين والآخرين؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

وغيرها من الآيات التي تحث على التقوى.

وقوله ﷺ حينما سئل: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم**»(١).

وقوله: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»(٢).

وغيرها من الأحاديث التي تحث على التقوى. فإذا أراد الدعاة إلى الله أن يقبل عملهم فليحرصوا على تقوى الله في كل شيء وفي جميع الأقوال والأعمال؛ ليكون عملهم مثمرًا - بإذن الله -.

الصفة الثالثة - العلم:

لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والعلم سلاح الداعية الذي يمكّنه - بإذن الله - من إفادة الآخرين، ويقنع به المجادلين والحائرين، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١].

والآيات في الحث على العلم كثيرة.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا، نأخذ منها:

قوله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] (٢/ ٥٠٢)، برقم [٣٤٩٠].

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب الإشهاد في الهبة (٢/ ٢٣٣)، برقم [٢٥٨٧].

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ١/ ٤٢، برقم [٧١]. ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (٢/ ٧١٨، ٧١٩)، وفي كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» (٣/ ١٥٢٤)، برقم [١٧٥].

وقوله ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنّة**»[1].

إذًا فعلى الداعية أن يحرص على تعلم العلم النافع الموصل لنفع نفسه ونفع غيره المستقى من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة، وليتسلحوا بسلاح العقيدة الصحيحة الصافية، ثم دراسة كتب الفقه والدعوة وغيرها؛ حتى يستطيع الداعية الرد على شبه الحاقدين والمغرضين.

الصفة الرابعة ـ الصبر[2]:

الصبر أهم ما يتحلى به الداعية في كل حال من أحواله؛ سواء كان في حال الرضى أو الغضب، أو في حال العسر أو اليسر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فعلى الداعية أن يوطن نفسه على تحمل ما يلاقيه من الأذى بأنواعه، وليعلم أن المؤمن مبتلى؛ ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال ﷺ: «**يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[3]، وقال ﷺ: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية**»[4].

والآيات والأحاديث التي تحث على الصبر كثيرة. ومعلوم أن طريق الصبر شاق وطويل، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وعلى الذكر (٤/ ٢٠٧٤).

(٢) الصبر لغة: الحبس. وفي الاصطلاح: حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكايدة في تحمّله، وانتظار الفرج. انظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٦)، وانظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ٢٠٨).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس (٢/ ٤٠٤)، برقم [٣١٥٠]. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة أو من يخاف على إيمانه (٢/ ٧٣٩)، برقم [١٤٠].

(٤) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورًا تنكرونها**» (٤/ ٣١٣)، برقم [٧٠٥٤].

والصبر ـ كما يقول ابن حجر[1] ـ على ثلاثة أقسام:

أ ـ صبر عن المعصية فلا يرتكبها.

ب ـ صبر على الطاعة التي يؤديها.

جـ ـ صبر على البلاء فلا يشكو ربه فيها.

الصفة الخامسة ـ الشفقة والرحمة:

الشفقة والرحمة على أحوال الناس، وحب الخير لهم؛ بأن يسلكوا سبيل السعادة، وأن يبتعدوا عن سبيل الشقاء، والرحمة والعفو، من أخلاق الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال ﷺ حينما قبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «**من لايرحم لا يرحم**»[2].

وقوله ﷺ في الرجل الذي بال في المسجد: «**دعوه، وأريقوا على بوله سجلًا من ماء ـ أو ذنوبًا من ماء ـ، فإنما بعثتم ميسرين؛ ولم تبعثوا معسرين**»[3].

وهكذا يكون الداعية، يجعل هذه النماذج أمام عينيه؛ ليكون محبوبًا من الله ثم من الناس، والداعية المحبوب يؤثر بكلامه وحركاته وسكناته أكثر من غيره، وكم من داعية لا يعدو كلامه نفسه؛ لأن روح الدعوة مفقودة عنده.

الصفة السادسة ـ الصدق:

ونقصد بالصدق هنا: الصدق مع الله في الدعوة إليه.

وإذا كان كذلك فمعناه: الصدق النابع من القلب في تبليغ دعوة الله للناس.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٦٩). وانظر: الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ٤١٦). وانظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ وتواضعه (٤/ ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩)، برقم [٢٣١٨].

(٣) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد ١/ ٩١، برقم [٢٢٠].

فالصدق طمأنينة، والكذب ريبة؛ بل هو من علامات النفاق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقال ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنّة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[1].

الصفة السابعة ـ التواضع:

ونعني به التواضع في غير ضعف، والقوة في غير عنف. والتواضع ضد الكبر، والداعية المتواضع ينأى بنفسه عن الكبر، ويوطد نفسه على إيصال دعوته بكل لين وخفض جناح، وقد أمر الله رسوله ﷺ بخفض جناحه لأولئك الذين يستجيبون لدعوته كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط، قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال ﷺ: «**إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[2].

والداعي إذا تواضع أحبه الصغير والكبير، والطائع والعاصي، واستفاد منه الخلق أكثر من صاحب العلم المترفع بعلمه.

والأمة المسلمة إذا وُجد فيها التواضع عَطَف الغني فيها على الفقير، والكبير على الصغير، وتواضع القوي للضعيف، فلا تفاخر، ولا تعالي، ولا تعاظم، ولا ظلم.

الصفة الثامنة ـ اقتضاء القول العمل:

الداعي إلى الخير يجب أن يكون قوله موافقًا لفعله؛ لأن النفوس مجبولة على

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] (١٠٩/٤)، برقم [٦٠٩٤]. ورواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق (٢٠١٢/٤)، برقم [٢٦٠٧].

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة وأهل النار (٢١٩٩/٤)، برقم [٢٨٦٥] الحديث الرابع.

عدم الاستفادة ممن لا يوافق قوله عمله، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وقال ﷺ: **«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرّحى[1]، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك! ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»**[2].

* وقال مالك بن دينار: «العالم الذي لا يعملُ بعلمه بمنزلة المصفاة إذا وقع عليه القطر زلق عنه»[3].

* قال ابن القيم: «علماء السوء جلسوا على باب الجنّة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا لهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدِلّاء، وفي الحقيقة قطاع طرق»[4].

وقال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام من الضنى ... ومن الضنى تمسي وأنت سقيمُ
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليمُ[5]

---

(١) الرحى: التي يطحن بها. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٢١١)، ط ٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٢/ ٤٣٦)، برقم [٣٢٦٧]. مختصر صحيح مسلم للمنذري «٣٣٥»، برقم [١٢٣٨].

(٣) اقتضاء العلم العمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

(٤) الفوائد لابن قيم الجوزية ص(٦١).

(٥) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/ ٤٤٧).

والأبيات أصلًا لأبي الأسود الدؤلي. انظر: شذور الذهب، فهرس الشعر، قافية الميم لابن هشام النحوي ص(٢٣٨)، أدب الدنيا والدين ص(٤٢).

فالحذر الحذر من فعل المنكر أو التساهل فيه ـ وخاصة للداعية ـ؛ لأن كثيرًا من الناس يبيحون لأنفسهم أن يرتكبوا المخالفات لمجرد أن رأوا رجلًا موثوقًا يفعلها[1].

الصفة التاسعة ـ مخالطة الناس ومعاشرتهم بالحسنى:

وهذه الصفة تأتي نتيجة للتواضع؛ حيث نعني بالمخالطة عدم العزلة؛ فالدين الإسلامي ليس دين رهبانية في صومعة أو كنيسة؛ بل دين يحب المسلم فيه للمسلمين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه من الشر والرذيلة، بمعنى أن يكون حركيًّا في دعوته؛ يعود المريض، ويواسي المنكوب، ويساعد المحتاج، ويصلح ذات البين. . . . والذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ وأحب إلى الله من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم[2].

والداعية الحق هو الذي يبذل من ماء وجهه لله ولدينه، فإن كانت الدعوة لقوم عصاة أو فسقة أو مجرمين فإنه يأتيهم من الباب الذي يحبونه تدريجيًّا، وإن احتاج إلى الجلوس معهم فعل دون الرضى بما هم عليه، وإن احتاج إلى اللعب معهم فعل مع أخذ الحيطة من مشتبهات الأمور والأمكنة؛ حتى يجذبهم إلى سماحة هذا الدين وفضله؛ فإنهم هم أنفسهم سيبتعدون عن اقتراف المعاصي، وسيدافعون هم أنفسهم عن مبادئ هذا الدين وحدوده، قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[3].

➢ **ب ـ ومن الدروس المستفادة في الدعوة إلى الله:**

أن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ لا تختص بأحد دون أحد، لقوله سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهي تشمل كل أحد من النّاس، وعلى الداعي أن يتبع الأسلوب الأمثل في إيصال الدعوة للمدعو بأحسن مقال وأطيب فعال؛ من تلطف مع المدعو، وإظهار

---

(١) من صفات الداعية لمحمد لطفي الصباغ ص(٧٠).

(٢) انظر: أصول الدعوة ص(٤١٣، ٤٧٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٣/ ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠)، برقم [٢٥٨٦].

شفقته عليه، وترغيبه فيما عند الله وترهيبه من عذاب الله، كما عرفنا ذلك من قبل من فعل سيدنا نوح عليه السلام، وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

جميع هذه الآيات تدعو إلى اللين والحكمة والموعظة الحسنة، وحتى جدال الكفار بالحسنى؛ ليتعرفوا على مزايا هذا الدين العظيم الذي لا يفرق بين رئيس ولا مرؤوس إلا بالتقوى والعمل الصالح. ومع أن آية ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] مكية، وفي وقت لا يزال الرسول في أول الدعوة، إلا أنه تعالى يدعوه إلى مهادنتهم والتلطف معهم دون مخاشنة أو تعنيف، وهذا هو الأسلوب الأمثل في الوعظ والإرشاد. فينبغي للداعية أن يكون كالطبيب الحاذق الحكيم الذي يشخص المرض ويعرف الداء ويحدده، ثم يعطي الدواء المناسب على حسب المريض ومرضه، مراعيًا في ذلك قوة المريض وضعفه، وقد يحتاج إلى عملية جراحية لشق بطنه، أو يقطع شيئًا من أعضائه من أجل استئصال المرض؛ طلبًا لصحة المريض[(١)].

ثم إن التلطف مع المدعو في القول لا يعني المداهنة ولا النفاق، ولا إخفاء للحق، ولا تحسينًا للباطل، أو الرضا بما عليه المدعو من المخالفة بشرع الله؛ وإنما هو من الخلق الحسن، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق[(٢)].

* يقول سيد قطب: «فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودٍّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهدهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير، يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية، والعطف والسماحة، والود والرضا، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ»[(٣)].

---

(١) أصول الدعوة، ص(٣٦٥، ٣٩٤). (٢) المصدر السابق ص(٤٧٣).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

ومن الدروس:

➤ جـ - ينبغي للداعي إلى الله - تعالى - أن يخاطب النّاس على قدر عقولهم، ويحذر التنطع والتكلف في النطق؛ لأن فعل ذلك يفقد الموعظة هيبتها ولذتها عند المستمعين أو المشاهدين، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**هلك المتنطعون**»، قالها ثلاثًا[١].

إن الداعية الحاذق يعرف أنّ النّاس تتفاوت عقولهم ومداركهم، فينبغي معالجة ذلك حسب فهم كلٍّ منهم.

إنك ترى موضوعًا معينًا يتطرق له دعاة كثيرون، فترى البون الشاسع في حديث كل منهم، ترى لحديث بعضهم أثرًا في النفوس، وصدىً في القلوب، تود أن يطول الحديث، والبعض الآخر تود أن يسكت من أول وهلة؛ بل إن بعض المستمعين يتحرك أو يحدث من بجانبه أو يقوم من المجلس؛ لأن كلامه ممل وحديثه طويل ليس له أثرٌ ولا وزنٌ.

إذًا فإن من أول ما يجب على الداعية مراعاته مخاطبة الناس كل قوم بما يعقلون ويفهمون؛ حتى تستوعب عقولهم ما يقوله لهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، أي: ذكر حيث تنفع التذكرة. ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم؛ فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم». وقال: «حدث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله»[٢].

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٣].

* وقال أيوب السختياني: «لا تحدثوا النّاس بما لا يعلمون فتضروهم»[٤].

* وقال وهب بن منبه: «ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق، يعمل

---

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٤/ ٢٠٥٥)، برقم [٢٦٧٠].
والمتنطعون: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٤).

(٣) رواه مسلم، المقدمة، باب عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١)، برقم [٥].

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ١٠٩)، ت٤٦٣.

لكل قوم ما يشتهون من الطعام»[1].

لذا فإنه يجب على الدعاة أن يحدثوا النّاس بما يفهمون؛ فأحسن ما يدعى به كبار السن الموعظة بأمور الآخرة وما يقربهم من خالقهم، وأحسن ما يدعى به الشباب هو الدعوة إلى تعلّم العلم من أصوله، وأحسن ما يدعى به الأطفال المميزون تعلم تلاوة القرآن وتجويده من الأقل إلى الأكثر، وهكذا.

➢ د ـ اختيار الوقت المناسب:

من الأمور المساعدة لتقبل الدعوة مراعاة الظروف والأحوال البيئية للمدعو، فقد يصلح لبعضهم دعوته سرًّا، وقد يصلح لآخر دعوته جهرًا بدون تشهير، وقد لا يصلح ذلك إلا بطريق التلميح والإشارة لبعض المخالفات من خلال دعوة عامة (في مسجد أو مجلس أسري ونحوه). ثم إن تحديد الوقت المناسب لا يكون باختيار الداعي؛ وإنما بمراعاة أحب الأوقات عند المدعو، وألا يثقل عليه أو عليهم؛ مخافة السآمة، لحديث ابن مسعود ﷺ قال: «كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا»[2].

وكان ابن مسعود يطبق هذا؛ فيتخول الناس بالموعظة، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن أبي وائل قال: «كان ابن مسعود يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم! قال ابن مسعود: أما إنّه يمنعني من ذلك أن أملّكم، وإنّي أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها؛ مخافة السآمة علينا»[3].

قلت: إذا اجتمعت هذه الأمور فقمنٌ أن يستجاب للداعي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

➢ هـ ـ على الداعي أن يرغب في الاستجابة لله ولرسوله، ويخبر بما أخبر الله به ـ سبحانه ـ في كتابه عما أعده للطائعين، ويحذر ويخوف من عذاب الله الذي

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١١٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، (١/ ٤٢)، برقم [٦٨].

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة (١/ ٤٢)، برقم [٧٠].

أعده للعاصين، ولكن بأسلوب فيه الرقة عند الحديث عن أهل الجنّة، ويتسم بالخوف عند الحديث عن أهل النار، كما ذكرنا عن سيدنا نوح عليه السلام حين رغب قومه في الاستجابة لدعوته ليغفر الله لهم ويمتعهم بنعمه الكثيرة في الدنيا، كما حذرهم من عقاب الله الذي سيحل بهم إن هم أعرضوا وعصوا، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

ومن آيات الترهيب والتحذير من عذاب الله قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طـه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

ومن الآيات التي جمعت بين الترغيب والترهيب قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤].

من كل هذه المسالك من ترغيب وترهيب، يستطيع الداعية أن يميز حال المدعو من تقبل وعدمه، فإن تقبل فقد حصل المقصود، وإن كانت الأخرى فليعلم أن المنهج الذي يسير فيه فيه خلل يحتاج إلى الإصلاح، أو الانتقال إلى أسلوب آخر وهكذا حتى يحصل المقصود من الدعوة، ولا ييأس؛ فقد صبر سيدنا نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا.

➢ و ـ من لوازم الترغيب والترهيب التي ينبغي للداعية أن يعيها مسألة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان، ولا بد وأن يشاهدها، ويحس بها، ويتعرض لإغرائها، مما قد يجره إلى الركون إليها، والتعلق بها، ونسيان الحياة الباقية ـ وهي الآخرة ـ.

لذا فإنه ينبغي له أن ينفر منها بالقدر الذي يجعل المدعو يوازن بين الحياتين؛ فلا ينسى الآخرة كليًا، ولا يترك العمل للدنيا، وإنما ينفره منها لتكون وسيلة إلى الدار الحقيقية، ثم يكشف للمدعو حقيقة الدنيا كما صورها القرآن: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1] [الحديد: ٢٠].

➢ ز ـ على الداعية إلى الله ـ تعالى ـ ألا يستعجل الثمرة من دعوته؛ بل يستمر في ذلك ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ولا يدع لليأس مجالًا يتسلل إلى نفسه، ومن يدرس سيرة محمد ﷺ وأصحابه يجد العجب العجاب في تذليلهم للصعاب؛ والأخذ بالأسباب التي جعلتهم جيلًا كانوا هم أولي الألباب.

ولذلك كانت الأناة مظهرًا من مظاهر خلق الصبر؛ لأنها تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في موضعها، فهي ركن من أركان الحكمة، بخلاف العجلة؛ فإنها تعرضه لكثير من الأخطاء والإخفاق، والتعثر والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وبخلاف التباطؤ والكسل، فهو يعرضه للتخلف والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها، وقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه، وذم التباطؤ والكسل ونهى عنه، ومدح الأناة وأمر بها، وعمل على تربية المسلمين على الأناة والتثبت الحكيم في القيام بالأعمال وتصريف الأمور[2].

والله ـ سبحانه ـ أمر نبيه وصفيه من خلقه بالتأني وترك التعجل، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]، وأمر عباده المؤمنين بالتأني والتثبت بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: أصول الدعوة، ص(٤٤٠).

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها (٢/ ٣٦٧ و٣٦٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وقد كان محمد ﷺ أعظم الناس أناة وتثبتًا، فكان لا يقاتل أحدًا من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر؛ فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم»(١).

وعن عبد الله بن سرجس المزني، أن النبي ﷺ قال: «**السمت الحسن، والتؤدة والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة**»(٢).

وبهذا يُعلم أن الأناة والرفق في كل شيء من أمور الدنيا محمودة عواقبه، فما دخل الرفق والأناة في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(٣).

٢ ـ درسٌ في قوة العزيمة:

كان سيدنا نوح عليه السلام قوي العزيمة، غير آبه بما يثار حوله من شبهات أو إشاعات باطلة، استطاع بتوفيق الله دحض هذه الشبه والمفتريات، وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج الدامغة، وإليك أمثلة لتلك الشبه والرد عليها:

أولًا: كون نوح في نظرهم من البشر:

أشاع الملأ الطغاة عن نوح عليه السلام أنه بشر مثلهم، ولا يمكن أن يوحي الله إلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء ١/ ٢٠٧، برقم [٦١٠].
ورواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (١/ ٢٨٨)، برقم [٣٨٢].

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة (٤/ ٣٦٦)، برقم [٢٠١٠]. وعبد الله بن سَرْجِس حليف بني مخزوم، صحابي جليل، سكن البصرة، انظر: التقريب ص(٣٠٥).
وانظر: فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٣/ ٢٧٧).
وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٩٥)، برقم [١٦٣٥]. وانظر: صحيح الجامع الصغير (٣/ ٢٢٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٤/ ٢٠٠٤)، برقم [٢٥٩٤].

بشر؛ حيث قاسوا هذا على أنفسهم، فالمساواة في البشرية بينهم وبينه تنافي - في زعمهم - دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر بجعل أحدهما تابعًا والآخر متبوعًا[1]، وما ذكر من الوحي هذا لا يتأتى إلا لملك من الملائكة، قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

قال أشراف وكبراء قوم نوح: ما نراك يا نوح إلا بشرًا مثلنا، وأرادوا بذلك: ليس فيك يا نوح مزية تخصك من بيننا بالنبوة، ولو كان ذلك لرأيناه، لا أن ذلك محتمل لكن لا نراه[2]. وهذا الرأي منهم جهل بالقيم الحقيقية التي من أجلها استحق الإنسان الخلافة، واستحق حمل رسالات الله ﷻ.

فلم تفت هذه الشبهة المثارة في عضد نوح؛ لأنه متوكل على الله، لا يهمه ولا يغيظه ما يقولون؛ بل يرد عليهم بلطف مقال وحسن فعال فيقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

إذًا فهو يتلطف معهم في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها، ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولًا إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها، ثم هو يقرر لهم مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع بالنظر والتدبير؛ لا بالقهر والسلطان والاستعلاء[3].

ثانيًا: النبي في زعمهم لا يكون إلا ملكًا:

تبريرًا لما قالوه من قبل: في أن النبي لا يكون بشرًا؛ وإنما يكون ملكًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، أي: لو شاء الله لَأَرْشَدَ البشر عن طريق إرسال ملائكة؛ لأنهم أقدر من البشر لتحقيق هذا الغرض؛ لعلو شأنهم، وقوة خلقهم، وكثرة علومهم[4].

(١) تفسير القرطبي (١٢/١١٨)، تفسير المنار (١٢/٦١).
(٢) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (١٢/٣٧).
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/١٨٧٣ - ١٨٧٤).
(٤) تفسير الرازي (٢٣/٩٢).

فهم كما يقول سيد قطب: «يحيلون هذا الأمر إلى السوابق المألوفة؛ لا إلى العقل المتدبر»[1]. وهذا هو الذي قاله الطغاة من بعدهم في نبوة سيد الخلق محمد ﷺ، واتخذوا هذا القول ذريعة لتكذيب الرسل الكرام والطعن في رسالاتهم، فما بعث الله ـ تبارك وتعالى ـ نبيًّا ولا رسولًا إلا ووقف المشركون في وجهه وقفة استكبار وعناد يتساءلون: لماذا لا يكون الرسول من الملائكة؟ ولماذا لا يكون من الأشراف العظماء من أهل الثروة والغنى والسلطان؟ فكأنهم ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[2] [الذاريات: ٥٣].

فيأتي الرد من نوح بكل ثقة وقوة عزيمة وإصرار على بيان الحق: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإنه ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم، فهذا من لطف الله وإحسانه إليكم؛ لينذركم، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ولعلكم ترحمون، ومن الرحمة أن يكون بشرًا لا ملكًا[3].

وإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل إليهم بشرًا، فتعجبهم من ذلك هو الذي يستدعي العجب؛ لأنه:

١ ـ لو كان الرسل من الملائكة لما استطاع البشر الأخذ عنهم أو الاجتماع إليهم.

٢ ـ لو كان الرسول المبعوث إلى الناس ملكًا لكان للناس حجة في عدم الاتباع؛ وهو أن يقولوا: إن هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا وأمرنا باتباعهم ليسوا بشرًا من جنسنا، فهم ملائكة ونحن بشر، وطبيعتهم تختلف عن طبيعتنا...

٣ ـ لو كان الرسول ملكًا لما استطاع الخلق أن يتلقوا الوحي عنه؛ لأنه إنما جاء في صورة ملكية يفزعون منها؛ لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة من قبل.

٤ ـ بما أن الملائكة أرواح نورانية، منزوعة الغرائز الشهوانية، والبشر بعكس ذلك، فهذا من أبسط الأعذار أمام المشركين في تبرير مخالفاتهم لأوامر الله ونواهيه؛ بأن يقولوا للملك: إنك لا تحمل مثل غرائزنا، وليس لنفسك شهوات

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٤٦٤). (٢) سيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٣).

مثل شهواتنا، ولو كانت لك هذه الغرائز لخالفت مثلنا.

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في معرض الرد على المشركين حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو رأوا الملك على صورته لماتوا؛ إذ لا يطيقون رؤيته»[١].

ثالثًا: كون أتباع نوح من الأرذلين:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، «أراذلنا»[٢]، أي: أرداؤنا وأخساؤنا؛ وهم الذين لا حسب لهم ولا مال ولا جاه، ومعناه: أن هؤلاء الأراذل لم يكن اتباعهم لك عن تروٍّ ولا فكر ولا نظر ولا تدبر، ولو أنهم أمعنوا النظر والفكر والتدبر لم يتبعوك[٣].. فكيف نصدق قولك وهؤلاء أتباعك الأرذلون فَنعدُّ منهم[٤]. وهذا هو الكبر المستقر في نفوسهم، فهم يتهربون من الواقع بإلقاء اللوم على نوح عليه السلام؛ لأنه هو السبب في عدم إيمانهم بإيواء الفقراء، وترك الأشراف والرؤساء منهم، فيأتي الرد من نوح ـ كعادته ـ بلطف ولين بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٣٩)، تفسير المنار (٧/ ٣٥١).

(٢) الأرذل: جمع رذل؛ وهو الدون من كل شيء؛ في منظره وحالاته، ورجل رذل الثياب والفعل، والأراذل جمع أرذل، كقوله تعالى: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقوله ﷺ: «أحاسنكم أخلاقًا»، الأراذل جمع الجمع، وقال بعضهم: الأصل فيه أن يقال: هو أرذل من كذا، ثم كثر حتى قالوا: هو الأرذل، فصارت الألف واللام عوضًا عن الإضافة. انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٢/ ١٧)، تفسير الرازي (١٣/ ٢١٢)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص(٢٠٣).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ١٧)، تفسير الرازي (١٧/ ٢١٢، ٢١٣)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٤)، روح المعاني (١٢/ ٣٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٢)، تفسير المنار (٧/ ٦١).

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣١].

* قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن هذا هو الجواب على هذه الشبهة؛ وهيَ قولهم: لا يتبعك إلا الأراذل من الناس. وتقرير هذا الجواب من وجوه[(١)]:

الوجه الأول: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: أنا لا أطلب مالًا على تبليغ دعوة الله لكم حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرًا أو غنيًّا؛ وإنما أجري على رب العالمين، وإذا كان الأمر كذلك فأنا أدعوهم، ومن يستجيب فهو من أتباعي وجلسائي؛ سواء كان فقيرًا أو غنيًّا.

الوجه الثاني: أن القوم نظروا إلى الظاهر من أمر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أنه يريد المال والترفع عليهم به؛ ظنًّا منهم أنه يتوسل بها لأخذ أموالهم، فرد عليهم بأنه لا يأخذ أجرًا على تبليغ رسالة الله، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

الوجه الثالث: أن الله ـ تعالى ـ أعطاه أنواعًا كثيرة توجب فضله عليهم، أهمها: أنه لم يسع في طلب الدنيا؛ وإنما يسعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل. فلعل المراد: تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه.

ثم إنهم سألوه أن يطرد هؤلاء الفقراء حتى يتبعوه، فقال دون تردد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]، أي: ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا لاحتقاركم لهم، وهذا جهل منكم بقدرهم ومنزلتهم عند الله.

ويكون نوح قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويمكن أن يكون على وجه الاختصام، أي: لو طردتهم لخاصموني عند الله، فيجازيني بما أستحقه من العذاب، فلا أحد يمنعني منه ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ٢١٥).

ثم أكد أنه لا يدعي الثراء والغنى والقدرة عليه، وأنه لا يعلم الغيب حتى يصل به إلى ما يريد، ثم هو بشر؛ وليس بملك يدعي صفة أعلى من صفات الإنسانية ليرتفع بها في أعينهم، ثم أعلن صراحة أنهم إن شكوا في إيمان من آمن منهم ونسبوهم إلى النفاق أنه لن يطردهم أيضًا؛ لأن الظاهر منهم الإيمان، والباطن يعلمه الله، فالمحسن له الحسنى، ومن قال: إنهم منافقون فقد قال ما لا علم له به، ويكون ظالمًا لنفسه»[1].

وهكذا ينفي نوح عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة، وكل هالة مصطنعة تطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة، ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية، ويردهم في نصاعة الحق وقوته مع سماحة القول وودّه إلى الحقيقة المجردة؛ ليواجهوها ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة، فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعًا نموذجًا للداعية ودروسًا في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس[2].

رابعًا: لا فضل لنوح والمؤمنين عليهم:

ذكر الله ـ جل شأنه ـ في معرض جدال قوم نوح له أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

أي: ما نرى لكم علينا من فضل نلتمسه بمخالفتكم إيانا يجعلكم أقرب إلى الهدى، أو أعرف بالصواب، فلو كان معكم خيرٌ وصوابٌ تمتازون به لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا أنتم إليه[3].

إذًا يرون الفضل بالقوة والكثرة والعلم والرأي، وهذا في ظنهم مصدر أحقية الاتباع ولا توجد، فمن أين أتاهم ما يدعون ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾؟ أي: نوح في دعواه، وأتباعه في تصديقه.

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٦ ـ ٢٧)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٩)، تفسير روح المعاني (١٢/ ٤٤).
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٨٧٥).
(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٥/ ٢٩٦، ٢٩٧)، تفسير المنار (١٢/ ٦١).

وهذا كما يقول سيد قطب: «هو القياس الخاطئ؛ حيث قاسوا الفضل بالمال والفهم بالجاه، والمعرفة بالسلطان، فذو المال أفضل، وذو الجاه أفهم، وذو السلطان أعرف، وهذا جهل؛ لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالعلم والعمل، ثم كيف اطلعوا على قلوب الخلق وحكموا؟! لا شك أنه العناد والاستكبار واتباع الهوى، وهذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائمًا حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة وإن بدت في ثوب من الحضارة قشيب[(١)]، وهي انتكاسة للبشرية من غير شك؛ لأنها تصغر من القيم التي صار بها الإنسان إنسانًا، واستحق الخلافة في الأرض، وتلقي الرسالة من السماء، وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية»[(٢)].

خامسًا: قولهم بأن نوحًا يريد أن يتفضل عليهم:

قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الشاهد ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يريد أن يرتفع عليكم على سبيل التجبر والتكبر بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه من دون قومه؟![(٣)].

والناظر في هذا الادعاء يرى أن نوحًا ﷺ لم يصدر منه كلمة واحدة تدل على ما يدعون؛ وإنما يريد هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، وانظر لقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، فهو لا يريد أجرًا ولا تفضلًا عليهم؛ وإنما يدعوهم ليغفر الله لهم، ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال، وهذه هي صورة لإصرار الداعية على الدعوة، وتحيّن كل فرصة

---

(١) قشيب: القشب والقشيب: الجديد والخَلِقُ، وفي الحديث: «أنه مر وعليه قشبانيتان»، أي: بردتان خَلقان. لسان العرب مادة «قشب» (١١/ ١٧٠). وقال صاحب المعجم الوسيط: الجديد والنظيف، يقال: ثوب قشيب، وسيف قشيب: حديث عهد بالجلاء. المعجم الوسيط، حرف القاف، مادة «قشب» ص(٧٣٥).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٢).

(٣) تفسير القرطبي (١٢/١١٨)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٤).

ليبلغهم إياها احتسابًا، فلا مصلحة له فيها يرعاها ويجامل على حسابها، ولا أجر يتقاضاه من المهتدي على هدايته، ولا مكافأة ولا جُعل يحصله على حصول إيمانهم؛ بل يسعد كل السعادة إذا اهتدى حائر، أو تاب تائب، وفي الحديث: **«لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم»**[1].

وهكذا يجب على الداعية أن يتحلى بالعزيمة القوية؛ لكي يتغلب بها على كل ما يصادفه من عقبات ومشقات، وليكن ما واجهه نبي الله نوح من عقبات وشبهات وما تحلى به من لطف في مقال وحسن فعال أمام ناظره وتحت بصيرته، ولا يُظن أن هذا كان ضعفًا منه؛ وإنما هو الصبر العظيم الذي أوزعه الله إياه حتى بلغ رسالته مع ما لقي من الإعراض والإيذاء الشديدين اللذين تلقاهما بشجاعة بالغة، معتمدًا في ذلك على الله ﷻ في كل ما يصادفه من عقبات وأذى، ومثله إخوانه النبيون من بعده حتى نصرهم الله تعالى.

٣ ـ درس في الولاء والبراء حتى مع الأقرباء:

الوَلاية: ضد العداوة، وأصلها: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد[2].

والولي سمي وليًا من موالاته للطاعة؛ أي: متابعته إياها. والولي: القريب، يقال: هذا يلي هذا؛ أي: يقرب منه، ومنه قوله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر»**[3]، أي: لأقرب رجل إلى الميت.

تعريفها: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام.

---

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (٢/ ٣٦١)، برقم [٣٠٠٩].
ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/ ١٨٧٢)، برقم [٢٤٠٦].

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه (٤/ ٢٣٧)، برقم [٦٧٣٢].
ورواه مسلم، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها (٣/ ١٢٣٣)، برقم [١٦١٥]. كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنيات.

وأما البراء فهو: البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار(١).

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي قصة نوح يعرض لنا القرآن مثلًا حيًّا على ذلك، فنوح تأخذه عاطفة الشفقة على ولده، فيطلب من ربه أن ينجي ابنه من الهلاك، فيعاتبه الله على ذلك ويعتبر عمله من الجهل الذي لا يليق أن يتصف به.

ومن الدروس فيه:

> **أولًا:** على الداعية أن يرغب في الولاء لله - تعالى - ولرسوله والمحبة فيهما، لحديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أَحِبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعاد في الله؛ فإنك لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»(٣).

> **ثانيًا:** على الداعية إلى الله - تعالى - أن يعرف أن العمل الصالح هو الوسيلة إلى النجاة وليس النسب، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ

(١) كتاب الولاء والبراء لمحمد بن سعيد القحطاني ص(٩٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان (٤/ ٢٨٤)، برقم [٦٩٤١].

ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد بهن حلاوة الإيمان (١/ ٦٦)، برقم [٤٣]. واللفظ للبخاري.

(٣) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله (١/ ٣١٢).

﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من ما لي ما شئتم**»[(١)].

ونحن رأينا من قصة سيدنا نوح عليه السلام شفقته على ابنه ليخرجه من ظلم الكفر إلى نور الإيمان، فما استطاع، فلجأ إلى الله أن ينجيه، فجاء الرد من الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦].

ومن هذا يتبين لنا أن نسب الإنسان لا يغني عنه شيئًا إذا كان صاحبه عاريًا من الإيمان والعمل الصالح، والله ـ تعالى ـ يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة؛ وليس بأنسابهم، ولا يحابي أحدًا منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين[(٢)]. ثم إن الإيمان والعمل الصالح لا علاقة لهما بالوراثة والأنساب؛ بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات، ولو كان للوراثة تأثير لكان جميع أولاد آدم سواء، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين[(٣)].

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب: «إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض، أوالوطن، أو القوم، أو العشيرة، أو اللون واللغة، أو الجنس والعنصر، أو الحرفة والطبقة، كل هذه الوشائج قد توجد ثم تنقطع بين الفرد والفرد، والرابط الوحيد هو الإيمان لا غير، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ١٨٧)، برقم [٢٥٥٧٦]، مؤسسة قرطبة. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (١/ ١٩٢)، برقم [٢٠٥].

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٨٧).

(٣) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ٤٢).

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العنصري الذي تتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديمًا وحديثًا إلى آخر الزمان، ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله لأمته المختارة»[1].

➢ **ثالثًا**: إن في كفر ابن نوح تسلية وعزاءً للآباء الصالحين عند فساد أبنائهم، فهذا نبي الله نوح (وهو من أولي العزم من الرسل) كان ابنه كافرًا، فإذا وجد بعض الآباء فسادًا من بعض أبنائهم فليعتصموا بالله، وليستعينوا به في طلب صلاحهم[2] وإرجاعهم إلى الحق، ثم ليعلموا أن ذلك من الابتلاء الذي يُبتلى به العبد على قدر إيمانه، وقد سئل ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ فقال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فما يبرح البلاء العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[3].

قلت: البيئة في زمن نوح عليه السلام أثرت على ابنه، فكفر وعصى أباه، والبيئة في زماننا أشد تأثيرًا على الشاب؛ وبخاصة إذا كان يسكن أو يسافر إلى بلاد الكفار كثيرًا، أو لكثرة ما يشاهده في قنواتهم من اختلاط وسفور فاحش، وإذا استقر به المقام في بلادهم الكافرة قد تغلبه البيئة أو تجبره على إدخال أولاده مدارسهم، فيخشى من تحول أفكارهم وانسلاخهم من دينهم، وربما يتزوج من نسائهم اللائي تشبعن ـ كما يقال ـ بالحرية الفاسدة، عند ذلك يصعبُ عليه التغيير؛ لأن قوانينهم تجيز لكل من أراد أن يخرج على والديه، ألا فليحذر المسلم الغيور من ذلك!.

هذا، وقد دخل إلى بلاد المسلمين في عصرنا تلك القنوات الفضائية المرئية والمسموعة والمقروءة ما قد يؤثر على الأسرة والمجتمع في صلب دينها وعقيدتها، وحق على علماء المسلمين ودعاتهم أن يبينوا للمسلمين خطرها، وينشئوا البديل المضاهي والمبين للحق.

➢ **رابعًا**: على الداعية أن يجتهد في تربية أبنائه التربية الصالحة، ويوجههم

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٨٦). (٢) القصص القرآني ص(٥٠).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب (٥٦) ما جاء في الصبر على البلاء، برقم [٢٣٩٨]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الوجهة السليمة الموافقة للفطرة التي قال الله عنها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولحديث: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»(١).

وليعلم أنه مسؤول؛ حفظ أم ضيع، لقوله ﷺ: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته**»، قال الراوي: فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ، وأحسبُ النبي ﷺ قال: «**والرجل في مال أبيه راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**»(٢).

ففي هذا الحديث نجد أنه يحدد مسؤولية كل أحد، ويضع حدودها بدقة فريدة.

< **خامسًا:** على الداعية أن يحذر أولياء الأمور من اتخاذ الأبناء أو الأقارب الكفار أولياء وأحبابًا من دون المؤمنين؛ لأن ذلك يؤدي إلى الكفر. والعياذ بالله!.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أي: أن من اتخذ الكفار أعوانًا وأنصارًا يواليهم على دينهم ويظاهرهم ﴿فَلَيْسَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١/ ٤٢٤)، برقم [١٣٨٥]، وكتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله (٣/ ٢٧٥)، برقم [٤٧٧٥].

ورواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم [٢٦٥٨] برواياته. واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستقراض، وفي كتاب الجمعة [٨٤٤]، وكتاب العتق [٢٣٦٨]، وكتاب الوصايا [٢٥٤٦]، وكتاب النكاح [٤٧٨٩]، وكتاب الأحكام [٦٦٠٥]، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه (٢/ ١٧٨)، برقم [٢٤٠٩]. ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق (٣/ ١٤٥٩)، برقم [١٨٢٩]. واللفظ للبخاري.

مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، أي: قد برئ من الله، وبرئ الله منه ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، أي: إلّا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل[(١)].

ولقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ولقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وغيرها من الآيات الدالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفرٌ أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة[(٢)].

قال أحد الحكماء:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[(٣)]

قال ابن حزم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]: «هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار»[(٤)].

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أخبر الله أن متوليهم هو منهم».

وقال في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]: «إن الإيمان ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا»[(٥)].

وإليك بعضًا من مظاهر موالاة الكفار التي نهى الله عنها:

١ ـ التشبه بالكفار في الملبس والكلام وغيرهما، لحديث: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[(٦)].

٢ ـ الإقامة في بلادهم، وعدم الانتقال منها إلى بلاد المسلمين لأجل الفرار بالدين؛ لأن الهجرة لهذا المعنى واجبة على المسلم؛ لأن إقامته فيهم تدل على

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٦/ ٣١٣). (٢) تفسير القرطبي (٩/ ١٠٨).

(٣) البيت لطرفة بن العبد. انظر: ديوان طرفة بن العبد ص(٤٤).

(٤) المحلى (١٣/ ٣٥). (٥) الإيمان ص(١٤).

(٦) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة (٤/ ٣١٤)، برقم [٤٠٣١]. مسند أحمد (٧/ ١٤٢)، برقم [٥١١٤]. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال محمد ناصر الدين الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٥/ ٢٧٠)، برقم [٦٠٢٥].

موالاتهم، وقد حرم الله ذلك إذا كان يقدر على الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

فلم يعذر الله ـ تعالى ـ في الإقامة في بلاد الكفار، إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية، كالدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في بلادهم.

٣ ـ السفر إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس.

ويستثنى منها ما كان للضرورة، كالعلاج والتجارة وتعلم التخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بذلك، فيجوز بقدر الحاجة، وإذا انتهت وجب الرجوع فورًا إلى بلاد المسلمين.

٤ ـ إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين، ومدحهم والذب عنهم، وهذا من نواقض الإسلام وأسباب الردة. والعياذ بالله!.

٥ ـ الاستعانة بهم، والثقة فيهم، وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين، واتخاذهم بطانة ومستشارين[1]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فهذه الآية تشرح دخائل الكفار وما يكنونه نحو المسلمين من بعض، وما يدبرونه ضدهم من مكر وخيانة، وما يحبونه من مضرة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكل وسيلة، وأنهم يستغلون ثقة المسلمين بهم، فيخططون للإضرار بهم والنيل منهم.

لحديث: «**ارجع فلن نستعين بمشرك**»[2].

---

(١) انظر: كتاب الولاء والبراء ص(٢٣٠ ـ ٢٤٧)، وكتاب الولاء والبراء للشيخ صالح الفوزان (ص٣، ٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر (٣/ ١٤٩٩)، برقم [١٨١٧].

والأثر عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قلت لعمر ﷺ: لي كاتب نصراني، قال: ما لك قاتلك الله! أما سمعت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، ألا اتخذت حنيفًا مسلمًا! قلت: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم وقد أقصاهم الله»[(١)].

ومن هذه النصوص يتبين تحريم تولية الكفار أعمال المسلمين التي يتمكنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم لإلحاق الضرر بهم.

وهذا ما وقع في زماننا من استقدام الكفار إلى بلاد المسلمين؛ وبخاصة بلاد الجزيرة العربية، وجعلهم عمالًا وسائقين ومستخدمين ومربين في البيوت. فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

٦ ـ التأريخ بتاريخهم؛ وخصوصًا التاريخ الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم؛ حيث ابتدعوا من عند أنفسهم تاريخ ذكرى مولد المسيح ﷺ والمسيح منه براء. فاستعمال تاريخهم فيه مشاركة لهم، ولا أدل على ذلك من تجنب الصحابة لتاريخهم، وجعل هجرة الرسول ﷺ بداية للتاريخ الإسلامي[(٢)].

> **سادسًا**: على الداعية إلى الله أن يكثر من التوبة والاستغفار إذا رأى أنه أخطأ؛ وخاصة عندما تكون المعصية في جنب الله ـ تعالى ـ، كما فعل سيدنا نوح ﷺ حينما سأل ربه في نجاة ابنه، والمؤمن رَجّاع إلى الحق والصواب، وبالتالي ينبغي للدعاة خاصة أن يحذروا من الاغترار بأنفسهم، وعدم الاستمرار في الخطأ والمعاندة فيه، وعلى من تخلق بهذا أن يترك ما هو فيه؛ حتى لا تهلك الدعوة بأمثاله، أو حتى لا يقتدي الناس بخلقه السيئ.

> **سابعًا**: على الداعية أن يعلم أنه ما من كربة إلا ويتبعها فرج، وأن عظم الجزاء مع عظم البلاء؛ ولهذا كان جزاء سيدنا نوح من الله عظيمًا؛ حيث مكنه الله

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢٧)، باب لا ينبغي للقاضي أن يتخذ كاتبًا ذميًا.
(٢) يراجع كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ٥ ـ ٥١) في مثل هذا. والنصارى أنفسهم مختلفون في ولادة المسيح ﷺ، ومن أراد الاستزادة في ذلك فليرجع لكتاب الولاء والبراء في الإسلام، د/ محمد سعيد القحطاني، د/صالح الفوزان. وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٦٠، ١٦١).

في الأرض بعد أن طهرها من الكفرة ولم يبق على وجه الأرض إلا من كان مؤمنًا موحدًا، فيا لها من سعادة إذ نجاه الله واستجاب دعاه! ألا فليعلم الدعاة إلى الله أن الله معهم ولو عذبوا أو ضربوا أو سجنوا أو سخر منهم أو لم يستجب لهم، ينصرهم ولو بعد حين؛ ولكن بعد الابتلاء والتمحيص؛ لأن النصر لا يأتي إلا مع تقديم التضحيات والبذل والصبر على المحن والابتلاءات، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا[1].

٤ ـ درس في حقائق القرآن العلمية بمناسبة سورة «نوح»:

باديء ذي بدء نعلم أن حقائق القرآن العلمية المكتشفة كثيرة؛ ولكننا سنقتصر على مثالين وردا في قصة نوح:

< **أولًا**: قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ما هذا السراج؟ حيث ورد أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣]، وورد ذكره في قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، إذًا فما هذا السراج الوهاج؟

إنه ذلك السراج الهائل الذي سخّره الله بحكمته؛ لينتفع به الإنسان من عهد آدم عليه السلام إلى وقتنا الحاضر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الشمس مصدر الضوء من ناحية، ومصدر حرارة من ناحية أخرى؛ لأن الضوء يشتمل دائمًا على الحرارة، وقد عبر الله به في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

هذا، ويقدر العلماء[2] أن أشعة الشمس التي تصل إلينا مقننةٌ جدًا؛ لئلا يحترق ما يصلح لعيشة الإنسان على هذا الكوكب الأرضي، ولا يقدر نعمة ذلك إلا من تدبر خلق الله، وفهم الغاية من خلق هذه الكتلة النارية المتوهجة التي لو اقتربت الأرض من الشمس نصف المسافة التي بيننا لاحترق كل ما على ظهر الأرض، ولو ابتعدت أرضنا عن الشمس نصف المسافة لتجمدنا بردًا وتجمدت كل الكائنات الحية؛ لكن الله ـ جلت قدرته ـ أحكم النظام؛ فسخرها بقدر معلوم

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، بتصرف (١/ ٧٦ ـ ٧٧).

(٢) أي: علماء الفلك. انظر: كتاب «الله» لسعيد حوى (ص٢٠)، الموسوعة العلمية الميسرة ص(١٠ ـ ١١).

ونظام متقن، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1] [إبراهيم: ٣٣ - ٣٤].

وأما القمر فقد تحدث القرآن الكريم عن وظيفته وقد أبدع الخالق صنعته وإتقانه في عالم الزمان والمكان، فجعل للقمر منازل على أبعاد مكانية مقدرة وأشكال متوالية، حيث يتخذ أشكالًا خاصة تكون بحجم محدد وزمن مقدر وبترتيب تصاعدي في النصف الأول من الشهر، ثم بترتيب تنازلي في النصف الأخير من الشهر.

وهذا التنظيم المحكم ثابت لا يضطرب ولا ينحرف، فالشمس في حركتها ونظامها، والقمر كذلك في حركته ونظامه، ولا يطغى أحدهما على الآخر، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى حين يقول: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]؛ حيث يجريان في بروجهما ومنازلهما بحساب مقدر منظم، يترتب عليه تنظيم أمور الكائنات الأرضية، وتعاقب الفصول والأوقات[2].

> **ثانيًا:** الآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

يبدأ الإنبات للإنسان وهو في بطن أمه بعد ما كان نطفة؛ حيث يوجهها الرازق - سبحانه - إلى مكان رزقها لتلتصق بجدار الرحم في المكان المعد لها، وبعد التصاقها تذوب الحواجز بتدبير الحكيم الخبير، فتتصل بدماء الأم مباشرة، فتتغذى من غذائها حتى تخرج إلى الوجود وهو لا يزال متصلًا بالحبل السري الذي يتغذى بواسطته تسعة أشهر غالبًا، فيقطع هذا الحبل وتبدأ عملية أخرى من الإنبات؛ وهي مرحلة الإرضاع الممتلئ بالحليب المشتمل على المواد المتكونة من عناصر الأرض، ثم يترقى قليلًا فيبدأ يأكل من تلك العناصر مباشرة، وهذا الطعام أنشأه الله من التربة الصالحة للإنبات وركبها؛ بحيث يسهل انتقال ما فيها من مواد إلى النباتات، وتشارك ملايين البكتريا[3] في إعداد التربة وتهيئتها، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾

---

(١) كتاب التوحيد لعبد المجيد الزنداني (٢/ ٤٤)، الإعجاز العلمي في الإسلام ص(٥٧)، من علم الفلك القرآني د/ عدنان الشريف ص(٨٠ - ٨٦).

(٢) كتاب «الله» ص(٥١).

(٣) كائنات حية صغيرة لا تُرى بالعين المجرّدة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ١٩ ـ ٢٠].

بعد التربة تأتي عملية البذور التي أعدها الله لتحويل تراب الأرض إلى أشجار ونباتات، والأشجار أخذناها من بذور سابقة، وهكذا حتى تقف أمام الإرادة الحكيمة؛ إرادة الرزاق الذي خلقنا محتاجين للطعام، والذي دلنا على الغذاء قد أوجد الأصول الأولى التي أخذنا منها البذور، فإذا نزل المطر انفلقت البذور وشقت الأرض إلى اتجاهين متعاكسين: إلى أعلى لتكوين الغذاء المحتاج إليه، وإلى أسفل لتكوين قواعدها وعروقها الممتصة للغذاء، ثم يرسل لها الماء المتكون من أبخرة البحار المساق إلى طبقات الجو العليا بواسطة الرياح ليتكثف ثم ينزله الله نطفًا صغيرة؛ لا سيولًا دافقة، أو جبالًا من برد، ثم يجريه أنهارًا ويسلكه ينابيع من مياه جوفية قريبة محفوظة بصحن من الصخر حتى لا يغور في الأعماق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وبغير الهواء وحرارة الشمس ما كنا وجدنا ثمارًا أوحبوبًا أو شجرة نستظلُّ بها، ولو أن الشمس كانت دائمًا ساطعة لاحترقت جميع النباتات، ولكن تعاقب الليل والنهار بانتظام دائم يعمل ـ بإذن ربه ـ على تنشيط تكوين الغذاء في النهار والراحة في الليل، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، ثم تتكون المادة الخضراء ليتكون منها الغذاء؛ حيث تأخذ الأملاح والمعادن من التربة، وثاني أكسيد الكربون من الهواء والحرارة من الشمس، وتصنع من الجميع بقدرة الله سكرًا أوليًّا، ثم تحول السكر إلى المواد الغذائية الصالحة لتغذيتنا وتغذية أنعامنا[١].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

هذا ما كان في قدرته وصنعه؛ فماذا عن عقوبته لقوم آخرين لا يشكرون الله على نعمه، ولا يوحدونه في عليائه؟ إنهم قوم هود.

---

(١) التوحيد للزنداني (٢/ ٣٧ ـ ٣٩).

عقوبة قوم هود عليه السلام

تمهيد

قوم هود: هم عاد المذكورون في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥، وهود: ٥٠]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٤]، وقوله: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وعاد: اسم رجل منهم، ثم صار بعده اسمًا للقبيلة فنسبوا إليه. ومكانهم ـ كما ذكر الله تعالى ـ في (الأحقاف)[١] بين عمان إلى حضرموت. وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وكثروا، وقهروا أهلها بقوتهم التي آتاهم الله، وكان قد أعطاهم من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، أي: عظمًا وطولًا وقوة وشدّة[٢]. وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا، فأمرهم بتوحيد الله والكف عن ظلم الناس، فكذبوه وتجبروا وأكثروا الفساد في الأرض﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عقيمًا سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فأهلكتهم ولم تبق منهم أحدًا، ونجى الله هودًا ومن آمن برحمة منه ومن خزي ذلك اليوم وهو القوي العزيز[٣].

---

(١) الأحقاف: جمع حِقف؛ وهو الجبل من الرمل، أو هو ما استطال من الرمل العظيم ولم يبلغ أن يكون جبلًا. تفسير القرطبي (١٦/ ٢٠٢)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٣).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٢٤٣)، وقصص الأنبياء المسمى «عرائس المجالس» ص(٤٨).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٢٤٣)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٢)، تفسير المنار (٨/ ٤٩٥).

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت عقوبتهم

جاء ذكر قوم هود عليه السلام في سور عدة من القرآن الكريم، وكل سورة فيها من النسق القرآني ما لا نجده في السور الأخرى.

وقد وردت الإشارة إلى (عاد) دون تفصيل في سور كثيرة:

أولًا: نبدأ بالسور التي أشارت إلى عقوبتهم:

«التوبة»، «إبراهيم»، «الحج»، «الفرقان»، «العنكبوت»، «ص»، «غافر»، «ق»، «النجم»، «الفجر».

فسورة **«التوبة»**: جاء ذكرهم فيها ضمن ذكر الأقوام المكذبين دون تفصيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وسورة **«إبراهيم»**: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وسورة **«الحج»**: قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

وسورة **«الفرقان»**: قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨ ـ ٣٩].

وسورة **«العنكبوت»**: قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وسورة **«ص»**: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

وسورة «غافر»: قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١].

وسورة ق: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٣].

وسورة «النجم»: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١].

ثانيًا: السور التي فصلت عقوبتهم:

أولًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** الآيات تتحدث عن الحوار الذي دار بين هود عليه السلام من جهة ـ وهو فرد واحد ـ وبين قومه المعاندين من جهة أخرى، وذلك حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مع تذكيره الدائم لهم بنعم الله عليهم، وينصح لهم بكل لطف ورحمة، فيردون عليه بكل حمق وسفاهة، وإن كان صادقًا فيما يقول فليأتهم بالعذاب الذي يتوعدهم به إن لم يؤمنوا ويوحدوا الله ـ تعالى ـ، فأخذهم عذاب الله ومقته، وقطع الله دابرهم وأصبحوا كأن لم يكونوا.

➢ **ثانيًا**: في قصة نوح عليه السلام ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وفي قصة هود ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، والفرق أن إثبات الفاء هو الأصل، وتقديره: أرسلنا نوحًا فجاء فقال، وأما حذفها في قصة قوم هود فلأن الحال اقتضى أن تكون مستأنفة[(١)]؛ لأنها وردت عقب قصة نوح، فصار السامع مترقبًا معرفة ما خاطب به هود قومه. فكان السؤال هنا: فبماذا دعا هود قومه؟ وبماذا أجابوا؟ فيقع الجواب بأنه قال: يا قوم، اعبدوا الله[(٢)]. هذا **أولًا**.

وثانيًا: إن في قصة نوح ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال هنا: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. فما الفرق بينهما؟

والفرق: أنه لم يظهر من قَبْلِ نوح عليه السلام عذاب عظيم يخاف منه الناس؛ فلذلك حذرهم منه.

وأما في عصر هود عليه السلام فقد كان عند الناس علم بتلك الواقعة قريبًا، فلا جرم اكتفى هود بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فكان قوله ذلك إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة في الدنيا.

والفرق الثالث: أنه قال في قصة نوح: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقال في قصة هود: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وذلك أنه كان في أشراف قوم هود من آمن، ولم يكن في أشراف قوم نوح من آمن به، وكذا في سورة «المؤمنون».

إلا أن هذا منقوض بما في سورة «هود»؛ حيث قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [هود: ٢٧]، والجواب عليه: أنه يجوز أن القول كان مرتين؛ المرة الثانية بعد إيمان بعضهم[(٣)].

الفرق الرابع: أنه تعالى ذكر عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وحكى عن قوم هود أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(١٨٨). (٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠١).
(٣) التفسير الكبير (١٤/ ١٥٥)، وانظر: تفسيره المسمى «أنموذج جليل» ص(١٥١).

والفرق: أن نوحًا عليه السلام كان يُخوّف الكفار بالطوفان العام، وفي نفس الوقت كان منشغلًا بإعداد السفينة، ويراه قومه وقد أتعب نفسه في إعدادها دون الحاجة إليها، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

أما هود عليه السلام فما ذكر شيئًا؛ إلا أنه زيف عبادتهم، واعتبر من اشتغل بعبادتهم سفيهًا قليل العقل، فعندها قابلوه بمثلها ونسبوه إلى السفاهة، ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وهذا يدل على أن حصول الشك في أصول الدين يوجب الكفر. نعوذ بالله من ذلك![1].

الفرق الخامس: قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال في قصة هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

والفرق: أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل.

ومعنى ذلك: أن القوم كانوا يجدّدون ضلالهم كلما دعاهم نوح عليه السلام، فلما كان من عادة نوح نصحهم كل يوم وتجديد الدعوة كل يوم وكل ساعة ذكره بصيغة الفعل ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

وأما هود عليه السلام فقابل السفاهة التي كانت صفة لازمة لهم بصفة في المعنى، فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، وهذا يدل على كونه ثابتًا في نصيحته مستقرًّا فيها[2].

الفرق السادس: قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقوله عن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

والفرق: أن نوحًا عليه السلام حين قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ففيه جمع لمعانٍ كثيرة مما تتضمنه الرسالة، وتأييد لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم، ويتضمن هذا الإيمان البديع تهديدًا لهم بحلول العذاب عليهم في العاجل والآجل إن هم استمروا على إصرارهم وعنادهم[3].

وأما وصف هود نفسه بأمين فلرد قولهم له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ١٥٦)، وكشف المعاني ص(١٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٤).

[الأعراف: ٦٦]، هذا من جهة. ومن جهة أخرى: تقريرًا للرسالة والنبوة، ومن جهة ثالثة: لتذكيرهم أنه كان فيهم كذلك قبل النبوة[١].

الفرق السابع: قول نوح ﷺ: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، أعاد ذلك إلا أنه حذف ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

والفرق: لاكتفائه بذكرها في القصة الأولى، وأما ما جاء بعدها من قوله: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فكله من خواص قصة هود[٢].

➢ **ثالثًا**: كما طلب قوم نوح العذاب طلب قوم هود العذاب، كأنهم خرجوا من مشكاة واحدة؛ ولكن الكفر هو الكفر والكفار بعضهم من بعض. وتأخير الغضب عن الرجس في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]؛ لأن الرجس - وهو خبث نفوسهم - قد دل على أن الله غضب عليهم، فوقوع الرجس والغضب عليهم حاصل في الزمن الماضي بالنسبة لوقت قول هود، واقترانه بـ«قد» للدلالة على تقريب زمن الماضي من الحال؛ مثل: قد قامت الصلاة. وتقديم ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧١]، على فاعل الفعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب؛ إيقاظًا لبصائرهم لعلهم يبادرون بالتوبة، ولأن المجرورين متعلقان بالفعل، فناسب إيلاؤهما إياه، ولو ذكروا بعد الفاعل لتوهم أنهما صفتان له[٣].

ثانيًا: سورة «هود»:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ١٥٦)، وانظر: التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٣).

(٢) التفسير الكبير (١٤/ ١٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٠). ومعنى إيلاؤهما: أتيا بعده.

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ﴾ [هود: ٥٠ ـ ٦٠].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠]، أي: في النسب لا في الدين. فإن قيل: إنه تعالى قال في ابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦]، فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين، وههنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين، فما الفرق بينهما؟

فالجواب: أن المراد من هذا الكلام استمالة قلوب قوم محمد ﷺ؛ لأن قومه كانوا يستبعدون في محمد ﷺ ـ مع أنه واحدٌ من قبيلتهم ـ أن يكون رسولًا إليهم من عند الله، فذكر الله ـ تعالى ـ أن هودًا كان واحدًا من عاد، وأن صالحًا من ثمود؛ لإزالة هذا الاستبعاد(١).

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

يرد سؤال هو: كيف دعاهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ قبل أن يقيم الدلالة على ثبوت الإله تعالى؟

والجواب: أن دلائل وجود الله ـ تعالى ـ ظاهرة في الآفاق والأنفس، وقلما تجد أحدًا ينكر وجود الله، قال الله في صفة الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾(٢) [العنكبوت: ٦١].

> **ثالثًا:** قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، كيف قدم الاستغفار على التوبة، والصحيح العكس؟

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٩).
(٢) المصدر السابق (١٨/ ١٠).

والجواب من وجوه:

الأول: أن المراد: استغفروا ربكم من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة(١).

الثاني: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا.

الثالث: قال الفراء(٢): «ثم» هنا بمعنى «الواو»، فلا يفيد ترتيبًا، فاندفع السؤال(٣). أو إنها للترتيب الرتبي؛ لأن الدوام على الإقلاع أهم من طلب العفو عما سلف(٤).

< **رابعًا**: إن قيل: هود كان رسولًا، ولم يظهر منه معجزة لقومه حتى قالوا له: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، فبأي شيء لزمتهم رسالته؟.

والجواب: أن هذا كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠].

ثم إنه قد جاءهم بأمور لا تحتاج إلى معجزة، وإنما هي مما يتبادر للعقل أن يصدقها، وما صدر منهم إلا عن عناد وتكبر(٥)؛ لأن الله ـ تعالى ـ آتاهم من الآيات الكثير، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [هود: ٥٩]. وإنما قصدوا من البينات التي جاءهم بها هود عليه السلام أنها لم تكن طبقًا لمقترحاتهم.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر...**»(٦) الحديث.

---

(١) كذا فسرها ابن جرير (١٥/ ٢٢٩). وانظر: الكشاف (٢/ ٣٧٧)، تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٢٠٣).

(٢) الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، المعروف بالفراء، لأنه كان يفري الكلام، وكان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، له معارف كثيرة ومؤلفات عديدة، من أشهرها: (معاني القرآن، المذكر والمؤنث) وغيرها، توفي في طريقه إلى مكة سنة ٢٠٧هـ. انظر: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦/ ١٧٦ ـ ١٨٢)، وانظر: الأعلام (٨/ ١٤٥).

(٣) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٠٣).

(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٩٦.

(٥) انظر: تفسير الرازي ص(٢٠٨، ٢٠٩).

(٦) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (١/ ١٣٤)، برقم [٢٣٩].

➢ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ [هود: ٥٤]، إن قيل: لَمَ لَمْ يقل: «إني أشهد الله وأشهدكم» لتتناسب الجملتان؟

فالجواب: أما إشهاد الله على البراءة من الشرك فصحيح، يفيد تأكيد التوحيد والالتزام به، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون وقلة مبالاة؛ لأنهم ليسوا بأهل للشهادة، فعدل به عن لفظ: «وأشهدكم»، وأتى به على صورة التهكم والتهاون، كما يقول الرجل لصاحبه إذا أتعبه في الجدال والخصومة: اشهد أني لا أحبك[1].

➢ **سادسًا:** قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [هود: ٥٧]، فجعل التولي شرطًا والإبلاغ جزاءً، والإبلاغ كان سابقًا على التولي، فكيف؟

والجواب: ليس الإبلاغ جزاءً للتولي؛ لأن المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ؛ وهو انتفاء تبعة توليهم عنه وبراءته من جرمهم؛ لأنه أدى ما وجب عليه من الإبلاغ[2].

➢ **سابعًا:** قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، ترى أنه كرر التنجية، فما فائدة ذلك؟

والجواب: أنه أراد تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي حصل لقومه أولًا، والثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة، ففي هذا منّة ثانية على هود ومن آمن معه. ومعنى الآية: أي نجيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا، ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة[3].

➢ **ثامنًا:** قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، إن قيل: ﴿بُعْدًا﴾ معناه عند العرب: الدعاء بالهلاك[4]، فما معنى الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم؟ وما الفائدة في قوله: «لعاد قوم هود»؟

---

(١) تفسير الرازي ص(٢٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٢)، وانظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٠٩)، كما في الكشاف (٢/ ٤٠٤).

(٣) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٠٩، ٢١٠)، كما في الكشاف (٢/ ٤٠٥)، التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٤).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٤٠٥).

والجواب: معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له[1]، وحقيقيون به. وأما فائدة ذكر عاد والتعريف بهم أنهم قوم هود لورود ذكر عادٍ الأولى وعادٍ الثانية؛ وهي ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]، كما سيأتي[2]، أو لأن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد[3].

ثالثًا: سورة «المؤمنون»:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١ ـ ٤١].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** إنها لم تَذْكُر النبي هودًا عليه السلام، ولا قومه عادًا صراحةً؛ وإنما ذكرت عقب قصة نوح عليه السلام، ونحن نعلم أنها إذا ذكرت عقبها كانت هي المقصودة، لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[4] [الأعراف: ٦٩].

> **ثانيًا:** العقوبة التي ذكرت أواخر الآيات هي الصيحة على خلاف ما ذكرت الآيات الأخرى، والجمع بينهما: أنه صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع

---

(١) تفسير الكشاف (٢/ ٤٠٥)، وانظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢١٠).

(٢) أي: ذكرهم في سورة «الفجر» ص١٧٣.

(٣) التفسير الكبير (١٨/ ١٦).

(٤) وبعض العلماء قال: المراد به هنا ثمود، لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة: «فأخذتهم الصيحة بالحق»، لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة، ولقوله في سورة «الحجر»: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]، فكان هلاكهم في الصباح، ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية؛ لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]. انظر: البحر المحيط (٦/ ٣٧٣).

الريح التي أهلكهم الله ـ تعالى ـ فماتوا عن آخرهم[1].

➢ **ثالثًا**: لم عدّى فعل «أرسلنا» بـ «في» دون «إلى» في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٣٢]؟ لإفادة أن الرسول كان منهم ونشأ فيهم، وكان التنبيه على ذلك مقصودًا إتمامًا للمماثلة بين حالهم وحال الذين أرسل إليهم محمد ﷺ[2].

➢ **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقال في سورة «الأعراف» و«هود»: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: ٥٣]، فهنا في سورة «المؤمنون» ذكرها (بالواو) وفي سورتي «الأعراف»، و«هود» بدون (الواو) فما الفرق؟

والجواب: أن الذي بغير «واو» فعلى تقدير سؤال سائل قال: فماذا قال قومه؟ فقيل له: قالوا: كيت وكيت، وأما الذي مع (الواو)، فعطفٌ لما قالوه على ما قاله، ومعناه: أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل[3].

➢ **خامسًا**: في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، إنهم لم يريدوا بقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ الشخص الواحد؛ بل أرادوا أن البعض يموت والبعض يحيا، وأنه لا إعادة ولا حشر[4].

➢ **سادسًا**: قوله تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، فجاء الخبر عن القوم الظالمين هنا معرّفًا، وفي قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[5] [المؤمنون: ٤٤]، جاء الخبر عنهم منكرًا، فما الفرق؟

والجواب: أن القرن الأول معروف أنهم قوم هود ـ أو قوم صالح على قول ـ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٢٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٠) م٩.
(٣) تفسير الكشاف (٣/ ١٨٦)، وانظر: التفسير الكبير (٢٣/ ٩٧).
(٤) التفسير الكبير (٢٣/ ٩٨).
(٥) هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]، غير معروفين بأعيانهم، فجاء بلفظ التنكير بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]؛ لأن عدم الإيمان هي الصفة العامة لجميعهم[١].

رابعًا: سورة «الشعراء»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٤٠].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** الحديث عن عاد في سورة «الشعراء» يختلف عنه في سورة أخرى؛ حيث امتاز بنمط جديد يتناسب مع موضوع السورة؛ من حيث كثرة القصص فيها، وتمييز كل قصة عن غيرها.

* قال في الكشاف: «كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها، ولأن في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وُقرت عن الإنصات للحق، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح أذنًا أو يفتق ذهنًا. اهـ[٢].

---

(١) كشف المعاني ص(٢٦٧)، وانظر: درة التنزيل ص(٢٥٨، ٢٥٩)، البرهان في متشابه القرآن ص(٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) تفسير الكشاف (٣/ ٣٣٤).

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣]، ترى أنه قرن بين الأنعام والبنين، فكيف يصح ذلك؟

فالجواب: لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها، والقيام عليها؛ فلهذا قرن بينهما[(١)].

> **ثالثًا:** كرر الدعوة لهم بالتقوى والطاعة في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٣١]، زيادة في دعائهم إلى الآخرة، وزجرًا عن حب الدنيا، والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر عن الطاعة[(٢)].

> **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، ألم يكن قوله: «أم لم تعظ» أخصر والمعنى واحد، فكيف عدل عنه؟

والجواب: أن المعنى يختلف؛ لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلًا، وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم من قوله: «أم لم تعظ»[(٣)].

خامسًا: سورة «فصلت»:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ - ١٦].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** إنها تتحدث من أولها عن توحيد الله وقوته وقدرته وبديع صنعه في خلقه، وموضوعها يتناسب للرد على كفار مكة.

> **ثانيًا:** إنه تعالى أجمل الحديث عن مصير عاد وثمود، ثم فصل قصة كل منهما؛ حيث أنذر كفار مكة بما حل بالأمم المكذبة من عذابٍ في الدنيا.

> **ثالثًا:** افتخار قوم هود في هذه الآيات بقوتهم وشدة بأسهم، ولم يذكر هذا من قبل، فكان الإعصار المدمر لهم هو المصرع المناسب لهذا العجب

---

(١) الكشاف (٣/٣٢٦)، وانظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٧٣).
(٢) التفسير الكبير (٤/١٥٧).
(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٧٣).

والكبر[1].

➢ رابعًا: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، إن قيل: إن صيغة (أفعل) التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة، وقوة الله وقدرته لا نهاية لها، والشيء المتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي، فما معنى قوله: إن الله أشد منهم قوة؟

والجواب: هذا ورد على قانون قولنا: الله أكبر[2].

سادسًا: سورة «الأحقاف»:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٦].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، فهنا تحدث القرآن عنه بوصفه دون ذكر اسمه العلم؛ لأن المراد بالذكر هنا التمثيل والموعظة لقريش بأنهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة محمد ﷺ[3].

➢ **ثانيًا:** انفردت سورة «الأحقاف» بذكر مكان عاد واسمه (الأحقاف) من بلاد

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٣١١٧)، وانظر في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، والاستكبار معناه: المبالغة في الكبر؛ أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة. بغير الحق: زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر له، لأنه مهما بلغ الإنسان من مبلغ فإنه لا يخلو من نقص فكيف يتكبر؟. انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١١٢). (٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٥).

اليمن[1].

> **ثالثًا:** قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣]، كيف طابق السؤال الجواب؟

والجواب: طابقه من حيث إن قولهم ذلك استعجال العذاب الذي توعدهم به، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فقال لهم: لا علم لي بوقت تعذيبكم؛ بل علم ذلك عند الله وحده[2].

> **رابعًا:** إن قيل: كيف قال تعالى في وصف الريح: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وكم من شيء لم تدمره؟ ثم ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟

فالجواب: معناه: تدمر كل شيء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم[3].

أما عن فائدة الإضافة فللدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد بعظم قدرته؛ لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده، وذكر الأمر وكونها مأمورة من الله يعضد ذلك ويقويه.

> **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، فلم جمع الأبصار والأفئدة وأفرد السمع؟

والجواب: أفرد السمع لاتحاد ما يسمعه الإنسان من أصوات، وجمع غيره لتعدّد ما يدركه الإنسان ببصره وفؤاده[4].

سابعًا: سورة «الذاريات»:

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** وصفت الريح في هذه الآية بأنها ريح عقيم؛ أي: عديمة الفائدة، وخالية من المنافع؛ كإثارة سحاب، أو إلقاح شجر.

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (٤/ ٣٠٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٣)، وانظر: معجم البلدان كلمة (الأحقاف) (١/ ١٤٢).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٣٠٧)، تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٦٦).

(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٦٦).

(٤) انظر: تفسير القاسمي (١٥/ ٢٤).

وقد وصفت من قبل بأنها ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وريح صرصر، وهنا بالريح العقيم، وهذا الوصف لما كان مشتقًّا مما هو من خصائص الإناث كان مستغنيًا عن لحاق هاء التأنيث؛ لأنه يؤتى بها للفرق بين الصنفين، فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ بالشؤم(١).

> **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، مثله مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وزاد أنها تجعله كالرميم البالي المتفتت بالطبع مما أمرت به.

ثامنًا: سورة «القمر»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢١].

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: ذكرت قصة عاد هنا على سبيل الاختصار، فلم تذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم.

> **ثانيًا**: ذكر قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢١]، مرتين في أول الآيات وآخرها، فهل له من معنى؟

والجواب من وجوه(٢):

الوجه الأول: أن الأول وعيد لهم بما تقدم لغيرهم من قوم نوح، والثاني لهم ولغيرهم من بعدهم.

الوجه الثاني: لأن الأول أريد به عذاب الدنيا، والثاني أريد به عذاب الآخرة، كما قال في قصتهم: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

الوجه الثالث: أن الأول فيه حذف مضاف تقديره: فكيف كان وعيد عذابي، والثاني أريد به نفس العذاب بعد وقوعه(٣)؟

---

(١) تفسير الرازي (٢٨/ ٢٢٢)، التحرير والتنوير (٢٧/ ١١).
(٢) البرهان في متشابه القرآن ص(٣٣٩)، كشف المعاني ص(٣٤٥).
(٣) كشف المعاني ص(٣٤٥).

> **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩]، وفي سورة «فصلت» ذكره بـ ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وفي «الحاقة»: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فكيف خالف بين الموصوف الواحد، فهو مرة يومًا واحدًا، ومرة أيامًا؟

والجواب: أن «**اليوم**» يعبر به عن الأيام؛ كقولهم: يوم الحرة، ويوم بعاث، ويوم الأحزاب. وقد يراد به اليوم الذي بدأ فيه الريح(١). والله أعلم.

> **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، أي: منقطع، فلم لم يقل: منقعرة، كما في سورة «الحاقة» ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؟

والجواب: إنما ذَكَّرَ الصفة؛ لأن الموصوف ـ وهو (النخل) ـ مذكر اللفظ، وليس فيه علامة تأنيث، فاعتبر اللفظ، وفي موضع آخر اعتبر المعنى؛ وهو كونه جمعًا، فقال: «كأنهم أعجاز نخل خاوية».

وقيل: النخل يذكر ويؤنث، فجمع القرآن اللغتين.

وقيل: إنما ذكّر رعاية للفواصل(٢).

تاسعًا: سورة «الحاقة»:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، لَمَ لَمْ يقل: صرصرة، كما قال: «عاتية». مع أنه صفة لمؤنث؛ لأنها الشديدة الصوت، أو الشديدة البرد؟

والجواب: لأن «الصرصر» وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها،

---

(١) كشف المعاني ص(٣٢٧).

(٢) تفسير الرازي ص(٤٨٩)، وعند القرطبي بنحو ما ذكر أولًا، حيث ذكر عن المبرد أنه سئل عن ألف مسألة من ضمنها هذه، فقال: «كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرًا، أو إلى المعنى تأنيثًا» اهـ. بتفسير القرطبي (١٧/ ١٣٧).

فأشبه باب (حائض، طامث، وحامل)؛ بخلاف (عاتية) فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة توصف به[1].

➢ **ثانيًا:** جاء بيان المدة التي سخرت فيها الريح؛ وهي سبع ليال وثمانية أيام؛ لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم، وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم[2] بلا انقطاع.

➢ **ثالثًا:** إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الحاقة: ٧]؟ أي: في تلك الليالي والأيام، والنبي ﷺ ما رآهم فيها؟

فالجواب: الرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار، فصار المعنى: فتعلمهم كذلك بإعلامنا إياك حتى كأنك تشاهده[3].

عاشرًا: سورة «الفجر»:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[4] [الفجر: ٦ ـ ٨].

● **لطائف الآيات:**

ذكرت الآيات وصف بلاد عاد (إرم ذات العماد)؛ حيث مكن الله لها في الأرض، تمثل ذلك في:

➢ **أ ـ** الحضارة المادية الكبيرة التي وصفها الله بذات العماد؛ حيث كانت فريدة في عالمها وعصرها؛ إما بقصورها القوية الشديدة، أو بسكناهن بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد[5].

➢ **ب ـ** النعمة التي كانوا فيها؛ بحيث إنهم لم يستعملوها في طاعة الله.

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٥٢٥).

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٨/ ٨٠)، فتح القدير (٥/ ٢٨٠).

(٣) تفسير الرازي المسمى «أسئلة وأجوبة» ص(٥٢٥).

(٤) إرم: أمة قديمة، يعني: عادًا الأولى، قاله مجاهد. وقال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢). وقال ابن خلدون في تاريخه: إن إرم تعني: القبيلة؛ لا البلد. انظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٢)، وانظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٨).

(٥) انظر: تفسير القرطبي. والمعنى (ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور (٢٠/ ٤٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢).

➢ جـ ـ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨]، التعريف في كلمة «البلاد» للجنس، والمعنى: التي لم يخلق مثل تلك الأمة في الأرض. وأريد بالخلق: خلق أجسادهم؛ حيث كانوا طوالًا شدادًا أقوياء، وكانوا أهل عقل وتدبير، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد، ثم فسدت طباعهم بالترف، فبطروا النعمة(١).

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

➢ **أولًا: نماذج من دعوته عليه السلام.**

➢ **ثانيًا: وقفة تأمل قبل نزول العذاب بهم.**

أرسل الله الأنبياء لهداية البشر إلى توحيد الله وعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه على لسان أنبيائه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠]، فيتصدى لذلك الطغاة من الملأ في كل زمان، ظانين أن هذا الأمر يسلبهم حياتهم الهنية، ويسحب من تحت أرجلهم بساط الترف والنعيم، وما علموا أنه يجلب لهم سعادة الدارين ونعيم الحياتين.

ومن هؤلاء قوم سيدنا هود عليه السلام (عاد) ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٣].

أولًا: نماذج من دعوة سيدنا هود عليه السلام:

١ ـ الدعوة إلى الله بالحسنى:

قال تعالى مخبرًا عن دعوة هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هودًا ـ كما يقال في أخوة الجنس كله: يا أخا العرب، وللدين أخوة روحية كأخوة الجنس القومية والوطنية ـ.

ثم دعاهم إلى أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ فإنه الإله الحق الذي خلقهم

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣١٩)، وانظر: ما قاله القرطبي (٢٠/٤٧)، والرد عليه عند صاحب التحرير (٣٠/٣١٩، ٣٢٠).

ورباهم بنعمه، والشاهد معنا قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، أي: أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه. وفي موضع آخر يقول لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]، أي: إنكم بعبادة غير الله تفترون الكذب على الله باتخاذ الأنداد والأولياء شركاء. ثم هو بدعوته هذه لا يطلبُ على ذلك أجرًا منهم، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، أي: إني أدعوكم إلى عبادة الله وحده ولا أسألكم أجرًا فتتهموني بطلب المنفعة لنفسي، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾، أي: أجري على الذي خلقني على الفطرة السليمة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما يقال لكم، فتميزوا بين الحق والباطل، والنافع والضار، ثم إن الأخ لا يغش أخاه، ولا يعرض نفسه لغضب قومه بدعوتهم إلى ما يضرهم ولا ينفعهم(١).

٢ ـ الدعوة بأسلوب الترغيب والترهيب:

المشهد الدعوي يتكرر مرة أخرى من النبي هود في دعوته قومه بما يحبون مثل ما فعل سيدنا نوح مع قومه، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، فهم يحبون نزول المطر الذي تحيا به زروعهم، وتقتات منه مواشيهم، ويزيدهم قوة إلى قوتهم، فإن هم استغفروه وتابوا أرسل الله المطر متتابعًا يتلو بعضه بعضًا، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه(٢)، وفي الحديث: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٣)، وكان يجب عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم، ويحذروا من البطر، ويتقوا مصير الغابرين؛ لأنهم لم يأخذوا على الله عهدًا في توقف سننه التي لا تتبدل والتي تجري وفق الناموس المرسوم بقدر معلوم، وذكر النعم يوحي بشكرها، وشكرها تتبعه المحافظة على

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ١١٥).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٥١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، بابٌ في الاستغفار (٢/ ١٧٨، ١٧٩)، برقم [١٥١٨].
ورواه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب الاستغفار (٢/ ١٢٥٤)، برقم [٣٨١٩].
ورواه أحمد في المسند (١/ ٢٤٨)، برقم [٢٢٣٤]، قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٤/ ٥٤) برقمه السابق: إسناده صحيح.

أسبابها، ومن ثَمَّ يكون الفلاح في الدنيا والآخرة[1].

ثم حذرهم من مغبة عصيانهم وعنادهم ـ وهذا هو أسلوب الترهيب، كما في قوله سبحانه: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، أي: اذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها.

٣ ـ إقامة الحجة عليهم بالجدال الحسن:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[2] [هود: ٥٤ ـ ٥٧]، أي: إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه، واشهدوا أنتم شهادة تبرئني مما تشركون ـ أي: من أصنامكم التي تعبدونها ـ، وهذه الشهادة منكم تكون حجة عليكم، ثم تجمَّعوا أنتم وآلهتكم ثم كيدوني ما تستطيعون من الكيد للإيقاع بي، ثم لا تمهلوني ولا تؤخروا الفتك بي إن استطعتم، فما أباليكم جميعًا، ولا أخشاكم شيئًا! ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]، إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى الله معتمدًا عليه وحده؛ إذ هو ربي وربكم، مالك أمري وأموركم، المتصرف فيها وفي غيرها؛ لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة، فما من دابة إلا وهي تحت قهره وسلطانه، يُصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء، فلا تصلوا إلى ضري، فإن أعرضتم عن دعوتي لم يضرني إعراضكم؛ فقد أبلغتكم ما أرسلني الله به إليكم، والله قادرٌ على إهلاككم والمجيء بقوم آخرين غيركم ولا تضرونه أيّ ضرر، فما لكم به من قوة، وذهابكم لا يترك في كونه فراغًا ولا نقصًا، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، يحفظني ويحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربًا فيطلبكم، وهنا انتهى

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١١).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٥٢ ـ ٥٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦)، تفسير المنار (١٢/ ١١٧ ـ ١١٨)، في ظلال القرآن (٤/ ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠).

الجدال والكلام ليحق عليهم الوعيد والإنذار[1].

ثانيًا: وقفة تأمل قبل نزول العذاب بهم:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠ ـ ٧١].

في الآية الأولى: قوم هود يطلبون العذاب؛ لأنهم كانوا يظنونه كذبًا، بدليل أنهم قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فلما اعتقدوا ذلك وأشربت قلوبهم حب العناد والتكبر قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠]، والغرض أنه إذا لم يأتهم العذاب ظهر لهم كونه كاذبًا؛ وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنّوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر، فلا جرم استعجلوه[2].

وفي الآية الثانية: قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]؛ أي: أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونظيره قولك لمن طلب منك شيئًا: قد كان ذلك، بمعنى: أنه سيكون، ونظيره من كتاب الله قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، بمعنى: سيأتي أمر الله[3]، وذلك يدل على تحقّق الوقوع وصدق إتيانه. والله أعلم.

ثم إنهم زعموا أن العذاب لا يمكن أن يقع بهم؛ لأنهم أقوياء، وما القوة التي تستطيع أن تتغلب عليهم وتقهرهم؟

قال تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]. انظر إلى قولهم: «أوعظت أم لم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٥٢ ـ ٥٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦)، وتفسير المنار (١٢/ ١١٧ ـ ١١٨)، في ظلال القرآن (٤/ ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٥٩).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ١٥٩). اخترت أقوى هذه التأويلات في نظري؛ لدلالة آخر الآية على ذلك في استمرار المجادلة ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧١]، وآيات سورة الشعراء في استمرار المجادلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠ ـ ١٣٥].

تكن من الواعظين» ما فيه من الاستهانة والاستهتار والجفاء لنبيهم هود عليه السلام؛ حيث اعتمدوا على التقليد الأعمى لآبائهم، فهو دين الأولين، وهو الذي جرى عليه أمرهم، فما نحن إذًا بمعذبين على ما نفعل[1].

بل زاد تبجحهم وعنادهم لخالقهم ورازقهم بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وكأنهم قالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا[2]، وهذا هو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، عندها ينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[3] [فصلت: ١٥]، ينسون الأصل الذي منه خلقوا، وينسون أن القوة تضعف وتتلاشى أمام القوة الحقيقية لله عز وجل، ولكن الطغاة المتكبرين لا يذكرون.

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم، ويتباهون بقوتهم، كان لا بد من نهاية تقصم ظهر ذلك العُجْب وتقضي[4] عليه.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

لم يبق أمام سيدنا هود عليه السلام من طريق يسلكه في سبيل هداية قومه لدين الله وعبادته العبادة الحقة، فلكم واجههم بالهدى، ولوح لهم بالنور، وحذرهم من لفحات السموم ونزغات الشيطان.

لقد حاول إنقاذهم من الهاوية التي يقودهم إليها الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق، فكانت نهايتهم المحتومة ومصرعهم الأليم، ونجاة هود ومن معه من المؤمنين.

أولًا: عظم هلاك عاد (قوم هود):

عاث قوم هود في الأرض فسادًا وطغيانًا واستكبارًا، ووقتها تبين لهود عليه السلام

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٦)، في ظلال القرآن (٥/ ٢٦١٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٤٧). (٣) في ظلال القرآن (٥/ ٣١١٧).

(٤) انظر: المصدر السابق (٥/ ٣١١٧) بتصرف.

تحجر عقولهم، وتماديهم في عنادهم وجفائهم في أقوالهم وأفعالهم، وهنا عرف سيدنا هود عليه السلام أنه لن يفلح في ثني قومه عن الضلالة، ولم ينقادوا للهداية، وابتعدوا عنه معرضين، ولأقواله مستنكرين، حتى مرت فترة من الزمن حبس الله عنهم ما يحبون من الغيث، فيبست زروعهم، وذبلت أشجارهم، فأرشدهم نبيهم إلى الاستغفار والتوبة؛ فإنهم إن فعلوا ذلك فسيرسل الله عليهم الغيث متتابعًا، فتكثر خيراتهم، وتزداد قوتهم، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، فما زادهم ذلك إلا عنادًا واستهزاءً، وعدلوا إلى إرسال وفد منهم إلى مكة يستسقي لهم.

روى الإمام أحمد بسنده عن الحارث البكري[١] وفيه قوله: «أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال: وما وافد عاد؟ ـ وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه ـ. قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: «قيلْ»، فمر بمعاوية بن بكر[٢]، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: «الجرادتان»، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمدِدًا، لا تبقي من عاد أحدًا، قال: فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل[٣]: وصدق. قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد»[٤].

---

(١) الحارث بن حسان البكري، ويقال: اسمه حريث، صحابي له وفادة، ونزل البادية، وكان يقدم الكوفة. روى له الترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر: التقريب ص(١٤٥).

(٢) معاوية بن بكر العمليقي، سيد العمالقة الذين كانوا بمكة في قديم الدهر. انظر: مجمع الأمثال للنيسابوري الميداني (٢/ ٣٠٢) ط. الأولى، دار الكتب العلمية، وانظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي أبي العباس أحمد بن علي (٤/ ٢٦١).

(٣) أبو وائل: هو شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، ثقة مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز. التقريب ص٢٦٨.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦). والحديث رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٢) عن أبي وائل عن =

وفي أثناء هذه المدة لم يتوقف سيدنا هود ﷺ من الدعوة إلى الحق، والقوم مُعرضون لاهون إذ لمحوا سحابًا أسود يعترض السماء، فخفوا سراعًا لرؤيته، وظنوه سحابًا عارضًا سيمطرهم ـ وكان المطر قد أبطأ عنهم ـ فتهيؤوا لاستقباله، وأعدوا مزارعهم لذلك؛ ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان ولا يخطر بالبال؛ إذ صدق ما كان يقوله لهم هود ﷺ؛ إنه العذاب الذي استعجلوه وطلبوا نزوله على وجه التحدي، قال الله ـ تعالى ـ يصف ذلك: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

عندها تبدد فرحهم، واحتواهم الفزع، وداخلهم الهلع، حينما رأوا دوابهم ورحالهم البعيدة عنهم تحملهم الريح وتقذف بهم في مكان سحيق، فهرعوا إلى بيوتهم خائفين رجاء أن يمنعهم من الهلاك، وخاب رجاؤهم إذ دخلت عليهم بيوتهم، واجتثتهم من أصولهم، وحصونهم تأخذهم وتقذف بهم في أماكن متفرقة، وظلت حالهم كذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، لا تأتي الريح على شيء إلا دمرته، كما قال سبحانه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، حتى أصبح القوم صرعى مجدلين متناثرين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة، إنه مشهد حاضر شاخص، مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، لا يا رب ليس لهم من باقية(١)!!!

هذا، وتسمى الريح التي أهلكت عادًا بالدَّبور؛ وهي التي تهب من جهة

= الحارث البكري. وحسّن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٥٥١).

ورواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة «الذاريات» (٥/ ٣٩١)، برقم [٣٢٧٣]، [٣٢٧٤] بنحوه (٥/ ٣٩٢).

ورواه ابن ماجه أيضًا عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري به، كتاب الجهاد، باب الرايات والألوية (٢/ ٩٤١)، برقم [٢٨١٦].

وتفسير الطبري (١٢/ ٥١٣، ٥١٦)، وقصص الأنبياء المسمى «بعرائس المجالس» للثعلبي ص(٥٠).

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٧٨).

الغرب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نصرت بالصّبا**[1]، **وأهلكت عادٌ بالدَّبُور**»[2].

وعند ابن أبي حاتم بسنده من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا، فأتت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة**»[3].

---

(١) الصّبا: الريح الشرقية. والدبور: الريح الغربية. مسلم بشرح النووي (٣/١٩٨)، دار الكتاب العربي.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا**» (١/ ٣٢٥)، برقم [١٠٣٥]، [٣٢٠٥]، [٣٣٤٣]، [٤١٠٥].
ورواه مسلم، كتاب الاستسقاء، بابٌ في ريح الصبا والدَّبور (٢/٦١٧)، برقم [٩٠٠].

(٣) رواه ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي في تفسيره (١٠/٣٣٦٩) المسمى «تفسير القرآن العظيم مسندًا إلى النبي ﷺ والصحابة والتابعين».
قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٦٤، ٤٦٥).
وقد وقع هذا متصلًا بحديث ابن عباس الذي في هذا الباب عند الطبراني (١٢/ ٤٢)، برقم [١٢٤١٦] من طريق مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن مسلم الأعور، فتبين أن الزيادة مدرجة من مجاهد، وجاء نحوها عن علي موقوفًا، أخرجه ابن أبي حاتم من طريقه قال: لم ينزل الله شيئًا من الريح إلا بوزن على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فعبت على الخزان. ومن طريق قبيصة بن ذؤيب (أحد كبار التابعين) نحوه بإسناد صحيح. . . . إلى أن قال: وفي الباب ثلاثة أحاديث: أحدها حديث ابن عباس وفيه: «وأهلكت عاد بالدبور». وورد في صفة إهلاكهم بالريح ما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر، والطبراني من حديث ابن عباس رفعاه وذكره. فهذا ما ذكر من الأحاديث المرفوعة.
وأما الأحاديث الموقوفة.
فعند الحاكم بسنده من طريق قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا. هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كتاب التفسير، تفسير سورة «الأحقاف» (٢/ ٤٩٤)، برقم [٣٦٩٨]، ووافقه الذهبي.
وهذا الذي ذكرناه له شاهد من قول كعب الأحبار بإسناد رجاله موثوقون عند أبي الشيخ في كتاب العظمة (٤/ ١٣٣٣)، برقم [٨٣٦].
والمقصود بعد كل هذا: أن حديث ابن عمر وابن عباس في رفعهما نظر، والأقرب ـ كما =

ثانيًا: نجاة هود والمؤمنين:

قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]؛ أي: ولما جاء موعد هلاك المجرمين من قومه نجينا هودًا والذين آمنوا معه ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: برحمة من لدنا خاصة بهم، مخالفة للعادة في أسباب النجاة من العذاب العارض الذي يصيب بعض الناس دون بعض.

فعند ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٢]، بسنده إلى محمد بن إسحاق قال: «واعتزل هو ومن معه من المؤمنين في حظيرة؛ ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها تمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة»(١).

وعبر برحمة أيضًا فيما سبق من هلاك قوم نوح بقوله سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]؛ لأن أحدًا لا ينجو إلا برحمة الله، لقوله ﷺ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه**»(٢).

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروسُ المستفادة من عقوبة قومِ هودٍ عليه السلام

➢ **أولًا**: نستنتج من قوله تعالى على لسان سيدنا هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥، وهود: ٥٠]. أن الأنبياء جميعًا أول ما يدعون إليه

= قال ابن كثير - أن يكون موقوفًا على ابن عمر. انظر: البداية والنهاية (١/ ١٢٩).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥١١)، وانظر: تفسير ابن جرير (١٢/ ٥١٣)، والتاريخ له (١/ ٢٢٢)، وانظر: ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٦)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٩٦)، والشوكاني (٢/ ٢١٩) عن وهب بن منبه بلفظ قريب.

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٥٤)، تفسير المنار (١٢/ ١١٩). أما الحديث فقد رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٤/ ١٨٤)، برقم [٦٤٦٣].
ورواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله بل برحمة الله (٤/ ٢١٦٩)، برقم [٢٨١٦].

عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا هو توحيد الألوهية، وهي الكلمة التي لا تتبدل، وهي قاعدة العقيدة التي لا توجد إلا بها، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجه، ووحدة الهدف، ووحدة الرباط، وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد.

إن دين الله منهج للحياة، قاعدته أن يكون السلطان كله لله، وهذا هو معنى عبادة الله وحده، والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود، وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره. كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره. وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية وقيامها على شريعته وأمره، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده، كلها حزمة واحدة غير قابلة للتجزئة، وإلا فهو الشرك الصراح؛ وهو عبادة غير الله معه، أو من دونه[1].

وعلى هذا فإنه ينبغي للدعاة إلى الله ـ من محتسبين ومعلمين ووعاظ ومرشدين ـ التأكيد على وحدانية الله ـ تعالى ـ، وبثها في نفوس الناس في كل مناسبة، والتحذير من الأمور التي تقدح في مفهومها أو تؤولها على غير حقيقتها؛ بأن يكون العبد مرة متوجهًا لله ـ سبحانه ـ ومرة يستريح فيها من عناء العبادة أو فصل حقيقتها ومفهومها عن الحياة الاجتماعية أو السياسية[2].

فالدين الحق لا يمكن أبدًا أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة، فالالتزام بالشريعة في دين الله الحق هو مقتضى العقيدة ذاتها، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى؛ وهو الالتزام بما جاء من عند الله، والتحاكم إلى شريعته، ورفض التحاكم إلى أي شريعة أخرى سوى شريعة الله[3].

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٠٨)، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ص(١٢).

(٢) وهو ما يسمى اليوم بالعلمانية، ومعناها: فصل الدين عن الحياة.
أو هي: إقامة الحياة على غير الدين. انظر: العلمانية: نشأتها تطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة للحوالي ص(٢٤).

(٣) مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص(٤٩٦).

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

> **ثانيًا:** ينبغي للدعاة إلى الله إبلاغ الناس أنه لا مصلحة دنيوية تعودُ عليهم من وراء دعوتهم للناس؛ وإنما قصدهم الوحيد هو هداية البشر إلى دين الله، يفهم هذا من قول الرسل جميعًا لأقوامهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وفي مسارعة هود وغيره من الرسل جميعًا إلى إبلاغ أقوامهم بذلك يشعر أنه كان بناءً على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجرًا أو كسب مال من وراء دعوته، وكان التعقيب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتعجب من أمرهم! وهم يتصورون أن رسولًا من عند الله يطلب رزقًا من البشر، والله هو الرزاق الذي يعطي عباده الفقراء المؤمنين[1].

> **ثالثًا:** طلب الغيث من الله ـ تعالى ـ يسبقه توبة واستغفار، يفهم ذلك من قول الله تعالى على لسان نبيه هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ دعوة الناس إلى الإكثار من الاستغفار والتوبة؛ لأن الاستغفار فيه تكفير للذنوب السالفة والتوبة عما يستقبلون، قال أبو بكر الأصم: «استغفروا»؛ أي: سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على ألا تعودوا إلى مثله»[2]؛ لأن فِعْل ذلك يُكثر النِّعم، ويقوي الإنسان على الانتفاع.

وهناك آيات أخرى ربطت بين الاستغفار وهذه الأرزاق، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٩٧).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ١١). وأبوبكر الأصم: شيخ المعتزلة، له كتاب في التفسير، وكتاب خلق القرآن، وكتاب التوحيد، وغيرها كثير، توفي سنة مائتين للهجرة، وقيل: سنة إحدى ومائتين. انظر: كتاب الفهرست لابن النديم (أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالورّاق ص(٢١٤)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٠٢).

وجاء في موضع آخر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦]، وجاء في موضع: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٢ ـ ٣].

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، والواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث فيها عن الأمم لا الأفراد، فما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته فحققت العدل والأمن للناس جميعًا إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء(١).

وكذلك وردت أحاديث كثيرة جمعت بين التوبة والاستغفار، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف**»(٣).

لذا فإنه ينبغي للداعية المسلم وغيره من المسلمين عامة أن يبادروا إلى الاستغفار والتوبة كلما ألم الإنسان بذنب بشرطه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧١٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٤/ ١٥٤)، برقم [٦٣٠٧].

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، بابٌ في الاستغفار (٢/ ١٧٨)، برقم [١٥١٧]. ورواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء الضيف (٥/ ٥٦٩)، برقم [٣٥٧٧].
ورواه الحاكم، كتاب الجهاد، فضيلة الاستغفار ثلاثًا (٢/ ١١٨)، وأخرجه من طريق آخر في كتاب البناء (١/ ٥١١). قال الحافظ ابن حجر: وإسناده جيد متصل. انظر: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للمنذري (عبد العظيم بن عبد القوي) (٢/ ٤٧٠).

﴿يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. الشاهد ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾، قال ابن حجر: «فيه إشارة إلى أن من شرط قبول الاستغفار أن يقلع المستغفر عن الذنب، وإلا فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب»[١].

➢ **رابعًا:** على الداعي إلى الله ـ تعالى ـ ألا يقابل الشر بمثله؛ بل يحمل نفسه على الحكم على الجاهلين، وعليه أن يستعمل الحلم في الرد عليهم في جميع ما يتهم به، ثم لينظر إلى ما قاله قوم هود له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فأجابهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨]، فمن تأمل هذا الرد وجد تشابهًا كبيرًا[٢] بين رد نوح على قومه يوم أن قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، وبين رد هود على قومه مع طول المدة التي كانت بينهما، فما أشبه الاتهامين السيئين! وما أطيب الردين! كأنهما خرجا من مشكاةٍ واحدة، ولا ريب فإنها مشكاة النبوة.

➢ **خامسًا:** على الداعي المسلم أن يحذر مدعويه من التقليد الأعمى الذي لا يستند إلى شيء من المعقول، وهكذا فعل هود عليه السلام حينما قال لقومه العابدين للأصنام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]، فلما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا ورجسًا وغضبًا[٣].

وقد حذر القرآن الكريم من التقليد والتبعية المذمومة فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٣].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٧٦).
(٢) انظر: لطائف سورة «الأعراف» ص(١٢٢، ١٧٣).
(٣) التفسير الكبير (١٤/ ١٦٠).

هذا هو مبدأ التبعية الممقوتة حين تواجه بالحق الصراح، إن قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، «مقتدون» قولةٌ تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر، ولا تفكر، ولا حجة، ولا دليل(١).

وحتى القبيلة تحل وتحرم لهم من دون الله فيقلدونها دون تفكر ولا تدبر، حتى قال شاعرهم(٢):

وهل أنا إلا من غزية إن غوت … غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومعناه: أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغي إلا ما تقوله قبيلته «غزية»؛ بل معناه أسوأ من ذلك في الحقيقة؛ معناه: أن القبيلة هي التي تحل له وتحرم، فإن غوت فهو يغوي معها، مع علمه بأنها غاوية؛ لأن الغي يصبح في نظره حلالًا ما دامت القبيلةُ قد فعلته، وإن رشدت فهو يرشد معها، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح؛ بل لأن القبيلة قد فعلته، فهو الحلال في هذه اللحظة.

وقد دخل عدي بن حاتم والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(٣).

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٨٢).

(٢) هو: دريد بن الصمت بن الحارث بن معاوية، كان فارسًا شجاعًا، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يسلم، قتل يوم غزوة حنين كافرًا. انظر: الحماسة (١/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٣) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة «التوبة» (٥/ ٢١٨)، وهو حديث حسن.
وذكره الطبري في تفسيره من عدة طرق (١٤/ ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١)، وانظر: الطبراني الكبير (١٧/ ٩٢)، برقم [٢١٨].
ورواه البيهقي في سننه (١٠/ ١١٦).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤١٥) وقال: ورواه الترمذي وحسنه، والصواب أنه قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. اه.
غير أن للحديث شواهد يتقوى بها، كما في تفسير ابن جرير وغيره ليرتقي إلى درجة الحسن. انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧٥، ٩٧٦).
وانظر: (صحيح سنن الترمذي) (٣/ ٥٦).

➢ **سادسًا**: على الداعي المسلم أن يتبرأ من الشرك وأهله، نلحظ ذلك من قول الله - تعالى -: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

هذا الجواب يتضمن عدة مسائل[١]:

أحدها: البراءة من شركهم أو شركائهم التي افتروها ولا حقيقة لها.

الثانية: إشهاد الله على ذلك؛ لثقته بأنه على بينة منه فيه، وإشهاده إياهم عليه أيضًا لإعلامهم بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه؛ لأنه متوكل على الله.

الثالثة: قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده، فهو لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم، ألا فليكيدوا كيدهم ولا يؤخروا الفتك به إن استطاعوا.

وإننا لنعجب من هذا التحدي من فرد واحدٍ أمام قوم غلاظٍ شداد حمقى، ولا أحد يفعل ذلك إلا وهو واثق من نصر الله له. إنه الإيمان والثقة والاطمئنان، الإيمان الذي يخالط القلب، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب، لا يشك فيها لحظة[٢].

قلت: وهكذا الداعية المسلم والمؤمن الحق، لا يرهب ولا يخاف إلا الله، قوي في إيمانه، قوي في الثبات على مبدئه لتبليغ دين الله مهما كانت التضحيات.

ثم إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد وأن يجدوا حلاوة معرفة ربهم في نفوسهم؛ حتى يستطيعوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم، وأمام القوة المادية، وقوة الصناعة، وقوة المال، وقوة العلم البشري، وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات، وهم مستيقنون أن ربهم آخذٌ بناصية كل دابة، وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب[٣].

➢ **سابعًا**: ومنها: أن اتخاذ المباني للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الطغاة، كما ذكر الله عن عاد وإنكار

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ١١٧).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٩٩).
(٣) المصدر السابق (٤/ ١٩٠٦).

هود عليهم، قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وللبيان فإن اتخاذ القصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية لها ثلاثة أمور يحكم عليها من خلالها:

أ ـ إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا مباح؛ بل يكون الإنسان مأجورًا على فعل ذلك إذا نوى به خيرًا.

ب ـ وإما أن تكون واقية لشرور الأعداء، وثغورًا تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر، فهذا من الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

جـ ـ وإما أن تكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة، فهذا هو المذموم الذي أنكره الله على عاد[1].

➢ **ثامنًا**: إن الله بحكمته ﷻ يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها، والقرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، ومع أن الأقطار البعيدة عنا قد حصل لهم ما حصل من إجابة ورد وعقوبة وإكرام؛ ولكن ينفعنا ويوقظ حِسَّنَا وفطرتنا ما نشاهد من آثارهم، ونمر بديارهم كل وقت، نفهم لغاتهم وطبائعهم، لاريب أن نفع هذا عظيم في تذكيرنا بحالهم من قوم بعيدين عنا ولا نفهم لغاتهم ولا نعرف طبائعهم.

فيؤخذُ من ذلك أن المعلم والمذكر إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير للناس بالوسائل التي يفهمونها ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، ولقد أشار القرآن إلى هذا في آخر قصة عاد؛ حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: نوعناها بكل نوع وفن، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: ليكون أقرب لحصول الفائدة[2].

➢ **تاسعًا**: إن العقول الذكية والأذهان اللامعة وما يتبعها من القوة المادية، ثم ما يترتب عليها من النتائج والآثار ـ وإن عظمت ـ، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٥٣).
(٢) المصدر السابق ص(١٥٣).

قارنها الإيمان بالله ورسوله، وأما الجاحدون لآيات الله والمكذبون لرسل الله وإن استدرجوا وأمهلوا في الحياة فإن عاقبتهم كبيرة، ولن يغني سمعهم وأبصارهم وعقولهم عنهم شيئًا إذا جاء أمر الله كما قال عن عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(١) [هود: ١٠١].

❖ ❖ ❖

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٥٣، ١٥٤).

عقوبة قوم صالح عليه السلام

تمهيد

قوم صالح: هم أهل ثمود[1]، من قبائل العرب العاربة[2] الذين سكنوا (الحجر) بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين سنة تسع للهجرة[3].

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم «الحجر» عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا منها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «**إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم**»[4].

---

(١) قال الراغب الأصفهاني: «ثمود: قيل: هو عجمي. وقيل: هو عربي، وترك صرفه لكونه اسم قبيلة، وهو فعول من الثمد؛ وهو الماء القليل الذي لا مادة له». انظر: المفردات في غريب القرآن (٧٨)، مادة «ثمد»، وانظر: التفسير الكبير (١٤/ ١٦١).
وأطلق اسم ثمود على قوم صالح عليه السلام؛ وذلك لأن جدهم الأكبر كان اسمه ثمودًا، وهو كما يقول ابن كثير: أخو جديس، وهما ابنا جاثر بن أرم بن سام بن نوح - عليه الصلاة والسلام -. وانظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٤)، تاريخ الطبري (١/ ٢١٦)، البداية والنهاية (١/ ١٣٠)، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠/ ٦٨.

(٢) العرب ينقسمون إلى قسمين: الأول: العرب العاربة؛ وهم الذين عرفوا منذ القدم بنطق العربية أصالة. الثاني: العرب المستعربة؛ وهم من انتقلت إليهم العربية ممن كان قبلهم، فاعتبرت فيها الصيرورة؛ بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهم أبناء قحطان حيث يرجع نسبهم إليه. انظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٧)، تفسير المنار (٨/ ٥٠١).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢/ ١١٧). وسوف نستوفي الأحاديث عن ذلك في الدروس المستفادة من ذلك.

وقد أخبرنا الله ـ تعالى ـ عن نزول ثمود الحجر، واتخاذهم فيه بيوتًا لهم، نحتوها في جوف الصخر من تلك الجبال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، والمراد بالواد هنا: (وادي القرى)[١] الذي يقع بين المدينة وتبوك[٢].

قال جميل بثينة:

أقول لداعي الحب والحجر بيننا ... ووادي القرى لبيك لما دعانيا[٣]

وثمود: قوم اتخذوا الأصنام عبادة لهم من دون الله، فأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم رسولًا منهم هو صالح عليه السلام، فأمرهم بتوحيد الله وعبادته دون سواه، فلم يؤمن له منهم إلا القليل، وقتلوا الناقة، واستعجلوا العذاب، فأهلكهم الله بذنوبهم، ولم يبق منهم أحدًا، ونجى الله صالحًا ومن آمن معه برحمة منه.

* * * * *

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت عقوبتهم

ذكر في القرآن الكريم قسمان من الآيات:

القسم الأول: أشار إلى عقوبتهم دون تفصيل كما في سور:

«التوبة»، «إبراهيم»، «الإسراء»، «الحج»، «الفرقان»، «العنكبوت»، «ص»، «غافر»، «فصلت»، «ق»، «النجم»، «الحاقة»، «البروج»، «الفجر».

فسورة **«التوبة»**: جاء ذكرهم فيها في معرض ذكر الأقوام المكذبين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

---

(١) تفسير الجلالين لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص(٨٠٦)، وتفسير فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٣٥).

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/ ٢٢١).

(٣) شرح ديوان جميل بثينة لجميل بن معمر ص(١٣٨).

وكذلك في سورة «إبراهيم»: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وسورة «الإسراء»: قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

و«الحج»: قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

وسورة «الفرقان»: قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

وسورة «العنكبوت»: قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وسورة «ص»: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤].

وسورة «غافر»: قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١].

وسورة «فصلت»: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وسورة «ق»: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٣].

وسورة «النجم»: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١].

وسورة «الحاقة»: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٥].

وسورة «البروج»: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٧ - ١٩].

وسورة «الفجر»: قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

والناظر المتمعن في هذه الإشارات يجد:

أولًا: تناسب الآيات مع سياق كل سورة.

ثانيًا: جاء ذكر ثمود في معرض ذكر الأقوام المكذبين.

ثالثًا: تحدثت بعض الآيات عن عذابهم مرة بالرجفة، ومرة بالصيحة، ومرة بصاعقة العذاب الهون، ومرة بالصاعقة وحدها، وأخيرًا بالطاغية.

والجمع بينها: أن لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان، ترجف من وقعها الأفئدة، وتضطرب أعصاب الأبدان، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان[1].

رابعًا: لا يكاد يخلو ذكر ثمود إلا مقرونًا بالمكذبين من قبلهم؛ وخاصة عاد، إلا ما كان في سورة «الإسراء»، فقد كانت الإشارة إلى ثمود متسقة مع سياق السورة؛ لذا جاءت منفردة عن ذكر الأقوام الآخرين. والله أعلم.

القسم الثاني: السور التي فصلت عقوبتهم، وبينت سببها، ونوعها، ونجاة صالح - عليه الصلاة والسلام -:

أولًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن

---

(١) انظر: تفسير المنار (٨/٥٠٦)، التفسير الواضح (٨/٧٣)، قصص الأنبياء ص(٦٦)، التحرير والتنوير (٥/٢٢٧)، الأساس في التفسير (٥/٢٥٧٦).

إذًا فما وصفه القرآن للصاعقة بأخبار شتى ما هو إلا خبر دقيق يصف آثارها وعواملها ومظاهرها. انظر: كتاب مع الأنبياء في القرآن ص(٩٧).

قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** صالح عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده كما فعل نوح وهود عليهما السلام، كما قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، أي: ولقد أرسلنا نوحًا، وإلى عادٍ أخاهم هودًا، وإلى ثمود أخاهم صالحًا[١].

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وهذه الزيادة مذكورة في هذه القصة، وهي تدل على أن من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة؛ لأن التقليد وحده لو كان كافيًا لكانت تلك البينة ههنا لا معنى لها[٢].

> **ثالثًا:** الآية التي جاءهم بها بينة على صدق نبوته «الناقة». فإن قيل: إن كانت آية لكل أحد، فلماذا خصَّ أولئك الأقوام بها فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾؟

فالجواب من وجهين:

أولهما: أنهم عاينوها، وغيرهم أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة.

ثانيهما: أن القوم اقترحوا هذه المعجزة فأظهرها تعالى لهم، فلهذا المعنى كان التخصيص[٣].

> **رابعًا:** إن قيل: ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله؟ وأرض الله؟

فالجواب: أن الله أضافها إليه تشريفًا؛ كقوله: بيت الله، أو لأنه خلقها بلا واسطة، أو لأنه لا مالك لها غير الله، أو لأنها حجة الله على القوم.

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ١٦١).
(٢) المصدر السابق (١٤/ ١٦٢).
(٣) المصدر السابق (١٤/ ١٦٣).

وأما تخصيص الأرض بأنها أرض الله، فلأن للناقة حقًّا في الأكل[1] من الأرض؛ لأنها لله وهي من مخلوقاته.

➢ **خامسًا:** نلمح في الآيات أن صالحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يذكر قومه أثر النعمة والتمكين في الأرض؛ حيث كانوا أصحاب حضارة عمرانية كبيرة، فكانوا ينحتون الجبال بيوتًا لهم، وهذا من نعم الله عليهم؛ حيث لم يسبقوا بمثل فعل ذلك، إضافة لما أعطوا من قوة البدن.

➢ **سادسًا:** قتلهم للناقة حقدًا وحسدًا وطلبهم العذاب بطريقة تنم عن تبجحهم وعتوهم وعنادهم.

➢ **سابعًا:** قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال عنهم في سورة «هود»: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. وقال في قصة شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سورة «الأعراف»: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وقال في سورة «هود»: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

لسائل أن يسأل عن توحيد الدار في موضع، وجمعها في موضع، وهل هناك فرق بينهما؟

والجواب: أنه يجوز الجمع والتوحيد، وذلك بأن يراد بدارهم بلدهم، فيفرد ذهابًا إلى معنى الدار، أو يراد به الجنس؛ كما تقول: «دينارهم شر من درهمهم»، فجمع بين الإفراد والجمع في مثال واحد.

وأما عن الآيات الواردة معنا هنا فالجواب عنها: أن الله ـ تعالى ـ وحد في كل مكان ذكر في ابتدائه: «وإلى ثمود أخاهم صالحًا»، «وإلى مدين أخاهم شعيبًا»، ولم يذكر إخراج النبي ومن معه من بينهم، فجعلهم أبناء أب واحد، وجعلهم أهل دار واحدة، ورجا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة، وكل موضع أخبر عما حصل بينهم من تفريق وإخراج أخبر عنهم الأخبار الدالة على تفرق

---

(١) قال تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]، ترى أن الفعل هنا (تأكل) مجزوم بدون جازم فلمَ؟ والجواب: أن أصله جواب الأمر بتقدير: إن تذرها تأكل؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، أي: يقيمون الصلاة. انظر: التحرير والتنوير (٨/ ٢١٩).

شملهم، وتشتت أمرهم، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

فإن قيل: ها هو في سورة «الأعراف» أفرد كلمة «الدار» حين قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقد خرج شعيب ﷺ من بينهم وتفرق شملهم، فكان لا بد من الجمع على ما ذكرتموه!

والجواب عنه: أنه لم يرد في هذا الموضع ذكر إخراجه من بينهم مع الذين آمنوا معه، كما ذكر في الموضعين الآخرين في سورة «هود» وفي قصته فيها[(١)].

* **والخلاصة:**

أنه أفرد كلمة «الدار» في سورة «الأعراف» قبل أن يخبر بنجاة من آمن معه منهم، والثاني أنه جمع في الموضع الذي ذكره بقصته مع المؤمنين وخروجه معهم.

> **ثامنًا:** قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ٧٩]، هذا عن صالح ﷺ، وقال في قصة نوح، وهود، وشعيب ﷺ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: ٦٢، ٦٨] فما الفرق؟

والجواب: أن قصة الأنبياء (نوح، هود، شعيب) تضمنت أنواعًا من التبليغات وإن لم يذكر هنا مع طول مدة نوح ﷺ وكثرة تبليغات هود وشعيب فجمع لذلك، أما قصة صالح ﷺ فلم يكن لها ذلك؛ حيث ركزت على أمرين مهمين: الأول: عبادة الله وحده وطاعته، والثاني: عدم التعرض للناقة فأفرد[(٢)].

> **تاسعًا:** قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: ٦٢، ٦٨]، في قصة نوح وهود بلفظ المستقبل، وفي قصة صالح وشعيب ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩، ٩٣]، بلفظ الماضي، فما الفرق؟

---

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ص(١٣٤، ١٣٥).
(٢) كشف المعاني ص(١٨٠).

والجواب: لأن ما في قصة نوح وهود وقع في ابتداء الرسالة، وقصة صالح وشعيب وقع في آخر الرسالة وقرب العذاب؛ لأنه جاء بعدها ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣]، في القصتين[١].

ثانيًا: سورة «هود»:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، أي: خلق آدم من الأرض؛ لأن إنشاءه إنشاء لنسله، وتقدم هذا، إلا أنه زاد هنا: «واستعمركم فيها»، أي: جعلكم عمّارًا فيها[٢]، فالسين والتاء للمبالغة.

﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، أي: إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة، ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه[٣].

➢ **ثانيًا:** هنا في سورة «هود» ذكر ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وفي قصة نوح قال: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، فما وجه تقديم «منه» على «رحمة» هنا (في سورة «هود») وتأخير «من عنده» عن «رحمة» في قصة نوح؟

والجواب: لأن ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(١٨٩)، وانظر: درة التنزيل ص(١٣٦).
(٢) تفسير ابن جرير (١٥/ ٣٦٨). (٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٩).

الكلام المتماثل، إلا أن إخراج لطائف الكتاب المكنون يزيد من وضوحه وبلاغته في وضوح الدلالة ودفع أي لبس.

فلما كان مجرور «من» الابتدائية ظرفًا ـ وهو «عند» ـ كان صريحًا في وصفها بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها.

ولما كان المجرور هنا ضميرًا كان الأحسن أن يقع عقب فعل «آتاني» ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله، يشير إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتي؛ إذ لولا ذلك لكان كونه من الله تحصيلًا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاءً خاصًا.

ولو جاء «منه» عقب «رحمة» لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة؛ أي: عن أن يقال: وآتاني رحمته، كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّآ﴾ [مريم: ٢١]، أي: ورحمتنا لهم، أي: لنعظهم ونرحمهم[(١)].

> **ثالثًا:** قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦]، وقال في قصة لوط كذلك «بالفاء»، وفي قصة هود قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، وقال في قصة شعيب كذلك بالواو، فما الفرق؟

والجواب: لأن العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧].

وفي قصة شعيب ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، قارنه التسويف فجاء بالواو.

وأما هنا في قصة صالح ولوط أيضًا فقد وقع العذاب عقيب الوعيد، قال تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وفي قصة لوط ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فجاء بالفاء للتعقيب والتعجيل.

> **رابعًا:** قال تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وقال في نفس السورة في قصة شعيب: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

للسائل أن يسأل عن اختلاف الفعلين في اتصال علامة التأنيث بأحدهما وسقوطها من الآخر مع أن الفاعل في الموضعين شيء واحد، ومع أن الحاجز

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١١١ ـ ١١٢).

بين الفعل والفاعل في المكانين واحد وهو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فكيف؟

والجواب: أن مثل هذا جاء في كلام العرب، سَهلُ الملام فيه لحمله على المعنى، والصيحة بمعنى: الصياح.

كقول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت[١]

فحمل على المعنى؛ إذ الصوت بمعنى الصيحة، غير أن السؤال الذي لا بد منه هو: هل كان بالإمكان أن يحل مكان أخذت أخذ؟ وهل لذلك جل فائدة لإبقائه على ما هو عليه بتاء التأنيث؟

والجواب: أن الله ـ تعالى ـ أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ: منها: (الرجفة) في سورة «الأعراف» في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ [الأعراف: ٩٠ ـ ٩٢]، وذكر ذلك قبله في مكان آخر. ومنها: (الصيحة) في سورة «هود» في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]. ومنها: (الظلة)[٢] في سورة «الشعراء» في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به، غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات من قصة صالح عليه السلام مع قومه[٣].

◄ **خامسًا:** ترى أن سياق الآيات هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وبين قتلهم إياها وأخذهم بالعذاب؛ لأنها ـ أي: المعجزة ـ لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييرًا يذكر، بدليل فاء التعقيب في كل الخطوات ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ [هود: ٦٤]، ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟﴾ [هود: ٦٥]، فهنا عبر بالفاء التعقيبية عن أن العذاب لم يتأخر[٤].

---

(١) البيت لرويشد بن كثير الطائي، ويقال: إنه لعمرو بن معديكرب. انظره: في حماسة أبي تمام (١/١٠٢)، برقم [٣٢].

(٢) سنفرد له مطلبًا خاصًا في الحديث عن عقوبة قوم شعيب عليه السلام.

(٣) درة التنزيل ص(١٨٦، ١٨٧).

(٤) في ظلال القرآن (٤/١٩٠٨).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧].

ثالثًا: سورة «الحجر»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** أهم ما ذكرته الآيات هنا مميزًا هو ذكر مكان قوم صالح عليه السلام؛ وهو (الحجر) الذي يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وهي ظاهرة إلى اليوم، وبها كانت منازل ثمود[1].

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، في هذه الآية إشارة إلى أن النظر والاستدلال واجب، وأن التقليد مذموم[2].

> **ثالثًا:** جمع الآيات في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ مراد به الجنس، وهي آية الناقة، أو أريد أنها تشتمل على آيات في كيفية خروجها وحياتها ورعيها وشربها[3].

> **رابعًا:** في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مقدرة من ضمير ﴿يَنۡحِتُونَ﴾، فقد كانوا مقدرين أن يكونوا آمنين[4] بنحتهم لها داخل الصخور، وبأنها سوف تنجيهم من كل مكروه، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد[5].

رابعًا: سورة «الشعراء»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ

---

(١) انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٥٥)، برقم [٣٥١٨]، والبداية والنهاية (١/ ١٣٠).

(٢) التفسير الكبير (١٩/ ٢٠٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٧٣).

(٤) المصدر السابق (١٤/ ٧٤).

(٥) تفسير الكشاف (٣/ ٥٨٦).

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟
أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ
﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا
فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا**: في الآيات تذكير لهم بنعم الله عليهم؛ حيث أنعم عليهم بمقومات حياتهم الأساسية من زروع متنوعة ونخيل جيدة الطلع سهلة الهضم، حتى لكأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون. والاستفهام في ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ للإنكار عليهم الركون إلى الدنيا، وظن الخلود فيها آمنين طامعين فيها تاركين غافلين عن الدار الآخرة.

> **ثانيًا**: إن قيل: لمَ قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾؛ والجنة تتناول النخل؟

فالجواب: أنه خص النخل تنبيهًا لفضله على سائر الأشجار. والثاني: أنه أراد بالجنات غيرها من الشجر، ثم يعطف عليها النخل؛ لأن اللفظ يصلح لذلك(١).

> **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، إن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؟

فالجواب: فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح، ليس كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح(٢).

> **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، جاء بعد قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾، إن قيل: لم أخذهم العذاب وقد ندموا وقد قال ـ عليه الصلاة

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٩)، وانظر: التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٥).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٩).

والسلام ـ: «**الندم توبة**»[1]؟

فالجواب: أنه لم يكن ندم توبة؛ إنما هو ندم الخائف من العذاب؛ فلذلك لم ينفعهم. ثم إن سلمنا بأنه كان ندم توبة؛ ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة؛ بل عند معاينتهم العذاب[2].

خامسًا: سورة «النمل»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥٣].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا**: تشاؤمهم من صالح عليه السلام ومن معه في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، ولم تذكر من قبل.

> **ثانيًا**: ذكر القرآن عدد النفر الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام وكان تسعة رهط تشاوروا في مباغتته وقتله قبل أن يأتيهم العذاب.

> **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، إن قيل: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المُخبَر عنه؟

---

(١) الحديث رواه أحمد في المسند (١/ ٣٧٦، ٤٣٣)، برقم [٣٥٦٨، ٤١٢٤]. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/ ١٤٢٠)، برقم [٤٢٥٢].
ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الحاكم (٤/ ٢٧١)، برقم [٧٦١٢]، [٧٦١٣] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦٠).

فالجواب: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين، ثم قالوا: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: ٤٩]، فإنهم يعنون: ما شهدناه وحده، فإنهم يكونون صادقين؛ لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله[١].

> رابعًا: هذا الجزء[٢] من قصة (ثمود) لم يذكر في غير هذه السورة، وربما يكون له سبب في قرب تآمر المشركين على النبي محمد ﷺ، وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فضرب الله لهم مثلًا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم، وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابهًا، وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣] [النمل: ٥٠ ـ ٥١].

> خامسًا: نلحظ في تأخير جملة ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، عن جملة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله ينجيهم، كما نجى الذين آمنوا من ثمود (وهم صالح ومن آمن معه)[٤].

> سادسًا: قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، وفي سورة «فصلت»: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]، وهما بمعنى واحد، وخصت هذه السورة بـ﴿وَأَنجَيْنَا﴾ موافقة لما بعده، وهو ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [النمل: ٥٧]، ومثل ما بعده أيضًا من قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾، وكلها على لفظ أفعل[٥].

سادسًا: سورة «الذاريات»:

قال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٨٢).

(٢) أعني من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ...﴾، إلى قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ...﴾ [النمل: ٤٨ ـ ٥١].

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٤). (٤) المصدر السابق (١٩/ ٢٨٧).

(٥) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٨٨).

ﭐلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** انفردت سورة «الذاريات» بذكر قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الذاريات: ٤٣]، حيث جمعت ما تفرق في سورة «الأعراف»، و«الشعراء» وغيرها من ذكر متاع الدنيا من مثل قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٨]، في كل ذلك المتاع يجمعه قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الذاريات: ٤٣]، ولم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع(١).

➢ **ثانيًا:** في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]؛ لأن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألمًا؛ كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعَم عليه مسرة(٢)، قال تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

سابعًا: سورة «القمر»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣٢].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** لم يذكر صالح في الآيات بالاسم؛ لتتناسب مع موضوع السورة؛ إذ لم يكن في الآيات ذكر لمقام الدعوة كما في سور «الأعراف» و«هود» و«الشعراء»؛ وإنما كان ما فيها من قبيل الإخبار والأمر.

➢ **ثانيًا:** في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]، إذا كان «بشرًا» منصوبًا بفعل، فما الحكمة في تأخير الفعل في الظاهر؟

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٣). (٢) انظر: المصدر السابق (٢٧/ ١٤).

والجواب: أن البليغ يقدم في الكلام ما يتعلق غرضه به أكثر، وهم يريدون ذكر وبيان ما أرادوا أنهم محقون فيه، فلو قالوا: «أنتبع بشرًا» يمكن أن يطول الكلام فيما لا معنى له، وهذا من بلاغة القرآن. والاستفهام هنا إنكاري؛ أي: أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرًا مثلهم(١).

➢ **ثالثًا**: أنهم قالوا: ﴿أَبَشَرًا﴾ولم يقولوا: أنتبع صالحًا أو الرجل المدعي النبوة وغير ذلك من المعرفات؛ والتنكير تحقير(٢).

➢ **رابعًا**: إن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، كأنه من كلامهم، فكيف يمكن توجيهه؟

فالجواب: أن تقدير الكلام: أنتبعك وأنت بشر واحدٌ منا(٣).

➢ **خامسًا**: السعير في الآخرة واحدٌ فكيف جمع؟

والجواب من وجوه(٤):

أحدها: أن في جهنم دركات، يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرًا أو فيها سعيرٌ.

ثانيها: كأنهم في كل وقت في سعير آخر وعذاب آخر لطول المدة.

ثالثها: أن لسعة السعير الواحد كأنها سُعر، يقال للرجل الواحد: فلان ليس برجل واحد؛ بل هو رجال.

➢ **سادسًا**: إن قيل: إن قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]، لما سيأتي من أمور الغيب، وكان هذا وقت نزول القرآن على محمد ﷺ وهم قد علموا وعاينوا ما عاينوا من عذاب الدنيا والقبر فكيف؟

فالجواب: أن هذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، فكأنه قال يوم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

أو أن هذا للتهديد بالتعذيب يوم القيامة وهو مستقبل، ومثلها قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، والقصة قد حصلت، وما يرتقبه هو

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٤٩)، التحرير والتنوير (٢٧/١٩٦).

(٢) المصدر السابق (٢٩/٤٩). (٣) التحرير والتنوير (٢٧/١٩٧).

(٤) التفسير الكبير (٢٩/٤٩).

أحوالهم التي ستحصل لهم[١].

➢ **سابعًا**: في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٨]، لطيفة كان عليهم أن يتنبهوا لها، وهي ملتزمة بالقسمة، ولا تحضر إلا في يومها بإلهام الله لها، وفي هذا دليل على صدق صالح عليه السلام.

➢ **ثامنًا**: ذكر الله ـ تعالى ـ في عذابهم أنه أهلكهم بصيحة واحدة، اختصت بها هذه السورة، فلم يكن بصيحته التي هي واحدة طاقة؛ لأنها كانت خارقة للعادة؛ إذ أتت على جميع القبيلة، فكيف لو كانت أكثر. نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده!.

ثامنًا: سورة «الشمس»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: أشارت الآيات إلى أن أشقى ثمود: قاتل الناقة، واسمه: قدار بن سالف[٢] (بضم القاف وتخفيف الدال المهملة)؛ لأنه هو الذي باشر الجريمة.

➢ **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، كيف أضاف فعل القتل إلى الجماعة ولم يفعله غير واحدٍ منهم؟

والجواب: أضافه للجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد[٣].

قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم[٤].

وهو قول أكثر المفسرين[٥].

➢ **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]، انفردت بذكرها هذه

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٩/ ٥١)، التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٠).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/ ٤٥٩).
(٣) انظر: التفسير الكبير (٣١/ ١٦٥). (٤) انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٥٣).
(٥) المصدر السابق (٣١/ ١٦٥).

السورة؛ حيث فُسرت بأن الله لا يخاف عاقبة ما يفعل، كما يخاف أهل المنعة من الملوك وغيرهم[1].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

أرسل الله صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود مذكرًا لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده وأنه لا شريك له، وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم في عبادتهم، وعلى أن الله هو المستحق للعبادة دون سواه، فما زادتهم الذكرى إلا عنادًا واستكبارًا وعتوًّا وإدبارًا، وإليك نماذج من ذلك:

أولًا: نماذج من دعوته:

أ ـ صالح عليه السلام يدعوهم لعبادة الله وحده:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣، وهود: ٦١]. فهنا تبيّن الآية أن صالحًا عليه السلام أول ما دعاهم إليه عبادة الله وحده دون سواه، وهي الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود، وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها، وقام عليها دين الله كله؛ ولذلك نرى أن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحدٍ هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده، ذلك أن هذه العبودية لله الواحد، ونزع السلطان كله من يد الطواغيت، هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر.

وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا، ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان؛ بل في القرآن كله[2].

وهكذا فعل الأنبياء جميعًا، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

دعاهم صالح إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام، فما كان منهم إلا أن طلبوا

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٨٤)، وانظر: تفسير ابن جرير (٢٤/ ٤٦١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٣).
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣١٣).

بينة على صدق نبوته ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

وبعد طلبهم لجأ صالح إلى الله ـ تعالى ـ، فاستجاب الله لعبده الصالح، وأعطاه هذه الخارقة العجيبة؛ ألا وهي الناقة ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ونهاهم صالح عليه السلام أن يمسوها بسوء؛ لئلا يقع بهم عذاب مهلك لا ينجو منه أحد.

ب ـ صالح عليه السلام يذكّر قومه نِعمَ الله عليهم:

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥١]، يقول لهم واعظًا لهم، ومحذرًا لهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكرًا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة، وأنبت لهم من الجنّات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات؛ فتذكروا نعم الله عليكم واشكروها، له بتوحيده وعبادته، ثم استعملوا هذه النعم فيما فيه صلاحكم ومرضاة ربكم(١).

جـ ـ صالح عليه السلام يجادل قومه حرصًا على هدايتهم:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١].

كان أول شيء فعله صالح مع قومه أن ذكرهم بالقربى التي تربطه بهم، فخاطبهم بلفظ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لعل ذلك يوقظ فطرتهم، فتستجيب لداعي الحق من عبادة الله، فهو الذي خلقهم وأنشأهم من الأرض، وجعلهم عمارها، أفلا يستحق

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦)، تفسير المنار (٨/ ٥٠٣).

أن يكون هو المعبود دون سواه؟ ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة؛ فإن الله يقبل منكم ويتجاوز عن سيئاتكم، فردوا عليه ردًا قبيحًا ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، أي: كنا نرجوك في عقلك، وننتظر منك التأييد والنصح بغير ما تقول من العبادة لله وترك عبادة الآباء والأجداد ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، وفي الآية الأخرى ردوا عليه برد أقبح؛ حيث قالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، أي: إنما أنت مسحور لا عقل لك.

فلما رأى منهم ذلك لم يشأ أن يقابلهم برد مثله؛ بل تلطف معهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]، أي: انظروا فيما أرسلني به إليكم على يقينٍ وبرهان منه، فمن ينصرني إذا عصيته وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركت ذلك لما نفعتموني ولما زدتموني إلا خسارًا[1].

ثانيًا: وقفة قبل النهاية:

كما رأينا أن صالحًا ذكرهم ونصح لهم وخوّفهم بأس الله إن هم عصوا وتجبروا ولم يمتثلوا ما أمرهم به، فآمن له المستضعفون من قومه، وكفر المستكبرون ـ مع أنه كان يدعوهم ولا يسأل أجرًا على ذلك ـ.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

مضت سنة الله ـ تعالى ـ في البشر أن يسبق الفقراء المستضعفون للإيمان؛ لأنه ـ والله أعلم ـ لا يشق عليهم أن يكونوا أتباعًا لغيرهم من المصلحين؛ بعكس الأكابر فإنه يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، ظانين أنه يسلبهم العزة والمنعة في قومهم، ويُذهب سلطانهم، فيزيد عداءهم للمؤمنين وسخريتهم منهم.

وهذا ما نلحظه في الآيتين السابقتين؛ حيث قالوا لهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾؟ على سبيل السخرية والاستهزاء، فأجابهم المؤمنون: ﴿إِنَّا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٧).

﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، أي: إنا بما أرسل به مصدقون ومذعنون له بالفعل.

ونلاحظ هنا أنهم عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: «نعم» أو «إنه مرسل منه تعالى» مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهارَ ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيهًا على أن أمر الرسالة من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به[1].

فهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب؛ تنبيهًا على أنه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه[2].

ثم استمر عصيانهم وعنادهم لصالح عليه السلام وللنّاقة التي أمرهم ألا يمسوها بسوء، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾[3] [هود: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٧ ـ ٢٨].

كانت آية عظيمة على صدق نبوة صالح عليه السلام. والإضافة في قوله سبحانه: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة؛ فكانت تأكل في أرض الله؛ ترعى نباتها، وتشرب ماءها، ونهاهم صالح عليه السلام أن يمسوها بسوء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٦٤]، بُولِغَ في النهي عن التعرض لها بما يضرها؛ حيث نهى عن المسِّ الذي هو من مبادئ الإصابة، ونكّر السوء؛ أي: لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من السوء؛ فضلًا عن عقرها وقتلها. فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر تردُ الماء وتأكل الورق والمرعى،

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٤٣). (٢) تفسير القاسمي (٤/ ١٨٣).

(٣) أعرضت صفحًا عن الكلام عن: من أين خرجت الناقة لهم؟ لعدم وجود الدليل، ونكتفي بهذا ـ كما قال سيد قطب ـ دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح. في ظلال القرآن (٤/ ١٩٠٨).

وصاحب تفسير المنار قال: «ولا يصح شيء يحتج به في خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض» (٨/ ٥٠٣).

وينتفعون بلبنها، يحلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًّا، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق عليهم ذلك، وكرهوها، فتمالؤوا على قتلها، ورضوا جميعًا بذلك[(١)]، كما في الحديث: «**فكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا**»[(٢)].

فكان هذا بحق فتنة وامتحانًا مميزًا لحقيقتهم، ويقف رسولهم مرتقبًا ما سيقع، ممتثلًا أمر ربه في الاصطبار عليهم حتى وقعت الفتنة بهم، فضاقوا ذرعًا بالتعليمات التي وافقوا عليها من قبل، وراحوا يكيلون العداوة والبغض الشديد لهذه الناقة المأمورة، فهموا بقتلها ودبروا لها ولصالح ﷺ، فكيف كان ذلك؟ هذا ما سنفصّله في نوع العقوبة.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

- **١ ـ عظم هول العقوبة.**
- **٢ ـ نجاة صالح ومن آمن معه.**

استعجل قوم صالح العذاب، كما استعجله من كان قبلهم من قوم نوح وقوم هود، وأنبياؤهم يعظونهم على ألّا يفعلوا ذلك؛ إلا أنهم يصرون على رؤية العذاب استهزاءً وسخرية وتكذيبًا، قال تعالى على لسانهم: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقوله: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

وهكذا المجرمون في كل زمان، إذا حاول المصلحون هدايتهم فإنهم يلجؤون إلى تكذيبهم ورميهم بأسوأ التهم، ثم يستعجلون منهم العذاب، قال تعالى عن قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٧)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٢٢).

(٢) سيأتي الحديث بتمامه في مطلب نوع العقوبة.

وهو دعاء غريب يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق! إن الفطر السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه دون أن تجد في ذلك غضاضة؛ ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة، تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحًا لا ريب فيه[1].

ومن عجيب الأمر الذي حدّث الرسول ﷺ به عن قوم صالح أنهم كانوا يأخذون من لبنها ما يشاؤون، فيستعيضون عن الماء به من غير كد ولا عناء، كما في الحديث السابق.

فلما طال عليهم مكث الناقة بيتوا في أنفسهم شرًّا نحوها، ووقفوا من صالح ومن آمن معه موقف العداوة والخصام، وأحس صالح عليه السلام بذلك، فأراد ـ إشفاقًا عليهم ـ أن يعظهم ويرشدهم إلى التوبة والاستغفار عسى أن يرحمهم الله ويتوب عليهم؛ ولكنهم لم يصغوا لقول الحق؛ بل تمادوا في الضلال والغي.. وكان كلما أصاب أحدَهم مكروه أرجعوه إلى صالح وأتباعه المؤمنين، واعتبروهم مصدر شؤم وشر لهم.

وبعد كل هذه العظات التي لم ينتفعوا بها انطلقوا إلى الناقة يرصدونها ويرقبونها، فلما صدرت من ورودها كمن لها واحدٌ منهم فرماها بسهم انتظم عظم ساقها، وابتدرها أشقاهم بالسيف فكشف عن عرقوبها على الأرض، ثم طعنها في لبتها فنحرها[2].

وقد أخبر القرآن أن قاتل النّاقة هو أشقى ثمود، كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢ ـ ١٤]، وقد وصف لنا رسولنا ﷺ عاقر النّاقة في أحد أحاديثه بأنه أحمر؛ فقد قال ﷺ لعلي بن أبي طالب وعمار: «**ألا أحدثكما بأشقى رجلين؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أحيمر ثمود الذي عقر النّاقة، والذي يضربك يا علي على هذه** ـ يعني: قرنه ـ **حتى يبل من هذه**، أي: لحيته»[3].

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).
(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٦٣)، برقم [١٨٣٤٧] من حديث عمار بن ياسر، في سنده من تكلم فيه. =

ووصفه في حديث آخر بأنه كان سيدًا في قومه، ففي الصحيحين: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] **انبعث لها رجلٌ عارمٌ عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة**»(١).

أولًا: عظم هول العقوبة:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨ - ٤٩].

يخبر تعالى عن طغاة ثمود الذين آل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضًا؛ بأن يبيتوه في أهله ليلًا فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به أنهم لم يشاهدوا ذلك.

وقد غلب هؤلاء التسعة على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم الذين صدر عقر الناقة عن رأيهم ومشورتهم، قبحهم الله ولعنهم!(٢).

فلما قتلوا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وعدهم صالح عليه السلام العذاب بعد ثلاث، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥]، فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل

= ورواه الطحاوي (أحمد بن محمد بن سلامة) في كتابه شرح مشكل الآثار (٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، برقم [٨١١].
ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب وفاته ﷺ (٩/ ١٣٦) بشواهده.
وقد صحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على كتاب شرح مشكل الآثار.
والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم [٢٥٨٦]، والسلسلة الصحيحة (٤/ ٣٢٤)، برقم [١٧٤٣]، وذكر أن للحديث شواهد من حديث صهيب وجابر بن سمرة وعلي، فانظره.

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٢٣)، كتاب التفسير، باب سورة «الشمس»، برقم [٤٩٤٢].
ورواه مسلم، كتاب الجنة، باب النار والجنة (٤/ ٢١٩١)، برقم [٢٨٥٥]. والعارم: هو الشرير المفسد.
وأبو زمعة هو: الأسود بن المطلب القرشي، عم الزبير بن العوام، مات كافرًا. التبيين في أنساب القرشيين ص(٢٧٦)، انظر: فتح الباري؛ حيث ذكر أنه ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى (٦/ ٤٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٠).

صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ﷺ فوجدوهم متشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبدًا، وقد وعدكم أن العذاب نازلٌ بكم في ثلاث، فإن كان صادقًا فلِمَ تزيدون ربكم غضبًا؟ وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك، والنفر الذين رضختهم الملائكة بالحجارة (التسعة) الذين ذكر الله ﷻ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[١] [النمل: ٤٨].

وفي عقرهم للناقة وهم غير آبهين دلالة على فساد قلوبهم واستهتارهم؛ لذا نجد التعبير بفاء التعقيب في كل الخطوات[٢]، فهم قد سارعوا واستعجلوا قدرهم المحتوم ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وهذه الثلاثة الأيام آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة، فطلبوا علامة لذلك مستهزئين، فأخبرهم أن آية ذلك أن تصبح وجوههم أول يوم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، واليوم الثالث مسودة، قال قتادة: فخدوا لهم أخدودًا، وكفر غنيهم فقيرهم، فأرسل الله عليهم صيحة فأهمدتهم[٣]، وقطعت قلوبهم، وهلكوا كلهم[٤].

---

(١) وقد صحح إسناد هذا الأثر محقق سورة «هود» من تفسير ابن أبي حاتم، وذكر أن الراوي عنه في عداد الثقات، لأن الثقة إذا روى عمن لم يضعف توثيق له. انظر: تفسير السورة التي يذكر فيها هود من تفسير ابن أبي حاتم، مخطوط عند قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. وانظر: تفسير البحر المحيط (٤/ ٣٣٤).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٠٨). (٣) انظر: الدر المنثور (٣/ ١٨٣).

(٤) تفسير البحر المحيط (٤/ ٣٣٤). وعند ابن أبي الدنيا بسنده: أن صالحًا لما قال لهم: إن العذاب يصبحكم يوم الثالث، وآية ذلك وجوهكم تصبح مسودة، فلبسوا الشعر، وتحنطوا، وعانق الآباء الأبناء، والأمهات البنات، ثم قاموا قيامًا على أرجلهم يبكون، ويصرخون، ويتلاومون، فأصبحوا متكفنين متحنطين ملقين أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى أخذتهم صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض. ص(٩١) من كتاب العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم، وانظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٣٠)، وذكره في التفسير (١٥/ ٣٧٧).

قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، أي: ساقطين على وجوههم هامدين لا يتحركون، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] الذين يريدون لكم النجاة؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تريدونه(١).

ومما أخبرنا به النبي ﷺ عنهم وما حل بهم حين مروره بالحجر من ديارهم في غزوة تبوك: روى الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمدَ الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل**»، قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «**هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**»(٢).

ومن هذا الحديث أيضًا يتبين هول الفاجعة التي ألمت بثمود، وأنه لم يبق أحد منهم إلا هلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

هذا ومع هول ما أصابهم فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم؛ إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم، فكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

ولهذا تراهم خصوا بالذكر دون غيرهم في بعض سور القرآن؛ كسورة «**الإسراء**»،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٩)، تفسير القاسمي (٧/ ٨٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٩٦)، برقم [١٤١٩٤].

أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٣٧)، برقم [١٤٨١٧] من طريق عبد الرزاق به.

ونسبه الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤)، (٧/ ٣٨) إلى أحمد والبزار والطبراني في الأوسط وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٣٧) وقال: هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. كتاب التفسير، تفسير سورة «الأعراف»، برقم [٣٢٤٨]، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٨٣).

وسورة «**الشمس**»، وهذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأيضًا إنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستيقنين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقنته أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم ـ فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ـ؛ لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والتبصرة بمزيد، ومع هذا ردوا الهدى بعد تيقنه، والبصيرة التامة به[(١)].

ثانيًا: نجاة صالح عليه السلام ومن آمن معه:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ ـ ٧٩].

وهكذا بعدما نصح صالح لقومه، وذكرهم بآيات الله، وأقام لهم الأدلة الدامغة على صدقه في دعوته، جحدوا بعدما استيقنتها أنفسهم، تولى عنهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ، والنصح والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب[(٢)].

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧].

أي: فلما جاء موعد تحقيق الأمر (وهو الهلاك) كانت نجاة صالح ومن آمن معه برحمة منا خاصة ومباشرة، نجيناه من الموت ومن الخزي الذي حل بهم، فقد كانت ميتة قومه ميتة مخزية، ومشهدهم حين أتاهم العذاب مشهدًا مخزيًا[(٣)].

وهنا نلحظ في الآيتين ما ظاهره التعارض؛ وهو أن صالحًا عليه السلام تولى عنهم عقب هلاكهم كما يدل عليه العطف بالفاء، والمعهود في مثل هذا أن تتقدم هذه

---

(١) مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية من ست سور، ص(١٧٣ ـ ١٧٥) بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٤). (٣) المصدر السابق (٤/ ١٩٠٩).

الآية على ما قبلها[1] في الذكر كتقدم مدلولها بالفعل؛ مثل آية سورة **«هود»**.

والجواب على ذلك: أنه عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لنكت في الكلام؛ ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة أو ما يقرب منها في الظهور، فيكون تولي نبي الله عنهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب.

ويكون خطابه لهم وتعنيفه إياهم جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء، دليل ذلك ما ورد من نداء النبي ﷺ لبعض قتلى المشركين ببدر بعد دفنهم في القليب: **«يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»**. قال فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**[2].

ومثل أن يقول الرجل لصاحبه وهو ميت ـ وكان قد نصحه فلم يقبل النصيحة حتى ألقى بنفسه في الهلاك ـ: يا أخي، منذ كم نصحتك، فلم تقبل! وكم منعتك فلم تمتنع! والفائدة من هذا إما لأن يسمعه بعض الأحياء فيعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة، وإما لأجل أنه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة، فإذا ذكر ذلك فرجت تلك القضية عن قلبه[3].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

العبر المستفادة من عقوبة قوم صالح عليه السلام

> **أولًا: إن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة**، وإن من كذب واحدًا منهم فقد كذب الجميع؛ لأنه يكذب الحق الذي جاء به كل واحدٍ منهم.

ولذا تجده في كل قصة ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (٣/٨٦)، برقم [٣٩٧٦].

(٣) تفسير الفخر الرازي (١٤/١٦٧)، تفسير المنار (٨/ ٥٠٠، ٥٠٨).

> **ثانيًا**: كما دعا نبي الله هود عليه السلام قومه إلى التذكير بنعم الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩]، فكذلك صالح عليه السلام يذكر قومه بنعم الله عليهم فيما آتاهم من معايش فارهة، وينكر عليهم كفرانهم بتلك النعمة؛ إذ أساؤوا استعمالها، وتعالوا بها أشرًا وبطرًا، وإنك لتلحظ امتنان الله عليهم بأمرين كان واجبًا عليهم الاعتراف بجميل المنعم، عبر عنهما القرآن بقوله سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]، والآية الأخرى ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وقد جمع الله امتنان نعمه عليهم في لفظ «هضيم» ولفظ «فارهين»، فالطعام المأكول من النخل لا يحتاج إلى جهد في البطون، وبيوتهم منحوتة بمهارة وبراعة، وكان الأليق بهم أن تكون هذه النعم عونًا لهم على طاعة ربهم عز وجل.

يؤخذ من ذلك أنه ينبغي للمسلم أن يكون معتدلًا في معيشته؛ لا مسرفًا ومبعثرًا للمال دون رقيب ولا حسيب، ولا مقترًا بخيلًا يضن بماله حتى على نفسه وأهله.

وما أكثر الصنفين في زماننا هذا! وما أضيع المال في أيدي هؤلاء السفهاء! ما أضيعه في أيدي المسرفين! فقد خدموا به أعداءهم قبل أنفسهم، وأنفقوه يمنة ويسرة في ملذات تافهة وسهرات عابثة، فما أحوج هؤلاء إلى أوصياء يضربون على أيديهم ويحولون بينهم وبين هذا العبث!.

وأما المقترون على أنفسهم وأهلهم ومجتمعهم فأقل ما يقال عنهم: إنهم منعوا حق الفقراء فيها، وألجؤوهم إلى سؤال الناس ما في أيديهم، فكثر من جراء ذلك التسول حتى أصبح ظاهرة لا يعرف أهل الخير الصادق فيهم من الكاذب.

> **ثالثًا**: كما كانت (عادٌ) تفتخر بقوتها وعظمتها وطغيانها فقد كانت ثمود كذلك استعلاءً في الأرض ونحتًا للصخور في الجبال، وكان الأليق بهذه القوة العجيبة أن تكون عونًا لهم على عبادة ربهم، وتمجيدًا لخالقهم، وكما قالت (عادٌ): ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فقد برهنت ثمود ذلك عمليًا لتبقى هذه القوة العجيبة على عبرة وعظة لمن ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] على مدار الزمان، ولتشهد أنه لا غالب إلا الله. فثمود غرتها قوتها، فأعرضت عن هدى الله وطريق الحق، فأصابها الله بالذل والهلاك، وكما ركب

الغرورُ عادًا وثمود لقوتهما فكذلك في كل زمان حين يسود قانون الغاب.

فها نحن نرى في زماننا ما تدعيه ما يسمى بالدول الكبرى، تدعي العلم والمدنية وما وصلت إليه من قوة وثراء، فاستعبدت الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها، واستغلت ثرواتها، وسرقت خيراتها، وأشعلت الفتن بين أحزابها وجماعاتها. نسأل الله العافية!.

➢ **رابعًا:** من نتائج ما ذكرناه آنفًا: أن عقوبات الله للأمم الطاغية تكون عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ويتأكد هلاكهم عند تناهي شرورهم؛ لأن الله - تعالى - بالمرصاد لهم يمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر(١).

وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**». قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٢) [هود: ١٠٢]».

➢ **خامسًا:** ما نستخلصه من قوله تعالى على لسان قوم صالح: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن - من آباء أو غيرهم - من أكبر الموانع لقبول الحق، وكذلك قالت جميع الأمم المكذبة رادين دعوة الرسل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وهذا هو سبيل أهل الباطل في كل زمان، يتعلقون بأوهى الحجج لتبرير مسلكهم في اتباع الآباء أو المذاهب الجاهلية المعاصرة التي تحكم بالقانون الوضعي، وتترك تحكيم شريعة الله، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص أنها حكم البشر للبشر؛ لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله.

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٥٧).

(٢) والحديث رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية (٣/ ٢٤٣)، برقم [٤٦٨٦].
ورواه مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم (١٩٩٧/٤)، برقم [٢٥٨٣].

إن الجاهلية في ضوء هذا النص ليست فترة من الزمان؛ ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد باليوم، ويوجد غدًا، فيأخذ صفة الجاهلية المناقضة للإسلام.

فالناس في أي زمان أو مكان إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليمًا، فهم إذًا في دين الله، وإما أن يحكموا بشريعةٍ هي من صنع البشر ويقبلونها، فهم إذًا في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله، والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ونحن نسأل ونتساءل: ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويجعل هواه أو هوى شعبه أو هوى جيل من الأجيال فوق حكم الله وفوق شريعة الله؟ ما الذي يستطيع أن يقوله ـ وبخاصة ـ إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟ الظروف، الملابسات، عدم رغبة النّاس، الخوف من الأعداء... ألم يكن هذا كله في علم الله، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يُفتنوا عن بعض ما أنزله؟!

هل هذا قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتقلبة؟ ألم يكن في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير؟!

لغير المسلم أن يقول ما شاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام ماذا سيقولون أو يدعون أو يعتذرون أمام الخالق سبحانه، ثم أمام من يطالبونهم بتحكيم شرع الله في الآخرة؟!

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم، وألا يتردد في تطبيقها على واقع النّاس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء، وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية فلن يستقيم له ميزان، ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل، ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح[١].

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٠٤، ٩٠٥)، وانظر: تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

> **سادسًا:** إن من سنن الله ـ تعالى ـ أن المستضعفين من أتباع الرسل يسبقون غيرهم من الكبراء والسادة إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ، وهذا ما لاحظناه في قصة سيدنا نوح، وهود، وصالح، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم[1]، فما عادوا يأبهون بتهديد الكفار لهم مهما كلفهم ذلك من ثمن وتضحيات، فهم في اتباعهم للرسل لا يكلفهم ذلك شيئًا، ولا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، بخلاف أكابر القوم المتكبرين المترفين؛ فإنهم يخشون أشد الخشية على شهواتهم وملذاتهم، ويرون أن اتباع هؤلاء المستضعفين يفقدهم ذلك، ثم إن حب التسلط والتجبر يمنعهم من التواضع واللين مع هؤلاء الأراذل كما يزعمون!

نستنتج من ذلك أن على الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ توسيع دائرة دعوتهم بين المستضعفين، وإفساح المجال لهم وتقريبهم، والذهاب إلى أماكن سكنهم أو باديتهم، فهم بيئة خصبة للدعوة، وسواد عظيم للأمة، ولا نعني إغفال الطبقات الأخرى من المجتمع؛ ولكن عزة الإيمان وثباته في نفوس هؤلاء المستضعفين أقوى من أن يزعزع بهوى أو منصب أو جاه.

> **سابعًا:** لقد تشاءم قوم صالح عليه السلام منه وممن معه من المؤمنين، وردوا كل ما يصيبهم من شر إليه، فهو السبب لإيمان هؤلاء الضعفاء، قال تعالى عنهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٦ ـ ٤٧].

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك. وفي سبب قولهم هذا قولان:

أحدهما: إنهم قالوا ذلك لتفرق كلمتهم.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٤).

والثاني: إنهم قالوا ذلك لما أصابهم من الجدب والقحط، فقالوا لصالح: هذا من شؤمك[١].

فعلى المسلم أن يعلم أن الطيرة منهي عنها، لقوله ﷺ: «**لا عدوى، ولا طيرة**[٢]، **والشؤم**[٣] **في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابّة**»[٤].

وقوله ﷺ: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**»[٥]. وزاد مسلم: «**ولا نوء**[٦]، **ولا غول**»[٧].

ثم ليعلم المسلم أن الطيرة باب من الشرك منافية للتوكل؛ لما فيها من الاعتماد والالتفات إلى غير الله ـ تعالى ـ؛ لأن المتطير إذا حجم عما كان قد اعتزمه فهو بعمله هذا اعتقد أنه يمكن رد قضاء الله وقدره[٨].

وهذا خلاف التوكل المأمور به؛ وهو أن يثق المسلم بالله ﷻ، ويعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له وقدره.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطيرة شرك**». وما منا إلا؛ ولكن الله يذهبه بالتوكل[٩].

---

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٠٣).

(٢) انظر شرحه في: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٣/ ٩٩٠، ٩٩١)، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ١٥٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الطيرة (٤/ ٤٧)، برقم [٥٧٥٧].
ورواه مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل (٤/ ١٧٤٤)، «النوء» في حديث رقم [٢٢٢٠]، و«الفأل» في حديث رقم [٢٢٢٢].

(٥) رواه البخاري، كتاب الطب، باب لا هامة ٤/ ٤٧، برقم [٥٧٥٧].
ورواه مسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة (٤/ ١٧٤٤)، برقم [٢٢٢٠].

(٦) نوء: هو واحد الأنواء؛ وهي منازل القمر. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ١٢٢).

(٧) «ولا غول» جمع غُولة أو غَولة ـ بضم الغين وفتحها ـ. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٩٦)، وتسمى عند العامة «الهولة»؛ لأنها تهول الإنسان، وانظر: القول المفيد في كتاب التوحيد لمحمد العثيمين (٢/ ٨٧، ٨٨).

(٨) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة (٢/ ١٢٥).

(٩) رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث (٩٠٩)، باب ما يقول الرجل إذا رأى غيمًا.
ورواه الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٣٧)، برقم [١٦١٤].
ورواه أبو داود، كتاب الطب، باب الطيرة (٤/ ٢٣)، برقم [٣٩١]. =

وأفضل من ذلك للمؤمن الفأل؛ فإن النبي ﷺ كان يحب الفأل؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**». قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»(١).

لكن من شرط الفأل ألا يعتمد عليه، وألا يكون مقصودًا؛ بل يتفق للإنسان ذلك من غير أن يكون له على بال.

* يقول ابن القيم في شرح الحديث السابق: «أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خيرها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقية بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركًا؛ لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة فقوله ﷺ: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**» ينفي عن الفأل مذهب الطيرة، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة؛ وهي أن التطير: هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره، وامتنع بها مما عزم عليه، فقد قرع باب الشرك؛ بل ولجه وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير مما يراه ويسمعه، وذلك قاطع له من مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، و﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، فيصير قلبه متعلقًا بغير الله عبادة وتوكلًا، فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه، فهذا ضد الطيرة، فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك؛

= ورواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٢/ ١١٧٠)، برقم [٣٥٣٨].

وفي كتاب مفتاح دار السعادة: أن لفظة: (**وما منا**) مدرجة في الحديث ليست من كلام النبي ﷺ، كذا قاله بعض الحفاظ، وهو الصواب. انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢٣٤).

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الطيرة (٤/ ٤٦)، برقم [٥٧٥٤].

رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٥)، برقم [٢٢٢٣].

فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة[(١)].

* **كفارة الطيرة:**

أن يقول: «**اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك**»[(٢)]. وفي صحيح مسلم[(٣)] من حديث معاوية بن الحكم السلمي[(٤)] أنه قال: يا رسول الله، ومنا أناس يتطيرون، فقال: «**ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنه**». فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته؛ لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده؛ لا ما رآه وسمعه. فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبيّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين (الجنة والنار)، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنّة دار التوحيد وموجباته وحقوقه، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يلتبسها بعمل من أعمال أهله البتة[(٥)].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، برقم [٧٠٤٥].

ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق ابن وهب حديث (٢٩٣) وسنده حسن ص(٩٢).

وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٥): رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

قال الألباني: الضعف الذي في حديث ابن لهيعة إنما هو في غير رواية العبادلة عنه، وإلا فحديثهم عنه صحيح، كما حققه أهل العلم في ترجمته. انظر: السلسلة الصحيحة (٣/ ٥٣ ـ ٥٤).

وانظر: تصحيح أحمد شاكر له في تحقيقه لمسند الإمام أحمد (١٢/ ١٠)، برقم [٧٠٤٥]. وشعيب الأرناؤوط وآخرين (١١/ ٦٢٣)، برقمه.

(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/ ١٧٤٨، ١٧٤٩)، برقم [٥٣٧].

(٤) معاوية بن الحكم السلمي: صحابي جليل نزل المدينة، روى له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. التقريب ص(٥٣٧).

(٥) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

> **ثامنًا:** التحذير من سؤال الآيات، فقد سألها الأقدمون من رسلهم، فلم تؤمن أقوامهم فأهلكوا بتكذيبهم[(١)].

وقد سأل قوم صالح عليه السلام آية فأُعطوها ثم كذبوا بها فأهلكهم الله، وقد نهاهم النبي ﷺ عن سؤال الآيات في حديثه السابق ذكره حينما مر بديار ثمود بقوله: «**لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح**... ـ إلى قوله: ـ **فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم**».

فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أن يحذروا مدعويهم غضب الله وانتقامه بتكذيب رسله وكتبه، ويصفوا لهم في هيئة قصة حال هؤلاء العاصين وما حل بهم وبغيرهم من الأمم من العذاب الأليم؛ حيث لم يبق تحت أديم السماء عين تطرف منهم، ولا بأس بضرب الأمثلة حول ذلك بتقريب المعقول لهم بشيء من المحسوس.

> **تاسعًا:** مشروعية الوقوف في الديار التي جرت بها أحداث عظام لأخذ العظة والعبرة، كما فعل النبي ﷺ في وقوفه عند بئر الناقة وإخبار الصحابة بالطريق الذي كانت تسلكه في ورودها وصدورها، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[(٢)] [الأنعام: ١١].

> **عاشرًا:** عدم مشروعية الدخول على الأقوام المعذبين إلا أن يكون باكيًا لئلا يصيبه مثل ما أصابهم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم**»[(٣)].

لأن البكاء يبعث على التفكر والاعتبار، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم،

---

(١) انظر: صحيح القصص النبوي ص(٣٣).

(٢) المصدر السابق ص(٣٣).

(٣) رواه البخاري عن ابن عمر، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (١٥٧/١)، برقم [٤٣٣].

وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالمًا فيعذب بظلمه.

وفي الحديث أيضًا ما يدل على المراقبة والزجر عن السكنى في ديار المعذبين، والإسراع عند المرور بها، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[1] [إبراهيم: ٤٥].

وقد كثر في زماننا الذهاب إلى هذه الأماكن بغرض السياحة وحب الاستطلاع؛ لا الاعتبار والاتعاظ؛ بل يكثر فيها السخط واللغط والضحك.

ألا فليعلم المروجون لذلك أنهم مشاركون لهم، ويخشى على هؤلاء وهؤلاء أن يصيبهم ما حذر منه النبي ﷺ: «**لا يصيبكم ما أصابهم**»!.

وبهذا يعلم خطأ من يدعو إلى إحياء التراث في هذه الأماكن؛ لأنه ربما ترتب على إحيائها وجود الشرك[2].

> **الحادي عشر**: قال تعالى: ﴿**فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٧].

قد أسند الله العقر إلى أولئك المستكبرين جميعًا مع أن المتعاطي لذلك كان واحدًا منهم؛ لأنه بتواطئهم ورضاهم.

ومن ذلك نعلم أن الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر، وأنها متى سكتت عن منكر وكان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل[3].

فعند أبي داود والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن النّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده**»[4].

---

(١) فتح الباري (١/٦٩٨، ٦٩٩).

(٢) انظر: (حكم الإسلام في إحياء الآثار)، مجلة رابطة العالم الإسلامي لشهر ذي القعدة ١٤٠٢هـ.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص(٥١)، دعوة الرسل إلى الله ـ تعالى ـ، ص(٢٩).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/٥٠٩، ٥١٠)، برقم [٤٣٣٨]. =

ألا فليعلم أن ما أصاب المسلمين من ذل وهوان وتسلط من أعدائهم إنما هو بسبب تفكك روابطهم، وظلم بعضهم بعضًا، وتركهم لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن المعلوم أنه إذا فشا ذلك ولم يقف الصالحون في وجه الظلم وأهله فإن الله ﷻ يعمهم بعقاب من عنده يشمل المفسدين والصالحين، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومما يدل على أن العذاب لا يخص الظالمين أو العاصين حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من النوم مُحْمَرًّا وجهه وهو يقول: **«لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب!! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»**. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**(١). وفي رواية مسلم: وحلق بين الإبهام والتي تليها.

> **الثاني عشر**: أقام قوم صالح عليه السلام بعد قتل الناقة ثلاثة أيام حددها الله لهم، هي كل ما بقي لهم على هذه الدنيا، فكانت عذابًا نفسيًّا أليمًا، فما يملك الداعي إلى الله ـ تعالى ـ بعد أن أعذر لهم إلا أن يقول كما قال صالح عليه السلام لقومه بعد أن رآهم صرعى هلكى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكذلك فعل شعيب عليه السلام، وخاطب محمد ﷺ قتلى بدر من المشركين فقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها! فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**(٢).

= رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٤/ ٤٠٦)، برقم [٢١٦٨].

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«ويل للعرب من شر قد اقترب»** (٤/ ٣١٤)، برقم [٧٠٥٩].

ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/ ٢٢٠٧)، برقم [٢٨٨٠].

الخبث ـ بفتح الخاء والباء ـ: فسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد: الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقًا. شرح النووي على مسلم (١٨/ ٣).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٣٢).

قال العلماء: ومثل هذا مما خص الله به الأنبياء. ولكن بعض المعتذرين لعباد القبور بدعاء أصحابها لقضاء حوائجهم يقيسون عليه وعلى ما ورد من حياة الأنبياء والشهداء في البرزخ أن كل من دعا ميتًا من الصالحين يسمع منه ويقضي حاجته، مع العلم بأن عالم الغيب لا يقاس عليه، وإن لم تكن من الخصائص التي لا يجري القياس فيها[١].

➢ **الثالث عشر**: نجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين، وأهلك الله الكافرين ولم يبق منهم أحدٌ إلا رجلًا واحدًا اسمه (أبو رغال) كان بالحرم من مكة، فعندما خرج منه نزل به العذاب الذي حل بقومه، وهذا يدل على أن هذه الحرمة كانت قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وصالح وقومه كانوا قبله، وإبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[٢] [إبراهيم: ٣٧].

❖ ❖ ❖

(١) تفسير المنار (٨/٥٠٨).

(٢) صحيح القصص النبوي ص(٣٣).

المبحث الرابع

عقوبة قوم لوط عليه السلام

تمهيد

لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، أحد أنبياء الله ورسله الذين واجهوا قومًا قساة القلوب، غلاظ الطباع، هاجر مع إبراهيم الخليل عليهما السلام إلى أرض الشام، سكن شرق الأردن المسمى بعمق السديم (بقرب البحر الميت المسمى ببحر لوط)، بعثه الله إلى أهل (سدوم)(١) عاصمة عمورية، وأدمة، وصويم، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن عمل الخبائث؛ لأنه وجدهم منحرفين عقديًا، ومنحرفين سلوكيًا، والأمر الأول كان فيمن قبلهم، أما الأمر الآخر ـ هو الانحراف في السلوك ـ فلم يسبقوا إليه، فكان شذوذًا عن الفطرة السوية، والملّة الحنيفية، والأخلاق الإنسانية، فجاهدهم لوط عليه السلام جهادًا عظيمًا حتى أنزل الله بهم غضبه وعذابه وأليم عقابه(٢).

* * * * *

---

(١) يقال: سدوم (بالدال)، وقيل: سذوم (بالذال المعجمة)، والمشهورة بالدال. انظر: لسان العرب مادة «سدم» (٦/ ٢٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠)، تفسير المنار (٨/ ٥٠٩).
ومن كتب التاريخ: تاريخ الطبري (١/ ٢٩٢)، البداية والنهاية (١/ ١٧٦).

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت عقوبتهم

أشار القرآن الكريم إلى عقوبة قوم لوط في عدد من سور القرآن، وفصل خبرهم في سور أخرى.

القسم الأول: السور التي أشار القرآن فيها إلى عقوبتهم دون تفصيل:

«التوبة»، «الأنبياء»، «الحج»، «الفرقان»، «ص»، «ق»، «النجم»، «الحاقة».

فسور «**التوبة**»، و«**النجم**»، و«**الحاقة**» أشارت إلى قوم لوط دون ذكر اسمهم، واتفقت في المسمى بـ (**المؤتفكات**) في سورتي «**التوبة**»، «**والحاقة**» بصيغة الجمع، وبـ (**المؤتفكة**) في سورة «**النجم**» بالإفراد؛ لأن كل ما كان وصفًا لجمع المؤنث يجوز أن يأتي بصيغة المفرد وبصيغة الجمع[(١)].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ ـ ١٠].

سورة «**الأنبياء**»: جاء فيها ذكر لوط ﷺ والإشارة إلى قومه بعملهم الخبيث موجزًا في معرض ذكر الأنبياء المذكورين في السورة المسماة باسمهم، وَوَصَفَهُم بصفة السوء الدالة على الفسق، زيادة على ذلك قبحهم الله، ولم تذكر مقرونة بالفسق إلّا في هذه السورة.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٤). والأفك ـ بفتح الألف ـ: مصدر قولك: أفكه يأفكه أفكًا؛ أي: قلبه وصرفه عن الشيء، وائتفكت البلدة بأهلها: أي انقلبت. انظر: الصحاح (٤/ ١٥٧٢، ١٥٧٣).

سور «**الحج**»، «**ص**»، «**ق**»: جاء فيها ذكر قوم لوط في معرض ذكر الأقوام المكذبين للتذكير والاعتبار.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤].

وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٣].

سورة «**الفرقان**»: جاء فيها ذكر قوم لوط في معرض التذكير لقريش الذين كانوا يمرون كثيرًا في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية، غير أنها لم تذكر بالاسم الصريح هنا؛ حيث جاء السياق عقب استعراض سريع لعرض مصارع الأقوام المكذبين، وينهيها بمصرع قوم لوط[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

القسم الثاني: السور التي فصلت عقوبتهم:

أولًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

- **لطائف الآيات باختصار:**

> **أولًا**: لوط ﷺ ينكر على قومه فعل هذا المنكر القبيح، وتجاوز شرع الله، وقلب الفطرة السوية.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٦٤).

➤ **ثانيًا**: لوط يخبر قومه بقبح عملهم؛ لأن مباشرتهم له قبيحة، واختراعهم له أقبح؛ لما فيه من الخروج عن حدود الاعتدال إلى الحياة البهيمية.

➤ **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] بالاستفهام وهو للإنكار والتوبيخ، وقال بعده: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾، فزاد مع الاستفهام (إنّ)، فما الفرق؟

والجواب: لأن التوبيخ والإنكار في الثاني أبلغ، ومثله ما جاء في سورة «النمل» ﴿أَتَأْتُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وبعده ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾[1] [النمل: ٥٥]، وتراه خالف في سورة «العنكبوت» حين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فجمع بين «إن» و «أئن»؛ وذلك لموافقة آخر القصة؛ حيث جاء فيها: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2] [العنكبوت: ٣٤].

➤ **رابعًا**: إن قيل: إنه قال في سورة «**الأعراف**»: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال في سورة «**النمل**»: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، فما الفرق مع أن قصتهما واحدة؟.

والجواب: أن المسرف يجهل بإسرافه، والجاهل مسرفٌ في أفعاله؛ بمعنى أن كل إسراف جهل، وكل جهل إسراف، فيجوز أن يكون لوط ﷺ قال في مقام له مع قومه هذا اللفظ: «**مسرفون**»، وقال في المقام الآخر اللفظ الثاني: «**تجهلون**».

أما كون سورة «**الأعراف**» اختصت بـ «**مسرفون**» فلأن رؤوس الآيات التي تقدمت كلها أسماء؛ مثل: «**العالمين**»، «**الناصحين**» . . .

وكذلك في سورة «**النمل**» وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال: «**تبصرون**» «**تتقون**» «**تعملون**»[3].

➤ **خامسًا**: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٨٢]، جاء هنا في

---

(١) وهي: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٢، ١٩٣).

(٣) انظر: درة التنزيل ص(١٣٨، ١٣٩)، البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٣، ١٩٤)، وانظر: كشف المعاني ص(١٨١).

سورة «**الأعراف**» بالواو، وجاء في سورتي: «النمل» و«العنكبوت» بالفاء ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ٥٦]، فما الفرق؟

والجواب: أن ما قبلها «**مسرفون**» وهو اسم وإن أدى معنى الفعل، والفاء للتعقيب، والتعقيب يكون مع الأفعال.

انظر له في قوله تعالى في سورة «**النمل**»: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ الآية [النمل: ٥٥ ـ ٥٦].

وقوله في سورة «**العنكبوت**»: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٩].

أما في هذه السورة «**الأعراف**» ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1] [الأعراف: ٨١ ـ ٨٢].

➢ **سادسًا**: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وفي سورة «النمل» ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، فما الفرق؟

والجواب: أن ما في هذه السورة كناية فسرها ما في سورة «النمل»، فقصة لوط في سورة «النمل» نزلت قبل نزولها في «الأعراف»، فيكون التصريح بقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ في الأول نزولًا[2]، فاكتفى بما صرح به أولًا.

ثانيًا: سورة «هود»:

قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ

(١) انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٤).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(١٩٤).

مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ
﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ
﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴿٨٣﴾ [هود: ٧٦ - ٨٣].

● **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا**: جاءت هذه الآيات عقب قصة إبراهيم ولم تذكر في السورة السابقة.

> **ثانيًا**: ذكر في هذه السورة مجيء الملائكة إليه في صورة شبان مرد حسان بعد رجوعهم من عند إبراهيم عليه السلام، فكره ملاقاتهم؛ لا بغضًا في ضيافتهم؛ وإنما لما يعلم من خبث قومه. ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود؛ فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه، فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعًا، ثم يصدر تعبيرًا عن المعاني وترتيبًا عنه كلامًا يريح به نفسه(١).

> **ثالثًا**: ذكر في هذه السورة قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]؛ أي: من أضيافي، وهذا كما عرض سليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهم فيهن، والمقصود دفع هذه الفاحشة الكبرى(٢).

> **رابعًا**: ورد في هذه السورة تحديد الوقت الذي أمر الله لوطًا بالخروج فيه إجمالًا؛ وهو ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(٣) [هود: ٨١]، وورد تحديده بدقة في سورة «القمر» في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وهو الثلث الأخير من الليل. وأخبر الله في هذه السورة أن العذاب سيصبحهم من نفس الليلة وقت شروق

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/ ٣٨٠).
ولعله استفاد مما ذكره البقاعي في نظم الدرر (١١/ ٧٥) حين قال: إن قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، وقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]؛ جاء هنا بأداة الشك «إن»، يشير بها إلى أن هذا الفعل مما لا ينبغي أن يفعل، يعني: وأنتم عالمون بأني لا أسلم بناتي أبدًا، فعلم من ذلك أن وصولكم إلى أضيافي - دون هلاكي - محال. وكأنه يرد بها على أقوال المفسرين الأخرى.

(٣) وتعيين الليل للخروج كيلا يلاقي ممانعة من قومه فيشق عليه دفاعهم. التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٢).

الشمس[1].

➢ **خامسًا**: أمطر الله ﷻ قوم لوط بحجارة من سجيل منضود، ثم قال بعدها: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٣]؛ أي: أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يرمي المشركين بمثلها، وهنا نلحظ أنه لم يقل: ببعيدة؛ حيث جردها عن تاء التأنيث، والحجارة مؤنث لفظي، وكان الشأن فيما كان بمعنى الفاعل أن يطابق موصوفه في التأنيث، فكيف جاء هذا في كتاب الله هنا؟

والجواب: لأن المؤنث إذا أضيف إلى مذكر اكتسب منه التذكير[2]؛ كقوله تعالى في سورة «**الأعراف**»: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، ولم يقل: قريبة من المحسنين، ولعل الساعة تكون قريبة، ومن يحيي العظام وهي رميمة.

فتأول الزمخشري في الكشاف «ما» هنا على أنه صفة لمحذوف؛ أي: بمكان بعيد، أو: بشيء بعيد، على الاحتمالين على ما يعود إليه ضمير «هي»[3].

ثالثًا: سورة «الحجر»:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ
٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠
فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ
فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ
أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ
هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا
تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ
بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣
فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٧٧].

---

(١) سيأتي الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].
(٢) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/ ٥٠ ـ ٥١).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٠٦).

• لطائف الآيات غير ما سبق:

> أولًا: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٦١]، إن قيل: المقصود هو لوط عليه السلام، فلم قال: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾؟

والجواب: لأنهم نزلوا منزله بين أهله فجاؤوا آله، وفيها من التشريف والإكرام لهم جميعًا ما فيه(١).

> ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

وقال في سورة «**هود**» السابقة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]، يرد سؤال هو: لم استثنى امرأته في «هود» ولم يستثنها في «**الحجر**»؟ ثم لم خص سورة «**الحجر**» بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾؟

والجواب: قد تقدم في الآيات قبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الحجر: ٥٩ - ٦٠]، فأغنى ذكر ذلك عن الإعادة، ولم يتقدم في «هود» فذكرها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ فلأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم تحقق له نجاتهم، وأمن أهله أمامه مما نزل بقومه، وليكون على ثقة مما وعده به الملائكة الكرام، وأنه سوف يتحقق لا محالة(٢)، وأمر ثالث: لئلا يشتغل قلبه بمن خلفه فينقطع عن ذكر الله(٣).

> ثالثًا: إن قيل: كيف قالت الملائكة: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]؟ أي: قضينا، والقضاء لله - تعالى - لا لهم؟

الجواب: أن هذا مجاز، كما تقول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك(٤).... ولله المثل الأعلى.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/٦٣).

(٢) انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(٢٢٥، ٢٢٦)، وانظر: كشف المعاني ص(٢١٢، ٢١٣).

(٣) البحر المحيط (٥/٤٤٨).

(٤) انظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٥٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، وقال في سورة «هود»: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، فكيف؟

الجواب: أن ابتداء عذابهم الصبح قبل الشروق، وكان آخره وقت شروق الشمس، أو أن مبدأ الصباح وقت شروق الشمس[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وفي سورة «هود» قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]؛ فلم قال مرة: «عليهم»، وأخرى قال: «عليها»؟

والجواب: قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ لا إشكال فيه؛ أي: على أهلها، أما قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فإنه يعود على أول القصة وهو قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]، ثم قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وهذه لطيفة فاحفظها[٢]، أو أنها عائدة إلى ضمائر الجمع قبل هذه[٣] الآية، وهذا ما أميل إليه.

> **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] بجمع كلمة: «آية»، وأفردها في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧].

والجواب: لأن الآية الأولى للإشارة إلى ما تقدم من قصة لوط وضيف إبراهيم، ولما تعرض له لوط من أذى وغيره من الأمور الكثيرة ختم بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، أي: لمن تدبر السمة؛ وهي ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم.

وأما الثانية فتعود إلى القرية ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وهي واحدة، فوحد الآية بعدها[٤]، أو لأن ما جاء في القرآن من الآيات فلجمع الدلائل، وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه، فلما ذكر عقيبه المؤمنين ـ وهم مقرون بوحدانية الله سبحانه ـ وحّد الآية، وليس لها نظير إلا في «العنكبوت»، وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] [العنكبوت: ٤٤].

> **خامسًا**: انفردت الآيات بذكر لفظ «سكرة» في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

---

(١) انظر: كشف المعاني ص(٢١٣)، التحرير والتنوير (١٤/ ٦٥).
(٢) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٤٠). (٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٩).
(٤) درة التنزيل ص(٢٠٧).
(٥) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٤٠)، وانظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٦٩).

* قال ابن القيم: «وإنما وصف الله ﷻ اللوطية بالسكرة؛ لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر؛ كما قال القائل:

سكران سكر هوًى وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران»[(١)]؟

> **سادسًا**: انفردت الآيات بذكر أصل الفراسة من الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال السيوطي في الإكليل: «هذه الآية أصل في الفراسة»[(٢)]. وعلاقتها بالآيات أن فيها عبرة وذكرى لقريش، فهو إلهاب لهم وتبكيت؛ لأنهم كانوا يدعون أنهم أبصر الناس بالفراسة[(٣)]، فلماذا لا يتعظون بمصير هؤلاء وهم يمرون عليهم في رحلاتهم صباح مساء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

رابعًا: سورة «الشعراء»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: رأينا في السور السابقة كيف بدأت بوصف فعلة قوم لوط الخبيثة، وجدالهم له، ومدافعته إياهم كأنه في معركة دائمة مع قومه.

أما هذه السورة فبدأت الآيات بذكر دعوتهم إلى عبادة الله وحده وتقواه، والتلطف في إبلاغ الدعوة حرصًا منه عليهم، وهو مع هذا لا يطلب على ذلك

---

(١) تفسير القاسمي (١٠/ ٦٤). والبيت للخليع الدمشقي من أبيات له. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي (١/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القاسمي (١٠/ ٦٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٧٨).

أجرًا منهم مقابل دعوته إياهم، ثم يذكر بعد ذلك فعلتهم الخبيثة ونصحه لهم.

➢ **ثانيًا**: انفردت الآيات بذكر نوع جديد من التهديد يفعله الطغاة في كل زمان؛ ألا وهو النفي من البلاد، فما هو إلا غريب عليهم ليس له منعة من قوم أو قربى ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وصيغة ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أبلغ من قوله: لنخرجنك؛ أي: ممن علمت حالهم حين يخرجون من القرية على أسوأ حال[١].

➢ **ثالثًا**: قوله تعالى عن امرأة لوط: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]، إن قيل: «في الغابرين» صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم، فكيف؟

فالجواب: معناه: إلّا عجوزًا مقدرًا غبورها.

وفي سورة «الأعراف» ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، إنّ «كان» تأتي بمعنى: صار[٢].

خامسًا: سورة «النمل»:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: ذكرت الآيات حال قوم لوط في اتيانهم لهذه الفاحشة وهم يعلمون أنها فاحشة، ولم يكتفوا بعملهم ذلك؛ بل جاهروا بها حتى كان يرى بعضهم بعضًا ـ قبحهم الله ولعنهم! ـ قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤].

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦١).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦١)، وانظر: التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٠)، البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٤).

> **ثانيًا**: إضافة لما سبق في ذكر قول الله ـ تعالى ـ من سورة «**الأعراف**»: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وهنا قال: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] زيادة ملحظ؛ وهو حمل كل قول صدر منهم على الوقوع في وقتين، ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا، فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم[(١)].

> **ثالثًا**: اقتصرت سورة «**النمل**» على ذكر قصة ثمود وقصة قوم لوط دون ذكر عاد ومدين؛ وذلك لمناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان عليه السلام، ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(٢)] [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

> **رابعًا**: ذكرنا الفرق بين وصف الله ـ تعالى ـ قوم لوط في سورة «**الأعراف**» بأنهم ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وهنا بـ (**تجهلون**)، وزاد هنا في أنه لم يقل: «**يجهلون**»؛ حيث غلّب جانب الخطاب على جانب الغيبة؛ لأن الخطاب أقوى دلالة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

> **خامسًا**: قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، وقال في «**الأعراف**»: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

* قال صاحب التحرير والتنوير: «هما عبرتان تفرعتا على وصف ما حل بهم، فوزعت العبرتان على الآيتين؛ لئلا يخلو تكرير القصة من فائدة»[(٣)].

سادسًا: سورة «العنكبوت»:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ

---

(١) انظر: تفسير المنار (٨/٥١٢، ٥١٣). (٢) التحرير والتنوير (١٩/٢٨٨).
(٣) المصدر السابق (٢٠/٦).

﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ
مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا
مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٥].

• لطائف الآيات:

> **أولًا**: سبق ذكر أكثرها في السورة السابقة؛ غير أن سورة «**العنكبوت**» انفردت بذكر قبح فعلتهم، ورضاهم بها، واستغنائهم بها عن الزوجات، وأضافوا ما هو أقبح من ذلك؛ ألا وهو قطعهم السبيل؛ بنهب المال، وترويع المارة، والاعتداء عليهم بالفاحشة، ثم يذكر السياق درجة أخرى أبعد في الفحش وتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح؛ ألا وهو قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، يأتونه جهارًا وبشكل جماعي متفق عليه لا يخجل بعضهم من بعض[١].

> **ثانيًا**: انفردت سورة «**العنكبوت**» بذكر طلب القوم العذاب منه، قال الله عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والأمر في قوله: ﴿ٱئْتِنَا﴾ للتعجيز، وهذا يقتضي أنه أنذرهم العذاب أثناء دعوته[٢].

> **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾[٣] [العنكبوت: ٣٣]، وقال في سورة «هود»: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾[٤] [هود: ٧٧] بدون «أن» فما الفرق؟

والجواب: أن «لما» لا بد لها من جواب، فإذا اتصل بها «أن» دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ، كما هو في سورة «**يوسف**»: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]، وهنا جاء جواب «لما» سريعًا: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

أما في سورة «**هود**» فطال الكلام، حيث جاء جواب «لما» بعد ثلاث آيات

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٣٣). (٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤١).

(٣) وتكملتها: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

(٤) وتكملتها: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

وهو قوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾[1] [هود: ٨١].

➢ **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقبلها قالت الملائكة لإبراهيم حين جادلهم في أمر لوط: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فمرة قال: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، ومرة قال: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بصيغة الفعل، فهل فيه فائدة؟

والجواب: أنه لما قال لهم إبراهيم هناك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢] وعدوه بنجاة لوط، ووعد الكريم حتم.

وههنا لما قالوا للوط بعد الوعد مرة أخرى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، أي: ذلك واقع منا لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]، لضرورة وقوعه[2].

➢ **خامسًا:** إن قيل: إن قول الملائكة للوط عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، لا يناسبه ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]؛ لأن خوفه ما كان على نفسه، فكيف يجاب عنه؟

فالجواب: أن لوطًا لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له: لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة، ثم قالوا له: يا لوط خفت علينا وحزنت لأجلنا، ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك، ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾[3] [العنكبوت: ٣٣].

➢ **سادسًا:** عذب القوم بسبب ما صدر منهم من الفاحشة، وامرأته لم يصدر منها تلك، فكيف كانت من الغابرين معهم؟

والجواب: أن الدال على الشر كفاعله، كما أن الدال على الخير كفاعله، وهي التي كانت تدل القوم على ضيوف لوط عليه السلام، فبذلك صارت واحدة منهم، إضافة لكفرها الذي ذكره الله في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠].

➢ **سابعًا:** قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وفي قصة نوح وإبراهيم في نفس السورة وقصة نجاتهما آية، وههنا جعل الهلاك آية، فهل من جواب يوضح ذلك؟

---

(١) وانظر: البرهان في متشابه القرآن ص(٢٩٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٦٢). (٣) المصدر السابق (٢٥/ ٦٢).

والجواب: أن آية قدرة الله - تعالى - موجودة في الإنجاء والإهلاك، فذكر من كل باب آية، وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة، وأخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب، ورحمته سبقت غضبه ﷻ[1].

سابعًا: سورة «الصافات»:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾[2] [الصافات: ١٣٣ - ١٣٦].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: إن قيل: كيف قال الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٤]، وهو من المرسلين قبل التنجية؟

فالجواب: أن ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ لا يتعلق بما قبله؛ بل يتعلق بمحذوف تقديره: اذكر لهم يا محمد إذ نجيناه، أو وأنعمنا عليه إذ نجيناه[3].

والمعنى: أنه حين إنجاء الله إياه وإهلاك قومه كان قائمًا بالرسالة عن الله - تعالى -، ناطقًا بما أمره الله[4].

➢ **ثانيًا**: السورة تعدد ما امتن الله به على أنبيائه من إكرام ونجاة ونصرة وغير ذلك، ووجه تخصيص قصة لوط مع القصص الخمس[5] في السورة بأن في عرض قصته مشاهد آثار قومه الذين كذّبوا وأصروا على الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

➢ **ثالثًا**: تنتهي هذه الإشارة لقصة قوم لوط بلمسة لطيفة لقلوب العرب الذين

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٦٢).

(٢) وتكملتها: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]؛ أي: على قرى قوم لوط.

(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٣٤).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧١).

(٥) قصة نوح ﵇، قصة إبراهيم ﵇، قصة موسى ﵇، فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول، ثم ذكر ثلاثة رسل تفرعوا عنهم، وثلاثتهم على ملة رسل من قبلهم: فلوط على ملة إبراهيم، وأما إلياس ويونس فعلى ملة موسى - عليهم الصلاة والسلام -. انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٠).

يمرون على ديار قوم لوط صباح مساء في رحلاتهم إلى بلاد الشام، فلا تستيقظ قلوبهم ولا تفكر عقولهم فيما هو خير لهم[١].

ثامنًا: سورة «القمر»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٤٠].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** عرف قوم لوط بالإضافة إليه في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣]؛ إذ لم يكن لتلك الأمة اسم يعرفون به عند العرب[٢].

> **ثانيًا:** لم يقص علينا القرآن ما تلقى به قوم لوط دعوة لوط عليه السلام؛ وإنما ذكرت ما كان منها مشابهًا لأقوال المشركين في تفصيله؛ فلذلك اقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين؛ وهو تكذيب رسولهم، وإعراضهم عن نذره[٣].

> **ثالثًا:** لم تذكر زوجة لوط في الآيات اكتفاءً بما سبق من ذكرها، وتنبيهًا على أن من لا يؤمن بالرسول لا يُعدّ من آله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

> **رابعًا:** ذكرت الآيات ما أجملته القصص الأخرى[٤] في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ حيث فسره هنا بدقة في قوله: ﴿نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، أي: آخر الليل. وقيل: هو السدس الأخير من الليل[٥].

> **خامسًا:** انفردت الآيات بذكر عذاب أوليّ أصاب قوم لوط حينما جاؤوا

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٩٨). (٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٤).
(٣) المصدر السابق (٢٧/ ٢٠٤).
(٤) أي: في سورتي «هود» آية (٨١)، سورة «الحجر» آية (٦٥).
(٥) التفسير الكبير (٢٩/ ٥٨)، وانظر: تفسير أبي السعود (٨/ ١٧٢)، فتح القدير (٥/ ١٢٧).

لعمل الفاحشة بضيوفه، فطمس الله أعينهم قبل وصولهم إليهم، قال المفسرون: خرج عليهم جبريل عليه السلام فضربهم بجناحه فطمس أعينهم[1].

> **سادسًا**: فائدة ذكر ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧، ٣٩]، في الموضعين أن يتجدد عند استماع كل نبأ من ذلك ادكار واتعاظ وإيقاظ استيفاء يتطلبه نص التنكيرالقرآني[2].

فإن قيل: الخطاب في ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ممن وقع؟ مع من وقع؟

فالجواب من وجوه[3]:

الأول: فيه إضمار تقديره: فقلت على لسان الملائكة: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾.

الثاني: هذا خطاب مع كل مكذب تقديره: كنتم تكذبون فذوقوا عذابي؛ فإنهم لما كذبوا ذاقوا.

الثالث: أن هذا خرج مخرج كلام الناس؛ فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو غاضب منه جدًا، فضُرب ضربًا مبرحًا فإنه يصرخ مستغيثًا، فيقول الملك ـ وهو لا يسمع قوله ـ: ذق إنك مجرم مستأهل، والملك يعلم أنه لا يسمع كلامه مع مخاطبته له. وهذا كثير. فلذلك لما كان كل أحد بمرأى ومسمع من الله عز وجل إذا عذب أحدًا كان قد سخط عليه فإنه يسمع قوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

> **سابعًا**: إن قيل: كيف يذاق النذر؟

فالجواب: أن معناه: ذق مجازاة فعلك. أما معنى ﴿وَنُذُرِ﴾: فكما يقال: ذق فعلك، أي: ذق ما لزم من إنذاري.

فإن قيل: فعلى هذا لا يصح العطف؛ لأن قوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾، وما لزم من إنذاري ـ وهو العذاب ـ يكون كقول القائل: ذوقوا عذابي وعذابي؟

وجوابه: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾؛ أي: العاجل منه، وما لزم من إنذاري هو العذاب الآجل. فكأنه قال: ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل.

فإن قيل: هما لم يكونا في زمان واحد، فكيف يقال: ذوقوا؟

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٧٤) وما بعدها، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٥). وسيأتي تفصيله.

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٧). (٣) انظر: التفسير الكبير (٢٩/ ٦١).

وجوابه: أن العذاب الآجل متصل بآخر العذاب العاجل، فهما كالواقع في زمان واحد، وهو كقوله تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[1] [نوح: ٢٥].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

وفيه:

- أ ـ **نماذج من دعوة سيدنا لوط عليه السلام.**
- ب ـ **وقفة قبل النهاية.**

دعا سيدنا لوط عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك أفعالهم القبيحة، ولبث على ذلك زمنًا طويلًا يدعوهم ويجادلهم ويحذرهم عقاب الله ونقمته، فاصطدمت دعوته بقلوب قاسية، وأهواء مريضة، ورفض متكرر، فقد كانوا مجرمين حقًّا، يستحي العاقل من ذكر جرائمهم للناس؛ لئلا يتعلم المجرم المتفرغ من أفعالهم، ولو فعل لاستحى بعد حين من فعلة واحدة، ويكفيهم أنهم سنوا سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة!.

أ ـ نماذج من دعوة سيدنا لوط عليه السلام:

أولًا: دعوته إلى عبادة الله وحده وطاعته:

كغيره من الأنبياء السابقين دعا قومه إلى عبادة الله وحده وطاعته، ودعاهم إلى أن يطيعوه؛ لأنه رسولٌ من عند الله إليهم، ولم يواجههم باستنكار المنكر أولًا؛ لأنهم إذا عبدوا الله وأطاعوه تخلوا من عند أنفسهم عما هم فيه، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

ثانيًا: التنوع والتدرج:

تدرج سيدنا لوط عليه السلام في دعوة قومه، يدل على ذلك كثرة إنكاره للمنكر

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٩/ ٦١).

وبألفاظ متعددة، فتراه مرة يقول لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، (وهذه الفاحشة هي اللواط، بدليل الآية التي بعدها ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١])، ومرة يقول لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، ومرة يقول لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، ومرة يقول لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ومرة يقول بعد أن جاهدهم كثيرًا: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، أي: إني أبغض وأكره بشدة عملكم، ولا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم(١).

فهنا أراد تغيير المنكر بقلبه، وأخيرًا قال لهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، أراد تغيير المنكر باليد.

ثم وصفهم بأوصاف تليق بهم وبأمثالهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، و﴿عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، و﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

* قال صاحب (ملاك التأويل) في توجيه هذا التنوع: «إن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم؛ إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد ولا لقوم مخصوصين؛ بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، وقد يخاطب ملأهم الأعظم في مواطن والفئة القليلة منهم في موطن آخر، وربما أطال في موطن وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرونه عليهم السلام أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم»(٢).

ثالثًا: توفير البدائل واختيار أخف الضررين:

وهذا ما فعله سيدنا لوط عليه السلام حين هجم أولئك المجرمون على بيته يريدون فعل الفاحشة بأضيافه، فدعاهم إلى البديل؛ وهو الزواج من بناته - أي: نسائهم -، أو الزواج الشرعي ببناته هو على قول من قال ذلك؛ لأنه أب لأمته، أو أنه فعل ذلك ليتزوج ببناته الوجهاء منهم فيردّوا الباقين، وقد كان يرفض

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٧).

(٢) ملاك التأويل (١/ ٥٤٤، ٥٤٥).

تزويجهم منهم لعدم الكفاءة، فإن انتفى ما سبق وأنه ﷺ قال ذلك من باب تصريفهم عنه؛ لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان ﷺ للمرأتين حين اختصمتا في الولد فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله؛ ولهذا قال قومه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، وأيضًا: يريد بعض العذر من أضيافه.

وقد رد الشيخ ابن سعدي قول من قال: إن معنى ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨]؛ يعني: زوجاتهم؛ لأن النبي أبٌ لأمته، وقال: «هذا يمنعه أمران[(١)]:

أحدهما: قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يشير إليهن إشارة الحاضر.

والثاني: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له، وأيضًا: النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به؛ لا للكفار، والمحذور الذي توهموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق، فاشتد الأمر بلوط فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فأخبرته الملائكة بأمرهم وأنهم أرسلوا بهلاكهم».

رابعًا: التخويف والوعيد:

حاول لوط ﷺ استثارة مشاعر قومه فيخوفهم بالله ـ تعالى ـ وينذرهم عقابه؛ لعلهم يستجيبون له ويطيعونه، فقال تعالى على لسانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، و﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٩]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١١٠]، و﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦].

وتأتي آية أخرى تبيّن أن قومه يشهدون بلسانهم أنه توعدهم بالعذاب حين سخروا منه وتحدوه بقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

* قال الألوسي: «وهذا ظاهر في أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان أوعدهم بالعذاب»[(٢)].

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص(١٧٠، ١٧١).

(٢) روح المعاني (٢٠/١٥٣).

خامسًا:

الاعتماد على الله وحده، قال تعالى على لسانه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤].

مما سبق يتبيّن أن لوطًا عليه السلام كان لا يخافهم ولا ترهبه تهديداتهم، فقد دعاهم في أماكنهم الخاصة ونواديهم العامة غير آبه بهم؛ لاعتماده على الله وحده ـ وهو كاف عبده ـ، مؤمنًا بأن الله سيمنعه وينجيه منهم ومن أفعالهم الخبيثة.

وقفة تأمل قبل النهاية

وفيها:

أولًا: الميزان الفطري يختل عند قوم لوط:

كما سبق وأن علمنا أنهم هددوا لوطًا عليه السلام بالإخراج، وهم من قبل ذلك يحاولون عزله عن الناس، فقد نما إلى علمهم أنه يُؤوي إليه أضيافًا من أماكن أخرى بين الحين والآخر ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠]، فلم يستطيعوا منعه؛ لأن الرجل كان كريمًا مضيافًا، فما هو بالذي يمكن أن يسكت ولو بعد حين عن أفعالهم، فاختلقوا الأعذار الواهية المريضة لإخراجه، وتعللوا بطهارته مما هم فيه مرة، وبعدم رضائه عنهم أخرى، فهو دائم الإنكار والبغض لما هم فيه ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وهنا نلاحظ شدة تأثير الشذوذ عليهم حتى أنزلهم لهذا المستوى الهابط، فانعكست القيم واختلت الموازين لديهم، فالرذيلة في نظرهم فضيلة، والعفة جريمة، إنه شذوذٌ أدى إلى الانخلاع من فطرة الأحياء جميعًا، وهذا يدل أيضًا على فساد التركيب النفسي والعضوي لديهم؛ لأن الله جعل لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر، وامتداد النسل الذي ينشأ عن هذه المباشرة، وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة نفسيًا وعضويًا، وأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها تبعًا لانعدام الهدف منها، فإذا وجد فيها أحد فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيًا من خط

الفطرة، وعاد مسخًا لا يرتبط بخط الحياة[1].

ثانيًا: طلب قوم لوط العذاب:

طلب قوم لوط العذاب على سبيل السخرية والتحدي للوط عليه السلام ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وهذا الرد ما هو إلا حلقة من حلقات تمرد العباد على دعوات الرسل والأنبياء في كل زمان ومكان، إنه التبجح في وجه الإنذار، والتحدي المصحوب بالتكذيب، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وقد ظل هذا الطلب ديدن المكذبين منذ عهود الإصلاح الأولى، قائمًا في وجه الدعاة والمصلحين وعباد الله الصالحين[2].

ثالثًا: فرض العزلة المنفردة عليه:

وكأن هذه الإرهاصات في تدرجها تؤذن بهلاك القوم؛ حيث أجبروه على عدم الاتصال بالناس أو حتى استقبالهم وضيافتهم لعدة أمور، منها:

١ ـ أن الرجل محبوب من الناس، فخافوا أن تنتشر دعوته بينهم، فيضلهم في نظرهم، ويبعدهم عن طريقهم.

٢ ـ أن لوطًا عليه السلام كان كريمًا، يحب إكرام الضيف، فخافوا أن يعرض على من يأتيه دعوته فيخرج عليهم، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٦٨ ـ ٧٠].

وهكذا يبقى أسلوب فرض العزلة والإقامة الجبرية، وكبت الحريات، قائمًا ضد الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ في كثير من المجتمعات؛ وخاصة الدول الإسلامية التي لا تحكم بشريعة الله، فضلًا عن ذكر غيرها من الدول الكافرة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

رابعًا: التهديد بعقوبة النفي للوط عليه السلام:

لاحظنا من قبل التدرج في التهديد للوط عليه السلام؛ حيث قالوا له أولًا: ﴿لَئِن لَّمْ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٣٣).

(٢) كما سبق بيانه عن قوم نوح وهود وصالح، وما سيلحقه في الفصول القادمة ـ إن شاء الله ـ.

تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧ ـ ١٦٨]، ثم تجاوزوا ذلك لأهله بصيغة الجمع ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، ثم تجاوزوا ذلك إلى التصريح وترك الكناية، فقد ضاقوا ذرعًا بتصرفاته، فلا حل إلا أن يخرج هو وأهله ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللّجاج[1].

وهكذا بلغ بهم السوء وعدم المبالاة، وتحكم الشر فيهم إلى أن يخرجوا النبي لوطًا من بين أظهرهم، وأن ينبذوه من مجتمعهم وقريتهم، لا لشيء إلا أنه ينتقد مساوئهم، ويعيب قبائحهم الدنيئة وانحرافهم الخبيث الذي ألفوه حتى باتوا يقاومون الطهر والنقاء، ويرفضون كلام الأنبياء النصحاء، فتمالؤوا على إخراجه؛ لأنه ليس بالذي يسكت ولوبعد حين عنهم، ولا هو بالذي يرضى بأفعالهم، فليس هناك من حل إلا أن يخرج وينفى بعيدًا عن أرضهم، فأخرجهم الله ـ تعالى ـ من الدنيا كلها، ونجى لوطًا ومن كان معه من المؤمنين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

خامسًا: وصول الملائكة إلى لوط عليه السلام في صورة بشر:

في طريقهم إلى لوط عليه السلام مروا بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في صورة بشر، فأكرمهم وأحسن وفادتهم، ثم تبين له أنهم ملائكة، ولا بد أنهم مرسلون بأمر عظيم جاؤوا من أجله، فسألهم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧]، فأخبروه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ ـ ٣٤]، فجادلهم إبراهيم فجاءه الرد ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]، فأخبرهم لما في قلبه من الشفقة والرحمة على لوط عليه السلام وقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ

---

(١) قصص القرآن لابن كثير (١/ ١٧١).

ومعنى اللجاج: التمادي في الخصومة. انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٣٩) مادة «لجج». واللجة: الجلبة. وألج القوم: إذا صاحوا. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٣٤).

بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وهكذا اطمأن إبراهيم على لوط ومن آمن معه، ثم توجهت الملائكة قاصدة لوطًا ﷺ في صورة شبان حسان الوجوه للابتلاء والاختبار، فلما رآهم لوط ﷺ سيء بهم وضاق صدره بمجيئهم، خوفًا عليهم من قومه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

لعلمه بقومه أنهم خبثاء أشرار لا يرقبون إلًّا ولا ذمة ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، أي: شديد في الشر(١)، فأخبرت امرأته قومها بمجيء هؤلاء الشبان الحسان الوجوه إلى لوط، فأسرع القوم إليه وجاؤوا مستبشرين فرحين، كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨]، وقال أيضًا: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

لقد تسامع القوم بأن في بيت لوط شبّانًا صِباح الوجوه، ففرحوا بأن هناك صيدًا ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور، يكشف عن هذا المدى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان، بينما أولئك القوم المجرمون يجاهرون ويتلمظون عليها، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير، فأما لوط فوقف مكروبًا يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم، ويستجيش وجدان التقوى لله، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني؛ ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع، فإذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطًا على استضافة أحد من الرجال، كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة، ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعًا(٢).

ولكن ما نقول في قوم أشربت نفوسهم حب المنكر، فلم يعد لديهم نخوة ولا أصالة ولا شهامة؟ إن الرجل إذا عُيّر في عرضه أو شرفه بشيء لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يغسل ما اتُّهم به مهما كلفه ذلك من ثمن ولو كانت روحه التي

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٧٤).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٤٩).

بين جنبيه، أما هؤلاء فأصبحوا كالخنازير لا يغارون، فانقلب لديهم الحق باطلًا والباطل حقًّا، فراحوا يهددون لوطًا بالدخول عنوة على أضيافه، فيقول لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨ - ٦٩]، يذكرهم بالله ويستثير مشاعرهم ونخوتهم وتقاليدهم كبدو ينبغي عليهم إكرام الضيف لا فضحه، فأبوا ذلك، فقال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، ومراده عليه السلام بالركن: العشيرة والمنعة بالكثرة[(١)].

قال ابن عباس وأهل التفسير: «أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويجادلهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يحاولون تسور الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقًا ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء؛ فإن في بيت لوط قومًا هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون: يا لوط، كما أنت حتى نصبح فسترى، يتوعدونه»[(٢)].

فكان طَمْسُ أعينهم عذابًا أوليًّا، يبشرون به لوطًا أنه لن يمسه منهم شيء، ولا يستطيع القوم الهروب أو الخروج من البلد حتى ينزلوا بهم عذاب الله وسخطه.

* قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ [القمر: ٣٧] قال: «أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا»[(٣)]. وقال الزمخشري: «إنهم لما جاؤوا إلى باب لوط ليدخلوا عنوة قالت الملائكة: خلهم يدخلون ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٧٨).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٧٨، ٧٩). وهذا الأثر ذكره الحاكم في المستدرك، كتاب تاريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر لوط النبي ﷺ (٢/ ٦١٤)، برقم [٤٠٥٩] وقال: على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) فتح القدير (٥/ ١٢٧).

يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٨١]، فصفقهم جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بجناحه صفقة فتركهم يترددون ولا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط»[1].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

عرفنا من قبل أن لوطًا ﷺ دعا قومه إلى عبادة الله وترك أعمالهم الخبيثة، فقابلوا ذلك بالتكذيب والعصيان والسخرية والنكران، وطلبوا أن ينزل بهم العذاب إن كان صادقًا، ولما يئس من استجابتهم دعا الله أن ينجيه وأهله وينصره على القوم المفسدين، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨ ـ ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩ ـ ٣٠].

فاستجاب الله دعوته، وأقال عثرته، وشفا صدره منهم، فأنزل بهم رجزه وغضبه، فلم يعرف أمة في التاريخ عذبوا بمثل عذابهم، وإليك الآيات التي ذكرت عذابهم، ثم تفصيل ذلك:

قال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ومثلها في سورة «النمل»[2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٥)، وانظر: البحر المحيط (٥/ ٢٤٨)، وانظر: تفسير الألوسي (٢٧/ ٩٠).

(٢) سورة «النمل» آية (٥٨).

من خلال الآيات السابقة يتضح لنا أن الله ﷻ أهلك قوم لوط بأنواع من العذاب هي:

أ ـ المطر. ب ـ الحجارة المسومة من السجيل المنضود. جـ ـ الصيحة. د ـ قلب قراهم بأن جعل عاليها سافلها. هـ ـ الحاصب. و ـ تتبعهم في القرى بالحجارة.

روى ابن جرير بسنده[١]: «قال لوط: لو أن لي قوة أو آوي إلى ركن شديد، فوجد عليه الرسل وقالوا: إن ركنك لشديد! وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، .. إلى أن قال: ونزلت حجارة من السماء، فتتبعت من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله، ونجى لوطًا وأهله إلا امرأته».

وعند ابن كثير: «لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم، وذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه الحجارة، ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه «الحجر» فيقتله»[٢].

مما سبق نستطيع أن نقول:

أولًا: قوم لوط عصوا الله وجاهروا بالمعاصي حتى أصبح فعلُهم محادةً لله ـ تعالى ـ ورسوله، وسخروا من نبيهم واعتدوا عليه في بيته، فأنزل الله بهم أنواعًا من العذاب عقوبة لهم، فلم يصب قومًا ما أصابهم، وقد ذكرها القرآن الكريم وفرقها في سُوره لتكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين[٣].

ثانيًا: قال الشوكاني: «ذكر المفسرون روايات وقصصًا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة، وليس في ذكرها فائدة؛ لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب، وحالهم في الرواية معروف، وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم فاعرف هذا»[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٢٨، ٤٤٢) بسند حسن.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧١)، تفسير فتح القدير (٢/ ٥١٥، ٥١٦).
(٣) روح المعاني (٢٧/ ٩٠).
(٤) تفسير فتح القدير (٢/ ٥١٧)، وانظر: كلام صاحب المنار (١٢/ ١٣٨، ١٣٩).

ثالثًا: الصحيح مما ذكره المفسرون ما كان موافقًا لظاهر القرآن من أن الله ـ تعالى ـ جعل عالي القرية سافلها، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجر صلب كانت تنهال عليهم متتابعة منتظمة لا يخطئ حجرٌ طريقه ولا يضل سبيله حتى هلكوا وبادوا، فلم ينفعهم ما أرادوا، ولم يمنعهم كل ما ملكوا وسادوا.

رابعًا: إن ما يحدث اليوم من أمراض معدية لا دواء لها إنما هي نتيجة لهذه الفعلة الخبيثة، أو لكل عمل شاذ ليس طريقه الطريق الشرعي.

هذا، وقد انتشرت هذه الفعلة في الدول الغربية انتشارًا فاحشًا يخشى من انتشارها في الدول الإسلامية من أصحاب القلوب المريضة، والشهوات الرخيصة؛ ليكون نذير شؤم ينذر بهلاك فاعلها والراضي بها، قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، إذا نهجوا نهجهم، واقتفوا أثرهم ممن تشبه بهم في فعلهم القبيح ورأيهم العنيد[(١)]. وسنذكر بعضًا من آثارها في الدروس المستفادة.

نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه

صدرت الأوامر بعد معركة بيت لوط عليه السلام إليه بأن يخرج بأهله إلا امرأته بقطع من الليل؛ أي: في وقت السحر، وأن يكون خلفهم ولا يلتفت أحدٌ منهم، وفي الطريق تأتيه الأوامر إلى أين يتجه؟ قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[(٢)] [هود: ٨١].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ[(٣)] وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧١)، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٨١).

(٢) قال الشوكاني رحمه الله: «إن (أسري) للمسير من أول الليل، و(سرى) للمسير من آخره، والقطع من الليل: الطائفة منه. قيل: إن السرى لا يكون إلا في الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل: لو لم يقل: بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة، وليس ذلك بمراد». تفسير فتح القدير (٢/ ٥١٥).

(٣) «واتبع أدبارهم»: قال صاحب الكشاف: أمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم، فلا تحصل منهم التفاتة احتشامًا منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة؛ لئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه =

أَحَدٌ[1] وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ[2]﴾ [الحجر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[3] [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

نفذ لوط عليه السلام ما قالته له الملائكة؛ لتكون نجاته بعيدًا عن مصارع القوم، خرج لوط من قريته غير آسف لما سيحل بقومه في الصباح، فإذا هو عند خروجه لا يلوي على شيء، ولا يحدوه الأمل أن يعود مرة أخرى، أو ليقف فيتذكر الأطلال، أو لينظر نظرة وداع، خرج حتى إذا صار بعيدًا أنزل الله بقومه المجرمين عذابه، فزلزلت الأرض زلزالها، وجعل عاليها سافلها، ثم غشاها بمطر من سجيل، فإذا الديار غير الديار، وإذا الأرض غير الأرض، لقد صارت خاوية بما ظلموا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[4] [الشعراء: ٨].

* * * * *

= العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به. تفسير الكشاف (٢/ ٥٨٤). وانظر: نظم الدرر (١١/ ٧٢).

(١) «ولا يلتفت منكم»: قال الرازي صاحب التفسير (٢٠/ ٢٠١): [الفائدة] فيه أشياء: أحدها: لئلا يتخلف منكم أحد فيناله العذاب. ثانيها: لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء. ثالثها: معناه: الإسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه. ورابعها: لو بقي منه متاع في ذلك الموضع فلا يرجعن بسببه البتة.

(٢) «وامضوا حيث تؤمرون»: قال ابن عباس: الشام. وقيل: مصر.
وقيل: إلى أرض الخليل. انظر: البحر المحيط (٥/ ٤٤٨)، ونظم الدرر (١١/ ٣٣).

(٣) من هاتين الآيتين يُعلم أنه لم يكن مع لوط عليه السلام عند نجاته سوى بناته، وهو ظاهرالآيتين.
وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ قال: لوط وابنتيه. تفسير الشوكاني (٥/ ٨٩).
أما امرأته فهي مستثناة في آيات أخرى بأنها هالكة مع القوم، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ [هود: ٨١].

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٨١)، وانظر: المستفاد من القصص القرآني (١/ ٢٣٤).

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة قوم لوط

➢ **أولًا**: إنكار المنكر على الكافر في بيئته.

بمعنى: أن على الداعية المسلم أن ينكر على الكافر الكفر وغيره.

وذلك إذا كانت معصيته تلحق الضرر بالأمة، وتشيع الفساد في الأرض، وهذا ما رأيناه في دعوة سيدنا لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث دعاهم للتقوى والطاعة وترك فعل الفاحشة، وقد رأينا كيف كان يتلطف معهم ويجادلهم بالحسنى؛ لعل أحدًا منهم يستجيب لدعوته.

ورأينا أيضًا أنه لم يكلفهم بتشريعات معينة؛ كالصلاة مثلًا أو غيرها؛ وإنما ركز جل دعوته في النهي عن فعل هذه الفاحشة لضررها الكبير بالمجتمع التي عدّوها إلى الذكور من غير الآدميين توغلًا في الشر، وتجاهرًا بالتهتك[1].

➢ **ثانيًا**: في هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، واللعنة في الدنيا والآخرة.

➢ **ثالثًا**: إن من ابتلي بفعل هذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح؛ فاستحسن ما كان قبيحًا، ونفر من كل طيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق[2].

➢ **رابعًا**: إن في ارتكاب جريمة اللواط مفسدة للنساء اللواتي انصرف أزواجهن عنهن حتى قصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن، وكم من امرأة اضطرها زوجها إلى الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة مع وفور جمالها وكمالها[3].

➢ **خامسًا**: إنها تسبب قلة النسل؛ لأن من لوازمها الرغبة عن الزواج، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث.

وقد وردت أحاديث كثيرة في حظر إتيان النساء في غير سبيل النسل، ولعن فاعل ذلك، وهو من عمل قوم لوط، ويسمى عند بعض العلماء: اللوطية الصغرى، منها: حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال:

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الرحمن ص(١٧١)، وانظر: تفسير المنار (٨/ ٥٢٠).
(٢) انظر: المرجعين السابقين. (٣) تفسير المنار (٨/ ٥٢١).

«الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى»(١).

قال قتادة: وحدثني عقبة بن وساج(٢)، عن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر(٣)؟

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى حائضًا، أو امرأة في دبرها، أو كاهنًا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد»**(٤).

➢ **سادسًا:** إنها ذريعة للاستمناء ولإتيان البهائم، ولا شك أنهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب؛ لأن من يفعل ذلك يصير قصده الشهوة لذاتها، فقد يستغني بها عن الزواج؛ لقرب منالها، وقلة تكلفتها، فتجتمع عليه الشرور والبلايا من كل مكان، أعاذنا الله منها!(٥).

➢ **سابعًا:** لقبح فعلة اللواط وشناعتها وضررها بالفرد والمجتمع حرمها الإسلام، وجعل عقاب ذلك القتل - على الراجح من أقوال أهل العلم كما سيأتي بيانه -.

ومن أضراره الصحية: أنه ينقل إلى الإنسان مرض الزهري، والسيلان،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢١٠)، برقم [٦٩٦٨].
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٩٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) عقبة بن وساج: (بتشديد المهملة وآخره جيم) الأزدي، بصري نزل الشام، ثقة، من الثالثة، قتل بعد الثمانين بالزاوية أو الجماجم. التقريب ص(٣٩٥).

(٣) رواه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب ذكر حديث ابن عباس فيه واختلاف ألفاظ الناقلين عليه (٥/ ٣٢١)، برقم [٩٠٠٤].
وأخرجه عبد الرزاق (ابن همام الصنعاني) في مصنفه، باب إتيان المرأة في دبرها (١١/ ٤٤٣)، برقم [٢٠٩٥٧]. وابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد) كتاب النكاح، ما جاء في إتيان النساء في أدبارهن (٣/ ٣٦٣)، برقم [١٢٤]. قال الحافظ في التلخيص (٣/ ١٨١): إسناده قوي.
وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط وقال: هو إسناد صحيح على شرط البخاري.

(٤) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤٠٨)، برقم [٩٢٧٩]. ورواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الكاهن (٤/ ٢٢٥، ٢٢٦)، برقم [٣٩٠٤].
ورواه الترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (١/ ٢٤٢)، برقم [١٣٥]، وصحح إسناده الألباني (١/ ٤٤).

(٥) تفسير المنار (٨/ ٥٢٢).

والقرحة الرخوة، وأمراض الجلد؛ كالجرب وغيره. ثم إنه يحدث بالشرج أمراضًا كثيرة، منها:

ضعف العضلة العاصرة حتى يفقد فيها السيطرة على عملية الإخراج، فيحدث من غير إرادة، ويحدث تمزق الشرج نفسه، وزوال الأنسجة حوله، ثم إنه قد يصاب بداء الأبنة[(١)] حتى يصبح مخنثًا. وقد يظهر على العكس من ذلك رجولة أكثر ليغطي النقص الذي عنده، فقبح فاعلها ومفعولها، ليس لكونها لذة بهيمية كما قيل؛ إذ اللذة البهيمية لا قبح فيها لذاتها؛ بل فحشها باستعمالها بما يخالف مقتضى الفطرة وحكمتها، وبما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والأدبية الكثيرة[(٢)].

> **ثامنًا:** عناية الله ـ تعالى ـ بخليله إبراهيم؛ فإن لوطًا عليه السلام من أتباعه، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط أمر رسله أن يمروا بإبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد، وحدّثوه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم في إهلاكهم وحاول تأخير العذاب عنهم، وما خرجوا من عنده حتى أقنعوه فطابت نفسه[(٣)]، ومنه نأخذ مشروعية الجدال عمن يرجى له الخير من الناس، وذلك في غير الحدود الشرعية إذا رفعت إلى الحاكم[(٤)].

> **تاسعًا:** إن الله ـ تعالى ـ قدر مجموعة من الأسباب جعلت لوطًا عليه السلام يشتد غيظه وحنقه عليهم، فلربما أنه لو لم يحصل ذلك لأخذته الرقة عليهم والرأفة بهم[(٥)].

> **عاشرًا:** إن الله ـ تعالى ـ إذا أراد أن يهلك قرية أمرهم بطاعته فأعرضوا وعصوا، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه[(٦)].

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

---

(١) الأبنة: داء يصاب به من ابتلي بهذه الفعلة الخبيثة. المنار (٨/ ٥١١).

(٢) انظر: تفسير المنار (٨/ ٥١٢)، وانظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص(١٤٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٣٥٧).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢).

(٦) المصدر السابق.

➢ **الحادي عشر**: العادات السيئة في المجتمع تنتشر أسرع من العادات الحسنة؛ وذلك لموافقتها هوى أو شهوة في نفوس من أشربها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن هنا نأخذ أن على الدعاة بذل الطاقة في دفع الشر قبل وقوعه؛ حتى لا يكون بذرة لما هو أكبر، ومن هنا يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحالاته للتصدي لكل من يستحسن قبيحًا أو يقبح حسنًا، فكم من فِعلٍ قبيح سُكت عنه حتى أصبح عادة يستعدى بها على من نصحَ أو دعا إلى هدى.

➢ **الثاني عشر**: إكرام الضيف واجب على كل مسلم بالقول والفعل والذود عنه بكل وسيلة ممكنة.

ونحن رأينا أن سيدنا لوطًا عليه السلام استقبل أضيافه وهو يعلم أنه ممنوع من ذلك[(١)]، ويعلم أنه سيلقى متاعب عظيمة من أجلهم، ومع ذلك أكرمهم بحسن استقباله، فلما جاء قومه يريدونهم دافع عنهم مضحيًا بفلذات أكباده، فلما رأى أنهم لا يرعون حقًا ولا يستجيبون لأمر أخذ يدافع عنهم بما أوتي من قوة، ويتمنى لو أنه يملك قوة أكبر يدافع بها عن ضيوفه، حتى أخبرته الملائكة أنهم رسل الله أتوا لعذابهم فكان ما كان.

وفي هذا المقام نذكر حديث النبي ﷺ الذي شدد فيه على إكرام الضيف فقال: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[(٢)].

➢ **الثالث عشر**: جواز التعريض[(٣)] بأمر معيّن ليستجلب منفعة أو يدفع عنه مضرة؛ مثل ما فعل سيدنا لوط حين قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠].

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٤/ ٩٤)، برقم [٦٠١٨]، [٦٠١٩]، [٦١٣٥]، [٦١٣٦]، [٦١٣٨]، [٦٤٧٥]، [٦٤٧٦].

(٣) التعريض: هو أن يقصد المتكلم أمرًا معينًا، ويوهم السامع أو الرائي أمرًا آخر لجلب نفع أو دفع ضر. وقد بوب البخاري بابًا سماه «المعاريض مندوحة عن الكذب» (٤/ ١٣٠)، ورقم الباب [١١٦]. أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب المعاريض، برقم [٨٨٨] ص(٢٩٦) من طريق قتادة عن مطرف بن عبد الله. وأخرجه الطبري في التهذيب. وقال ابن حجر في الفتح: وأخرجه الطبراني ورجاله ثقات (٦٣٥).

٧٨]، وهو لا يريد إلا دفع ضررهم عنه حين أرادوا الاعتداء على أضيافه.

> **الرابع عشر**: أن من علامة الرجل الرشيد أنه المسدد في أقواله وأفعاله، فينصر المظلومين، ويفرج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾(1) [هود: ٧٨].

وبالمقابل ذم الله فرعون لأنه لم يكن أمره رشيدًا، فكان قائدًا لهم على الضلال في الدنيا، وقائدًا لهم إلى النار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٨].

> **الخامس عشر**: طلب القوة المادية أو التطلع إليها للقضاء على الشر لا يقدح في الإيمان والتوكل على الله.

وعلى هذا لو سعى المؤمن في الاستعانة على أمور الخير ودفع الشر بأهل الشر لما كان لذلك تأثير على إيمانه؛ لأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله(2)؛ ولهذا قال لوط ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وهذا التمني صدر من لوط لشدة غيظه على قومه، فلم يعاتبه الله على ذلك، ولم يقدح ذلك في إيمانه وتوكله على ربه وثقته به.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله لوطًا! لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته**»(3).

وزاد الترمذي: «**ما بعث الله بعده نبيًا إلا في ثروة من قومه**»(4). أي: كثرة

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٧١، ١٧٢).

(٢) من حديث رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٢/ ٣٧٦)، برقم [٣٠٦٢]، [٤٢٠٤]. ورواه مسلم، كتاب الايمان، باب تحريم قتل الإنسان نفسه (١/ ١٠٥٩)، برقم [١١١].

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (٢/ ٤٧٠)، برقم [٣٣٨٧]، وأطرافه في [٣٣٧٢]، [٣٧٧٥]، [٤٦٩٤]. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١/ ١٣٣)، برقم [١٥١].

(٤) رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب (١٤)، ومن سورة «يوسف» (٥/ ٢٩٣)، برقم [٣١١٦] وقال: حديث حسن. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص(٢٠٩)، برقم =

ومنعة لتأييد الحق وقمع الباطل، وقد حصل ذلك لنبي الله شعيب عليه السلام بعد ذلك حين خاف قومه من رهطه ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وحصل أيضًا لنبينا محمد ﷺ حين رماه قومه بالعداوة البليغة حتى انحازت قبيلته معه - مسلمهم وكافرهم -، فعجزوا عن الفتك به، حتى اتفق رأيهم على أن يقتله من كل قبيلة رجلٌ يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فيعجز قومه عن الأخذ بثأره؛ ولكنهم يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين!(١).

والخلاصة: أن إعداد القوة واجب لحماية الحق ومنع الظلم، وتمني القوة والاطلاع إليها دون خدش لمعاني التوكل على الله لفرض رد الظلم أمرٌ لا بأس به؛ بشرط ألا يغيب التوكل والاعتماد على الله عن الإنسان.

➢ **السادس عشر**: لله - تعالى وتقدس - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أمّا المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله - تعالى -، لما روى البخارى وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٢).

وروى الترمذي وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله فقد كفر - أو أشرك -**»(٣).

ولعل أحدًا يعتذر بأن الله قد أقسم بحياة نبينا محمد ﷺ في قوله سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، يعتذر بذلك فيقسم بشخص(٤)

= [٦٠٥]، وذكره الألباني في الصحيح، برقم [١٦١٧]، [١٨٦٧].
وفي رواية عند سعيد بن منصور وأبي الشيخ: «ما بعث الله نبيًا بعد لوط إلّا في عز من قومه»، انظر: الدر المنثور (٣/ ٦٢١).

(١) خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن السعدي ص(١٧٢)، تفسير أضواء البيان (٣/ ٤٩)، وانظره: ما يستفاد من القصص القرآني (١/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم (٤/ ٢١٨)، برقم [٦٦٤٦]، وأطرافه في [٢٦٧٩]، [٦٦٤٧]، [٦٦٤٨]. ورواه مسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله (٣/ ١٢٦٦)، برقم [١٦٤٦].

(٣) رواه الترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٥/ ١١٠)، برقم [١٥٣٥] وقال: حديث حسن. ورواه أحمد (١/ ٤٧)، برقم [٣٢٩].

(٤) كأن يقول: «والنبي» أو غيرها؛ كالقسم بالحياة فيقول: بحياتك وبعيشك وغيرها. =

النبي ﷺ؛ لأن الله أقسم به، وعليه فإن توجيهات الأحاديث السابقة تبيّن أنه لا يجوز القسم بغير الله - تعالى - مهما كان منزلة المقسوم به.

➢ **السابع عشر**: الحث على نظر التفكر والاعتبار فيما حصل لقوم لوط وغيرهم من العذاب، وأن في ذلك منفعة للعقل البشري.

وقد بين هذا المعنى في مواضع كثيرة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]، وغير ذلك. ومجموع الآيات تبين أن ما وقع من النكال لقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك، فتحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وهذا تهديد عظيم منه تعالى لمن لم يعتبر بحالهم، فيجتنب ارتكاب ما هلكوا بسببه(١).

➢ **الثامن عشر**: أهلك الله قوم لوط فلم يبق منهم أحدًا ينبت ببنت شفه، ومن لم يكن فيهم وقت نزول العذاب أتبع بالحجارة، وهذا من الله تطهير كامل لوجه الأرض من الخبث الذي عمّ وطم فيها، وأقر الله عين لوط عليه السلام بهلاك قومه المجرمين.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنّ الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها. وإذا أراد هلكة أمّة عذّبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره**»(٢).

وأخيرًا لقد كتب في ذلك أهل العلم مؤلفات عديدة، وسنتعرض لأقوالهم

= قال الإمام مالك: وليس من كلام أهل الذكر، وإن كان الله أقسم به - أي: بشخص الرسول - فذلك بيان لشرف المنزلة وشرف المكانة، فلا يحمل عليه سواه، ولا تستعمل في غيره. أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٠). وأخرجه في المصنف أيضًا من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال: أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب، برقم [٨٨٧].

(١) أضواء البيان (٢/ ٦٣). وانظر: أيسر التفاسير (٢/ ٥١٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٤/ ١٧٩١)، برقم [٢٢٨٨]. وقد عذبهم جميعًا رجالًا ونساءً، وقد يسأل سائل: لم عذب قوم لوط بعمل رجالهم؟ والجواب كما ذكره صاحب المنار عن علي بن جعفر قال: قلت لمحمد بن علي: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالها؟ قال: الله أعدل من ذلك! استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال. تفسير المنار (٨/ ٥٢٢).

ونبيّن الراجح منها، ثم نحيل إلى بعض المراجع لمن أراد الاستزادة في ذلك.

نقول ـ وبالله التوفيق ـ: إن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ اختلفوا في عقوبة مرتكب فاحشة قوم لوط على ثلاثة أقوال:

ـ **القول الأول**: يقتل الفاعل والمفعول به مطلقًا؛ سواءً كانا محصنين أو لا، أو أحدهما محصنًا والآخر بكرًا.

وهذا القول هو قول الجمهور، قال الشنقيطي: «وحكى غير واحدٍ إجماع الصحابة على هذا القول، وهو قول الإمام مالك والإمام الشافعي وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد»(١).

غير أنهم اختلفوا في كيفية قتله، وليس هذا محل تحريره.

واستدلوا على ذلك بما يلي:

أولًا: حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**(٢).

ثانيًا: أثر علي رضي الله عنه «أنه رجم لوطيًّا»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في البكر يوجد على اللوطية: «إنه يرجم»(٤).

---

(١) انظر: الشرح الكبير على متن المقنع (٥/ ٤٠٤)، الداء والدواء (٢٠٠ ـ ٢٠١)، أضواء البيان (٣/ ٤٠).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٠٠)، برقم [٢٧٢٧].

ورواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٤/ ٦٠٧)، برقم [٤٤٦٢]. ورواه الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (٤/ ٥٧)، برقم [١٤٥٦]، وفي كتابه علل الترمذي الكبير (٢/ ٦٢٠) ط. مكتبة الأقصى. ورواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (٢/ ٨٥٦)، برقم [٢٥٦١]. ورواه الحاكم، كتاب الحدود (٤/ ٣٩٥)، برقم [٨٠٤٧]، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٢٣٢). انظر: مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك الحاكم (٧/ ٣١٢٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٨/ ١٦: ١٨)، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٨٢، ٨٣)، برقم [٢٠٧٥].

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٢).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٤/ ٦٠٨)، برقم [٤٤٦٣]. ورواه النسائي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي رقمه ٢٤، برقم [١٤٥٦]، وصحّح إسناده موقوفًا الألباني. انظر: صحيح سنن أبي داود (٢/ ٨٤٤)، برقم (٣٧٤٧).

* قال صاحب أضواء البيان: «ويستأنس لذلك بأن الله رمى أهل تلك الفاحشة بحجارة من سجيل»[(١)].

ثالثًا: استدلوا بفتوى الإمام علي رضي الله عنه «في الرجل الذي وجده خالد رضي الله عنه ينكح كما تنكح النساء أن يحرق بالنار»[(٢)].

رابعًا: استدلوا أيضًا بأن الله ـ تعالى ـ رفع قوم لوط ثم ألقاهم ثم أُتبعوا بالحجارة، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، روي ذلك عن ابن عباس حين سئل عن ذلك[(٣)].

ـ **القول الثاني**: إنه كالزاني يجلد مرتكبه مائةً إن كان بكرًا ويغرّب سنة، ويرجم إن كان محصنًا.

وهذا القول هو أحد قولي الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وبه قال عطاء وابن الزبير وأبو يوسف ومحمد بن الحسن (صاحبا أبي حنيفة) وسعيد بن المسيب والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي[(٤)].

واستدلوا بما يلي:

أولًا: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان**»[(٥)].

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ سمى من فعل ذلك زانيًا، وعلى هذا فإن اشتراكهما في الاسم يدل على اشتراكهما في الحكم.

مناقشة سند الحديث: قال الحافظ ابن حجر في التلخيص: «في سنده محمد بن عبد الرحمن القشيري، كذبه أبو حاتم»[(٦)].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٣).

(٢) رواه البيهقي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (٨/ ٢٣٢). قال عنه الحافظ المنذري في كتابه الترغيب والترهيب: إسناده جيد.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٩٤) رقم الباب «٤٢»، ورواه البيهقي في السنن (٨/ ٢٣٢).

(٤) انظر: المغني لابن قدامة عبد الله بن أحمد (٨/ ١٨٨).

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٨/ ٢٣٣) وقال: في إسناده من لا أعرفه. ونقل ابن أبي حاتم عن والده توهينه، وقال: إسناده منكر. إذًا الحديث ضعيف. انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٤)، تلخيص الحبير (٤/ ٦٢)، خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٠٢).

(٦) الجرح والتعديل (٧/ ٣٢٥).

ورواه أبو الفتح الأزدي[1] في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر، وفيه: بشر بن الفضل البجلي (مجهول)، إذًا فالحديث ضعيف لا يحتج به[2].

ثانيًا: استدلوا أيضًا بالأثر المروي عن عثمان ﷺ أنه أتي برجل قد فجر بغلام من قريش معروف النسب، فقال عثمان بن عفان: ويحكم! أين الشهود؟ أحصنَ؟ قالوا: تزوج بامرأة ولم يدخل بها بعد، فقال علي لعثمان ﷺ: لو دخل بها لحل عليه الرجم، فأمّا إذا لم يدخل بها فاجلده الحد، فقال أبو أيوب: أَشهدُ أني سمعت رسول الله ﷺ يقول الذي ذكره أبو الحسن، فأمر به عثمان فجلد مائة[3].

فدل هذا الأثر على أن عقوبة اللوطي عقوبة الزاني المقررة شرعًا.

مناقشة هذا الأثر: ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: «في إسناده جابر الجُعْفي وقد صرح بالسماع. وقال: وفيه من لم أعرفه»[4].

وقال عنه ابن حجر في التقريب[5]: «ضعيف رافضي». إذًا فلا يحتج بحديثه.

ثالثًا: استدلوا أيضًا بما ورد عن عطاء بن أبي رباح قال: «أتي ابن الزبير بسبعة في لواطة، أربعة منهم قد أحصنوا، وثلاثة لم يحصنوا، فأمر بالأربعة فرضخوا بالحجارة، وأمر بالثلاثة فضربوا الحد، وابن عباس وابن عمر في المسجد»[6].

فدل هذا الأثر كما دل عليه الأثر السابق.

مناقشته: قال ابن حزم في كتابه المحلى[7]: «هذه الرواية فيها مجهولون، ولا يصح الاحتجاج بها».

---

(١) أبو الفتح الأزدي: محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الموصلي، صاحب كتاب الضعفاء، حدث عن جمع من مشاهير العلماء منهم: ابن جرير الطبري، وحدث عنه أئمة حفاظ منهم: أبو نعيم الحافظ، ت«٣٧٤هـ». انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨)، وانظر: كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١٤/ ٣٠٨، ٣٠٩)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٦٧).

(٢) انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (١/ ٣٢٤)، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني (٤/ ٦٢).

(٣) انظر: نصب الراية (٣/ ٣٤١).

(٤) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٢٧٢).

(٥) التقريب لابن حجر ص(١٣٧).

(٦) انظر: السنن الكبرى (٨/ ٢٣٣)، المحلى لابن حزم الظاهري (١٣/ ٤٤٧)، نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي (عبد الله بن يوسف الحنفي) (٣/ ٣٤١).

(٧) المحلى (١٣/ ٤٥٣).

رابعًا: واستدلوا بالمعقول؛ وهو أنهم قاسوه على الزنا بجامع الإيلاج في فرج آدمي لا ملك له فيه ولا شبهة، فيعطى حكمه[1].

ويجاب عن ذلك أن هذا قياس في مقابل نص، ومن شروط صحة القياس عدم وجود نص على حكم الفرع، والنص الصحيح الصريح موجود.

* وقال الشنقيطي: «القياس لا يكون في الحدود؛ لأنها تدرأ بالشبهات، والأكثرون على جواز القياس في الحدود، إلا أن قياس اللائط على الزاني يقدح فيه بالقادح المسمى (فساد الاعتبار)؛ لمخالفته لحديث ابن عباس: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»[2].

- **القول الثالث**: إن مرتكب فاحشة قوم لوط لا حد مقرر عليه، وعقوبته التعزير، وهي مفوضة لرأي الحاكم، وبه قال أبو حنيفة والظاهرية، وهو قول عند الشافعية[3].

ولا يوجد لهم دليل من الكتاب والسنة يحتجون به؛ وإنما كانت وجهة نظرهم التي عبر عنها الكاساني في البدائع بما ملخصه: أنه لا يوجد نص من كتاب الله أو سنة تقدر حدًّا لهذه الجريمة، هذا **أولًا**، **وثانيًا**: اختلاف الصحابة ﷺ في حد هذا الفعل، وهذا يدل على عدم وجود النص الصحيح، فالواجب فيه التعزير لوجهين:

الأول: أن التعزير هو الذي يحتمل الاختلاف في القدر والصفة؛ لا الحد.

الثاني: أنه لا مجال للاجتهاد في الحد؛ بل لا يعرف إلّا بالتوقيف، وللاجتهاد مجال في التعزير[4]، ثم إنه لا يتناوله اسم الزنا؛ لأن لكل منهما اسمًا خاصًا به.

وقد أجاب ابن القيم رحمه الله عن ذلك فقال: «إن المبلغ عن الله - تعالى - جعل حد صاحبها القتل حتمًا، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله، ثم إن نفي دليل معيّن لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، وكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف»[5].

---

(١) انظر: الشرح الكبير على المقنع (٥/ ٤٠٤)، أضواء البيان (٣/ ٤٤).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٤).
(٣) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ٣٤)، فتح القدير في الفقه (٥/ ٤٣).
(٤) بدائع الصنائع (٧/ ٣٤).
(٥) الداء والدواء (٢٠٧، ٢٠٨).

وأما قولهم: إن الصحابة ﷺ اختلفوا فيجاب عنه: بأنهم لم يختلفوا في أصل العقوبة ـ وهي القتل ـ؛ وإنما اختلفوا في كيفية التنفيذ ـ كما سبق بيانه عند بيان القول الأول ـ[1].

وأما قولهم: إن اللواط لا يتناوله اسم الزنا، فجوابه: أن أصحاب القول الأول القائلين بالقتل لم يقولوا به أصلًا.

وبعد، فإنه إذا ثبت النص عن صاحب الرسالة محمد ﷺ فلا يجوز لأحدٍ كائنًا من كان أن يتجاوز ذلك إلى قياس أو تعليل أو مناقشة.

والقول الراجح ما ذهب إليه أصحاب القول الأول بأن عقوبة من ارتكب جريمة اللواط هو القتل مطلقًا؛ لقوة أدلتهم وسلامتها من المعارضة، وضعف أدلة المعارضين، ولإجماع الصحابة ﷺ ـ كما حكى ذلك الشنقيطي في أضواء البيان ـ، ولكثرة الشواهد لحديث «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**»؛ مثل حديث «**الذي يعمل عمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل، ارجموهما جميعًا**»[2]، وحديث «**من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[3].

وبعد، فهذه وسائل وتدابير يجب الأخذ بها لمنع ظهور أو تفشي هذه الفاحشة؛ لئلا يحل بنا ما حل بالأمم السابقة من الهلاك:

أولًا: غرس القيم الإسلامية السليمة في نفوس الأبناء من الصغر؛ وذلك بتوجيههم لحفظ كتاب الله، وتعريفهم طريق بيوت الله، وتذكيرهم بين الحين والآخر أن الله يطلع على عمل العبد، ويعلم ما يفكر فيه وما يتلفظ به...

ثانيًا: التفريق بين الأبناء في المضاجع منذ الصغر، لحديث «... **وفرقوا بينهم في المضاجع**»[4].

---

(١) الشرح الكبير (٥/ ٤٠٤).

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (٢/ ٨٥٦)، برقم [٢٥٦٢]. وحسّنه الألباني في الصحيح (٢/ ٨٣)، برقم [٢٠٧٦].

(٣) سبق تخريجه وتصحيحه ص(٢٨٠) لكثرة طرقه وشواهده.

(٤) رواه أحمد في المسند (١٠/ ١٦٥).
ورواه أبو داود في سننه (١/ ٣٣٤)، برقم [٤٩٥].
ورواه الترمذي في سننه (٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، برقم [٤٠٧]، وقال: حديث صحيح.

ثالثًا: توجيه الأبناء إلى الرفقة الخيرة، وتحذيرهم قرناء السوء، لحديث **«الرجل على دين خليله»**[(١)].

* قال إبراهيم الحربي[(٢)]: «أول فساد الصبيان بعضهم من بعض. وقال: جنبوا أولادكم قرناء السوء قبل أن تصبغوهم في البلاء كما يصبغ الثوب»[(٣)].

رابعًا: إظهار نخوة الرجولة وتأصيلها فيهم، ثم تأصيلها في المجتمع بكل وسيلة ممكنة، وذلك بالبعد عن التشبه بالنساء في اللبس والزينة، وتأكيد الدعاة على هذا الأمر كثيرًا لكثرة تفشيه، وتوزيع الكتب والأشرطة التي تحذر من ذلك، ومن ثم التأكيد على عدم حلق اللحية؛ لأنها من الرجولة.

خامسًا: التأكيد على عدم ترك الأبناء فريسة للخدم (من نساء ورجال) في تربيتهم، فلربما تعلموا منهم الأخلاق السيئة.

سادسًا: الذهاب بهم - كل ما أمكن - إلى منتديات الرجال لتعلم الشهامة والرجولة وكلام وأحاديث الرجال، وحضور بعض حلقات العلم لتعلم الجرأة، ومجالسة أهل الخير وإشراكهم في بعض المسابقات المحلية والدولية إن أمكن.

سابعًا: منع مجالسة الأحداث والنظر إلى المردان؛ لأن ذلك يفضي إلى التهمة والشبهة، لعموم الآية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقد حكى الإمام النووي أن المذهب الصحيح المختار عند العلماء المحققين أنه يحرم النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة؛ سواء كان نظر بشهوة أم لا، سواءً أمن الفتنة أم خافها[(٤)].

❖ ❖ ❖

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤).
ورواه أبو داود في سننه (٥/ ١٦٨)، برقم [٤٨٣٣].
ورواه الترمذي (٤/ ٥٨٩)، برقم [٢٣٧٨] وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) هو إبراهيم بن إسحاق الحربي، من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل، عاش زاهدًا في الدنيا معرضًا عنها، من أهم كتبه: غريب الحديث، ت«٢٨٥هـ». انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (أحمد بن علي) (٦/ ١٢٧)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٥٦، ٣٧٢).

(٣) ذم الهوى لابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد) ص(١١٦).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٣١)، وانظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٢/ ٢٤٧)، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٨/ ٢٨، ٢٩).

المبحث الخامس

عقوبة قوم شعيب عليه السلام

تمهيد

أرسل الله شعيبًا عليه السلام إلى قومه أهل (مدين)[1]، فدعاهم إلى عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء من قبله، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥، وهود: ٨٤].

ونهاهم عن الشرك، وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البخس في المعاملات، وذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم، فلا حاجة لهم بعدها إلى ظلم الناس، وخوفهم نقمة الله وعذابه إن استمروا على ذلك.

فأجابوه ساخرين مكذبين، وجادلوا بالباطل عنادًا وكبرًا، فحاول جهده أن يردهم مرارًا وتكرارًا إلى الحق، فما زادهم إلا غرورًا وصلفًا وبغضًا له وللحق الذي يدعوهم إليه، فانتقم الله منهم شر نقمة، وجمع عليهم أنواعًا من العذاب زهقت منه أرواحهم وخمدت منه أنفاسهم.

* * * * *

(١) مدين: بلد بالشام معلوم، قريب من غزة، وهو المذكور في كتاب الله ـ تعالى ـ، وهي منازل جذام بن عدي بن الحارث، وشعيب النبي عليه السلام أحد بني وائل بن وائل بن جذام. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
وعند ياقوت الحموي: مَدْين (بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناه من تحت وآخره نون) مدين على بحر القلزم، فيها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة العبد الصالح الذي أجر موسى نفسه له عشر سنين، سميت بمدين بن إبراهيم عليه السلام. انظر: معجم البلدان (٥/ ٩٢)، وانظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٩٣)، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٨٤، ١٨٥).

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم

أشار القرآن الكريم إلى عقوبة قوم شعيب في عدة سور، وفصل ذلك في سور أخرى، فالسور التي أشارت إلى قوم شعيب دون تفصيل هي:

سورة «**التوبة**»، «**الحجر**»، «**ص**»، «**ق**».

سورة «**التوبة**»: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

سورة «**الحجر**»: قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩].

سورة «**الحج**»: قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

سورة «**ص**»: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤].

سورة «**ق**»: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

نلاحظ في سور «**التوبة**»، «**الحج**»، «**ص**»، «**ق**» أن ذكر قوم شعيب عليه السلام جاء في معرض ذكر الأقوام المكذبين؛ لغرض الإعلام والإخبار بمجموع هؤلاء المكذبين تسلية للنبي ﷺ.

وأما سورة «**الحجر**»: فجاءت مناسبة لما ذكر قبلها من قصص قوم لوط، ولتشابه ما بينهم من تكذيب، ولتشابه البيئة التي كانوا يعيشون فيها، ولقرب المدة بينهم، وأخيرًا لتشابه العقاب.

الآيات التي فصلت عقوبة قوم شعيب عليه السلام ذكرت في كل من:

سورة «**الأعراف**»، «**هود**»، و«**الشعراء**».

أولًا: سورة «الأعراف»:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** من لطف الله بعباده إرسال الرسل لتعليم الناس وهدايتهم للحق ونهيهم عن الظلم؛ لتحصل لهم السعادة في الدنيا والآخرة، فها هو نبي الله شعيب عليه السلام يأمر قومه بطاعة الله وعبادته أولًا، ثم يعدد جرائمهم على سبيل الذم لينتهوا عما هم فيه:

* **التطفيف في الكيل والوزن.**
* **الإفساد في الأرض.**
* **قطع الطريق.**
* **تشويه سمعة نبي الله شعيب عليه السلام.**

> **ثانيًا:** بعد الأمر بالتوحيد وتعداد جرائمهم حصر ما أمرهم به في ثلاثة أصول:

الأصل الأول: حفظ حقوق المعاملة المالية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

الأصل الثاني: حفظ نظام الأمة ومصالحها، يدل عليه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

الأصل الثالث: النهي عن التعرض للناس والحيلولة بينهم وبين الإيمان، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾[١] [الأعراف: ٨٦].

< **ثالثًا**: نلاحظ في الآيات كثرة الأوامر والنواهي، حتى أنه كان يقدم بعضها على بعض، ثم يعود ويذكرهم بالإيمان، ثم يعود فيأمر وينهى، ثم يعود إلى التذكير بما حصل للأمم السابقة، مما يدل أن وجوه المناسبة في نظم الكلام تختلف وتتعدد، وإن كان بعضها أرجح من بعض[٢].

< **رابعًا**: الصدع بالحق مبدأ الأنبياء حين المفاصلة النهائية بينهم وبين قومهم، وهذا ما حصل لشعيب ﷺ حين هددوه بالإخراج أو العودة إلى دينهم، فأخبرهم أن هذا محال، ولا يمكن أن يتراجع خطوة واحدة أو يتنازل عن مبدإ الإيمان قدر أنملة مهما كلفه ذلك من مشقة، فما هو إلا وقت يسير ويحكم الله بينهم!.

< **خامسًا**: إن قيل: كيف خاطبوا شعيبًا بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وهو أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو لم يكن في ملتهم قط؟

فالجواب: أن العرب تستعمل (عاد) بمعنى: صار، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]؛ هذا **أولًا**.

وثانيًا: إنهم قالوا ذلك على تغليب الجماعة على الواحد، كأنهم عطفوا على ضمير الذين آمنوا منهم بعد كفرهم، فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب ﷺ رده وجوابه، ومراده عود قومه المعطوفين عليه[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٤٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(١٥٢، ١٥٣).

➢ **سادسًا**: في قول شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، تأدب مع الله ﷻ، وتفويض أمره وأمر المؤمنين إليه، لا من باب أنه يمكن عوده؛ لعصمة الأنبياء، فهم معصومون من الشرك قبل النبوة، فعصمتهم بعد النبوة من باب أولى(١).

➢ **سابعًا**: التكرار في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٩٢] للتعديد وإيقاظ السامعين من مشركي العرب؛ لئلا يحصل لهم ما حصل لأولئك الأقوام ممن كذب على طريقة التعريض، كما وقع التصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ثانيًا: سورة «هود»:

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٩٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/٩).

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والالتزام بالعدل في التعامل لما له من صلة وثيقة بالعقيدة ذكرهم بما لهم من خير وفضل عند الله إن هم آمنوا واتبعوا ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، فما عند الله خير لكم مما تجمعونه من الحرام، وفيما تأخذونه من الحلال غنية عن غيره[١].

> **ثانيًا:** انظر إلى الاستهزاء المؤدب ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، ولم ترد هذه العبارة من قبل، فهم يقصدون عكس معناها كما فسرها حبر الأمة بأنهم يعنون: أنك لست بحليم ولا رشيد[٢]؛ لأن الرشد عندهم أن يعبد ما يعبدون دون تفكير[٣].

> **ثالثًا:** انفردت الآيات بذكر أصل من أصول الدين؛ ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام الداعي بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]؛ أي: ما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه؛ بل آمركم بالأمر وأفعله، ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه[٤].

> **رابعًا:** إن قيل: إنه ﷺ كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]؟

فالجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن المراد ما نفهم كثيرًا مما تقول؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم، ولا يطيقون كلامه، فهو كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

الوجه الثاني: أنهم فهموه؛ ولكنهم ما أقاموا له وزنًا، فقالوا هذا الكلام على وجه الاستهانة.

الوجه الثالث: أن ما جاء به من الدلائل والبينات لم تقنعهم فقالوا: ﴿مَا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٧).

(٢) انظر: التفسير الكبير (١٨/ ٤٤)، وانظر: تفسير المنار (١٢/ ١٤٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٥٢). (٤) انظر: المصدر السابق (١٥/ ٤٥٣).

نَفْقَهُ﴾؛ أي: لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب[1].

➢ **خامسًا**: إن قيل: قوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، كلام واقع فيه وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]؟

فالجواب: أن تهاونهم به ـ وهو نبي الله ـ تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2] [الفتح: ١٠].

➢ **سادسًا**: إن قيل: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه عليه السلام ومنهم، فكان الموافق في الظاهر أن يقول: «من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق»؟

والجواب: ما ذكر صحيح؛ ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ [هود: ٩٣]؛ يعني: في زعمكم ودعواكم تجهيلًا لهم[3].

➢ **سابعًا**: إن قيل: لم قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، بحذف الفاء، ولم يقل: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩]، كما ذكرها عن قوم نوح عليه السلام؟

والجواب: أن إدخال الفاء وصلٌ ظاهرٌ بحرفٍ موضوع للوصل، وحذفها وصل خفي يجعله جوابًا عن سؤال مقدر تقديره أنه لما قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ [هود: ٩٣]، فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل.

فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف؛ للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب[4].

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٤٨، ٤٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٢١٢).

(٣) المصدر السابق ص(٢١٢).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٤٢٤)، وانظر: التفسير الكبير (١٨/ ٥١).

> **ثامنًا**: في هذه السورة ذكر الله ﷻ أن عذابهم كان بالصيحة، وفي سورة «الأعراف» بالرجفة؛ حيث جمعها الله عليهم.

> **تاسعًا**: ذكر القرآن الكريم آخر قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، فعطف (لما) على ما قبلها بالواو، ومثله في قوم هود[(١)]، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود[(٢)] وقصة قوم لوط[(٣)]، ووجه ذلك أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب وحلول موعده، فعطفتا بالفاء الدالة على التعقيب؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب.

وأما عن قوم هود وشعيب عليهما السلام فعطف بالواو؛ لأن فيه وعيدًا مسوفًا فيه مقرونًا بالارتقاب لا الاقتراب، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال.

ثالثًا: سورة «الشعراء»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩٠].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا**: تذكر الآيات أصحاب الأيكة دون مدين لأن وصفهم كوصفهم وذنبهم كذنبهم.

والأيكة: هي الشجر الملتف، وواحدها: الأيك، وكل شجر ملتف فهو عند

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨].

(٢) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦].

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

العرب أيكة[1].

هذا، وقد اختلف المفسرون في أصحاب الأيكة: هل أهم مدين، أم قوم آخرون أرسل إليهم شعيب عليه السلام؟ وافترقوا في تقرير ذلك إلى أربعة أقوال:

الأول: أن أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة أرسل إليهم شعيب عليه السلام.

الثاني: أن أصحاب الأيكة قوم غير أهل مدين أرسل إليهم شعيب عليه السلام كما أرسل إلى مدين.

الثالث: أن الأيكة غيضة حول مدين كان يسكنها قوم لا ينتسبون إلى شعيب؛ ولكن أرسل إليهم.

الرابع: أن شعيبًا أرسل إلى ثلاث أمم هم: أهل مدين، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس.

أدلة كل فريق:

القول الأول: وهم الجمهور[2].

أدلتهم: عند ابن جرير بسنده[3] عن ابن عباس قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، قال: أهل مدين.

واستدلوا بما ذكره ابن كثير بدليل عقلي، وهو أن الله ـ تعالى ـ ذكر عن أصحاب الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال، فدل على أنهم أمة واحدة.

القول الثاني: القائلون بأن أصحاب الأيكة وأهل مدين أُمتان أرسل الله إليهم شعيبًا، وهذا قول قتادة والسدي وعكرمة وابن عساكر[4] وابن جزي الكلبي[5]

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٩/ ٣٩٠)، وانظر: لسان العرب (١/ ٢٨٩) مادة «أيك».

(٢) نص على ذلك ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٥٦)، وقد ذهب إلى ذلك ابن جرير الطبري (١٩/ ٣٩٠)، وابن كثير (٣/ ٣٥٨) في تفسيره، وابن حجر وغيرهم، وجاء من المتأخرين جمع منهم: القاسمي في تفسيره (٧/ ٢٠٦، ١٣/ ٤٣)، والشنقيطي في أضواء البيان (٦/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩)، ومحمد الفقي في قصص الأنبياء أحداثها وعبرها ص(١٢٦).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٩/ ٣٩٠).

(٤) تاريخ ابن عساكر (٦/ ٣١٩).

(٥) في كتابه التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٨٤).

والنسفي[1].

أدلتهم:

أولًا: استدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا النبي عليه السلام**»[2].

ثانيًا: عن عكرمة وابن السدي[3] قالا: «ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا: مرة إلى مدين فأخذهم الله ـ تعالى ـ بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله ـ تعالى ـ بعذاب يوم الظلة»[4].

ثالثًا: إنه تعالى لما خاطبهم قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧]، ولم يقل: أخاهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[5] [هود: ٨٤].

رابعًا: إنه عذب أهل مدين بالصيحة والرجفة، وعذب أصحاب الأيكة بالظلة[6].

وقد أجاب الفريق الأول ـ القائلون بأن أصحاب الأيكة وأهل مدين أمة واحدة ـ على أدلة الفريق الثاني بالآتي:

أولًا: بالنسبة لحديث ابن عمرو المرفوع فإنه حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيهم.

* قال ابن كثير[7]: «والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل».

ثانيًا: وأما الأثر الثاني المروي عن السدي وعكرمة ففيه إسحاق بن بشير

---

(١) في تفسيره مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣١/ ١٩٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨).

(٣) ابن السدي هو: عبد الله بن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، وروايته عن النبي ﷺ مرسلة. انظر: التاريخ الكبير (٥/ ٤٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨)، وانظر: تفسير روح البيان (٨/ ١٧٥)، فتح القدير (٢/ ٢٢٦).

(٥) تفسير البيضاوي (٢/ ١٦٥)، وانظر: تفسير فتح القدير (٤/ ١١٤).

(٦) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٦٣).

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨)، البداية والنهاية (١/ ١٩٠).

الكاهلي (ضعيف)[1]. وقال عنه ابن أبي حاتم وأبو زرعة: كذاب.

ثالثًا: أما عن عدم ذكره للأخوة في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧]، فلأنه وصفهم بعبارة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة![2].

رابعًا: وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان هذا الدليل دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن[3]، ثم إن هذا لا يخالف السياق القرآني، وما المانع أن يكون الله جمع كل ذلك عليهم، وجوابكم في كونه ذكر الرجفة في موضع والصيحة في موضع آخر هو جوابنا على كونه ذكر الظلة في موضع والرجفة والصيحة في موضع آخر. فإن قيل: إن العذاب متباين، فنعم، وأما كونه على قوم آخرين فلا يلزم.

وأما ما قاله أصحاب القول الثالث من أن الأيكة: غيضة حول مدين كان يسكنها قوم لا ينتسبون إلى شعيب؛ ولكن أرسل لهم، فلا اعتراض على أنهم قوم كانوا يسكنون معهم، فلما كثروا ضاقت بهم المدينة فخرجوا منها ونزلوا حولهم.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط عليه السلام فولدت، فرمى الله في نسلها البركة والنماء فكثروا وفشوا[4]، وعلى ذلك فمساكنتهم لهم في أول الأمر لا يمنع أن يكونوا قومًا منهم يطلق عليهم اسم أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، هذا **أولًا**.

وثانيًا: إن شعيبًا عليه السلام لو أرسل إلى أهل مدين وحدهم ثم جاءهم العذاب وانقطع دابرهم، ثم أرسل إلى أصحاب الأيكة بعدهم لاتعظوا بهم؛ لقرب العهد والمزامنة.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٥٨)، وانظر: الجرح والتعديل (٢/ ٢١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨)، وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨)، البداية والنهاية (١/ ١٩٠).

(٤) انظر: التفسير الكبير (١٤/ ١٧٦)، تفسير البحر المحيط (٤/ ٣٤٢)، تفسير روح المعاني (٨/ ١٧٩)، جميعهم عند ذكر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ثالثًا: إن أصحاب الأيكة لو فرض أنهم قوم آخرون غير أهل مدين فما المانع أن يرسل عليهم العذاب مرة واحدة، فهم أهل ذنب واحد اكتسبه بعضهم من بعض.

رابعًا: في الحديث المتفق عليه «... **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى النّاس كافة**»[1].

دل الحديث على أن كل الأنبياء كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، والزعم بأن شعيبًا بعث إلى قومه (مدين) وإلى غير قومه (وهم أصحاب الأيكة) يخالف هذا الدليل. وبعد البحث لم أجد أحدًا من المحدثين أو شراح الحديث استثنى شعيبًا من هذا العموم.

خامسًا: ذكر المفسرون عند قوله تعالى في لوط عليه السلام: إنه قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

وفي الحديث «**ما بعث الله بعده نبيًّا إلا في ثروة من قومه**»[2].

فالزعم بأن شعيبًا بعث إلى أصحاب الأيكة وهم ليسوا قومه يخالف هذا العموم، ويحتاج إلى دليل يحملنا على مخالفته، ولا دليل يحملنا على ذلك.

وأما الفريق الرابع الذي زعم أن شعيبًا أرسل إلى ثلاث أمم وزادوا على ذلك أصحاب الرس، فأسهل ما يرد به عليهم أن القرآن الكريم ذكر أصحاب الرس ضمن الأقوام المكذبين مع أصحاب الأيكة في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

فهنا أضاف كل أمة إلى قومها، والإضافة تقتضي المغايرة، وهذا واضح في أن الآية لم تكتف بذكر أصحاب الرس؛ بل أوردت أصحاب الأيكة، مما يدل على عدم الصلة بينهما[3].

القول الراجح قول من قال: إن أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة؛ لما يلي:

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري، كتاب التيمم، باب (١)، (١/١٢٦)، برقم [٣٣٥]، وطرفاه في: [٤٣٨]، [٣١٢٢]. ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب (٥) (١/ ٣٧٠)، برقم [٥٢١].

(٢) سبق تخريجه ص(٢٧٧).

(٣) انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥٧).

١ ـ قوة أدلتهم الموافقة لظاهر القرآن.

٢ ـ سلامتها من المعارضة المقرونة بالأدلة.

٣ ـ عدم وجود نص صحيح صريح يبيّن أن أصحاب الأيكة قوم مستقلون كلية وبعث إليهم شعيب عليه السلام، والله أعلم.

نعود إلى اللطائف:

> **ثانيًا**: ومن لطائف الآيات على ما ذكر سابقًا أن أصحاب الأيكة هم من أهل مدين، وحذف الأخ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧]، تخفيفًا، ولأجل ما ذكرنا آنفًا.

> **ثالثًا**: جاء الأمر بإيفاء الكيل والوزن في آيات السورة بأسلوب آخر غاية في البلاغة، حيث جمع الأمر بالإيفاء والنهي عن بخس الناس أشياءهم في ثلاث آيات بديعة الألفاظ، سهلة التراكيب، وهذا ـ كما يقول العلماء ـ تعميم بعد تخصيص(١).

> **رابعًا**: إن قيل: لم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، والعَثْوُ: الفساد، فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين، فكيف؟

فالجواب: معناه: ولا تعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائر المعاصي(٢).

> **خامسًا**: مما سبق من آيات سورة «**الأعراف**» و«**هود**» أن رد قوم شعيب عليه فيه نوع من السخرية، لكن دون تصريح، أما هنا في سورة «**الشعراء**» فاتهموه في عقله صراحة؛ حيث قالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥] سحرت كثيرًا حتى غلب على عقلك، فلا حقيقة لما تدعيه(٣).

> **سادسًا**: انفردت سورة «**الشعراء**» بذكر (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦]، فما الفرق بين حذف (الواو) في قصة صالح عليه السلام ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وإثباتها في قصة شعيب عليه السلام؟

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٦/ ٢٦٢).

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص(٢٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٩).

والجواب: أن الكلام عن قوم صالح ناسب أوله، وكذلك ناسب كلام قوم شعيب آخره[1].

➢ **سابعًا**: ذكرت سورة «الشعراء» عذاب قومه بشيء زائد عما في السور السابقة؛ هو (الظلة)، كما ذكرت الرجفة والصيحة في عذاب قوم صالح.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

وفيه:

➢ **أ ـ نماذج من دعوة شعيب ﷺ.**

➢ **ب ـ ما قبل العقوبة.**

البشر دائمًا في حاجة إلى من يعرفهم بربهم الذي يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويضر وينفع، ويعطي ويمنع...

فهم في حاجة إلى من يرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم على هدى وبصيرة، ويبعدهم عن كل عمىً وحيرة، تلك هي مهمة الرسل المكلفين بتبليغ ما أوحي إليهم دون تأخير أو تأجيل.

* **يقول ابن القيم**: «فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث إلى التفصيل إلا من وجهتهم، ولا ينال رضا الله إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال»[2].

وسوف نذكر نماذج من دعوة شعيب لقومه، وكيف حاول ـ قدر استطاعته ـ إبلاغ أمر الله بكل وسيلة ممكنة لهداية قومه إلى طريق الله المستقيم.

---

(١) انظر: ملاك التأويل (٢/ ٨٩٥ ـ ٨٩٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).

أ ـ نماذج من دعوة شعيب عليه السلام قومه:

أولًا: شعيبٌ يدعو قومه إلى عبادة الله وتوحيده:

كان قوم شعيب عليه السلام مشركين يعبدون الأوثان، فدعاهم أخوهم شعيب إلى توحيد الله وعبادته مثل ما دعا إخوانه الأنبياء من قبله ـ نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ـ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤]، فلا حل لمشكلات قومه إلا بالعبودية الخالصة لله، فإذا استطاع تعبيدهم لله فإن تلك المعاملات السيئة ستختفي تمامًا عند انطباع الإيمان في قلب كل واحد منهم.

وعندما ذكرهم بذلك وبدين أجدادهم من المرسلين ما كان منهم إلا أن أبوا واستكبروا وتنكروا لرسالته، إلا فئة قليلة اتبعته وآمنت بما جاءت به، وأما الكثرة الكاثرة فأصروا على دين آبائهم الضالين، وقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧]، فعاد فذكرهم بأن إيمانهم بالله واليوم الآخر فلاح لهم في الدنيا والآخرة، وسيثيبهم الله ثوابًا ونعيمًا لا ينفد ولا يزول؛ بل يسبغ عليهم نعمه في الدنيا، ويجزل لهم فضله وكرمه في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، وإلا فإن النار تنتظرهم وسيصلونها لا محالة إن هم أصروا على ما هم فيه من الضلال والكفر.

ثانيًا: شعيب يكشف لهم عن معجزة تؤيده:

قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

أي: قد جاءتكم معجزة شاهدة لصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم عنه[(١)].

---

(١) تفسير الكشاف (٢/ ١٢٧). انظر: تفسير الخازن (٢/ ٢٢٦).

وقال عطاء: موعظة. وأنكر ذلك الزجاج وقال: لا تقبل نبوة بغير معجزة، ولكن القول في شعيب: إن آيته كما قال: «بينة»، إلا أن الله ـ جل ثناؤه ـ ذكر بعض آيات الأنبياء في القرآن، وبعضهم لم يذكر آيته، فمن لم يذكر آيته لا يقال: لا آية له، وآيات محمد ﷺ لم تذكر كلها في القرآن ولا أكثرها. معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٥٣). وانظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٢٧)، البحر المحيط (٤/ ٣٣٩)، تفسير السمعاني (٢/ ١٩٧).

وفي تفسير المراغي: «البينة: كل ما يتبيّن به الحق، فتشمل المعجزات الكونية، والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات»(١).

وسميّت المعجزة بينة لأنه يتبيّن بها الحق من الباطل، وقد ذكرت في القرآن في آيات كثيرة ذكرناها سابقًا، ويحسن أن نجمعها هنا:

قال تعالى عن معجزة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨].

وحكى عن قوم هود أنهم ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، ثم كذبهم بعد ذلك فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩].

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، ثم ذكر بعدها معجزته التي أنذرهم عذاب الله بها فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤].

أما بينة شعيب عليه السلام فقد قال أكثر المفسرين: إنها معجزة ما الله أعلم بها، والقرآن لم يذكرها كما لم يذكر أكثر معجزات نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ومهما يكن من أمر فإن نبي الله شعيبًا له بينة أظهرت لقومه أنه مرسل من عند الله، وسكوت القرآن عنها وعدم ورود نص صريح من السنة فيها يدعونا إلى عدم الخوض فيها، وتفويض أمرها لله، والإيمان بأن له معجزة كغيره من الأنبياء تدل على صدقه.

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٢).

---

(١) تفسير المراغي (٨/٢٠٩)، مجلد (٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٣/٣٣٦)، برقم [٦٩٦].

صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/١٣٤)، برقم [١٥٢].

والذي يهمنا أن قومه كذبوه وأعرضوا عن هذه البينة التي أوتيها؛ بل تمادوا في طغيانهم، وزادوا من عنادهم؛ ولكن شعيبًا ﷺ تركهم ومضى في دعوته؛ يدعوهم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، يحدوه الأمل لعل وعسى الله أن يهديهم.

ثالثًا: أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

كان أهل مدين يمتهنون التجارة، فقد كان موقعهم الجغرافي يفرض ذلك، فمدينتهم تقع على ملتقى الطرق التجارية الآتية من جنوب شبه جزيرة العرب أوالقادمة من شمالها من بلاد الشام.

وكانوا يرون أن لا مانع لديهم من ظلم الناس في تجارتهم من أن ينقصوا الكيل والميزان إذا باعوا لغيرهم، وأن يطففوا إن هم اشتروا منهم.

وكانوا يقطعون الدنانير والدراهم الصحاح لهم، فيتعاملون بالصحاح عدًّا ووزنًا إضافة لبخسهم في الوزن.

قال ابن وهب(١): «قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم».

وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين؛ كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم(٢) وغيرهما. وكسرهما ذنب عظيم؛ بل عده بعض العلماء من الكبائر(٣).

وكان الغريب إذا دخل بلادهم أخذوا دراهمه وقالوا له: هذه زيوف، فيقطعونها، ثم يشترونها بالنقصان(٤).

مع أنهم كانوا أغنياء لا حاجة لهم في ذلك، فقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة أدت إلى وفرة أرزاقهم ورخص أسعارهم(٥)، ولا أدل من قول شعيب ﷺ لهم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، ولكن عمى البصيرة وعبوديتهم للمال استولت على قلوبهم حتى صار معبودًا لهم من دون الله.

---

(١) عبد الله بن وهب المصري، صاحب مالك، ثقة حافظ عابد، من التاسعة، مات سنة سبع وتسعين، انظر: التقريب ص(٣٢٨)، وانظر: الجرح والتعديل (٥/ ١٨٩).

(٢) زيد بن أسلم مولى عمر، أبوعبد الله وأبوأسامة المدني، ثقة عالم، سئل عنه الإمام أحمد وأبوزرعة فقالا: ثقة. انظر: الجرح والتعديل (٣/ ٥٥٥)، التقريب ص(٢٢٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٨٨).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٥٢٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٣).

فما كان من شعيب عليه السلام إلا أن دعاهم إلى ترك الغش وإيفاء الكيل، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ونهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، ونهاهم عن السعي الحثيث الخبيث في تشويه دعوته، وفي ذلك يقول الله - تعالى - على لسانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال المفسرون: «إن قوم شعيب كانوا أهل كفر بالله، وبخس للمكيال والميزان، فأمرهم شعيب بتوحيد الله وإتمام الكيل والوزن»[(١)]. قال الزمخشري: «هو عام في كل حق ثابت لأحد، لا يجوز هضمه»[(٢)].

وقال أبو حيان: «أمرهم أولًا بشيء خاص؛ وهو إيفاء الكيل والميزان، ثم نهاهم عن شيء عام؛ وهو قوله: أشياءهم»[(٣)]. ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل وإرسال الرسل. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]. قال الكلبي[(٤)] والسدي وقتادة: «لا تقعدوا على طريق الناس، تخوفون أهل الإيمان بشعيب[(٥)]، وكانوا يتوعدونهم بالقتل إن لم يعطوهم أموالهم»[(٦)].

قال أبو هريرة عند قول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٢٨)، وانظر: تفسير الخازن (٢/ ٢٢٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨).

(٢) تفسير الزمخشري (٣/ ٣٣٢). والعبارة كاملة «وهو عام في كل حق ثبت لأحد ألا يهضم، وفي كل ملك ألا يغصب عليه ملكه، ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًا».

(٣) تفسير أبي حيان (٤/ ٣٣٩).

(٤) الكلبي: محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر الكوفي، النسابة المفسر، روى عن الشعبي وجماعة، أخرج له أبو داود في المراسيل والترمذي وابن ماجه في التفسير. انظر: طبقات المفسرين، للداودي (شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد) (٢/ ١٤٩)، وانظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٦).

(٥) تفسير الوسيط للنيسابوري (٢/ ٣٨٧). (٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤١).

[الأعراف: ٨٦]، قال: «هذا نهي عن قطع الطريق وأخذ السلب المكوس، وكان ذلك من فعلهم». ثم روى أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأيت ليلة أسري بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقته، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا:** ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]»(١).

والصد عن سبيل الله من قطع الطريق المعنوي. قال ابن عباس: «كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من يأتي عليهم أن شعيبًا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم».

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، قال مجاهد: «تتلمسون لها الزيغ». وقال الحسن: «لا تستقيمون على طريق الهدى»، وقال الزجاج: «يريد الاعوجاج والعدول عن القصد»(٢).

إذًا فكانوا يبعدون الناس عن دين الله وطاعته بتهديدهم بما يضرهم إن اتبعوا شعيبًا؛ بل كانوا مع ذلك يطلبون لها أن تكون عوجًا بإلقاء الشبه حولها، ويصفونها بما ينقصها ويشينها؛ لينفروا الناس منها وتكرهها قلوبهم(٣).

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (١/ ٦٧ - ٧٢). وخرجه السيوطي في الدر (٤/ ٢٦٩) ونسبه إلى البزار وأبي يعلى وابن جرير ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل. انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٥٨).

(٢) تفسير الوسيط (٢/ ٣٨٧).

(٣) تفسير القاسمي بتصرف (٧/ ٢٠٨). ومثل هذا يذكرنا بما كانت تفعله قريش مع النبي ﷺ وأصحابه، وإليك بعضًا من ذلك.

أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٤١) ما نصه: حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا إبراهيم بن أبي العباس، ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًّا، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه؟ فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب. رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٦١)، برقم [٤٥٨٢]، [٤٥٩]، وقال الهيثمي (٦/ ٢٢): أحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال. وأيضًا ما كانت تفعله قريش بمن يأتي مكة لقصة الطفيل بن عمرو الدوسي حيث حشا أذنه كرسفًا فرقًا أن يبلغه من قول النبي ﷺ شيئًا. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ٧٨، ٧٩).

نلاحظ مما سبق: أنه حينما ينعدم الخوف من الله ـ تعالى ـ فإن حب الدنيا يشغل ذلك الحيز، فيتنافس أهل الظلم في ظلمهم، ويفرط الناس حقوقهم؛ ولهذا حذر الله من التطفيف في الكيل والوزن، وأنزل سورة كاملة باسم صاحب هذا المنكر وهي سورة «المطففين»، وتدعو من أولها بالويل والثبور على من فعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

ونلاحظ أيضًا: انعدام الثقة فيما بينهم، فكيف مع من يتعاملون معه من غيرهم؟ ذلك أشد وأنكى، لقد كونوا عصابات منهم لقطع الطريق على القوافل التجارية المارة بأرضهم، مما أدى إلى انصرافهم وتحويل طريق التجارة عنهم، وهذا العمل الإجرامي منكر يحذر منه الإسلام!.

ونلاحظ أيضًا: أنهم كانوا يشوهون سمعة شعيب عليه السلام؛ وذلك بصد الناس عن دعوته؛ حيث استجاب لدعوته بعضهم، فصاروا للإيمان بدعوته، فازدادوا كيدًا وصد الناس عن دعوته، فقعدوا في طريقه، فكان كل من يأتي إليه يتوعدونه ويصدونه قائلين: إن شعيبًا كاذب فلا يفتنكم عن دينكم[1].

ونلاحظ أيضًا: تمسك أهل الضلال بضلالهم كأنهم هم أهل الحق والهدى، ومن خالفهم هو الضال، وهذا هو عمى البصيرة بحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

رابعًا: أسلوب الترغيب والترهيب في دعوته:

هدف الداعية الأسمى هو هداية الناس وإبعادهم عن الشرك والكفر والعصيان، فأنى له ذلك؟

والجواب: أنه لا بد من التدرج في الدعوة، وهذا ما سلكه نبي الله شعيب عليه السلام في دعوته؛ حيث رجع بهم إلى الوراء قليلًا ليذكرهم بالحال الذي كانوا عليه من

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٥٧).

قبل؛ من قلة في العدد، فبارك في نسلهم حتى كثروا في السهل والجبل، فكان الواجب عليهم شكر هذه النعمة، والاعتراف بفضل من أسداها، وإخلاص العبادة له، واتباع أوامره، وترك نواهيه من التطفيف، والسعي في الأرض بالفساد، ثم التفكر في حال من سبقهم، وكيف أن الله أهلكهم بكفرهم وظلمهم وفسادهم، فيجب أن يعتبروا بذلك[1].

وفي ذلك كله يقول الله ﷻ على لسان شعيب: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ثم رغبهم مرة أخرى في الاستغفار والتوبة، وترك عداوته، وعدم اتخاذهم ذريعة في الإصرار على الكفر والفساد؛ لئلا يُصيبهم ما أصاب من قبلهم، قال تعالى على لسانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٨٩ ـ ٩٠]، أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من الكفار، واستغفروا ربكم من سالف الذنوب فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، فالله رحيم ودود لمن تاب[2].

ثم انتقل إلى أسلوب الترهيب في صورة تشعر أنه يخاف عليهم عاقبة هذا الاستكبار والتمرد، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤].

أي: إني أراكم بخير وسعة في معيشتكم ورزقكم ورخص أسعاركم، وإني أخاف عليكم سلب نعم الله منكم بتجاوزكم محارم الله؛ لذا فإني أخاف عليكم عذابًا عاجلًا يقطع دابركم في الدنيا، ولا ينجو منه أحد، وعذابًا آجلًا يحيط بكم في الدار الآخرة.

وأخيرًا عرف أنه لا منفعة من نصحهم، ولا رجاء في إيمانهم، فقد بان ضلالهم، وزاد عنادهم، فما بقي إلا أن يقول لهم: سيروا على الطريق الذي ارتضيتموه منهجًا، وأنا كذلك سائر على ما ارتضاه الله لي منهجًا، وفي نهاية

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٥٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٣، ٤٧٤).

المسير ستعلمون من الخاسر فينا، فانتظروا إني معكم من المنتظرين، قال تعالى على لسانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: ٩٣].

خامسًا: صبره وتحمله:

لقي شعيب ﷺ من أهل مدين أصنافًا من الأذى، وأنواعًا من الاستهزاء، ومع ذلك كان يتلطف معهم في تبليغ دعوته، ويذكرهم كل حين أنه أمين في النصح لهم، ولا يريد منهم أجرًا أو مصلحة تعود عليه من وراء ذلك؛ إنما يريد لهم الخير والبعد عن الشر، نلمس ذلك من قول الله - تعالى - على لسانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٨٠]، وهذا ما قاله الأنبياء من قبل شعيب ﷺ، وجميعهم يحبون الخير؛ لقومهم ليسعدوا في الدنيا، ويفوزوا في الآخرة.

ثم نلمس من صبره وتحمله أنه كلما دعاهم ورأى منهم الصد والاستهزاء راجعهم والتمس العذر لهم أنهم ربما يرجعون إلى الحق، وكان يقال له: خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، ولفصاحة عبارته، وجزالة موعظته[1].

وانظر إلى حسن مراجعته قومه في هذه الآية، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفيها عدة معان نتدبرها فيما يلي:

أولًا: الدعوة إلى أكل الرزق الحلال، وترك الحرام، لما رأى منهم من أكل الحرام، وعدم الاكتفاء بالرزق الحلال الطيب.

ثانيًا: الدعوة إلى الالتزام بفعل الأوامر وترك النواهي في السر والعلن، فشعيب ﷺ قال لهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: لم أكن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به[2].

---

(١) وسنده عند الطبري (١٢/ ٥٦٦)، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٨٥)، تفسير ابن عطية (٧/ ٣٨١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٨٩)، تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٥٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٣).

ثالثًا: مهمة شعيب والمرسلين جميعًا الإصلاح قدر استطاعتهم.

فشعيب قال لهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: إنما أريد إصلاحكم جهد طاقتي، وذلك بأن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه ﴿أُنِيبُ﴾، أي: أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب إليه[1].

نلاحظ مما سبق: أن شعيبًا ﷺ كان يتلطف معهم ليوصل الحق إليهم بأحسن مقال وأطيب فعال، حتى إنه كان يفهمهم بحسن فعله أنه لايمكن أن يأكل الحرام، ولا أن يتنازل قدر أنملة عن مبدإ طلب الرزق الحلال، وفي هذا المسلك درس للمؤمنين عامة وللدعاة خاصة في تحري أكل الحلال، والبعد كل البعد عن مشتبهات الأمور، لحديث «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**»[2].

ونلاحظ أيضًا: فظاظة قومه في التعامل معه بعكس ما كان يعاملهم به من لين في المجادلة والحوار، فيقول لهم: «يا قوم»، وهم ينادونه بـ «يا شعيب»، فرق بين الخطابين: «يا قوم» تشعر بأنه يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فلا يجد إلا الرد العنيف والكلام النابي «يا شعيب» كأنه غريب عنهم، وهذه الكلمة تشعر بأنهم يريدون له الشر، فيقولون له مهددين: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

سادسًا: التذكير بمصير الأمم السابقة:

ذكرنا أن شعيبًا ﷺ ذكرهم من باب الترهيب أحوال الأمم السابقة وما حل

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٩٠)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٣).

(٢) ولفظه كما في صحيح الجامع الصغير للألباني (٤/ ١٧٢): «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**».

السحت: الحرام الذي لا يحل كسبه. كما في النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٤٥)، باب السين مع الحاء.

ورواه أحمد (٣/ ٣٢١)، برقم [١٤٤٨١]. وهو في المشكاة، كتاب البيوع، باب الكسب وطلب الحلال (٢/ ٨٤٥)، برقم [٢٧٧٢]. ورواه الدارمي، كتاب الرقائق، باب في أكل السحت (٢/ ٤٠٩)، برقم [٢٧٧٦].

ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في المطاعم والمشارب، فصل في طيب المطعم والملبس (٥/ ٥٦، ٥٧)، برقم [٥٧٥٩]، [٥٧٦٠]، [٥٧٦١]، [٥٧٦٢].

بهم من عقاب لما عصوا أنبياءهم، قال تعالى على لسانه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

هذا هو أسلوب الداعية في التذكير والوعظ بحال من سبق؛ ليكون أبلغ في إيقاظ القلوب من غفلتها، ولفت الأنظار والأفهام لعاقبة الصد والتكبر والنكران، ثم يفتح لهم بعد ذلك ـ وهم في مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة، ويطمعهم في رحمة الله وقربها بأرق الألفاظ وأحناها[1]، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

فبدأ بتذكيرهم بما حل بقوم نوح من الغرق بعد أن كذبوا رسولهم وناصبوه العداء، فدعـا عليهم دعوة استجابها الله ـ تعالى ـ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ثم انتقل بهم إلى قوم هود وكيف أن نبيهم دعاهم فلم يستجيبوا له، فدعا عليهم، فقطع الله دابرهم بريح صرصر أهلكتهم، ثم انتقل بهم إلى قوم صالح وكيف أنه دعاهم للتوحيد والإيمان وترك عبادة الأوثان، فما كان منهم إلا أن تجبروا وطغوا وعقروا الناقة، فدمرهم الله بصيحة قطعت قلوبهم ولم ينج منهم أحد.

ثم ذكرهم بأقرب قوم كانوا مجاورين لهم، وعذابهم ظاهر لهم، وطريقتهم معروفة لديهم؛ وهم (قوم لوط)، وكيف أن نبيهم دعاهم إلى اتباع الأوامر، وترك النواهي، والبعد عما كانوا يشتركون معهم من قطع الطريق، والإفساد في الأرض، فلم ينتهوا، فأهانهم الله وأنزل بهم عقابًا لم يسبق له مثيل، فكانوا عبرة للمعتبرين، فيا قوم هذا مصير الأمم قبلكم، فانظروا ما حل بهم واعتبروا، فإن لم تفعلوا فارتقبوا مثل ما حل بهم.

سابعًا: استهزاء القوم بشعيب عليه السلام:

وجه القوم سهام غضبهم من شعيب عليه السلام في عبارات لاذعة وكلمات نابية، تذكرنا بما كان المشركون يفعلونه مع رسول الله محمد ﷺ حينما يرونه يطوف أو يصلي في المسجد الحرام.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٢١).

فهم يرون أن الصلاة[1] التي يصليها شعيب هي التي تأمره أن يدعوهم إلى ما دعاهم إليه ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]، وهذه إشارة منهم إلى شركهم وتمسكهم بموروث الآباء، ثم قالوا له: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]، وكأنهم يريدون منه عدم التدخل فيما يخصهم من مال، فهم أحرار فيما يتصرفون فيه، ولا علاقة بين العبادة والسلوك الشخصي للإنسان، فالعبادة شيء، والمعاملات شيء آخر، أو العقيدة شيء، والأخلاق المتعلقة بالمعاملات المادية شيء آخر.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وهم يعنون عكس معناها، فيتلطف معهم ويعرض عن تلك السخرية؛ لأنه يشعر بقصورهم وجهلهم، فهم كما سخروا من صلاته سخروا من شخصه، فهم يعنون أنك قد تجردت من هاتين الصفتين (الحلم والرشد)، فالحليم الرشيد من يأتيهم بما يوافق أهواءهم، وشعيب عليه السلام أتاهم بعكس ذلك، أو أنهم قالوه من باب التعريض بما يعتقدونه من اتصافه بضدهما؛ وهو الجهالة والسفه في الرأي، والغواية في الفعل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يقولون: إنك لست بحليم ولا رشيد»[2].

ثم انتقلوا بعدما رأوا تأثيره على من تبعه من قومهم فاتهموه بالسحر ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦]، وهذا هو شأن المعاندين المستكبرين، يتبعون بعضهم بعضًا في إلقاء التهم والتهديد بالقتل أو الإخراج.

---

(١) كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا إلا فرض الله عليه الصلاة والزكاة. انظر: تفسير الثعالبي (٢/ ٢١٤). وقد لاحظ القوم أنفسهم تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه، وكيف أنها رفعتهم من مقام عبودية المال أو الجاه إلى رحاب آخر، يستخدم هذا المال في طاعة ربه ومعبوده الحقيقي وهو الله عز وجل، ثم هم لا يُرون يطففون ولا يبخسون ويفعلون كما يفعلون؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وما من قوم اهتموا بالصلاة إلا أفلحوا وسعدوا، وما من قوم تركوا الصلاة وتهاونوا فيها إلا خابوا وخسروا.
ومما كان من استهزائهم أنهم كانوا إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا. انظر: الكشاف (٢/ ٤١٩). وكما تقدم أنه كان كثير الصلاة حتى صارت عنده سمة بارزة يعرف بها، ويتضح ذلك في القراءة السبعية (**أصلواتك**). انظر: الألوسي (١٢/ ١١٧)، فالجمع يدل على الكثرة.

(٢) انظر: تفسير المنار (١٢/ ١٤٤).

فهنا يخبر الله ـ تعالى ـ عن قوم شعيب أنهم أجابوا بمثل ما أجاب به قوم صالح نبيهم ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

مما سبق يتضح أن استهزاء القوم بشعيب عليه السلام لم يقتصر على ما كان يدعو إليه؛ وإنما تعدوا ذلك إلى شخصه، واتهموه في عقله، وهذا ـ كما قلنا من قبل ـ سياسة الخصم إذا لم يجد برهانًا على صحة مجادلته، يلجأ إلى إلقاء التهم، وتشويه السمعة، والتهديد بالقتل، أو النفي خارج البلاد، وهذا ما سنعرض له فيما يأتي.

وقفة قبل النهاية

وفيها:

أولًا: التآمر عليه بالرجم أو النفي خارج البلاد:

لقد أيقن قوم شعيب أن السخرية لا تنفع ولا تجدي في إضعاف عزيمة شعيب ومن آمن معه للرجوع عن دينهم أو على الأقل إسكات الحق الذي ينطق به خشية أن يكثر أتباعه، ويشتد جانبه، وينتشر دينه، فكان لا بد من تدارس هذا الأمر، وتبادل الآراء حوله؛ ليخرجوا برأي فاصل يقطع الجدال، ويشفي صدورهم من شعيب ومن آمن معه، وفي ثورة غضب قرروا أن يرجموه ويرتاحوا منه؛ لأنه سبب هذه الفرقة في زعمهم، وما إن هدأ غضبهم حتى تذكروا أن وراءه قومه وعشيرته ومن آمن معه، فلربما لو قتل استأثروا له حمية وعصبية جاهلية؛ لا لأجل دينه وما فارق عليه قومه، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ(١) وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

أي: قالوا له: ما نفهم كثيرًا من قولك؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من

---

(١) قال سعيد بن جبير والثوري: كان ضرير البصر. والظاهر أن العزيز إنما هو صاحب موسى الذي عبر عنه القرآن (الشيخ الكبير) في قوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] وليس بنبي، وبينهما ثلاثمائة سنة. ووصفه بالأعمى ينافي العصمة. انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٩١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٤).

وقال الحسن: معناه: مهين. وقال علي بن عيسى: ضعيف البدن. وقال النحاس: إن حمير تقول للأعمى: ضعيفًا؛ أي: قد ضعف بذهاب بصره. واخترت قول السدي لما تقدم من أن وصفه بالأعمى ينافي العصمة. والله أعلم.

البعث بعد الموت، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله، وأنت وحيدٌ فينا، ليس لك جند ولا أعوان تقدر بها على مخالفتنا[1].

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾، أي: لولا قومك ومعزتهم علينا لقتلناك رجمًا بالحجارة، وما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

فرد عليهم لائمًا لهم وموبخًا لهم في تركهم من هو أعز من رهطه وأعظم من عشيرته وهو الله ﷻ، وكان الأولى بهم أن يُعظموا من يستحق التعظيم، ولا يخافوا من المخلوقين؛ لأنهم جميعًا تحت قهره وتصرفه، وهو المحيط بجميع أعمالكم، وسيجزيكم عليها.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وهو جدالهم معه، وتوعدهم إياه، وأن رهطه هو المانع الوحيد الذي يخافونه، فعليه أن يختار من أمرين أحلاهما عنده مُرّ: إما أن يخرج من قريتهم هو ومن آمن معه؛ لينجو من بطشهم، فلا صبر بعد اليوم فتريحنا وترتاح منا، **والثاني**: أو تعود أنت ومن معك إلى ديننا، قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

هكذا في تبجح سافر وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش، إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد، فصاحب الدعوة لا يملك أن يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت، وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه، عندها صدع بالحق، مستمسكًا بملته، كارهًا أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

لقد كان الرد مفاصلة حقيقية تجلت فيها طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله، كما تجلت طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه، وكذلك نرى أن شعيبًا لم يطأطئ رأسه

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٩١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٤).

أمام عزتهم، ولم يضعُف أمام قوتهم؛ بل أجاب بما ينبض به قلبه من إيمان، فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾، إذ يستحيل على الإنسان أن يكون مؤمنًا بأمر ما وفي إيمانه شائبة إكراه، والرجوع أو النكوص عن عقيدة التوحيد بعد أن كلف بإيصالها إلى البشر خيانة لأمانة الله.

وهيهات للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن يتنازلوا عن مبدئهم الذي أرسلوا من أجله! قال تعالى على لسانه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية بعد إذ قسم الله له الخير وكشفه له الخير، وهداه إلى الحق، وأنقذه من العبودية للعبيد، إنما يؤدي شهادة كاذبة بملة الله ودينه شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيرًا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت، أو مؤداها على الأقل أن لملة الطاغوت حقًّا في الوجود، وشرعية في السلطات، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله، فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله.. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى، ولم يرفع راية الإسلام شهادة الاعتراف براية الطغيان، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة[1].

ولسان حاله بعد كل هذا يقول: أبعد حلاوة الإيمان والاتصال بالرحيم الرحمن نعود إلى الطغيان ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وانظر إلى قوة التصميم في قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، إلا أنه لا يتألى على الله، ولا يجزم بشيء أمام قدره ومشيئته[2]، فهو ومن آمن معه

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٩).

(٢) قال أبو السعود: معنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾: أي: ما يصح لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال، أو في وقت من الأوقات، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: إلا حال مشيئة الله تعالى، أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها، وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا﴾؛ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعًا، وكذا قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فإن تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها. ثم قال القاسمي بعد ذلك في تفسيره: ليس المراد أن العود فيها في حيز الإمكان وخطر الوقوع، بناءً على كون مشيئته تعالى كذلك؛ بل بيان استحالة وقوعها، كأنه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وهيهات ذلك، بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له. اهـ. تفسير القاسمي (٧/ ٢١٤، ٢١٥).

تحت تصرفه خاضعين لأمره، فإذا أراد ـ ولا راد لإرادته ـ أن نعود من جديد إلى ملة القوم فهو يعلم ولا نعلم ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وليس أمامنا إلا أن نتجه إلى الله ﷻ، فبه نستعين، وعليه نتوكل، وندعوه أن يفصل بيننا وبين قومنا بالحق ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، قالها شعيب بعد أن يئس من هداية قومه جميعًا، وتبين له إصرارهم على الكفر، فقد دعاهم كثيرًا إلى الهدى، وجادلهم بالحجج والبراهين، فما رأى إلا النكوص والإعراض والجدال بالباطل والتهديد بالرجم تارة والإخراج أخرى. عندها طلب من الحكم العدل أن يحكم بينهم وينصره على الظالمين المفسدين.

ثانيًا: طلب قوم شعيب العذاب على سبيل التحدي:

كما طلب الأولون من قوم لوط[1] وصالح[2] وهود[3] ونوح[4] العذاب طلب قوم شعيب العذاب حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٧]، وهذا الطلب شبيه أيضًا بتحدي المشركين للرسول الكريم محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وهو كما يقول سيد قطب: «تحدي المستهتر الهازئ المستهين»[5].

فما كان من شعيب عليه السلام إلا أن رد الأمر إلى الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨]، أي: الله ـ تعالى ـ أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم. وهكذا وقع كما طلبوه جزاء وفاقًا[6].

* * * * *

---

(١) سورة «العنكبوت»، آية (٢٩).
(٢) سورة «الأعراف»، آية (٧٧).
(٣) سورة «الأعراف»، آية (٧٠).
(٤) سورة «هود»، آية (٣٢).
(٥) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦١٥).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٩).

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

وفيه:

➢ ١ ـ عظم هول العقوبة.

➢ ٢ ـ نجاة شعيب ومن آمن معه.

أولًا: عظم هول العقوبة:

علمنا مما سبق أن طلب قوم شعيب العذاب ما هو إلا نوع من التحدي السافر لنبيهم شعيب ﷺ، وأنه غير صادق في دعواه إن لم يستجيبوا، فكان ذلك إرهاصًا قويًا لوقوع العذاب، فلم يعد هناك مجالٌ لدخول الدعوة اللينة لقلوبهم؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى، والعذاب على المغفرة، ولا يمكن أن تلين هذه القلوب القاسية إلا بعذاب أليم يستأصل شأفتها في الدنيا. وخزيٌ ونارٌ في الآخرة جزاء جحودهم، فها هو شعيب ﷺ تتضح أمامه النتيجة، ويرى أنه لا فائدة من مخاطبة هؤلاء؛ فقد أصبحوا صمًّا لا يسمعون، وبكمًا لا ينطقون، عميًا لا يرون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، فاتجه إلى الله يدعوه ويستنصره ليحكم بينه وبين قومه، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، فاستجاب دعاءه، وهذه هي سنة الله التي لا تتبدل في استئصال المجرمين ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

والناظر في كيفية عذابهم يرى أن الآيات ذكرت صفة عذابهم بثلاثة ألفاظ: مرة بالرجفة، وأخرى بالصيحة، وثالثة بالظلة.

ففي سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وكذلك في سورة «العنكبوت»[١].

وفي سورة «هود» جاء ذكر عذابهم بالصيحة في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ

---

(١) سورة «العنكبوت»، آية (٣٧) أولها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧]. وأول آية «الأعراف» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

وفي سورة «الشعراء» يأتي ذكر عذابهم بالظلة في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقد سبق أن ذكرنا أن شعيبًا ﷺ أرسل إلى أهل مدين وهم أنفسهم أصحاب الأيكة، وذكرنا الخلاف في ذلك وأدلة كل فريق، وظهر بعد ذلك صواب قول من قال: إنهم أمة واحدة عذبوا جميعًا بعذاب واحد. فكيف نجمع بين الآيات؟

والجواب: أن الله - تعالى - جمع عليهم ذلك كله، قال محمد بن كعب القرظي: «إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزعٌ شديد فَفَرِقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلًا أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعًا تحت الظلة، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعًا، ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]». هذه هي نهاية أولئك الظالمين، لقد أصبحوا في دارهم جاثمين ميتين هلكى(١) كأنهم لم يغنوا فيها ولا ساعة واحدة، فمن الخاسر إذًا؟! ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢] حقًّا، إنهم هم الخاسرون في الدنيا، الخاسرون في الآخرة، وها هو شعيب يتولى عنهم بعد هلاكهم غير آسف عليهم، فقد أدى ما أمره الله به ونصح؛ ولكن القوم لا يحبون الناصحين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، فالأسى والحزن لا يكون على هؤلاء؛ كأنهم ليسوا أهلًا له، بل يجب أن يُحمد الله ويُشكر على هلاكهم(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٩)، الدر المنثور (٥/ ١٧٥)، وانظر: درة التنزيل ص(١٣٧)، وقد اخترت ما سبق تحاشيًا لكثرة النقول التي يمكن أن تزيد البحث طولًا، ولموافقتها لظاهر القرآن الذي ذكر في كل سياق ما يناسبه؛ ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكرهنا الرجفة فرجفت بهم الأرض، ولما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي أخمدتهم، ولما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال ابن كثير (٢/ ٤٧٤) بعدها: «وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا».

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٣)، تفسير القاسمي (٧/ ٢١٨).

ثانيًا: نجاة شعيب ومن آمن معه:

يخبر الله - تعالى - عن نجاة نبيه شعيب في هاتين الآيتين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

أي: فتولى شعيب عليه السلام عن قومه بعد أن أهلكهم الله وقال موبخًا لهم: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣]، أي: قد أديت ما أرسلت به إليكم، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئت به ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

والآية الثانية تثبت أيضًا نجاته ونجاة المؤمنين معه، وها هي سنة الله التي لا تتبدل في نصرة أوليائه ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وقال أيضًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا تحقق وعد الله لأوليائه وأصفيائه من خلقه «رسله وعباده المؤمنين»، وهيهات هيهات أن يستوي الطائع والعاصي في ميزان الله! ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة قوم شعيب عليه السلام

➢ **أولًا**: رأينا من قبل أن جميع الأنبياء أول ما يدعون أقوامهم إليه هو عبادة الله وحده، ونبذ الشرك والكفر، ثم ينتقل الرسول منهم إلى إنكار المفاسد المتفشية في قومه، ويبيّن لهم خطرها وفسادها وعقوبة الاستمرار عليها، ثم

يوضح لهم الطريق الأمثل للتخلص منها، ثم الترغيب في ثواب الله وأنه خير لهم وأبقى.

والداعية الحق هو الذي يقتفي أثر الأنبياء والصالحين المصلحين، فيعمل تدريجيًّا على إيصال الحق بأحسن مقال وأطيب فعال، وبالمقابل التحذير من الفساد مع ملاحظة قواعد وأسس الإنكار؛ حتى لا يضيع جهده بأسهل ما يكون، وذلك على ضوء حديث «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[1].

وهذا هو المسلك الذي سلكه شعيب عليه السلام في نصح قومه بلسانه ـ وهذه هي المرتبة الثانية من إنكار المنكر ـ، ثم تراه يربط إنكاره بعدها بمعاني العقيدة الصحيحة والإيمان بالله ـ تعالى ـ.

➢ **ثانيًا**: على المصلح أو الداعية أن يراعي في سلوكه أشد المراعاة كل كلمة وتصرف يصدر منه؛ لأن السلوك يؤثر أكثر من الكلمات، فمهما صدر من المصلح من خطب وحكم ومواعظ بليغة تستهوي العقول فلن يكون لها الأثر الفعال في نفوس مستمعيها إذا لم يكن قائلها هو أول العاملين بمضمونها، وأول المؤتمرين بأوامرها ونواهيها؛ ولهذا ذم الله قومًا أمروا الناس بالبر ولم يلزموا أنفسهم به فقال: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2] [البقرة: ٤٤].

إذًا فسلوك الداعية والتزامه بما يدعو إليه هو صمام الأمان لنجاح دعوته.

روى ابن عساكر بسنده إلى الضحاك: «أن رجلًا قال لابن عباس: إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل، قال: ما هن؟ قال: قوله ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هل أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني قال: قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٦٩)، برقم [٤٩].

(٢) مع الأنبياء لعفيف طبارة، وانظر: تيسير اللطيف المنان ص(١٧٥).

أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك»[1].

> **ثالثًا**: على الدعاة خاصة والمسلمين عامة أن يتنبهوا لما يحاك ضدهم من مؤامرات، وما يُعقد حولهم من المؤتمرات؛ سواءً كان من بني جلدتهم أو من مخططات أعدائهم وأذنابهم داخل المجتمع المسلم ـ وهم المنافقون أو ما يسمون الآن بالعلمانيين ـ الذين يريدون إسكات ضوء الحق الذي ينطلق من أفواههم، وترك الدعوة ضعيفة في أيدٍ لا تقدّر وزنًا لها، أو إعطاءها لقوم يُبغّضون للناس شرع الله، أو على الأقل سلب خاصية جذب القارئ والسامع إليها، وبالمقابل إشاعة الشهوات، وتقليل فاعلية الحسبة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، وجعل نشاطها صوريًا أكثر منه واقعيًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وما سبق ما هو إلا غيض من فيض، وما خفي أعظم، وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا صَدٌّ عظيمٌ عن سبيل الله الذي قال الله عنه على لسان شعيب ﷺ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الآية [الأعراف: ٨٦].

> **رابعًا**: إن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته داخل تحت كنف الشريعة، فما أمر به فعله وما نهي عنه تركه، ومن يزعم أنه في ماله حرٌّ له أن يتصرف فيه بما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة فهو بمنزلة من يرى أن لا فرق عنده بين الكفر والإيمان والصدق والكذب وفعل الخير والشر الكل مباح، وهذا مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا؛ فقد أنكروا على شعيب دعوته إياهم؛ وخاصة حين نهاهم عن المعاملات الظالمة، فردوا عليه أنهم أحرار فيها يفعلون ما يشاؤون، ومثلهم من يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فمن سوى بين ذلك فقد انحرفت فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه[2].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٦/ ٣٢٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان ص(١٧٥). ويقاس على ما ذكرنا ما قاله القرطبي رحمه الله (٧/ ٢٤٩): «قال علماؤنا: ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا من الوظائف المالية بالقهر والتجبر، وضمنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي، والمترقبون في الطريق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل =

نلاحظ أن شعيبًا عليه السلام لما قال لقومه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أو قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، فهو إنما كان يريد إصلاح الحياة السياسية والاقتصادية والأخلاقية، ويسد جميع المنافذ التي يمكن أن تتسرب منها أمور سيئة تؤدي إلى هدم ما يصلحه؛ ولكن قومه لم يرقبوا فيه إلًّا ولا ذمة، ولم يأبهوا بكلامه؛ بل اعتبروه كلامًا ساذجًا لا يمكن تصديقه، فدبت التفرقة بينهم، وفقدت الثقة، فانتشر الفساد في الأرض، وطف كيل الفسق، فحق عليهم المحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

➢ **خامسًا:** إن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك(١).

قلت: ذكر صاحب (أضواء البيان)(٢) أن بعض علماء الأصول استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧]، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة بأنهم مشركون وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة وعدم إيتائهم الزكاة.

إذًا فهم مخاطبون بذلك (أعني: فروع الشريعة)، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصي كما جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى؛ مقررًا له: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٧]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا

= به في سائر البلاد، وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غصبٌ وظلم وعسف على الناس، وإذاعة للمنكر وعمل به، ودوام عليه، وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ولم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه». اهـ. يقول هذا في زمانه، فكيف لو رأى زماننا وما فيه من الغش والخداع والتحايل على الربا والضرائب وغيرها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/ ٣٨٧).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١١٤، ١١٥).

﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٦].

➢ **سادسًا**: إن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من فعل ذلك، وإن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كانت سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد، فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى(١). أما الوفاء فيها فهو الطريق إلى بناء اقتصاد إسلامي على هدي من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة نبيه ﷺ، فضلًا عن أنه طاعة وقربة إلى الله ـ تعالى ـ.

➢ **سابعًا**: إن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم؛ ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشاب، والكِبر في الفقير أقبح من الغني، والسرقة لمن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج، لهذا قال شعيب لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]؛ أي: بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة(٢)؟

➢ **ثامنًا**: على العبد أن يقنع بما آتاه الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وأن يقصر نظره على الموجود عنده من غير تطلع إلى ما عند الناس(٣)؛ ولهذا قال شعيب لقومه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

إذًا القصد من ذلك هو الاقتصار على الحلال ولو كان قليلًا، وعدم سؤال الناس ما في أيديهم؛ لأن ذلك من المذلة، ومعلوم أن النبي ﷺ نهى عن المسألة إلا لحاجة(٤).

➢ **تاسعًا**: إن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات، وللنصيحة لعباد الله، وقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه، وكيف أنها غيرت أوضاعهم، وأدت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله، وربط القلب دائمًا بالله، إذًا فهي تهدف إلى صنع ضمير نقي في الإنسان، فتحرك فيه مشاعر التقوى والمراقبة، وتذكّره دائمًا بالآخرة، فما كان من قوم شعيب إلا أن تهكموا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٨٧).
(٢) تيسير اللطيف المنان ص(١٧٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: الاكتساب في الرزق المستطاب ص(٥٩، ٦١).

واستهزؤوا به وقالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

فهم يرون أنه لا علاقة بين الصلاة والعقيدة، ولا صلة لها بالمعاملات بين الناس، وهذا الأمر نجده اليوم فيمن يقول: لا صلة للدين بالسلوك الشخصي، ويتساءلون: ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ وما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ وما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ وما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ وما للإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون؟ فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟ [هود: ٨٧].

ويتساءلون **ثانيًا** بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد، فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.

فلا يذهب بنا الترفع كثيرًا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى، ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة؛ ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله والسلوك الشخصي في الحياة والمعاملات المادية في السوق تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.

والشرك ألوان: منه هذا اللون الذي نعيش فيه الآن، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان(١).

إذًا فبإقامة الصلاة على وجهها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية والدنيوية، ويصبح آلة للأهواء، ومنقادًا للشهوات والشبهات.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٢٠).

➢ **عاشرًا**: على العبد أن يتوكل على الله وحده، ويكل جميع أموره لله وحده، ويدعو الله كثيرًا بألا يكله إلى نفسه طرفة عين.

ألا ترى إلى نبي الله شعيب يقول: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه[١]. ألا ترى إلى قول الله على لسانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وأن يعوّد نفسه على عدم حب الظهور أمام الأضواء خشية الغرور إلا لمصلحة تهم الأمة وتقدر بقدرها، وبشرط إحسان القصد لطلب الأجر والمثوبة من الله؟

➢ **الحادي عشر**: على الداعي إلى الله ـ تعالى ـ الابتعاد عن بعض المباحات أو عن المباحات جميعها إذا كان من شأنها أن يستغلها أعداء الدعوة شبهة حوله، فيبتعد ـ على سبيل المثال ـ عن شبهات أكل أعطيات الأجر على الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ؛ لئلا يُظن أن ذلك عوض عما يدعون إليه، والابتعاد عن الوقوف على أبواب السلاطين والحكام، أو الحرص على كسب مودتهم؛ لأن فيه ما فيه، ويتذكر قول الأنبياء جميعًا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠].

➢ **الثاني عشر**: الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم، وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة، فلا يرد عليهم بمثل ما يقولون؛ بل يلاطفهم ويقول لهم: «يا قوم»، وشأن من يقول ذلك أنه يحب الخير لقومه وهم يدعونه «يا شعيب» على سبيل الاستهزاء تارة، وعلى سبيل التهديد أخرى، فسبحان مقلب القلوب ومدبر الأمور ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]!!

➢ **الثالث عشر**: أن أهل الباطل يدبرون ويكيدون لأهل الحق، ويفترون عليهم الكذب، ويؤذونهم بأنواع الأذى، فمرة يهددونه بالرجم، وأخرى بالنفي من البلاد، ومع ذلك يكيلون له التهم؛ فيزعمون أنه مسحور وأنه سفيه وكذاب، وهذا ما حصل لسيدنا شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام، فعلى سالكي سبيل الدعوة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/٣٨٨).

إلى الله ـ تعالى ـ أن يصبروا ويقدموا لأنفسهم العزاء بمن سلف من الأنبياء وغيرهم من العلماء والمصلحين الذين ابتلوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

> **الرابع عشر**: التذكير بمصير الأمم وما جرى عليهم من عذاب عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين؛ لأن من سنن الله انتصار الحق على الباطل بعد الابتلاء والتمحيص، فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، وهكذا هلك قوم شعيب غير مأسوف عليهم، دمرهم الله فسحقًا لهم وبعدًا! . بينما بقي ذكر شعيب ومن آمن معه في الخالدين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ الآية [هود: ٩٤].

> **الخامس عشر**: مشروعية توبيخ الظالمين بعد هلاكهم، كما فعل رسول الله ﷺ بأهل القليب، وكما فعل صالح وشعيب عليهما السلام(١).

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، يكون التوبيخ درسًا لمن سلك مسلكهم من الأحياء.

❖ ❖ ❖

(١) أيسر التفاسير (٢/٥٣).

عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة «يس»

تمهيد

أرسل الله رسولين في وقت واحد إلى قوم الرسل الذين أمر الله محمدًا ﷺ أن يضرب لقومه مثلًا بهم (وهم أصحاب القرية)، فكذبوهما، فشد الله أزرهما برسول ثالث، وتقدم ثلاثتهم بدعوتهم إلى عبادة الله وحده، فادّعوا بشريتهم وأنهم يكذبون عليهم، ولا يمكن أن يبعث الله بشرًا إلى البشر، فإن كانوا صادقين فلم لا يوحى إليهم مثلهم؛ بل إنهم أمعنوا في الإنكار بقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ [يس: ١٥]، وهذا إنكار منهم لجميع النبوات[١]، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم، وإليك تفصيل ذلك.

* * * * *

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تحدثت عنهم

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا
عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا
ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١٢/ ٢٨٣).

إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ
﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً
عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ١٣ ـ ٣٠].

- **في الآيات:**

➢ **أولًا:** مثلٌ من أمثلة الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ تبين فيه:

١ ـ نفاذ جهد الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ في إبلاغ الدعوة.

٢ ـ التضحية بالنفس والنفيس من أجل هداية قومهم.

٣ ـ رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده؛ إذ أرسل إليهم ثالثًا ليشد من أزرهما، فكذبوه.

➢ **ثانيًا:** كيف قال تعالى أولًا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤]، وقال سبحانه ثانيًا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦]؟

والجواب: لأن الأول ابتداء إخبار، فلا حاجة إلى التأكيد باللام، أما الثانية فإنها جواب بعد الإنكار فاحتاجت للتأكيد(١).

➢ **ثالثًا:** في آية ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، إلى آخر الآيات عدة فوائد:

أولها: في تعلقه بما قبله وجهان:

الوجه الأول: أنه بيان؛ لكونهم أتوا بالبلاغ المبين؛ حيث آمن الرجل الساعي، وهذا يدل على أن إنذارهم للناس بلغ أقصى المدينة.

الوجه الثاني: في ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ وقلوب أصحابه، وذلك أن المؤمنين يسعون إلى تصديق رسلهم وأن ما يصيبهم من الأذى قد أصاب من قبلهم فصبروا حتى نصرهم الله، مع ما في ذلك من الجزاء الأوفى لهم في الآخرة.

ثانيًا: في تنكير الرجل ـ مع أنه كان معروفًا عند الله ـ فائدتان:

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٢٣).

الأولى: أن يكون تعظيمًا لشأنه؛ أي: رجلٌ كامل الرجولة.

الثانية: أن في إتيانه إظهارًا للحق الذي جاء به المرسلون؛ حيث آمن رجل لا معرفة لهم به، فلا يقال: إنهم تواطؤوا على مبدأ فيما بينهم.

➢ **ثالثًا**: في كلمة «يسعى» تبصرة للمؤمنين، وهداية لهم؛ ليكونوا في النصح باذلين جهدهم.

➢ **رابعًا**: في قول الرجل لقومه: «يا قوم» إشفاق عليهم جد إشفاق، فإضافتهم إلى نفسه يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيرًا.

فإن قيل: هنا في آيات سورة «يس» قال هذا الرجل: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وفي سورة «غافر» قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: ٣٨]، فما الفرق؟

والجواب: أن هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل، وأوضحوا لكم السبيل.

وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارًا، فقال: اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون ﷺ، واعلموا أنه لو لم يكن خيرًا لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته.

ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى أن يقول: أنتم تعلمون اتباعي لهم.

➢ **خامسًا**: هذا الرجل جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه، فقوله: «اتبعوا» نصيحة، وقوله: «المرسلين» إظهار أنه آمن.

➢ **سادسًا**: إنه قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان؛ لأنه كان ساعيًا في النصح، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل.

➢ **سابعًا**: قوله لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]، في غاية الحسن؛ وذلك من حيث إنه لما قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، كأنهم منعوا كونهم مرسلين، فنزل درجة وقال: لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقه، وطالبون للاستقامة، والطريق إذا حصل فيه دليلٌ يدل يجب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين:

- إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة.

- وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق.

لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسوا بمهتدين؟ فاتبعوهم![1].

> **ثامنًا**: في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، سؤال: كيف أضاف الفَطْر إلى نفسه بقوله: «فطرني» وأضاف البعث إليهم بقوله: «وإليه ترجعون»، مع علمه بأن الله ـ تعالى ـ فطره وفطرهم، وسوف يبعثه ويبعثهم، فهلا قال: «فطرنا وإليه نرجع»، أو «فطركم وإليه ترجعون»؟

والجواب: أن الخلق والإيجاد نعمة من الله ـ تعالى ـ توجب الشكر، والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر؛ فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزجر[2].

> **تاسعًا**: في قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [يس: ٢٣]، إتمام لما سبق من قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ [يس: ٢٢]، الدالة على وجود الإله؛ ليتحقق معنى لا إله إلا الله؛ فإن قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ فيه إشارة إلى وجود الخالق، وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ فيه إشارة إلى نفي غيره[3].

> **عاشرًا**: في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ [يس: ٢٣]، لطيفة عجيبة، وبيانها هو: أنه لما بيّن أنه يعبد الله بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]، بين أن من دونه لا تجوز عبادته، فإن عُبِدَ غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله؛ لأن الكل محتاج مفتقر حادث، فلو قال: لا أتخذ آلهة لقيل له: ذلك يختلف إن اتخذت إلهًا غير الذي فطرك، ويلزمك عقلًا أن تتخذ آلهة لا حصر لها، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة[4].

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٦/ ٥٤ ـ ٥٦).

(٢) تفسير الرازي المسمى بـ «أنموذج جليل» ص(٤٢٣).

(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٥٧).

(٤) المصدر السابق (٢٦/ ٥٧).

➢ **الحادي عشر**: تصريح هذا العبد الصالح لهم بإيمانه يدل على شجاعته وقوة إيمانه؛ ذلك أنه لم يأبه بما يصيبه منهم من أذى.

➢ **الثاني عشر**: أن قومه قتلوه بعد ذلك، فأدخله الله الجنة، وعُذب قومه بعده؛ حيث قال: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: ٢٨].

* قال الرازي: «فيه إشارة إلى هلاكهم بعده سريعًا على أسهل وجه، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم»[١].

➢ **الثالث عشر**: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [يس: ٢٨]، يرد سؤال: لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قومًا لهم؛ فإن الواحد يكون له قوم وهم أصحابه، والرسول لكونه مرسلًا؛ فإن جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوم له؟

والجواب عن ذلك بوجهين:

أحدهما: ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة؛ أُكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان، وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر، وهذا من قوم أولئك في النسب.

ثانيهما: أن العذاب كان مختصًا بأقارب ذلك؛ لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب[٢].

➢ **الرابع عشر**: وهنا يرد سؤال آخر هو: أن الله ـ تعالى ـ لم ينزل عليهم جندًا من السماء فما سبب ذلك؟

والجواب: أن الصيحة كافية في استئصالهم.

➢ **الخامس عشر**: أنه قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يس: ٢٨]، ولم ينزل عليهم، ولا أرسل إليهم جندًا من الأرض، فما فائدة التقييد؟

والجواب: أن العذاب نزل عليهم من السماء، فتبين أن النازل لم يكن جندًا لهم عظمة؛ وإنما بصيحة أخمدت نارهم، وخربت ديارهم[٣]، فقدرته تعالى

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٦١). (٢) المصدر السابق (٢٠/ ٦١، ٦٢).
(٣) المصدر السابق.

اكتفت بما يمكن أن يكون سببًا في إهلاكهم؛ وهو الصيحة، فكيف لو أنه سلط عليهم جنده من ملائكة السماء وجنده الموحدين من الأرض.

➢ **السادس عشر**: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، مع قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾؟

والجواب: أن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾، أي: ما كان ينبغي لنا أن ننزل؛ لأن الأمر كان يتم بدون ذلك، فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال، أو وما أنزلنا وما كنا منزلين في مثل تلك الواقعة جندًا في غير تلك الواقعة.

فإن قيل: فكيف أنزل الله جنودًا في يوم بدر وفي غير ذلك؟

والجواب: أن ذلك كان تعظيمًا لمحمد ﷺ، وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافية في استئصالهم(١).

➢ **السابع عشر**: في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، كان الأصل أن يذكر فيقول: إن كان إلا صيحة فلماذا؟

* قال الزمخشري: أصله: إن كان شيء إلا صيحة.

وفي لفظ: «واحدة» تأكيد لكون الأمر هينًا عند الله ـ تعالى ـ، وفي قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ إشارة إلى سرعة الهلاك؛ فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها لم يتأخر(٢).

➢ **الثامن عشر**: في قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، يرد سؤال: من المتحسر يا ترى؟

والجواب من وجهين:

الأول: الحقيقة أنه لا متحسر؛ إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة؛ حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

الثاني: المتلهفون من المسلمين والملائكة.

* * * * *

(١) التفسير الكبير (٢٠/ ٦١، ٦٢).

(٢) المصدر السابق (٢٠/ ٦١، ٦٢).

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

أ - تكذيبهم لرسل الله:

ذكر الله سبب عقوبتهم بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[1] [يس: ١٣ - ١٥].

ب - ثم بدؤوا بالتهديد والوعيد:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟

---

(١) قال القرطبي (١٥/ ١٤): إن هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين. قال ابن كثير (٣/ ٥٧٦، ٥٧٧): وفي ذلك نظر من وجوه.

الأول: ذكر بعض السلف أن هؤلاء الرسل المذكورين في سورة «يس» كانوا مبعوثين من قبل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وظاهر القرآن يدل على أنهم كانوا رسل الله عز وجل، قال الله - تعالى -: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [يس: ١٤]، إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٦، ١٧]، ولو كانوا من حواري عيسى ابن مريم لقالوا عبارة تناسب ذلك.

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، وأهل هذه القرية ذكر الله أنهم كذبوا رسله، وأنهم أهلكوا بصيحة واحدة أخمدتهم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين - أصحاب المسيح - كانت بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبوسعيد الخدري (الصحابي الجليل) وغير واحد من السلف أن الله - تعالى - بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم؛ بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين؛ حيث ذكروا ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. انظر الأثر في: تفسير ابن جرير (١٩/ ٥٨٤)، البزار، برقم [٢٢٤٧] موقوفًا، [٢٢٤٨] مرفوعًا، وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ١٢٩) إلى ابن أبي حاتم، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٨): رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا ورجالهما رجال الصحيح.

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية قرية أخرى غير أنطاكية، أو تكون مدينة أخرى غير هذه المشهورة؛ فإنه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، لكن إن كان الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا فكذبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا، والله أعلم. انظر: البداية والنهاية (١/ ٢٢٩، ٢٣٠).

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾؛ أي: لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا. وقال قتادة: «يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم»، ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾، قال قتادة: «بالحجارة»، وقال مجاهد: «بالشتم»، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ [يس: ١٩]؛ أي: مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]؛ أي: من أجل أن ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا؛ بل أنتم قوم مسرفون.

* قال الزمخشري: «﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ [يس: ١٨]، تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فردوا عليهم وقالوا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ [يس: ١٩]، وهو كفركم أو أسباب شؤمكم معكم، وهي كفرهم ومعاصيهم»(١).

عندها قابلوهم بالتهديد ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس: ١٨]، وهكذا أسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الهداة تهديده، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، ورغى وأزبد في التعبير والتفكير؛ ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق حتى النهاية(٢).

* قال القرطبي: «هددوا الرسل بالرجم؛ أي: بالقتل، أو بالرجم بالحجارة، أو بالتعذيب المؤلم قبل القتل، كالسلخ والقطع والصلب»(٣).

ومع ذلك واصلوا الوعظ والتذكير؛ ولكن القوم كانوا غافلين بعيدين عن الاستجابة، حتى جاءهم رجل منهم مصدق بالرسل، مصرحٌ الإيمان بهم؛ لعلهم يقتدون به، غير آبه بما يصيبه منهم من أذى، فماذا فعلوا به؟!

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ٩).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ١٦).

وقفة قبل النهاية

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ[1] يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٥].

وكان من خبر القرية التي جاءها المرسلون أن آمن رجل منهم بالمرسلين، فحمله إيمانه على أن يأتي سريعًا من أقصى المدينة ليدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، فهم على الحق، وما جاؤوا به هو الهدى والحق، ثم احتج عليهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]؛ أي: اتبعوهم فهم لا يسألونكم مالًا على إبلاغكم رسالة الله، ثم إنه لاخسارة في اتباعهم لشيء من دنياكم؛ بل الربح الوافر يكمن في تدينكم بالدين الحق، فينتظم لكم خيرا الدنيا والآخرة، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له[2].

والظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن ذا منزلة في قومه من عشيرة؛ ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها[3].

ثم حاول الرجل أن يتلطف معهم في الدعوة، فأبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم؛ ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه، فوضع قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، فكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، يدل على ذلك قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، ثم ساق كلامه ذلك المساق تلطفًا منه في الدعوة إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾[4] [يس: ٢٥]، ثم قال لهم في معرض مناصحة نفسه وهو يريدهم:

---

(١) عند ابن عطية: أنه رُوي عن أبي مجلز، وكعب الأحبار، وابن عباس: أن اسم هذا الرجل (حبيب) وكان نجارًا. (١٢/ ٢٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٥)، تفسير الكشاف (٤/ ١٠).

(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٣).

(٤) تفسير الكشاف (٤/ ١٠).

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

أي: أن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك من الأمر شيئًا؛ فإن الله - تعالى - لو أرادني بضر فلا كاشف له إلا هو، فهل أتخذها آلهة أعبدها من دون الله وهذا حالها من الضعف والعجز، إني إذا فعلت ذلك لفي ضلال مبين[١].

* يقول صاحب الظلال: «وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟! وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضُعفاء لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟!»[٢].

وها هو الرجل بعد كل هذه المناصحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين؛ لأن صوت الفطرة أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب[٣] ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]؛ أي: فاسمعوا قولي وأطيعوني فيما أمرتكم به ونصحتكم به. وقيل: لما سمع قومه قوله أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي: إني آمنت بربكم واتبعتكم. ولم يكن له أحد يمنع عنه القتل.

وقال قتادة: «كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به يرجمونه وهو يقول ذلك حتى مات رجمًا بحجارتهم»[٤].

* * * * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٥).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٤).
(٣) المصدر السابق (٥/ ٢٩٦٤).
(٤) تفسير الكشاف (٤/ ١٠، ١١)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٥).

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

وفيه:

أولًا: مقتل الرجل المؤمن:

سياق القصة يوحي أنهم لم يمهلوه بعد جهره بكلمة الحق أن قتلوه وهو يقول: ﴿إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]، لينتقل إلى الدار الآخرة وإلى العالم الآخر لينظر إلى ما ادخر الله له من كرامة، وما أعد له من نزل يليق بمقام المؤمن الشجاع(١).

قال الله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق». قال القرطبي(٢): «أراد قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]». فلما رأى ذلك النعيم قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ الآيات [يس: ٢٦].

وهكذا لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، فها هو في غمرات الموت لما عاين ما عاين من كرامة الله له قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

قال ابن عباس: «نصح قومه في حياته وبعد مماته، فرحمه الله ورضي عنه، لقد كان حريصًا على هداية قومه»(٣).

ولكن ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وقد شبه النبي ﷺ عروة بن مسعود الثقفي بصاحب يس هذا «قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أخاف أن يقتلوك**»، فقال: لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، فقال له رسول الله ﷺ: «**انطلق**»، فانطلق فمر على اللات والعزى فقال:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٤). (٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦).

لأصبحنك غدًا بما يسوؤك، فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عزى، أسلموا تسلموا، ـ قال ذلك ثلاث مرات ـ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «**هذا مثله كمثل صاحب يس** ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾»[1].

وقد ذكر المفسرون روايات مختلفة في صفة قتل صاحب يس، والذي اجتمعت فيه أنهم قتلوه، فانتقل شهيدًا إلى الدار الآخرة متمنيًا لو أن قومه عرفوا مقدار الكرامة التي أعدها الله له[2].

ثانيًا: هلاك أصحاب القرية:

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٨ ـ ٢٩].

يخبر تعالى أنه انتقم من أصحاب القرية (قوم الرجل المؤمن) غضبًا منه لتكذيبهم رسله وقتلهم وليه؛ حيث أرسل عليهم صيحة واحدة أخمدتهم.

* قال الزمخشري: «والمعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جندًا من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخندق»[3]؛ بل كان الأمر أيسر من ذلك.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: ٢٨]، أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم؛ بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم[4]؛ وذلك لأنه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلا بناءً على ما اقتضته الحكمة

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧١٣)، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر عروة بن مسعود الثقفي، برقم [٦٥٧٩، ٢١٧٧].
وروه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٤٨)، باب من اسمه عروة، برقم [٣٧٤]، [٣٧٥].
وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٨٦): باب ما جاء في عروة بن مسعود ﷺ. وذكر أن إسنادهما حسن.
وانظر نص الحديث في: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦)، نظم الدرر (١٦/ ١٣)، الدر المنثور (٥/ ٤٩٢).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ٥٠٨)، تفسير ابن عطية (١٢/ ٢٨٨)، الدر المنثور (٥/ ٤٩١).

(٣) تفسير الكشاف (٤/ ١٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦).

وأوجبته المصلحة[1]، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]؛ أي: إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رمادًا، كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطعُ[2]

* قال قتادة: «فلا والله ما عاتب قومه بعد قتله إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون». قال المفسرون: «بعث الله إليهم جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة فإذا هم خامدون؛ أي: أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف»[3].

وسبب الندامة في قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ﴾ [يس: ٣٠]، هو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وإن مثل ذلك ـ كما يقول الرازي ـ: «مثل ملك جاء رجلًا في بادية، فأعرفه نفسه، وطلب منه أمرًا هينًا فكذبه، ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم جاء بعد حين ووقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه، عند ذلك يكون عنده من الندامة الشيء الكثير.

فكذلك الرسل هم ملوك، وأعظم من ذلك إعزاز الله إياهم؛ حيث جعلهم نوابه في الأرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وما تركوا بابًا إلا عرّفوا أتباعهم أنهم ناصحون لهم فكذبوهم... ثم يوم القيامة ظهرت عظمتهم عند الله لهم وعَرَفُوهم، عندها يكون لهم من الندامة الشديدة ما الله به عليم، كيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزؤوا واستخفوا واستهانوا!!»[4].

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٢). والبيت في ديوان لبيد ص(٨٨)، حرف العين.

(٣) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥١٢)، تفسير البغوي (٧/ ١٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦)، روح المعاني (٢٣/ ٢)، وانظر: «البداية والنهاية» (١/ ٢٣١).

(٤) التفسير الكبير (٢٦/ ٦٣).

○ **المطلب الرابع** ○

الدروس المستفادة من عقوبة أصحاب القرية

> **أولًا**: الله ـ تعالى ـ رحيم لطيف بعباده؛ حيث لم يترك في كتابه سبيلًا لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح؛ سواءً بالأدلة والبراهين، أو بإعمال الفكر والعقل، أو بالتأمل والمشاهدة، أو بضرب الأمثال، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.

والمراد من قصة أصحاب القرية بيان أن النبي ﷺ أمر بإنذار المشركين من قومه؛ حتى لا يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل[1].

> **ثانيًا**: القيام بالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ من قِبَل أكثر من واحد تقوية لهم ولموقفهم أمام المدعوين[2].

فهذا موسى الكليم ﷺ طلب من الله ـ تعالى ـ مؤازرة أخيه هارون له، فاستجاب الله له ولم ينكر عليه ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٤ ـ ٣٥].

وعلى هذا فإنه ينبغي لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووزارات الشؤون الإسلامية، وغيرهما من جماعات الدعوة والإرشاد في إرسالها للدعاة أن يختاروا من الأكفاء أكثر من واحد للدعوة في منطقة أو مكان معين يحتاج للدعوة فيه مجتمعين غير متفرقين؛ ليكون أقوى لهم وأدعى أيضًا لتقبل المدعوين[3].

> **ثالثًا**: يبعث الله الرسل من جنس المرسل إليهم عادة؛ حتى لا يعتذروا ويُعرضوا بحجة المغايرة، فلو كان من غيرهم ـ كأن يكون مَلَكًا مثلًا ـ لاعتذروا

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٢٢/٣٠٦).

(٢) المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥٤٥).

(٣) الداعية المتجول في القرى والهجر وغيرها يرى بنفسه تقبل المدعوين للدعوة من غير محلته أكثر ممن لو كان منهم، ولهذا يُحبذ لخطباء الجمع تبادل المهمات في بعض الأحيان بقصد التنويع في المواضيع والشخصيات.

ولقالوا: ما نستطيع أن نفعل مثل ما يفعل، وعلى هذا تكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها؛ وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس، والاستكبار، وحب التسلط[1].

> **رابعًا:** عرفنا من قبل أن الله ـ تعالى ـ أرسل رسولين إلى أهل القرية فكذبوهما، فأرسل الله إليهم رسولًا ثالثًا تعزيزًا للرسولين، فكذبوا الجميع، وهذا الأسلوب من التكذيب قديم من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ، وآيات القرآن في ذلك كثيرة جدًّا.

فعلى الدعاة ألا يعجبوا من التكذيب إذا كذبوا، أو سخر منهم ومن لحاهم أو قِصَر ثيابهم، أو هددوا بإخراجهم من بلدهم، أو سجنهم، أو منعهم من الدعوة إلى الله؛ بل لا يحملهم ذلك على الغضب عليهم، أو رميهم بالعناد والصلف؛ بل لا يحملهم الغضب على الدعاء عليهم؛ فهذا الرجل كان يقول إلى آخر لحظة من عمره: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». ثم على الدعاة مراجعة أنفسهم، فقد يكونون قصروا في كيفية التبليغ؛ إما لعدم اختيار الوقت المناسب أو الأسلوب المناسب أو غير ذلك.

وعليهم ألا يعجبوا من تهديد الظالمين وزيف المرجفين؛ بل عليهم أن يستمروا في تبليغ الدعوة، فإن منعوا من أسلوب معيّن في الدعوة فعليهم الانتقال إلى أسلوب آخر، فإن منعوا من الدعوة جهرًا فليدعوا سرًّا، وإن منعوا من الدعوة في المساجد فليدعوا إلى الله في زيارتهم لبيوت مجتمعهم ومن حولهم، وهكذا المؤمن يكون كيسًا فطنًا، كلما انسد باب فتح بابًا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

> **خامسًا:** لا يعدم الحق في كل زمان أنصارًا له وإن كانوا قلة، وكان أهل الباطل كثرة، فهذا مؤمن أصحاب القرية جاء مسرعًا لما سمع بخبر الرسل، دَعَا قومه ونصحهم ورغبهم وأرهبهم ودعاهم إلى توحيد الله واتباع الرسل وترك عبادة غير الله؛ فإن الرسل على حق وهدى، لا يطلبون مالًا ولا قِرى، وهذا دليل إخلاصهم[2].

---

(١) انظر: التفسير المنير (٢٢/٣٠٦).

(٢) المصدر السابق (٢٢/٣٠٧).

وفعل هذا المؤمن يدل على أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه يدفع صاحبه إلى ما يقتضيه من دعوة وجهاد في سبيل الله بكل وسيلة؛ من لسان ويد وقلب بمراتبها المعروفة، فعلى الدعاة تعميق الإيمان في قلوب مدعويهم حتى يكونوا رسل خير لأهليهم ومجتمعهم؛ بل ويبذلون الجهد في أن يكونوا دعاة مثلهم ينهجون نهجهم، ويقتفون أثرهم بالصدع بكلمة الحق.

➢ **سادسًا**: الرسل يدعون إلى توحيد الله ـ تعالى ـ باللطف واللين والحكمة والموعظة الحسنة، كما رأينا من قبل في دعوة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. وهذا مؤمن أصحاب القرية تلطف في دعوة قومه بقوله في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد قومه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢]، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، ولو قصد نفسه لقال: الذي فطرني وإليه أرجع[1]. فعلى الدعاة استعمال هذا الأسلوب في التبليغ حين يضطر الإنسان إلى فعله؛ وخاصة عند مخاطبة الطغاة مباشرة، أو الوجهاء الذين لا يتنازلون لسماع كلمة الحق، أو لا يستطيع أحدٌ الوصول إليهم إلا بشق الأنفس، وفي الحديث «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2].

ولماذا كل هذا التعب والنصب من الداعي إلى الله ـ تعالى ـ إلا لأنه يريد الخير للناس جميعًا، كما قال مؤمن أصحاب القرية: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧]؛ أي: يعلمون بمآلي وحسن حالي، «فيؤمنون مثل إيماني، ثم يصيرون إلى مثل ما أنا فيه من نعيم». هذا هو حال المؤمن لا تلقاه إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا، كما قال قتادة[3].

وهذا إبراهيم ﷺ يخاطب أباه بلين ولطف فيقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/ ١٠).
(٢) الحديث رواه أحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٦). وابن ماجه، رقم [٤٠١٢]. وانظر: الصحيحة للألباني، رقم [٤٩]، (١/ ٨٠٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦).

ووجه الدلالة من الآيات أن إبراهيم ﷺ حين أراد نصح أبيه تلطف معه بالقول مع المجادلة معه برفق ولين، كما أنه كان يخاطبه بكلمة «يا أبت» في كل مرة زيادة في التلطف ولين القول.

ثم إنه ﷺ بدأ بأقرب الناس إليه، فعلى الدعاة أيضًا أن يفهموا ذلك.

وقد تجد من الدعاة من يهتم بدعوة الآخرين وينسى أهله وأقرب الناس إليه، أو يراهم على المنكر فلا يحرك ساكنًا، ولا شك أن هذا من الخطأ العظيم، فعليه أن يوازن بين الأمور في دعوة القريب والبعيد.

ثم إنه لا بد من وجود صعوبات في تبليغ الدعوة؛ سواء كان من المدعوين أنفسهم، أو خصماء الدعاة أنفسهم، أو من سفاهة بعض الجاهلين.

والمطلوب من الدعاة ألا يحملهم الغضب عليهم على الانتصار للنفس فيعابوا بذلك[1].

ثم إن مهمة الداعي في بث دعوته بين الناس، وترغيبهم فيها، وتخليصهم من الضلال الذي هم فيه، مهمة الطبيب الناصح الشفيق، الذي لا تستفزه صيحات المرضى وكرههم رؤية الطبيب؛ بل ولا يمنعه شتمهم له من الاستمرار في معالجتهم؛ لأنه يعلم أن هذه الأفعال منهم هي بعض أعراض أمراضهم، والطبيب إنما يريد معالجتهم؛ لا الانتقام منهم[2].

> **سابعًا**: المعاصي والذنوب سبب لكل عقوبة.

فهؤلاء أصحاب القرية قالوا للرسل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]؛ يعني: أن كل ما يصيبنا من بلاء فبشؤمكم، وبسبب ما تدعون إليه يحصل لنا ما يحصل، فرد الرسل بقولهم ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]؛ أي: شؤمكم بسبب كفركم ومعاصيكم.

إذًا فالشؤم الحقيقي منهم هو الشرك والكفر وتكذيب الرسل، وليس هو من

---

(١) قال القرطبي رحمه الله في مثل هذا (١٥/ ٢٠): «فيه الدلالة على وجوب كظم الغيظ والحلم والترؤف على من أدخل نفسه غمار الأشرار وأهل البغي. . - إلى أن قال: - والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى لمؤمن أصحاب القرية كيف تمنى الخير لقَتَلتهِ».

(٢) ملخصًا من كتاب المستفاد من القصص القرآني (١/ ٥٥١).

شؤم المرسلين ولا بسبب تذكيرهم لهم؛ وإنما بسبب إسرافهم في الكفر وتجاوز الحد.

فعلى الدعاة أن يبينوا للناس أن ما يصيب الناس من بلاء وكوارث وحبس للغيث إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي، وهذا من السنن الإلهية التي لا تختلف، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: بسبب معاصيكم ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، من ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها[١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

* قال ابن عباس وغيره: «يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه...»[٢].

وقد بين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن من الذنوب من يعجل الله لفاعلها العقاب في الدنيا غير ما يبقى له من نكال وعذاب في الآخرة، فقال ﷺ: «**ما ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»، وفي رواية: «**من قطيعة الرحم، والخيانة، والكذب...**»[٣].

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب»[٤]. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٥)، تفسير الرازي (٢٧/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٣) رواه أحمد (١٥/ ٣٦، ٣٨)، برقم [٢٠٣٩٠، ٢٠٤١٤]، وغيره من أصحاب السنن. ورواه الحاكم في كتاب البر والصلة (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، برقم [٧٢٨٩]، [٧٢٩٠] وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير (٥/ ١٦٣)، برقم [٥٥٨٠]، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم [١١٨].

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٤١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

➢ **ثامنًا:** المؤمن الحق يحب الهداية للناس جميعًا.

فبالرغم من هذا الإيذاء والتعذيب والإهانة أحب مؤمن أصحاب القرية أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة(١).

فعلى الدعاة أن يحبوا إصابة الخير والهدى لكل أحد من مدعويهم، وأن يحرصوا كل الحرص على ذلك؛ فالله يحب عباده المهتدين وعباده التائبين، والداعي يحب ما يحبه الله، وليعلم أن في حرصه على هداية الناس ثوابًا كبيرًا له، ففي الحديث «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»(٢).

➢ **تاسعًا:** جزاء الشهداء عظيم عند الله - تعالى -.

أخبر الله - تعالى - عن مؤمن أصحاب القرية أنه تكلم بعد موته، فقال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧]، وأخبر عن الشهداء عامة فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

فعلى الدعاة الاحتساب **أولًا** في دعوتهم، ثم ليعلموا أن الدعوة إلى الله جهاد في سبيل الله، وعليهم توعية الناس بأن أجر من يقتل في سبيل الله أو يجرح في سبيل الله عظيم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله: «**والذي نفسي بيده، لا يكلمُ أحدٌ في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة واللون**

---

(١) التفسير المنير (٢٢/٣٠٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣/١٣٧)، برقم [٤٢١٠]. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٤/١٨٧٢)، برقم [٢٤٠٦].

لون الدم، والريح ريح المسك»[1].

➢ **عاشرًا**: هلاك المكذبين لرسل الله سنة ثابتة لا تتغير، وذلك أن الله - تعالى - لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨ - ٩]، وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة؛ وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، والظالم: من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه من الوجوه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال: إنه ظالم؟

ثم إن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها، والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل[2].

وكفر أصحاب القرية كفر إعراض وعناد، وزادوا عليه قتل ولي الله الداعي لهم، فأهلكهم الله بالصيحة غضبًا منه تعالى عليهم.

فعلى الدعاة أن يبينوا سنة الله - تعالى - التي لا تتغير في عقاب المكذبين والصادين عن سبيله، ويذكروا لهم بعض القصص القرآني المبين لعاقبة المكذبين والعذاب الذي عذبوا به المشار إليه في كثير من الآيات، وإن شاؤوا فهذه آثارهم وأطلالهم باقية إلى اليوم، قال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله (٢/٣٠٦)، برقم [٢٨٠٣]. ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (٢/ ١٤٩٦)، برقم [١٨٧٦].

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص(٤١٣، ٤١٤).

الفصل الثالث

العقوبات الإلهية في عهد موسى عليه السلام

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عقوبة فرعون وقومه.

المبحث الثاني: عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام.

المبحث الثالث: عقوبات قارون.

تمهيد

أوحى الله إلى موسى عليه السلام بعد رجوعه من مدين متجهًا إلى مصر (بلده الذي ولد فيه)، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، أي: لما قضى موسى الأجل المتفق عليه ـ وهو ثماني سنين أو عشر، واختار الأكمل منهما ـ سار بأهله خارجًا من مدين متجهًا إلى مصر، فأبصر نارًا فقال لأهله: امكثوا هنا؛ فإني آنست نارًا، لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق من ضوئها أو ممن عندها، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: قطعة منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: تستدفئون بها(١).

وعند ذلك ناداه الله ـ تعالى ـ وعرفه به وأمره **أولًا**: بالاعتقاد بالوحدانية ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾(٢) [طه: ١٤].

وأمره **ثانيًا**: بإخلاص العبادة له، فقال: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

وأمره **ثالثًا**: بالإيمان باليوم الآخر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وهذه هي أسس رسالة الله الواحدة(٣)، ثم أيده بمعجزتي العصا واليد وهو واقف مكانه قبل أن يأمره بتبليغ الرسالة؛ ليعلم أنه لقي ربه حقًا هذا **أولًا**، وليطمئن قلبه وهو ذاهب إلى فرعون **ثانيًا**.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩).

(٢) وفي سورة «النمل» ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ٩]، وفي سورة «القصص» ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٣٠].

(٣) فالألوهية الواحدة قوام العقيدة، وعليها تترتب العبادة، وأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل. انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٣١).

ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ولا يخاف أحدًا؛ فإن كل شيء بيده ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، فاعتذر موسى بقتله لواحد منهم، ويخاف إن ذهب أن يقتلوه، ثم إن في لسانه عيبًا يحول دون فهمهم لكلامه، ويحب أن يرسل معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح كلامًا منه، وليشتد به أزره، وهذا منه على سبيل الطلب؛ لا الاعتراض[١].

فاستجاب الله له كل ما طلب، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[٢] [طه: ٢٥ - ٣٦].

فزال الخوف عن موسى، وحقق الله له ما طلب من نبوة أخيه هارون؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد[٣].

واستجاب موسى للأمر الإلهي، وتوجه هو وأخوه هارون إلى الطاغية فرعون، فأبلغاه أمر الله، وبيّنا له ما أيد الله به موسى من معجزات، فطلبها ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]، من معجزة العصا واليد[٤]، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: ٢١]، وطغى وتجبر وتولى وتكبر، وزعم أنّ هذا سحرٌ يؤثر.

وبعدها أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه هاربًا بهم من بطش فرعون وقومه

---

(١) يقول سيد قطب: إنه كان يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور، لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف؛ ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير. انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٩).

(٢) وفي سورة «الشعراء» يقول تعالى عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الآيات: ١٢ - ١٤]، وفي سورة «القصص» قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الآيات: ٣٣ - ٣٥].

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٠)، وانظر: تفسير الكشاف (٣/ ٦٢).

(٤) أشرت إلى ذكر معجزة العصا واليد وكيفية التوفيق بينهما عند الحديث عن لطائف الآيات في سورة «النازعات» من هذا المبحث.

بعد أن بلغ ما أمر به، فخرج فرعون وجنوده في أثره، فنجى الله موسى وقومه من بطشه، وأغرق الله فرعون وجنوده جزاء عتوه وعناده وظلمه.

❖ ❖ ❖

عقوبة فرعون وقومه

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تحدثت عن عقوبات فرعون وقومه

أشارت بعض سور القرآن إلى عقوبة فرعون وقومه، بينما فصلت سور أخرى عقوبتهم تفصيلًا كاملًا.

القسم الأول: السور التي أشارت إلى عقوبتهم:

> **أولًا**: سورة «**البقرة**»، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

أشارت الآية إلى نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون ومن معه؛ تذكيرًا لهم بنعمة الله عليهم؛ ليستعيدوا تصورها وكأنهم كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام[(١)].

> **ثانيًا**: سورة «**آل عمران**»، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

في هذه الآية تذكير لبني إسرائيل لمصير آل فرعون؛ حيث أهلكهم بسبب ذنوبهم، ونجى بني إسرائيل؛ ولكن هذا لا يمنحهم حقًّا خاصًّا إذا هم ضلوا وكفروا، فليس ببعيد على الله أن ينالوا ما نال آل فرعون[(٢)].

> **ثالثًا**: سورة «**الأنفال**»، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٧١).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٧١).

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٤].

في الآيات تذكير في صورة تحذير للمخاطبين من كفار قريش وغيرهم أن يشابهوا الظالمين من الأمم المكذبة كفرعون وقومه، فينزل الله بهم من عقابه ما أنزل بأولئك الفاسقين(١).

➤ **رابعًا**: سورة «**هود**»، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

في الآيات ذم لفرعون وقومه الذين أطاعوه مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ ولهذا نفى الله عن فرعون ما أثبته لقومه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٨]، وهذا كالتعليل لنفي الرشاد عن أمر فرعون؛ لأنه لو كان فيه رشد لما كان القائد لقومه وأتباعه إلى جهنم(٢).

﴿وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِۦ﴾؛ أي: الدنيا، بدليل قوله تعالى عن قوم هود: ﴿وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [هود: ٦٠]، أي: جعلت تابعة لهم كما يتبع الظل صاحبه، وهذا من الخزي الذي يلازمهم، وزيادة عليه يلعنهم اللاعنون من عباده، كما بينها الله بقوله ـ جل وعلا ـ في الكفار عمومًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

➤ **خامسًا**: سورة «**إبراهيم**»، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

أ ـ في الآيات أيضًا التذكير بنعم الله عليهم في إنجائه إياهم من فرعون في اليوم الذي يعرفونه.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة «هود» (٢٣٧، ٢٣٨).

ب ـ في سورة «البقرة» قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقال في «الأعراف»: «يقتلون» بغير واو، وقال في سورة «إبراهيم» هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] بالواو، فكيف ذلك والقصة واحدة؟

والجواب: أنه لما حذف (الواو) جعل التذبيح والتقتيل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب؛ لأنه أوفى على بقية أنواعه، وزاد عليها زيادة ظاهرة، فعلى هذا يكون زيادة (الواو) أبلغ[١].

> **سادسًا**: سورة **«الإسراء»** أشارت إلى عقوبة فرعون وقومه في قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

أ ـ **«فأراد أن يستفزهم»**: أي: يستخف موسى ومن معه ويخرجهم؛ ليتمكن من استعباد الباقين مثلهم، مثل قريش حين أرادوا أن يستفزوك من الأرض ليخرجوك منها؛ للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد.

ب ـ في الآية تحذير لقريش[٢]، فمن أغرق فرعون وقومه جميعًا قادرٌ على إهلاكهم جميعًا، وهذه سنة الله فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق، وكفر النعمة، وأفرط في الغي بعد ظهور الحق[٣].

> **سابعًا**: سورة **«الحج»**، **«الفرقان»**، **«العنكبوت»**، **«ص»**، **«ق»**، **«القمر»**، **«الحاقة»**، **«المزمل»**، **«البروج»**، **«الفجر»**.

في هذه السور جاءت الإشارة إليهم في معرض ذكر الأقوام المكذبين من قبلهم دون ذكر اسمهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

أما سورة **«الفرقان»** فقال فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٣٦].

---

(١) تفسير الرازي المسمى «بأنموذج جليل» ص(٢٣٩).

(٢) لكون الآية جاءت بعد الآيات المتحدثة عن إنكارهم للبعث، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨].

(٣) نظم الدرر (١١/٥٢٨، ٥٢٩).

أما سورة «**العنكبوت**»: فأشارت إلى عقوبة قوم فرعون ضمن تعداد قدرة الله في عقاب الأمم قبلهم في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠] هم قوم نوح، وفرعون وقومه، فقوم نوح أغرقوا بنزول المطر من السماء وتفجر عيون الأرض، وفرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا في البحر في صبيحة واحدة؛ فلم ينج منهم أحد(١).

أما سورة «**ص**»: فأشارت إلى فرعون صاحب الأهرام التي تقوم في الأرض كالأوتاد تذكيرًا لقريش أيضًا في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢]، وهي أول آية تذكر الأوتاد؛ إما لكثرة جنوده، أو لأنه كان يعذب بها الناس.

أما سورة «**ق**»: فأشارت إلى فرعون ضمن الأقوام الذين جادلوا في قضية البعث، كما فعل المشركون القرشيون، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٢ - ١٣]، فأراد بفرعون هنا: قومه؛ لأن المعطوف عليه قوم نوح.

أما سورة «**الذاريات**» فأشارت إلى مصرع فرعون وقومه إشارة سريعة دون عرض كيفية غرقه، فقال سبحانه: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٤٠].

ولا يطيل السياق هنا في عرض تفصيلات القصة، فيمضي إلى نهايتها بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠]؛ أي: آت بما يلام عليه مما كان منه من طغيان ومن تكذيب(٢).

فإن قلت: كيف وصف نبي الله يونس - صلوات الله عليه - بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]؟

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٠/ ٣٧)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٤).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٤).

فالجواب: أن موجبات اللوم تختلف، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم، فمرتكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١]؛ لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة[١]؟

أما سورة «**القمر**»: فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢].

كانت الإشارة فيهما زائدة على ما تقدم؛ حيث بينت أن آل فرعون جاءتهم النذر، وأعطوا الآيات الكثيرة، فكذبوا بها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقي ظلال الشدة في الأخذ، وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم، فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم، وأخذه الله هو وآله أخذ عزيز حقًّا مقتدرٍ صدقًا. أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت[٢].

أما سورة «**الحاقة**»: فأشارت إلى عقوبتهم مع مجموعة المكذبين من قومه وقوم لوط في قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ ـ ١٠].

وهذا السياق ـ كما تراه ـ يحمل فعال الذين جاؤوا بالخاطئة (أي: الفعلة الخاطئة)، وهنا إشارة بديعة حيث ذكر الله أنهم ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ [الحاقة: ١٠]، وهم عصوا رسلًا متعددين؛ ولكن حقيقتهم واحدة، ورسالتهم في صميمها واحدة، فهم إذًا رسولٌ واحد يمثل حقيقة واحدة[٣].

فكانت النتيجة أن أخذهم الله أخذة شديدة زائدة في الشدة، كما زادت قبائحهم في القبح[٤].

سورة «**المزمل**»: أشارت إلى عقوبة قوم فرعون في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[٥] [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) تفسير الكشاف (٤/٤٠٣).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٥).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٣٦٧).
(٤) تفسير الكشاف (٤/ ٦٠٠).
(٥) وبيلًا يعني: الثقيل الغليظ، ومنه قولهم: صار هذا وبالًا عليه، ويقال: كلأٌ وبيل وَخِمٌ =

في الآيات:

أ ـ الخطاب لأهل مكة، والمقصود تهديدهم بالأخذ الوبيل المهلك.

ب ـ لسائل أن يسأل: لمَ نكّر الرسول ثم عرّف؟

والجواب: أن التقدير: أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصاه، فأخذناه أخذًا وبيلًا، فأرسلنا إليكم أيضًا رسولًا فعصيتم ذلك الرسول، فلا بد وأن نأخذكم أخذًا وبيلًا[1].

ج ـ لم ذكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم؟

والجواب: لأن أهل مكة ازدروا محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم، وهو قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[2] [الشعراء: ١٨].

أما سورة «**البروج**» فأشارت إلى عقوبتهم في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٧ ـ ١٩].

في الآيات:

١ ـ أشارت إلى قوة القوم واستعدادهم، فسماهم بالجنود.

٢ ـ أشارت إلى فرعون من المتأخرين وثمود من المتقدمين دون تفصيل، فأمرهم معلوم[3].

وأخيرًا أشارت سورة «**الفجر**» إلى عقوبة فرعون وقومه في قول الله تعالى:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٤].

في الآيات:

١ ـ في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، إشارة إلى ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعده لهم في

= لا يستمرأ لثقله، فأدت عاقبته إلى مكروه، والوبيل: العصا الضخمة، ومنه الوابل للمطر العظيم. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٠١، ٢٠٢)، مادة «وبل».

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨٢). (٢) المصدر السابق (٣٠/ ١٨٣).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧٦).

الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به[1].

٢ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ أي: بالعقاب لفرعون ولمن سار على شاكلتهم من الظلمة والطغاة المفسدين؛ لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به[2].

وعند ابن كثير في معناها: «يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيُعْرَضُ الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلًّا بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور»[3].

< **ثامنًا**: سورة «**المؤمنون**»، قال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٩].

في الآيات:

١ ـ بعث الله رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات.

٢ ـ استكبار فرعون وقومه عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين.

٣ ـ أهلك الله فرعون وقومه؛ حيث أغرقهم في صبيحة يوم واحد أجمعين.

٤ ـ أنزل الله على موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ بعد ما قصم الله فرعون وقومه القبط، ولم يهلك الله أمة بعامة بعد نزول التوراة[4].

< **تاسعًا**: سورة «الصافات»: أشارت إلى عقوبة فرعون وقومه في لمحة سريعة في معرض امتنان الله على موسى وهارون عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ

---

(١) تفسير الكشاف (٤/٧٤٨)، تفسير الرازي (٣١/١٦٨). فائدة: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها. انظر: الكشاف (٤/٧٤٨)، الرازي (٣١/١٦٨).

(٢) انظر: تفسير الكشاف (٤/٧٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٣).

(٤) ذكرنا ذلك سابقًا عند الكلام في اختلاف العلماء في مكان أصحاب القرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ الآية [القصص: ٤٣]. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٠٢).

مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١٢٢].

في الآيات:

١ ـ إبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما ونجاتهما وقومهما من الكرب العظيم.

٢ ـ نصرة الله لهما على فرعون وملئه، وإعطاؤهما الكتاب الواضح المستبين، وهدايتهما الصراط المستقيم.

٣ ـ إبقاء ذكرهما في الأجيال والقرون الآتية بعدهما.

٤ ـ التعقيب المتكرر في السورة لتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون[١].

القسم الثاني: السور التي فصلت عقوبة فرعون وقومه:

أولًا: سورة «الأعراف»:

تحدثت سورة «الأعراف» حديثًا تفصيليًّا عن فرعون وقومه، وموسى مع قومه، وسنكتفي بذكر عقوبة فرعون وقومه هنا، وسنرجئ الحديث عن عقوبة بني إسرائيل إلى حينه.

بعد نوح وصالح ولوط وشعيب ﷺ أرسل الله موسى ﷺ مؤيدًا بالآيات البينات إلى فرعون وملئه؛ ولكن إفسادهم في الأرض حال بينهم وبين الإيمان.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٩٩٧).

فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ
سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا
جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ
لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا
طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ
مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ
كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ
يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٣٧].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون ليبلغه أمر الله مباشرة.

> **ثانيًا:** بيان سوء عاقبة المفسدين في الدنيا والآخرة.

➢ **ثالثًا**: اعتزاز موسى بتبليغ دعوة الحق، وهو حريص على ألا يقول غيره؛ لأنه مهتم بمصلحة قومه.

➢ **رابعًا**: ذكر الله - تعالى - في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص؛ لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام(١).

➢ **خامسًا**: القصة تكشف لنا مواجهة موسى لفرعون وملئه، وهذا يبين لنا كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين، وكأنه الخطر الوحيد على وجوده، كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت(٢).

➢ **سادسًا**: بطانة فرعون يلصقون بموسى تهمة ما يسمى اليوم بقلب نظام الحكم ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

➢ **سابعًا**: إلهية فرعون المزعومة تستشير الملأ في شأن موسى(٣).

➢ **ثامنًا**: السحرة كانوا جماعة من المأجورين الذين يبحثون عن المنافع المادية والسلطة الدنيوية؛ في حين كان موسى داعية حق لا يريد من ورائها جزاءً ولا شكورًا؛ بل كان كل همه عودة فرعون وقومه إلى جادة الصواب، ثم فك العذاب عن قومه بني إسرائيل(٤).

➢ **تاسعًا**: في قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]، لم تنسب الغلبة لموسى ﷺ؛ لأن ذلك ليس من كسبه ولا من صنعه(٥).

➢ **عاشرًا**: للسحر حقيقة وتأثير، فالسحرة بسحرهم أثروا على أعين الناس حتى رأت الحبال والعصي ثعابين وحيات على خلاف ما هي عليه حقيقة.

➢ **الحادي عشر**: آمن السحرة لعلمهم أن ما جاء به موسى ليس سحرًا من جنس سحرهم؛ لأنهم أهله؛ وإنما هو آية من الله خارقة تدل على صدق موسى ﷺ.

➢ **الثاني عشر**: ثبات السحرة أمام التهديدات والاتهامات الفرعونية بأن هذا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٤/ ١٨٩). (٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٠).
(٣) وهذه فضيحة كبرى لفرعون؛ إذ نسي دعواه بالربوبية. أيسر التفاسير (٢/ ٦٢).
(٤) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٩٥). (٥) انظر: تفسير المنار (٩/ ٦٩).

الأمر مخطط له من قبل كما قال فرعون هذه الأمة[1]: هذا أمر قضي بليل.

➢ **الثالث عشر**: بطانة فرعون يعودون إلى إثارة فرعون ودفعه للبطش بموسى وقومه بقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

➢ **الرابع عشر**: إحياء موسى الأمل في نفوس بني إسرائيل المنكسرة؛ وذلك بتذكيرهم بقوة الله التي لا تقهر، وأنه مع صبرهم وتقواهم سوف يهلك عدوهم ـ وهذه بشارة عظيمة تضاف لما قد رأوا بأعينهم من معجزات وآيات ظاهرات ـ.

➢ **الخامس عشر**: ابتلى الله فرعون وقومه بمجموعة من العقوبات الإلهية لعلهم يذكرون فيتعظون، وهي: السنين[2]، ونقص الثمرات[3]، والطوفان[4]، والجراد[5]، والقمل[6]، والضفادع[7]، والدم[8]، تتبع الواحدة منها الأخرى، وتصدق اللاحقة منها السابقة.

➢ **السادس عشر**: من طبيعة الإنسان الضعف ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، فتراه حين نزول البلاء يفزع إلى الله بالدعاء والتضرع، فإذا انكشف ما به نسي وُعُودَه إلا من آمن وعمل صالحًا.

➢ **السابع عشر**: من سنن الله الثابتة إنزال العذاب بالمكذبين بعد إبلاغهم الحجة؛ حيث قصم الله فرعون وقومه بإغراقهم جميعًا في البحر، فلم ينج منهم أحد.

---

(١) هو أبو جهل، حينما قامت مجموعة من قريش يريدون تمزيق صحيفة المقاطعة المعلقة في الكعبة. انظر: سيرة ابن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٣٩٩).

(٢) السنين: الجدب والقحط.

(٣) نقص الثمرات: الجوائح التي تصيبها فلا تصلح بعدها.

(٤) الطوفان: الفيضانات المفرقة.

(٥) الجراد: حشرة تأكل الزروع والثمار.

(٦) القمل: القمل المعروف أو السوس في الحبوب.

(٧) الضفادع: حيوان برمائي يوجد كثيرًا في المياه والمستنقعات وأماكن الخصب.

(٨) الدم: دم الرعاف أو النزيف، أو تحول الماء المشروب إلى دم عبيط في أوانيهم وأفواههم آية لموسى ﷺ. انظر لكل ذلك: تفسير الرازي (١٤/ ٢١٤، ٢١٨)، معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢)، تفسير الوسيط (٢/ ٣٩٨ ـ ٤٠٢).

ثانيًا: سورة «يونس»:

ثم تأتي سورة «يونس» لتذكر تفصيلًا معينًا عن عقوبة فرعون وقومه، فتركز على أمرين عظيمين لم تذكرهما أي سورة أخرى وهما:

➢ **أولًا:** استجابة الله لدعاء موسى على فرعون وقومه.

➢ **ثانيًا:** اللحظات الأخيرة والحاسمة في حياة فرعون الطاغية.

الآيات: قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧٥ - ٩٢].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** كيف قال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ [يونس: ٧٧]، على طريق الاستفهام، وهم إنما قالوا ذلك على

طريق الإخبار والتحقيق المؤكد بـ (إن)، و(اللام)؛ لا على طريق الاستفهام، وقال في الآية التي قبلها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]؟

والجواب: فيه إضمار تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم: إنّ هذا لسحر مبين. ثم قال: «أسحر هذا»؟ أنكر ما قالوه، فالاستفهام من قول موسى - عليه الصلاة والسلام - لا مفعول لقولهم[(١)].

➢ **ثانيًا:** السحر لا يؤثر على المسحور إلا بتقدير الله؛ لأنه هو الصانع لكل شيء، والمدبر لكل أمر، ولا يمكن أن يُجلَبَ نفعٌ أو يُدْفَعَ ضرٌّ إلا بمشيئته، وهذا الذي جعل موسى يقول للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وهذه هي ثقة المؤمن بربه، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عملٌ غير صالح.

➢ **ثالثًا:** تفيد الآيات أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم قلة من أتباع فرعون وكان يُخشى من فتنتهم، وردهم عن اتباع موسى خوفًا من فرعون، وتأثير كبار قومهم المقربين وذوي المصالح عند أصحاب السلطان، فكان لا بد من إرشادهم إلى التوكل على الله - تعالى - ذي القوة المتين، وما سواها من القوى فباطل، فكان الجواب ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)] [يونس: ٨٥ - ٨٦].

➢ **رابعًا:** تذكر الآيات أن الله - تعالى - أمر موسى وقومه بالانحياز في مكان واحد استعدادًا للخروج، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها[(٣)].

➢ **خامسًا:** فإن قيل: كيف نَوَّعَ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، فثنى أولًا ثم جمع ثم أفرد؟

والجواب: خُوطب أولًا موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا ويختاراه للعبادة، ثم سبق الخطاب علمًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، ثم خص موسى - عليه الصلاة والسلام - بالبشارة تعظيمًا له - عليه الصلاة

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(١٩٩).
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٨).
(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٥).

والسلام ـ[1].

> **سادسًا:** الظلم ظلمات، ونحن نرى موسى يدعو على فرعون وقومه بعد استنفاد جميع أنواع وسائل الدعوة، فما كان من فرعون بعد كل هذه إلا أن بغى وزاد في الظلم والتجبر والطغيان؛ فاستجاب الله دعوة موسى وأخيه هارون، وأمرهما بالاستقامة وعدم التعجل في معاقبة الله للظالمين[2].

> **سابعًا:** في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، أضافها إليهما، والدعوة إنما صدرت من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكيف ذلك؟

والجواب: أن موسى عليه السلام كان يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، والتأمين دعاء في المعنى؛ فلهذا أضاف الدعاء إليهما.

فإن قيل: لو كان كذلك لقال تعالى: (دعوتاكما).

والجواب: لما كانت الدعوة مصدرًا اكتفى بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[3] [البقرة: ٧].

> **ثامنًا:** وأخيرًا تأتي اللحظات الحاسمة في حياة فرعون الطاغية حينما خرج موسى هاربًا من ظلمه، فيتبعهم بجنوده بغيًا وعدوًا، فيشق الله البحر لموسى وقومه، ويمن عليهم بالنجاة، ويدخل فرعون وجنوده وراءهم؛ فيطبق الله البحر عليهم، فيدرك فرعون الغرق، فيعلن إسلامه؛ ولكن هيهات لقد حيل بينه وبين قول: لا إله إلا الله! ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]؛ لأن هذا إيمانٌ وقت مشاهدة العذاب[4] لا يقبله الله؛ لما جرى من سنته سبحانه

---

(١) انظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(١٩٩).

(٢) قال القرطبي رحمه الله (٨/ ٣٧٥): وقد استشكل بعض الناس هذه الآية: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؟ والجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، دليله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. والله أعلم.

(٣) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٠٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٦).

في ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥].

ثالثًا: سورة «طه»:

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ
أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ
أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)
إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧)
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠)
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ
أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ
(٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩)
قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا
عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ
فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ
(٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ
كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا

كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى
يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ
أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ
قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى
فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ
فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم
مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا
رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى
لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ
﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٢٤ ـ ٨٤].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي من قول موسى عليه السلام حين بعث إلى فرعون مع اتحاد القضية في سورة «طه»، «الشعراء»، «القصص»، وقد وقع في كل سورة منها ما ليس في الأخرى، فكيف ذلك؟

فمثلًا: قوله تعالى في سورة **«طه»**: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

ومن قوله تعالى في سورة **«الشعراء»**: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٤].

وفي سورة **«القصص»**: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ

﴿إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٢ - ٣٥].

والجواب:

لا شك أن قصة موسى عليه السلام كانت بالمعنى لاختلاف اللسانين (العربي والعبراني)، والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد، إذًا فلا إشكال[١].

> **ثانيًا**: موسى عليه السلام يطلب من الله في أول لقاء عددًا من الأمور ليتقوى بها في منازلة فرعون هي:

أن يشرح صدره، وييسر أمره، ويحل عقدة من لسانه، ويرسل معه أخاه هارون ليشد به أزره، ويشركه في أمره، فاستجاب الله دعاءه وأعطاه سؤله.

> **ثالثًا**: يمتن الله على موسى عليه السلام أن نجاه من قتل فرعون له وهو صغير، ويمتن عليه **ثانية** بمحبته سبحانه له، وجعله محبوبًا لكل من يراه من أهل القلوب السليمة[٢]، وامتن عليه **ثالثة** أن نجاه من القتل بعد قتله للرجل القبطي، وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاءات، ولبث سنين في أهل مدين ثم جاء على قدر[٣] ليصطفيه الله بالرسالة، كما قال الله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

---

(١) يقول صاحب ملاك التأويل (٢/ ٨١٧)، وانظر: (١/ ٥٤٤) المصدر السابق: (إن المعنى قد يتوقف على الكمال على تعبيرين أو أكثر؛ لا سيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتقييد، والحقيقة، والمجاز، وغير ذلك من عوارض الألفاظ، فكيف ينكر اختلاف التعبيرين عن المعنى الواحد بألفاظ، وعبارات مختلفة؛ بل نقول: إنه لو كان المحكي قولًا عربيًّا وحكي بالمعنى لما استنكر اختلاف العبارة فكيف مع اختلاف اللسانين، والحاصل من قول موسى في هذه السور الثلاث من سؤاله ربه شرح صدره، وتيسير أمره، وإطلاق لسانه، وتشكيه منه، والتعاون بأخيه هارون عليه السلام، وخوفه أن يُكَذَّب، وذكره ما تقدم منه من قتل القبطي، على هذه القضيات السبع، دار المحكي من كلامه عليه السلام، وقد يرد في سورة منها بعض ذلك مما ليس في الأخرى، ولم يتعارض شيء من ذلك. وانظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(١٥٤).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] أن امرأة فرعون قالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾، فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٦، ٣٩٣).

(٣) قال مجاهد: أي: على موعد. وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة.

> **رابعًا**: جاءت كلمة (ليّنا) في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، لأول مرة، ولم تذكر في السورتين السابقتين؛ بل إنها لم تذكر كأمر من الله ـ تعالى ـ لنبي من الأنبياء قبل موسى عليه السلام؛ لأن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار، فلا بد من دعوتهما له بكلام رقيق لين سهل؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنفع(١).

> **خامسًا**: مناقشة هادئة تبدأ بعد أن قال موسى وهارون لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ ليشعر من أول الأمر بأن هناك إلهًا هو ربه، ثم إيضاح لرسالتهما ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، ثم ترغيب واستمالة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثير كبرياءه وطغيانه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾(٢) [طه: ٤٨].

وهذا الأسلوب الذي أرشدهم الله إليه أخذ بلب فرعون ومجامع فكره، مما جعله يستمر في المناقشة، ويثير الأسئلة، ويرد عليه موسى، وهكذا.

بينما السورتان السابقتان لا تثيران شيئًا من ذلك.

> **سادسًا**: سرعة الرد وإلجام الخصم الحجة الدامغة، مما يجعله يخرج عن طور المناقشة إلى أمور أخرى جانبية، مما يوحي لنا أن الرسل عليهم السلام لا يريدون من وراء ذلك إلا هداية أقوامهم؛ لا إعلام الخصم بقوة الفصاحة والبلاغة.

> **سابعًا**: اختيار الموعد والوقت الذي ضربه موسى لهم يدل على حسن تصرف ورجاحة عقل، فالموعد يوم الزينة، والوقت ضحى النهار.

يوم الزينة لأنه أكثر تجمعًا للناس، والوقت ضحى لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو وضوح الرؤية(٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦١).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٣٧).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٣٤٠).

➢ **ثامنًا**: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، والسحر حرام، فكيف أمرهم به مع عصمته؟

والجواب: أنه لما كان إلقاؤهم سببًا لظهور معجزته، وصدق دعوى نبوته، صار حسنًا بهذا الاعتبار(١)؛ بمعنى أن هذا الأمر قد جاء في ساعة لا بد فيها من معرفة ما عند الخصم من أدلة، والرد عليه لما يناسبه(٢).

➢ **تاسعًا**: في سورة «يونس» عرف كلمة «السحر»، وفي سورة «طه» ذكر «الساحر» معرفًا، فما الفرق بينهما؟

والجواب: في سورة «يونس» استفدنا معنى الاستغراق لجنس السحر كله وأنه باطل، وفي سورة «طه» استفدنا معنى الاستغراق لجنس الساحر كله كذلك، فالسحر سيبطل، والساحر لا يفلح(٣).

ثم وحّد كلمة «ساحر» ولم يجمع؟ والجواب: أن القصد من هذا الكلام إلى معنى الجنسية؛ لا إلى معنى العدد، فلو جمع لقيل: إن المقصود هو العدد(٤).

➢ **عاشرًا**: في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، يرد سؤالٌ: كيف قدم هارون على موسى؟

والجواب: قدمه لتتناسب الفواصل(٥)؛ (أي: رؤوس الآيات)، ومثلها قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦]، في «الأعراف» وسورة «الشعراء» لتكون الفاصلة فيها مساوية للفواصل قبلها.

وبإزاء «ساجدين قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠]، في سورة «طه». فهذا ونحوه مما يراعى في الفواصل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، فزيدت الألف لا للبدل من

---

(١) كشف المعاني لابن جماعة ص(٢٥٢). (٢) انظر: تفسير الرازي (٢٢/ ٨٢).

(٣) ثم تراه بعدها نكر كلمة «سحر» أولًا، ثم عرف بعدها، كأنه قال: إن الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه. انظر: تفسير الرازي (٢٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

(٤) تفسير الرازي (٢٢/ ٨٥).

(٥) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٢٨)، وانظر أيضًا في: درة التنزيل ص(١٥١).

التنوين؛ إذ لا تنوين مع الألف واللام؛ وإنما للتوافق بينهما وبين الفواصل التي قبلهما وبعدهما نحو «**تقتيلًا**» و«**تبديلًا**» و«**قريبًا**» و«**سعيرًا**» و«**نصيرًا**»، وبعدهما «**كبيرًا**» و«**وجيهًا**» و«**سديدًا**» و«**عظيمًا**» من سورة «الأحزاب»[1].

➢ **الحادي عشر**: قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢] من سورة «الأعراف»، ومثلها في سورة «الشعراء»[2]، وهنا في سورة «طه» قال: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، فلم كررت «رب» في السورتين، ولم تكرر في سورة «طه»؟.

والجواب: أنه إذا قيل: رب العالمين فقد دخل فيهم موسى وهارون، وهما دعوا إلى رب العالمين، وذكر في السورتين «الأعراف»، «الشعراء» ليدل بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهما بما جاءا به ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عن الله ـ تعالى ـ. فكأنه قيل: آمنا برب العالمين وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون.

وأما في سورة «**طه**»: فلم يذكر رب العالمين؛ لأنه ما كان الكلام يتم به آية كما تم في السورتين، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها فواصل سورة «**طه**»، فقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، وربهما هو رب العالمين، وكان القصد حكاية المعنى؛ لا أداء اللفظ على جهته[3].

➢ **الثاني عشر**: في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٢٣] من سورة «**الأعراف**»، وقال هنا في سورة «طه»، وأيضًا في سورة «الشعراء»: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩].

أظهر اسم فرعون في سورة «**الأعراف**»، وأضمره في سورتي «**طه**» و«**الشعراء**» فلماذا؟ وسؤالٌ آخر أيضا: قال: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وفي السورتين قال: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ [طه: ٧١]، فما وجه الاختلاف في ذلك؟

الجواب: أما عن إظهار الاسم في سورة «**الأعراف**» وإضماره في سورتي «**طه**» و«**الشعراء**»؛ فلأن الذكر العائد إلى فرعون بَعُد في سورة «**الأعراف**» ولم يبعد في

---

(١) درة التنزيل ص(١٥١)، البرهان في متشابه القرآن للكرماني ص(١٩٨).
(٢) سورة «الشعراء» آية (٤٧، ٤٨).
(٣) درة التنزيل ص(١٥١، ١٥٢)، انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٩٩).

سورتي «**طه**» و«**الشعراء**»؛ فلأن فرعون مذكور في سورة «طه» في جملة قومه من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ الآية [طه: ٥٧]، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ الآية [طه: ٦٤]، ومثله في سورة «الشعراء»، فلما بُعد في سورة «الأعراف» أعيد ذكره الظاهر(١).

وأما عن وجه الاختلاف في قوله: «**آمنتم به**» ومرة «**آمنتم له**» فلأن الهاء في «**آمنتم به**» غير الهاء في «**آمنتم له**»، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى، فالتي «في آمنتم» به تعود لرب العالمين؛ لأنه تعالى حكى عنهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وهو الذي دعا إليه موسى ﵇، وأما الهاء في «آمنتم له» فتعود لموسى ﵇، والدليل أنه جاء بعدها، ففي السورتين ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]؛ فالهاء في «**إنه**» هي التي في «**آمنتم له**» ولا خلاف أن هذه لموسى ﵇.

وأما ما جاء بعد قوله: «**آمنتم به**» قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فمعناه: إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد(٢).

< **الثالث عشر**: إيمان السحرة في ذلك الموقف يدل على شجاعة نادرة قل أن تحدث أمام أي طاغية، والعجب أن أحدًا لم يجرؤ على الإيمان مثلهم في ذلك الموقف، فكانوا رواد الطريق بحق.

< **الرابع عشر**: في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقبلها في سورة «**الشعراء**»، أما في سورة «**الأعراف**» فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤]؛ فما سبب اختصاص «**الأعراف**» بثم وسورتي «**طه**» و«**الشعراء**» بالواو؟.

والجواب: أن سورتي «**طه**» و«**الشعراء**» هما أكثر اقتصاصًا وبسطًا من سورة «**الأعراف**»، والواو يناسب ذلك؛ لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقًا لما قبلها كالتعقيب الذي يفيده الفاء.

ويجوز أيضًا أن يكون متراخيًا عنه كالمهلة التي تفيده (ثم)، لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدمًا على ما قبلها، ومجامعًا لها؛ إذ هي موضوعة للجمع ولا

---

(١) درة التنزيل ص(١٥٢، ١٥٣) بتصرف. (٢) المصدر السابق ص(١٥٣) بتصرف.

ترتيب فيها؛ فكانت الواو أشبه بهذين المكانين، وثم تختص بأحد المواضع التي يصلح الواو لجميعها، فلما كان مقتصرًا على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال، فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه[1].

➢ **الخامس عشر**: السحرة يتحدون فرعون بعد إيمانهم حين هددهم بقولهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢]، فما معنى (الواو) هنا؟

والجواب: أنها معطوفة على البينات، فيكون المعنى: لن نختارك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وما حصل لنا من الهدى، كما أننا لن نختارك على فاطرنا وخالقنا المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

أو أن (الواو) هنا للقسم، فيكون معناها: والذي فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات[2].

➢ **السادس عشر**: في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] مسألة، ما فائدة قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وهو معلوم من قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾؟

والجواب: التصريح بكذبه في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، والتهكم به.

➢ **السابع عشر**: وأخيرًا تصوير القرآن لتحدي سحرة فرعون له، ووقوفهم في وجهه بقول كلمة الحق علانية دون خوف أو رهبة، فسبحان مقلب القلوب!!! كانوا قبل قليل من إلقاء سحرهم يَسْتَجْدُون فرعون، ويخضعون له، ويطلبون الدنيا من يديه، وفجأة تحولوا إلى مؤمنين يدافعون عن إيمانهم الذي خالطت بشاشته قلوبهم بقولهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

* يقول صاحب الظلال: «إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تحنو لفرعون، وتَعُدّ القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه»[3].

---

(١) درة التنزيل ص(١٥٥، ١٥٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٧)، تفسير الرازي (٢٢/ ٨٩).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٤٣).

رابعًا: سورة «الشعراء»:

جاءت سورة «**الشعراء**» تحدثنا عن خبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، وقد لاحظنا من قبل أن سورة «الأعراف» ذكرت قصة موسى بعد ذكر قصص كثير من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فذكر تعالى فيها مشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرًا، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعًا، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك، وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة، ثم استطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل إلى ما بعد مجاوزتهم للبحر في حلقات كثيرة، واختصر هذا هنا فلم يشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله - تعالى -.

وفي سورة «**يونس**» اختصر مشهد المواجهة ولم يعرض فيه آيتي العصا واليد، وذكر مشهد المباراة مختصرًا، بينما توسع هنا في كليهما.

وفي سورة «**طه**» توسع في عرض مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه، ثم استطرد مع بني إسرائيل فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلًا، بينما لم يجاوز هنا غرق فرعون ونجاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه.

ومع كل ذلك لا نجد تكرارًا في عرض أي منها على كثرة ما عرضت في سور القرآن؛ لأن هذا التنويع في اختيار المشاهد التي تعرض في الجانب المختار من كل مشهد وطريقة عرضه، كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع[1].

الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم:

قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/٢٥٨٨، ٢٥٨٩).

رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ
﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ
﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾
فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى
الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ٦٨].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: في الآيات يأمر الله موسى بإتيان القوم الظالمين **(قوم فرعون)**، بينما كان الأمر لموسى في سورتي «**الأعراف**» و«**يونس**» إلى فرعون وملئه.

ثم كان الإرسال في سورة «**طه**» إلى فرعون وحده، وهذا التنوع الفريد لا نجده

إلا في القرآن العزيز وبدون تكرار للقصة، كما ذكرنا ذلك من قبل[1].

> ثانيًا: الآيات تصف الحال النفسية لموسى عليه السلام قبل الذهاب إلى فرعون، فالخوف من التكذيب أولها، وما سيعتريه من ضيق الصدر ثانيها، وألا ينطلق لسانه ثالثها، ولهذه الأمور الثلاثة طلب من ربه أن يرسل إلى هارون ليكون معه يهون عليه ويشد أزره[2].

* قال الرازي: «اعلم أن الله ـ تعالى ـ لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هارون إليهم، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال، وحاصلها أنه لو لم يكن هارون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام، وذلك من وجهين:

الأول: أن فرعون ربما كذبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة، ومن المعلوم أن التأذي من التكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان، وأما هارون فهو أفصح مني لسانًا، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقًا.

الثاني: أن لهم عندي ذنبًا فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذٍ لا يحصل المقصود من البعثة، وأما هارون فليس كذلك، فيحصل المقصود من البعثة»[3].

> **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فأفرد كلمة «رسول» وثنى في سورة «**طه**» بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، فكيف؟

والجواب: أن الرسول يكون بمعنى المرسل، فتجوز تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التي هي المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر:

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١]. وعطف قوم فرعون على ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف بيان، كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد. تفسير الرازي (١٢١/٢٤).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٢٥٨٩/٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١٢٢/٢٤)، وانظر: في ظلال القرآن (٢٥٨٩/٥).

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم   بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول[1]

> رابعًا: في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، قالها معتذرًا عن قتل القبطي، والنبي لا يكون ضالًّا، فكيف؟

والجواب من وجهين:

الأول: أي: من المخطئين؛ لأنه ما تعمد قتله، كما يقال: ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ.

الثاني: من الناسين؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[2] [البقرة: ٢٨٢].

> **خامسًا**: في قوله تعالى حينما سأل فرعون موسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، لماذا لم يقل: ومن رب العالمين؟

والجواب: أنه كان أعجمي القلب عن معرفة الله ـ تعالى ـ؛ منكرًا لوجوده، فكيف ينكر عليه العدول عن (من) إلى (ما)؟!

وجواب آخر: أن (ما) تطلق على المميز أيضًا، ولا تختص بغير المميز، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[3] [الكافرون: ٣].

> **سادسًا**: في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، علق موسى كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما على شرط كون فرعون وقومه موقنين، وهذا الشرط منتفٍ والربوبية ثابتة، فكيف صح التعليق؟

والجواب: أن معناه: إن كنتم موقنين أن السموات والأرض موجودة، وهذا الشرط موجود.

---

(١) برسول: أي برسالة. انظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٦٨). والبيت لكثير عزة. انظر: ديوانه ص(٥٤) من قصيدة مطلعها.

«ألا حييا ليلى أجد رحيلي   وآذن أصحابي غدًا بقفول»

قافية اللام. وانظر: خزانة الأدب (١٠/ ٢٨٧).

(٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٦٨).

(٣) المصدر السابق ص(٣٦٨).

> **سابعًا:** في آية ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].
وفي آية ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].
فكيف قال مرة: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وقال أخرى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

والجواب: أنه لاطفهم ولاينهم أولًا، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم ورد على قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

> **ثامنًا:** في قوله تعالى: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] أليست (لأسجننك) أخصر، فكيف عدل عنها؟

والجواب: كان مراده العهد، فكأنه قال: لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجني. وكان فرعون ـ عليه اللعنة ـ إذا سجن إنسانًا طرحه في هوة عميقة جدًّا مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية[2].

> **تاسعًا:** في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال في سورة «الأعراف»: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠].

فأخبر في الثانية أن قائل ذلك الملأ من قومه، وفي الأولى أن فرعون هو القائل ذلك لملئه، فكيف يتوافق الخبران؟

الجواب: أن يقال: إن قول الملإ فيما حكاه الله في سورة «الأعراف» قول فرعون، ورؤساء قومه أدوا عنه ما كان من قوله إلى عامة أصحابه، والدليل على ذلك قول العامة في جوابه: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٦]، فكان هذا خطابًا لفرعون ولم يكن للملإ؛ إذ لو كان لهم لقيل: أرجوه وأخاه، وإذا كان كذلك لم يخالف ما قاله في سورة «**الشعراء**» من أنه قال للملإ حوله ليؤدوا إلى من بعد عنه.

فإن قيل: فكيف اختصت سورة «**الشعراء**» بما قال فرعون، وسورة «الأعراف» بحكاية ما قال الملأ؟

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٧٠).
(٢) المصدر السابق ص(٣٧٠)، وانظر: تفسير البغوي (٦/ ١١١) وعزاه للكلبي، والكشاف (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩)، تفسير القرطبي (١٣/ ٩٩)، البحر المحيط (٧/ ١٤).

فالجواب: أن أول من رد قول موسى عليه السلام فرعون، ثم مالأه عليه ملؤه، وهو ما حكاه الله ـ تعالى ـ في سورة «**الشعراء**»، فاقتضى حاله حيث أخبر عنه بما قاله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ الآيات [الشعراء: ١٨]، إلى ذكر السحرة، فقال فرعون للملإ حوله ما أدّوه عنه إلى غيرهم.

وسورة «**الشعراء**» مكية كسورة «**الأعراف**»، وترتيب الاقتصاص يقتضي أن يكون قبلها، وفي سورة «**الأعراف**» أخبر عما أداه ملؤه إلى الناس، فكان قول فرعون للملإ حوله سابقًا قول الملإ الذين أدوا إلى غيرهم[1].

> **عاشرًا:** في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]، وقال في سورة «**الأعراف**»: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]. فزاد كلمة «بسحره» في الأولى مع أن القول واحد، فلماذا اختلف؟

والجواب: أنه لما أسند الفعل إلى فرعون في الآية الأولى وأنه قال للملأ من قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وكان أشدهم تجبرًا وتمردًا على الحق كان في قوله ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الشعراء: ٣٥]، ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج وهو بسحره، فأشبع المقال بعد قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بأن ذكر أنه يريد إخراجكم بسحره.

وأما الموضع الذي لم يذكر فيه بسحره فهو ما حكي من قول الملإ في سورة «**الشعراء**»؛ حيث قال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥]، والملأ لم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما أورده موسى عليه السلام، ولم يَجْفُوا في الخطاب جَفاه، فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السحر من لفظه بعدما أخرجه في صفته؛ حيث قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[2].

> **الحادي عشر:** في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وفي سورة «**الأعراف**» قال: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، فمرة قال: «**وابعث**»، ومرة قال: «**وأرسل**»؛ فلأي معنى اختلف اللفظان في الآيتين؟

---

(١) درة التنزيل ص(١٤٥، ١٤٦).

(٢) المصدر السابق ص(١٤٦، ١٤٧).

والجواب: أن «**بعث**» بمعنى: أرسل، فاستعمل إحداهما مكان الأخرى[1].

وعند ابن جماعة أن «**أرسل** » أكثر تفخيمًا من «**ابعث** » وأعلى رتبة؛ لإشعاره بالفوقية.

ففي سورة «**الأعراف**» حكى قول الملأ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة تفخيمًا له.

وفي سورة «**الشعراء**»: كان هو القائل لهم، فناسب تنازله معهم، ومشاورته لهم، فقالوا له: «وابعث»[2].

➢ **الثاني عشر**: في قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]، وفي سورة «**الأعراف**»: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢]، فمرة قال: «سحار»، ومرة قال: «ساحر»؛ فلماذا اختلف اللفظان؟

الجواب: أنه تقدم في سورة «**الشعراء**» قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

فلتقدم قولهم: «بسحره» ناسب أن يقال: «سحّار» بصيغة المبالغة[3].

* وقال صاحب التحرير والتنوير: «إن كلمة «سحّار» مرادف للساحر في الاستعمال؛ لأن صيغة فعال هنا للنسب دلالة على الصناعة؛ مثل: النجار والقصار؛ ولذلك أتبع هنا وهنالك[4] بوصف «عليم»؛ أي: قوي العلم بالسحر»[5].

➢ **الثالث عشر**: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وفي سورة «**الأعراف**» قال: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

للسائل أن يقول: كيف جاز ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾ وحق الكلام أن يكون في «**قالوا**» (واو) أو (فاء)، نحو: جاء السحرة فرعون فقالوا: أئن لنا لأجرًا أو **وقالوا**؟

---

(١) أي: مترادفان، كما في التحرير والتنوير (٩/ ١٢٤).
(٢) كشف المعاني ص(١٨٦). وانظر: درة التنزيل ص(١٤٨).
(٣) كشف المعاني من تفسير سورة الشعراء. (٤) أي: سورة «الأعراف».
(٥) التحرير والتنوير (٩/ ١٢٥).

والجواب: أن يقال: لما تقدم في سورة «الشعراء» ما شرْحُه أكثر، وما في سورة «الأعراف» أوجَز وأخصَر، فكان قوله في «الأعراف»: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، بمعنى ما كان بإزائه في سورة «الشعراء» ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، فلم يحتج في جواب (لما) إلى (فاء) ولا (واو)، وكذلك في سورة «الأعراف» لما قصد هذا المعنى دل بحذف العاطف على هذا القصد، فكأنه قال: فلما جاء السحرة فرعون قالوا: أئن لنا لأجرًا[1].

> الرابع عشر: في قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، وقال في سورة «الأعراف»: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤].

للسائل أن يسأل عن زيادة «إذًا» في سورة «الشعراء» وخلو سورة «الأعراف» منها؟

والجواب: أن معنى قوله: «إذًا» جواب وجزاء؛ حيث قال فرعون للسحرة: إن غلبتم فجزاي أن أجازيكم بإعلاء رتبتكم وتقريبكم؛ فلأجل ذلك أفعل هذا بكم.

فاختصت سورة «الشعراء» بهذا دون غيرها[2].

> الخامس عشر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وقال في سورة «الأعراف»: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقال في سورة «طه»: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

للسائل أن يقول: قال في سورة «الأعراف»: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل ذلك في «طه»، ولِمَ أدخلَ الفاء في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؟

وأما في سورة «الشعراء» فإنه أتى بـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مع اللام فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فما وجه اختلاف هذه واختصاص بعض بمكان دون غيره؟

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من الوعيد المبهم المعرّض به.

ومعناه: أنك فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته، وطرحت بذر شر عند حصده تعلم نهايته. وهذا النوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بعذره، على أنه قد

---

(١) درة التنزيل ص(١٤٩، ١٥٠).
(٢) المصدر السابق ص(١٥٠).

قرن إليه بيانه وهو ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فنطق القرآن بحكاية التعريض بالوعيد والإفصاح بالتهديد معًا.

وأما في سورة «**الشعراء**» فجمعت بين لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له وقوعه إلى اللفظ المفصح بمعناه، فاللام في «فلسوف» لتقريب ما خوفهم به من إطلاعه عليهم وقربه منهم، حتى كأنه في الحال موجودٌ، فاللام إذًا للحال.

وأما الجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو لتحقيق الفعل وإدنائه من الوقوع.

وأما ما في سورة «طه» فإنه قد اقتصر على التصريح بما أوعدهم به، وترك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]؛ إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ويقارب ما جاء في سورة «الشعراء» التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى نهايتها بقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]؛ فاللام والنون في لتعلمن للقسم وهما لتحقيق الفعل وتوكيده، كما في اللام في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ [الشعراء: ٤٩] لإدناء الفعل وتقريبه، فقد تجاوزها في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل(١).

> **السادس عشر**: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وفي سورة «**الأعراف**» قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، للسائل أن يسأل عن زيادة «لا ضير» في سورة «الشعراء»؟

الجواب: أنهم قابلوا وعيده بما يهونه ويزيل ألمه من أنهم سينتقلون إلى ثواب الله المعَدّ للطائعين الثابتين على الحق، فجاء ذلك في سورة «الشعراء» التي قلنا من قبل: إنه قصد بها الاقتصاص الأكبر. «لا ضير» أي: لا ضرر علينا؛ فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا فننعم أبدًا، وتعذب أنت أبدًا؛ فما سيلحق بنا من ضرر ما هو إلا زمن يسير لا يعتد به أمام دوام النعيم، فكأنه لم يلحقنا ضرر.

وفي سورة «**الأعراف**» اقتصر على قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، وفيه كفاية وإبانة عن هذا المعنى الذي شرحه وبينه في غيرها(٢).

---

(١) درة التنزيل ص(١٥٤، ١٥٥).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(١٥٦).

➢ **السابع عشر**: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣].

تراه في هذه السورة هو الذي يرسل وبدون مشورة كما كان يستشير من قبل؛ لأن القضية عنده قضية حياة أو موت، فأرسل هو، وقاد هو، وأضل قومه وما هدى.

خامسًا: سورة «النمل»:

تذكر سورة «النمل» طرفًا من قصة موسى عليه السلام بعد مقدمة السورة وفيها:

١ ـ رؤيته للنار وذهابه إليها.

٢ ـ نداؤه من الملأ الأعلى.

٣ ـ تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه.

٤ ـ تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها، وعاقبة التكذيب مع اليقين في عجالة سريعة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ٧ ـ ١٤].

● **ما اختصت به آيات سورة «النمل» من لطائف:**

➢ **أولًا**: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

يرد سؤال هو: كيف قال تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ مع أنه لم يكن في النار أحد؛ بل لم يكن المرئي نارًا؛ وإنما كان نورًا في قول الجمهور؟

والجواب: أن معنى ذلك أن الله أسمعه النداء من النار.

وجواب آخر: أن «من» زائدة، والتقدير: بورك في النار وفيمن حولها؛ وهو موسى عليه السلام أو الملائكة.

وثالث: أن معناه: بورك من في طلب النار؛ وهو موسى عليه السلام. فلو قيل: إنما يقال: بارك في كذا، ولا يقال: بارك الله كذا؟

والجواب: أن العرب تقول: باركه الله، وبارك له، وبارك فيه، وبارك عليه؛ بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ [الصافات: ١١٣]، وفي لفظ التحيات: (وبارك على محمد وعلى آل محمد)[1].

> **ثانيًا**: في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠ ـ ١١].

كيف توجه صحة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾؟

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه استثناء منقطع؛ بمعنى: لكن من ظلم من غير المرسلين، ثم بدل سيئة بحسنة، ومحا خطيئته بتوبة، فالله غفور رحيم.

الوجه الثاني: أنه استثناء متصل؛ معناه: إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة؛ فإنه يخاف مما فعله، مع علمه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فيكون التقدير: إلا من ظلم منهم فإنه يخاف ممن ظلم، ثم بدل حسنًا بعد سوء فإني غفور رحيم.

الوجه الثالث: أن «إلّا» بمعنى: ولا، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: ولا الذين ظلموا منهم.

والوجه الرابع: أن تقديره: إني لا يخاف لدي المرسلون ولا غير المرسلين إلا من ظلم.

وفي نفس الآية أيضًا: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وفي سورة **القصص**: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

يرد سؤالان:

أولهما: قد ذكر الله ـ تعالى ـ عصا موسى عليه السلام بلفظ: الحية العظيمة والثعبان والجان، وبين الثعبان والجان تنافٍ.

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٧٧).

فالجانّ: الحية الصغيرة، والثعبان: الحية العظيمة، فكيف يوفق بين ذلك؟

والجواب: أنه أراد بها صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١].

وجواب آخر: أنها كانت في أول انقلابها تنقلب حية صغيرة، ثم تتورم ويتزايد حجمها حتى تصير ثعبانًا، فأراد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها[١].

ثانيهما: مرة قال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، ومرة قال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]، ومرة قال: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، ومرة قال: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، ومرة قال: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، وغيرها كثير في توجيه اختلاف المقال، وكلها كانت في مقام واحد؟

* قال الخطيب الإسكافي مجيبًا على ذلك: «إن الله - تعالى - لم يخبر أنه خاطب موسى عليه السلام باللغة العربية بألفاظ إذا عدل إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافًا في القرآن قادحًا فيه؛ بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة، وأنه تعالى أخبر في بعض السور ببعض ما جرى وفي أخرى بأكثر مما أخبر به في التي قبلها، وليس يدفع بعضها بعضًا»[٢].

* وقال في موطن آخر: «إنه لا يشترط في الحكايات إذا أديت معانيها دون ألفاظها استيعاب جميعها في مكان واحد؛ بل يجوز أن تفرق في أماكن كثيرة»[٣].

غير أنه لا مانع من الاجتهاد في إيضاح الفرق في كل منها.

فهنا في سورة «**النمل**» ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، وفي سورة «**القصص**» ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]؛ لأن في سورة «**النمل**» ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ٨ - ١٠]، فحيل بينها بهذه الجملة، فاستغنى عن إعادة (أن).

---

(١) تفسير الرازي (٢٤/ ١٣١)، انظر: كشف المعاني ص(٢٨٢).

(٢) درة التنزيل ص(٢٣٣). وقال الرازي: فائدة التكرار تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز، وأيضًا إكرام الله - تعالى - لصحابة النبي ﷺ بإعادة الوحي لهم في صورة أخرى تشريفًا لهم وتفضيلًا. انظره: ص(٣٧٠) من تفسيره المسمى بـ «أنموذج جليل».

(٣) المصدر السابق ص(٢٧٠)، وانظر: ملاك التأويل (٢/ ٨١٧).

وفي سورة «**القصص**» ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

فلم يكن بينهما جملة أخرى عطف بها الأول، فحسن إدخال (أن)[1]، وفي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ [النمل: ١٠]، وفي «القصص» ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: ٣١]، فما الفرق؟

والجواب: خصت هذه السورة «النمل» بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ لأنه بني على ذكر الخوف كلام يليق به؛ وهو قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

أما ما في سورة «**القصص**» فاقتصر على قوله: «لا تخف» ولم يبنَ عليه كلام، فزيد قبله «أقبل» ليكون في مقابلة «مدبرًا».

أي: أقبل آمنًا غير مدبر ولا تخف، فخصت سورة «**القصص**» به.

أيضا: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ الآية [النمل: ١٢]، وفي سورة «**القصص**» قال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ [القصص: ٣٢]، فما الفرق؟

والجواب: خصت هذه السورة بـ «أدخل» لأنه أبلغ من قولك: «اسلك»؛ لأن «اسلك» يأتي لازمًا ومتعديًا، و«أدخل» متعد لا غير، وقال في هذه السورة: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ١٢]، أي: مع تسع آيات مرسلًا إلى فرعون، وخصت القصص بقوله: «اسلك» موافقة لقوله «واضمم»، ثم قال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣٢]، فكان دون الأول، فخص بالأليق من اللفظين[2].

في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وجاء في سورة «القصص» ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

فمرة قال: ﴿فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُۥ﴾، ومرة قال: ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾، فما الفرق؟

والجواب: أن الأهم أشراف القوم، وكانوا في هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ الآية [النمل: ١٣ - ١٤].

فلم يسمهم ملأ؛ بل سماهم قومًا، فخصت السورة به.

أما في سورة «القصص» فلم يكونوا موصوفين بتلك الصفات، فسماهم ملأ،

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٨٦). (٢) المصدر السابق ص(٢٨٧).

فخصت السورة بذلك، ولما قال بعده: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1] [القصص: ٣٨].

➢ **ثالثًا:** في قوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ١٢]، هذا العدد يذكر هنا لأول مرة مجملًا، وفي سورة «الأعراف» ذكرت مفصلة.

➢ **رابعًا:** في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، تبين السورة أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات، وما جحدوا بها لأنها غير وافية ولا كافية فقد استيقنتها أنفسهم وعلموا أنها الحق، فلماذا جحدوا بها؟

القرآن يجيب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، جحودًا ومكابرة؛ لأنهم لا يريدون الإيمان ولا يطلبون البرهان؛ استعلاءً على الحق؛ وظلمًا له ولأنفسهم[2].

وما أشبه هذه الآية بآية سورة «**الأنعام**» التي وصفت حال قريش في تكذيبهم للنبي ﷺ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

سادسًا: سورة «القصص»:

تبدأ سورة القصص بذكر واقع الحال وما هو مقدر في المآل، لتقف القوتان وجهًا لوجه:

الأولى: قوة فرعون في دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ، وهذه القوة المنفتشة المنتفخة التي تَبدو للناس قادرة على فعل الكثير.

والثانية: قوة الله الحقيقية التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي ترهب الناس[3].

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٨٧). (٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٠).
(٣) المصدر السابق (٥/ ٢٦٧٤).

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ
إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا
وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ
عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ
نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا
مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى
فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا
لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ
أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ
لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى
عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ
ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ
عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ

فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ
ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ
جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي
ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ
عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ
ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ
ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا
فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ
لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا
يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا
يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ
يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٤٣].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** تعرض الآيات ولأول مرة[١] بالتفصيل مولد موسى، وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته.

> **ثانيًا:** ثم عرضت فتون موسى، وما آتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطي، وتآمر فرعون وملئه عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين،

---

(١) أشارت سورة «طه» باختصار إلى مولد موسى عليه السلام، وكانت الآيات تتحدث في معرض امتنان الله على موسى عليه السلام بنعمه.

وزواجه فيها، وقضاء سنوات الخدمة بها، وهي السورة الوحيدة التي ذكرت المكان الذي هرب إليه عليه السلام.

➢ **ثالثًا:** ثم عرضت نداء الله له، وتكليفه بالرسالة، ثم مواجهة فرعون وملئه، وتكذيبهم لموسى وهارون، ثم ذكر غرقه في إيجاز سريع[(١)].

➢ **رابعًا:** في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧].

يرد سؤال مهم هو: ما فائدة وحي الله ﷻ إلى أم موسى بإرضاعه وهي ترضعه طبعًا؛ سواء أمرت بذلك أم لا؟

والجواب: أنه أمرها بالرضاعة ليألف لبنها، فلا يقبل ثديًا غير ثدي أمه إذا وقع في يد فرعون، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود[(٢)].

➢ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى﴾ [القصص: ٧].

والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق قولنا: إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء، فيلزم صدق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى﴾، وأنه يشبه المتناقض[(٣)].

والجواب: فإذا خفت عليه من القتل فألقيه في البحر، ولا تخافي عليه من الغرق، ولا تناقض بينهما إذًا[(٤)].

➢ **سادسًا:** في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: ٧] عطف أحدهما على الآخر، فما الفرق بينهما؟

والجواب: أن الخوف غَمٌّ يصيب الإنسان لأمر يتوقعه في المستقبل، والحزن غَمٌّ يصيبه لأمر قد وقع ومضى[(٥)].

➢ **سابعًا:** في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٧٦).

(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٨٦).

(٣) بمعنى: أن الشرط إذا تعلق به جزاءان يلزم صدق قولنا: إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء، فلو اخترت واحدًا للزم من ذلك التناقض.

(٤) انظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٨٦).

(٥) المصدر السابق ص(٣٧٦).

﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ ـ ١٦].

فكيف جعل موسى قتله للكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلمًا لنفسه، واستغفر منه؟

والجواب: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في قتله، فكان ذلك ذنبًا يستغفر منه مثله.

* قال ابن جريج[1]: «ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر»[2].

➢ ثامنًا: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

يرد ثلاثة أسئلة:

أ ـ موسى عليه السلام ما سقى لابنتي شعيب طلبًا للأجر فكيف أجاب دعوتها؟

والجواب: أنه يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله ـ تعالى ـ على سبيل البر والمعروف ابتداءً؛ لا على سبيل الأجر[3].

ب ـ كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية عنه؛ فإن ذلك يورث التهمة العظيمة؟

والجواب: أن المرأة ما كانت إلا مخبرة عن أبيها، ولا مانع من الأخذ بذلك في الشرع، وأما المشي معها فلا بأس به مع الاحتياط والتورع[4].

ج ـ كيف ساغ للرجل الصالح (الشيخ الكبير) أن يرضى لابنتيه سقي الماشية؟

الجواب: أن الحال حال ضرورة؛ لأنه لا يوجد عنده غيرهما، والأمر في

---

(١) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الإمام العلامة الحافظ، شيخ الحرم المكي، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، مولى أمية بن خالد، حدث عن عطاء فأكثر وجوّد، وعن ابن أبي مليكة ونافع مولى ابن عمر وطاووس وغيرهم، تفرد بالإمامة بعد عطاء ومجاهد، فدون العلم، وحمل عنه الناس، قيل: كان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام من الشهر، مات سنة ١٥٠ هـ، وقيل: ١٥١ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٣٥).

(٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٨٦).

(٣) المصدر السابق ص(٣٨٧).

(٤) تفسير الكشاف (٣/ ٤٠١)، وانظر: تفسير الرازي (٢٤/ ٢٤١).

نفسه ليس بمحظور، والدين لا يأباه؛ خاصة مع الوقار والحشمة.

➢ **تاسعًا:** في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [القصص: ٢٧]، يرد سؤال هو: كيف قال له الرجل الصالح (الشيخ الكبير) ذلك بدون تعيين، ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوحة، والنبي لا ينكح نكاحًا فاسدًا؟.

والجواب: أنه كان وعدًا بنكاح معينة عند الواعد، وإن كانت مجهولة عند الموعود، ومثله جائز، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه[1].

➢ **عاشرًا:** في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وفي سورة «طه» قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠]، وفي سورة «النمل» قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، فمرة يقول: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾، ومرة يقول: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩]، فأحدهما ترجي والآخر تيقن، فلماذا اختلفت الألفاظ في موقف واحد؟

والجواب: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا؛ مع تجويزه الخيبة.

فإن قيل: كيف جاء بالتسويف؟ فالجواب: أنه وعد أهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قيل: فلم جاء (بأو) دون (الواو)؟ فالجواب: أنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بالله في أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده. وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر بحاجتيه، وقد حصل له ذلك بأن جمع الله له عز الدنيا وعز الآخرة[2]، إذًا فالخبر الذي سيأتي موسى به هو أن يجد على النّار ما يهديه ويخبره أن الطريق هو ما عليه أو غيره، ووجود الهدى وأن يخبر بخبر اهتدائه في طريقه أو غيره شيء واحد لا اختلاف فيه[3].

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٣/ ٣٤٩)، تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٧٧).

(٣) درة التنزيل ص(٢٣٣)، ص(٢٧٠).

وخلاصة ذلك: أن موسى ﷺ كان في وضع نفسي متعدد مع أهله، فتارة يعبر بحرف الترجي (لعل)، وتارة يود أن يطمئن أهله بأنه آتيهم لا محالة بما هو خيرٌ لهم، فكان لا بد إذًا من إدخال الراحة والطمأنينة على قلوبهم، فكان حرف (السين) أليق في الاستعمال في كل ذلك، فلا هو يقطع بالأمر، ولا هو يريد أن يؤكد لهم النتيجة، فربما يرجع بدون شيء، إذًا تارة يذكر الترجي، وتارة يجزم بتأكيد القضية، فيكون بهذا قد أعد أهله لجميع الاحتمالات[1].

➢ **الحادي عشر**: في قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، جعل الجناح هنا مضمومًا، وقال في سورة «طه»: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [طه: ٢٢]، فجعل الجناح مضمومًا إليه والقصة واحدة، فكيف؟

والجواب: أن المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة «طه» ما بين العضد إلى الإبط اليسرى، فلا تناقض بينهما[2].

➢ **الثاني عشر**: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤]، يرد سؤال: ما فائدة تصديق هارون لموسى ﷺ حتى قال ذلك؟

والجواب: أنه ليس المراد بقوله: «يصدقني» أن يقول له: صدقت في دعوة الرسالة؛ فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة؛ بل مراده أن يلخص حججه بلسانه، ويبسط القول فيها ببيانه، ويجادل عنه بالحق فيكون ذلك سببًا لتصديقه[3].

➢ **الثالث عشر**: قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]، فإن قيل: بين تعالى أن السلطان هو بالآيات، فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات؟ أو ليس فرعون قد وصل إلى صَلْب السحرة وإن كانت الآيات ظاهرة؟

فالجواب: أن الآية التي هي قلب العصا حية، كما أنها معجزة فهي أيضًا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون ﷺ، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم، زجرهم ذلك عن الإقدام

---

(١) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته.
(٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٨٧).
(٣) المصدر السابق ص(٣٨٨).

عليهما، فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره، وصارت آية ومعجزة، فجمعت بين الأمرين.

أما صَلْب السحرة ففيه خلاف؛ فمنهم من قال: ما صلبوا، وليس في القرآن ما يدل على ذلك، وإن سلّمنا فالله ـ تعالى ـ قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]، فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما، وإيصاله إلى غيرهما لا يقدح فيه[١].

> **الرابع عشر**: في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

دلت الآية ـ ولأول مرة في طريقنا لتتبع الآيات في قصة موسى ـ على خبث فرعون حين قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وهذا في الحقيقة يشتمل على أمرين:

الأول: نفي إلهٍ غيره.

الثاني: إثبات إلهية نفسه[٢]، فكانت كلمته هذه أشد من قوله من قبل: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وهو مع كفره وعناده يظن أن لا إله في السماء، فقال لوزيره: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، وهذه كلمة لم ترد من قبل، ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، كأنه توهم أنه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الرقي إليه[٣]، مع أنه كان عارفًا بالله ـ تعالى ـ، وأنه كان يقول ذلك ترويجًا على الأغمار من الناس[٤].

> **الخامس عشر**: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]؛ أي: صيرناهم في عهده ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: إلى ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي، فكانوا قدوة يقتدي بهم أهل الضلال[٥]، فانظر الفرق بين هذه وبين آية سورة «الأنبياء» ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ

(١) تفسير الرازي (٢٤/ ٢٥٠).
(٢) المصدر السابق (٢٤/ ٢٥٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٧/ ١٤).
(٤) تفسير الرازي (٢٤/ ٢٥٢).
(٥) تفسير أبي السعود (٧/ ١٤).

إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وآية سورة «السجدة» ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

سابعًا: سورة «غافر»:

سورة «غافر» وتسمى سورة «المؤمن» وحديثنا فيها عنه، وعن نصائحه، ومجادلته لفرعون وقومه، في صورة تتناسب مع سياق السورة وجو السورة المتمثل في الأخذ والرد والشدة واللين وكأنه جو معركة، وسنعرض أولًا لآياتها، ثم نذكر ما اشتملت عليه من لطائف باختصار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ

هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٤٩].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** تذكر الآيات مكذبًا آخر لم تذكره السور السابقة مع فرعون وهامان وكان في عصر موسى عليه السلام هو قارون[١].

> **ثانيًا:** تعرض الآيات ـ ولأول مرة ـ قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه وهو يدفع ما همّوا بقتله، ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأمر، ثم في صراحة ووضوح في النهاية.

> **ثالثًا:** جادل الرجل المؤمن فرعون، ثم عرض له أثناء ذلك حجج الحق وبراهينه القوية الناصعة، ثم حذرهم يوم القيامة، ومثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر يحتاجه الدعاة في كل زمان، ثم ذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته.

> **رابعًا:** اشتملت الآيات على تهديد لم تذكره السور السابقة أطلقه فرعون يوهم فيه العامّة من قومه أنهم أيضًا يشاركونه في الحكم، سجله القرآن في قوله تعالى على لسانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]؛ أي:

---

(١) سنفرد له بحثًا مستقلًا بعنوان «عقوبة قارون».

خلوا بيني وبينه، وكأنهم هم الذين يمنعونه من ذلك، مع أنه يوقن وهم يوقنون أن ليس بأيديهم شيء، وهذا هو منتهى المكر والخداع الذي يطلقه الجبابرة في كل زمان.

◄ **خامسًا:** في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، يرد سؤال هو: كيف قال الرجل المؤمن في حق موسى عليه السلام ذلك مع أنه يعلم أنه صادق، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم به؟

والجواب:

أنها على أصلها؛ أي: أنه وعدهم النجاة إن آمنوا، والهلاك إن كفروا، فهم على إحدى الحالين لا محالة.

أو أنه وعدهم الهلاك في الدنيا على كفرهم ببعض الذي يعدهم[(١)].

◄ **سادسًا:** في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣]، يرد سؤال هو: أن التولي والإدبار واحد فما فائدة ذلك؟

والجواب: للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، ونظائره كثيرة.

وجواب آخر: استثارة لحميتهم، واستجلاب لأنفسهم لما في لفظ «مدبرين» من التعريض بذكر الدبر، فيصير نظير قوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

◄ **سابعًا:** قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، هذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام بالنسبة لما يتعلق بالقبط وبني إسرائيل[(٢)].

◄ **ثامنًا:** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وقال بعده: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، فما الفرق؟

والجواب: أنه لما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ [غافر: ٢٨] ناسب ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ولما قال في الثانية: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر: ٣٤] ناسب ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[(٣)] [غافر: ٣٤].

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨١).

(٣) كشف المعاني ص(٣١٩، ٣٢٠).

➢ **تاسعًا:** في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، يرد سؤال: ما فائدة التكرار في الآية؟ وهلا قال: لعلي أبلغ أسباب السموات؟

والجواب: أنه إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لذاتها، وتعظيمًا لمكانها، فلما أراد تفخيم ما أمّل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها.

أما بالنسبة للفرق بينها وبين آية سورة «القصص»: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، وهنا قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، فإن قوله: ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، خبر (لعل)، وفي سورة «غافر» عطف على خبر (لعل) وجعل قوله: ﴿أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]، خبرها، وزاد هنا عن آية «القصص» ليقع في مقابلة قوله: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ لأنه زعم الخبيث أنه إله الأرض فقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ أي: في الأرض، ألا ترى أنه قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧]، فجاء في كل سورة ما اقتضاه ما قبله(١).

ثم إنه قال هنا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٧]، وفي سورة «القصص»: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، فما الفرق؟

والجواب: لأن التقدير في سورة «القصص»: وإني لأظنه كاذبًا من الكاذبين. فزيد من الكاذبين لرؤوس الآيات ثم أضمر «كاذبًا»؛ أي من الكاذبين عليه، فخصت به السورة هناك. أما هنا فجاء على الأصل ولم يكن فيه ما يجب تغييره(٢).

➢ **عاشرًا:** قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠]، يرد سؤال هو: أن مثل السيئة سيئة، فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾؟

والجواب: أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على المقدار المستحق، وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب(٣).

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص(٢٩١). (٢) المصدر السابق ص(٢٩١).
(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٥٠).

فإن قيل: إن قول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ينافي ذلك، فكيف؟

فالجواب: لمنع النقصان؛ لا لمنع الزيادة، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١) [يونس: ٢٦].

> الحادي عشر: تختم الآيات بتصريح جريء لمؤمن آل فرعون يجهر فيه دون تردد ولا تلعثم بعدما كان يكتم إيمانه؛ حيث قال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٦].

> الثاني عشر: لِمَ كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾... إلخ؟

والجواب: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، فكان واجبًا عليه نصحهم لعلمه بخلاصهم، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم لئلا يتهموه.

وأما العطف فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو.

وأما الثالث فداخلٌ على كلام ليس بتلك المثابة، يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له(٢).

ثامنًا: سورة «الزخرف»:

تأتي سورة «الزخرف» تبرز اعتزاز فرعون بقوته وقيمه الزائفة وادعائه هوان موسى عليه السلام، وسوف نعرض لآياتها المتحدثة عن فرعون وملئه ونهايته الأليمة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

---

(١) وانظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٤٥٠).

(٢) تفسير الكشاف (٤/١٦٨، ١٦٩).

عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾
أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ
جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾
فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾

[الزخرف: ٤٦ ـ ٥٦].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** تشير الآيات إشارة سريعة إلى المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام، وينهيها بطريقة استقبال القوم لها ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]، شأنهم شأن الجهال المتعالين(١).

> **ثانيًا:** أشارت الآيات أيضًا إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة في سورة «الأعراف» وغيرها.

> **ثالثًا:** تشير الآيات إلى استهتارهم بموسى عليه السلام وبما أتى به من معجزات وخوارق، وهذا مما يصدق قول الله ـ تعالى ـ في مواضع كثيرة من القرآن أن المعجزات والخوارق لا تهدي قلبًا لم يكن الله أراد له الهداية، وأن الرسول لا يُسمع الصم، ولا يهدي العمي(٢).

> **رابعًا:** تشير الآيات إلى استعراض فرعون في ملكه، وأنه هو الملك الحقيقي الذي يطاع، والآمر الناهي الذي لا يعصى؛ لا موسى الذي هو في نظره مهين لا ملك له، ولا مال، ولا شعب يسانده، فإن كان كما يدعي فلماذا لا يتوج بالذهب ويحف بالملائكة إن كان صادقا؟!

> **خامسًا:** استخف فرعون عقول قومه، فأصبحوا كالأنعام التي لا تسمع إلا دعاء ونداءً، لا رأي لهم؛ بل ولا وزن لهم عنده، فصدق فيهم حكم الله في قوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فلما أغضبوا الله ـ تبارك وتعالى ـ انتقم منهم وجعلهم عبرة لمن بعدهم من أهل الضلال وغيرهم.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٩٢).
(٢) انظر: المصدر السابق (٥/ ٣١٩٣).

تاسعًا: سورة «الدخان»:

جاء الحديث فيها عن فرعون وقومه في سياق الحديث عن قريش وما أصابهم حينما دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف، فأصابهم القحط والجوع[1].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢٩].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: سياق الآيات هنا في سورة «الدخان» يختصر حلقات كثيرة ذكرتها السور السابقة؛ ليصل إلى قرب النهاية.

حين أحس موسى عليه السلام أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه، وبدا له إجرامهم أصيلًا عميقًا لا أمل في تخليهم عنه، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، وهذه الآية الوحيدة التي تبين رغبة موسى عليه السلام في الانتقام من هؤلاء المجرمين، وكان من قبل قد دعا عليهم في سورة «يونس» أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فأمهلهم الله ثم انتقم منهم، أما هنا ـ في هذه السورة ـ فنلاحظ أنه قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [الدخان: ٢٣]، دون أن يكون هناك أدنى مهلة، فقد عاثوا في الأرض فسادًا، وأصبحوا مجرمين حقًّا.

وقال: «ليلًا» لئلا ينازع بنو إسرائيل متذرعين بالخوف أو الجهل بالمسالك، أو كما يقول سيد قطب: «إن النص عليه يعيد تصوير المشهد مشهد السُّرى بعباد الله،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، (٢/ ٤٧٠)، برقم [٣٣٨٦]، [٤٥٩٨]، [٦٢٠٠]، [٦٣٩٣]. صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة.. (١/ ٤٦٦، ٤٦٧)، برقم [٦٧٥].

وللإيحاء بجو الخفية»[1].

> **ثانيًا:** يصور السياق ما تركه فرعون وقومه بعد غرقه في آيات بديعة تشبه آيات سورة «الشعراء»، وتزيد عليها بذكر قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

ذهبوا غير مأسوف عليهم، فلم تبكهم سماء ولا أرض، فهم منبوذون لسوء طباعهم، مقتهم كل شيء في هذا الكون؛ لأن الله قد مقتهم من قبل.

والآيات تصور لنا فخامة تلك التركة المشتملة على بساتين وعيون وقصور وتنعم، ومع كثرتها لم تمنعهم من الأخذ بذنوبهم والانتقام منهم ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

> **ثالثًا:** في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]، وقال في الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، فما الفرق؟

والجواب: أن كلمة «كنوزٍ» أبلغ في التعبير فيما فات على فرعون، فناسب بسط ذكره أولًا في سورة **«الشعراء»**.

وهنا في سورة **«الدخان»** قصتهم جاءت مختصرة، فناسب ذكر الزروع.

وأما ذكر «بني إسرائيل» هناك، أي: في سورة **«الشعراء»** و﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨] في سورة **«الدخان»**؛ فلأنه لما تقدم ذكر بني إسرائيل ونعمة الله عليهم بغرق عدوهم ونجاتهم منه ناسب ذكر نعمته عليهم بعودتهم إلى مصر بعد ذلك[2].

عاشرًا: سورة «النازعات»:

أما سورة **«النازعات»** فقد جاء الحديث فيها عن عقوبة فرعون مختصرًا بعض الشيء ومجملًا لكل ما تقدم من حديث عن موسى ﷺ ودعوته، مع ذكر بعض الإشارات إلى تكذيب فرعون ثم غرقه بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٢١٣).

(٢) انظر: كشف المعاني ص(٣٣٥، ٣٣٦).

فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦].

• **ما اشتملت عليه الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** في هذه الآيات يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى ﷺ عقب ذكر النداء بالواد المقدس طوى، أما في السور السابقة فكان لذكر الآيات المعجزات نصيبٌ من القول، ثم الأمر بالذهاب إلى فرعون.

> **ثانيًا:** لا يزال سياق دعوة فرعون بلطف يتكرر في آيات القرآن العظيم من قصة إلى قصة، ومن موضوع إلى موضوع؛ ولكن بأسلوب آخر يتضمن نفس المعنى، قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]، عرض وترغيب، كما قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]؛ أي: أن في قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، حثًّا له على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة، فيقبل إرشاد من يرشده إلى الخير، ثم عطف عليه ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩]؛ أي: إن كان في نفسك استعداد للتزكية يكن إرشادي إياك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾.

وتفريع «فتخشى» على «أهديك» إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١) [فاطر: ٢٨]؛ أي: العلماء به.

وفي ذكر الخشية إيجاز بليغ؛ لأن الخشية ملاك كل خير، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل**»(٢).

> **ثالثًا:** في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]، يرد سؤال هو: أن الله ـ تعالى ـ قال في سورة «طه»: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ

---

(١) وانظر: تفسير الكشاف (٤/ ٦٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٧)، والحديث رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (١٨) (٤/ ٦٣٣)، برقم [٢٤٨٠] وقال: هذا حديث حسن غريب. وصحح إسناده الحاكم (٤/ ٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترمذي (٢/ ٢٩٧)، برقم [١٩٣٩].

وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]، وكل آية منها كانت كبرى، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: أن الإخبار في هذه الآية ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠] عن أول مجادلاته مع موسى عليه السلام (العصا واليد) فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما.

وجواب آخر: أراد بالآية الكبرى (العصا)؛ لأنها كانت المقدمة والأصل، والأخرى كانت كالتبع لها(١).

وأخيرًا فإعجاز القرآن لا يتوقف عند سورة أو مقطع محدد؛ بل في سور القرآن كلها، وما رأينا من فروق بين الآيات ما هو إلا غيض من فيض لمواضيع القرآن كلها(٢).

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

أولًا: استكبار فرعون وإفساده في الأرض:

قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ(٣) وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: إن فرعون تكبر وتجاوز الحد في الظلم والطغيان، واستعبد أهلها؛ حيث جعلهم فِرقًا وأصنافًا في خدمته وطاعته، فاستذلهم بتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم؛ ليقلل بذلك الرجال، فلا يفكرون يومًا في الانتقام منه، إنه كان من المفسدين المتمكنين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر وقهر العباد(٤).

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٤٥).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٢٩، ٢٣٣١)، (٥/ ٢٥٨٨).

(٣) يذبح أبناءهم: ذكر المفسرون أن سبب تقتيله للأبناء دون النساء أن كاهنًا قال له: إن مولودًا يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه. انظر: تفسير الكشاف (٣/ ٣٩٢)، تفسيرالقرطبي (١٣/ ٢٤٨).

(٤) انظر: تفسير الكشاف (٣/ ٣٩١، ٣٩٢)، تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، تفسير الوسيط (٣/ ٣٩٠)، تفسير القاسمي (١٣/ ٩٥).

إذًا الجو الذي ولد فيه موسى ﷺ كان جو تقتيل للأبناء واضطهاد وتجبر وحرب على شعب بني إسرئيل، فأراد الله أن يجري سننه في خلقه حين يتجبر الطغاة ويفسدون في الأرض، والشر حين يتمخض ويزيد فإنه يحمل سبب هلاكه، والبغي حين يتمرد فإن يد القدرة تأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم، فتنقذهم وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين.

لقد أراد الله غير ما أراد فرعون، وقدر غير ما يقدر الطاغية، فالطغاة تخدعهم قوتهم، فينسون إرادة الله وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاؤون، ويظنون أنهم على ذا وذاك قادرون[1].

فالذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم قادر على أن يجعل قلب فرعون بردًا وسلامًا على موسى، فينشأ ويترعرع في كنف فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه.

فالقدر يقول له: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يُغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يحصى ولا يعد، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه، ثم يكون هلاكك على يديه؛ لمخالفتك ما سيأتي به من عند الله، ولتعلم أنت وغيرك أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه القوي الشديد، ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها[2].

وإليك نماذج من ظلم فرعون وطغيانه:

أ ـ ادعاؤه الألوهية والربوبية:

أكبر أنموذج للظلم والطغيان ادعاء فرعون الألوهية والربوبية لنفسه؛ لينازع الله في ملكه، وهو ذلك العبد الضعيف المهين، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٦٧٦) بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (١/٢٣٨).

﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وانظر لهذه الكلمة الفاجرة الكافرة ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، كيف تلقفها الملأ بالإقرار والتسليم مع علمهم بكذب فرعون؛ ولكنها لا تجرؤ أن تعارض ذلك القرار الحاسم الذي لا يقبل الاستئناف؛ لأنها تعلم مصيرها لو فعلت ذلك!!.

* قال ابن كثير في تفسيره: «وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى الألوهية لنفسه، وهدده بالسجن إن لم يصدقه بذلك ويطعه ويسلِّم له بألوهيته، قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾(١) [الشعراء: ٢٩].

إذ أراد بكلامه هذا تغفل القوم ومداراتهم؛ حتى لا يخامر أنفسهم شيء للحط من منزلة ربوبيته المزعومة.

وبعد بيان موسى له وعرض معجزاته أمامه أخذ يسعى ويجتهد في جمع مكايده من سحرة وغيرهم من ذوي العقول الساذجة، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، وقال: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢ - ٢٣]؛ أي: فجمع السحرة فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه - أو قام في قومه - فنادى قائلا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

قال ابن عباس ومجاهد: «وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة»(٢).

ب - قتله للأبناء الذكور دون النساء:

إن قتل الأبرياء عند الظلمة الطغاة لا يعني شيئًا في سبيل إرضاء ضمائرهم الخبيثة، إن القتل لدى هؤلاء يقتل ضمائرهم اللوامة، فيصبح الواحد منهم متعطشًا للقتل يروي به نفسه الأمّارة كلما سنحت له الفرصة بذلك.

لقد ابتكر فرعون اللعين طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعتقد ولا تعبده بألوهيته، فسخرهم للشاق من العمل،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٦٩٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٩).

وسامهم بشتى أنواع العذاب، وبعد ذلك لجأ إلى تذبيح الذكور من الأطفال، واستبقى الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال[1].

وفي هذا يقول الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ج ـ ظلم وفساد أعوان فرعون:

قال تعالى عنهم: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٢].

وقال أيضًا: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

الأوتاد: الجنود كما قال ابن عباس[2]، فالجنود هم أدوات ظلمه وتعسفه، فلا يظلم إلا بهم، ولا يتجبر إلا بهم، يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه.

فاكتسبوا الظلم والتكبر منه؛ لأنه سيدهم وحاكمهم، يظلمون بلسانه، ويعتدون بيده، ويقتلون بسطوته دون عقاب لمن يخطئ منهم أو محاسبة؛ لأنهم سنده وعضده، فلولاهم لما بقي في حكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]، وقس على ذلك كل طاغية تبتلى به أمة من الأمم.

ثانيًا: عناد فرعون وتجبره وتكذيبه:

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء في اليوم الآخر، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة ولا سيئة إلا ارتكبها»[3].

وإليك نماذج من ذلك:

➢ **أ ـ محاورة ساخنة:** سنعيد كتابة بعض الآيات مرة أخرى لترى كيف بدأت المحاورة في جميع الآيات، وكيف انتهت، ثم تفسيرها باختصار، قال تعالى:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٣)، وانظر: تفسير الألوسي (٣٠/ ١٢٤).

(٣) تفسير الكشاف (٤/ ١٦١).

١ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن
كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ
(١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٩].

٢ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ
قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا
عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٧٩].

٣ ـ ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (٤٤) قَالَا
رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ
(٤٦) فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن
رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ
(٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا
بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن
نَّبَاتٖ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ (٥٥) وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ
أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ
مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾ [طه: ٤٣ ـ ٥٨]

٤ ـ ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥) فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦) أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ
عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢١) وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ
تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ

ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ
وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ
﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي
ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥ ـ ٣٧].

٥ ـ ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾
[النازعات: ١٧ ـ ٢٦].

كما رأينا في الآيات كانت دعوة موسى لفرعون مفاجأة؛ لأنه كان يتصور أنه لا أحد يجرؤ فيكلم الإله المزعوم بمثل هذا، ومعنى كلام موسى هذا في تصوره إنزاله عن عرش الربوبية، أو ما يسمى اليوم محاولة قلب نظام الحكم.

عند ذلك بدأت المحاورة بقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وفي سورة أخرى ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤]، وفي سورة ثالثة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤].

فوجئ فرعون بدعوة موسى له وبجرأته عليه وهو في مجلس ملكه، يحيط به وزراؤه وقواده وأعوانه، وقد صدرت منه (أي: موسى) بصيغة التأكيد والقطع، مما يدل على شدة ثقة موسى بنفسه وبكلامه الصادق الذي لا يقبل المفاصلة أو التنازل قدر أنملة.

سأل في المرة الأولى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، وقال في سورة «الشعراء»: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

فالسؤال بـ «من» عن الكيفية، والسؤال بـ «ما» عن الماهية (الحقيقة)، فأقام موسى له الدلالة على الوجود، فعرف أنه لا يمكنه المقاومة في هذا المقام لظهوره وجلائه، عندها عدل إلى المقام الثاني؛ وهو طلب الماهية، وهذا أيضًا

مما ينبه عليه من أنه كان عالمًا بالله؛ لأنه ترك المنازعة في هذا المقام؛ لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب؛ لأن العلم بماهية الله - تعالى - غير حاصل للبشر(١).

ونلاحظ في إجابة موسى عليه السلام له أنه عرف أبعاد سؤال فرعون وما يحمل في طياته من إنكار لربوبية الله - تعالى - فقال بصيغة الجمع: «ربنا»؛ إشارة إلى ربوبية الله للجميع ولفرعون وملئه ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أعطى كل شيء من الأنفس البشرية وغيرها صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، فسواه بها وعدله، أو أعطى كل مخلوق ما يصلحه، ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي، وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختيارًا أو طبعًا(٢).

وعند ابن عطية في معناها «أن الله - تعالى - أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته وهيئته الخاصة به والمناسبة له، وأكمل الله - تعالى - ذلك له وأتقنه ثم هدى؛ أي: يسّر كل شيء لما يتوصل به إلى منافعه ومرافقه»(٣).

كانت الإجابة إجابة عميقة تحوي في طياتها معاني كثيرة واضحة الدلالة لم يسمع فرعون مثلها من قبل، ولا يملك أن يقول مثلها؛ فعمد إلى مراوغة موسى، فانسحب من المحاورة إلى مجال آخر يسمى: الاستدراج إلى معارك جانبية، أو الخروج من صلب الموضوع إلى موضوع آخر؛ حفظًا لماء الوجه، فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك؛ بل عبدوا غيره؟

أراد من هذا السؤال أن يصرفه عليه السلام إلى ما لا يعنيه من الأمور؛ لشغله عما هو

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/ ٦٤)، وانظر: روح المعاني للألوسي (١٩/ ٧١)، وقال ابن كثير في هذا (٣/ ٣٤٥): ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية؛ بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر.
وفي نظري أنه يرد عليه اعتراض يؤكد أن فرعون كان يعلم بوجود الخالق عز وجل ولم يكن جاحدًا له بالكلية، ودليل ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقوله سبحانه على لسان فرعون نفسه: ﴿ءَامَنتُ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].
(٢) انظر: تفسير الكشاف (٣/ ٦٧)، تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤)، تفسير البيضاوي (٢/ ٤٩).
(٣) تفسير ابن عطية (١٠/ ٢٠٢).

بصدده، عسى أن يظهر فيه نوع غفلة، فيتسلق بذلك إلى أن يدعي أمام قومه نوع معرفة يفحم بها موسى عليه السلام[1].

فاختار موسى جوابًا لا يستطيع الخصم أن يستمر في المجادلة، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وهب أنه قال: القرون الأولى كانت على التوحيد، لرد عليه بأنها عبدت بعد ذلك الأصنام، ولو قال: كانوا على ضلال، لقالوا: سب آباءنا وأجدادنا، وربما ثاروا عليه.

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢]، أي: في علم الغيب الذي لا ينبغي لي أن أخوض فيه بغير علم، ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يخطئ ابتداء، ولا يذهب علمه بقاءً[2].

وهكذا نجا موسى عليه السلام من الفخ الذي نصبه له فرعون؛ لأن الخوض في القرون الأولى خوض لا ينتهي أمره، ولا يستقصى بحثه، فأغلقه موسى بحكمة وذكاء؛ لئلا يستمر الخصم في الإتيان بأمثلة جديدة.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجَعْلِه الأرض مهادًا، والسماء سقفًا محفوظًا، وتسخيره السحاب؛ لإنزال الغيث رزقًا للعباد ودوابهم وأنعامهم، قال تعالى على لسان موسى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤] إن في ذلك لدلالات لذوي العقول السليمة المستقيمة والفطر القويمة على أن لا إله إلا الله، ولا رب سواه[3].

وإذا كانت هذه نِعَم الله عليكم فلم تستكبرون عن شكره وتستعينون بها على عصيانه؟ أنسيتم أنكم مخلوقون من الأرض وأنكم ستعودون إليها، فلم التجبر والتكبر إذًا؟ ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

بعد هذه الذكرى لفرعون ولنفسه العاتية انتقل إلى أمر آخر ليجد له مخرجًا من هذا المأزق، فأخذ يذكر موسى بماضيه، وأنه تربى في بيته، ولبث فيهم سنين من

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٠).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٢١)، وانظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٤).

عمره، وأنه قتل رجلًا من قومه، وكان ينبغي له أن يكون حافظًا للمودة، حريصًا على عدم إيذاء آل فرعون؛ سواء في قومهم أو في معتقدهم، فما دمت قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة فأنت من الكافرين؛ أي: الجاحدين لنعمتنا عليك[١].

فأجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢].

أي: قتلت إذًا وأنا من الضالين، يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي تحريم قتله عليّ[٢].

وأما ما كان من إحسانك إلي فبمقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل؛ حيث جعلتهم عبيدًا وخدمًا تصرفهم في أعمالك، فهل يفي إحسانك إلي وأنا رجل واحد بما أسأت إليهم جميعًا.. فما فعلته بهم لا يساوي شيئًا بالنسبة إلى ما فعلته بي[٣].

هذا ومن طبيعة المعاند أنه يؤمل الانتصار ولو مرة واحدة حتى ولو خسر كل شيء، وفرعون من هذا الصنف لخبث نفسه، ولطبيعته العاتية، ما زال يؤمل في الانتصار على موسى أو على الأقل الخروج مما وقع فيه.

عندها أخذ يسأل عن ماهية الخالق ﷻ؛ لأنه لا يستطيع مجاراة موسى عليه السلام في باب الاستدلال على الخالق، فانتقل إلى ما هو أصعب من ذلك في نظره؛ وهو السؤال عن الحقيقة، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فأجاب موسى وببساطة ـ لأنه المؤيد من رب العالمين ﷻ الذي قال له من أول الأمر: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ـ قال موسى: إن رب العالمين هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، وهنا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٤)، انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٩٥)، انظر: تفسير القاسمي (١٣/ ٧).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٠)، ثم قال: والعرب تضع من الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق بمعنى واحد، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

(٣) تفسير ابن عطية (١١/ ٩٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٥)، تفسير القاسمي (١٣/ ٩)، وانظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٩٥).

بيّن له موسى الصفات الدالة على مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، والتي تبيّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها[1].

وعند هذه الإجابة البليغة من موسى ﷺ أحس فرعون بالهزيمة المطلقة، فأشرك الخاصة من قومه؛ لئلا يتأثروا بقول موسى، وحتى لا يقع هو وحده، فقال لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] لما رأى من ثقة موسى بنفسه، فالتفت موسى إليهم وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، فكانت الإجابة أشد مساسًا بشخص فرعون، فما هو إلا واحدٌ من عبيد الله، والله ـ تعالى ـ هو ربه ورب آبائهم الأولين قبل أن يوجد فرعون[2].

عندها بدأ الغيظ يظهر على فرعون، وبدأ هدوؤه المصطنع يذبل، فالتفت إلى من حوله كأنه يؤلبهم ويحرضهم على موسى فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فسماه رسولًا بطريق الاستهزاء، وأضافه إليهم ترفعًا من أن يكون رسولًا إليه، وفيه إثارة لغضبهم، واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخبر ترفعًا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلًا لأن يرسل إليهم مجنون[3].

ويلاحظ من كلمته (مجنون) مدى تخبط فرعون في كلامه، ويدل على حبه في إنهاء المحاورة؛ أما موسى عليه السلام فكان يتكلم من منطق قوة، ويعرف أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانتصار الساحق؛ فأخذ يفتح أمامهم آفاق التفكير في تصورهم مرة أخرى لهذا الكون الفسيح المملوء بالكواكب الزاهرة في أفلاكها الدائرة، النهار بضيائه، والليل بظلامه، من ربها؟ من خالقها؟ من مبدعها؟ من مسيرها؟ إنه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فأرشدهم إلى أقرب الأشياء إليهم، وقال لهم: إن كنتم من أهل العقل. وفيه تلويحٌ إلى أنهم بمعزل من دائرة العقل، وأنهم الأحقاء بما رموه به ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الجنون[4].

وفي هذا تحريض من موسى عليه السلام للملأ حوله باستعمال عقولهم وبصائرهم،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٩٨)، وانظر: فتح القدير (٤/ ٩٧).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٩٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٩)، تفسير روح المعاني (١٩/ ٧٢).
(٤) تفسير روح المعاني (١٩/ ٧٣).

فمن تدبر ذلك بعيدًا عن العواطف وحب الشهوات فإن مؤداه ـ بإذن الله ـ إلى الإيمان.

وهنا توقف فرعون عن المحاورة وذلَّ أمام موسى عليه السلام؛ لما رأى من شدة حزمه وقوة عزمه، وأنه ممن لا يجارى في حلبة المحاورة، قال مهددًا: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[1] [الشعراء: ٢٩].

ولو كان يريد استمرار المحاورة لقال: ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؟ لأن فيه الاعتراف بأن ثمَّ إلهًا غيره، ثم إن في توعده بالسجن ضعفًا[2].

عند ذلك قال له موسى عليه السلام على جهة التلطف والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]، يتضح لك معه صدقي، أفكنت تسجنني؟ فلما سمع منه ذلك طمع في مواصلة الكلام لعله يجد موضع معارضة، فقال: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣١ ـ ٣٣].

فلما رأى فرعون ذلك هاله وأفزعه؛ رأى العصا تتقلب حية، واليد تتلألأ كأنها قطعة من الشمس؛ حقًّا لقد أفزعه، ولم يكن عنده ما يدفعه به غير رميه بالسحر، وقد طمع بما قد برع فيه قومه من السحر، لعله يكون سببًا في معارضة موسى عليه السلام وإيهامًا لقومه وأتباعه بأن موسى عليه السلام ساحر.

➢ ب ـ اتهام موسى بالسحر ومحاولة قلب نظام الحكم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٦ ـ ٧٨].

ومن متشابه الآيات ما جاء في سورة «الأعراف» ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ

---

(١) جاء بأل العهدية (كما ذكرناه في لطائف سورة «الشعراء»)، وانظر: فتح القدير للشوكاني (٤/٩٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١٣/٩٩)، روح المعاني (١٩/٧٣). وقال القاسمي: «لما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام، وقوة عزمه على دعوته، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف». انظر: تفسيره (١٣/ ١٤).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/٩٨).

﴿هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]، وفي سورة «طه» ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]، وفي سورة «الشعراء» ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

بدون دليل ولا قاطع برهان اتهم موسى بالسحر وحب الملك والسلطان.

قال الزمخشري في تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [يونس: ٧٦]: «أي: فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله؛ لا من قبل موسى وهارون، قالوا لحبهم الشهوات والرياسة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١) [يونس: ٧٦]».

كان الاتهام بالسحر أحسن ما يقال في نظر فرعون؛ ليجعل منه حاجزًا بينه وبين من أراد التفكير فيما جاء به موسى ﷺ؛ لأنه ساحر من جملة السحرة المنتشرين في البلاد، فيكون فرعون بتهمته هذه لموسى قد أبعد قومه عن أية محاولة للربط بين معجزة موسى ونبوته، فيكون لو فعلوا لغير نبي.

ولدهائه وخبثه رأى أن يدعم اتهام موسى بالسحر باتهام آخر، فلعلهم لم يقتنعوا بالتهمة الأولى؛ وهي الرغبة في الملك، أو ما يسمى بقلب نظام الحكم.

ومعنى هذا عند سامعي كلام فرعون هو التحرك السريع ضد موسى، وإيقافه عند حده.

أمّا معناها عند فرعون فهو ذهاب ألوهيته بعد أن كان يعبد، وأن يَسمع ويطيع لموسى بعد أن كان الآمر الناهي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]، وهنا يلاحظ على فرعون في قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥] أنه يستشير قومه، والإله لا يستشير أحدًا! فكان موقفه هذا

---

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٣٦٢)، وعند صاحب الظلال: وهكذا يبدو تضعضعه وتهاويه، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]، ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون؟! إنه شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذٍ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابر مستبدون ظالمون. انظره: (٥/ ٢٥٩٤).

من أهم التنازلات التي تعد بحق انتصارًا لموسى عليه السلام، وموقف فرعون هذا يدل على تخبطه بعد أن أصابه الخوف والفزع، فكان لا بد من تغيير موقفه لينقلب العبيد آمرين، وربهم فرعون بزعمه مأمورًا لما استولى عليه من فرط الدهشة والحيرة[1].

وتشاور الملأ في أمر موسى ورددوا نفس مقالة فرعون: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]، ولما رأى مؤازرتهم له قال لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

ويلاحظ من رسالة فرعون للملأ أولًا أنه قال لهم بضمير المخاطب: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾، قال لموسى بعد أن اطمأن لهم بصيغة المتكلم الجمع: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا﴾.

ويلاحظ ثانيًا أنه لم يشرك شعبه فيما اتخذه من قرارات مع ملئه؛ لأنه يعلم أنهم تبع، وأن أحدًا لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة إذا اتخذ فرعون قراره، إنهم يتجاهلون الشعوب في الرخاء، ويرون أنهم كالأنعام يقادون إلى المرعى، ثم ترجع دون أن يكون لها أدنى حرية، فإذا جاءت الشدائد والملمات زجوا بهم في معاركهم؛ ليتحملوا كامل المسؤولية، متناسين ما قدموه من خدمات في يوم من الأيام.

هذا هو حال الباطل في الدنيا، أما في الآخرة فسوف يحاسب كل واحد منهم على ما قدم، ولن ينفعه أكان سوقيًا، أو فقيرًا، أو أطاع الأوامر الخرقاء دون أخذ رأيه، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨].

➢ **ج ـ جمعه للسحرة استعدادًا ليوم المفاصلة.**

بعد تدارس الأمر أشار الملأ على فرعون بما أخبرنا الله بقولهم: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[2] [الأعراف: ١١١ ـ ١١٢].

---

(١) تفسير الزمخشري (٣/ ٣١٠).

(٢) أرجه: أي أخر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما. والأمر بالتأخير يدل على أنه تقدم منه أمر آخر؛ هو الهم بقتله، فقالوا: أخره ليتبيّن حاله للناس. وأصل (أرجه) أرجئه. انظر: محاسن التأويل (٧/ ٢٢٨).

وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٥٨ ـ ٦٠].

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٤١].

نلاحظ من مجموع الآيات أنهم (أي: الملأ) لم يشيروا بقتله؛ وإنما أشاروا بجمع السحرة؛ لأن حجته كانت ظاهرة، فخشوا الفتنة، وطمعوا أن تكون الغلبة للسحرة، فتسقط حجة موسى، وهذا من تدبير الله ﷻ وتسخيره ليجتمع الناس في صعيد واحد ويشهدوا هذه المغالبة بين موسى وسحرة فرعون، فتظهر آيات الله وحججه وبراهينه واضحة جلية للناس(١).

ونلاحظ أيضًا أن طلبهم لموعد محدد معلوم الزمان والمكان كان فيه نوع ثقة من فرعون بالظهور والانتصار، ثم طلبه أن يكون هذا الأمر أمام الجميع فيه فطنة وذكاء؛ لئلا يؤمن بموسى أحد، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده؛ لعلمه أن حجة الله هي الغالبة، وفي ظهورها بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين والانقهار للمبطلين(٢).

فقال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، ومعنى هذا أن موسى عليه السلام قبل تحدي فرعون له، واختيار الموعد يوم عيدهم، وأن يجمع الناس ضحى؛ ليكون المكان مكشوفًا، والوقت ضاحيًا، فقابل التحدي بمثله، وزاد عليه اختيار الوقت(٣).

وهنا نلحظ أن موسى عليه السلام هو المستفيد من حيث لا يشعر فرعون وملؤه؛ حيث يسر الله له جمعهم مرة واحدة، وفي مكان يراهم ويرونه، ويسمعهم

(١) تفسير ابن عطية (١١/١٠٥)، تفسير ابن كثير (٣/٣٤٦).

(٢) تفسير فتح القدير (٤/٩٩)، وانظر: روح المعاني (١٦/٢١٧).

(٣) في ظلال القرآن (٤/٢٣٤٠).

ويسمعونه، وقد كان من قبل مستحيلًا، فسبحان مقلب القلوب ومصرف الأمور على مر الدهور الذي إليه المرجع وإليه النشور!!!.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، مما يظهر أن جمع السحرة تم على مراحل وإن كانت سريعة؛ ذلك لخوف فرعون على ملكه وسلطانه:

المرحلة الأولى: ظهرت من إرسال فرعون شُرطَه لحشر السحرة؛ وذلك للتشاور في أمر موسى عليه السلام.

المرحلة الثانية: حشرهم ليوم الزينة المتفق عليه مع موسى؛ وذلك لتحدي موسى وإظهار فائق سحرهم للتفوق والانتصار على موسى عليه السلام.

وأما فترة الإعداد للسحر فمن المؤكد أنها كانت بين المرحلتين السابقتين، يدل عليه «ثم» الدال على التراخي في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، وفي كلمة التراخي إيماء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد بطء وتلعثم[(١)].

وأما جمع الناس فقد جاء بطريقة أدهى مما كان يتوقع؛ وذلك لئلا يثير ضغينتهم على فرعون، يدل عليه قوله تعالى عنهم: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]، حض لهم في غاية اللطف ثقة منهم باستجابتهم التي تعودوها منهم؛ لأنهم مُروضون على الطاعة والتبعية منذ زمن بعيد.

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشعراء: ٣٩ ـ ٤٠]، لعلنا نتبع السحرة فقط وأتباعهم في حال واحدة فقط، وهي حال انتصارهم، أما غيرها فليس هناك ذكر للبديل، مما يدل على التحيز الشديد ضد الحق وأهله.

بمعنى اتباعهم في طريقتهم ودينهم الذي هو دين الآباء والأجداد؛ لا اتباع موسى، فساقوا كلامهم مساق الكناية حملًا لهم على الاهتمام والجد في المغالبة[(٢)].

---

(١) تفسير روح المعاني (١٦/ ٢٢٠)، تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤٢)، وانظر قريبًا منه في: تفسير ابن عطية (١١/ ١٠٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٠).

وهكذا اجتمع السحرة على ما رأينا، واجتمع الناس ليروا المباراة عن قرب، وما كان من قبل ييسر فرعون لهم سبل الاختيار إلا هذه المرة، فلم ذلك؟ لم يسأل واحد نفسه: لماذا جاء؟ وهل يمكن أن أغير منهجي إلى غير ما دعيت له؟ لم هذا الاهتمام بموسى وأخيه وهما شخصان اثنان؟ ومن موسى هذا بالنسبة لجبروت فرعون؟ لم لا يقتله؟ لم لا يعذبه؟ ولم يسأل واحد نفسه: لم لا نؤمن بما جاء به إن كان هو المنتصر؟

إنها التبعية الممقوتة، والفكر الأرعن، والجبن عن قول كلمة الحق.

ثم انظر حالهم بعد أن دخل الإيمان قلوبهم كيف صدعوا بكلمة الحق؟

ونلاحظ أيضًا من جهة أخرى كيف قضت حكمة الله أن يجتمع هذا الجمع الحاشد ليرقب المعركة الحاسمة بين الحق والباطل؛ وذلك ليتسنى لموسى ﵇ إيصال الحق لهم عن طريق المشاهدة، هذا من جهة، وليكون حجة عليهم من جهة أخرى، وليكون بشارة من بشائر النصر الذي وعد الله به موسى ﵇ من جهة ثالثة.

ثالثًا: اتهام السحرة بالخيانة العظمى:

اطمأن السحرة لجائزة فرعون، وأغراهم بريق ذهبه، وأن فقراء الأمس سيصبحون أغنياء اليوم، وما مر عليهم من نصب الدنيا فلن يمر بعد ذلك، كيف لا وقد وعدهم المنزلة الرفيعة عنده، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤].

فزادهم فرعون على ما طلبوا ليحثهم على بذل أقصى الجهد لإظهار سحرهم على ما عند موسى[(١)].

وجاء الناس ضحى يوم الزينة، وجاء فرعون في زينته وأبهته، واصطف له الأكابر والناس يمنة ويسرة، وأقبل موسى بعصاه ومعه أخوه هارون ـ وقيل: معه

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٢٥٨)، انظر: تفسير المنار (٩/ ٦٣). وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهاراتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة، ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة، وهؤلاء هم أتباع الطغاة يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعًا بما عندهم من متاع الدنيا؛ ليبقوا في خدمتهم وتبعيتهم. انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٩٥).

بنو إسرائيل ـ، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا وهو يحرضهم ويحثهم لإجادة عملهم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، فكان أول ما قاله موسى لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]، لِتخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقيقة لها، فتكونوا قد كذبتم على الله، ثم حذرهم ألا يعتبروا ما يرونه من الآيات سحرًا، وأن يتبعوا الحق إذا ظهر لهم، فإن لم يفعلوا أهلكهم الله بعذاب من عنده، وقد خسر من افترى على الله الكذب.

﴿فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]؛ أي: تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقائل يقول... إلخ، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]، مخافة أن يتبين لفرعون أن فيهم ضعفًا، ثم قالوا: ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]؛ أي: إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويغلباكم وقومكم، ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقابلا فرعون وجنوده فينتصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم، ويذهبا بسيرتكما الفاضلة الحسنة وحالتكم الطيبة التي أنتم عليها ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتغلبوا موسى وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]؛ أي: ظفر ببغيته اليوم؛ من طلب العلو في أمره، فنال عطاء الملك كما وعد، أو فاز موسى فنال الرياسة العظيمة(١).

وبعد ذلك التذكير الذي كان موسى لا يترك فرصة للدعوة إلى الله؛ سواء أمام فرعون أو غيره إلا استغل ذلك فوعظ وذكر، وبعد عصيان السحرة لموعظة موسى وإصرارهم على فعل ما أتوا من أجله بدأت المباراة:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾(٢) [الأعراف: ١١٥]، وفي سورة «طه» ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

وتدل كلماتهم هذه على رغبتهم في أن يقدموا عروض سحرهم قبل

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٥).

(٢) قال الزمخشري (٢/ ١٤٠): تخييرهم إياه أدب حسن. وقال القرطبي (١١/ ٢٢٣): تأدبوا مع موسى، فكان ذلك سبب إيمانهم.

موسى ﷺ؛ ليصرفوا أعين الناس إليهم؛ فأفسح المجال لهم وقال: «بل ألقو» ليتبين للناس المجتمعين كل ما عند السحرة من كيد وباطل، وحتى لا يبقى لديهم شيء من أسلحتهم، فتكون الكلمة الأخيرة والفاصلة لموسى ﷺ، فلو ألقى قبلهم لما كان هناك معنى للتحدي؛ لأن المشاهدين لا يعرفون شيئًا عن سحر السحرة، ولا عن معجزة موسى ﷺ؛ وإنما سمعوا عنها فقط، ولا يغني السماع، فكان من الحسن أن يلقي السحرة أولًا، ثم يلقي بعدهم موسى ﷺ، فيظهر التحدي ونتيجته بعد ذلك أمام الناس، وكل ذلك تم أولًا وأخيرًا بتدبير الله ﷻ.

فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فكان كما قال الله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، واستعانوا للوصول إلى مآربهم ببعض الحركات والأصوات المزعجة والمخيفة لإدخال الذعر والخوف في نفوس الناس، قال الله: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة وأن يضيع الحق بين ركام هذا الباطل، فأمره الله ـ تعالى ـ أن يلقي عصاه، وما إن ألقاها حتى انقلبت بقدرة الله حية عظيمة ابتلعت كل ما جاء به السحرة من وسائل الكذب، والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرة نهارًا، فقامت المعجزة، واتضح البرهان، ووقع الحق، وبطل السحر؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1] [طه: ٦٩]، وقال أيضًا: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]، فكانت النتيجة المبكرة لذلك التحدي الغلبة والصغار.

أما النتيجة الثانية فكانت أعظم من الأولى، وهي: ما كان يخشاه فرعون نفسه؛ وهو سجود السحرة، وإيمانهم بالله ـ تعالى ـ، وأن ما جاء به موسى هو الحق.

وذلك حين رأوا ما حصل لسحرهم أدركوا وهم أصحاب المستوى العالي في هذا الفن أن ما جاء به موسى لا يستطيعه إنسان ولا هو من صنعه[2]، وإلا فأين أدوات سحرهم؟ والسحر إذا بطل بقيت أدواته.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٦٦).

(٢) تفسير سورة «الأعراف» للبهي الخولي ص(١٠٩).

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾(1) [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨]، وقال في سورة «طه»: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، فكان إيمانهم أمرًا عظيمًا جدًّا، وبرهانًا قاطعًا للعذر، وحجة دامغة على أن موسى عليه السلام رسول من رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق والمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، واعتبر إيمانهم خيانة له ولدولته، وهو في الحقيقة النهاية له ولملكه الذي طالما استبد به وظلم وطغى وتجبر، وكان لا بد له من مخرج أمام الحاضرين فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها؛ فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم صناعة السحر؟ ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب(2).

وانظر إلى اتهام فرعون اللعين كيف قلب الحقيقة إلى مغالطة تحفظ له ماء وجهه أمام الجمهور، فهو بمغالطته كأنه يقول: لا تظنوا أن سجود السحرة هذا كان عن رؤية حقيقة رأوها من موسى؛ إنما سر ذلك هو أنهم جميعًا أعدوا مؤامرة في الخفاء، هدفها الإطاحة بنظام الحكم، وهذا يعني إخراجكم من أرضكم أيضًا، فلا تسمعوا له، ولا تطيعوه، ولا تغتروا بإيمان السحرة، فهو إيمان لا يعتد به؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن آذن لهم، وسيرون عاقبته العادلة على يدي؛ من تقطيع للأيدي والأرجل، وتصليب على جذوع النخل، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

فأجاب السحرة على تهديد فرعون بما لم يكن متوقعًا لدى فرعون وملئه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ

---

(1) وفي سورة «الأعراف» «وألقي» من آية (١٢٠ ـ ١٢٢).
(2) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧).

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠ ـ ٥١].

وقالوا أيضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

كان رد السحرة هو الرد الحاسم الذي يصفع كبرياءه، ويرد على طغيانه؛ لأن الله قد أظهر لهم الحق، فخالطت بشاشته قلوبهم، فكان لسان حالهم جميعًا يقول: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، فلن نتنازل عن إيماننا، ولن نكفر بالله بعد أن عرفنا الحق وهدانا ربنا إليه، فلن نفضلك ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حجة الله وآياته المبينات، فهو المستحق للعبادة والخضوع؛ لا أنت[(١)].

وما تهددنا به من القتل والصلب فإنما هو عذاب في سبيل الله أولًا وثانيًا، فغاية ما تملكه منا هي هذه الأجساد تعذبها كيف تشاء، وأقصى ما تستطيعه هو إزهاق هذه الأرواح، فتعجل لقاءها ربها، وهو ما تتوق إليه وتتمناه.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]؛ أي: ونحن نطمع بموقفنا هذا السباق إلى الإيمان والثبات عليه أن يغفر لنا خطايانا وما قارفنا من الذنوب والخطايا، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]، أي: خير لنا منك وأدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا[(٢)]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

قال ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي»[(٣)].

وبعد هذا كله يتوجه السحرة إلى الله ـ تعالى ـ داعين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٧).
(٣) المصدر السابق (٣/ ١٦٧).

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، هكذا أفرغه إفراغًا بتثبيتك إيانا على الإيمان كما يُفرغ الماء من القرب حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك، وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك، مذعنين لأمرك ونهيك، مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، وغير مطيعين له في قول ولا فعل(١).

فما كان من فرعون وقد سمع جوابهم إلا أن ينفذ فيهم ما هددهم به؛ فقتلهم وصلبهم على النيل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء**»(٢).

رابعًا: فرعون يريد قتل موسى ويصد عن قبول النصيحة:

قامت بطانة السوء تحرض فرعون على موسى وقومه وتقول له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: أتدعُ موسى وقومه آمنين أحرارًا لتكون عاقبتهم أن يفسدوا قومك عليك في أرض مصر؛ إما بإدخالهم في دينهم، أو جعلهم تحت سلطانهم، ويتركك مع آلهتك، فيظهر عجزك لرعيتك وعجز آلهتك، وقد رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة - إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد قصة السحرة، وجمهور المفسرين على أن المراد بتركه وآلهته: عدم عبادته وعبادتها - قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، أي: كما كنا نفعل من قبل، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ أي: مستعلون بالغلبة والسلطان، قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفسادًا في أرضنا ولا خروجًا من حظيرة تعبيدنا إياهم(٣).

والقصد من هذا التحريض - كما هو معلوم - أن الملأ هم المنتفعون

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٧٧).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٣/ ٣٦) حيث روى هذا الأثر من ثلاث طرق يقوي بعضها بعضًا. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٧)، الدر المنثور (٣/ ٢٠٠).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٧٩)، تفسير القاسمي (٧/ ٢٣٤، ٢٣٥). وفي تفسير الثعالبي (٢/ ٤٥) معناها (أي: في المنزلة والتمكن من الدنيا). وهذا منه تجلد، وإلا فقد قال فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٦].

المباشرون من النظام، المنغمسون في تلك النعم والخيرات، فلو آمن الناس ضاعت مكاسبهم، وجفت معايشهم، وانهار البناء فوق رؤوسهم.

وتحت هذا الضغط أراد فرعون قتل موسى، كما ذكر الله عنه قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ذكر المفسرون أن فرعون كان إذا هم بقتل موسى كفوه عنه، ومنعوه منه، وقالوا له: ليس هذا بالذي تخافه؛ فإنه أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، فلو قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة.

والظاهر من دهاء اللعين أنه كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر؛ ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يُعاجل بالهلاك.

فكان قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] تمويهًا على قومه، وإيهامًا أنهم هم الكافون له عن قتله، ولولاهم لقتله، والحقيقة أنه ما كان يكفه إلا ما في نفسه من الفزع الهائل، بدليل أن قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ ليس من ألفاظ الجبابرة الواثقين من أنفسهم، المتمكنين من إنفاذ أوامرهم، وأيضًا دفاع الرجل المؤمن عنه دون أن يمسه بأذى.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]، أي: لا أبالي بدعائه، ثم رجع إلى قومه ينصحهم مظهرًا الإشفاق عليهم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، فيغير ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ويقصد بذلك انعدام الأمن الذي تتعطل بسببه المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلًا وضياعًا، كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو أن يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه(١).

فلما سمع موسى ذلك استعاذ بالله الذي هو ربه ورب قومه، فقال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وفي ذلك بعث لقومه على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه من

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٦٠، ١٦١)، وانظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، وتفسير فتح القدير (٤/ ٤٨٨).

كل متكبر من الجبابرة؛ سواء كان فرعون أو غيره[1].

فقام رجل[2] من قومه يكتم إيمانه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فعندما قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، أخذت الرجل غضبة لله ﷻ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون؛ وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: ربيَ الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق!

ثم إنه تنزل معهم في المخاطبة قطعًا للجاج الجدال فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وهذا من باب إبعاد التهمة عنه حين قدم الكاذب على الصادق، ويعني بقوله: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه، فإن يك كاذبًا فإن الله ﷻ سيجازيه على كذبه، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم من عذاب الدنيا والآخرة. فهذا الكلام من الرجل المؤمن كلام منصف في مقاله؛ غير مشتط فيه؛ لأنه سلك معهم طريق الإنصاف في القول ومناصحة لهم، وجاءهم بما هو أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأقرب في تصديقهم له وقبولهم منه[3]، وعلى كل فينبغي

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٦١).

(٢) قال ابن كثير (٤/ ٨٤): المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًّا من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون. واختار هذا القول ابن جرير (٢١/ ٣٧٦)، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًّا، لأن فرعون استمع لكلامه وكف عن قتل موسى، ولو كان إسرائيليًّا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم. وعن ابن عباس ﷺ: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٦٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤) وعزاه لابن جرير ولم أجده.

(٣) قال الزمخشري: في عبارة الرجل المؤمن: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه؛ ليسمعوا منه ولا يردوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقًا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه =

عليهم أن يتركوا موسى وشأنه، ولا يتعرضوا له بسوء، يدعو قومه ويرشدهم ما شاء كيف شاء.

وقد جاءت نصيحة هذا الرجل المؤمن موافقة لما قاله نبي الله موسى من قبل لفرعون وقومه في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢٠].

الشاهد أن الرجل المؤمن كرر قولة موسى: وإن لم تؤمنوا لي فلا تتعرضوا لي، واتركوني، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا(١). والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

ثم أخذ يحذر قومه في صورة من صور النصح فيقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

أي: قال لهم: يا قوم، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والسلطان، ونفاذ الكلمة، والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله عليها، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، وكأن قلب هذا الرجل المؤمن بدأ يشعر من أن بأس الله أقرب لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس بأن يحذروه ويتقوه وأن يبيتوا منه على وجل، فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار.

فإن بقيتم على ما أنتم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، جاعلًا نفسه معهم؛ لأنه منهم في القرابة، فكأنه يقول لهم: إن جنودكم وعساكركم لا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أراد إنزال العذاب بنا بسبب كفركم وعنادكم(٢).

= أردفه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؛ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلًا عن أن يتعصب له أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضًا من هذا القبيل، وكذلك ما سيأتي في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]. تفسير الكشاف (٤/ ١٦٣)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤)، تفسير الرازي (٢٧/ ٥٧، ٥٨)، تفسيرأبي السعود (٧/ ٢٧٤)، تفسير القاسمي (١٤/ ٢٣٢).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٢).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ١٦٤)، تفسير الرازي (٢٧/ ٥٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٨٥)، في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٩، ٣٠٨٠).

فكان ردّ الطاغية ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؛ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي من الثبات والاستمرار على تكذيب موسى والإيمان بي، وما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الصواب والصلاح، وقد كذب في كل هذا؛ فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩]، كذب فيه وافترى وخان الله ـ تبارك وتعالى ـ ورسوله ﷺ ورعيته، فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وكذب أيضًا وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال جلت عظمته: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفي الحديث «**ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**»(١).

ومع كل ما سبق من نصائح فلا زال ثمة أمل لرجوع قومه إلى صوابهم؛ فاستمر في التحذير والنصيحة والوعظ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١]، وهنا يتجلى وضوح إيمان الرجل المؤمن أكثر من ذي قبل، فأنت تراه في هذه الآيات يحذر قومه مصير من سبقهم من الأمم، وكيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد؛ بسبب ذنوبهم وتكذيبهم رسله، وأن سننه في المكذبين واحدة، وأنه يخاف أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

ثم قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣]، ثم حذرهم يوم القيامة، وما ستكون فيه من أهوال يفر منها الناس هاربين من الفزع ينادي بعضهم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٨٥). والحديث رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٤/ ٣٣١)، برقم [٧١٥٠، ٧١٥١]. مسلم كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١/ ١٢٥)، برقم [١٤٢].

بعضًا[1].

ثم وبخهم على تكذيبهم برسالة يوسف الذي أتاهم بالمعجزات فشكّوا فيها لم يزالوا شاكين كافرين حتى توفي يوسف عليه السلام، فقالوا من عند أنفسهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، تكذيبًا مسبقًا بأي رسول سيأتي من بعده، وليس معنى ذلك التصديق برسالته؛ وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥].

ثم تراه في الآية الثانية يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا في أبشع صورة، ويندد بالتكبر والتجبر، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين[3].

ثم أمام مراوغات فرعون واستهتاره ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله؛ وهو طريق الرشاد، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذرهم عذاب الآخرة، وبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف وبطلان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٨٥). (٢) تفسير الكشاف (٤/ ١٦٦).
(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨١).

يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٤٥].

الآيات تتحدث عن استمرار الرجل المؤمن في وعظه؛ حيث دعاهم إلى الاقتداء به في الدين، والبعد عما يسخط الله، ويجلب الشقاء في الآخرة، ثم ذكرهم بأمر لا يعرفه إلا من خالط الإيمان شغاف قلبه؛ وهو أن جزاء فعل السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على استحقاقها، فقال: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠]، وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير؛ بل بما شاء الله ـ تعالى ـ من الزيادة على ما يستحقه هنا العمل الصالح من الجزاء؛ لأن هذه الزيادة فضل، والله ذو الفضل العظيم(١).

وأخيرًا ترى الرجل المؤمن يكرر نداء قومه لما في ذلك من تنبيه لهم وإيقاظ من غفلتهم لأنهم قومه وعشيرته، وما هو إلا واحد منهم ويريد لهم الخير، ويحزنه ألا يستجيب له أحد، فسرورهم سروره، وغمهم غمه، وهذا يستدعي ألا يتهموه، فكرر النصيحة لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام نصيحة أبيه بقوله: «يا أبت».

وفي نصيحته يدعو قومه إلى النجاة من النار؛ لأن ما دعوه إليه من الكفر والشرك وسيلة وسبب لدخول النار، ثم بين لهم الفرق بين الدعوة للنجاة من النار والدعوة للدخول إليها، فما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسيلة لدخول الجنة ونجاة من النار، وأما دعوتهم له فهي دعوة إلى الكفر والشرك، وهي وسيلة

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٦٨)، تفسير الرازي (٢٧/ ٧٠).

للدخول إلى النار، فلا شك أن الذي تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وليس له قدر لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومرجعنا جميعًا إلى الله، فيجازي كلًّا بعمله، فأي عاقل يجوز له عقله الاشتغال بعبادة غير عبادة الله الذي لا بد أن يكون مرجعه إليه، وأن جزاء المشركين في الآخرة هو دخول النار[1].

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟! وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعد ما كان يكتم إيمانه فلا يبقى إلّا أن يفوض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهددًا إياهم بأنهم سيذكرون كلامه هذا في موقف لا تنفع فيه الذكرى ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فكما خوفهم خوفوه فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، فيهدي من يستحق الإضلال، وله الحكمة البالغة والحجة التامة، ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر: ٤٥]، فنجاه الله ـ تعالى ـ مع موسى عليه السلام، وأمّا في الآخرة فبالجنّة، وأما آل فرعون فباللعنة والغرق في الدنيا، ثم أشد العذاب في نار جهنم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار[2].

خامسًا: ما حصل له ولقومه قبل العقوبة الفاصلة:

وفيه:

أ ـ ابتلاء آل فرعون بالشدائد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

ابتليَ آل فرعون بالسنين (وهو: القحط والجدب)، وخُصّ آل فرعون لأنهم هم المعاندون لموسى عليه السلام في الأصل، ووقوعه على غيرهم بالتبع لهم؛ لإقرارهم

---

(١) تفسير ابن عطية (١٣/ ٤٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٨٧)، التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٧١).
(٢) انظر: تفسير ابن عطية (١٣/ ٥٠)، تفسير ابن كثير (٤/ ٨٧، ٨٨)، التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٧١).

على الظلم، فضلًا عن متابعتهم له في الكفر والشرك بالله، وكان حقًّا عليهم ألا يقبلوا استعباد فرعون لهم، وجعلهم آلة لطغيانه.

وإنما أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يتعظون بأن ما أصابهم هو بسبب كفرهم وإسنادهم لظلم فرعون، فما عليهم إلا أن يقلعوا عن ذلك ويتوبوا ويؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام من ربه، فيزول عنهم عذاب القحط، والجدب، ونقص الثمرات. وحكمة ذلك: أن الناس وقت الشدائد يضرعون إلى الله، وترق قلوبهم، وربما حملهم على الإيمان بالله، وترك ما هم فيه من الكفر والظلم والعصيان؛ ولكنهم لشدة جهلهم وضلالهم وتبعيتهم رموا شؤم ما أصابهم إلى موسى عليه السلام ومن آمن به، قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

أي: إذا جاءهم الخصب والسعة في الرزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه، فإذا أصابهم الجدب والقحط قالوا: هذا بشؤم موسى ومن معه، ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ أي: ما قدر عليهم فهو كله من عند الله؛ بسبب ذنوبهم وكفرهم وعصيانهم؛ لا من عند موسى وقومه(١).

ومع ذلك لم يتعظوا؛ بل زادهم ذلك عتوًّا وعنادًا وإصرارًا على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]؛ أي: يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها فلن نقبلها منك، ولن نؤمن بك ولا بما جئت به(٢).

وفي هذه الآية بيان لإصرار قوم فرعون على كفرهم حتى بعد إيمان كبار السحرة بعد ما تبين لهم أن ما جاء به موسى حق من عند الله؛ وليس من السحر(٣).

ب ـ ابتلاء فرعون وقومه بمصائب جديدة:

كان من لطف الله ـ تعالى ـ بعباده المؤمنين(٤) أنه أنزل على فرعون وقومه

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ١٤٤)، تفسير ابن عطية (٦/ ٤٧)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٦٤، ٢٦٧)، تفسير المنار (٩/ ٨٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٠).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٨٧).

(٤) أي: موسى ومن آمن به.

عددًا من الكوارث والنكبات، فشغلوا بها عن تعذيب المؤمنين واضطهادهم؛ حتى إنهم في كل مرة يطلبون من موسى عليه السلام أن يسأل الله - تعالى - أن يرفعها عنهم.

وكما رأينا من قبل أن الله - تعالى - ابتلاهم بالسنين ونقص الثمرات، إلا أنهم استمروا في طغيانهم وعنادهم وفسادهم، فابتلاهم الله بما ذكره بعدها في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: المطر»[(١)]، حتى خافوا الهلاك، فأتوا موسى فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر؛ إنا نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم المطر، فأنبت الله به حرثهم، وأخصب به بلادهم، فقالوا: ما نحب أنا لم نمطر بترك ديننا فلن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل عليهم الجراد، فأسرع في فساد ثمارهم وزروعهم، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد؛ فإنا سنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، وكان قد بقي من زرعهم ومعاشهم بقاية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا، فلن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم القمّل[(٢)] (وهو الدّبى) أو السوس، فتتبع ما كان ترك الجراد، فجزعوا وأحسوا بالهلاك، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا الدبى؛ فإنا سنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الدّبى، فقالوا: ما نحن لك بمؤمنين ولا مرسلين معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأ بيوتهم منها، ولقوا منها أذىً شديدًا لم يلقوا مثله فيما كان قبله، إنها كانت تثب في قدورهم، فتفسد عليهم طعامهم، وتطفئ نيرانهم، قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك أن يكشف عنا الضفادع، فقد لقينا منها بلاءً وأذىً فإنا

---

(١) قال الطبري في تفسيره بعد عرض أقوال أهل التأويل (١٣/ ٥٢ - ٥٣): والصواب في ذلك عندي ما قاله ابن عباس أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: طاف بهم أمر الله يطوف طوفانًا، وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون المطر الذريع. وقال ابن عطية: «هو عام في كل شيء يطوف، إلا أن استعمال العرب له أكثر في الماء والمطر الشديد».

(٢) ذكر في معناه سبعة أقوال. انظر: زاد المسير (٣/ ١٦٩)، معاني القرآن للنحاس (٣/ ٧٠)، القرطبي (٧/ ٢٧٠).

سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع، فقالوا: لا نؤمن لك، ولا نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم الدم[(١)]، فجعلوا لا يأكلون إلّا الدم، ولا يشربون إلّا الدم، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك أن يكشف عنا الدم؛ فإنا سنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الدم، فقالوا: يا موسى، لن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فكانت آيات مفصلات بعضها إثر بعض؛ ليكون لله عليهم حجة، فأخذهم الله بذنوبهم، فأغرقهم في اليمّ[(٢)].

قال تعالى بعد ذكر هذه الشدائد: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]؛ أي: مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون إلزامًا للحجة عليهم، فما كان منهم إلا أن ترفعوا عن الإيمان بالله ـ تعالى ـ بالرغم من عظم ما رأوا من الآيات الدالة على صدق رسوله؛ لكنهم كانوا عريقين في الإجرام على الله أولًا ثم على عباده[(٣)].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

أي: فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة مما حصل لهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. أو على

---

(١) وقيل: أخذهم الرعاف. انظر: تفسير ابن عطية (٦/ ٥٢)، انظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٤٨)، وانظر: تفسير النسفي (٢/ ٧٢)، زاد المسير (٣/ ١٦٩)، البحر المحيط (٤/ ٣٧٣)، وما ذكرناه عاليه قال عنه ابن الجوزي: إنه قول الجمهور (٣/ ١٦٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٦١ ـ ٦٢)، صحيفة علي بن طلحة عن ابن عباس ص(٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٤٨)، وقال ابن عطية (٦/ ٥٢): المراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجئ جملة ولا متصلة؛ إنما جاءت مفرقة بالزمن. وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧١)، تفسير زاد المسير (٣/ ١٧٠)، تفسير الوسيط في تفسير القرآن (٢/ ٤٠٠)، تفسير البحر المحيط (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

ما قال قوم من المفسرين[1]: إنه الطاعون أنزله فيهم، فحصد خلقًا كثيرًا، فقالوا عند نزول كل نوع أو عند نزول عذاب الطاعون: يا موسى، ادع ربك بالذي عهد به إليك أن تدعوه فيستجيب لك الدعاء، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

أي: فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة منها إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم[2].

* قال صاحب الظلال: «جمع السياق الآيات كلها، كأنما جاءتهم مرة واحدة، وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة، ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة، وكانت نهاياتها واحدة كذلك، وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص، يجمع فيها البدايات لتماثلها، ويجمع فيها النهايات لتماثلها كذلك، ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المتنوعة وكأنها واحدة، لا يستفيد منها شيئًا، ولا يجد فيها عبرة»[3]. فكان لا بد من الانتقام منه ومن قومه.

سادسًا: إعداد موسى بني إسرائيل للخروج من مصر:

مر معنا من قبل أن فرعون ـ وأمام التحريض والتهييج له من الملأ ـ أمر بتقتيل أبناء بني إسرائيل مرة أخرى؛ ليجتث عروقهم عن آخرها مع مرور الزمن، هنا جاء دور موسى ـ كما كان من قبل ـ في التخفيف عن قومه، وبث روح الأمل في نفوسهم؛ لئلا يضعفوا ويخافوا ويرضوا بما هم فيه من المهانة والظلم، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] [الأعراف: ١٢٨].

---

(١) قال صاحب زاد المسير (٣/ ١٧٠) في معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ أي: نزل بهم العذاب، وفي معنى العذاب قولان.
أحدهما: إنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفًا، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.
الثاني: إنه العذاب الذي سلطه الله عليهم من الجراد والقمل وغير ذلك، قاله عبد الرحمن بن زيد، وانظر: تفسير ابن عطية (٦/ ٥٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧١)، تفسير النسفي (٢/ ٧٣)، تفسير المنار (٩/ ٩٥).

(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٨).

(٤) وردت الاستعانة في القرآن الكريم ثلاث مرات، اثنتان منها في حق بني إسرائيل في =

قال لهم موسى ذلك حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم، فجزعوا وتضجروا، فجعل موسى يسكنهم ويسليهم، ويعدهم النصرة عليهم، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم؛ ولكن عليهم أن يصبروا، فإن العاقبة المحمودة لهم، ولا ينال ذلك إلا بالاستعانة بالله والصبر على ما يصيبهم من أذى في سبيل الله[1]؛ ولذلك كان الالتزام بهاتين الصفتين (الاستعانة بالله والصبر) من باب التقوى، كما كانت ركيزة هامة للقاعدة الإيمانية التي تبعتها؛ وهي ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، إن الأرض ليست ملكًا لأحد؛ لا فرعون ولا لغيره مهما بلغ هذا الغير من القوة أو الضعف؛ بل هي لله - تعالى - يتصرف فيها كيف يشاء؛ أخذًا وعطاءً، ويورثها من يشاء مؤمنًا أو كافرًا؛ ولكن المهم جدًّا أن العاقبة دائمًا وأبدًا للمتقين ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2] [الحج: ٤١].

ومع كل هذا إلا أن بني إسرائيل ردوا عليه قائلين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ يعنون: أنهم لم يستفيدوا من إرساله، فلا فرق بين الحالين، وما علموا أن استعبادهم من قبل كان احتقارًا وامتهانًا لهم، والاستعباد الثاني كان في سبيل الله، وشتان بين من يُعَذب ولا يُؤجر، ومن يعذب ليزداد رفعة ومثوبة عند الله!!.

وهذه الكلمة بحد ذاتها أكبر من أن تقال لموسى الذي يدافع عنهم، ويريد خلاصهم دون أجر يطلبه منهم، فكان الأليق بهم رد أمرهم إلى الله، وطلب النصرة منه الذي يملك مقاليد، الأمور ويعلم خفايا الصدور ﷻ.

= سورة «البقرة» و«الأعراف»، أما ما في سورة «البقرة»، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي سورة (الأعراف) في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وأما الثالثة فعامة لهم ولغيرهم في سورة «البقرة» أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٤٣)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر: تفسير سورة «الأعراف» للبهي الخولي ص(١١٥)، في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٥).

إنها كما يقول صاحب الظلال: «كلمات ذات ظل، وإنها لتشي بما وراءها من تبرم، أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك، وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية!»[(١)] ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لكن موسى عليه السلام لا تؤثر فيه هذه الكلمات - وهو النبي المؤيد العالم بأنه لا بد أن ينقشع هذا الظلام؛ ليتحول إلى صبح يحمده أهل السرى -.

فيمضي يذكّرهم بالله، ويعلق رجاءهم، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، ويجعلهم خلفاء في الأرض التي وعدهم إياها والتي يمنعكم فرعون من الخروج إليها، فينظر سبحانه كيف تعملون؛ هل ستشكرون النعمة أم تكفرون؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون[(٢)].

وعلى هذا الخوف من فرعون وملئه لم يؤمن لموسى ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾[(٣)]؛ أي: إلا أولاد قومه من الشبان؛ حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأنه كان جبارًا عنيدًا مسرفًا في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا[(٤)].

فقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والاعتماد عليه إن كانوا مؤمنين بالله مطيعين له مستسلمين منقادين لأوامره؛ فكان في هذا رفع لمعنوياتهم واستعداداتهم النفسية لمواجهة المحنة وتحمل

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٥).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٨٢)، دعوة الرسل للعدوي ص(١٩٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩)، وتفسير أبي السعود (٢/ ٢٦٣).

(٣) الضمير في «قومه» عائد إلى بني إسرائيل على الصحيح، لأنه يعود إلى أقرب المذكورين، وهذا قول مجاهد. وضعّف القول الآخر القائل بعوده إلى فرعون وذريته ومؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وماشطته، وهذا بعيد. انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ١٧٠).

(٤) وممن آمن بموسى - كما مر معنا - الرجل المؤمن، ومن النساء: زوجة فرعون التي قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٣)، تفسير أبي السعود (٤/ ١٧٠)، وانظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٥)، التفسير الميسر (١١/ ٢٤٤).

الإيذاء في سبيل الله، وحتى تهذّب هذه النفوس من كل حظوظها؛ لتصبح خالصة لله، وأهلًا للهجرة في سبيله.

فكانت إجابتهم في هذه المرة حاسمة وسريعة على عكس ما اعتدنا عليه من قبل ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٥]، ثم توجهوا لله ـ تعالى ـ يدعونه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]؛ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبيك أو نضعف فيه فرارًا من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفرًا وعنادًا وظلمًا بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق وأننا دعاة الباطل، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦]؛ أي: نجنا برحمتك وإحسانك من سلطان وتسلط وحكم الكافرين؛ لأن حكم الكافر لا يطاق(١).

وقد دعوا بهذا الدعاء لأن التوكل على الله أعظم علامات الإيمان، لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد؛ بل إن الدعاء لا ينافي التوكل على الله؛ بل هو أدل على الاعتماد على الله، والمؤمن لا يتمنى البلاء، ولكن يثبت عند اللقاء، ثم إن الدعاء أصلًا لا يستجاب إلا مع الطاعة واتخاذ الأسباب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وكثيرًا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾(٢) [الملك: ٢٩].

وأمام هذا البناء الروحي والنفسي، وأمام الالتزام بهذه المعاني الإيمانية من استجابة لله ورسوله ودعاء وتضرع، صاحبَ ذلك البناء الروحي الاتجاه إلى البناء العملي، فأوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام وأخيه هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ أي: اتخذا لبني إسرائيل بيوتًا(٣)، ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]؛ أي: قبل القبلة، أو مساجد، أو يقابل بعضها بعضًا ليقيموا فيها الصلاة، فيسهل على موسى إيصال التوجيهات النبوية إليهم، ويتسنى له أيضًا فرزهم وتنظيمهم استعدادًا للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله، وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معًا

(١) تفسير المنار (١١/ ٤٧١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤).
(٢) والمرجع: التفسير المنير (١١/ ٢٤٦)، في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٦).
(٣) تفسير الثعالبي (٢/ ١٨٩).

ضروريتان للأفراد والجماعات؛ وبخاصة قبيل المعارك والمشقات(١).

* قال ابن كثير: «وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم بلاء فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢) [البقرة: ١٥٣]، وفي الحديث: «**كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى**»»(٣).

ثم إنّ موسى عليه السلام بعد أن اتخذ كل هذه الخطوات العظيمة في تربية المؤمنين وفي دعوة فرعون وملئه من قبل، ولما رأى من إصرار فرعون وقومه على الكفر والضلال والعناد والجحود، إضافة إلى اغتصاب ممتلكات بني إسرائيل واستعمالها ضدهم، توجه هو وأخوه بالدعاء عليهم، قال تعالى عنه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٤) [يونس: ٨٨].

---

(١) في ظلال القرآن (٣/١٨١٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٤٤٤).

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧]: «هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوأا البيوت لقومهما فهم لهما تبع، وجمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ لأن موسى هو الأصل في الرسالة، وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان موسى الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة».

(٣) رواه أحمد (١/٣٨٨)، برقم [٢٣٣٤٧] عن حذيفة. ورواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (٢/٧٨)، برقم (١٣١٩). وأخرجه الطبري في تفسيره (٢/١٢)، برقم [٨٤٩، ٨٥٠]. وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/٢٤٥)، برقم [١١٧١]، وفي صحيح الجامع الصغير (٤/٢١٥)، برقم [٤٥٧٩]. وانظر: مشكاة المصابيح تحقيق الألباني (١/٤١٦)، برقم [١٣٢٠]. وانظر: كلام الشيخ مقبل الوادعي عليه. تفسير ابن كثير (١/١٦٧).

(٤) الطمس: محو الآثار حتى لا يرى أو لا يعرف، والمعنى: حتى يعدموا الانتفاع بها، فيذوقوا ذل الحاجة؛ سواءً بالمحق بالآفات، أو الانتقاص من المكاسب والثمرات، أو بأي وسيلة تحقق عدم انتفاعهم بها واستعماله في الضلال والإضلال. وانظر: المفردات ص(٣١٦).

* قال ابن كثير: «هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيءٌ، كما دعا نوح عليه السلام، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾»[1] [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

ومعنى الآية:

يخبر الله ـ تعالى ـ عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٨٨]؛ أي: أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة، ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[2] [يونس: ٨٨]؛ أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك؛ ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]؛ أي: امحق وأزل آثارها وأهلها، ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]؛ أي: اطبع عليها وقسّها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، فيستحقوا شديد العقاب وأليمه[3].

* قال ابن القيم: «وهذا الشد وهذه التقسية من كمال عدل الرب تبارك وتعالى في أعدائه، فإنه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب؛ ولهذا كان محمودًا، فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم، فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلمٌ منهم وسفهٌ، فالقضاء والقدر فعلُ عادلٍ حكيمٍ غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع لهما»[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) اللام في «ليضلوا» لام العاقبة أو الصيرورة، كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فكانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال، ويحتمل أن تكون لام التعليل؛ لكن بحسب ظاهر الأمر؛ لا في الحقيقة نفسها؛ بمعنى أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال، وصارت سببًا لمزيد البغي والكفر، أشبهت هذه الحال حال من أعطي المال لأجل الإضلال، فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى. التفسير المنير (١١/ ٢٥٢)، وانظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم (٢/ ٩٠، ٩١).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٩)، تفسير القرطبي (٨/ ٣٧٤)، تفسير أبي حيان (٥/ ١٨٦)، تفسير القاسمي (٩/ ٧٣).

(٤) شفاء العليل لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾[1] [يونس: ٨٩]؛ أي: استجبنا دعاءكما وقبلناه كما سألتما من تدمير فرعون وملئه، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾؛ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري وعلى ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق، وإلزام الحجة، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج بهم من مصر، لا تستعجلا الأمر قبل أوانه؛ فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]؛ أي: طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعدي؛ فإني منجزه لرسلي[2].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

الإغـراق

بدأت مرحلة هذا المشهد بوحي من العليم لنبيه موسى ﷺ بعد استجابة الله ـ تعالى ـ لدعائه هو وأخيه أن يطمس الله على أموالهم، ويشدد على قلوبهم؛ بأن يخرج ببني إسرائيل ليلًا من مصر دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وليعلم بأن فرعون سيتبعه بجنوده ليقضي الله فيه أمره، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، ونص على أن السرى يكون ليلًا في آية أخرى بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣]، وكان السرى أول الليل، وذلك ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم، ثم علل ذلك الاختيار بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ فوقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا إذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى[3].

(١) حيث كان موسى يدعو وهارون يؤمن على دعائه، ويجوز أنهما كانا يدعوان جميعًا. انظر: تفسير الكشاف (٢/ ٣٦٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥)، تفسير الكشاف (٢/ ٣٦٦)، تفسير ابن عطية (٧/ ٢٠٤، ٢٠٨)، تفسير المنار (١١/ ٤٧٣، ٤٧٤)، التفسير المنير (١١/ ٢٥٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٣/ ٤٦٦)، ولا توجد رواية ثابتة تحصي عددهم، إلا أنه من المؤكد أنهم أقل من عدد جنود فرعون.

فعندما بلغ فرعون خبر خروجهم غاظه ذلك، وظنّ أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم، ويستكملوا قوتهم، فيعودوا إلى مهاجمته، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]؛ أي: سريعًا في المدائن من يجمع لهم الجند الكثيف، والجيش الكثير، ليردهم إلى العبودية وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤ ـ ٥٦]، وانظر إلى كلمة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ في أنها توحي بإكراه فرعون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله؛ لأنهم كانوا يجمعونهم بعنف(١).

فلما تكامل جمعهم قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أراد عدو الله بالقلة: الذلة؛ لا قلة العدد، فهم لقلتهم أمام كثرتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غلبتهم(٢)، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٥]؛ أي: بما فجعونا به من أنفسهم، وما استعاروه من الزينة من أواني الذهب والفضة وفاخر الكسوة، فلا رحمة في قلوبكم تحميهم(٣)، وهذا أسلوب تحريض قصد به إيغار صدورهم على موسى وقومه، ثم أضاف بكبر وغرور وشموخ أنف ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]؛ أي: يقظون مجددون حذرنا باستمرار، فنحن لا نزال على أهبة القتال، ولا نسمح أن نؤخذ على غرة. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور(٤).

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾(٥) [الشعراء: ٦٠]؛ أي: فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل وقت شروق الشمس من صبيحة الليلة التي سار فيها بنو إسرائيل، وهذا من تقدير العزيز العليم الذي أخرجهم جميعًا في ليلة واحدة، فكان ذلك من الخارق للعادة

---

(١) تفسير النسفي (٣/ ١٨٤)، وانظر: نظم الدرر (١٤/ ٣٨، ٣٩).
(٢) تفسير النسفي (٣/ ١٨٥)، وانظر: التفسير الواضح (٢/ ٤٧).
(٣) تفسير نظم الدرر (١٤/ ٣٩).
(٤) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٨٥)، نظم الدرر (١٤/ ٤٠).
(٥) يقال: تبعت القوم فأتبعهم: أي تلوتهم فلحقتهم، كأن المعنى: فجعلتهم تابعين لي بعدما كنت تابعًا لهم. تفسير الألوسي (١٩/ ٨٤)، وانظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٦٢)، المعجم الوسيط (١/ ٨١).
«مشرقين»: قال أبو عبيد: هو من أشرق إذا توجه نحو الشروق، كأنجد توجه نحو نجد، وأعرق توجه نحو العراق والجمهور على الأول. تفسير الألوسي (١٩/ ٨٤)، وانظره في: تفسير الرازي (٢٤/ ١٣٨).

الذي يعجز الملوك مثله، فيا له من حشر ما أسرعه! وجهاز ما أوسعه! واستمروا إلى أن لحقوهم عند البحر الأحمر قريبًا من خليج السويس[1].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ أي: تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾؛ أي: لهالكون على أيديهم وواقعون في قبضتهم، فكيف النجاة[2]؟ ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]؛ أي: ارتدعوا عن سوء الظنّ بالله، فلن يدركوكم؛ لأن الله وعدكم الخلاص منهم، وإن ربي سيهديني إلى طريق النجاة منهم.

وهنا نلحظ في قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، ملحظًا أنه لم يقل: معي ومعكم؛ لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلًا للمعية[3]، وهذا هو التوكل بعينه الذي يحصل به المطلوب، ويندفع المكروه[4]، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وعند ابن أبي شيبة «التوكل على الله جماع الإيمان»[5]، وفي لفظ «جميع الإيمان»[6].

قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

أي: ولما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر ومن ورائهم فرعون وجنوده أوحى الله - تعالى - إلى موسى ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فانفلق فكان كل فرق منه كالجبل الكبير.

---

(١) وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات. انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٩٧). وقيل: النيل. انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٨٥). وخطأ أبو حيان هذا القول وقال: وأخطأ من قال: إنه نيل مصر. انظره في: تفسيره البحر المحيط (٤/ ٣٧٦).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١٩/ ٨٤). وهذا في نظري أي: قول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ضعف يقين منهم، وإلا فقد شاهدوا بأم أعينهم آيات عظام قبلها، وكان الأولى ألا يتزعزع الإيمان في هذا الموطن؛ بل يزيد ارتباطهم ودعاؤهم لله أكثر مما سبق، ولذا رد عليهم موسى عليه السلام ردًّا شديدًا بقوله: «كلا» أي: ارتدعوا عن هذا القول ولا تعيدوه.

(٣) تفسير الألوسي (١٩/ ٨٥).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢٦).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد (٦/ ٧٦)، برقم [٢٩٥٨٩]، و(٧/ ٢٠٢)، برقم [٣٥٣٤٢]، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ. وانظر: شعب الإيمان (٢/ ١١١)، برقم [١٣٢٤].

(٦) كتاب الدعاء للضبي (١/ ٢٣٠)، برقم [٥٩].

وهنا تتدخل العناية الإلهية في اللحظة الحاسمة وفي وقت الخوف والهلع وقت اليأس لتنجي عباد الله، وتهلك أعداءه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ[1] كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ أي: كالجبل العظيم البالغ الشموخ في عنان السماء، ويخبرنا الله في آية أخرى أن أرضية البحر يبست تمامًا لتصبح صالحة للمسير، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وإنما فعل الله ذلك ليطمئن بنو إسرائيل لهذه الطرق، فلا يتعلق بقلوبهم خوف منها، وليغري بذلك فرعون وجنوده بملاحقتهم لما أراد الله بهم من عقوبة، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤]؛ أي: قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه، فدخلوا فيه على أثر بني إسرائيل[2].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥]، بأن خرجوا من الشط الثاني سالمين، وأوحى الله إلى موسى بـ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾ [الدخان: ٢٤]؛ أي: ساكنًا حتى يدخل فيه فرعون وقومه، فلما انتهى إليه فرعون رأى ما رأى هاله هذا المنظر العظيم وتحقق له، وما كان يتحققه قبل، وعرف أن هذا من عند الله حقًا، وندم حيث لا ينفع الندم؛ ولكن ماذا يفعل الآن، فأظهر لجنده تجلدًا، وعاملهم معاملة العِدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي؛ لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو، وهيهات! ويقدم تارة، ويحجم تارات[3]، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا

---

(١) قال صاحب اللسان: «والفِرق من الشيء إذا انفلق منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أراد: فانفرق البحر فصار كالجبال العظام وصاروا في قراره (١٠/ ٢٤٤)».
وقال الراغب: الفِرق: يشبه الفلق، لكن الفلق يقال باعتبار الانشقاق، والفرق باعتبار الانفصال ص(٣٩١).

(٢) وفي تفرق الماء وذهابه معجزة عظيمة حصلت أمام فرعون وجنوده، وكانت كفيلة أيضًا برد فرعون وجنوده عن طغيانهم، ومع ذلك لم يستفيدوا منها، لأن الله طمس بصائرهم، وأغلق قلوبهم عن قبول الحق.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/ ٢٧٢).

بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ [يونس: ٩٠].

ثم إنه عزم على اللحوق بموسى وقومه، فنزلوا البحر حتى إذا تم نزولهم جاء أمرالله ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه: ٧٨]، وانطبق البحر عليهم، وداهمتهم أمواجه، وأيقنوا الهلاك، صاح فرعون يلتمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما اعتاد من قبل عند نزول الآيات[(١)] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(٢)] [يونس: ٩٠]، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان؛ لأنه إيمان وقت مشاهدة العذاب؛ لأن من سنن الله ـ تعالى ـ الجارية في البشر أن التوبة لا تقبل وقت نزول العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥].

ولهذا قال الله لفرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس: ٩١]؛ أي: أتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الإيمان، وقد عصيت الله كثيرًا ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، في الأرض، الضالين المضلين عن الإيمان[(٣)].

ثم بين تعالى صُنعه بفرعون من بين سائر الغارقين من قومه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[(٤)] [يونس: ٩٢]؛ أي: نلقي بك بعدوة من الأرض بدنًا لا روحًا؛ ليعلم من عبدوك ومن رفعوك عن قدرك ومن أضللتهم ضعفك وحقارتك، أو ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك.

وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطئ بالتنجية ـ التي هي الخلاص من المكروه ـ تهكم واستهزاء ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس: ٩٢]، من الأمم الكافرة عبرة من التمرد والطغيان على أوامر الله ـ تعالى ـ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]؛ أي: معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها[(٥)].

---

(١) انظر: تفسير المنار (١١/ ٤٧٦).

(٢) في الآية دلالة على أن البحر لم ينطبق عليه دفعة واحدة. تفسير المنار (١١/ ٥).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦)، تفسير المنار (١١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، تفسير القاسمي (٩/ ٧٤، ٧٥)، والتفسير الواضح (٢/ ٧٢).

(٤) قيل: بدرعك المعروفة المصنوعة من الذهب. انظر: تفسير النسفي (٢/ ١٧٥)، وانظر: تفسير البغوي (٤/ ١٤٩).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦)، تفسير =

وهكذا كانت عاقبة الظلم والإفساد في الأرض دمرها الله، ودمر أصحابها معها؛ لما يريد الله ـ تعالى ـ من تمكين عباده في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي: وأورثنا بني إسرائيل (قوم موسى) الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وهي الأرض المباركة في بلاد الشام؛ وليست مصر؛ لأنهم لم يرجعوا إليها بعد خروجهم منها، وموسى بين أظهرهم[(١)]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، إما بالنصر والتمكين في الأرض، وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦]، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي: إنما حصل لهم ذلك التمام (وهو ما أنعم الله ـ تعالى ـ به عليهم من إنجاز وعده لهم) بسبب صبرهم على دين الله وأذى فرعون[(٢)]، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، من العمارات والبنيان والمزارع وبما فصله في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، وفي قوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩]؛ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله ـ تعالى ـ فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم[(٣)]، وهكذا

= المنار (١١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، تفسير القاسمي (٩/ ٧٤، ٧٥)، التفسير الواضح (٢/ ٧٢).

(١) يؤيد ذلك ما ذهب إليه صاحب الظلال حيث قال: «ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه؛ لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم». (٥/ ٢٥٩٨، ٣٢١٤).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٢٤٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٣).

هلك الطغاة ولم يكن لهم في ميزان الله من شيء، ولم يبال الله بهم حيث هلكوا، فقد كانوا أحقر وأذل على الله ـ تعالى ـ من أن يذكر اسمهم في القرآن إلا للعبرة والعظة، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠]؛ أي: أغرقناهم في صبيحة يومٍ واحدٍ فلم يبق منهم أحد، وتعبير القرآن الكريم بـ ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام المفخم الذي يدل على عظمة الله ـ تعالى ـ وكبرياء سلطانه، فقد شبههم استحقارًا لهم واستقلالًا بعددهم ـ وإن كانوا كثيرين ـ بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر[1]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥ ـ ٥٦].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من
عرض قصة موسى وعقوبات فرعون وقومه

➢ **أولًا**: رأينا من خلال عرض قصة موسى ﷺ حين ولادته أنه ولد في وقت كان الظالم فرعون يقتل فيه الأبناء، ويستحيي فيه النساء، يقتل الأبناء بدون ذنب؛ لخوفه ـ كما زعم ـ من أنه سيولد في بني إسرائيل من يقضي عليه، ويأخذ ملكه.

بينما الحاكم العادل لا يخاف إلا من الله، ولا يسير إلا على منهج الله، ويحكم بكتاب الله، ويتبع سنة رسول الله؛ ليكون محبوبًا من الله، ثم من الملائكة ومن الناس، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[2].

---

(١) تفسير الكشاف (٣/ ٤١٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٢/ ٤٢٤)، برقم [٣٢٠٩].
ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا (٤/ ٢٣٠)، برقم [٢٦٣٧] وزاد: «**وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلانًا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**».

> **ثانيًا**: من لطف الله - تعالى - بأم موسى أن ألهمها بما سلم به ابنها من القتل، وبما بشرها به من رده إليها؛ بأن كانت ترضعه وتأخذ عليه أجرًا؛ تحقيقًا لوعد الله ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، وبذلك وبغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، فكم من أمر كرهه الإنسان وكان قضاء الله فيه خيرًا له! قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعلى الدعاة إلى الله - تعالى - استغلال مثل هذه المواقف لتذكير الناس بأن الفرج بعد الشدة سيأتي سريعًا كما حصل لأم موسى، أو بعد حين، فعلى المسلم أن يكثر من التضرع والتوسل والدعاء فيما يحل به من بؤس أو ضرر أو مرض، ولا يستعجل الإجابة؛ فإن الله لا مكره له[١]، وأنه إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه بالتدريج؛ لا دفعة واحدة[٢].

> **ثالثًا**: إن ما حصل للأمم السابقين إنما يستفيد منه ويستنير به المؤمنون، وما ذكر من القصص في القرآن هدفه العبرة والعظة لمن كان له قلب، كما قال تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

> **رابعًا**: إن الأمة المستضعفة مهما بلغت في الضعف لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها، ولا اليأس من الارتقاء إلى معالي الأمور؛ خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما علمنا من إنقاذ الله لبني إسرائيل على ضعفها، واستعبادها لفرعون وملئه منهم، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين[٣]. فعلى الأمم والجماعات المطالبة بحقوقها السعي لإيجاد السبل لتخليصها من القهر والظلم وإذا علم الله صدق توجههم هداهم سبله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

> **خامسًا**: من أعظم نعم الله على العبد تثبيته إياه وقت المخاوف والكروب، ولولا ذلك لضاع فكره، وذهل عقله.

---

(١) لحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**». انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (١١/١٦٩)، برقم [٦٣٤٠]. ورواه مسلم، كتاب الذكر، باب بيان أنه استجاب للداعي (٤/ ٢٠٩٥)، برقم [٢٧٣٥].

(٢) انظر: تفسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص(١٧٩).

(٣) انظر: المصدر السابق ص(١٧٩).

هذه أم موسى كاد قلبها أن يطير، وقاربت أن تظهر أمره لولا أن الله ثبتها وصبرها وملأ قلبها بالإيمان والاطمئنان والسكينة.

وقد أخذ العلماء من ذلك أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله كما جرى لأم موسى ولموسى نفسه حين أخرج(١).

➢ **سادسًا**: الأخذ بالأسباب في فعل الخير مطلب شرعي؛ لأنها من قدر الله، فعلى المسلم ألا يهمل فعل ذلك، ويركن إلى التواكل بزعم أنه يفعل التوكل(٢)، فهذه أم موسى أرسلت ابنتها لتقص خبر أخيها، فكان فعلها سببًا لرده إلى أمه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣].

➢ **سابعًا**: إن أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع جائز شرعًا كما فعلت أم موسى؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه(٣).

➢ **ثامنًا**: القتل الخطأ ذنب، بدليل وجوب الكفارة؛ لما فيه من الإهمال، أو التقصير، أو لتجاوزه الحدود المألوفة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ٩٢]، فهذا موسى ﷺ خاف من ذنبه هذا، وطلب من الله - تعالى - المغفرة والصفح، فغفر له، ومن ذلك نأخذ أن قتل الكافر المعاهد بعقد أو عرف لا يجوز.

ومن قتل نفسًا بغير حق فإنه يعد من المفسدين الجبارين وإن زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل تلك النفس(٤).

➢ **تاسعًا**: إن في دخول المعارك دون استعداد معنوي ومادي عصيانًا لأمر الله القائل: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فمع الإيمان لا بد من قوة تدمر الشر وأهله، وتنصر الحق وحزبه، فهذا الذي سبب لموسى ﷺ المتاعب

---

(١) انظر: التفسير المنير (٢٠/٦٩)، تيسير الكريم الرحمن ص(١٧٩).

(٢) الفرق بين التوكل والتواكل: التوكل: يقال: توكل بالأمر، إذا ضمن القيام به. ووكلت أمري إلى فلان؛ أي: ألجأته إليه، واعتمدت فيه عليه. التواكل: يقال: استعنت القوم فتواكلوا؛ أي: وكلني بعضهم إلى بعض، ويقال: رجل وكلةٌ إذا كثر من الاتكال على غيره. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/٢٢١، ٢٢٢).

(٣) تسير اللطيف المنان ص(١٧٩، ١٨٠). (٤) انظر: المصدر السابق ص(١٨٠).

باسم بني إسرائيل قد دخل المعركة دون ظهر يحميه، مثيرًا للفتنة بكثرة اشتباكاته التي لا تثمر؛ بل تجر المشاكل الكثيرة على قومه وهم في غنىً عنها بما يصيبهم من ويلات الاستعباد والإهانة الجماعية.

> **عاشرًا:** احتج أهل العلم بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، على منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم، نص عليه عطاء بن أبي رباح(١) بقوله: «فلا يحل لأحد أن يعين ظالمًا، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئًا من ذلك فقد صار معينًا للظالمين». وفي الحديث: «**من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام**»(٢).

وفي الحديث أيضًا: «**من مشى مع ظالم ليعينه ـ وهو يعلم أنه ظالم ـ فقد خرج من الإسلام**»(٣).

والمقصود أن إعانة الظالم على الظلم ظلم، والواقع أن المسلمين عمومًا ـ إلا القليل منهم ـ يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الظالم، ومن هنا كان من أولويات

---

(١) عطاء بن أبي رباح: هو الإمام أبو محمد عطاء بن أبي رباح، كان من أجلاء فقهاء التابعين بمكة، أخذ العلم عن ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وإليه وإلى مجاهد انتهت الفتوى بمكة في زمانهما، وكان يصيح الصائح في الحج: «لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، توفي رحمه الله سنة (١١٥) من الهجرة، وقيل بغيرها. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨: ٨٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٣)، حلية الأولياء (٦/ ٣٤٨).
وهو في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (٣/ ٨٣)، برقم [٥٦٠٤].

(٣) التاريخ الكبير لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٤/ ٢٥٠)، برقم [٢٦٩٣] (٤/ ٢٥٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه: عياش بن مؤنس ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله وثقوا (٤/ ٢٠٥). والآحاد والمثاني (٤/ ٢٤٩)، (٥/ ٢٩٥)، الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٥٥) إلا أنه قال: «فقد خرج من الإيمان»، وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة لابن حجر (١/ ١٧٦)، انظر: مسند الشهاب وفيه قال رسول الله ﷺ: «**من مشى مع ظالم فقد أجرم، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾** [السجدة: ٢٢]» (١/ ٢٤٣)، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢). ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٢٢). ومعجم الصحابة لأبي الحسين عبد الباقي بن قانع (١/ ٣٤). وفي مسند الشاميين «للطبراني» (٢/ ٢٧٦)، برقم [١٣٣٣].

واجبات الداعي المسلم تبصير الأمة بحرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم؛ لأنه ما كان ليستمر في ظلمه وبغيه لولا معونة أعوانه، ثم إن كثيرًا من المسلمين لا يرون بأسًا ولا تناقضًا بين معونة الحاكم الظالم، وبين الالتزام المطلوب بأحكام الإسلام، وبهذا تراهم يصلون ويصومون؛ بل يبنون المساجد وهم من أكثر الناس عونًا للظالم، وتنفيذًا لأوامره الجائرة في حق الإسلام ودعاته.

لذا ينبغي لدعاة الإسلام تبصير الأمة بما ورد في النهي عن معونة الظالم، وذكر الآيات الدالة على عدم الركون إليهم ومعاونتهم، ويستدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وقد جاء في تفسيرها: الركون: هو الميل اليسير إلى الشيء. والنهي متناول للانحطاط في هوى الذين ظلموا، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم، ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم[1].

فإذا كان هذا داخلًا في معنى الركون إلى الذين ظلموا المنهي عنه والمترتب عليه دخول النار، فكيف بمن يعينهم فعلًا على ظلمهم، وينفذ أوامرهم الظالمة!!

إن من يفعل ذلك يكون ظالمًا مثلهم، وانظر إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، فقد وصفهم الله جميعًا بالخطيئة، ومن خطيئتهم الظلم الذي كانوا يرتكبون في حق بني إسرائيل جميعًا، ويدل على ذلك أيضًا اشتراكهم جميعًا في العذاب وما وقع عليهم من غضب الجبار ﷻ بأخذهم جميعًا بالغرق في البحر، واستحقاقهم العذاب في عالم البرزخ إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

وأما في الآخرة فاسمع ما قال الله عنه وعنهم: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٨]، إنهم يعذبون جميعًا في نار جهنم أشد العذاب، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فعلى

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (٢/٤٣٣).

من ابتلي بمثل هذا أن ينصح لهم، ولا يتركهم ويتعلل ويتأول الأمور فيفتي نفسه؛ لأن العقاب من الله يعم الجميع، نعوذ بالله من ذلك!.

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه**»[(١)].

ثم إنه ينبغي للدعاة إلى الله ـ تعالى ـ التركيز على تقبيح الظلم وأهله في عيون الناس؛ لئلا يغتروا بمعاونتهم أو حتى الدعاء لهم بطول البقاء أو بطول العمر، ورد ذلك عن سفيان الثوري[(٢)] والحسن البصري[(٣)] ـ رحمهما الله تعالى ـ حيث قالا: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه»[(٤)]. ومن الواضح أن معونة الحاكم الظالم أشد عصيانًا لله ـ تعالى ـ من مجرد الدعاء، فإذا نُهي المسلم عن مجرد الدعاء للظالم فنهيه عن معونته أولى[(٥)]، وعند الزمخشري «أن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥، ٧، ٩)، برقم [١٦، ٣٠، ٥٣].

رواه أبوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ٥٠٩، ٥١٠)، برقم [٤٣٣٨]، ورواه الترمذي وصححه، كتاب الفتن (٨) ما جاء في نزول العذاب إذا لم ينكر (٤/ ٤٦٧)، برقم [٢١٦٨، ٣٠٥٧]، ورواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/ ١٣٢٧)، برقم [٤٠٠٥]، ورواه ابن حبان في موارد الظمآن، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/ ٨٢٣)، برقم (١٨٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم [١٦٥٤].

(٢) سفيان الثوري: شيخ الإسلام، إمام حافظ مجتهد، ولد سنة (٩٧) هـ، ومات سنة (١٦١) هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩، ٢٧٩)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٨٦، ٣٩٠).

(٣) الحسن البصري: أبو سعيد الحسن بن أبي محمد يسار البصري، مولى الأنصار، وأمه (خيّرة) مولاة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها من سبي ميسان ـ وهي بين البصرة وواسط ـ، سكن المدينة، وأعتق وتزوج بها في خلافة عمر، فولد له الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وتوفي سنة (١١٠) هـ، وعمره (٨٨) سنة رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣ ـ ٥٨٨)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢٣١، ٢٣٦).

(٤) انظر: شعب الإيمان (٧/ ٥٤)، حلية الأولياء (٧/ ٤٦). وذكره الزمخشري في الكشاف عن النبي ﷺ (٢/ ٤٣٣).

(٥) تفسير الكشاف (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤). ولولا خشية الإطالة لأكثرت من ضرب الأمثلة من الواقع.

سفيان الثوري سئل عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، قيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت»[1]. فإذا كان هذا في الظالم فالنهي عن معونة الحاكم الظالم لا شك أنه من باب أولى.

> الحادي عشر: إذا خاف الشخص تلف نفسه بالقتل بغير حق فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم، بل يفر إلى مكان آخر كما فعل موسى ﷺ، وكما فعل نبينا محمد ﷺ حين أراد قومه قتله، فعلى كل من أوذوا من الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أو ضيق عليهم أو هددوا بالقتل أن يختاروا مرتعًا آخر يرون أن فيه المصلحة إلى حين؛ لأنه إذ كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعيّن ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعًا لما هو أعظم وأخطر[2].

> الثاني عشر: أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة؛ بل قد يكون واجبًا، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذرًا لموسى على وجه الثناء عليه[3]، وهكذا تكون رابطة الإيمان قوية بين المؤمنين أقوى من الاجتماع على طعام، وأقوى من الملازمة للتعلم، وأقوى من أخوة النسب.

> الثالث عشر: اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ في الرخاء والشدة شأن المؤمن، فهذا موسى ﷺ حين خرج خائفًا لا يلوي على شيء يترقب الطلب دعا الله قائلا: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] [القصص: ٢١]، وهكذا المؤمن إذا وقع به كرب أو هَم أو غمّ فإنه يفوض أمره إلى الله، ويطلب من الله ـ تعالى ـ أن يهيئ له أسباب الفرج، وأن يفتح له أبواب الخير.

> الرابع عشر: أخذ العلماء من قول الله ـ تعالى ـ على لسان موسى: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، أنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التحدث به إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يسأل ربه أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه؛ فإن الله لا يخيّب من

---

(١) تفسير الكشاف (١/ ٣٤).

(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان ص(١٨٠).

(٣) المصدر السابق ص(١٨٠)، وانظر: أيسر التفاسير (٣/ ٣٨٩).

(٤) انظر: التفسير المنير (٢٠/ ٧٩).

هذه حالهُ[1].

➢ **الخامس عاشر**: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين[2].

ونأخذ من هذا أيضًا أنه يجوز للمرأة أن تعمل خارج بيتها للضرورة، والحاجة بالشروط المعروفة الخالية من المحاذير، فعلى الدعاة حين التحدث عن مثل هذا أن ينبهوا الناس إلى أن الأصل للمرأة هو القرار في البيت؛ إلا أنه يجوز لها عند الحاجة أن تخرج وأن تعمل إذا خلا ذلك العمل من المحاذير الشرعية.

➢ **السادس عشر**: من الرحمة والإحسان على الخلق مساعدة المحتاج ولو لم يطلب ذلك، كما فعل موسى ﷺ حين سقى لبنتي الشيخ الكبير دون أجر، فعلى الدعاة استغلال مثل هذه المواقف؛ لأنها مؤثرة جدًّا في الدعوة إلى الله، وتكسب الداعي إلى الله صحبة دائمة مع المدعو.

➢ **السابع عشر**: أن الله ـ تعالى ـ كما يحب من السائل أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله القريب من كل عبد[3].

وقول موسى: ﴿مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، يشعرنا بهوان الدنيا على الله ـ تعالى ـ، وإلّا فإنه يستطيع أن يعطي موسى ما يشاء؛ ولكنه سبحانه رضي له ما يدخره له في الآخرة، فعلى الدعاة إلى الله أن يلجؤوا إلى الله ـ تعالى ـ إذا افتقروا، وأن يتخذوا الأسباب الكافية بمعاشهم؛ من تجارة، أو تدريس، أو إمامة، وغير ذلك مما هو مشروع مع الرضا والتسليم.

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٨٠).

(٢) حيث جاءته ـ أي: موسى ـ إحداهما على استحياء، فكلمته بكلام أبيها متسترة بكم درعها، كما قال ذلك عمر رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة. قال ابن كثير: إسناده صحيح (٣/ ٣٩٦).
قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجسور؛ أي: الجريء، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦).

(٣) تيسير اللطيف المنان ص(١٨١).

➢ **الثامن عشر**: أن العبد إذ عمل العمل لله خالصًا ثم حصل على مكافأة عليه بغير قصده، فإن هذا لا يقدح في فعله، ولا يخل بإخلاصه، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين(١)، وإن رد ذلك بحكم عدم احتياجه أو زهده فيه فهذا من كماله وورعه.

➢ **التاسع عشر**: بيان أن الكفاءة شرط في العمل، والمقصود بها: القوة البدنية والأمانة، وقد استنبطتهما بنت الرجل الصالح من فعل وصفة موسى ﷺ؛ حيث قالت لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

* قال الشيخ السعدي رحمه الله: «هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها، فكل عمل من الولايات، أو من الخدمات، أو من الصناعات التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال، إذا جمع الإنسان الوصفين: أن يكون قويًّا على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكون مؤتمنًا عليه، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما»(٢).

➢ **العشرون**: دل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، على مشروعية الإجارة على كل عمل معلوم، وأن مرد ذلك إلى العرف، وأنه تجوز الإجارة وتكون المنفعة البضع، كما قال صاحب مدين: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧]، وأنه يجوز للإنسان عرض ابنته على الرجل لخطبتها ولا عيب ولا نقص في ذلك كما فعل صاحب مدين، وكما عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر، ثم عرضها بعد ذلك على عثمان، وكما عرضت الواهبة نفسها على رسول الله ﷺ، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: «لما تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة السهمي(٣) وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري» الحديث، وكذلك فعل مع أبي بكر؛ لكنه امتنع؛ لأن النبي ﷺ ذكرها بخير فلم يفش سره. والمقصود أنه لا غضاضة في أن

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص(١٨١). (٢) المصدر السابق ص(١٨١).

(٣) من المهاجرين الأولين، وهو زوج حفصة بنت عمر قبل النبي ﷺ، شهد بدرًا وأحدًا، وأصابه جراحة بأحد فمات منها. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر (٢/ ١٤٧)، وانظر: الجرح والتعديل (٣/ ٣٩٤).

يعرض الإنسان موليته على أهل الخير، وقد بَوَّبَ البخاري بابًا بذلك فقال: «باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير»[(١)].

➢ **الحادي والعشرون:** من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بالإنسان المسلم؛ من خدم، وأجراء، وزوجة، وولد وغيرهم. ومن ذلك تخفيف العمل على العامل، ومساعدته إذا كثر عليه العمل، أو زيادة أجره، كما قال صالح مدين: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ [القصص: ٢٧]. ومنها أيضًا ترغيب العامل في معاملته، إما صراحةً أو تعريضًا، كأن يقول: اسأل عني، أو لم يتذمر أحد مني، ونحو ذلك، بشرط أن يكون كما قال صالح مدين: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

➢ **الثاني والعشرون:** مشروعية عقد المعاملات من إجارة وغيرها بغير إشهاد، والاكتفاء بإشهاد الله عليها بمثل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾[(٢)] [القصص: ٢٨]، إلا أنه حصل في هذه الأزمنة كثيرٌ من خراب الذمم وإنكار الحقوق واغتصابها بحجة عدم الإثبات، فالأفضل الإشهاد وتقييد ذلك بوثائق تحفظ عن طريق المحاكم والدواوين؛ لما فيها من فض المنازعات وحفظ الحقوق.

➢ **الثالث والعشرون:** دلت آية ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القصص: ٢٧]، على اجتماع عقدين هما: الإجارة والزواج[(٣)]، قال الخطابي: «إن منافع الحر قد يجوز أن يكون صداقًا كأعيان الأموال، ويدخل فيه الإجارة وما كان في معناها؛ من خياطة ثوب، ونقل متاع، ونحو ذلك من

---

(١) كتاب النكاح، باب عرض الإنسان بنته أو أخته على أهل الخير (٣/٣٦٨)، برقم [٥١٢٢].

(٢) انظر: أيسر التفاسير (٣/ ٣٩٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٧٦) حيث قال: اختلف علماؤنا في ذلك على أربعة أقوال: **الأول**: قال في ثمانية أبي زيد: يكره ابتداءً، فإن وقع مضى. **الثاني**: قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز، ويفسخ قبل الدخول وبعده. **الثالث**: أجازه أشهب وأصبغ، **الرابع**: قال محمد: قال ابن الماجشون: إن بقي بعد المبيع ـ يعني: من القيمة ـ ربع دينار يقابل البضع جاز النكاح وإلا لم يجز. ثم قال بعد توجيه هذه الأقوال: والصحيح جوازه، وعليه تدل الآية، وقد قال مالك: النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فرق بين إجارة وبيع، أو بيع ونكاح، وهو شبهه إلا من جهة الرجلين يجمعان سلعتهما، وإذا كانتا لرجل واحد جاز والعاقد هنا واحد؛ وهو الولي.

الأمور»[1].

➢ **الرابع والعشرون: فضل موسى ﷺ، حيث أجّر نفسه على شبع بطنه، وعفة فرجه، وقضى أوفى الأجلين[2].**

➢ **الخامس والعشرون:** أيد الله موسى ﷺ بمعجزات عدة منها: انقلاب العصا إلى حية، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء.

ومنها: انفلاق البحر لموسى، ودخوله فيه هو وقومه، وخروجهم منه وغرق فرعون، وغيرها مما أيد الله به موسى من معجزات نقلتها الكتب السماوية، وصدقها القرآن، ونقلتها القرون كلها، فمن أنكرها فهو جاهل مكابر زنديق.

➢ **السادس والعشرون:** بيان فضل موسى ﷺ على الله، حيث اختصه برسالاته وبكلامه، فناداه وناجاه بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وشرح له صدره، ويسر له أمره، وأثنى عليه في القرآن فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥١]، وقال عنه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وأثنى عليه النبي ﷺ فقال: «**لا تخيّروني على موسى؛ فإن النّاس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، لا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله**». أي: فإن كان أفاق قبلي ففيه فضيلة ظاهرة، وإن كان ممن استثنى الله فلم يصعق فهي فضيلة أيضًا[3].

➢ **السابع والعشرون:** في قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، دليل على

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٥٨٦، ٥٨٧) في شرح الخطابي لحديث «**زوجتكها بما معك من القرآن**» الذي أخرجه البخاري في النكاح، باب التزويج على القرآن وبغير صداق (٣/ ٣٧٥)، برقم [٥١٤٩].
ومسلم في النكاح، باب الصداق (٢/ ١٠٤٠)، برقم [١٤٢٥].

(٢) لما في صحيح البخاري «إن سعيد بن جبير سأل ابن عباس: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل» البخاري مع الفتح، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد وفِعْلِه الحسن (٥/ ٣٦٢، ٣٦٣)، برقم [٢٦٨٤].

(٣) البخاري مع الفتح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكرُه بعده (٦/ ٥٤٤)، برقم [٣٤٠٨].
ومسلم بشرح النووي في كتاب الفضائل، باب فضائل موسى ﷺ (١٥/ ١٢٩، ١٣١).

أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمرًا؛ فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج[1].

> **الثامن والعشرون**: الحذر من ذوي السلطة والخوف منه لا يقدح في الداعي إلى الله؛ لأنه بمثل ذلك يكون أشد حذرًا في جميع تصرفاته؛ لئلا يتوقف عن الدعوة، فيحرم الناس دعوته؛ ولذا ينبغي للدعاة عدم مجابهة ذوي السلطة المعروفين بتصيد الأخطاء وإلصاق التهم بالدعاة؛ وإنما مداراته ومجادلته بالتي هي أحسن؛ لئلا تقف الدعوة بالكلية، وإذا فرض توقف صوت الداعي فلا يعدم أسلوبًا آخر يفعله؛ إما بقلمه، أو تعليم غيره سرًّا، وغير ذلك من الأساليب مع الاستعانة بالله ثم بإخوانه الدعاة.

فهذا موسى عليه السلام خاف أول الأمر من فرعون، وطلب أن يكون أخوه هارون معه؛ ولكن حينما بدأ في الدعوة استمر معه في بيان الحق؛ متنقلًا من أسلوب إلى أسلوب، ومن حوار إلى حوار، ومن إظهار معجزة إلى أخرى حتى نصره الله عليه في النهاية.

> **التاسع والعشرون**: بث روح الأمل في نفوس المدعوين؛ بتلاوة آيات القرآن الدالة على أن العاقبة للمتقين الملتزمين بأوامر الله المنتهين عن نواهيه، فلا بد للظلم أن ينقشع والليل أن يصبح مهما اشتدت النكبات على الأمة، وازدادت التهديدات، وتنوعت المؤامرات، فهذا موسى عليه السلام مرت به تلك الأمور وبشعبه، وكانت العاقبة له ولقومه كما قال الله عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

> **الثلاثون**: التبعية والاستضعاف لا تغني أصحابها ولا تسمنهم من جوع، لماذا؟ لأن الله منحهم كرامة الإنسانية، وكرامة الاختيار والحرية؛ ولكنهم أنفسهم تنازلوا عن ذلك وانساقوا وراء الكبراء والطغاة، لم يقولوا لهم يومًا؛ لا بل لم يفكروا أن يقولوها؛ بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يملونه عليهم من ضلال، فكان مآلهم معهم في النار، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولًا وإمعات، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنمًا تساق لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار، لقد رأوا الحق بأم أعينهم

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٨١).

يوم إتيان السحرة بحبالهم وعصيهم، ورأوا الغالب والمغلوب، فلم يجرؤ غير السحرة أن ينطق ببنت شفة، ورأوا الآيات الباهرات تتابع عليهم الواحدة تلو الأخرى، فيسخرون من موسى، ويَعِدُونه الإيمان إن دعا ربه فكشف ما بهم، ورأوا كذب فرعون ودجله في كل مكان يرتادونه، وأخيرًا رأوا انفلاق البحر فلم يزدهم إلا تبعية واستضعافًا لما يقوله فرعون، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨].

> **الحادي والثلاثون:** إذا كان في إظهار عمل أمام الناس خير فيه مصلحة راجحة؛ كأن يقتدى به، أو فيه تشجيع للآخرين، فإظهار الإيمان بالله ـ تعالى ـ من باب أولى كما فعل السحرة حين رأوا الحقيقة تتجلى أمامهم، وأن ما يفعلونه ما هو إلا كيد وعناد وإظهار لموالاة الطاغية، وحب لما في يديه من زخرف الدنيا وزينتها، وأن ما أتى به موسى حق من عند الله؛ وليس من عنده؛ لأنهم رواد فَنِّهم، وما أتى به موسى ليس من جنس فعلهم، فأعلنوا الإيمان أمام فرعون الطاغية أولًا، ثم أمام الناس ثانيًا، فلعل ذلك يشعل في قلوبهم وضمائرهم حب الإيمان وترك ما هم عليه من الطغيان، فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ الاستفادة من مثل ذلك في إظهار الدعوة كلما كان ذلك مفيدًا لها، وكذلك على المستجيب إظهار ذلك كلما كان ذلك مفيدًا.

> **الثاني والثلاثون:** قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. تدل هذه الآية على ضعف الإنسان؛ لأنه خلق كذلك مهما وصل في ترقيه لمناصب الدنيا. ومما يدل على ضعف فرعون المدعي للألوهية أنه استعان بالسحرة في إبطال كيد موسى ـ كما يزعم ـ، وكان الأولى أن يبطله هو، وكذلك حينما استشار قومه في أمر موسى فأشاروا عليه أن يرجئه وأخاه، وكان الأولى ألا يستشير، وكذلك حينما قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، كأنهم هم الذين يمنعونه، كل ذلك يدل على ضعفه، والعجب أن القوم لم ينتبهوا لذلك، أو تنبهوا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

> **الثالث والثلاثون:** طلب التثبيت من الله ـ تعالى ـ مطلب شرعي، يحبه

المؤمنون، ويسعون في تحصيل ذلك بكثرة الدعاء فيقولون في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ويحصل ذلك بالصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، وبالصبر على كيد الأعداء، فنقول كما قال السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وكما قال المؤمنون الذين برزوا لجالوت وجنوده: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وانظر إلى كلمة «أفرغ» الدالة على المبالغة في طلب كمال الصبر.

ومع الصبر نطلب التثبيت من الله ـ تعالى ـ؛ لئلا نخرج عن طوره إلى الجزع أو التسخط أو الاستعجال على الله ـ تعالى ـ ليؤول الأمر بعد ذلك إلى النصر؛ فمن آمن وصبر وثبت كانت له الغلبة في النهاية.

* يقول صاحب تفسير المنار: «ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبرًا على مشاق الحرب من غيرهم»(١).

> **الرابع والثلاثون:** رابطة الأخوة الإيمانية تتجلى في شخص مؤمن آل فرعون، وذلك حين دافع عن سيدنا موسى عليه السلام حين أرادوا قتله، فانبرى يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وحاول أن يستغل الصلة بينه وبين فرعون لصالح الدعوة والدعاة، فأخذ يحاجّهم بدعوى مصلحتهم **أولًا**، ثم إنه لا ينبغي لهم معاداة موسى؛ لأنه لم يأمرهم بباطل **ثانيًا**؛ فإن كان كاذبًا فعليه كذبه، وإن كان صادقًا فلا تتعرضوا له، فلربما يصيبكم شيءٌ مما يقول فتهلكون.

فعلى من له صلة من الدعاة إلى الله بأهل السلطة أن يستثمروا صلتهم في تبليغ

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٧٧). وانظر في ذلك: سير الصحابة والتابعين، فقد كان الواحد منهم يحرص على أن يقتل في سبيل الله كما يحرص أحدنا اليوم على الحياة أو أشد، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية؛ ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئًا كثيرًا في ساعة الشدة». في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٦).

دعوة الله إليهم باللطف واللين أولًا، ثم بمسايستهم في أمر الدعوة دون مداهنة أو رضى بمنكر؛ لئلا يلحقوا الأذى بالدعوة والدعاة.

> **الخامس والثلاثون**: على الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ تبليغ الدعوة بلطف ولين ـ كما تقدم ـ، وزيادة على ذلك عليهم ألا يجابهوا أصحاب السلطة بالكلمة النابية أو التجريح المتكلف فيه أمام الناس أو فوق المنابر؛ بل الأفضل الاتصال بهم عن قرب ونصحهم ما دام يُسمع ذلك، فإن رأوا منهم جفاءً وتهديدًا فليلجؤوا إلى الهدنة والمسالمة للتمكن من تبليغ الدعوة بالكلمة الطيبة، كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠]؛ أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أو فعل، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١][(١)]؛ أي: فلا تتعرضوا لي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا[(٢)].

> **السادس والثلاثون**: إذا واصل الطغاة تهديداتهم، ولم يتركوا الأمر مسالمة، وأخذوا في تنفيذ تهديدهم؛ فإن على الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ تحذير الناس من ظلمهم، وإعداد أنفسهم ومن معهم لاختيار بيئة أفضل ومكان أخصب لإبلاغ الدعوة، وتكوين النفس وتدريبها على الطاعة وشحذ الهمم وإعدادها لما هو أكبر من ذلك؛ وهو الجهاد في سبيل الله، ومنازلة أعداء الله، كما فعل موسى حين خرج بقومه، وكما فعل محمد ﷺ حين أخرجه قومه.

> **السابع والثلاثون**: بعد إيمان الشباب الذين قال الله عنهم: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، كان لا بد من إيقاف زحفه بين بني إسرائيل؛ لأن كل واحد منهم بدأ يدعو إلى الإيمان بموسى عليه السلام والكفر بفرعون، مما أدى إلى استجابة بعضهم، فما كان أمام الملأ إلا تحريض فرعون وتشجيعه للفتك بموسى وقومه؛ ليزدادوا عنده حظوة ومكانة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فعلى من هم بطانة للحكام والسلاطين أن يتقوا الله فيما يشيرون به عليهم برفق

---

(١) تقدم تفسير ذلك ص(٤٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٢).

ولين كلام بلا تشويش ولا غلظة، وهذا يُحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع؛ وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود من التذكر والخشية، وإلا فقد أعذروا إلى الله.

➢ **الثامن والثلاثون:** أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إمامًا في الشر وداعيًا إليه، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا إليه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

➢ **التاسع والثلاثون:** أمر الله موسى عليه السلام بأن يتخذ لبني إسرائيل أماكن خاصة للصلاة في البيوت متجهة إلى القبلة بعد أن خرب فرعون مساجدهم وآذاهم في دينهم، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعًا لموسى عليه السلام.

وقد استنبط العلماء من جواز أداء الصلاة في البيوت أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة؛ لأن النبي ﷺ لما مرض تخلف عن المسجد وقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»(١). متفق عليه. أو زيادة مرض، أو مدافع للأخبثين، ومن بحضرة طعام محتاج إليه، وخائف ضياع ماله أو فواته أو ضررًا فيه، أو موت قريبه أو رفيقه، ولم يكن من يمرضهما غيره، أو يخاف على أهله، أو ولده، أو على نفسه، من ضرر كسبع أو سلطان، أو ملازمة غريم ولا شيء معه؛ لأن حبس المعسر ظلم لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أو يخاف فوات رفقته بسفر مباح، أو أذى بمطر ووحل ونحوه، وبريح باردة شديدة في ليلة مظلمة؛ لقول ابن عمر رضي الله عنه: كان النبي ﷺ ينادي مناديه في الليلة الباردة أو المطيرة: «**صلوا في رحالكم**»(٢)، وكذا تطويل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب حدّ المريض أن يشهد الجماعة (١/ ٢٢١)، برقم [٦٦٤]. رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذ عرض له عذر (١/ ٣١١)، برقم [٤١٨]، [٤٢٠].

(٢) في الصحيحين عن ابن عباس أنه قال لمؤذنه في يوم مطير، زاد مسلم: في جمعة: إذ قلت: أشهد أن محمدًا رسول الله فلا تقل: حي على الصلاة ولكن قل: (صلوا في رحالكم) الحديث.

رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة (١/ ٢١٢)، برقم [٦٣٢].

=

إمام، ومن عليه قَوَدٌ يرجو العفو عنه[1].

➢ **الأربعون**: تدل استجابة الفئة المؤمنة لموسى عليه السلام بعد أن دعاهم عليه السلام إلى التوكل على الله ـ تعالى ـ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٥ ـ ٨٦] على اهتمامهم بأمر دينهم، وتفضيله على أمر دنياهم؛ لذا أعدهم موسى بعد اطمئنانه على صدق قولهم لما هو أعظم من ذلك دون تكبد المشاق ومنازلة الأعداء.

لذا ينبغي على الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ تزهيد مدعويهم في أمور الدنيا، والتخفيف من أعبائها؛ لأن من كثر شغله فيها زاد حبه لها، وكثر اهتمامه بها، وفي الحديث «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[2]. «**فاللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**»[3].

➢ **الحادي والأربعون**: مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم ليقطع الله دابرهم ويريح البلاد والعباد منهم.

ثم ليعلم أن موسى وهارون لم يحصل منهما الدعاء على قومهما إلّا بعد اليأس من إيمان القوم، وبعد نفاذ الصبر من تعسف فرعون وظلمه واستهزاء ومعاونة قومه له، فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ الصبر والتأني في دعوة من يريدون، ولا يدعون عليهم بمجرد الإعراض؛ وإنما ينبغي تكرار الدعوة مرات

= رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الصلاة في الرحال في المطر (١/ ٤٨٤)، برقم [٦٩٧]، [٦٩٩].

(١) حاشية الروض المربع (٢/ ٣٥٧: ٣٦٣)، عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي (١٣١٢ ـ ١٣٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب...**» (٤/ ١٧٦)، برقم [٦٤١٦].

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ٨٠ (٤/ ٥٢٨)، برقم [٣٥٠٢]، قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٦٨)، برقم [٢٧٨٣]. وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤٠٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٤٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٧٤)، وصححه الحاكم، كتاب الدعاء (١/ ٧٠٩، ٧١٠)، برقم [١٩٣٤] وقال: على شرط البخاري. ووافقه الذهبي.

وكرات مع طلب الله لهم الهداية، والدعاء لهم لا عليهم؛ لأن أصل الإيمان موجود؛ وإنما الداعية المخلص هو الذي يخرجه إلى الوجود بالكلمة الطيبة، والموعظة الرقيقة، والمجادلة الحسنة.

> **الثاني والأربعون**: كثرة المال، وأنواع الزينة، والانغماس في ذلك، والتلهي بها، يسبب الضلال لصاحبه[1]. فعلى الدعاة إلى الله ترغيب الناس في أن ما عند الله خير وأبقى، وألذ وأشهى، وأن في الجنة «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2] [السجدة: ١٧]».

> **الثالث والأربعون**: إجابة الدعوة لها وقت مخصوص في علم الله وتقديره، ولا يجوز استعجاله؛ لما فيه من الجهل وسوء الأدب في مخاطبة الله ـ تعالى ـ، وإنما تترك الإجابة حسب تقدير الله وتصريفه الأمور.

ولذلك استجاب الله دعوة موسى وهارون عليهما السلام، وأمرهما بالاستقامة على أمره، ونهاهما أن يسلكا سبيل الذين لا يعلمون حقيقة وعد الله ووعيده، وعليهما ألا يستعجلا أمره؛ فإنه كائن لا محالة.

وهكذا العبد عليه الإكثار من دعاء الله، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وعليه ألا يستعجل الإجابة فيقول: دعوت ودعوت فلم يستجب لي[3].

> **الرابع والأربعون**: أهل المسجد يؤمنون على دعاء الإمام في الخطبة والقنوت ونحوه؛ لأنهم شركاء معه لتحصل الإجابة للجميع، ومن هنا يخطئ من يردد الدعاء دون التأمين كالمطوفين ونحوهم[4]، يؤخذ ذلك من تأمين هارون عليه السلام على دعاء موسى.

---

(١) أيسر التفاسير (٢/٥٠٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، (٣/٢٧٦)، برقم [٤٧٧٨] بلفظ: «قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**». قال أبوهريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

(٣) سبق تخريجه ص(٤٣٨).

(٤) انظر: أيسر التفاسير (٢/٥٠٣).

➢ **الخامس والأربعون**: أخذ العبرة والعظة بما حل بفرعون وجنوده، فقد أهلكهم الله جميعًا في صبيحة يوم واحد، ولم ينج منهم أحد، ويمكن أن نلخص ذلك فيما يلي:

١ ـ أن فرعون أحقر وأذل على الله من أن يضاده في ملكه.

٢ ـ كثرة جنده وقوة عتاده لم تحل دون وقوع عذاب الله.

٣ ـ أنه حين أيقن بالهلاك وغشيته سكرات الموت آمن فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم يقبل منه.

* يقول الإمام النسفي: «فيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد؛ حيث قال: آمنت، ثم قال: وأنا من المسلمين. كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصًا على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار»(١).

فعلى الدعاة تذكير الناس بما حل بفرعون وجنوده وغيرهم؛ حتى لا ييئسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم إذا كثر شرهم، وزاد بغيهم، وقل خيرهم؛ لأنهم فراعنة صغار، وإمامهم الأكبر أمامهم ينتظرهم؛ ليقودهم جميعًا إلى نار جهنم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨ ـ ٩٩]، وفي الحديث «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، قال: ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٢) [هود: ١٠٢].

فالعاقل من يتدبر في الأمر، ويبادر إلى روضة الإيمان؛ ليكون من أهل النجاة والرضوان، في دار الجنان، مع أهل الإحسان.

➢ **السادس والأربعون**: المداومة على الأعمال الصالحة في الرخاء سبب للنجاة من الشدائد(٣)، فعلى المرء المسلم أن يكثر من العمل الصالح في وقت

---

(١) تفسير النسفي (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ...﴾ (٣/ ٢٤٣)، برقم [٤٦٨٦].
ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٣/ ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨)، برقم [٢٥٨٣].

(٣) تيسير المنان في قصص القرآن لأحمد فريد، ص(١٦٠)، دار ابن الجوزي.

الرخاء وطول الأمل، فهذا يونس عليه السلام قال الله عنه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء[(١)].

ونجى الله يوسف عليه السلام من قعر البئر حتى وصل إلى الحكم، ونجى الله موسى عليه السلام من ظلم فرعون، فشق له البحر، وأخرجه وقومه إلى ملك الدنيا، وأغرق الله فرعون ولم يقبل منه إيمانه؛ لأفعاله وصحائفه السوداء.

ونجى الله عيسى عليه السلام من كيد اليهود، ورفعه الله إليه، ونجى الله محمدًا ﷺ من سيوف المشركين ليلة الهجرة، ونصره الله عليهم يوم بدر ويوم فتح مكة.

وفي الحديث «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء**»[(٣)].

➢ **السابع والأربعون:** للمرأة دور كبير في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ؛ لذا يحسن استغلالها فيما يعود على الدعوة بالخير؛ لما لها من التأثير الكبير في المجتمع النسوي الأسري، فكم من امرأة اهتدى على يدها خلق كثير؛ بل قد تكون قدوة لزوجها وأولادها إذا أحسنت الإخلاص، ومعنا هنا أربع نسوة اشتركن في قصة موسى عليه السلام: فأولهن (أم موسى عليه السلام) التي كان لها شأن عظيم في الصبر، وحنكة التدبير، ولا غرو فقد كان ذلك بإلهام من الله لها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣).

(٢) جزء من حديث «**احفظ الله يحفظك...**». أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، برقم [٢٦٦٩]. وأخرجه الترمذي، كتاب الدعاء، باب أن دعوة المسلم مستجابة (٥/ ٤٦٢)، برقم [٣٣٨٣].

ورواه أبو يعلى في مسنده، برقم [٢٥٥٦]. وابن السنّي في عمل اليوم والليلة، برقم [٤٢٧]. والطبراني في الدعاء (٤٢). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٠٩)، برقم [٢٠٤٣]، وفي المشكاة، برقم [٥٣٠٢].

(٣) رواه الطبراني في كتاب الدعاء (٤)، باب الحث على الدعاء في الرخاء (٢/ ٨٠٥)، برقم [٤٤]. ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٧٢٩)، برقم [١٩٩٧]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وانظره في: تاريخ بغداد (١/ ٤١٤، ٤١٥)، برقم [٤١٣].

ثم (أخته) التي كان لها دور في تبصر الأمور وتوريتها دون أن يشعر آل فرعون بذلك؛ حيث ألقت كلامًا لا يثير حولها شبهة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

وإذا كان كل من أم موسى وأخته قد قام بالدور اللازم الموكل إليه فإن (مؤمنة آل فرعون) - كما يحسن أن نسميها - قد هيأها الله لتؤثر على الطاغية الجبار الظالم في أن يترك موسى قرة عين لها وله، فكان أن أسرَّها الله به دونه، فأفاضت عليه حنانها، وأسبغت عليه عطفها؛ ليتربى في بيت الملك وعز السلطان بعد الخوف والذل والهوان، فآمنت بموسى وبما جاء به من عند الله، فرفع الله ذكرها وسجل لها دعاءً يتلى إلى يوم القيامة ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

والمرأتان الباقيتان هما (ابنتا الشيخ الكبير) - كما سماه القرآن -، وما رأينا من حسن حيائهما وابتعادهما عن مزاحمة الرجال، وفيه من الدروس لنساء زماننا الشيء الكثير، قال عمر بن الخطاب ﷺ: «جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة»[(١)].

ويظهر من إحداهن عقل راجح وحصافة رأي حين قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ثم إنه كان ممن تزوج بها طاعة عجيبة لموسى ﷺ حين تركها في تلك الليلة المظلمة الشاتية ليأتي لها بنار تستدفئ بها، ولم تَعترض عليه؛ بل أطاعته دون تردد، وإلا كانت تستطيع أن تطلب الذهاب معه ومجادلته في ذلك؛ ولكنها الطاعة الإيمانية النابعة من قلب إيماني.

❖ ❖ ❖

---

(١) سنده قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون. قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح. كما سبق بيانه قريبًا.
انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩٦٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦).

عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام

تمهيد: خرج بنو إسرائيل من ظلم الاستعباد ونار الاضطهاد وذل الطغيان إلى عدل السلطان وتوجيه الرحمن، فما كان منهم إلا أن أكثروا على نبيهم سؤالاتهم وتعنتهم وإشراكهم بالله ـ تعالى ـ، وما ذلك إلا لفساد نفوسهم إلا من رحمه الله، يقول صاحب الظلال: «وسنرى هذه النفوس وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية، وتواجه موسى عليه السلام بكل الالتواءات والانحرافات والجهالات التي ترسبت فيها على مر الزمن الطويل»[1].

سنرى كيف عالج موسى كل ذلك أشد المعالجة، وإلا لِمَ طلب من الله ـ تعالى ـ أن يشرح صدره من أول الأمر؟ إلا لعلمه بتحمل هذه المسؤولية العظيمة، فكان لها! . وكان كثيرًا ما يطلب من قومه تذكر منة الله وفضله عليهم؛ من نجاتهم من عدوهم، وإسباغ نعمه عليهم؛ ولكن سرعان ما تنقلب تلك النفوس فتطلب غير ذلك، فيسارع إلى توجيهها وتذكيرها في كل مرة وتعاقب، وفي آخر أمرها عصت أمر الله وأمر نبيه فكتب الله عليها الذل والمهانة، وعوقبت بالتيه في الأرض أربعين سنة جزاء فسقهم وامتناعهم عن طاعة ربهم ورسولهم.

* * * * *

المطلب الأول

أ ـ الآيات التي تحدثت عن عقوبات بني إسرائيل:

ذكر لبني إسرائيل في القرآن الكريم عدد ليس بالقليل من العقوبات، وسنورد فيما يلي الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم مرتبة:

أولًا: الآيات تحدثت عن عقوبة عبادة العجل في سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٦٥).

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥١ - ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢ - ٩٣].

● **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: ذهاب موسى عليه السلام لملاقاة ربه والاستماع لكلامه عز وجل.

> **ثانيًا**: سفاهة بني إسرائيل في اتخاذهم العجل للعبادة في غياب موسى.

> **ثالثًا**: عظم منة الله عليهم بأن عفا عنهم بعد أن استوجبوا العذاب، فتاب عليهم.

> **رابعًا**: في ذكر تكرار اتخاذ العجل تذكير لبني إسرائيل في عهد النبي ﷺ لما كان عليه سلفهم؛ لذا صح أن يوجه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم.

> **خامسًا**: بعد عبادتهم العجل أخذ الله عليهم العهد والميثاق في عدم المخالفة، والطاعة كل الطاعة في أخذ التوراة بقوة؛ من تصديق بالأخبار، وعمل بالأحكام، فخالفوا وعتوا وأعرضوا، فرفع فوقهم الطور حتى قبلوه ثم خالفوا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا نتيجة لما أشربته قلوبهم من حب العجل بسبب كفرهم بالله عز وجل، فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر؛ لأن القلوب إما على حق، وإما على باطل، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل.

> **سادسًا**: يشنع الله عليهم فعلهم من عبادة العجل، وعصيانهم لأمره وأمر رسوله[1].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٣٠)، أحكام من القرآن الكريم (١/ ٣٥١).

فيقول: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ لأن من عبد مع الله غيره فليس بمؤمن ولو ادعى أنه مؤمن؛ ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب التحدي لهم، إذا كانوا مؤمنين فلِمَ يعبدون العجل؟ هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله[١]؟.

➢ **سابعًا**: في الآيات عدد من الأسئلة:

الأول: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، ولم يقل: يومًا؟

والجواب: أن الشهور تبدأ من الليالي؛ لا من الأيام[٢].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. وهذا يقضي كون التوبة مفسرة بقتل النفس، فكيف يجوز تفسيره به؟

والجواب: ليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس؛ بل بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا بقتل النفس؛ وإنما كان كذلك لأن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن شرط توبتهم لا تتم ولا تحصل إلّا بقتل النفس[٣]؛ لإمعانهم في الكفر والصدود والإعراض.

الثالث: ما الفرق بين الفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ وبين قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟﴾؟

والجواب: أن الفاء الأولى للسبب؛ لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب؛ لأن القتل من تمام التوبة، فمعنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟﴾: فَأتبِعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم[٤].

الرابع: ما المراد بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] هل هو على ظاهره أم غير ذلك؟

الجواب: أن معناه أن من لم يعبد يقتل من عبد، فيكون المراد من ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ أي: استسلموا للقتل[٥]؛ حيث قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضًا، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى

---

(١) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين (١/ ٣٥١).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٣/ ٧٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (٣/ ٨٠).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٨٠).

(٥) تفسير الرازي (٣/ ٨١: ٨٢).

موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم، فكشف عن سبعين ألف قتيل، وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبي فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى موسى بثوبه[1].

الخامس: سبق أن ذكرنا أن القوم اقتتلوا حتى كادوا أن يفنوا لعبادتهم العجل، فهل يمكن أن يصح قول من قال: إن منهم من لم يقتل ممن قبل الله توبته؟

والجواب: نعم حيث كان القتل شهادة للمقتول وتوبة للقاتل[2].

السادس: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، وقال في سورة «الأنبياء»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فعطف في الآية الأولى «الفرقان» على «الكتاب»، والعطف يقتضي المغايرة، وفي الآية الثانية أثبت كلمة «الفرقان» دون كلمة «الكتاب» فهل هما شيئان أم شيء واحد؟.

الجواب: أن ظاهر السياق هنا في سورة «البقرة» وفي سورة «الأنبياء» أن الفرقان هو المعجزات الخارقة التي أيد الله بها موسى عليه السلام، فكانت فرقانًا له بين الحق والباطل.

وأما الكتاب في هذه الآية فهو التوراة، وعبر عنه في سورة «الأنبياء» بأوصافه دون اسمه قائلًا: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقد غلط في المعنى من زعم أن الفرقان هو المنزل على محمد ﷺ وذلك:

الأول: لعدم ذكر محمد ﷺ في الآيات.

الثاني: ما ذكره في سورة «الأنبياء» ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فيكون على ما ذكرنا[3].

الثالث: التوراة لم تنزل على محمد ﷺ؛ وإنما نزل عليه القرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير بسنده قال ابن جريج: أخبرني القاسم بن أبي بردة أنه سمع سعيدًا ومجاهدًا، والسند كما ترى: صحيح، كما هو في تفسير ابن جرير (٢/ ٧٣)، انظر: تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق د/ أحمد العمارى (١/ ١٦٨، ١٦٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٩) بتحقيق الشيخ مقبل الوادعي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٧٥ و٧٦ و٧٨).

(٣) صفوة الآثار لعبد الرحمن الدوسري (٢/ ١٣٣، ١٣٤).

ثانيًا: سورة «النساء»:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

جاء الكلام عن العجل في الآيات متأخرًا عن سؤال الرؤية بسبب العطف (بثم) مع أن سياق الكلام في سورة «البقرة» و«الأعراف» يدل على أن طلب الرؤية جاء متأخرًا عن عبادة العجل، فما توجيه ذلك؟

والجواب: أن العطف (بثم) هنا هو للتراخي الرتبي؛ لا لإفادة الترتيب الزمني؛ إذ اتخاذهم العجل كان قبل طلبهم رؤية الله جهرة[(١)].

وهنا يرد سؤال: لِمَ عُبد العجل بالذات؟

لأنهم قد مروا في طريقهم بقوم يعبدون أصنامًا لهم على صور البقر؛ فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العجل[(٢)].

ثالثًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٥).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ٨٠)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٣)، الدر المنثور (٢١٣).

أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٥].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا**: لم قيل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، والمتخذ هو السامري؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن الله نسب الفعل إليهم لأن رجلًا منهم باشره، كما يقال: «بنو تميم قالوا كذا، وفعلوا كذا» والقائل والفاعل واحد.

الثاني: أنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به، فكأنهم اجتمعوا عليه(١).

> **ثانيًا**: هل انقلب ذلك التمثال لحمًا ودمًا كما قيل، أو بقي كما هو؟

والجواب: ظاهر السياق يبيّن أنه ظل جسدًا من الحلي ولم يتحول إلى لحم ودم؛ لأن صانع العجل جعل في باطنه تجويفًا ضيقًا واتخذ له آلة نافخة خفية، فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه وخرج من المضيق فكان له صوت(٢)، ومن تعلق بكلمة «خوار» أنه لا يكون إلا لما له لحم ودم فلا دليل له عليه؛ لأنه الصوت لما أشبه الخوار لم يبعد إطلاق لفظ الخوار عليه(٣).

ثم إنه في سورة «طه» لما جاء موسى وأراد نسفه وتحطيمه قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]؛ إشارة إلى أنه شيء تفرق إلى أجزاء لا يمكن جمعها(٤).

> **ثالثًا**: ما فائدة إتيان جملة ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ﴾؟

---

(١) تفسير الكشاف (٢/ ١٥٩)، التفسير الكبير (١٥/ ٦).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٩: ١١). قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميّز، إنما هو الجثة الهامدة. انظر: معاني الزجاج (٢/ ٣٧٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٦).

(٤) قرأ الجمهور ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ ـ بضم النّون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشددة ـ أي: إحراقًا شديدًا لا يدع له شكلًا، وقرأ ابن جماز عن أبي جعفر لنُحرِقَنه ـ بضم النون الأولى وإسكان الحاء وتخفيف الراء، وقرأ ابن وردان عن أبي جعفر بفتح النون الأولى وإسكان الحاء وضم الراء (لَنَحْرُقنه)؛ أي: لنبردنه بالمبرد. انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ١١٣)، التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٠).

والجواب: أن جملة ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ مؤكدة لجملة ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، والغرض من التوكيد هو التكرار لأجل التعجب، كما يقال: «نعم اتخذوه»، ولتبنى عليه جملة ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فيظهر تعلقها باتخاذ العجل، وذلك لبعد جملة ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾[١] [الأعراف: ١٤٨].

➢ **رابعًا:** في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ عن قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]؛ لأنهم ما سقط في أيديهم إلا بعد أن رجع موسى ورأوا منه ما رأوا، فكيف؟

والجواب: خولف مقتضى الترتيب تعجيلًا بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبين الضلالة، فكأنه قيل: فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، ثم قيل: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩] قالوا[٢].

➢ **خامسًا:** لم نسبه إلى أمه في ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: ٩٤] ولم يقل: يا أخي؟

والجواب: ناداه بأمه إشارة إلى أنهما من بطن واحد وهو أقوى أواصر الأخوة، وذلك أدعى إلى العطف والرّقة[٣].

➢ **سادسًا:** أيُّ معنىً لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، بعد قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]؟

والجواب: معناه: من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله ـ تعالى ـ وإخلاص العبادة له. أو من بعد ما كنت أجمع بني إسرائيل على التوحيد وأمنعهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلفين[٤].

➢ **سابعًا:** لماذا سكت هارون على فعل بني إسرائيل ولم يفعل فعل موسى حين رجع؟

والجواب: أنه نصحهم، فلم يسمعوا له، ولم يجد من ينصره على ذلك؛ بل

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١١١).
(٢) المصدر السابق (٩/ ١١١، ١١٣).
(٣) تفسير الكشاف (٢/ ١٦١)، وانظر: «التحرير» (١٦/ ٢٩٢).
(٤) التفسير الكبير (١٥/ ١٠).

خاف على نفسه القتل منهم. وفي الآية دليل على أن من خاف على نفسه القتل له أن يسكت عن تغيير المنكر، ولا يغيره بيده، ولا بلسانه؛ ولكن بقلبه[1].

> **ثامنًا**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢].

يرد هنا سؤال وهو: أن أولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنهم قتلوا أنفسهم، وإذا كان كذلك فكيف قال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؟

والجواب: أن ذلك الغضب إنما حصل في الدنيا قبل التوبة؛ لا في الآخرة، وأما قوله: ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢]، هو أنهم ضلوا فذلوا[2].

فإن قيل: السين في: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، للاستقبال، فكيف يحمل هذا على حكم الدنيا؟

والجواب: أن هذا الكلام كان سابقًا على وقوعهم في القتل وفي الذلة، وإن كان على ظاهره فهو مما كان يُعَيّرُ به اليهود بعد ذلك في زمن النبي ﷺ من فعل آبائهم[3].

رابعًا: سورة «طه»:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ
إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ
أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى
﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) نهر الخير على أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٢/ ٢٤٢).
(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٢، ١٣). (٣) انظر: المصدر السابق (١٥/ ١٣).

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣ - ٩٨].

● **لطائف الآيات غير ما سبق:**

> **أولًا:** كيف قال موسى عليه السلام حينما سأله الله بقوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣]، بأن قدم ما لا يطابق السؤال وقال: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]؟

والجواب: أن موسى عليه السلام بدأ بالاعتذار أولًا عما أنكره عليه ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه: ٨٤]، ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1] [طه: ٨٤]؛ أي: طلب زيادة رضاك.

> **ثانيًا:** قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، نسب الصناعة إلى السامريّ، ونسب القول لجماعتهم مع أن فيهم ممن لم يرضَ به؟

والجواب: مثل ما قال في سورة «الأعراف»: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٤٨] كما مرّ[2] سابقًا، ويضاف عليه أن ضمير ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ [طه: ٨٨] التفات[3]، قصد القائلون به التبري من أن يكون إخراج العجل لأجلهم؛ وإنما أخرجه لمن رغبوا فيه[4].

> **ثالثًا:** أن هارون كان حاضرًا فخافوا أن يكذبهم وهو الذي قال لهم من

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٣٣٠).

(٢) مر الكلام عليه عند قول الله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

(٣) الالتفات هو: انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار والعكس. انظر: علم المعاني، البيان، البديع ص(٥٦١). أو أن يكون المتكلم آخذًا في معنى فيعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول في غير خلل. انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٦٣٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٦).

قبل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠].

وانظر إلى حسن المقالة حيث زجرهم **أولًا** عن الباطل فقال: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، إلى معرفة الله ثانيًا بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم دعاهم **ثالثًا** إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم **رابعًا** إلى الشرائع بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠]، وهذا هو الترتيب السديد؛ لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق (وهو إزالة الشبهات)، ثم معرفة الله، ثم النبوة، ثم الشريعة(١).

> **رابعًا**: خص موسى ﷺ أخاه هارون بخطاب له لعلمه أنه لا يمكن أن يفعل ما فعل قومه؛ إذ لا يجوز عليه ذلك؛ لأن الرسالة تقتضي العصمة، فكان خطابه له خطاب لوم وعتاب لبقائه بين عبدة الصنم، فأخذ بلحيته ورأسه يجرهما إليه حتى بيّن له هارون عذره من أولئك الظلمة.

> **خامسًا**: اختصت سورة «طه» بذكر اللحية، فعلم أنها من سنن المرسلين.

وعطف الرأس على اللحية لأن أخذه من لحيته زيادة في اللوم والعتاب.

> **سادسًا**: انفردت سورة «طه» بذكر اسم صانع العجل وعقوبته، حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [طه: ٩٥]، وهنا ياتي سؤالٌ: لَم أغلظ موسى ﷺ الكلام لأخيه هارون ولم يغلظ للسامري؟

والجواب: لأنه كان جاهلًا بالدين، فلم يكن في ضلاله عجب، ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل؛ وإنما هو من القبط، فاندس في بني إسرائيل، فلجهله لم يعنفه موسى؛ لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة(٢).

> **سابعًا**: لم عاقب موسى السامري بعد اعترافه بفعله، أما كان الأولى نصحه ودلالته للتوبة؟

والجواب: لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، ويكون الله قد أطلع موسى على ذلك بوحي أو إلهام؛ مثل الذي قاتل قتالًا شديدًا مع المسلمين وقال عنه النبي ﷺ: «**أما إنه من أهل**

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٢/ ١٠٦)، التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٤).

النار»[1]، ومثل ما أعلم النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ببعض المنافقين[2].

ب ـ الآيات التي تحدثت عن عقوبة من طلب رؤية الله ﷻ:

أولًا: سورة «البقرة»:

قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٧].

- **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا**: ذكرت الآية أنهم طلبوا رؤية الله جهرة ولم يقل: عيانًا، فما وجه ذلك؟

والجواب: عموم الإظهار والمبالغة فيه ولا يكون إلّا إذا ظهر للجماعة الكثيرة ليزول الشك[3]. ثم إن «جهرة» أفصح لفظًا؛ لخفته ولسلامته من حرف الحلق والعلة، وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها وخفتها على السمع، وللقرآن السهم المعلى في ذلك[4].

➢ **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، فيه إيجاز بديع؛ أي: فمتم من الصاعقة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ استجابة لدعاء موسى وشفاعته، وعقابهم هذا عقاب دنيوي ينال الصالحين، ويسمى عند بعض الناس عتابًا ولا ينافي الكرامة، ومعلوم أن موسى عليه السلام سأل الله الرؤية فتجلى للجبل فاندك فخر موسى صعقًا، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك[5].

➢ **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]،

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٧). والحديث في صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يقولُ: فلان شهيد (٢/ ٣٣١)، برقم [٢٨٩٨]. ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١/ ١٠٦)، برقم [١١٢].

(٢) انظر: فتح الباري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما (٧/ ١١٦).

(٣) معنى جهرة: عيانًا لا شك فيه. الفروق اللغوية ص(٢٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٧).

(٥) المصدر السابق (١/ ٥٠٨).

ترى أنه تقدم المفعول وهو «أنفسهم» ـ على الفاعل ـ وهو الضمير في «يظلمون» لإفادة القصر؛ أي: قصر ظلمهم على أنفسهم؛ حيث لم يتجاوز إلى غيرهم، ولا إلى موسى، ولا إلى الله ﷻ(١).

ثانيًا: سورة «النساء»:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ الآية [النساء: ١٥٣].

• ما في الآية من لطائف غير ما سبق:

➢ **أولًا:** الفرق بين هذه الآية وآية سورة «البقرة» ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أن سورة «البقرة» كان الكلام فيها عن بني إسرائيل موسى ﷺ، أما هنا فالحديث عن بني إسرائيل محمد ﷺ؛ أي: اليهود الذين كانوا بالمدينة يكررون نزعة أسلافهم في كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.

➢ **ثانيًا:** في سؤالهم موسى ﷺ رؤية الله جهرة ما أرادوا التلذذ برؤية الله ﷻ، ولا التنعم بالمشاهدة؛ وإنما أرادوا النظر تعجبًا فقالوا: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ولم يقولوا: ليتنا نرى ربنا(٢).

➢ **ثالثًا:** إن الظلم المحكي هنا هو الظلم المحكي في سورة «البقرة»؛ حيث امتنعوا عن تصديق موسى إلا أن يروا الله جهرة، وليس الظلم لمجرد طلب الرؤية؛ لأن موسى قد سأل مثل سؤالهم ولم يسم قوله ظلمًا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾(٣) [الأعراف: ١٤٣].

ج ـ الآيات التي ذكرت عقوبة بني إسرائيل في صحراء سيناء:

أولًا: سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ

---

(١) أيسر التفاسير (١/٥٨) الحاشية المسماة: نهر الخير.

(٢) التحرير والتنوير (٤/١٥). (٣) المصدر السابق (٤/١٥).

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦٠ ـ ٦١].

• **لطائف الآيات غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** تدل الآيات على كفر قوم موسى النعم، بدليل أنهم لم يعتبروا بما أصابهم من ذلّ الاستعباد.

➢ **ثانيًا:** عاقبهم الله ـ تعالى ـ بأن ضرب عليهم الذلة والمسكنة؛ أي: الذل والفقر، وأحل بهم غضبه.

وهذا يعني أن موسى ﷺ حين قال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، قال ذلك على سبيل التأنيب والتوبيخ(١).

ثانيًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

• **لطائف الآية غير ما سبق:**

➢ **أولًا:** أخبر الله أنه قسم بني إسرائيل إلى اثني عشر قسمًا في أول هذه الآية، ولم تذكر ذلك آية «البقرة».

➢ **ثانيًا:** ذكر هنا أن قومه استسقوه، وفي سورة «البقرة» أنه استسقى ربه، فكيف يجمع بينهما؟

---

(١) نصر هذا القول صاحب الظلال بسبب ما أعقبه من السياق الذي يتضمن ضرب الذل والمسكنة على بني إسرائيل، ويذكر أن هذا وإن كان تاريخيًّا متأخرًا عن هذه الحادثة إلا أن السياق القرآني ذكره تذكيرًا لهم بالذل في مصر وبالنجاة، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان. انظر: في ظلال القرآن (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

والجواب: أن كلاهما حصل[1]، قومه استسقوه حين عطشوا، فاستسقى هو ربه.

➢ **ثالثًا**: قال هنا: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وقال في سورة «البقرة»: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ فما الفرق؟

والجواب: قال الراغب: الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع[2].

➢ **رابعًا**: كيف قال: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: ٦١]، وطعامهم كان المن والسلوى وهما طعامان؟

والجواب: أنه غير متبدل وإن كان نوعين[3].

➢ **خامسًا**: كيف قال: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: ٦١]، وقتلهم لا يكون إلا بغير الحق؟

والجواب: أن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما في عكسه ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، لزيادة معنى في التصريح بالصفة[4].

د ـ الآيات التي ذكرت عقوبة الذين بدلوا أمر الله قولًا غير الذين قيل لهم:

أولًا: سورة «البقرة»:

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[5][6] [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٦٦).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٣٦٦) عن مفردات الراغب ص(٣٤)، وانظر: كشف المعاني ص(٩٨، ٩٩)، ملاك التأويل (١/ ٢١٢)، تفسير الألوسي (١/ ٢٧١، ٩/ ٨٨).

(٣) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٥).

(٤) المصدر السابق ص(٢٥).

(٥) ذكر الباب يحتمل الباب حقيقة، ويحتمل منه القرية نفسها كما في الآية، وذلك في اللغة جائز، يقال: فلان دخل باب كذا لا يعنون حقيقة الباب؛ ولكن كونه في أمر هو فيه.

(٦) ذكر سجدًا يحتمل حقيقة السجود، ويحتمل الأمر بالخضوع له. تفسير القاسمي (١/ ١٣٤).

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** تذكر الآيات أول تجربة عملية مع بني إسرائيل وهم في طريقهم إلى الأرض المقدسة؛ حيث أمرهم الله بدخول قرية في طريقهم، فدخلوها يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة(١). ومعنى حبة: أننا نحتاج إلى الأكل، وشعرة كلام لا مفهوم له، قصدهم منه خلاف ما أمرهم الله به(٢).

> **ثانيًا:** قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ٥٩]، وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ٥٩]، ما سر تكرار «الذين ظلموا» دون استعمال الضمير هنا؟

---

(١) إشارة لحديث **«قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حبة في شعرة»**. الحديث رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، برقم [٤٤٧٩، ٤٦٤١]، (٨/٢٠٨، ٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير المنار (١/٣٢٤). بقيت مسألة حول هذا الأمر الذي نحن بصدده وهي: من خلال ما رأيت أن كثيرًا من المفسرين ذكروا أن المقصود بالقرية هي بيت المقدس أو الأرض المقدسة المذكورة في سورة «المائدة» مستقلة، وهذا مما يرد عليه مجموعه من الاعتراضات هي.

١ ـ أن دخول الأرض المقدسة كان آخر موقف لبني إسرائيل مع نبيهم موسى ﷺ، وعوقبوا بعد امتناعهم من دخول الأرض المقدسة بالتيه، في حين أن سورتي «البقرة» و«الأعراف» ذكرتا مواقف كثيرة لبني إسرائيل مع موسى بعد هذا الموقف؛ مثل: استسقاء موسى لقومه، ورفع الطور، وكرههم الطعام الواحد... إل.

٢ ـ أن حديث البخاري المروي آنفًا ينص على أنهم دخلوا القرية على أستاههم، والمعلوم أن بني إسرائيل لم يدخلوا الأرض المقدسة إلا مع يوشع بن نون ﷺ.

٣ ـ أن العقاب الذي أوقع بهم هنا كان الرجز؛ بينما كان عقاب من امتنع عن دخول الأرض المقدسة هو التيه.

٤ ـ دعا موسى على قومه وسماهم فاسقين حين أبوا دخول الأرض المقدسة، بينما هنا لم يدع عليهم، بل صبر عليهم حتى أوقع الله بهم عقابه.

٥ ـ لا يخفى على ذي لب الفرق بين الخطاب هناك والخطاب هنا، فهناك قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]؛ بينما هنا يخاطبهم الله مرة بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨]، ومرة يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١]. لكل هذه الأمور المستفادة من الآيات يتبين منها أن الأمر بدخول القرية اختبارٌ لبني إسرائيل في طريقهم إلى الأرض المقدسة.

انظر: العبرة من قصة موسى لمحمد خير عدوي، رسالة ماجستير ص(٤٧٩ ـ ٤٨٠).

وانظر: أحكام من القرآن الكريم لابن عثيمين ص(٢٣٣)؛ حيث قال في تفسير ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، هي القرية التي فتحوها قيل لهم: ادخلوها.

والجواب: زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذانًا بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم.

➢ **ثالثًا**: ما سبب التخصيص في قوله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩]؟

والجواب: أن العذاب ضربان:

ضرب يمكن أو يظن دفاعه، كعذاب الآدمي للآدمي، أو من جهه المخلوقات، كالهدم والغرق. وضرب لا يمكن دفاعه، كالطاعون والصاعقة والموت وهو المعني به هنا.

ثانيًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

• ***الفرق بينها وبين ما ذكر في سورة «البقرة»***(١):

➢ **أولًا**: قال هنا: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾، وفي سورة «البقرة» قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، فما الفرق؟

والجواب: أن الخطاب وجه أولًا لأهل مكة والكلام فيه عن غائب، والأصل أن يذكر ضميره فيه فقال «لهم».

أما في سورة **«البقرة»** فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ والمعنى واحد؛ إذ المعلوم أن القائل هو الله ـ تعالى ـ، وقد روعي فيها السياق حيث قال قبلها: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ . . . ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾ [البقرة: ٥٠ ـ ٥١]، فناسب أن يقول: «وإذ قلنا».

➢ **ثانيًا**: لم يقل فيها: «لكم» كما قال هنا: «لهم» لأن الخطاب لأسلافهم، ثم فيه أيضًا تذكيرٌ لهم بما تقوم به الحجة عليهم.

➢ **ثالثًا**: قال ههنا: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وفي سورة **«البقرة»** قال: ﴿ادْخُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨]، فما الفرق؟

والجواب: أن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس، وتظهر فائدة اختلاف

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٧١: ٣٧٤)، وانظر: ملاك التأويل (١/ ٢٠٤: ٢١١)، البرهان في متشابه القرآن ص(١٢٣، ١٢٤).

التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما بِ ﴿وَكُلُواْ﴾ مرة وبالفاء أخرى، فما الفرق؟

والجواب: أنه عطف الأمر بالأكل في سورة «البقرة» بالفاء ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٥٨]؛ لأن الأكل يكون عقب الدخول، كأكل الفواكه والثمرات الموجودة في كل ناحية.

وأما السكنى فأمرها ممتد، ويكون الأكل في أثنائها لا عقبها، فلذلك عطف عليه هنا بالواو التى تفيد الجمع بين الأمرين مطلقًا بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب، وقد وصف الأكل بالرغد في سورة «البقرة»، والتبشير به يناسب حال الدخول؛ إذ الأمر لدى الداخل مجهول.

➢ **رابعًا**: في قوله تعالى هنا: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١]، وقدم في «البقرة» ما أخر هنا، فما الفرق؟

والجواب: أنه لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين؛ لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقًا، فلو كان التعبير واحدًا في الموضعين لفهم أن المقدم في الذكر أهم، أما وكان الاختلاف بينهما حاصلًا فمعنى ذلك أنه لا فرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه.

➢ **خامسًا**: قال هنا في «الأعراف»: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١]، قرئت «تُغْفَر» بالتاء والفاء المفتوحة ورفع ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ وهو يناسب ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وقرأ الجمهور «نَغْفِر» بالنون وكسر الفاء ونصب ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ بكسر تائها وهو يناسب ما بعده وهو كون ﴿سَنَزِيدُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، للمتكلم المعظم، والمعنى فيهما واحد؛ لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد.

ثم إن كتابة الكلمتين في المصحف الإمام تحتمل كل ما ذكر في الكلمتين، وفائدة الاختلاف لفظية قصد منها التوسع في القراءة.

➢ **سادسًا**: قال هاهنا: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، بدون (واو)، وهو جواب سؤال كأنه قيل: وماذا بعد المغفرة؟ والجواب: سنزيد المحسنين جزاءً حسنًا على إحسانهم، وفي سورة «البقرة» ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ [البقرة: ٥٨]، بالعطف؛ حيث يدل (الواو) على كون هذه الزيادة تشارك المغفرة.

➢ **سابعًا**: قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ

﴿لَهُمْ﴾[1] [الأعراف: ١٦٢]، وفيه زيادة «منهم» على ما في سورة «البقرة»، فما سبب ذلك؟

والجواب:

لما في ذلك من الحاجة إلى ربط الكلام بعضه ببعض، وليكون موافقًا لما ذكر في السورة من قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

➢ **ثامنًا**: قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقال هنا في «الأعراف»: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، فالاختلاف في الآيتين جاء في ثلاثة مواضع:

- **الأول**: بين الإرسال والإنزال.
- **الثاني**: بين المضمر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والمظهر ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- **الثالث**: بين ﴿يَظْلِمُونَ﴾ و﴿يَفْسُقُونَ﴾.

فالأول: لأن لفظ الرسالة والرسول كثر في سورة «الأعراف»، فجاء ذلك وفقًا لما قبله، وليس كذلك في سورة «البقرة».

والثاني: أن قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في «الأعراف» يدل على عدم التصريح بنجاة غيرهم، فكان العذاب خاصًّا بهم، ولو قال: فأرسلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يظلمون لكان تكرار التعليل بالظلم منافيًا للبلاغة القرآنية.

والثالث: بين ﴿يَظْلِمُونَ﴾ ﴿يَفْسُقُونَ﴾، وفائدته بيان أن الظلم يلزم منه الفسق؛ حيث كانوا جامعين بينهما، أما الفسق فلا يلزم منه الظلم، فناسب كل لفظ منهما سياقه، وحسن أن هذه الزيادة فيه لأنها نزلت آخرًا[2].

و ـ الآيات التي ذكرت عقوبة إعراضهم عن قبول التوراة:

أولًا: سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا

---

(١) انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٢٤)، تفسير المنار (٩/ ٣٧٣).

(٢) انظر: البرهان في متشابه القرآن ص(١٢٤)، كشف المعاني ص(٩٨)، تفسير المنار (٩/ ٣٧٤).

مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤].

● **لطائف في الآيات:**

➢ **أولًا:** في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ [البقرة: ٦٣]، ولم يقل: مواثيقكم مع أنه لهم جميعًا، فلم؟

والجواب: لأنه أراد ميثاق كل واحد منهم؛ مثل: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي: يخرج كل واحد منكم طفلًا(١).

➢ **ثانيًا:** كان رفع الجبل فوقهم تخويفًا وإرهابًا لهم حين عصوا أمر ربهم ورسولهم، وكاد أن يسقط عليهم، فسجدوا توبة لله، فأخذوا التوراة بالميثاق(٢).

➢ **ثالثًا:** في الآية يرد اعتراض هو: أن رفع الجبل عليهم وأمرهم بأخذ التوراة إكراه على الإيمان وإلجاء إليه وذلك ينافي التكليف، فكيف؟

والجواب من وجهين(٣):

الوجه الأول: أن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريًّا بعد زوال ما به الإكراه.

الوجه الثاني: أن مثل هذا الإلجاء والإكراه كان جائزًا في الأمم السابقة، وأن نفي الإكراه في الدين، كما في الآية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، خاص بالإسلام.

ثانيًا: سورة «النساء»:

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(٤) [النساء: ١٥٤].

ثالثًا: سورة «الأعراف»:

قال تعالى ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣/ ١٠٧)، وانظر: التفسير المنير (١/ ١٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ١٥٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ٣٤٠).

(٤) وقد تقدم الكلام عليها بما فيها من تقديم وتأخير عند قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١]. وأما قوله: ﴿لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤] فالخطاب جاء تذكيرًا لليهود بما فعله أسلافهم، وسيأتي الكلام على ذلك عند قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

• **ما في الآيات من لطائف:**

> **أولًا:** «نتقنا الجبل»؛ أي: قلعناه من موضعه، وأصل النتق في اللغة: قلع الشيء من موضعه والرمي به[1].

إذًا فمعنى ﴿نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾؛ أي: قلعناه من أصله، وجعلناه فوقهم كأنه ظلّة كالسقيفة، والظلة: كل ما أظلك من سقف أو سحابة أو جناح حائط، والجمع: ظلل وظلال.

إذًا فلا منافاة بين قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] وبين ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾.

> **ثانيًا:** ما جاء هنا في سورة «الأعراف» من نتق الجبل ورفعه فوقهم وأيقنوا بوقوعه عليهم زاد ما في سورة «البقرة» إيضاحًا وتفسيرًا[2]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

هـ - الآيات التي ذكرت عقوبة عناد بني إسرائيل في ذبح «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٤].

• **ما في الآيات من لطائف:**

> **أولًا:** كان سبب قصة ذبح بقرة بني إسرائيل هو تخاصمهم وتدافعهم في أمر قتيل قُتل لا يدرى من قتله.

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٥/ ٤٥)، وانظر: مفردات الراغب ص(٥٠٣).

(٢) انظر: ملاك التأويل ص(٢٢٣).

➢ **ثانيًا**: ذكر قتل القتيل وإحيائه من بعد موته جاء متأخرًا عن القصة، وهذا من قبيل التأخير لفظًا والتقديم معنى للتشويق في معرفة سبب ذبح «البقرة»[(١)]، أو أن آيات «البقرة» سبقت لبيان النعم، فناسب تقدم ذكر النعمة على ذكر الذنب[(٢)].

➢ **ثالثًا**: أسند القتل لليهود المعاصرين للنبي ﷺ لأنهم من سلالة السابقين وهم معتزون بنسبهم، راضون بفعلهم، فكأنهم شاركوهم في ذلك[(٣)].

➢ **رابعًا**: إن الله - تعالى - قادر على إحياء الميت دون الضرب ببعض «البقرة»، فما فائدة الأمر بذبحها لذلك؟

والجواب: فائدة ذلك ترتيب الأشياء على أسبابها لما اقتضته حكمته تعالى، ثم لجبر اليتيم (صاحب البقرة) بما حصل له من ثمنها[(٤)].

➢ **خامسًا**: أمر الله بني إسرائيل حين سألوا موسى في أمر القتيل أن يذبحوا بقرة، وللعاقل أن يتأمل العلاقة بينها وبين عبادتهم للعجل.

➢ **سادسًا**: في قوله تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١]، قد يقال: إن فيها عيبًا؛ لأنها لا تقدر على أن تثير الأرض أو تسقي الحرث، فكيف؟

والجواب: أن الله بين بعدها أنها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: ٧١]؛ أي: سليمة من العيوب وآثار العمل، وهذا يسمى بالاحتراز أو الاحتراس في علم البلاغة[(٥)].

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ١٢٣) حيث قال: قدمت قصة الذبح لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولو كانت واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع. وانظر: التفسير المنير (١/ ١٨٩).

(٢) كشف المعاني ص(١٠٢).

(٣) انظر: التفسير المنير (١/ ١٩٠).

(٤) كشف المعاني ص(١٠٢)، وانظر: التفسير الكبير (٣/ ١٢٥).

(٥) أحكام من القرآن لمحمد بن عثيمين ص(٢٨٨). وقد جاء في القرآن في مواقع منها: آية ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ قال بعدها: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وآية ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ قال بعدها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]. ومعنى الاحتراس: أن يؤتى بلفظ في الجملة إما مبالغة وإما احتياطًا واحتراسًا من التقصير. انظر: العمدة في محاسن الشعر (١/ ٦٤٥).

> **سابعًا**: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤]، كلاهما في المعنى واحد، فما فائدة الثاني؟

والجواب: فائدة هذا الوصف معذرة منه تعالى لها؛ لأن منها ما هو ألين من قلوبهم لما يُدعَون إليه من الحق(١).

> **ثامنًا**: لم شبه الله قلوب بني إسرائيل بالحجارة في قساوتها أو أشد دون الحديد؟.

والجواب: لأن الحديد قد يلين مع النار؛ لكن الحجارة لا تلين، فقلوبهم كالحجارة أو أشد؛ بل إن الحجارة خير من قلوبهم؛ لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس كما ذكر الله(٢).

و ـ الآيات التي ذكرت عقوبة أهل التيه:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

- **ما في الآيات من لطائف:**

> **أولًا**: كيف قال: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، ولم يكونوا كلهم ملوكا؟

فالجواب: إما أن المراد: جعل فيكم ملوكًا؛ وهم ملوك بني إسرائيل. أو المراد: أنه رزقهم المنازل الواسعة التي فيها المياه الجارية. أو المراد به: أنه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) أحكام من القرآن ص(٢٨٠)، وانظر: التفسير الكبير (٣/ ١٢٩).

رزقهم الصحة، والكفاية، والزوجة الموافقة، والخادم، والبيت، فسماهم ملوكًا لذلك(١).

> **ثانيًا**: من أين عَلِم الرجلان أنهم غالبون؟

فالجواب: علموا من جهة وثوقهم بإخبار موسى ﷺ، فذلك قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١]. أو علما بذلك بغلبة الظن وما عهداه من صنع الله - تعالى - بموسى ﷺ في قهر أعدائه.

> **ثالثًا**: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنًا، وإلا لضاع التعليق (أي: الشرط) وليس كذلك فكيف؟

فالجواب: أن «إنْ» هنا بمعنى (لأن)، فتكون بمعنى التعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٢) [البقرة: ٢٧٥].

> **رابعًا**: كيف نوفق بين قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١]، وبين قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ [المائدة: ٢٦]؟

فالجواب: من وجوه:

الأول: كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فإن أبيتم فإنها محرمة عليكم.

الثاني: أن المراد تحريمها عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب لهم.

---

(١) تفسير الرازى «أنموذج جليل» ص(١١٢)، وانظر: درة التنزيل ص(٨٢)، وقد جاء في تفسير ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ [المائدة: ٢٠]، عن ابن عباس قال: «الخادم والمرأة والبيت». وروى الحاكم في مستدركه من حديث الثوري أيضًا عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: «المرأة والخادم». وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكًا».
وعند ابن جرير بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، فقال: إن لي خادمًا، قال: فأنت من الملوك.
وروي ذلك عن الحسن وزيد بن أسلم وهو في صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقاق (٤/ ٢٢٨٥)، برقم [٢٩٧٩].

(٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(١١٣)، وانظر: الكشاف (١/ ٣٢٢).

والذي أميل إليه منهما أنه بعد الأربعين دخلها الطائعون ممن بقي منهم وذرية من مات منهم.

> **خامسًا**: إن قيل: كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم في مفازة أربعين سنة دون أن يستطيعوا الخروج منها، فلو وضعوا أعينهم على حركة الشمس أو الكواكب لخرجوا، ولو كانوا في بحر عظيم، فكيف في المفازة الصغيرة؟

فالجواب: أن انخراق العادات في زمان الأنبياء غير مستبعد؛ لأننا إذا فتحنا باب الاستبعاد لزم الطعن في جميع المعجزات[(١)].

> **سادسًا**: قوله تعالى على لسان موسى: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥]، فما معنى المِلك هنا؟

الجواب: أن مراده: إني لا أملك إلا نفسي، وأخي أيضًا لا يملك إلا نفسه، فلا قدرة لي ولا له على بني إسرائيل؛ وليس معناه الاستعباد؛ إذ هو أخوه فكيف يملكه[(٢)].

* * * * *

○ المطلب الثاني والثالث ○

سبب العقوبة ونوعها

لعقوبة بني إسرائيل عدد من الأسباب، نجمل ذلك فيما يلي حسب ما اقتضاه كل موقف؛ لا العرض التاريخي؛ لأن القصد هو الاعتبار بما حصل لهم، وجني الدروس المستفادة منها[(٣)]:

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١١/ ٢٠٢). (٢) حاشية أيسر التفاسير (١/ ٦١٨).

(٣) قال صاحب صفوة الآثار: «إن الله ـ تعالى ـ لم يراع الترتيب في سرد أحوالهم ومواقفهم وتنويع نعمه عليهم؛ لأنه لما كان يريد العظة والاعتبار جعل بيانه لنعمه عليهم متصلًا بأسبابها، منفصلًا عن أوقاتها.

وقد اعترض بعض أعداء القرآن عليه بعدم ترتيب ما فيه من القصص، كتأخيره مثلًا لذكر الاستسقاء وضرب الحجر، مع أنه كان متقدمًا على دخول القرية، فأجابهم علماؤنا بما تقدم، وبأن القرآن لم يقصد التاريخ وسرد الوقائع بمواقيتها مرتبة؛ لأن هذا قد يخالف لوازم الهداية ومواقع العظة والاعتبار، والقرآن كتاب هداية لا كتاب تاريخ، فهو يعنى ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب منها، وببيان النقم بعللها ليحذر منها، فكانت طريقة القرآن أبلغ في التذكير والتأثير». صفوة الآثار (٢/ ١٤٢).

➢ **الأول: عبادتهم للعجل، وعقوبة صانعه.**

➢ **الثاني: طلبهم رؤية الله ﷻ، وإعراضهم عن قبول التوراة.**

➢ **الثالث: تبديلهم أمر الله قولًا غير الذي قيل لهم.**

➢ **الرابع: كفرانهم لنعم الله، ورغبتهم في الرجوع إلى الذل.**

➢ **الخامس: مراوغاتهم وتملصهم في عدم ذبح ما أمروا به.**

➢ **السادس: امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة.**

وإليك بيان كل سبب باختصار:

أولًا: عبادتهم العجل:

لبيان هذا السبب سوف نربطه بموقفين على ضوء ما ذكر القرآن عنهم:

الموقف الأول: قولهم لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

الموقف الثاني: أمْرُ الله لهم بذبح بقرة حين قتل قتيل منهم لا يدرى من قتله.

قال تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١].

في الآية تذكير لبني إسرائيل بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم بعد أن أغرق عدُوهم ونجاهم من أعدائهم، وخلصهم من عبوديتهم الذليلة إلى حرية الاستقلال، ومن بعد الضلال إلى استقامة الفطرة، وربطها بخالقها ﷻ من جديد؛ ولكن انظر بمَ قابل بنو إسرائيل هذه النعم العظيمة؟.

بعد خروجهم من البحر سالمين قد شفى الله صدورهم من عدوهم أمام أعينهم ينسونها وبسرعة لنظرة عابرة نفذت إلى قلوبهم من قوم يعبدون أصنامًا لهم، فظنوا أن ذلك لا يقدح في العبودية لله وحده، عندها يغضب موسى لله ـ تعالى ـ ويقول في الحال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده، فلا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، ثم واصل تأنيبه لهم وإنكاره الشديد

عليهم لعل من به رشد منهم أن يثوب إلى رشده فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]؛ أي: مدمر ومهلك وباطل زاهق ومضمحل زائل، وما أدعوكم إليه فيه عزكم ونجاتكم وسعادتكم، فقد فضلكم على العالمين، وشرفكم على سائر الخلق أجمعين، أفهكذا يكون شكركم له؟![1] ومن فضل الله عليكم ونعمه أن أنجاكم من عدوكم وأخرجكم سالمين بعد أن كنتم مستضعفين ذليلين لا تستطيعون دفعًا عن أنفسكم ولا عن أولادكم، وهذا يتطلب منكم الشكر؛ لا الكفر.

ثم إن موسى عليه السلام حين أرسلَ لم يرسل إلا لتخليصهم من عبادة غير الله، فلو لمْ يكونوا جهلة بحق لما طلبوا منه ذلك.

والواقع الذي لا يتصور غيره أن استمراءهم الذل والمهانة في ظل العبودية هو الذي جعلهم ينسلخون من كل ما يمكن أن يرفع من قدرهم إلا من رحم الله، وما الذل الذي نزل بهم إلا نقمة من الله أصابتهم لتركهم دين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فلا عجب أن يطلبوا من نبيهم ذلك، وقد مر معنا من قبل كيف تجرؤوا وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وهذا يدل على استعجالهم وعدم صبرهم، وإلا فقد رأوا من الآيات والعبر ما يكفيهم لو كانوا طلاب حق، ثم قالوا له بعد ذلك حين طلب منهم ذبح بقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]، وهذا غاية الجهل بالنبوة؛ إذ الأنبياء يستحيل عليهم الهزء البتة؛ لأنهم معصومون، ثم قالوا له بعدها: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة:٦٨]، فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك، ثم يقولون في نهاية القصة: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، كأنما كان كل ما مضى ليس حقًّا، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة[2]، وفي آخر المطاف يأبون دخول الأرض المقدسة، ويعصون أمر الله وأمر رسوله، فيدعو عليهم نبيهم، فقد آن الآوان إلى المفاصلة، وانتهى دور المجادلة، فقد أصبحوا فاسقين حقًّا، فقوم هذا حالهم لا غرابة إذا طلبوا عبادة العجل؛ لأنهم كما قال نبيهم: قوم يجهلون.

---

(١) هذا التفضيل خاص بزمانهم الذي كانوا فيه مع أنبيائهم وهم صالحون. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٢)، حاشية أيسر التفاسير (٢/ ٢٣٢).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧٨ ٧٩).

وبعد طلبهم وتربية موسى لهم وإخبارهم بما يؤدي إليه من الشرك أخذ في وعظهم لتلقي أوامر الله ﷻ؛ ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى؛ بل يبدو أنهم لم يقتنعوا بذلك، فما إن غاب موسى عليه السلام عنهم حتى قاموا بصنع إله لهم يعبدونه من دون الله حين كان موسى يتلقى من ربه الأوامر والنواهي، ويتلذذ بخطاب الله ـ تعالى ـ في مواعدته إياه ليتلقاه ويتلقى عنه، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، أخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه «**لما أتى موسى عليه السلام ربه ﷻ وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه ـ سبحانه ـ وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ، قال: أي رب، كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الرائحة، قال: أوما علمت يا موسى، أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني، ففعل موسى عليه السلام الذي أمره ربه، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾**»[١]. وفي هذه المدة عاد حلمهم الأول إليهم؛ ليقول للسامري: اصنع عجلًا لهم يعبدونه حتى يرجع إليهم موسى عليه السلام، وقد أخبر الله موسى عليه السلام أن قومه افتتنوا بصنع صنم لهم، وادعوا أنه إلههم وإله موسى، فرجع موسى إليهم ولم تكن اتضحت حقيقة هذه الفتنة التي أصابت قومه له إلا حين رجع؛ لأن المعاينة أشد من السماع[٢]، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، من شدة الغضب وحق له أن يغضب ويغضب لله ﷻ.

ألقى الألواح ليس عن استهانة بها[٣]؛ وإنما لهول ما رأى، وحاشاه أن يفعل

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم لسورة «الأعراف» بتحقيق: حمد بن أبي بكر (٢/ ٤٧٠) رسالة ماجستير وقال: «إسناد الحديث حسن». انظر: الدر المنثور (٣/ ٢١٥)، روح المعاني (٩/ ٤٢).

(٢) وفي الحديث الذي رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ﷻ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**». أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (تفسير سورة الأعراف) (٢/ ٣٥١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأقره الذهبي.

(٣) قال ابن كثير (٢/ ٢٥٨) في تفسير ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح =

ذلك! وهو الذي اشتد غضبه على قومه لله ـ تعالى ـ غيرة لله وغضبًا له، وكان هارون عليه السلام قد نهاهم عن ذلك؛ ولكنهم لم يستجيبوا له، ولم يأبهوا به؛ بل كادوا يقتلونه(١).

والظاهر من سياق الآيات أن موسى عليه السلام خاطب فئتين من قومه: الفئة الأولى: المؤمنة، وكان يود أن يكونوا أشد غضبًا لله مما فعلوا، فخاطبهم بقوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فلِمَ لم تكفوا عبدة العجل عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على توحيد الله، وتنزيهه عن الشركاء، وإخلاص العبادة له؟!(٢)

والفئة الثانية: عبدة العجل؛ حيث اشتد غضبه عليهم قائلًا: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦]، بعبادة العجل، وكنتم من قبل على التوحيد الذي تركتكم عليه بوعد منكم، ونسيتم ما وعدنا الله من النصر ودخول الأرض المقدسة، أنسيتم نعم الله وعهده عليكم وما بالعهد من قدم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [طه: ٨٦]؟! أم بمعنى: بل؛ أي: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم(٣).

فاعتذروا بأنهم مغلوبون على أمرهم من السامري الذي أغراهم بكيده، وأضلهم بفعله، وأغراهم بعبادة ما صنع، فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨].

= غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وألقاها ولم تتكسر، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها. قال القرطبي: قال أبو الفرج بن الجوزي: من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذكر في القرآن ألقاها، فمن أين لنا أنها تكسرت. اهـ. (٧/٢٨٨)، وقال الفخر الرازي (١٥/١١): ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح، فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت، فهذا ليس في القرآن، وإنه لجراءة عظيمة على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء عليهم السلام. قلت: لم أجد ما قاله القرطبي في تفسيره من موضعه، فلعله، أخذها من مصادر أخرى.

(١) راجع: لطائف آيات سورة «الأعراف»، رقم [٨].

(٢) روح المعاني (٩/٦٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٥٨)، التفسير الكبير (٢٢/١٠٢/١٠٣).

أ - سبب عقوبة صانع العجل:

ذكر الله - تعالى - أن اسمه (السامري) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ﴾ [طه: ٩٥]. صنع السامري العجل من حلي بني إسرائيل (وقد كان صائغًا)، وللمفسرين - رحمهم الله تعالى - كلامٌ كثيرٌ حول كيفية صناعة العجل وخواره، وأقوالهم في ﴿أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، مما ينزه عنه كلام الله - تعالى -، ومصدرها أهل الكتاب، وفيهم - كما قال ابن كثير - كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة[١]، وأقرب الأقوال وأولاها ما ذكره الرازي المفسر عن أبي مسلم الأصفهاني[٢] حيث قال: «ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون»[٣]. فها هنا وجه آخر؛ وهو أن يكون المراد بالرسول: موسى عليه السلام، وبأثره: سنته ورسمه الذي أمر به.

فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان، ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه، والتقدير: أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]، أي: علمت أن الذي أنتم عليه ليس بحق، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول؛ أي: شيئًا من سنتك ودينك، وأخذت قبضة من ذهب المصريين، وطرحته في النار، ثم صنعت العجل، فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له: ما يقول الأمير في كذا؟ وبماذا يأمر الأمير؟.

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولًا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وإن لم يؤمنوا بالإنزال[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٨).

(٢) اسمه: محمد بن مسلم بن بحر الأصبهاني، كان كاتبًا بليغًا ومتكلمًا جدلًا عالمًا بالتفسير، له كتاب (جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب المعتزلة). انظر: الفهرست لابن النديم محمد بن أبي يعقوب ص(١٥١).

(٣) انظر مثلًا: تفسير الخازن (٣/ ٢١١)، تفسير القرطبي (١١/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ابن كثير (٣/ ١٧٢)، روح المعاني (١٦/ ٢٥٣).

(٤) التفسير الكبير للرازي (٢٢/ ١١١).

* وقال صاحب الظلال: «والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث؛ إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية... ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرًا من السامري، وتملصًا من تبعة ما حدث. وأنه صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تُحدث صوتًا كالخوار، ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول».

ب ـ نوع عقوبة عبدة العجل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

في الآية يبيّن الله ـ جل وعلا ـ نقمته في الدنيا والآخرة على من صنع العجل، أو عبده، أو رضي به، ونعني هنا بعذاب الآخرة لمن لم يقبل الله توبته، كالسامري ومشايعيه في هذا الأمر، فهم مستثنون من آيات التوبة كما استثني إبليس اللعين.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٥ ـ ٩٧]. الآية الأخيرة صريحة في أنه لا توبة للسامري ومن كان على شاكلته[1]، وإن تابوا فإن الله لا يتوب عليهم مع أن شأنه ـ تعالى ـ رحمته بعباده؛ لكنه رفع عنهم الرحمة؛ لكونهم ليسوا بأهل لها، وأحل مكانها سخطه وغضبه عليهم، فأذلهم في الدنيا، وادخر لهم في الآخرة ما يناسب مقامهم من العذاب.

فأما في الدنيا فقد أخرج سيدنا موسى عليه السلام السامري من بين بني إسرائيل وقال له: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]؛ أي: اذهب مطرودًا لا يمسك أحدٌ ولا تمس أحدًا، وأمر بني إسرئيل ألا يخالطوه، ولا يقربوه، ولا يكلموه، وكانت هذه إحدى العقوبات في دين سيدنا موسى عليه السلام، وهذه هي

(١) راجع: لطائف آيات سورة «طه»، رقم [٦].

عقوبة النبذ من المجتمع، أو العزل المدني، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد[1].

أما عقاب من اتخذوا العجل وتوبة الله عليهم فقد كانت أمرًا عجبًا يماثل كفرهم الأعجب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وهذا يدل على أنه بقي فيهم شيء من الاستعداد للعمل الصالح، ولم تكن قلوبهم قست كما قست من بعد كما وصفهم الله العليم بهم، عندها تحركت فطرتهم وأيقنوا أنه لا ينقذهم إلا أن تدركهم رحمة الله ومغفرته، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فكانت كفارة صنيعهم ما ذكر الله في سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

أخرج الطبري بسنده[2]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «قال موسى لقومه: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أمر موسى قومه عن أمر ربه ﷻ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة»[3].

وهكذا فعلوا كما أمروا؛ حيث كان عقاب ظلم النفس قتلها، وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهًا يعبده، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حق ربه حتى يجعل حقه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله ﷻ يقول لهم ـ عليه الصلاة

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ١١٣)، تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٢)، تفسير القاسمي (١١/ ٩٠)، في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٤٩)، التفسير المنير (١٦/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢) والأثر صحيح عن ابن عباس، انظر: تفسير ابن جرير (١/ ٤٣).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٧٣) وانظر: تفسير البغوي (١/ ٩٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٦٦).

والسلام ـ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ أي: ليقتل بعضكم بعضًا، وإنما عبر بقتل النفس لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه(١)، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فإن توبتكم بما فعلتم فيها الخير عند الله ـ تعالى ـ، فلما فعلوا تاب الله عليهم.

ثانيًا: طلبهم رؤية الله ﷻ وإعراضهم عن قبول التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

في هذه الآيات ازداد تمردهم حتى قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب، ويظهر أن الذي قال هذا مجموعهم أو سوادهم الأعظم، فاختار موسى ﵇ سبعين رجلًا(٢) يذهب بهم إلى الطور للاعتذار مما حصل، وأنهم لما أتوا الطور قالوا هذه الكلمة البشعة، فأماتهم الله بالصاعقة، فقام موسى يبكي ويناشد ربه في قومه يقول: بماذا أرجع لبني إسرائيل، فإني أمرتهم بالاقتتال، ثم اخترت من بقيتهم هؤلاء، فكيف أرجع دونهم؟ ومن يصدقني أنهم ماتوا؟ فلم يزل يتودد إلى الله بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، حتى أحياهم، ونظر كل واحد منهم إلى الآخر(٣)، فكان بعثهم من بعد موتهم منة وفضلًا منه تعالى عليهم؛ لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروها، وفي تلك الصحراء أظلهم بالغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد، وأنزل عليهم المن والسلوى؛ والمن: طعام يجدونه منتشرًا على رؤوس الشجر كأنه

(١) أحكام القرآن لابن عثيمين ص(٢١٩، ٢٢٠) وقد أخطأ من فهمه بأن يقتل بعضهم بعضًا؛ وإنما الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، لمن لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة. انظر: تفسير القاسمي (٢/ ١٢٧).

(٢) قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٥٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٩٣).

العسل، فيأكلونه، والسلوى: الطائر المعروف بالسمان، وهو من ألذ الطيور لحمًا، وسُميَ المن منًّا لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة[1]، وأتم الله هذه النعم بنزول التوراة بما فيها من هدى ورحمة، فأبوا الامتثال لأوامرها وقالوا: سمعنا وعصينا، وهذا إن دل فإنما يدل على سوء طباعهم وخبث سريرتهم، فعاقبهم بنتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وهددهم بسقوطه عليهم حتى أذعنوا وانقادوا؛ ولكنه انقياد مؤقت قضت عليه الطباع اللئيمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤]، وما رفع الله فوقهم الطور إلا بعد فسوقهم وعصيانهم لأمر الله فيما أنزل عليهم؛ حيث أمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة، وأن يذكروا ما فيها من المواعظ والأحكام؛ ليصلوا إلى تقوى الله ﷻ؛ ولكنهم تولوا بعد ذلك، ولولا أن الله تداركهم بفضله ورحمته وشملهم بفضله ومنته لكانوا من الخاسرين الهالكين بالعقوبة.

نوع عقوبة من طلبوا رؤية الله ﷻ:

كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠].

هذا الوعد كان لموسى مع قومه الذين اختارهم الخيّر فالخيّر، ثم ذهب بهم لميقات الله ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض بالألواح[2]، ويبدو أنهم سمعوا كلام الله لموسى يأمره وينهاه، فقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، علانية، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي: فماتوا، وهي الرجفة كما جاء في الآية الأخرى، وربما رُجف بهم، ثم نزلت بهم صاعقة أخذت أنفاسهم كما حصل لقوم صالح وشعيب ﵉، وقد ذكر المفسرون من معانيها

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٩/ ١٠٠)، أحكام القرآن ص(٢٢٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٧)، تفسير المنار (٩/ ١٨٦ ـ ١٨٧)، في ظلال القرآن (٣/ ١٣٧٧).

أنهم سمعوا صوتًا فصعقوا؛ أي: ماتوا[1].

* وقال السدي: «﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾؛ أي: نارٌ[2] أهلكتهم، فلما رأى ﷺ ذلك توجه إلى الله يدعوه ويتضرع إليه حتى رد الله أرواحهم إليهم، فكان موتهم عقوبه لهم، وبعثهم ليستوفوا آجالهم»[3].

وهكذا هلكوا ثم بعثوا جزاء صنيعهم والتوائهم وإعراضهم عن قبول الحق الذي جاء به موسى ﷺ، فرفع الله فوقهم الجبل حتى كاد يسقط عليهم لولا لطف الله بهم.

وقد دلت الآية أن طلب رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا مستنكر؛ ولذا لم يذكر ﷻ سؤال الرؤية إلا استعظمه؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٣]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، فدلت هذه التهويلات الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها.

ثالثًا: تبديلهم أمر الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

---

(١) تفسير ابن جرير (٢/ ٨٢). (٢) المصدر السابق (١/ ٨٣).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق د/ أحمد العماري (١/ ١٧٣). ورواه ابن جرير (٢/ ٨٩) من طريق عبد الرزاق به حيث جمع بين متنيهما بإسناد واحد، وكذلك السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٣٦).

المقصود بالقرية: قرية فتحوها في طريقهم، وكانت أول تجربة عملية لبني إسرائيل بعد تنظيمهم وتقسيمهم أسباطًا للسير بهم باتجاه الأرض المقدسة، فكان هذا بمثابة أول اختبار جهادي لهم؛ ولكنهم خالفوا ما أمروا به من القول والفعل؛ حيث أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرًا لله وأن يقولوا: حطة، فبدلوا السجود بالزحف وقالوا: حبة في شعرة!!.

أخرج البخاري بسنده عن همام بن منبه[1] أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا: حطة نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة**». قال ابن حجر: كذا للأكثر، والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول؛ فإنهم أمروا بالسجود شكرًا لله ـ تعالى ـ عند انتهائهم، وبقولهم: حطة، فبدلوا السجود بالزحف وقالوا: حنطة بدل حطة[2].

والمتأمل يرى أنه لم يطلب منهم عملٌ شاق أو قول شاق؛ وإنما قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾؛ أي: خاضعين لله ـ تعالى ـ بما أمركم، شاكرين له إنعامه عليكم بفتحها، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾؛ أي: احطط عنا خطايانا[3]، ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، ولكنهم لم يفعلوا، وبدلوا ما قيل لهم ظلمًا وعدوانًا وإنكارًا لفضل الله ـ تعالى ـ ونعمته عليهم.

نوع العقوبة:

قال تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]؛ أي: كانت عاقبتهم أن أنزل عليهم رجزًا من السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

وقد فسر الرجز بالطاعون، لحديث رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجز عذاب،**

---

(١) هو همام بن منبه بن كامل الصنعاني، أبو عتبة، أخو وهب، يكنى أبا عقبة، روى عن أبي هريرة وابن عباس ومعاوية، وروى عنه وهب بن منبه ومعمر وعقيل بن مقفل وعلي بن الحسن، قال عنه يحيى بن معين: ثقة. انظر: الجرح والتعديل (٩/١٠٧)، التقريب ص(٥٧٤).

(٢) البخاري مع فتح الباري، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ (٨/٢٠٨)، برقم [٤٤٧٩]، وبرقم [٤٦٤١] ص(٣٨٧).

(٣) المصدر السابق (٨/٣٨٧).

عذب به قوم من قبلكم»[١].

وفي الفتح أن أسامة بن زيد سئل: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل ـ أو على من كان قبلكم ـ»**[٢].

وهكذ أرسل الله العذاب عليهم سريعًا، يدل على ذلك العطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: ١٦٢]؛ أي: على الظالمين فقط، وأنه لم يتعدهم إلى الصالحين منهم، وأخبر أنه من السماء للدلالة على شدته وهوله؛ ولذا قال بعض المفسرين: «مات منهم أربعة وعشرون ألفًا في ساعة واحدة[٣] جزاء ظلمهم».

رابعًا: كفرانهم لنعم الله ورغبتهم في الرجوع إلى الذل:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. وفي سورة «الأعراف»: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

ومع كل الذي رأينا من بني إسرائيل من عناد وعصيان لله ورسوله إلا أن موسى وأخاه هارون عليهما السلام لم ييئسا منهم، واستمرا في محاولاتهما للارتقاء بحياة بني إسرائيل وتهيئتهم لدخول الأرض المقدسة بكل حكمة ولطف ولين.

فها هو موسى عليه السلام يؤمر بضرب حجر لا بعينه، وهذا أظهر في المعجزة؛ حيث كان يضربه فينفجر منه الماء، ثم يضربه فييبس[٤]، وهنا يخبر الله ـ تعالى ـ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، صحح إسناده محققه. انظره (١/ ١٨٦).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠/ ٢٢٤)، وأصله عند مسلم (٤/ ١٧٣٧)، برقم [٢٢١٨]، ووقع بالجزم عند ابن خزيمة من طريق عمرو بن دينار عن عامر بن سعد بلفظ: **«فإنه رجز سلط على طائفة من بني إسرائيل»**. ووقع عنده أيضًا بالجزم من رواية عكرمة بن خالد عن ابن سعد عن سعد؛ لكن قال: **«رجزٌ أصيب به من كان قبلكم»**.

(٣) روح المعاني (١/ ٢٦٧). وفي فتح الباري قوله: **«أرسل على بني إسرائيل»** قيل: مات منهم في ساعة واحدة عشرون ألفًا، وقيل: سبعون ألفًا، والله أعلم. (١٠/ ٢٢٥).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٤)، وانظر: التفسير المنير (١/ ١٦٨)، وقد أورد المفسرون في أمر الحجر كثيرًا من الروايات التي لا تنهض حجتها أعرضت عنها، ثم نظرت في تفسير المنار فرأيته يشنع على من ذكر ذلك، بل عدّ ذلك كله من الخرافات الإسرائيلية التي =

أنه انفجر من «الحجر» اثنتا عشرة عينًا على عدد أسباط بني إسرائيل؛ لئلا يحصل التزاحم والتقاتل على الماء، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، فكان هذا امتنانًا وفضلًا منه عليهم؛ ليأكلوا ويشربوا من رزق الله، ويقيدوا هذه النعم بشكرها، فلا يعيثوا في الأرض فسادًا، وفسادها يكون بالمعاصي وارتكاب النواهي، مما يكون سببًا في دمارهم وفساد حالهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] [الروم: ٤١].

وفي سورتي «البقرة» و«الأعراف» عدد من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل نذكرها إجمالًا[2]:

أولها: ما أنعم الله به عليهم حين نجاهم من فرعون وقومه؛ حيث كانوا يذيقونهم أشد أنواع العذاب؛ من تذبيح الأبناء، واستحياء النساء.

ثم اعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة من وجوه:

أحدها: أن هذه الأشياء التي ذكرها الله ـ تعالى ـ لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم؛ وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم.

ثانيها: يذكر الله ـ تعالى ـ بهذه النعم يهود المدينة حين نجى أسلافهم من ذل فرعون، وإغراقه أمام أعينهم، ومن ثم إسباغ نعمه عليهم، فكأنه يقول لهؤلاء: لا تغتروا بفقر محمد ﷺ وقلة أنصاره؛ فإنه على الحق كما كان موسى عليه السلام على الحق، ولا بد وأن يصير العز له، والذل على أعدائه.

ثالثها: أن الله ـ تعالى ـ نبه بذلك على أن الملك بيده يؤتيه من يشاء، فليس

= كانوا يتلقونها بالقبول. انظره (٣٦٨/٩).

(١) انظر: أحكام القرآن لابن عثيمين ص(٢٣٨ : ٢٣٩).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٦٧/٣ : ٩٧)، صفوة الآثار (١٢٣/٢ : ١٤١)، التفسير المنير (١/ ١٦٠ : ١٦٨).

للإنسان أن يغتر بعز الدنيا؛ بل عليه السعي في طلب عز الآخرة[١].

النعمة الثانية: حين فرق الله لهم البحر، فجعله يابسًا أمامهم دون أدنى جهد منهم، فكان الأولى بهم شكر المنعم، وإخلاص العبادة له.

النعمة الثالثة: إكرامهم وإكرام نبيهم بذلك الموعد الشريف ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥١] لمناجاة ربه وتكليمه بالوحي بلا واسطة؛ بل قربه الله نجيًّا من وراء حجاب، وذهب لميقات ربه فاتخذوا العجل معبودًا لهم، وكان هذا فتنة من الله يختبر بها ثبات إيمانهم وصدقهم في شكره؛ ولكنهم أخفقوا في هذا الامتحان بعد مشاهداتهم لتلك المعجزات الباهرات الدالة على ألوهية الله ـ تعالى ـ.

النعمة الرابعة: امتنان الله عليهم بإنزال التوراة على موسى عليه السلام؛ لأن فيها أكبر نعمة من نعم الله؛ وهي الهداية التي من حصل عليها فقد نال سعادتي الدنيا والآخرة، ومن حرمها بعد ما جاءته تعرض لشقاوتي الدنيا والآخرة، وكل من سلك مسالك الهداية منهم أو من أمة محمد ﷺ فالله يعينه على تحصيلها، أما من أعرض وسد أذنيه وشغلهما بلهو الحديث فإنه يخاف عليه من وعيد الله ـ تعالى ـ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

النعمة الخامسة: هي نعمة العفو الأول عن شركهم بالله وعبادة بعضهم العجل وسكوت بعضهم عن الإنكار؛ حيث عمتهم العقوبة التي كادت تقضي عليهم بأيديهم لولا عفو الله عنهم وتوبته عليهم.

النعمة السادسة: تذكير الله لهم حيث أحياهم بعد ما أهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون بسبب تمردهم وقولهم: لن نؤمن لك وننقاد حتى نرى الله عيانًا، ويكلمنا مثل ما كلمك، فليس لك ميزة علينا. وهذا التمرد ـ كما ترى جرى ـ بعد توبتهم من عبادة العجل وتقتيلهم لأنفسهم ـ كما سبق ـ، فأمرهم عجيب لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبة مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم.

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣/٦٩) (٧٠).

النعمة السابعة: نعمة التظليل بالغمام وذلك في أرض التيه.

سخر الله لهم السحاب يظلهم من الشمس حتى لا تلفح وجوههم وتؤلم أبدانهم، مع أنهم متلبسون بمعصية الله بعدم دخول الأرض المقدسة.

النعمة الثامنة: إنزال المن[1] والسلوى[2] ليتنعموا بأكلها، ويتفكهوا بلذاذتها. والتعبير بالإنزال لكل منهما على حقيقته، وهذه النعمة زيادة على ما عندهم من لحوم المواشي.

النعمة التاسعة: اختار الله بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة؛ حيث أخبرهم قبل دخولها بأن الله كتبها لهم، وهذه نعمة عظيمة كان ينبغي عليهم طاعة نبيهم في ذلك؛ ولكنهم كفروها وأبوا أن يدخلوها وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

النعمة العاشرة: أن الله ـ تعالى ـ أنعم عليهم بتفجير الماء عليهم من حجر يابس؛ حيث أمر الله موسى عليه السلام بضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا على عدد أسباطهم، وفي هذا أعظم دليل على قدرة الله الذي أخرج لهم ماءً في مكان مجدب وصحراء لا يتوقع وجود الماء فيها حتى كاد العطش أن يقتلهم، فكان الواجب عليهم طاعة أمر الله ورسوله في ذلك.

نوع عقوبتهم:

ومع كل هذه النعم إلا أنهم لم يشكروها؛ بل كفروا وضلوا كعادتهم، والناظر في تعداد هذه النعم يرى أن الله ـ تعالى ـ لم يكلفهم مشقة عنائها؛ بل تولى الله ذلك بنفسه لهم، وخذ مثلًا (الماء)؛ حيث فجره الله لهم ولم يكلفهم مشقة حمله أو حتى البحث عنه، ومن الله عليهم بإنزال الطعام لهم من السماء ولم يكلفهم الحرث والزرع وتعب السقي والحصد... إلخ؛ بل اختار لهم الطعام الخاص الذي يصلح لحياتهم في هذه الصحراء، ووقاهم من حر الشمس ولهيبها، فظللهم بالغمام، وأغدق عليهم من فضله ونعمه.

---

(١) **المن**: مادة لذيذة المأكل، قليلة الحلاوة، حتى لا يملها الآكل. انظر: تفسير الرازي (٣/ ٨٧).

(٢) **السلوى**: طائر معروف يسمى السماني. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٩)، تفسير الرازي (٣/ ٨٧)، صفوة الآثار (٢/ ١٣٨).

وكل هذه النعم قد ضاقوا ذرعًا بها، وملّوا منها، ورغبوا في الذل الذي ألفوه؛ لأن من عاش في النعم بالإلف لا بالشكر يضل، ذلك أن الحياة الجديدة حياة عقيدة وإيمان حق ومنهج نبوة جاء ليرفعهم؛ لا ليضعهم؛ لأن المقصد ليس ملء البطون واتباع الهوى والشهوة؛ وإنما القصد إلزامهم بمنهج النبوة والسير بهم إلى الله ـ تعالى ـ؛ للفوز برضاه في الدنيا والنجاة من عذابه في الآخرة.

والظاهر أن هؤلاء القوم لم يدركوا حقيقة ذلك، ولم يكن عندهم استعداد لتحمل شيء من تكاليف الله ـ تعالى ـ، عندها جاؤوا موسى ﷺ يخبرونه بضيقهم من هذه الحياة، ونفاد صبرهم منها ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1] [البقرة: ٦١]، والظاهر أن الاعتذار بمثل هذه الحجة التافهة غرضها التملص من أداء الأمانة، والبعد عن تحمل المسؤولية، والركون إلى الدعة واستمراء الذل الذي لم تتطهر منه نفوسهم.

إنهم يريدون الأطعمة التي ألفوها تحت سياط الذل ونار القهر والظلم، فرد عليهم نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]؛ أي: استحقوا غضبه، ومن استحقه فقد أصابه، فإنهم بإعناتهم لموسى ﷺ في المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب وما أظهر الله لهم من الغرائب قد دل على أنه لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم بها كافرون ظالمون، نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده!!.

وهم بأفعالهم وسوء طباعهم قد أضروا من بعدهم إلى يوم القيامة، فهم حين أمروا بعدم الادخار ادخروا فتعفن وفسد، فتعدى ضررهم بالادخار هذا إلى البشرية جمعاء بتعفن أطعمتها الطرية، وسريان السوس إلى أطعمتها الصلبة، وحتى مع صنع الآلات التي تحفظ الطعام فإن ذلك محدود بأمد.

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لولا بنو**

---

(١) قال ابن كثير: «ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا فيه». (١٠٦/١).

إسرائيل لم يخنز[1] اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»[2].

خامسًا: مراوغاتهم وتلكؤهم في عدم ذبح ما أمروا به:

سميّت سورة «البقرة» بهذا الاسم لذكر قصة ذبح البقرة فيها؛ حيث لم تذكر إلا مرة واحدة، وهي تدل على عناد بني إسرائيل في أخذ الحق، إضافة إلى سوء الظن بالأنبياء وإيذائهم حتى في أنفسهم.

سبب القصة:

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبيدة السلماني[3] قال: «كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلًا، فوضعه على رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى ﷺ، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ﴾ [البقرة: ٦٧]، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة؛ ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة، التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل لا يملك غيرها، فقال: والله لا أنقصها عن ملء جلدها ذهبًا، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا، فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام، فقالوا: من

---

(١) قال ابن حجر: (يخنز اللحم) ـ بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وبفتحها بعدها زاي ـ؛ أي: ينتن، والخنز: التغير والنتن، قيل: أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي.
وقال بعضهم: معناه: لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن، فتح الباري (٦/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٢/ ٤٥١)، برقم [٣٣٣٠].
ومعنى **«لولا حواء لم تخن أنثى زوجها»**: إشارة إلى ما وقع منها في تزيينها لآدم للأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، وليس معناه ارتكاب الفاحشة، حاشا وكلا!! وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها». انظر: فتح الباري، بتصرف (١/ ٤٢٤).

(٣) هو عبيدة بن عمر السلماني، أبوعمرو الكوفي، روى عن عمر وعلي وابن مسعود، تابعي كبير مخضرم، فقيه ثقة ثبت، كان شريح إذا أشكل عليه شيء سأله، قال عنه يحيى بن معين: عبيدة السلماني ثقة لا يسأل عنه. انظر: الجرح والتعديل (٦/ ٩١)، التقريب ص(٣٧٩).

قتلك؟ فقال: هذا (لابن أخيه)، ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا، فلم يورث قاتل بعد»[1].

نوع العقوبة:

نستطيع أن نستخلص العقوبة التي نزلت بهم في أمر واحد؛ هو أنهم شددوا فشدد الله عليهم، ذلك أنهم كلما زادوا موسى ﷺ أذى وتعنتًا زادهم الله عقوبة وتشديدًا في الأوصاف حتى وجدوها عند الرجل الذي لم يقبل إلا بملء جلدها ذهبًا، فكان هذا أشد عليهم، ولولا خوف الفضيحة لما فعلوا كما ذكر الله عنهم ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ لأن الشروط قد تضاعفت عليهم بتضاعف تلكئهم، وكانت حكمة الله - تعالى - ألا يحيا القتيل إلا بعد جهد وامتحان وثمن باهظ لما قابلوا به موسى ﷺ من التعنت والعناد، وهنا يوبخهم الله - تعالى - بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، من أمر القتيل حمية على القاتل، وعدم رحمة بالمقتول، وعدم مبالاة بتهمة الأبرياء الذين تضطرهم الحالة إلى الدفاع عن أنفسهم، ثم كان في إحياء الميت فضيحة لهم وعقوبة أخرى أشد من سابقتها، هتكت أستارهم، ودفع الله بها الباطل، وأظهر الحق، وحطم أستار التلبيس، وبرهن لهم على قدرته في إحياء الموتى إحياءً حسيًّا وإحياءً معنويًّا[2].

إذًا فليس التشدد في الدين محمودًا، وليس الإلحاف في كثرة السؤال مرغوبًا فيه؛ لذا نجد أن الله نهى عن ذلك وقت نزول القرآن بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم بسندهما عن سعد بن أبي وقاص: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرّم عليهم من أجل مسألته**»[3]، وقال - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٢: ١١٤). وقال محققه الشيخ مقبل الوادعي: الأثر إلى عبيدة السلماني صحيح.

(٢) الإحياء الحسي: كان بإحياء القتيل وقيامه وهم ينظرون.
والإحياء المعنوي: إنجاؤه للفريقين المتخاصمين. انظر: صفوة الآثار (٢/ ١٨١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال (٤/ ٣٦١)، برقم [٧٢٨٩، ٧٢٨٨].
ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ (٤/ ١٨٣١)، برقم [٢٣٥٨].

هريرة: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[1].

المقصود من كل ذلك النهي عن التشدد في الأمور، والندب إلى الأخذ بالمتيسرمنها.

سادسًا: امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة:

هذا الموقف هو الأخير في عناد بني إسرائيل مع موسى عليه السلام؛ حيث امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم مع كثرة تلكُّئهم ونكوصهم على أعقابهم؛ لذا تلمح في خطاب موسى عليه السلام إشفاقه عليهم وهو يخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]، فلقد جربهم كثيرًا في رحلته الطويلة معهم، جربهم حين أخرجهم من أرض مصر، وحررهم من الذل والهوان، وخرج بهم من البحر، فمروا على عباد أصنام، فطلبوا مثلهم، وما يكاد يغيب عنهم في ميقات ربه حتى عبدوا عجلًا مصنوعًا من الحلي، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل الله عليهم المن والسلوى، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام، وجربهم في قصة البقرة فتلكؤوا في الطاعة والتنفيذ، وجربهم وقد عاد من ميقات ربهم ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده، فأبوا أن يعطوا الميثاق ويفوا بالعهد، ولما رفع الله الجبل فوقهم أعطوه ثم عادوا.

لقد جربهم في مواطن كثيرة، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله فيها أن يكونوا ملوكًا، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وفضله، لقد حق له أن يشفق عليهم وهو يدعوهم الدعوة الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البُشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال (٤/ ٣٦١)، برقم [٧٢٨٨].

ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ (٤/ ١٨٣٠)، برقم [١٣٣٧].

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢١]، ومع كل هذه البشريات قبل دخول أرض المعركة إلا أن اليهود هم اليهود؛ الجبن، والنكوص، ونقض الميثاق، وكفران النعم، والحنين إلى الذل ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]، فاعتذروا بأن فيها قومًا عظامًا جبارين[1] لا يستطيعون مقاومتهم، لقد أرادوا النصر رخيصًا لا ثمن له ولا جهد فيه، ولا غرابة في إحجامهم عن الدخول فيها وقتالهم الجبارين، فكل قوم تربوا في أحضان الذل يألفونه مع طول المدة.

قال رجلان من الذين يخافون الله ـ وقد أنعم عليهما بالتوفيق والسداد ـ: ادخلوا الباب؛ فإنكم إذا دخلتموه كان الله معكم وناصركم عليهم؛ لأنه سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته ﷻ ومخافة الناس، والذي يخاف الله لا يخاف أحدًا بعده، ولا يخاف شيئًا سواه، فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم، وكتب لكم النصر عليهم، فخارت قوى القوم وارتجفت قلوبهم وقالوا: يا موسى ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، فإنهم أولو قوة وبأس، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، الذي أمرنا أن نخرج من مصر ونأتي إلى هنا، ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ومتخلفون عن الحرب.

هكذا يردون أمر الله وأمر رسوله بعد كل جهد معهم وبعد إنجاز كل طلب لهم، فلسان حالهم يقول: لا نريد ملكًا، لا نريد عزًّا، لا نريد أرض الميعاد ودونها الجبارين.

---

(١) ذكرت روايات في وصف الجبارين؛ حيث بالغت جدًا في ذكر طولهم وعرضهم حتى سخر ابن كثير رحمه الله من ذلك وقال: «هذا شيء يستحى من ذكره؛ إضافة إلى أنه مخالف لما ثبت في الصحيحين من أن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن». إذًا فمعنى جبارين: أي عظام الأجسام طوالها، والجبار من الناس: المتعظم الممتنع من الذل والفقر، أو هو من يجبر الناس على مراده بالقوة. وقد ذكر القرطبي حديثًا مسهبًا عن عوج بن عناق وهو حديث خرافة لما فيه من التهاويل الباطلة. انظر: تفسير القرطبي (٦/ ١٢٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠).

هذه هي نهاية المطاف مع القوم الذين لا وفاء لهم مع أحد حتى مع الله ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾، وكأنه ليس بربهم[1] الذي خلقهم ونصرهم ونجاهم ورزقهم، ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨١]، وبعد كل هذا ماذا فعل الله بهم؟.

نوع العقوبة:

قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٢٦].

انصرف الناس عن موسى وأخيه هارون، ولم يسمعوا نصيحة الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، ولم يبق معه إلا أخوه، فهما وحيدان في أضعف جند وأذل أعوان.

وبكل أمل يتوجه موسى إلى الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥]، وهذا القول من موسى ﷺ صورته خبر ومعناه إنشاء، فهو من بث الحزن والشكوى إلى الله، وإلا فموسى يعلم أن الله ـ تعالى ـ يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه[2]؛ ولكن موسى بضعف الإنسان، وإيمان النبي الكليم، وعزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجهًا إلا لله يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما عاد يربطه بهم رباط؛ لأنهم غير مستقيمين على الصراط ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، فاستجاب الله دعاء نبيه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٢٦]، متحيرين لا يدرون أين ينتهون في سيرهم مدة أربعين سنة، وهو الزمن الذي يكفي في علم الله ـ تعالى ـ كي يفنى كبارهم، ويهلك رؤساؤهم، ثم يظهر من بعدهم جيل جديد قوي الإيمان[3]، عزيز الجانب، لا يخاف الموت،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٨٧٠)، التفسير الواضح (٦/ ٤٨) م١.

(٢) وعند صاحب المنار «وهذا يدل على أنه لم يكن يوقن بثبات الرجلين اللذين أنعم الله عليهما على ما كانا عليه من الرغبة والترغيب في الطاعة، وأما ثقته بأخيه فلعلمه اليقيني بأن الله ـ تعالى ـ أيده بمثل ما أيده به. .إلخ» (٦/ ٣٣٥).

(٣) هو الجيل الذي سار بهم النبي يوشع بن نون ﷺ بعد موت موسى ﷺ إلى الأرض المقدسة، وقاتل بهم الجبارين، ووقفت لهم الشمس ساعة حتى فرغ من قتالهم، لحديث =

باذلًا نفسه للجهاد في سبيل الله، يفتح الله على يديه الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وهكذا بدأت سنوات التيه لا ينفذون من درب إلا ويضيعون في دروب أكثر وعورة وأطول سيرًا، يدورون في رمال لا تحتمل، فراغٌ طويل، وعذاب نفسي، وتعب جسدي؛ جزاء صنيعهم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فلا تحزن عليهم، ودعهم يذوقوا مرارة الشقاء في الحياة بعد رغد العيش، وطيب المقام، والبعد عن ذل الاستعباد والهوان(١).

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من

عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام

➢ **أولًا:** من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

نأخذ أن لكل ظالم باغ نهاية، ولكل مظلوم فرجًا قريبًا، ونصرًا محققًا؛ حيث أغرق الله فرعون وآله، ونجى موسى ومن معه من بني إسرائيل، وكان يوم الإنجاء هو يوم عاشوراء، فهو يوم عيد يشكر فيه الله بالصوم.

روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيمًا له، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم**» فأمر بصومه(٢). وفي حديث آخر عند مسلم أنهم قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا كان العام**

= رواه البخاري، كتاب النكاح، باب من أحب البناء قبل الغزو (٢/ ٣٩٤)، رقمه [٣١٢٤]. رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم (٣/١٣٦٦)، برقم [١٧٤٧]. وانظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٠٩).

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ٨٧٠، ٨٧١)، تفسير المنار (٦/ ٣٣٤: ٣٣٦)، تفسير القاسمي (٦/ ١٥٨)، قصص الأنبياء في القرآن الكريم لسميح عاطف ص(٤٥٤ ـ ٤٥٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢/ ٧٩٥)، برقم [١١٣٠].

المقبل ـ إن شاء الله ـ صمنا اليوم التاسع»[1].

لأننا مأمورون بمخالفة اليهود والنصارى، وفي الحديث الآخر أيضًا **«لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع»**[2].

➤ **ثانيًا**: بيان أن الله ـ تعالى ـ نجى بني إسرائيل مرتين: المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب، فيذبحون الأبناء، ويستبقون النساء.

والمرة الثانية: حين فرق بهم البحر فأنجاهم من الغرق، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك.

➤ **ثالثًا**: من كمال طمأنينة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

➤ **رابعًا**: الرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم وغرتهم حتى ظنّوا أنه لا يمكن الانتصار عليهم؛ بل ربما يسخرون إذا قيل لهم: إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فهذا فرعون على قوته وجبروته وضعف بني إسرائيل أغرقه الله في صبيحة يوم، فأي قوة مهما بلغت لا تساوي شيئًا أمام قوة الله ـ تعالى ـ، فنحن إذا صدقنا الله ﷻ فإن الله سيعطينا من أسباب النصر ما لا يخطر لنا على بال[3].

➤ **خامسًا**: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٥٤].

نأخذ أن بني إسرائيل حينما عبدوا العجل لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه كانوا عالمين بأنهم على غير هدى؛ لأنهم كانوا ظالمين؛ فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل، وحين عبادتهم للعجل ذكّرهم هارون عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]؛ ولكنهم أصروا، وهذا يدل على سفههم وقلة تفكيرهم[4].

➤ **سادسًا**: تودد وتلطف موسى عليه السلام مع قومه بعد أن غضب لله ـ تعالى ـ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (٢/٧٩٧)، برقم [١١٣٤].

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: أحكام من القرآن ص(٢١٢ ـ ٢١٤).

(٤) انظر: المصدر السابق ص(٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١).

فنسف عجلهم وحرّقه وعلم منهم التوبة، قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وهكذا ينبغي للداعية إذا غضب على قومه أن يعود إليهم فيذكرهم بالله ـ تعالى ـ، ويذكر لهم من الألفاظ ما يكون سببًا في إقبالهم وتقبلهم(١).

> **سابعًا**: إنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء، فهذا موسى ﷺ ذكر أنهم ظلموا أنفسهم، ثم عرض عليهم الدواء؛ وهو التوبة إلى الله ـ تعالى ـ، وهكذا ينبغي للدعاة إذا ذكروا الداء والأمراض الدينية والمشاكل الاجتماعية أن يذكروا لهم الدواء وطريق الخلاص منها واتقاءها حتى يجمعوا بين الأمرين.

> **ثامنًا**: وجوب التوبة إلى الله ـ تعالى ـ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، والعاصي إذا أذنب فلمن يتوب؟ لا شك أن الذنب الذي ألم به لا بد وأن يندم على فعله إن كان مؤمنًا.

والتوبة لا بد فيها من شروط ستة(٢):

الشرط الأول: إخلاص التوبة إلى الله ـ تعالى ـ، وذلك بأن يكون الحامل له عليها خوف الله ـ تعالى ـ ورجاء ثوابه.

الشرط الثاني: الندم على الذنب، فلا يكون الأمر عنده على حد سواء؛ بل يتأسف ويظهر لله ـ تعالى ـ مدى ندمه وحسرته على فعله.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال، فإن كان متلبسًا بمحرم تركه، وإن كان تاركًا لواجب تداركه، وإن لم يمكن تداركه كفته التوبة.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المستقبل، ولا يكون في نيته العودة متى سنحت له الفرصة.

الشرط الخامس: ردّ المظلمة إن كانت لآدمي أو طلب البراءة من صاحبها(٣).

الشرط السادس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه التوبة؛ أي: قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الأجل، لحديث «**لا تنقطع الهجرة حتى**

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) أحكام من القرآن الكريم ص(٢٢١، ٢٢٢)، وانظر: مدارج السالكين (١/ ١٨٢: ١٨٧) إن أردت الاستزادة في ذلك.

(٣) فتح الباري (١١/ ١٠٤).

تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ الآية [النساء: ١٨].

➢ **تاسعًا**: بيان منة الله ﷻ على هذه الأمة (أمة محمد ﷺ)؛ حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل؛ حيث لم يقبل الله توبتهم حتى قتلوا أنفسهم.

أما هذه الأمة فإن توبتها تحصل بما ذكرنا بشروطها ومن غير أن يحدث الإنسان ضررًا على نفسه[(٢)].

➢ **عاشرًا**: إن الإقلاع عن الذنب والتوبة إلى الله ـ تعالى ـ خير من الاستمرار عليه؛ بل قد يكون حال الإنسان بعد التوبة خيرًا منه قبل أن يقع في الذنب؛ لأنه كلما تذكر الذنب جدد التوبة وعمل صالحًا.

➢ **الحادي عشر**: بيان منة الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة؛ حيث يقبل توبتهم بعد أن غرقوا في الذنب، فيعفو عن سيئاتهم ويبدلها حسنات، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذه منة من الله وفضل؛ ولهذا لما علم الله ـ تعالى ـ صدق بني إسرائيل في التوبة وقتلوا أنفسهم تاب عليهم وعفا عنهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

➢ **الثاني عشر**: بيان تمرد بني إسرائيل بعد توبتهم من عبادتهم العجل وتقتيلهم لأنفسهم، فأمرهم عجيب لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبة مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم؛ بل إنهم بعد هذا ازدادوا تمردًا حتى قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فعاقبهم الله بالصاعقة فماتوا جميعًا وهم ينظرون، فكان شاملًا لمن قال ذلك أو رضي به، ومن المعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت (٣/ ٧ ـ ٨)، رقم [٢٤٧٩]. ورواه أحمد في مسنده (٤/ ٩٩). ورواه الدارمي، كتاب السير، باب الهجرة لا تنقطع (٢/ ٢٣٩: ٢٤٠). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٧٠)، برقم [٢١٦٦]. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٨٧)، رقم [٩٠٧]. والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٧).

(٢) أحكام من القرآن ص(٢٢٢، ٢٢٣).

أن رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا ممتنعة، وأما في الآخرة فقد أثبتها أهل السنة، ونفاها المعتزلة ومن تبعهم، وإليك الأدلة التي اعتمد عليها أهل الحق:

لقد استدل أهل السنة بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وهي وجوه المؤمنين قطعًا، وبقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وبما ورد في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»... الحديث(١).

وعن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنّة، قال: يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»(٢).

وقد أنكر المخالفون من المعتزلة وغيرهم رؤية الله، وأولوا النصوص، وردوا الأحاديث الصحيحة المتفق على صحتها، واحتجوا بالعقل وأكثروا في ذلك، وأسهل ما رد به أهل السنة عليهم بما يلي:

أولًا: إن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية، ولو كانت مستحيلة لما سألها موسى عليه السلام، ولا يتصور أن موسى عليه السلام يسأل المستحيل.

فإن قيل: إن موسى عليه السلام لا يعلم باستحالة ذلك.

فالجواب: أنه يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن تبعهم أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي موسى عليه السلام، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة، وحيث بطل القول بالاستحالة تعيّن القول بالجواز(٣). ومما يقوي قول

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/ ١٩٠) برقم [٥٥٤]، رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣)، برقم [١٨٢].

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى (١/ ١٦٣)، برقم [١٨١].

(٣) انظر: روح المعاني (٩/ ٤٦، ٤٧).

أهل الحق أن الله ـ تعالى ـ لم ينكر عليه سؤاله؛ بل منعه الرؤية، ولو كانت مستحيلة لأنكرها[1]، ألا ترى أنه أنكر على نوح عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥]، فقال له منكرًا عليه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الآية [هود: ٤٦].

هذا والذي ندين به الله ﷻ أن الحق الواضح الجلي يؤيد ما قاله أهل السنّة دون تعصب أو تحيز، وأن رؤية الله متحققة للمؤمنين في الآخرة، وأن مخالفيهم قد خالفوا الحق، وأدلتهم واهية لا تقوم بها حجة فضلًا عن قتالهم على الاحتجاج بالعقل مع وجود النصوص.

* قال شارح الطحاوية: «وهذه المسألة من أشرف مسائل الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون»[2].

* وقال الشوكاني: «تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة، لا ينبغي لمنصفٍ أن يتمسك في مقابلتها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة... فهي قواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب»[3].

➢ **الثالث عشر**: أن في مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن وتذكيرهم بالنّعم التي أنعم الله بها على أصولهم دليلًا واضحًا على وحدة الأمة وتكافلها، ومن المعلوم أن الإنسان قد يتضرر بسوء أصله، وقد ينتفع بصلاح أصله، كما قال تعالى في كنز الغلامين اليتيمين: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في تعميم العذاب: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وغيرها من الآيات الدالة على أن صلاح الآباء ينتفع به الأبناء والأحفاد[4].

➢ **الرابع عشر**: أن الله ـ تعالى ـ ينعم على العبد برفع الضرر الذي نزل به من

---

(١) كتاب الرؤية للحافظ أبي الحسن بن علي بن عمر الدارقطني ص(٥١). ط مكتبة المنار.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (علي بن علي بن محمد) ص(٢٠٨)، ص(١٤١٣)، ومن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى كتاب الرؤية للدارقطني، روح المعاني (٩/٤٦ ـ ٥٣)، وبحث رؤية الله ـ تعالى ـ وتحقيق الكلام فيها: د/ أحمد بن ناصر الحمد.

(٣) تفسير فتح القدير (١/٨٧).

(٤) من التفسير المنير، بتصرف ص(١٦٩).

أجل أن يشكر العبد نعمة الله ـ تعالى ـ، فيزيد في الطاعة، ويكثر من الدعاء، فيزيد إيمانه، ويستقيم قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وما حصل لبني إسرائيل من إحياء بعد الموت كان الواجب عليهم شكر نعمة الله عليهم.

➢ **الخامس عشر**: بيان نعمة الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل حيث ظلل عليهم الغمام ليقيهم من حر الشمس، وفي ذلك عبرة وعظة للمؤمنين في عظمة قدرة الله ـ تعالى ـ في تسيير السحاب، وأنه لا يجري إلا بأمره، ولا يسير إلا بمشيئته، ولا يقف إلا بإذنه، وأن العباد مهما فعلوا لإيقافه أو إبقائه في مكان محدد أو إنزال الغيث منه فإنهم لا يستطيعون مهما أوتوا من قوة، قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الآية [النور: ٤٣].

➢ **السادس عشر**: أن الله ـ تعالى ـ منّ على بني إسرائيل بإنزال نعمتي المنّ والسلوى؛ حيث كان يأتيهم هذا الطعام من غير كلفة ولا مشقة، فكان الواجب عليهم شكر هذه النعمة ومن ثم عدم طلب غيرها مما هو أقل منها.

➢ **السابع عشر**: الأمر في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، للامتنان والإباحة، ومنه نأخذ أن الله ـ تعالى ـ أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات دون الخبائث لما فيها من الضرر على الإنسان؛ ولكن ربما يحرم على عباده بعض الطيبات عقوبة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقد يُحرم الإنسان من الطيبات بما يصاب به من الأمراض التي تجعله يحتمي من بعض المأكولات والمشروبات، وقد يبتلى الإنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له؛ لعله يعتبر فيعود إلى الله ـ تعالى ـ.

➢ **الثامن عشر**: أن الله ـ تعالى ـ لا تضره معصية العاصين، ولا تنقص من ملكه شيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]؛ لأن العاصي ظالم لنفسه معتد عليها غير قائم بما يجب لها، فكما أن النفس أمانة عند الإنسان فإنه يجب عليه أن يبتعد ويتوقى كل ما يضر نفسه ويضر دينه، قال

تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية التي تضره؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكذلك لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه.

بل إن ما يضره في دينه أولى بالمراعاة مما يضره في بدنه؛ لأن ضرر الدين ضرر في الدنيا والآخرة، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط؛ لذا يجب على المسلم أن يتبصر وينظر مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحرس نفسه من الظلم وهذا الضرر.

➢ **التاسع عشر**: أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة، وكان موسى عليه السلام يذكّرهم بها بين الحين والآخر؛ ولكنهم لفسقهم وعتوهم كفروا بها، يشهد لذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وهذا يدلنا على أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر النعم؛ ولهذا بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم؛ حيث قيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، فدخلوا يزحفون على أستاههم وأعجازهم، وبدلوا قول الله لهم: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ بقولهم: حنطة، يعني: أنهم لم يهتموا بذنوبهم؛ وإنما كان همهم أمرًا ماديًا؛ وهو أن يشبعوا بطونهم(١)، وفي هذا دليل على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يجوز إن كان التعبد بلفظها، أما إن كان التعبد بمعناها فيجوز بما يؤدي ذلك المعنى؛ لا بما يخرج عنه(٢).

➢ **العشرون**: أن الله ـ تعالى ـ أمرهم بأن يدخلوا الباب سجدًا، ويتفرع عن هذا مشروعية سجود الشكر(٣) عند تجدد النعم يثنى على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله.

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٣٧). (٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٤١١).

(٣) وصفته: أن يكبر ثم يخر ساجدًا ويقول: سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا =

➢ **الحادي والعشرون:** أنه ينبغي للإنسان ألا يغتر بنفسه ولا يشمخ بأنفه إذا هيأ الله له أسباب النصر، فيترفع على النّاس ويظلمهم؛ بل عليه أن يتواضع ويرد ذلك إلى فضل الله ونعمته كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوا: (حطة)، وكما امتدح الله المؤمنين المجاهدين حين قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

➢ **الثاني والعشرون:** أن الله ـ تعالى ـ يزيد المحسنين من فضله إحسانًا وفضلًا، كما قال: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وهذا كقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وكقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فالله ﷻ أكرم من عبده وأجزل عطاءً؛ الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

➢ **الثالث والعشرون:** من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠]، نأخذ تقرير سنة الاستسقاء؛ وذلك بإظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح كما فعل النبي محمد ﷺ حين خرج إلى المصلى متواضعًا متخشعًا متضرعًا، وحسبك به، فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد، فأنى نسقى؟![(١)].

ومنها نأخذ ـ أيضًا ـ افتقار الخلق جميعًا إلى الله ـ تعالى ـ، ولو كانوا أعلى أصناف الخلق (وهم الرسل)؛ ولهذا استسقى موسى لقومه، واستسقى محمد ﷺ لقومه حين دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحابة ولا قزعة[(٢)]، وما بيننا وبين سَلْع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل التُّرس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، فلا والله ما

= وبحمدك، ويثني على الله ـ تعالى ـ بما أنعم به عليه، ثم يرفع رأسه بدون تكبير ولا تسليم. انظر: أحكام من القرآن ص(٢٣٧).

(١) قلت: يقوله القرطبي ؒ ذلك في زمانه، فكيف لو رأى زماننا! لا شك أنه سيقول: ومحاربة رب العباد. انظر: كلامه (١/ ٤١٨).

(٢) القزعة: هي القطعة من السحاب. النهاية في غريب الحديث (٤/ ٥٩).

رأينا الشمس سبتًا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**»، قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[1]. وهذه القصة تدل على أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - تعالى -، ومع أن موسى عليه السلام ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ومحمد ﷺ أعظم الناس وجاهة عند الله إلا أن كلًّا منهما مفتقر إلى الله ﷻ يسأله ويلجأ إليه ويتضرع إليه، فإذا كان هذا مقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فما بالك بمقام من دونهم!

وعلى هذا يجب على المسلم ألا يلجأ إلّا إلى الله - تعالى - في جميع أموره، فإذا أصابه ضر أو مرض فعليه أن يرفع أمره لمن بيده كشف الضر وشفاء المرض، ولا يلجأ إلى البشر أحياءً وأمواتًا يدعوهم ويستغيث بهم؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، قال الله - تعالى -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، لا يا ربنا ليس هناك إله معك![2].

➢ **الرابع والعشرون:** في تفجر الماء من الحجر لسيدنا موسى عليه السلام آية عظيمة، وأعظم منها ما حصل لنبينا محمد ﷺ حيث تفجر الماء من بين أصابعه في ركوة[3] وضعت له في غزوة الحديبية حين عطش الناس وطلبوا الماء، فجعل الناس يستسقون حتى ارتووا وكانوا ألفًا وأربعمائة أو قريبًا من ذلك[4].

وفوران الماء من بين أصابعه من الركوة أعظم من خروجه من الحجر؛ لأن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة (١/ ٣١٩)، برقم [١٠١٤]. وأخرجه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢/ ٦١٢ - ٦١٤)، برقم [٨٩٧]. الظراب - بكسر الظاء وفتح الراء -: مفردها ظَرِبٌ هي الروابي الصغار. انظر: لسان العرب (٨/ ٢٤٩، ٢٢) مادة «ظرب».

(٢) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٤٠، ٢٤١).

(٣) الركوة: إناء من جلد صغير.

(٤) فتح الباري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٧/ ٥٦٠)، برقم [٤١٥٢]. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرن وغيرها (٣/ ١٤٣٣)، برقم [١٨٠٧].

الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون، أما الركوة فلم تجر العادة بذلك، والله على كل شيء قدير[(١)].

فإن قيل: كيف يعقل خروج الماء الكثير من حجر صغير أو من بين أصابع الإنسان؟

فالجواب: أن يسأل أولًا: هل تُسلّم بوجود الرب الفاعل المختار القادر على كل شيء والذي لا يستعصي عليه أي شيء؟ فإن اعترف بوجوده وبعظيم قدرته فقد زال ما عنده من إشكال، وإن لم يعترف فلا فائدة في جدال كافر استحب العماية عن رؤية الحق، وإلا فلو أرجع بصره وأعمل فكره في الكائنات لاهتدى إلى خالقها وموجدها الذي لا يصعب عليه شيء[(٢)].

> **الخامس والعشرون:** الماء نعمة عظيمة، فإذا شح عظم أمره على الناس، واشتد خطبه، وبحثوا عنه في كل مكان، فإذا وجد فجأة اقتتل الناس على منبعه، وتزاحموا عليه، ولربما حدث بينهم شيء؛ لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء، فإذا قسم ووزع وصارت كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على مشرب واحد[(٣)].

> **السادس والعشرون:** أنه يجب على المرء إذا أنعم الله عليه نعمة أن يجعل النعمة سببًا للقيام بطاعته؛ لا سببًا للأشر والبطر[(٤)]، ولهذا أعقب قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠] بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]؛ لأن من طبيعة البشر إذا لم تلتزم بأمور الشرع الأشر والبطر مع كثرة النعم، إذًا فعلى الإنسان التفكر فيما هو عليه من الخير وكثرة النعم؛ بل يسأل الله ـ تعالى ـ أن يلهمه شكرها حتى لا تكون عونًا له على المعصية.

> **السابع والعشرون:** جواز التوسل بدعاء من ترجى إجابته؛ فإن قوم موسى

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٤١، ٢٤٢).

(٢) صفوة الآثار (٢/ ١٤٤، ١٤٥). (٣) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٤٣).

(٤) الأشر: هو البطر، وقيل: أشد البطر، وفي الحديث «**ورجلٌ اتخذها أشرًا** . . .»، وفي الحديث الآخر «**الكبر بطر الحق...**» أي: الطغيان، ومعناه: يتكبر عن الحق فلا يقبله. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٥١، ١٣٥).

قالوا له: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٦١]، وهذا مقررٌ في شريعتنا؛ فإن الناس كانوا يأتون إلى النبي ﷺ يسألونه أن يدعو الله لهم، كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي يخطب... وكما قال عكاشة بن محصن حين ذكر النبي ﷺ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**اللهم اجعله منهم**»[(١)].

> **الثامن والعشرون**: التوسل إلى الله ـ تعالى ـ باسم الرب عند الدعاء لقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١]، فكثيرًا ما جاء في القرآن من الدعاء كان مصدرًا باسم الرب (ربنا)، فالدعاء بقولهم: (ربنا) من أسباب إجابة الدعاء، كما أشار إليه النبي ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب[(٢)].

> **التاسع والعشرون**: جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض، وأن الإنسان لا يلام إذا اختار الأطيب من الطعام، ولا يعد هذا من باب الإسراف إذا كان يستطيع ذلك؛ لأن هذا من باب التمتع بنعم الله[(٣)]، أما إن كان يستدين ليأتي بالطعام الجيّد أو يسأل الناس إلحافًا ويقف على أبوابهم فهذا لا يجوز؛ بل إن صاحبه ممقوت وساقط من عين الله أولًا، ثم من أعين الناس ثانيًا.

> **الثلاثون**: بيان حكمة موسى عليه السلام؛ حيث قال لقومه حين سألوه الطعام الذي يريدونه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٦١]، ولم يدع الله لهم؛ لأن الدعاء بأقل مما هو موجود لدى الإنسان سفه؛ ولكن يدعو الله ـ تعالى ـ ببقائه واستمراره وألّا يرفعه عنه، فتكون الدعوة في مكانها[(٤)].

> **الحادي والثلاثون**: أن الله ـ تعالى ـ ضرب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، فهم دائمًا في ذل ومسكنة، حتى إن كانوا في غنى فقلوبهم فقيرة يحرصون على تحصيل المال من حلاله وحرامه، فهم كما ذكر الله عنهم: ﴿فَبِظُلۡمٍ

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنّة سبعون ألفًا بغير حساب (٤/١٩٩)، برقم [٦٥٤٢]. مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ولا عذاب (١/١٩٧)، برقم [٢١٦].

(٢) سبق تخريجه، والحديث خرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، برقم [١٠١٥].

(٣) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٥٠).

(٤) انظر: المصدر السابق ص(٢٥٠).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

فهم شعب مغضوب عليهم، ولا يرجى معهم سلام ولا أمن ولا أمان، وإن حصل فسيجر وراءه الفساد كله، قال تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، وآل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] [المائدة: ٦٤].

> **الثاني والثلاثون**: بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم على الله **أولًا**، ثم على الأنبياء **ثانيًا** بعصيانهم وتقتيلهم، ثم على عباد الله باعتبارهم خدمًا لهم وعبيدًا منقادين لا يجوز خروجهم عليهم أو عصيان أوامرهم.

> **الثالث والثلاثون**: من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، نأخذ بيان قدرة الله - تعالى - في رفع الطور تخويفًا وإنذارًا لبني إسرائيل حين عصوا أمر الله، أما أمة محمد ﷺ فلم يكن فيها مثل هذا؛ إنما إنذارهم وتخويفهم بكسوف الشمس والقمر[2]؛ ولذا شرع للناس إذا رأوا ذلك أن يفزعوا للصلاة والاستغفار والصدقة والعتق وغيرها من الأعمال الصالحة حتى ينكشف ما بهم[3].

> **الرابع والثلاثون**: وجوب أخذ أوامر الله - تعالى - والالتزام بشريعته على وجه القوة بلا توان أو ضعف أو تسويف أو انتظار لتحسن الظروف؛ لأن فعل ذلك يجعل للشيطان مدخلًا يستولي فيه على القلب، فيكون ممن قال الله فيهم:

---

(١) فليحذر الذين يؤاخون النصارى واليهود باسم الوطن أو العروبة ويبتعدون عن الإسلام أن يحمّلهم الله كفرهم لموالاتهم إياهم؛ خصوصًا إذا اعتبروا أن ما هم عليه دين الله والله بريء منه، ليحذر المنخدعون بالأفكار الماسونية أن يحملهم كفر كل يهودي وكل نصراني وكل درزي وكل نصيري وملحد جعلوه أخًا في العروبة أو الوطنية. صفوة الآثار (٢/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) والزلازل والبراكين وكثرة السيول.

(٣) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٦٢، ٢٦٣).

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ الآية[1] [المجادلة: ١٩].

> **الخامس والثلاثون**: أن بني إسرائيل بعد هذا الإنذار الشديد لم ينتفعوا بما أنذروا به؛ بل تولوا من بعده، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وخبث سريرتهم، وأنهم من أشد النّاس طغيانًا وضلالًا[2].

> **السادس والثلاثون**: من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: ٦٧]، نأخذ أن الرجوع إلى أهل العلم من أنبياء في حياتهم أو سنتهم بعد مماتهم إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم واجب مثل ما فعل بنو إسرائيل حين قتل منهم قتيل، أما في شريعتنا فإن فيها حلًّا لكل مشكل، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وإلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد مماته، ولم يأمرنا الله بذلك إلا لأننا سنجد الحل الكافي الشافي، ولو أن الأمة فعلت ذلك لانتهت جميع مشكلاتهم، وكانوا أمة يشار إليها بالبنان، ولكانوا قدوة لغيرهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

> **السابع والثلاثون**: أن التنطع في الدين وكثرة الأسئلة مضرة فعلًا محرمة شرعًا؛ لكونها تفضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل، فيكفر صاحبه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢]. ومن المعلوم أن الأمر إذا جاء مطلقًا في زمن الوحي فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه؛ لأن الاستفصال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة، أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقًا أن يبحث عن شيء مقيّد له؛ لأن الشريعة قد تمت ولا يمكن زيادة إضافات إليها[3].

> **الثامن والثلاثون**: بيان ما كان عليه بنو إسرائيل من سوء الظن بنبيّهم واستهزائهم بأوامره؛ حيث قالوا له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: ٦٧]، وهذا من قلب

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(٢٦٦).

(٣) انظر: المصدر السابق ص(٢٨٢)، وانظر: صفوة الآثار (٢/ ١٨٣).

الحقائق ورمي البريء بما الرامي به ألصق[1].

> **التاسع والثلاثون:** أن الله أمرهم بذبح بقرة دون غيرها من سائر الحيوان ليقتلع من نفوسهم كل تقديس للبقر؛ لأنها من جنس ما عبدوه (وهو العجل)، فينقلب التقديس إلى إهانة واحتقار بدلًا من الحب والتعظيم، فلما امتحنوا بهذا قضى على ما تبقى في نفوسهم من تقديس لها قضاءً مبرمًا[2].

> **الأربعون:** أنه يجب على المأمور أن يمتثل ما أمر به على الوجه الذي أُمر به، لقوله تعالى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]، و(ما) هذه موصولة تشمل عين المأمور ووصف المأمور، وما أمر به شرعًا فإن الامتثال لا يحصل فيه إلّا إذا فعله الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص؛ لأن الزيادة غلو، والنقص تفريط[3].

> **الحادي والأربعون:** أن بني إسرائيل عندهم من التهاون والتباطؤ في الاستجابة وانتحال المعاذير من التنفيذ؛ فهم حين طلب منهم أن يفعلوا ما أمروا به ازدادوا تعنتًا وتصلبًا وقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ [البقرة: ٦٩]، فانظر ما علاقة اللون بالنسبة للفرض المقصود، ولعل سؤالهم ذلك حكمة من الله - تعالى - في التشديد عليهم؛ فإنهم لما شددوا شدد الله عليهم[4].

> **الثاني والأربعون:** أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، فلما قالوها وفقهم الله ﷻ للهدى في النهاية؛ ولذا على المسلم أن يقرن الخبر المستقبلي بالمشيئة؛ فإن ذلك مما يسهل أموره؛ لما فيها من الاستعانة بالله، وتفويض الأمر إليه، وتجديد الاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته.

ورد أن سيدنا سليمان عليه السلام قال: «**لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه أو الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام**»، فقال رسول الله ﷺ: «**ولو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركًا له في حاجته**»[5].

---

(١) انظر: صفوة الآثار (٢/ ١٧٥). (٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٧٤).

(٣) أحكام القرآن ص(٢٨٥).

(٤) انظر: أحكام القرآن ص(٢٨٥)، صفوة الآثار (٢/ ١٧٥).

(٥) رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان (٤/ ٢٣٣)، برقم =

وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقع؛ لأنه لا يحتاج إلى ذلك إلا على سبيل التبرك أو التعليل؛ ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله إذا كان الغرض الإخبار عن الأمر الواقع فإنه لا يحتاج إلى قول ذلك، إلا أن يريد أن إيمانه حصل بمشيئة الله، أو أنه يريد التبرك بإضافة إيمانه إلى مشيئة الله ﷻ وبراءته من حوله وقوته إلى مشيئة الله ﷻ وحوله وقوته فإن هذا حسبه، أما إن كان الحامل عليه الشك في وجود الإيمان فهذا حرام لا يجوز؛ لأن الإنسان يجب أن يؤمن إيمانًا جازمًا لا شك فيه[1].

> **الثالث والأربعون:** في قوله تعالى عنهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، يتبيّن لنا ما كان عليه بنو إسرائيل من التعاظم والترفع والاستعلاء، فكأنهم هم الذين يحكمون موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكأنهم هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقًّا أو باطلًا لقولهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، ومن المعلوم أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله[2]، وللمفسرين شروح وتفاريع حول هذه الجملة؛ أعدلهم من قال: يعنون: بينت لنا الحق فاتضح، وعرفنا أيَّ بقرة عنيت، ومنهم من قال: إن قولهم هذا يوجب الكفر والردة عن الدين؛ لاقتضائه أن موسى لم يأتهم بالحق قبل ذلك؛ ولكن إذعانهم وانقيادهم للتنفيذ يبطل هذا القول، ولا يكون كفرًا إلا إذا اعتقدوا أن ما تقدم من الأوامر لم يكن حقًّا[3].

> **الرابع والأربعون:** أنه يجوز حرث الأرض بالبقر وسقيه بها، لقوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١]، وفيها إشارة ـ أيضًا ـ تبين لنا أنه ينبغي ألا نستعمل من الحيوانات في حرث الأرض وسقيها إلا ما كان طيعًا ذلولًا. ومنها ـ أيضًا ـ نأخذ أنه ينبغي لنا ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دلت عليه التجارب على أنه صالح فيها؛ حتى لا نقع في الخطأ والزلل[4].

= [٦٧٢٠]. مسلم، كتاب الأيمان، باب الاستثناء (٣/ ١٢٧٥)، برقم [١٦٥٤].

(١) انظر: أحكام القرآن ص(٢٨٧). (٢) المصدر السابق ص(٢٩٠).

(٣) انظر: صفوة الآثار (٢/ ١٧٦).

(٤) مثل أن تستعمل البقر في الركوب؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل لها عملًا تستطيعه وغير ذلك. وانظر: أحكام من القرآن ص(٢٩٠).

> **الخامس والأربعون:** أن في قوله تعالى عنهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، بيانًا لسوء نيتهم وخبث طويتهم؛ حيث ذكر أنهم بعد التعنت والاستفصال ذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار.

> **السادس والأربعون:** أنه يجوز ذكر المسبب قبل ذكر السبب؛ فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل بشأن القتيل، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب؛ لأنه هو محل العبرة(١).

> **السابع والأربعون:** إظهار عجائب قدرة الله ﷻ في اختراع الأشياء من أضدادها؛ حيث أحيا الله القتيل بمجرد ضربة بجزء من لحمها فكان سببًا لحياته، ولعل سائلًا يسأل فيقول:

ما الفائدة في ضربه ببعض البقرة مع أن الله ـ سبحانه ـ قادر على إحيائه ابتداءً؟

الجواب: لتأكيد الحجة على الناظرين، وقطع دابر تهمة الحيلة على الشاكين المجادلين؛ لئلا يقولوا: هذا ضرب من السحر؛ ولذلك لم يباشر موسى عليه السلام الفعل بنفسه خشية القيل والقال؛ وإنما أجرى الله على أيديهم ذلك ليدلل على أن المعجزات لا تكون إلا من الله دون تمويه من الناس، وأن الأنبياء كغيرهم لا تأثير لهم فيها(٢).

> **الثامن والأربعون:** أن القاتل لا بد أن يخرجه الله ويبيّنه مهما طال زمنه، فإن اقتص منه في الدنيا وإلا فسوف يكون القصاص في الآخرة لا محالة.

> **التاسع والأربعون:** أن الله ﷻ أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد، لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وآيات الله ﷻ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية.

فالكونية: ما يحصل بخلقه وتقديره من سموات وأرض وشمس وقمر... (٣).

والشرعية: ما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي وغيرها من أقسام الوحي.

---

(١) أحكام من القرآن ص(٢٩١).

(٢) صفوة الآثار (٢/ ١٧٥، ١٨٣، ١٨٤).

(٣) أحكام من القرآن ص(٢٩٤)، انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص(٢٧٦)، شرح العقيدة الطحاوية ص(٨٠).

> **الخمسون**: تدبر الآيات سبب للعقل، لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، والعقل عقلان: عقل إدراك، وعقل تصرف.

فعقل الإدراك: هو ما يترتب عليه التكليف في المؤمن والكافر.

وعقل التصرف: هو ما يحصل به الرشد من أفعال الإنسان وأقواله، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وعلى هذا لو سأل سائل وقال: هل الكفار عقلاء؟ والجواب: أنهم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يحصل به التكليف، وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد؛ ولذا ينفي الله عنهم العقل في آيات كثيرة من القرآن؛ مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣].

إذًا فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد، ومع هذا هم مكلفون ومؤاخذون[١].

> **الحادي والخمسون**: أن ما حصل لبني إسرائيل بعدما رأوا إحياء الميت وإخباره بمن قتله، وما حصل لهم من آيات عظيمة قبلها قست قلوبهم، ولم يزدادوا بها لينًا للحق وقبولًا له؛ والواجب على المؤمن كلما رأى آية من آيات الله ـ تعالى ـ أن يلين بها قلبه، ويتذكر بها ما حصل لبني إسرائيل؛ لئلا يتشبه بما كانوا عليه، أو يسند ما يقع من أمور في الكون ـ كسقوط النجوم، أو كسوف الشمس، وخسوف القمر، أو الزلازل، والبراكين، والعواصف الشديدة ـ إلى الطبيعة وأنها هكذا تقع، وإنما عليه أن يأخذ العبرة والعظة من وقوعها، فيرجع إلى الله ـ تعالى ـ رجوعًا حقيقيًّا حتى لا يؤخذ الإنسان بها على غرة أو قد تأتي على نحو أكبر مما جاءت، ولا يكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٩٤، ٢٩٥).

﴿يَشْعُرُونَ﴾[1] [يوسف: ١٠٥ - ١٠٧].

➢ **الثاني والخمسون:** ثناء الله - تعالى - على صلحاء بني إسرائيل، قال الله - تعالى -: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ أي: ومن قوم موسى جماعة يهدون بالحق الذي جاءهم به من عند الله، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون.

والآية سيقت لدفع ما عسى أن يوهمه تخصيص كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعي رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى ﵇ من كل خير، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم[2].

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، جماعة قليلة، كما يدل عليه التبعيض الدال على التعريض بأكثرهم الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، وليس المقصود صلحاء بني إسرائيل في عهد موسى ﵇ فقط؛ بل المقصود صلحاء بني إسرائيل من عهده ﵇ إلى عهد نبينا محمد ﷺ، ولا تعارض بين ما ذكر من التبعيض في قوله: «ومن» وبين قوله: «أمة»؛ لأن الأمة تطلق على الجماعة الكثيرة، وتطلق على القليلة إذا كانت ذات شأن، وقد يسمى الواحد أمة لما فيه من خصال الخير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[3] [النحل: ١٢٠].

❖ ❖ ❖

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٩٧).
(٢) انظر: تفسير القاسمي (٧/ ٢٨١)، تفسير المنار (٩/ ٣٦٣).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٣١).

عقوبة قارون

○ المطلب الأول ○

الآيات التي ذكرت ذلك

أولًا: سورة «القصص»:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ
إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ
(٧٦) وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن
كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٧٧) قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ
مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ
ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ (٧٩)
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا
يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٢) تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ
وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣].

- **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا**: لم تذكر هذه القصة في القرآن إلا مرة واحدة.

➢ **ثانيًا**: في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية [القصص: ٨١]، دلت (الفاء) على الترتيب والتعقيب؛ حيث خسف به يوم خروجه في زينته وما جرى

فيها من تمني قوم أن يكونوا مثله، وما أنكر عليه علماؤهم من غفلتهم عن التنافس في ثواب الآخرة بتعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثله، وما حصل لقارون من خسف خارق للعادة؛ لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظَاهَرَهُ، ولم يتعد الخسف غير داره[١].

➢ **ثالثًا**: لم تذكر كلمة «ويكأن» إلا هنا في القرآن كله، وقد ذكر في معناها أقوالٌ كثيرة[٢]، وأحسن ما قيل في معناها: أنها مركبة من (وي) وهو اسم فعل بمعنى أعجب، والكاف للتعليل، و(أن) وما في حيزها مجرورة بها.

ومعنى الكلام: أعجب لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء.

والشاهد في قوله: (ويك) قول عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنترَ أقدم[٣]

وذهب من رأى أن أصل (ويك) ويلك اعلم أنه كذا، فحذفت اللام والفعل فصارت ويك.

➢ **رابعًا**: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يراد به الجنة؛ لأنها المعنية بقوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾[٤] [القصص: ٨٠]. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وقد ذكر الله مذمة قارون في غير ما آية، فقال سبحانه بعد ذكر عاد وثمود: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠]، والذي خسف به الأرض هو قارون، وقال سبحانه في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٥)، مجلد (١٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٩)، انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٧)، مجلد (١٠)، تفسير القاسمي (١٣/ ١٢٨).

(٣) شرح المعلقات العشر ـ معلقة عنترة بن شداد ـ ص(١١٣). ومعناه: أن الذي شفى نفسه وأذهب سقمها قول الفوارس له: ويك يا عنترة أقدم نحو العدو، واحمل عليه، فتعْويل أصحابه عليه والتجاؤهم إليه شفى نفسه ونفى غمه.

(٤) انظر: تفسير الرازي (٢٥/ ١٧)، معاني القرآن للزجاج (٤/ ١٥٦).

﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

قارون هو ابن يصفد بن يصهر (ابن عم موسى)، فقد روى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ابن عم موسى[١].

ولم تذكر قصته في القرآن إلا مرة واحدة، وجاء فيها أن سبب بغي قارون كان الثراء مع الكبر والاستطالة وجحود نعمة الخالق لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا المؤديان إلى الانحراف عن جادة الصواب؛ بل عن الإيمان بالله... ومثل هذا الانحراف ولو كان بمقدار ذرة واحدة لا بد وأن ينتهي بالإنسان إلى ما انتهى إليه قارون الذي كان يظن أنه المتصرف الوحيد بإغرائه السوقة من الناس في ملك الله عز وجل، وأن موسى عليه السلام الفقير المعدم لا يمكن أن يجمع هذا المال الوفير ليصل إلى ما نحن فيه من الغنى والذكر في الناس.

والغريب من الناس حين يرون صاحب الجاه والسلطان ـ إلا من رحم الله ـ يتمنون لو كان لهم مثل ما عنده إما حسدًا له أو غبطة، ويظنون أن المال هو كل شيء، وأنه هو السعادة الحقيقية.

إن قارون آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، غير أنه طغى وبغى على الناس بهذا المال، ولم تحدد الآيات فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم ومتاعهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال، وربما بغير ذلك[٢]، نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر والإفساد في الأرض، وأن يستعمل ماله في مرضاة الله مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا، وألا ينفقه فيما يغضب الله ـ تعالى ـ حتى لا يتعرض لزوال النعمة؛ لكنه أعرض ونأى بجانبه وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، بطرق التجارة.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٥٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١١).

إنه قول المغرور الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء، ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية ردًا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، كان عليه أن يعلم هذا؛ لأنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله ﷻ من أن يسألهم عن ذنوبهم، فمتى حق عليهم القول أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر[(١)].

بعد النصح والإعذار إلى الله لا يبقى للداعي إلى الله ـ تعالى ـ إلا أن يكل الأمر إلى الله ـ تعالى ـ. ولما أراد الله به من المقت خرج يومًا في زينته في موكب مهيب وزينة فاخرة باهرة، فافتتن بعض الناس بمظاهره، فاتجهت إليه قلوبهم، واشرأبت إليه نفوسهم، وتمنوا أن يؤتوا مثله، والبعض الآخر لم يلتفتوا إلى ذلك؛ بل نظروا إلى ما عند الله مما هو خير وأبقى، فقالوا لهم ناصحين منكرين لمقالهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠]، فمن آمن وعمل صالحًا فثواب الله وجزاؤه أكثر وأفضل من هذه الزينة، ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، على فتنة الحياة وإغرائها، الصابرون على الحرمان الذي يتشهاه الكثيرون[(٢)]، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار، المترفعون عن محبة الدنيا، كما جاء في الحديث الصحيح: «**يقول الله ـ تعالى ـ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. واقرأوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»[(٣)].

وإذا كانت هذه هي ظواهر الدنيا ومتعها التي لا تدوم فما بالك ببواطن وملذات الآخرة التي لا تنتهي!!!.

ومن الأسباب في عقوبته ما ذكره ابن حجر في الفتح ما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: «كان موسى يقول لبني إسرائيل: إن الله

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (١٣/ ١٢٧)، في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٢).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٣).

(٣) والحديث رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٢/ ٤٣٢)، برقم [٣٢٤٤]. ورواه مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها ـ الباب نفسه ـ (٤/ ٢١٧٤)، برقم [٨٢٤].

يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم في أموالهم، فشق ذلك على قارون فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رجم، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها فيرجم فنستريح منه، ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا! فقال: فقد زنيت، فأرسلوا إلى المرأة، فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت، فأقرت بالحق، فخر موسى ساجدًا يبكي، فأوحى الله إليه أني أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت، فأمرها فخسفت بقارون ومن معه»[1] ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2] [العلق: ٦ ـ ٧].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهكذا بعدما خرج قارون في زينته مختالًا مفتخرًا بها على قومه فجذب

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٤). وقد وردت آثار أخرى قال عنها الرازي: إن أكثرها متعارضة مضطربة، والأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب. انظر: التفسير الكبير (٢٥/ ١٨).

(٢) سورة «العلق» آية (٦، ٧) هذا هو الجزاء حين أعطي المال طغى، وكان الأولى به التواضع والشكر ورد تلك النعم إلى باريها؛ لا شدة الحرص والتباهي. وفي الحديث قال النبي ﷺ: «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي بماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأحسن المنازل عند الله. ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يخبط في ماله، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأسوأ المنازل عند الله. ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الوزر سواء**».
الحديث رواه أحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١). ورواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة (٤/ ٥٦٢)، برقم [٢٣٢٥] وقال: حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية (٢/ ١٤١٣)، برقم [٤٢٢٨].

القلوب والنفوس إلى حب الدنيا ولسان حاله يقول: أموسى الفقير خير أم أنا؟ أهذا الذي لا يملك الذهب والفضة والخيول والخدم والحاشية أفضل أم أنا؟

* يقول صاحب الظلال: «وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدًّا للفتنة، وترحم الناس من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيمًا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، هكذا في جملة قصيرة وفي لمحة خاطفة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فابتلعته وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا، وذهب ضعيفًا عاجزًا لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه أو مال، وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال»[١]. وكان لهذا الخسف أبلغ الأثر في النفوس ممن تمنى أن يكون له مثل قارون، فالآن يحمدون الله أنه لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، فقد رأوا المصير الذي آل إليه أمر قارون بين عشية وضحاها، فإذا هم يقولون: إن الله يوسع الرزق على من يشاء، ويقدر أن يقتر على من يشاء، ولولا أن من الله علينا لخسف بنا كما فعل بقارون وبطانته، فما لنا لا نفزع إلى الله نطلب رضاه ولا نتمنى ما تمنيناه، وهكذا كانت نتيجة الكبرياء والاستبداد وكفران النعمة، فصار عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

تلك الدار التي تحدث عنها أولو العلم الدار التي لا يحول نعيمها ولا يزول ولا عناء فيها ولا مشقة؛ بل راحة واطمئنان، وفوق ذلك رضا الرحمن ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، الذين ينأون بأنفسهم عن الكبر والاستعلاء وحب الفخر والخيلاء، فالعاقبة المحمودة لهم؛ لأنهم لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد؛ وإنما قصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح، فعاقبتهم الفلاح والنجاح، أما غيرهم وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة فإنه لا يطول وقته ويزول عن قريب، وانظر للحصر في الآية

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٣).

الدال على أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم فيها حظ[1].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة قارون

➢ **أولًا**: البغي مرتعه وخيم، والظلم مؤذن بخراب الديار، والغالب أن الظالم حسب سنة الله - تعالى - يعاقب في الدنيا قبل الآخرة، يدل على ذلك حديث النبي ﷺ «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله - تعالى - لصاحبه العقوبة مع ما يؤجل من العقوبة له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**». وجاء في شرحه: ما من ذنب أحق وأولى لصاحبه أن يعجل الله له العقوبة مع ما يؤجل له في الآخرة مثل البغي؛ أي: بغي الباغي؛ وهو الظلم والخروج على السلطان، أو الكبر وقطيعة الرحم[2]. وأغلب هذه الأمور توفرت في قارون إضافة إلى كفره، فعجل الله له العقوبة في الدنيا.

➢ **ثانيًا**: المال الكثير والمنصب العالي محنة وبلاء وعرضة للفساد والطغيان إلا من رحم الله، فكم من أناس جمعوا المال، وتزوجوا أجمل النساء، وأكلوا ما لذ وطاب في الحياة؛ ولكنهم فقدوا الطمأنينة ولذة الحياة الروحية؛ بل فقدوا نعمة الإيمان والتقوى؛ لأن المعاصي والذنوب كدرت صفو حياتهم، والمعاصي يجر بعضها بعضًا حتى يألفها فاعلها فلا يطمئن بها، وصدق الله إذ يقول: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وإن انطبقت على الفرد في المجتمع فربما ينتشر فعل المعصية حتى تعم المجتمع كله، فتتغير القلوب، ويعلوها الران، وهناك تتغير الأعمال، وتسوء الحال، ويلتحق المجتمع بركب الفجار؛ وذلك لأن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٤).

(٢) سنن أبي داود مع شرح عون المعبود، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي (١٣/ ٢٤٤)، برقم [٤٨٨١]. قال المنذري: وأخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب٥٧ (٤/ ٦٦٤)، برقم [٢٥١١]. وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البغي (٢/ ١٤٠٨)، برقم [٤٢١١] وقال الترمذي: حسن صحيح.

الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي كما هو مذهب أهل السنّة قاطبة[(١)].

وخذ مثالًا على ذلك من مجتمعاتنا المعاصرة؛ حيث انتشرت فيها آلات اللهو انتشارًا عظيمًا حتى لا تكاد تجد أحدًا ينكر ذلك؛ بل لو أُنكر على أحد لقال: كل الناس عندهم ذلك، وكل الناس يشاهدون ويستمعون.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[(٢)]

➢ **ثالثًا**: حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح بطرًا وفخرًا واعتزازًا وكبرًا وخيلاء[(٣)]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

➢ **رابعًا**: الكبر من كبائر الذنوب التي حرمها الله ورسوله، ففي الحديث: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنّم يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»[(٤)].

وقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

➢ **خامسًا**: من فضل الله ـ تعالى ـ على الأمة وجود علماء مصلحين يعلّمون الناس ويرشدونهم ويوجهونهم إلى الحق كلما خفي عليهم شيء أو ادلهم بهم

---

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية من ص(٢٩٣ ـ ٢٩٥).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٠١). (٣) أيسر التفاسير (٤/ ١٠٠).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٧٩)، برقم [٦٦٧٧]. رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة (٤/ ٦٥٥)، برقم [٢٤٩٢] وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني (٢/ ٣٠٤)، برقم [٢٠٢٥]. وانظر الحديث في: جامع الأصول في أحاديث الرسول (١٠/ ٦١٦)، برقم [٨٢١٢]. بولس: قال في المجمع: هو بفتح الباء وسكون واو وفتح لام. وقال في القاموس: بولس: بضم الباء وفتح اللام سجن جهنم. ونار الأنيار: معناه: نار النيران فجمع النار على أنيار، وإنما جمعها على أنيار لئلا يشتبه بجمع النور. وطينة الخبال: هي عصارة أهل النار، والخبال: بفتح الخاء هو في الأصل الفساد. انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري محمد بن عبد الرحمن (٧/ ١٩٣، ١٩٤)، برقم [٢٦١٠]، وانظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٨).

خطب أو أشكل عليهم أمر؛ فيعلمون الجاهل، وينصحون العاصي، ويرشدون الحائر، ويردّون الضائع عن طريق الحق إلى الحق، فمن تكبر وعتا فما على الرسول إلا البلاغ، فلا إله إلا الله! كم من صاحب مال كان ماله وبالًا عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فتراه يحرص عليه ويخاف عليه السراق واللصوص والجوائح إضافة إلى بخله الشديد فيه، وأمّا في الآخرة ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنّة وإما إلى النار**»، قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: «**ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها - ومن حقها حلبها يوم وردها - إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنّة وإما إلى النار**»، قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «**ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنّة وإما إلى النار...**» الحديث(1).

وقوله ﷺ وفيه: «... **ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يتبعه فاتحًا فاه، فإذا أتاه فر منه فيناديه: خذ كنزك الذي خبأته فأنا عنه غني، فإذا رأى أن لا بد منه سلك يده في فيه فيقضمها قضم الفحل**»(2).

---

(1) الحديث رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢/ ٦٨٠، ٦٨١)، برقم [٩٨٧].

قرقر: أي: المستوى من الأرض الواسعة. **الفصيل**: أي ولد الناقة إذا فصل عن أمه. **والقصعاء والعضباء والجلحاء**: قال أهل اللغة: القصعاء: ملتوية القرنين، **والعضباء**: الذي انكسر قرنها من الداخل، والجلحاء: التي لا قرن لها. صحيح مسلم (٢/ ٦٨١). وفي صحيح البخاري قريب منه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (١/ ٤٣٢)، برقم [١٤٠٢].

(2) الحديث رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢/ ٦٨٤). **والشجاع الأقرع**: =

ففي هذين الحديثين من الترهيب والتخويف من منع الزكاة ما فيه لمن كان له قلب، فعلى المسلم أن يبادر إلى اتقاء ذلك بدفع ما عليه من حقوق قبل فوات الأوان، فيتمنى أن لو أنفق أو وهب، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

> **سادسًا:** المسلم يستطيع أن يجمع بين إرادة الدنيا والآخرة، وأن يوازن بين مطالب الدنيا بالوسائل المشروعة؛ بل يسعى ويجد في طلب الحلال حيث كان، فإذا حصل على مراده فعليه أن يستعمل ما أعطاه الله - تعالى - من نعم فيما ينفعه في الآخرة؛ كالتصدق في سبيل الله، وأداء ما أوجبه الله عليه فيما أنعم به عليه، وأن يحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليه، وله أن يتمتع بما أباحه الله له من الطيبات بما شاء كيف شاء من غير إسراف ولا مخيلة، وهكذا يتحقق الجمع بين إرادة الدنيا والآخرة[(١)]، كما ذكر الله من قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

> **سابعًا:** الله وحده هو رازق الخلق كلهم، وما العبد إلا وسيلة، فينبغي عليه أن يمشي في الأرض لكسب الرزق ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، فالذي يسر الرزق وهيأ له أسبابه هو الله، فإذا قدر أن حصل الثراء والغنى فمن الجهل أن ينسب الإنسان ذلك الفضل لنفسه وذكائه، أو يغره الشيطان بأن ما أعطيه من خير وفضل دليل على محبة الله له ورضاه عنه، ولا يدري أنه ربما يكون فتنة له واستدراجًا[(٢)]، لحديث عقبة[(٣)] بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال:

= هو الذكر من الحيات. **والأقرع**: الذي سقط شعره لكثرة سمه. والبخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (١/ ٤٣٣)، برقم [١٤٠٣].

(١) انظر: السنن الإلهية، د/ عبد الكريم زيدان، ص(٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) انظر: التفسير المنير (٢٠/ ١٦٣).

(٣) عقبة بن عامر: صحابي مشهور، اختلف في كنيته على سبعة أقوال أشهرها: إنه أبو حمّاد، ولي إمرة مصر لمعاوية، وكان فقيهًا فاضلًا، مات قرب الستين. انظر: التقريب ص(٣٩٥) باب العين مع القاف. والحديث رواه الإمام أحمد (٤/ ١٤٥)، برقم =

«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»، ثم قرأ النبي ﷺ **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾** [الأنعام: ٤٤].

➢ **ثامنًا:** نهاية البغاة والظلمة أليمة، فقد ظنوا أن سلطانهم أو أموالهم تمنعهم من عقاب الله؛ لذا كان الاغترار بالأموال والأوصاف التي تتبعها نذير سوء يعقبه، وهذا ما حصل لقارون؛ حيث خسف به وبداره الأرض، فأصبح كأن لم يكن، ضعيفًا عاجزًا لا ينصره أحد من جاه أو مال، فكان في ذلك عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين لمن رآه في حينه ممن تمنى أن يكون له مثله؛ حيث ندموا في الحال، وحمدوا الله أنه لم يستجب لهم؛ حيث أدركوا أن سعة الرزق ليست دليلًا على رضوان الله، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سخط الله؛ لذا كانت القناعة أحسن البضاعة.

وفي المثل: (خير الغنى القُنوع، وشر الفقر الخُضوع)(١).

قال الشاعر(٢):

هي القناعة لا تبغي بها بدلًا ... فيها النعيم وفيها راحة البدن

❖ ❖ ❖

= [١٧٣٤٩]. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٠)، برقم [٩١٣، ٩١٤]. وعزاه الهيثمي في المجمع إلى أحمد والطبراني (٧/ ٢٠). وصححه الشيخ الألباني بمتابعاته في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٠٠)، برقم [٤١٣].

(١) لسان العرب (١١/ ٣٢١).

(٢) لم أجده، انظر: الشواهد الشعرية في تفسير القرطبي، د/ عبد العال سالم مكرم (٢/ ١٣١).

الفصل الرابع

عقوبات بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: عقوبة قوم منهم خرجوا حذرًا من الموت.

المبحث الثاني: عقوبة قوم طالوت.

المبحث الثالث: عقوبة أصحاب السبت.

المبحث الرابع: عقوبة بني إسرائيل في أول سورة «الإسراء».

المبحث الأول

عقوبة قوم منهم خرجوا حذرًا من الموت

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت تلك العقوبة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

● **لطائف الآية:**

➢ **أولًا**: إنها لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن.

➢ **ثانيًا**: الجمال الذي رسمه التعبير بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وأي لفظ آخر ما كان ليرسم أمام المخيّلة مثل هذا الأسلوب كما رسمته هاتان الكلمتان القصيرتان في موضعه المختار[(١)].

➢ **ثالثًا**: الآية عُني بها قومٌ كثيرو العدد خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم، وفي ذلك حثٌّ للمسلمين على الجهاد في سبيل الله، فكأن هذه الآية ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

ومعلومٌ أن سورة «البقرة» مما نزل في المدينة إثر الهجرة، وكان العدو في مكة وما حولها في كثرة وقوة ومنعة، فأُمِر المسلمون المهاجرون ومن آواهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وقص لهم من الأنباء ما فيه بعث على الجهاد وتبشير لهم بالفوز والعاقبة الحسنة وإن كانوا في قلة وضعف[(٢)] ما داموا مستمسكين بحبل الله،

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٥).

(٢) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٢٩٠)، تفسير القاسمي (٣/ ٢٩٦، ٢٩٧).

مطيعين لأوامره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

➢ **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، كيف يجمع بينه وبين ما في سورة «الدخان» من قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ الآية [الدخان: ٥٦]؟

فالجواب: أن إماتتهم كانت عقوبة لهم مع بقاء أجلهم، وفي الآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل[(١)].

➢ **خامسًا:** في قوله تعالى: ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، أنهم ذاقوا الموت الذي فرّوا منه، فلم يغن خوفهم عنهم شيئًا، وأنهم ذاقوا الحياة بعد الموت؛ ليعلموا أن الموت والحياة بيد الله[(٢)].

➢ **سادسًا:** أتى بهذه القصة بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين لما فيها من العبرة بأنه سبحانه على كل شيء قدير، ولما فيها من الآية المحسوسة على البعث؛ فإن هذه القصة معروفة منقولة نقلًا متواترًا عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم[(٣)].

➢ **سابعًا:** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، واقعة موقع التعليم بجملة ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾، والمقصود منها بث خلق الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في كل أمورهم، وأنهم إن شكروا الله على نعمه زادهم من فضله، ويسّر لهم كل عسير[(٤)].

➢ **ثامنًا:** تشير الآية إلى أن موت الأمم غالبًا له سببان:

السبب الأول: الجبن وضعف العزيمة.

السبب الثاني: البخل وعدم الإنفاق.

ولذلك قرن الله ﷻ الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ حيث عبّر عن الإنفاق بالقرض ليحث عباده على

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٤١).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/٤٠٨).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١/١٩٥).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢/٤٠٨).

الإنفاق في سبيل الله[1].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

الفرار من الموت كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[2][3] [البقرة: ٢٤٣]، إما من خوف وباء انتشر أو عدو. وهم أهل مدينة من مدن بني إسرائيل فرّوا هاربين من الموت، فإن كان هروبهم من الوباء أو العدو فهذا يدل على ضعف العزيمة والجبن والخوف وعدم الإيمان بالله ورسوله، مع أن كثرتهم تدعو إلى الثبات والشجاعة والدفاع عن

---

(١) انظر: التفسير الواضح (٢/ ١٥٤) مجلد ١، التفسير المنير (٢/ ٤١٤)، وقريب من هذا لسيد قطب في الظلال (١/ ٢٦٥).

(٢) يقول صاحب الظلال: «لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت... من هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟... فلو كان الله يريد بيانًا عنهم لبيّن. إلى أن قال: وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئًا على عبرة القصة ومغزاها». (١/ ٢٦٤).

(٣) ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: ذكر المفسرون لذلك معاني كثيرة نختار ما ذهب إليه أبو جعفر الطبري (٥/ ٢٧٦) حيث قال: «وأولى الأقوال في مبلغ عدد القوم الذين وصف الله خروجهم من ديارهم بالصواب.. قول من حد عددهم بزيادة عن عشرة آلاف، دون من حده بأربعة آلاف وثلاثة آلاف وثمانية آلاف، وذلك أن الله ـ تعالى ذِكْره ـ أخبر أنهم كانوا ألوفًا، وما دون العشرة آلاف، ولا يقال لهم: ألوف، وغير جائز أن يقال: هم خمسة ألوف، أو عشرة ألوف». ورجح ذلك البغوي والخازن في تفسيرهما: البغوي (١/ ٢٩٣)، الخازن (١/ ١٧٦)، والقرطبي (١/ ٢٣١)، والرازي في تفسيره (٦/ ١٦٣)، ورد ذلك أبو حيان في البحر وقال: «هذا ليس مما ذكر، فقد يستعار أحد الجمعين للآخر وإن كان الأصل استعمال كل واحد منهما في موضوعه، وهذه التقديرات كلها لا دليل عليها، ولفظ القرآن ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ لم ينص على عدد معين. ويحتمل ألا يراد ظاهر جمع ألف، بل يكون ذلك المراد منه التكثير، كأنه قيل: خرجوا من ديارهم وهم عالم كثيرون لا يكاد يحصيهم عاد، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾» (٢/ ٢٥٩).

والقولان ـ كما ترى ـ قويان، ولا أستطيع ترجيح أحدهما على الآخر، إلا أنني أميل لقول الجمهور، لأنهم لم يحددوا عددًا، وإنما قالوا: زيادة على عشرة آلاف، فيكون فيه نوع موافقة لما ذهب إليه أبو حيان، والله أعلم.

النفس حتى الموت لنيل الشهادة أو النصر أو الصبر على قدر الله - تعالى - حتى يأتي وعد الله، لما ثبت في الصحيح أن عبد الرحمن بن عوف سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به (أي: الطاعون) بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه...**»[1] الحديث.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

الموت الجماعي

أخبر الله ﷻ أنه عاقب هؤلاء القوم بأن قال لهم: «موتوا»، قال الزمخشري: «معناه: فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]»[2]. ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، بابتلائهم بالعدو والشدائد التي تصهرهم وتميّز الخبيث من الطيب، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، الله على ذلك؛ بل يعدونه نقمة عليهم[3].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبتهم

➢ **أولًا**: الحذر من الموت لا يجدي ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وفي هذه الآية يصور الله مشهد هذه الألوف الحذرة من الموت الملتفتة من الذعر خائفين من أن يلحق بهم وإذا هم يؤتون من حيث خافوا ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، أطبق عليهم في لحظة، وإذا كل هذا الحذر وكل هذا التجمع وكل هذه المحاولة ذهبت هباءً في كلمة واحدة: «موتوا»

---

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة (٤/ ١٧٤٠)، برقم [٢٢١٩].

(٢) تفسير الكشاف (١/ ٢٩٠).

(٣) انظر: التفسير الواضح (٢/ ١٥٤).

ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج، كما يلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل عند الله!![1].

> **ثانيًا**: ذهب القرطبي إلى أن أصح الأقوال وأبينها وأشهرها أنهم خرجوا فرارًا من الوباء، كما روى ذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس[2]: «خرجوا فرارًا من الطاعون فماتوا، فمر عليهم نبيٌّ من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم».

> **ثالثًا**: من أركان الإيمان ـ كما هو معلوم من حديث جبريل ـ «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»[3]، فالواجب على المسلم الإيمان بأن الأعمار والأقدار والبلايا والأمراض بيد الله ﷻ، وأنه مهما أتي الإنسان من قدرة للاحتماء منها فإنه لا يستطيع ردها إذا نزلت، إلا أنه يجوز للإنسان اتخاذ أسباب الوقاية من المكاره لتجنب المخاوف والمكاره قبل وقوعها، لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فإذا نزل أمر الله فعليه أن يصبر وأن يحتسب، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف الذي نهى فيه النبي ﷺ من أصيب بالطاعون أن يخرج، ومن كان خارجًا ألا يدخل، وقس على ذلك أي أمر مباح يكون ضرره أكبر من نفعه، ومفسدته أكبر من مصلحته.

> **رابعًا**: في الآية تشجيع للمؤمنين للقتال والجهاد في سبيل الله، وإذا كان لا بد من الموت ـ ولا يغني عنه الحذر ـ فالأفضل للإنسان أن يكون في سبيل الله ليظفر بالشهادة والفوز بالجنّة[4].

> **خامسًا**: في الآية بيان لقدرة الله ـ تعالى ـ حيث أماتهم جميعًا في وقت واحد؛ حيث قال لهم: «موتوا» ثم أحياهم جميعًا، وفي هذا دليل على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ في إحياء الناس بعد الموت يوم القيامة، وأنهم جميعًا كنفس

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٦٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٥/ ٦٦٦، ٦٦٧)، وتفسير ابن كثير بتحقيق مقبل الوادعي (١/ ٥٢٩)، وقال الشيخ محمود شاكر: أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. انظره (٥/ ٢٦٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦)، برقم [٨].

(٤) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٢٩٠)، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٩٦).

واحدة، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

➢ **سادسًا**: وجوب شكر النعم، والشكر يكون بخضوع الشاكر لله، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة[1]، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

❖ ❖ ❖

(١) تهذيب مدارج السالكين ص(٣٨٤).

المبحث الثاني

عقوبة قوم طالوت

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت عقوبتهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ
ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ
أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا
كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ
إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي
الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا
تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا
قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً
كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ
عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

[البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

• **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا:** لم تذكر هذه القصة إلا مرة واحدة في القرآن.

➢ **ثانيًا:** كانت نبوة موسى ﷺ قبل داود بزمن طويل، ولكثرة القصص عن موسى وقومه قد يظن أنه قريب العهد، والفصل في ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ الآية.

➢ **ثالثًا:** جملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، استئناف ثان بعد جملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ له في سبيل الله، والتكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ، وهنا يرد سؤال: لم قدم أحدهما وأخر الآخر؟

والجواب: ليقع التحريض على القتال بينهما كما مر من قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٤]، ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر بالقتال؛ لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة، ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فسألوه دون أن يفرض عليهم، فلما فرض عليهم نكصوا على أعقابهم، والعبرة التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال أو بعد كتبه عليهم[١].

➢ **رابعًا:** لم يرد ذكر اسم النبي الذي بعثه الله إليهم، وذكره هنا كما قال سيد قطب: «لا يزيد شيئًا في إيحاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٤).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٦٦). وقد اختلف المفسرون في اسم ذلك النبي، فمنهم من قال: إن اسمه شمويل، وهذا أقوى أقوال المفسرين، وهو معرب صمويل أو صموئيل، وقيل: يوشع، وهذا ضعيف لأنه فتى موسى، ولأن القصة حدثت في زمن داود وبينهما زمن طويل. انظر: تفسير المنار (٢/ ٤٧٥).

> **خامسًا**: في قوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦] يرد سؤالٌ هو: لم استفهم النبي منهم مع أنهم هم الذين طلبوا منه الجهاد؟

والجواب: كأن سائلًا سأل فقال: فماذا قال لهم نبيهم؟

أو أن النبي ظن منهم الجبن والفشل في القتال لما عُهد منهم؛ فلذلك استفهم، وليبيّن أن ما ظنّه وتوقعه من ذلك يكون منهم، وكان كما توقع[١].

> **سادسًا**: في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، يرد سؤال: كيف يؤتي الله ملكه من يشاء والله ـ تعالى ـ لا يؤتي ملكه أحدًا؟

والجواب: المراد بهذا الملك السلطة والرياسة التي أنكروا إعطاءها لطالوت، وليس المراد أنه يؤتي كل ملكه لأحد؛ لأن سياق الآية يمنعه.

> **سابعًا**: في تقديم العلم على الجسم إشارة إلى أن إمامة الجاهل لا خير فيها[٢].

> **ثامنًا**: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، هنا وضع الاسم الظاهر موضع الضمير؛ حيث قال: ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: بهم، فلم؟

والجواب: لتسجيل صفة الظلم عليهم، وبيان أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بسؤالهم البلاء، وكان الواجب عليهم سؤال العافية، فلما أجيبوا أعرضوا، فجمعوا بين عار الإخلاف وفضيحة العصيان، ولو قال: (بهم) لما أدى الغرض الذي يؤديه لفظ: ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾[٣].

> **تاسعًا**: المعجزة التي صدق بها القوم هي رجوع التابوت إليهم بعد أن سلبه الأعداء منهم، فكانت معجزة أجراها الله لنبيهم تصديقًا لما أخبر به من شأن طالوت.

> **عاشرًا**: كان داود ﷺ في صفوف جيش طالوت ولم يكن قد بُعث بعد، ثم حصل العكس بعد الانتصار على جالوت وجنوده، فسبحان من يؤتي الملك من

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٢/ ٢٦٤).

(٢) أيسر التفاسير (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر: نظم الدرر (٣/ ٤١٣)، التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٧).

يشاء وينزعه ممن يشاء[١]!

> الحادي عشر: كيف قال في الماء: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولم يقل: ومن لم يشربه، والماء مشروب لا مأكول؟

والجواب: أن طعم بمعنى: أكل، وبمعنى: ذاق، والذوق هو المراد هنا[٢].

زاد القرطبي: «لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئًا أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عبرة بقدح من يقول: لا يقال: طعمت الماء»[٣].

> الثاني عشر: طالوت وجالوت اسمان أعجميان معربان؛ ولذلك لم ينصرفا، وكذلك داود، والجمع طواليت وجواليت ودواويد[٤].

> الثالث عشر: في قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، متروك ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر منه عليه، وتقديره: فاستجاب لهم ربهم، فأفرغ عليهم صبره، وثبت أقدامهم، ونصرهم على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله[٥].

* * * * *

---

(١) تهذيب التفسير وتجريد التأويل لعبد القادر شيبة الحمد (٢/ ١٥٥).

(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٤٢)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٢٧٣).

(٣) وانظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٢).

(٤) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٢٩٢)، وانظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وطالوت: الملك المؤمن، هل كان نبيًا؟ الله أعلم، وعلى كل فهو عبد صالح. انظر: البحر المحيط (٢/ ٢٧٨)، انظر: أيسر التفاسير (١/ ٢٣٧). وداود: هو النبي المعروف، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وجالوت: ملك العمالقة، قال أبو حيان: يقال: إن البربر من نسله، قتله داود ﷺ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، انظر: تفسير البحر المحيط (٢/ ٢٦٩).

(٥) تفسير ابن جرير الطبري (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥). يقول صاحب صفوة الآثار (٣/ ٤٣٥): هذا، وقد استدل بعضهم بمعجزة التابوت على أن طالوت كان نبيًا، لأن المعجزة لا تنزل إلا على نبي، ولكن لفظ القرآن يأباه؛ لأن القوم نبيهم داود، وأما طالوت فهو رجل اختاره ملكًا، فلما تلكؤوا عليه ولم يقنعوا بما آتاه من بسطة في العلم والجسم أخضعهم له بهذه المعجزة، اللهم إلا أن يكون نبيًا غير رسول، فالله أعلم.

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

➢ ١ ـ اعتراضهم على نبيّهم في تنصيب طالوت ملكًا.

➢ ٢ ـ مخالفة أمر طالوت عند نهيه عن الشرب من النهر.

ذكر الله ـ تعالى ـ لنا قصة أخرى من قصص بني إسرائيل تكشف لنا تعنتهم مع أنبيائهم، ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله حتى ولو كانوا هم الملحين في طلب القتال، ولا غرو فالقوم هم سلالة أصحاب البقرة الذين قالوا لموسى ﷺ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وهنا يطلبون الجهاد في سبيل الله[١] تحت إمرة ملك لا تحت إمرة نبي[٢]، فاستوثق النبي منهم ومما يقولون فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فأخبرهم نبيهم أن الله ـ تعالى ـ قد بعث لهم طالوت ملكًا، فاعترضوا على هذا التعيين مباشرة، وجادلوا في اختيار الله له، وزعموا أنهم أحق بالملك منه بالوراثة؛ لأنه لم يكن من نسل الملوك فيهم، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر أحقيته بها، فأجابهم نبيهم ﷺ بأن الله ﷻ قد اختاره، فهذه واحدة، وزاده بسطة في العلم والجسم وهذه أخرى، فهو أعلم منكم بشؤون الحرب وتدبير الأمور، وأشد منكم قوة وصبرًا وجلدًا لملاقاة الأعداء[٣]؛ بمعنى أنه ذو استعداد فطري وطبيعة كريمة، وذو خبرة في فنون الحرب، وعنده العلم الكافي ليضع الأمور في مواضعها، وذو قوة جسمية، وفوق كل هذه الأمور إن الله اصطفاه عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء، فلا اعتراض لأحد عليه في فعله،

---

(١) يقول صاحب الظلال: «﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم، ويقظة الإيمان في نفوسهم، وشعورهم بأنّهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل» (١/ ٢٦٦)، وقال ابن كثير: «والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب، وقهرهم الأعداء، سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكًا يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء».

(٢) والظاهر أن لو كان فيهم ملك لقالوا: نريد نبيًا يخبرنا عن الله.

(٣) انظر: التفسير الكبير (٦/ ١٧٣، ١٧٤)، وانظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٦٧)، تهذيب التفسير وتجريد التأويل (٢/ ١٥٢، ١٥٣).

والله واسع عليم، يفتح باب الرزق والسعة في المال على من يشاء ولا رادّ لفضله[1].

ورأى نبيهم أنهم لم يقتنعوا بذلك، فأراد أن يبيّن لهم أن هذا الأمر خارج عن إرادته ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وهو رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون وقد عجزتم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يطلب منكم بذل أي مجهود في استرجاعه؛ بل ستأتي به الملائكة تحمله حتى تضعه بين أيديكم، وسيكون فيه الطمأنينة لكم، ودلالة ظاهرة على أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فعند ذلك أذعنوا وانقادوا لطالوت ورضوا به ملكًا عليهم[2].

وماذا في هذا التابوت الذي أتى به الله من مكان بعيد؟

إن فيه أمرين مهمين لهؤلاء الجبناء عن القتال الذين يقتنعون بالآيات المادية المحسوسة:

الأول: معنوي.

الثاني: مادّي.

فالمعنوي: هو السكينة المقترنة بوجود ذلك التابوت؛ لأنهم قد ألفوا حياة الدعة واللهو والترف، فنزولها عليهم خير مسعف لهم، فيذهب القلق والخوف عنهم، فهم على وشك خوض معركة أزف وقتها.

أما الثاني: وهو **المادي** المقوي للسكينة، ترى ما هو؟ إنه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، والذي يهمنا منه أثر هذه البقية في رفع الروح المعنوية لدى الملأ من بني إسرائيل[3]، فكأن هذا التابوت بمثابة الراية يقاتلون تحتها، فلا

---

(١) قال الرازي في تفسير ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]: والتقدير: أنتم طعنتم في طالوت لكونه فقيرًا والله ـ تعالى ـ واسع الفضل والرحمة، فإذا فوض الملك إليه، فإن علم أن الملك لا يتمشى إلابالمال فالله ـ تعالى ـ يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال. (٦/ ١٧٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٣٦).

(٣) تأملات في سورة «البقرة» (٣/ ١٤٨١، ١٤٨٢).

يزالون يقاتلون ما بقي لم يغلبهم عليه عدوهم، فما زالوا كذلك كلما أخذ منهم رده الله عليهم حتى سلب منهم بالكلية[1].

➢ **الأمر الثاني: من أسباب العقوبة: مخالفة أوامر القائد.**

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الالتزام بأوامر القائد من طاعة الله ـ تعالى ـ وطاعة رسوله ﷺ، سواءً قلنا: إن ذلك الأمر كان وحيًا إلى نبي ذلك الزمان، أو إلهامًا ألهم الله به الملك طالوت ليختبر به قوة جيشه؛ لأن الله وصفه بالعلم، فلا يبعد أن يكون ذلك إلهامًا من الله له، فقال لهم: إن الله مختبركم ـ وهو الأعلم بكم ـ بنهر يعترض سبيلكم، فمن شرب منه فليس من أتباعي، ومن لم يتذوقه فإنه من حزبي وأنصاري.

إنه اختبار تنقية وتصفية ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ﴾ [الرعد: ١٧]، وهنا يتجلى مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل... إنه مقدمٌ على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة، فلا بد إذًا من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة؛ الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء... فلا بد للقائد المختار إذًا أن يبلو إرادة جيشه وصموده وصبره، صموده أولًا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب، واختار هذه التجربة وهم عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية[2].

وصدقت فراسته فيهم، فشربوا منه جميعًا إلا قليلًا منهم، وهكذا أخرج معه من يحكّم عقله في هواه، ويصبر مع حبه في إشباع رغبته، ويؤمن بالله إيمانًا

---

(١) في تفسير المنار: إنه لما أحرق البابليون هيكل سليمان فقدت التوراة وتابوت العهد معًا، لأنهما قد أحرقا فيه. (٢/ ٤٨٤). وسنفرد له بحثًا بعنوان: (عقوبة بني إسرائيل في أول سورة «الإسراء»).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٨).

حقيقيًا، فئة قليلة جازت معه النهر كما ذكر الله، فكانت مراتبهم في طاعة قائدهم على ثلاث:

الأولى: شربت وعبّت منه عبًّا.

الثانية: غرفت منه غرفة كما أذن لها؛ لتبل ريقها، ويذهب عنها الظمأ.

الثالثة: لم تتذوقه أصلًا.

فأما من شرب منه وارتوى فخلدت نفسه للراحة، وانفصلت بمجرد استسلامهم أمام رغبة وشهوة دنيوية، فهؤلاء لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقهم، ومن الخير للجيش أن ينفصلوا من الآن؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، فالجيوش ليست بالعدد الضخم؛ ولكن بالقلب الصامد القوي والروح الإيمانية المحبة للموت ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، جاوزوا النهر وهم قلة قليلة، وما اجتاز إلا مؤمن كما روى البخاري بسنده عن البراء بن عازب: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلامؤمن»[(١)]، ومع هذه الغربلة الشديدة لجيش طالوت قالت فئة منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٤٩]، لما رأوا من كثرة عدوهم وقلتهم وضعفهم أمام هذا الكم الهائل من الجنود، ونسوا أن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان وشراء ما عند الله بقليل من الصبر والمصابرة، هنا برزت الفئة المؤمنة القوية الإيمان لتقول لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، هذه هي قاعدة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر في أن النصر الحقيقي من عند الله؛ وليس بكثرة العدد وقوة العُدد، فاصبروا واحتسبوا واستعينوا بالله، إن الله مع الصابرين، ولا غالب لمن كان الله معه، ولما ظهر لقتالهم وتصافّوا دعوا الله والتجؤوا إليه وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر (٣/ ٨٣)، برقم [٣٩٥٧].

(٢) يقول صاحب تهذيب التفسير: وفي قولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، يشعر برغبتهم في تأجيل لقاء العدو يومئذٍ؛ لا أنهم أرادوا ترك قتال العدو والنكول مثل الذين لم يجاوزوا النهر. (٢/ ١٦١).

أي: اصبب ربنا علينا صبرًا، واحبس أنفسنا عن الجزع، وثبت أقدامنا في أرض المعركة كي لا ننهزم، وأعنا على هذا العدو حتى تكون الغلبة لنا عليه، واهزم الكافرين، وزلزل أقدامهم، واملأ قلوبهم رعبًا حتى نتمكن من سحقهم(١).

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وحده، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وقتل داود الفتى جالوت الملك؛ ليرى الناس عجائب قدرة الله في الجبابرة، وأنهم مهما أخافوهم فهم ضعاف، ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم.

وهناك حكمة أخرى من وراء ذلك أيضًا؛ هي أن يكون داود هو الذي يستلم الملك بعد طالوت، ويرثه من بعده ابنه سليمان؛ ليبدأ عهدٌ جديد لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء تأكيد العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود(٢).

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

حرمان من عصى أوامر القائد من الجهاد، وكفى بهذا الحرمان عقوبة يرجعون بها إلى طيب مجالسهم وملذات أجسادهم، وألم الحرمان لا يزال يعتصر قلوبهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وضمير قال راجع إلى طالوت، ولا يصح رجوعه إلى نبيهم؛ لأنه لم يخرج معهم؛ وإنما أخبر طالوت عن الله ـ تعالى ـ بأنه مبتليهم مع أنه لم يكن نبيًّا يوحى إليه؛ إما استنادًا لإخبار نبيهم له، وإما لأنه اجتهد أن يختبرهم بالشرب من النهر لمصلحة رآها في ذلك، فأخبر عن اجتهاده؛ إذ هو حكم الله في شرعهم، فأسنده إلى الله، وهذا من معنى قول العلماء: «إن المجتهد يصح له أن يقول فيما ظهر له

---

(١) انظر: تهذيب التفسير (٢/ ١٦١). (٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٧٠).

باجتهاده: إنه دين الله»، أو لأنه في شرعهم أن الله أوجب على الجيش طاعة أميرهم فيما يأمرهم به، وطاعة الملك فيما يراه من مصالحهم، وكان طالوت قد رأى أن يختبر طاعتهم ومقدار صبرهم وتحملهم؛ لعلمه أن الذين خرجوا لا يصلحون جميعًا للقتال؛ لأن منهم المثبطين ومثيري الفتن، فلو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالًا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وعدوهم الذي أمامهم كثير العدد، قوي العدد، فلا بد من اختبار يعرف به قوة يقينهم في نصرة الدين، ومخاطرتهم بأنفسهم، وتحملهم المتاعب، فكان من اختبارهم ما قد علمت ورخص لهم في غرفة واحدة بيده، وهذه غاية ما يختبر به طاعة الجيش؛ فإن السير في الحرب يعطش الجيش، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشًا وشهوة، ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم؛ لأن المحارب إذا شرب ماءً كثيرًا بعد التعب انحلت عراه، ومال إلى الراحة، وأثقله الماء، والعرب تعرف ذلك، قال الشاعر يذكر خيلهم:

فلما شارفت أعلام طيءٍ ... وطيءٍ في المغار وفي الشعاب
سقيناهن من سهل الأداوى ... فمصطبح على عجل وآبي[(١)]

يريد أن الذي مارس الحرب مرارًا لم يشرب؛ لأنه لا يسأم من الركض والجهد، فإذا كان يستطيع منع نفسه كان أخف له وأسرع، والجاهل منهم يشرب لما يراد منه، ولأجل هذا رخص لهم في اغتراف غرفة واحدة ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، شربوا حتى امتلأت بطونهم من غير رواء، فثقلوا عن الجهاد، قال ابن جريج: «قال ابن عباس: من اغترف منه بيده رَوي، ومن شرب منه لم يرو»[(٢)].

وعند الطبري بسنده عن قتادة: «﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فشرب القوم على قدر يقينهم، وأما الكفار فجعلوا يشربون فلا يروون، وأما المؤمنون فجعل الرجل يغترف غرفة بيده فتجزيه وترويه»[(٣)].

---

(١) ذكر صاحب التحرير والتنوير (٢/٤٩٦) أن البيتين لطفيل الغنوي ولم أجدهما.

(٢) قال ابن كثير: وكذا رواه السدى عن أبي مالك عن ابن عباس، وكذا قال قتادة وابن شوذب. انظره: (١/ ٣١٠).

(٣) فالسند صحيح، انظر: تفسير ابن جرير (٥/٣٤٣)، الدر المنثور (١/ ٥٦٤).

وعند ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، قال: «كان الكفار يشربون فلا يروون، وكان المسلمون يغترفون غرفة فيجزيهم»(١).

وقد دلت هذه التجربة على أمرين مهمين:

الأول: أن الحماس وحده لا يكفي، كالنار تشتعل في الهشيم أو الحصير لا تفيد شيئًا، وارتفاع الأصوات وصخب الاجتماعات كلها لا تكفي؛ إنما لا بد من الاختبار العملي لمدى صمود الإنسان أمام عدوه.

الثاني: مدى صلابة عود القائد؛ حيث لم يتأثر ولم يهتز من تخلف الأكثرية؛ بل مضى في طريقه لأمر ربه.

وهذا الموقف يشبه موقف ابن أبيّ ابن سلول يوم أحد حين رجع بثلث الجيش(٢)، فلم يتأثر رسول الله ﷺ؛ بل مضى لأمر ربه.

وفي قصة طالوت انكشف حال من لا يريدون الجهاد، وميز الصف الجهادي منهم، ومضى لسبيله حتى هزم عدوه وقتل داود جالوت، فما أكبر عقوبة من يتخلى عن المؤمنين حين يعلم بهزيمة العدو! عندها يتمنى من شدة التحسر أن لو أطاع الأمر وظفر بالخير؛ ولكن صدق فيهم وفي أمثالهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧].

* * * * *

(١) سنده: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، أنبا عبد الرزاق، أنبا معمر عن قتادة. «الحسن بن يحيى بن أبي الربيع» صدوق حافظ، وهذا السند وصله الطبري أيضًا (٣/ ١٦٤)، برقم [٢٢١٣]، إذًا السند رجاله كلهم ثقات إلا الحسن بن يحيى صدوق حافظ، إذًا فالحديث حسن. انظر: التقريب ص(١٦٤، ٥٤١)، وعند البغوي: أن الذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وبقوا على شط النهر، وجبنوا عن لقاء العدو، فلم يجاوزوا ولم يشهدوا الفتح. تفسير البغوي (١/ ٣٠٢)، وانظر: تفسير السمعاني (١/ ٢٥٣).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٩/ ٨٥)، القرطبي (٤/ ٢٦٦)، البحر المحيط (٣/ ١١٤).

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبتهم

> **أولًا**: الأمم إذا شعرت بالظلم والذل واعتدي عليها وانتزعت حقوقها فإنه لا سبيل أمامها إذا كانت مؤمنة إلا الجهاد لإعلاء كلمة الله، ومن ثم تطهير أرضها واسترجاع حقوقها؛ وذلك بالانضواء تحت قيادة قائد رباني عادل يقودها إلى النصر كما فعل بنو إسرائيل حين تغلب عليهم الأعداء(١).

> **ثانيًا**: الاختلاف في اختيار الرئيس أو القائد شيء وارد، فإن كان هناك نبي فالشأن شأنه؛ لأنه المبلغ عن الله، وإن لم يكن فإن الإسلام يجعل الاختيار لأهل الحل والعقد(٢).

> **ثالثًا**: من الجهل الظن أن الملك والرياسة لا تكون إلا لأهل الجاه والثروة، كما دل عليه قول المنكرين لملك طالوت حيث قالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

والصحيح أن الأجدر بذلك هم أهل العلم والفضل والمعرفة، ذوو الأخلاق الفاضلة، والنفوس الكريمة، والأبدان السليمة، والأذهان الواعية الناضجة، فإذا انضم لذلك قوة العصبة والقبيلة والنفوذ كان أولى، لقوله ﷺ: «**الأئمة من قريش**»(٣).

---

(١) والأمة الإسلامية اليوم لا سبيل إلى استرداد عزتها وانتصارها على أعدائها إلا الرجوع إلى كتاب ربها وسنة نبيها، والانضواء تحت قيادة قائد واحد عادل نابذٍ لجميع الشعارات القومية والوطنية والبعثية... حتى يكون العمل الجهادي كله لله، قال ﷺ: «... **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»، وأيما عمل جهادي خلا من إمامة شرعية فعاقبته خسر، وشاهد هذا حال المسلمين اليوم، فقد قاتلوا الاستعمار تحت شعار الأحزاب، فلما انتصروا خسروا كل شيء حتى دينهم. أيسر التفاسير (١/ ٢٣٤).

(٢) هم العلماء وأصحاب المكانة في الأمة. انظر: التفسير المنير (٢/ ٤٩٢).

(٣) انظر: تفسير المراغي (١/ ٢٢٧)، التفسير المنير (٢/ ٤٣٤، ٤٣٥). والحديث رواه أحمد (٣/ ١٨٣) من طريق وكيع عن أنس، برقم [١٢٩٢٣]. وأبو يعلى من رواية أنس (٦/ ٣٢١)، برقم [٣٦٤٤] وإسناده صحيح، [٤٠٣٣]. والطبراني في الصغير، باب الحاء (من اسمه حفص) (١/ ١٨١)، برقم [٤٢٦]. ورواه الحاكم، كتاب معرفة الصحابة (٤/ ٨٥)، برقم [٦٩٦٢]. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخ حفص بن =

➢ **رابعًا**: دل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، على أن التوفيق الإلهي في اختيار القائد قائم على العدل التام، والسنة الحكيمة، ورعاية المصلحة التامة(١).

➢ **خامسًا**: دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، على جواز اختبار القائد لأفراد جيشه لمعرفة مدى استجابتهم ومدى استعدادهم للقتال وصبرهم عليه(٢).

➢ **سادسًا**: على الدعاة إلى الله - تعالى - وقت الأزمات وظهور الفتن والملمات دعوة الناس وحثهم على الجهاد في سبيل الله من خلال آيات القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة، وإعطاء نماذج من سير الصحابة والتابعين وصالحي من سلف من المؤمنين؛ لأن في ذلك تقوية عزيمة، وزيادة إيمان، وطردًا لوساوس الشيطان.

➢ **سابعًا**: مشروعية الدعاء وقت الشدة وفي أثناء المعركة، وأنه مفيد ومحقق للغاية، ومفرج للكرب، وقد دعا رسول الله ﷺ في بدر حتى سقط رداؤه(٣)، وكان إذا لاقى عدوًّا قال: «**اللهم بك أصول وبك أجول**»(٤)، ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأجعلك في نحورهم**»(٥).

➢ **ثامنًا**: إن النصر أولًا وأخيرًا من عند الله للقوى الروحية المستعلية على جميع الشهوات والملذات، لا للقوة المادية الكثيرة العَدد والعُدد.

= عمر بن الصباح الرقي، قال الحاكم: حدث بغير حديث لم يتابع عليه. مجمع الزوائد، باب الخلافة في قريش والناس تبع لهم (٥/ ١٩٢). وانظر تصحيح الشيخ شعيب الأرناؤوط له حيث قال: صحيح بطرقه وشواهده. انظر: مسند الإمام أحمد (١٩/ ٣١٨).

(١) التفسير المنير (٢/ ٤٣٥).

(٢) انظر: أيسر التفاسير (١/ ٢٤٠).

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٧).

(٤) حديث «**اللهم بك أصول وبك أجول**»، رواه الإمام أحمد (١/ ٩٠، ١٥١)، برقم [٦٩١، ١٢٩٥]. قال عنه الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٥) رواه أحمد (٤/ ٤١٥)، برقم [١٩٧٣٥]، ورواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا خاف قومًا (٢/ ١٨٧)، برقم [١٥٣٧]، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا خاف قومًا (٦/ ١٥٤)، برقم [١٠٤٣٧]، ورواه الحاكم، كتاب قسم الفيء (٢/ ١٥٤)، برقم [٢٦٢٩] وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ألا فليعتبر المسلمون بحال الذين هزموا أمام شربة ماء، فأصبحوا في لحظة لا يصلحون للجهاد أمام العدو، فكيف بالذين تهزمهم أنفسهم في شرب الدخان أو الخمور واقتراف الفواحش[(١)].

ونحن اليوم أمام حرب ثقافية إعلامية يعجز السلاح عن هزيمتها دخلت البيوت وتدخلت في شعور ورأي المجتمع؛ بل في ثقافتهم ولباسهم، فإذا هزم المسلمون أمام هذه الحرب فكريًا ـ وهو الظاهر من أمرهم ـ فإنهم لا شك سيهزمون قبل أن يدخلوا المعركة.

◄ **تاسعًا**: الحكمة من مشروعية الجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله في الأرض، وعبادة الله وحده دون سواه؛ لا للسلب وأخذ المغنم، ولا للزهو والاستعلاء، ولا بناء مجد أمة على ذل أخرى، فالجهاد أعلى من كل هذه التصورات، فهو إصلاح لأهل الأرض[(٢)]، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، تحكمهم شريعة السماء، يخضعون لسلطان واحد هو سلطان الله، كتابهم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم جميعًا واحدة.

❖ ❖ ❖

(١) انظر: صفوة الآثار (٣/ ٤٣٩).
(٢) المرجع السابق (٣/ ٤٣٩، ٤٤٠).

المبحث الثالث

عقوبة أصحاب السبت

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت تلك العقوبة

أولًا: السور التي أشارت إلى عقوبتهم:

سورة «البقرة»:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

تحدثت الآية عن إعجاز عظيم لنبوة محمد ﷺ في إخبارهم (أي: اليهود) بما يكرهون سماعه ولا يعلمه غيرهم(١).

الآية حددت سبب العقوبه ؛ وهو الاعتداء يوم السبت لانتهاك ما حرم الله عليهم فيه.

حددت الآية نوع عقوبتهم؛ وهو أن الله صيرهم قردة صاغرين مبعدين.

سورة «النساء»:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

أشارت الآية إلى عقوبتهم فقط؛ حيث أهلكهم بسبب اعتدائهم يوم السبت وتجاوزهم حدود الله.

---

(١) انظر: لطائف آيات أصحاب السبت من سورة «الأعراف».

سورة «النحل»:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

أي: أن الله شدد عليهم في أمره انتقامًا منهم، فكان ذلك وبالًا عليهم؛ حيث أرشدهم إلى عبادة الله يوم الجمعة، فأبوا إلا السبت، وزعموا أن الله استراح فيه بعد خلق السموات والأرض[(١)].

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد**»[(٢)].

ثانيًا: السور التي فصلت عقوبتهم هي سورة واحدة سورة «الأعراف»:

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٧].

- **لطائف الآيات:**

> **أولًا**: في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾، هذا السؤال معناه التقرير والتوبيخ على فعل من سلف من آبائهم، فقد يتبجحون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم من سلالة الأنبياء، فهذا تاريخهم يشهد عليهم.

---

(١) انظر: نظم الدرر (١١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة (١/ ٢٨٠)، برقم [٨٧٦]. ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية الأمة ليوم الجمعة (٢/ ٥٨٥)، برقم [٨٥٥].

السؤال في كلام العرب على نوعين: أشهرها أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخر: أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أن السائل عالم، وأنه إنما سأله ليقرره[(١)].

➢ **ثانيًا**: أطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾؛ أي: أهلها، والتقدير: واسألهم إذ يعدو أهل القرية في السبت.

➢ **ثالثًا**: هذه القصة كانت مما يكتمها اليهود، ولا يتحدثون بها إلا فيما بينهم، يرويها أحبارهم دون ذكرها في كتبهم، والأمر بالسؤال عنها لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليها[(٢)].

➢ **رابعًا**: لم يحدد القرآن الكريم القرية المعذبة، فهي معروفة لدى المخاطبين، وقد قيل: إن اسمها أيلة، والمسماة اليوم بالعقبة على ساحل البحر الأحمر، وهذا قول الأكثرين[(٣)].

➢ **خامسًا**: انقسم الناس في القرية إلى ثلاث فرق:

ـ فرقة عصت الله واحتالت.

ـ وفرقة أنكرت عليهم فعلهم ذلك.

ـ وفرقة اكتفت بإنكار من أنكر عليهم وسكتت.

فهلكت فرقة، ونجت فرقتان[(٤)].

➢ **سادسًا**: فإن قيل: كيف قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وهذا ليس في وسعهم؟

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٧)، مجلد (٥). ونوع ثالث: السؤال للإنكار.

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٤٦)، مجلد (٥).

(٣) وقيل: إن اسمها مدين، وقيل: طبرية، وقيل: مقنى، لكن قال الطبري: الصواب أن يقال: هي قرية حاضرة البحر. انظر: تفسيره (١٣/ ١٨٢).

(٤) هلكت الفرقة المعتدية العاصية المحتالة، ونجت الفرقتان اللتان لم تعصيا ولم تشاركا في الفعل، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «يا ليت شعري! ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: لم تعظون قومًا؟ قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قومًا الله مهلكهم، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا». انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ١٨٧)، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٨٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩)، وانظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٧٢).

فالجواب: هذا أمر إيجاد؛ لا أمر إيجاب، فهو من باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] [البقرة: ١١٧].

> سابعًا: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، أصل البلوى: الاختبار، والإشارة إليها بقوله: ﴿نَبْلُوهُم﴾ أي: مثل هذا الابتلاء العظيم نبلوهم.

والبلوى إذا أسندت إلى الله ـ تعالى ـ كانت مجازًا عقليًا؛ أي: ليبلو الناس تمسكهم بشرائع دينهم[2].

> ثامنًا: قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، إن الآية أجملت ما قالت الفرقة الثانية إيجازًا في الكلام، اعتمادًا على قرينة ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، وهذا يدل على أنهم منكرون على العاصين غير راضين، وإلا فكيف عرفوا أن الله مهلكهم أو معذبهم إلا بعد أن عرفوا أن الموعظه لا تنفع معهم، ثم أيضًا بقرينة ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فعلمنا أن القائلين من الفريق الناجي[3].

> تاسعًا: في آية ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] ترى أن العذاب الذي حل بالعصاة المحتالين جزاء إمعانهم في المعصية؛ حيث اعتبرها النص هي الكفر الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة، كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق[4].

> عاشرًا: في آية ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، دليل على أن اليهود كلما انتعشوا وعلا شأنهم وطغوا وبغوا في الأرض سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب.

وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى ﷺ إلى العصر الحديث، ولا يخفى ما حصل لهم من تسلط الألمان عليهم في عهد قائدهم (هتلر)، وفي العصر الحاضر

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل»، ص(٢٦).
(٢) التحرير والتنوير (٩/١٤٧)، مجلد (٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٣٨٥).

عز سلطانهم، وكثر شرهم، وعم فسادهم، ونسأل الله أن ينتقم منهم، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله**»(١).

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

الحيلة على الله ـ تعالى ـ، والاعتداء على حرماته

وقد سماهم الله في القرآن الكريم أصحاب السبت(٢)؛ وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه، وكان الله ـ سبحانه ـ قد حرم عليهم الصيد في هذا اليوم ابتلاء لهم؛ حيث كانت تأتيهم الحيتان في هذا اليوم شرعًا طافية على ظهر الماء كثيرة يسهل أخذها، وفي الأيام الأخرى تدخل عمق البحر فلا يستطيعون صيدها، فطال عليهم الأمد، واشتدت شهوتهم له وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها، فعملوا لذلك حيلة ووضعوا لها حياضًا وشبّاكًا في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت فيه ولم تستطع الخروج، حتى إذا كان يوم الأحد أتوا فأخذوها، وانتشر فعلهم ذلك، ولم يعجّل الله عليهم العقوبه حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق.

لقد هاجت مطامع القوم المحتالين أمام هذا الإغراء، فتهاوت عزائمهم، ونسوا عهدهم مع ربهم، فاحتالوا احتيال الغبي ظنًا منهم أن الله لايراهم، احتالوا على طريقتهم ظانين أن الله سيعفو عنهم ويغفر ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فاحتالوا وما أكثر الحيل حين يلتوي القلب وتقل التقوى! إن المنهج الصحيح لا تحرسه نصوصه ولا حراسه؛ إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب قتال اليهود (٢/ ٣٣٩)، برقم (٢٩٢٥)، وبرقم (٢٩٢٦).

(٢) والسبت: هو أول أيام الأسبوع، تعظمه اليهود زاعمة أن الله استراح فيه بعد خلقه السموات والأرض، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ أي: تعب.

وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه، ولن تستطيع الدولة أن تضع على رأس كل فرد حارسًا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن[(١)].

إنهم ظلموا أنفسهم باحتيالهم ومخادعتهم لها ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩]؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يخادَع ولا يُحتال عليه ﷻ.

وبعد ظلمهم جاء الناصحون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر فوعظوهم وذكروهم ميثاق الله وعهده عليهم، وأيست فرقة منهم بعد نصحهم فسكتوا وقالوا: لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا؟ فرد الناصحون ﴿قَالُوا۟ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ذلك أن الناس انقسموا في أمرهم ثلاثة أقسام:

ـ فريق منهم أيس من نجاح الموعظة، وتحقق وقوع الوعيد بالقوم لتوغلهم في المعاصي.

ـ وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار.

ـ وفريق عصى واستمر في عصيانه.

وهنا يعلم أن الفريق الأول ما سكت إلا بعد الموعظة، وإلا فمن أين عرف أن الله سيهلكهم؟ ثم إنكاره على الناصحين يدل على يأسه منهم بعد الموعظة.

* يقول صاحب التحرير والتنوير:

«إن صلحاء القوم كانوا فريقين: فريق أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الهلاك بهم، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار، فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فالفريق الأول أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن، والفريق الثاني أخذوا بالطرف المرجوح جمعًا بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط؛ ليكون لهم عذرٌ عندالله إن سألهم: لماذا أقلعتم عن الموعظة؟ ولِما عسى أن يحصل من تقوى الموعظين بزيادة الموعظة»[(٢)].

* * * * *

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٣٨٤). (٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٢).

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

مسخهم الله قردة صورة ومعنى(١)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥ ـ ١٦٦].

أخبر الله ـ تعالى ـ أن أهل القرية تمردوا وعصوا ربهم واحتالوا على شرعه، فذكّرهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بما فعلوا ونهوهم عن ذلك فلم ينتهوا، فعاقبهم أولًا بالبؤس والشقاء في المعيشة؛ لأن من الناس من لا يصلحه إلا الفقر والشدة ولو اغتنى لفسد، ومنهم من لا يصلحه إلا الرخاء والنعمة، وبكل يبتلي الله عباده ويمتحنهم، كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال في بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس والسوء إلا إصرارًا على الفسق والظلم، فمسخهم الله قردة بالفعل بعد أن كانوا بشرًا سويًا، وهذه العقوبة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم، وسوء طريقتهم الملتوية، واستخفافهم بحساب الله لهم وكأنه ـ تعالى وتمجد ـ لا يعلم فعلهم ويجوز أن تجري عليه الحيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]، فكأنهم قالوا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١١٠، ١١١). وفيه قال ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]. ورواه ابن جرير بسنده به. قال الحافظ ابن كثير: وهو غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]. ثم ذكر مجموعة كبيرة من الآثار، سنذكر بعضها. وقال في آخر ذلك: قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب اليه مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ من أن مسخهم إنما كان معنويًا لا صوريًا، بل الصحيح أنه معنوي صوري. والله ـ تعالى ـ أعلم. وقد ذكر صاحب صفوة الآثار مجموعة من الردود على قول مجاهد تركتها للإطالة. انظرها (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

بلسان الحال أو المقال: إننا أمهر من الله وأحكم، إنه لا يعلم بحيلتنا، وليس خبيرًا بغايتنا، ولا محيطًا بكل ما نعمل، وليس يبصر ما نفعله بالحيتان من اصطيادها واحتباسها يوم السبت، ثم صيده يوم الأحد، فجمعوا في خطيئتهم النكول عن عهد الله، والنكوص عن مقام الإنسانية، والنزول بشرفها إلى مستوى البهائم التى لا ترتفع عن حاجة البطون وشهوات النفوس، ثم الانتقاص لله بالإلحاد في أسمائه؛ حيث ارتكبوها بوسيلة الحيلة التي فيها هدم للعقيدة والضمير، فلما وصلت بهم طبيعتهم اليهودية إلى هذا الحد استحقوا من الله تلك العقوبة الشنيعة[١]؛ إذ نصت الآيات على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، قال ابن كثير: «وسكتت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحون، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذمون، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين»، وقد علمنا من قبل أن ابن عباس كان قد توقف ثم رجع إلى القول بنجاتهم لمّا قال له غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قومًا الله مهلكهم؟ فكساه حلة[٢]. وهذا هو الراجح من الأقوال؛ لدلالة النص عليه منطوقًا؛ لأن الله خص الهلاك بالظالمين، ولم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك[٣].

وهكذا مسخ الله صورة الظالمين عن الصورة الآدمية إلى الصورة الحيوانية، لقد تنازلوا هم عن آدميتهم حين تنازلوا عن أخص خصائصها؛ وهو الإرادة، فقيل لهم: كونوا حيث أردتم لأنفسكم من الانتكاس والهوان.

---

(١) انظر: تفسير المنار (٩/ ٣٧٩)، صفوة الآثار (٢/ ١٦٦، ١٦٧)، أحكام من القرآن ص(٢٦٨).

(٢) انظر: تفسير القاسمي (٧/ ٢٨٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨)، وروي أيضًا: قال ابن عباس: كانوا أثلاثًا، ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيّن حالهم بعد ذلك. والله أعلم (٢/ ٢٦٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٦٦).

ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع إلا المؤمنين بالله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآيـة [الأعراف: ١٦٧]، فهو إذًا إلى الأبد يبعث الله عليهم بين كل آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، فكلما انتعشوا وطغوا في الأرض جاءتهم الضربة المرعبة لهم، وكلما خف عنهم عذاب الله رجع عليهم إلى يوم القيامة[1] عقابًا على ظلمهم وفسادهم.

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبتهم

> **أولًا**: الإخبار بهذه القصة علامة صدق نبي الله ﷺ؛ إذ مثل هذا القصص لا يأتي إلا عن طريق الوحي؛ لأن الله - تعالى - أطلع نبيه على تلك الأمور من غير تعلم وقد مضى عليها زمن طويل، وكانوا يقولون بتكبر: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فقال الله لنبيه: سلهم يا محمد عن هذه القرية أما عذبتهم بذنوبهم؟! وفي ذلك تذكير لهم بخزي من سلف منهم لعلهم يتخذون منه عبرة.

> **ثانيًا**: التحيل على محارم الله لا يحولها إلى حلال؛ بل إنه يزيدها قبحًا؛ لأن المحتال يكون جامعًا بين فعل المعصية المنهي عنها وخيانة الله - تعالى - وخداعه، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ ولذلك كان المنافقون أعظم ذنوبًا وأكبر جرمًا من الكافرين الصرحاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ولذلك كانوا (أي: المنافقين) هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثمًا ممن يأتيه صراحة، لما في ذلك من الوقوع في الربا أولًا، ثم مخادعة الله - تعالى - ثانيًا. ثم إن المخادع لله - تعالى - يظنّ أنه على صواب، وأنه لم ينتهك المحرم،

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٨٥، ١٣٨٦).

فيستمر عليه ولا يحدث نفسه بالتوبة؛ ولهذا لعن الرجل الذي يتزوج امرأة لتحليلها لزوجها الأول، كما جاء في الحديث «**لعن رسول الله ﷺ المحلِّلَ والمحلَّل له**»[1]. وعلى ذلك يقاس كل أمر يحتال به على أوامر الشرع؛ من بيع أو شراء أو نكاح أو طلاق أو غير ذلك، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»[2]. إذًا فجميع الحيل محرمة في دين الله تحريمًا شديدًا قاطعًا، وقد عقد الشيخ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي في كتابه (المغني) بابًا طويلًا شافيًا في تحريم جميع الحيل والتمثيل لها؛ سواء في النكاح أو الطلاق أو أكل الربا وسائر المعاملات، وذكر عقوبة الله لأصحاب السبت من الفاعلين وغيرهم[3].

> **ثالثًا:** القول بسد الذرائع؛ أي: تحريم كل وسيلة تؤدي إلى الممنوع أو المحظور شرعًا، فما أدى إلى الحرام فهو حرام، كما أن الطريق إلى المباح مباح[4].

> **رابعًا:** الجزاء من جنس العمل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهم لما تحيلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة من

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٦٨، ٢٧١) بتصرف، والحديث رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في التحليل (٢/ ٥٦٢)، برقم [٢٠٧٦]. ورواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له (٣/ ٤١٩)، برقم [١١٢٠]، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه النسائي، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا وما فيه من التغليظ (٦/ ١٤٩)، برقم [٣٤١٦]، ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له (١/ ٦٢٢)، برقم [١٩٣٥، ١٩٣٤]. ورواه الدارمي، باب في النهي عن التحليل (٢/ ١٥٨).

(٢) رواه أبو عبد الله بن بطة في كتابه «إبطال الحيل» ص(١١٢)، قال عنه ابن كثير في تفسيره (١/ ١١١): إسناده جيد. قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (إقامة الدليل على إبطال التحليل) ص(٣٣): هذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي وغيره تارة ويحسنه تارة. انظر: إرواء الغليل (٥/ ٣٧٥)، وانظر: حاشية ابن القيم (٩/ ٢٤٤).

(٣) انظر: المغني (٤/ ٦٢ ـ ٦٤)، وفي كتاب إعلام الموقعين لابن القيم عددٌ كبيرٌ من الحيل جرت في زمنه، وأغلبها مستعمل في زماننا، تراجع في محلها (٣/ ١٤٧، ١٥٢، ٢٠٦، ٢١٢).

(٤) انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (محمد بن علي) ص(٢٨٣)، انظر: أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة ص(٢٦٨).

نصب الشباك يوم الجمعة، وأخذ ما فيها يوم الأحد، وظاهر هذا الفعل الحل في نظرهم، صورهم الله إلى أقرب الحيوانات شبهًا بالإنسان وهي القردة(١).

➢ **خامسًا**: بيان قدرة الله ـ تعالى ـ؛ حيث صور هؤلاء البشر إلى صنف القردة بقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، فكانوا قردة، وهنا يرد سؤال مهم هو: هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل أم هذه جنس من المخلوقات منفرد؟

والجواب على ذلك: أن هذه القردة جنس منفرد بذاته من مخلوقات الله ﷻ، أما من قُلب من بني إسرائيل فإنهم هلكوا ولم يبق لهم نسل كما قرر ذلك أهل العلم، وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله من تراب ثم قال له: كن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩](٢).

➢ **سادسًا**: بيان كذب من زعم أن أصل البشر قردة ثم تطور حتى صار بشرًا؛ لأن الله ﷻ جعل الإنسان قردًا حينما أراد أن يعاقبه لمخالفة أمره، وقد دلت الآيات من كتاب الله ـ تعالى ـ والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خلق من تراب، وأجمع على ذلك المسلمون، فمن اعتقد أن أصل البشر قردة فإنه يكفر؛ لأنه مكذب بالقرآن والسنة وإجماع المسلمين؛ إلا أن يكون جاهلًا فإنه يُعلَّم ويُفَهَّم، فإن أصر فإنه يكون كافرًا؛ لأن هذا تكذيب صريح لما عُلم من الدين بالضرورة(٣).

➢ **سابعًا**: بيان أن كل من أراد علوًّا في الأرض أو فسادًا فإن الله ـ سبحانه ـ لا يصلح عمله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ومن تواضع رفعه، ومن تعالى على الله وضعه، وهؤلاء القوم لما تعالوا وتكبروا عن قبول الحق وضعهم الله فمسخهم قردة خاسئة ذليلة(٤).

➢ **ثامنًا**: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أعظم المأمورات التي تعبدنا الله بفعلها، مع التزام الحكمة والقول اللين في ذلك، ومن

---

(١) انظر: أحكام من القرآن ص(٢٧١).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(٢٧٣، ٢٧٢).

(٣) انظر: المصدر السابق ص(٣٧٣). (٤) انظر: المصدر السابق ص(٢٧٤).

ثم اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم إذا لم يتوبوا ويرجعوا وينيبوا إن احتيج لذلك؛ حتى لا يكون الإنسان مشاركًا لهم في الإثم، ولذا رأينا جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه القصة؛ حيث نجى الله الناهين عن المنكر، وأهلك الذين باشروه ولم ينتهوا عنه دون غيرهم.

> **تاسعًا**: دل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، على أن النهي عن المنكر لا يسقط، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه؛ إذ ليس من شرطه حصول الامتثال، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين والغيرة على حدود الله والاعتذار إلى الله ـ تعالى ـ لكفاه فائدة[١].

> **عاشرًا**: إثبات العقوبة وما لها من أثر في نفوس من رآها أو سمع بها، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]؛ لأن كل من اطلع على حال هؤلاء فإنه يمتنع من الاستمرار في الإثم والعدوان؛ سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم، لما في ذلك من الموعظة العظيمة التي ينتفع بها المتقون الطائعون فقط، أما غيرهم ممن ليس بمتق فإنه لا ينتفع بالموعظة؛ بل يستمر في معصيته، ويمنّي نفسه بعفو الله ومغفرته، وينسى عدل الله وعقابه.

> **الحادي عشر**: الإعلام من الله ـ تعالى ـ لرسوله محمد ﷺ بأنه سيبعث على اليهود من يذلهم ويضطهدهم عقوبة منه تعالى لهم على خبث قلوبهم وسوء أفعالهم إلا من تاب منهم أو كان بجوار دولة قوية تحميه، وهذا مفهوم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وهو الإسلام، وحبل من الناس: وهو ما ذكرناه، وقد تحقق ذلك؛ حيث سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب كلما عصوا الله وابتعدوا عن دينه، وهذا ما سنتعرض له في المبحث التالي.

❖ ❖ ❖

---

(١) تفسير القاسمي (٧/ ٢٨٨).

عقوبة بني إسرائيل في أول سورة «الإسراء»

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت ذلك

سورة «الإسراء»:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١ ـ ٨].

• **لطائف الآيات:**

> **أولًا:** كثيرًا ما يقرن الباري ﷻ بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﵇ فلم ذلك؟

والجواب: لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين(١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٩٦)، وانظر: التفسير الكبير للرازي (٢٠/ ١٥٣)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦).

> **ثانيًا:** في هذه السورة وبعد ذكر نبوة محمد ﷺ وذكر نبوة موسى عليه السلام ذكر الله ثناءً ومدحًا لنوح عليه السلام، فهل لذلك من معنى؟

والجواب: أن الآيات الثلاث تتحدث عن ثلاثة من أولي العزم الخمسة من الرسل.

وذكرت العبودية في حق كل من محمد ﷺ ونوح عليه السلام، فقال في حق محمد ﷺ في معرض المن: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

وقال في حق نوح عليه السلام في معرض الثناء: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[1] [الإسراء: ٣]، وحينما يكون الأب عبدًا لله ـ تعالى ـ فمن باب أولى أن تتصف الذرية بهذه الصفة وفي مقدمتهم محمدٌ ﷺ[2].

> **ثانيًا:** لم خصّ بنو إسرائيل بالذكر في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]، دون غيرهم؟

والجواب: لأنهم هم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم[3].

> **ثالثًا:** لم خص نوح بالذكر هنا من بين الأجداد الآخرين؛ مثل: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؟.

والجواب: أن ذرية نوح عليه السلام كانوا شقين: شق بار مطيع؛ وهم الذين حملهم معه في السفينة، وشق متكبر كافر؛ وهو ولده الذي غرق، فكان نوح عليه السلام مثلًا لأبي فريقين، فبنو إسرائيل من ذرية الفريق البار، فإن اقتدوا به نجوا، وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا[4].

> **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]، ما المراد بالكتاب هنا؛ أهو التوراة التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢] أم غيرها؟

---

(١) وفي الحديث «كان نوح إذا طعم أو لبس حمد الله فسمي عبدًا شكورًا». انظر: فتح الباري، برقم [٤٧١٢]، وصححه ابن حبان من حديث سلمان، وله شاهد عن ابن مردويه وأبي فاطمة الليثي واسمه: أنيس، وقيل: عبد الله بن أنيس. انظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ١٨٢).

(٢) التفسير الكبير (٢٠/ ١٥٤)، التفسير البسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥)، مجلد (٧). (٤) المصدر السابق (١٥/ ٢٧)، م٧.

والجواب: أنه يجوز أن يكون المراد بالكتاب التوراة، والتعريف للعهد؛ لأنه ذُكر آنفًا، ويوجد في مواضع منها ما هو قريب مما في هذه الآية لكن بإجمال، فيكون العدول عن الإظهار إلى لفظ الكتاب لمجرد الاهتمام.

ويجوز أن يكون «الكتاب» بعض كتبهم الدينية، فيكون التعريف للجنس وليس للعهد الذكرى؛ إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفًا؛ لأنه لما أظهر اسم الكتاب أشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم؛ وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء[1].

ثم ليعلم أنه ـ أي: معنى «الكتاب» ـ لا يمكن أن يراد به اللوح المحفوظ أو علمه؛ لأن ضمائر الخطاب تمنع ذلك[2].

وأرجح أنه التوراة؛ لأن التوراة ذكرت في القرآن بلفظ الكتاب أكثر من مرة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

> **خامسًا**: إنه قال: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥]، ولم يقل: عبادي فلماذا؟

والجواب: لأنهم أهل كفر وشرك وفسق، فلم يشرفهم بالإضافه إليه، ووصفهم بأنهم من ملكه فسخرهم لتأديب عباده الخارجين عن أمره وطاعته[3].

> **سادسًا**: تعرض بنو إسرائيل لملاحم عديدة ابتلاءً وامتحانًا من الله لهم، فكلما صلحوا مكن لهم، وكلما خربوا وأفسدوا سلط الله عليهم عدوهم فقتلهم وأسرهم وهكذا[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨)، م٧.

(٢) المصدر السابق (١٥/ ٣٠)، م٧.

(٣) أيسر التفاسير (٣/ ١٧٥).

(٤) سنذكر تفصيل ذلك في سبب العقوبة ونوعها.

➢ **سابعًا**: إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، ولم يقل: فعليها كما قال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]؟

والجواب: أن اللام هنا بمعنى «على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقيل: معناه: فلها رجاء الرحمة؛ أي: فلها مخلص بالتوبة والاستغفار، والصحيح أن اللام هنا على بابها؛ لأنها للاختصاص، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنه ـ كان ـ أو سيئه[(١)].

➢ **ثامنًا**: إن قيل: لم عزا الإساءة التي بمعنى الحزن في قوله: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، إلى الوجوه، مع أنها تكون في القلب والنفس الداخلية؟

والجواب: عزا الإساءة إلى الوجوه لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة على الوجه[(٢)].

➢ **تاسعًا**: في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، اجتمع عطف ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وعطف ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ على قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

والمعنى: بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلجؤون إليها إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم.

والعطف الثاني أفاد أن ما ذكر قبله من عقاب إنما هو عقاب دنيوي، وأن وراءه عقاب الآخرة[(٣)].

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

---

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٧٥).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠/ ١٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٨، ٣٩)، مجلد (٧).

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

إفساد اليهود في الأرض وقتل الأنبياء والصالحين

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]. في هذه الآية ذكر مجمل لتاريخ بني إسرائيل بدءًا من دولة يوشع بن نون بعد فتحه لبلاد القدس وطرد الجبارين منها، وإقامة دولة فيها لأول مرة، وختامًا بطردهم على أيدي الرومان بعد ميلاد عيسى عليه السلام[(١)]، ففي المرة الأولى وقع كما أخبر الله ـ تعالى ـ؛ حيث أفسدوا في الأرض بارتكاب المعاصي، وغشيان الذنوب، والعلو في الأرض بالجرأة على الله ـ تعالى ـ، وظلم الناس، ومن ثم قتلوا أنبياء الله ـ تعالى ـ؛ مثل: أشعياء، أريمياء، زكريا، يحيى، وقتل الأنبياء كفر، فسلط الله عليهم من قهرهم إلى أن تابوا ورجعوا.

وأما المرة الثانية فإنهم عادوا للإفساد في الأرض وانغمسوا في الفجور والشر، فسلط الله عليهم من قهرهم، ثم رحمهم الله ـ تعالى ـ فصلحوا واستقاموا، ثم عادوا إلى الفسق والفجور، فعاد الله عليهم، فسلط عليهم من قهرهم وقتلهم، وهذا مصداق قول الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[(٢)] [الأعراف: ١٦٧]، وانظر إلى ما سنذكره في نوع العقوبة تاريخيًا دون التعرض لما يذكر من إسرائيليات أو أسماء أو تواريخ؛ لأن الغرض هو العبرة التى تتجلى في سياق الوقائع، ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة هؤلاء الأقوام[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٩)، تفسير القاسمي (١٠/ ٢٠٥).

(٢) المصدر السابق (١٥/ ٣٩).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٠/ ١٥٩)، وانظر: تفسير القاسمي (١٠/ ٢٠٥: ٢٠٦) حيث قال: سلط عليهم البابليون سنة ٦٠٦ قبل المسيح، ثم سلط عليهم بختنصر سنة ٥٥٨ قبل المسيح، ثم سلط عليهم الرومان سنة ١٣٥ بعد الميلاد. انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩، ٣٨)، وانظر من كتب التاريخ: الطبري (١/ ٥٣٢: ٥٣٩)، البداية والنهاية (٢/ ٣٤: ٣٩).

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ⑦ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٥ ـ ٨].

فهنا الآيات قسمت تاريخهم إلى قسمين، كما في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]: أما المرة الأولى: فكانت البداية من زمن يوشع بن نون عليه السلام، واستمرت زمنًا طويلًا حتى عاثوا (أي: بنى إسرائيل) في الأرض فسادًا، وكثر فيهم الفسق والفجور، فسلط الله عليهم البابليين، فأسقطوا دولتهم، ومزقوا ملكهم، حتى هيأ الله لهم ملكًا جديدًا على يد طالوت فهزموا جالوت البابلي، واستمر ملكهم في عهده وعهد داود وسليمان عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، ثم فسقوا وفجروا وظلموا، فسلط الله عليهم بختنصر البابلي أيضًا، فقتلهم وأسر منهم وخرب ديارهم، وهذه هى المرة الآخرة، ثم تابوا وأنابوا، فجمع الله ملكهم ورحمهم، وإلى ذلك تشير آية ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]، فاستمر ملكهم فترة من الزمن وعادوا بعدها إلى سابق عهدهم من الفسق والعصيان، فعاد الله عليهم بعذابه، فسلط عليهم الرومان بعد نبوة عيسى عليه السلام، فقتلوهم وساموهم سوء العذاب، وشردوهم في الأرض، ثم تجمع فئات منهم في الجزيرة العربية وأفسدوا فيها، فسلط الله عليهم نبيه محمدًا ﷺ، فأجلى بني قينقاع وبني النضير، وقتل بني قريظة، ثم عادوا للإفساد، فسلط الله عليهم ملوك أوربا؛ حيث سامهم هتلر سوء العذاب، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل فأذاقت العرب (أصحاب الأرض) الويلات، وذبحوا المسلمين في كثير من بقاع فلسطين حين غابوا عن الالتزام بالمنهج الإسلامي، وتركوا الجهاد، واليوم يطلبون منهم

السلام... وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقًا لوعده ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، ووفاقًا لسنته التي لا تتخلف. وإن غدًا لناظره قريب(١).

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوباتهم

> **أولًا:** أخبرت الآيات عن حال بني إسرائيل حين يطيعون، وحالهم حين يفسدون.

ففي حال طاعتهم يعفو الله عنهم وينعم عليهم بالأموال والبنين، وفي حال عصيانهم يغضب الله عليهم فيسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب، وفي ذلك درسٌ ينبغي أن تعيه الأمة المسلمة وهو الشكر في حال الرخاء، وبحفظ نعم الله علينا وأكبرها نعمة الاسلام والإيمان، والتركيز على تحقيق ذلك في عالم الواقع من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإظهار شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا تفسد الأمة فيكون فيها شبه من بني إسرائيل الملعونين على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ الآية [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

الدرس الآخر: أن سبب تسلط الأعداء وتكالبهم علينا إنما يأتي من ابتعادنا عن المنهج الإسلامي الصحيح، وترك فريضة الجهاد في سبيل الله، قال ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»،

---

(١) انظر لذلك: تفسير الطبري (١٧/ ٣٥٦، ٣٥٨)، تفسير الرازي (٢٠/ ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨)، تفسير القاسمي (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩، ٣٢، ٣٨)، في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٤)، أيسر التفاسير (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٨)، التفسير البسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٢٧، ٢٨)، وانظر من كتب التاريخ: تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩)، البداية والنهاية (٢/ ٣٤ ـ ٣٩).

فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(١).

➢ **ثانيًا:** في تكرار العذاب على بني إسرائيل مرتين والإنقاذ من الذل والعذاب مرتين أيضًا رحمة من الله بعباده؛ لأن العقاب قد يكون سبيلًا للإصلاح والتربية والتهذيب، ثم إن التخلص من أسباب ومسببات الذل والإهانة فيه تجديد للنفس وفتح باب الأمل في وجه كل مطرود يائس، فها هم قد عوقبوا على يد البابليين في أول الأمر، وعوقبوا أخيرًا على يد الروم لإفسادهم وقتلهم لأنبيائهم، وكانت النجاة بأن أعاد الله لهم عزتهم ودولتهم، وأمدهم بأموال وبنين، فأصلحوا من حالهم وتابوا وأنابوا، فكان ذلك إكرامًا من الله لهم وجزاء حسنًا على طاعتهم(٢).

وفي ذلك درس عظيم لكل عاصٍ انغمس في أوحال المعصية، أو حادّ الله ورسوله، أو جاهر بما يفعل، لأن يتوب ويرجع، فباب التوبة مفتوح، والله - تعالى - يفرح بتوبة عبده، كما ورد في الحديث: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة**»(٣).

➢ **ثالثًا:** إن نفع الإحسان والاستقامة يعود على الإنسان بالأجر والثواب في الآخرة وبالطمأنينة والحياه الطيبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

➢ **رابعًا:** تشير آية ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، على أن رحمة الله - تعالى - غالبة على غضبه؛ بدليل تكرار الإحسان، ولما حكى عنهم الإساءة ذكرها مرة واحدة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، ولو لم يكن جانب الرحمة غالبًا لما فرّق(٤).

---

(١) الحديث رواه أحمد (٥/ ٢٧٨)، برقم [٢٢٤٥٠]. ورواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٠/ ٤٨٣)، برقم [٤٢٩٧]. وصححه الألباني (٢/ ٦٨٤)، برقم [٩٥٨].

(٢) انظر: التفسير المنير (١٥/ ٢٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (٤/ ١٥٤)، برقم [٦٣٠٨، ٦٣٠٩]. ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها (٤/ ٢١٠٥)، برقم [٢٧٤٧].

(٤) انظر: تفسير الرازي (٢٠/ ١٥٨).

➢ **خامسًا**: يدل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، على عدل الله - تعالى - في أن من عاد إلى المعصية عاد الله إليه بالعقاب، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن من عاد إلى التوبة والرشد والهداية عاد الله عليه بالرحمة والمغفرة(١).

➢ **سادسًا**: ما يحصل للعصاة الفاسقين من عذاب في الدنيا - كقتل وتشريد وإهانة وإذلال على يد من هو أظلم منهم - ما هو إلا شيء يسير مع ما ادخره الله لهم من عذاب في الآخرة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]؛ أي: سجنًا وفراشًا، والمعنى: إن عذاب الله لهم في الدنيا بما وصفنا، وإن كان شديدًا فإنه قد يتفلت منه بموت أو بطريق آخر، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرًا للإنسان محيطًا به لا رجاء في الخلاص منه(٢).

➢ **سابعًا**: إن عودة اليهود اليوم، وتجمعهم في أرض فلسطين واستيلاءهم على أولى القبلتين وثالث المسجدين الشريفين، وتشريد وتقتيل أهلها، وإفسادهم في الأرض، ليذكرنا بماضيهم الغابر، وتاريخهم الأسود، ويعطينا الأمل في فتح باب الانتصار عليهم، فقد كثر شرهم، وزاد فجورهم، وفشا ظلمهم، وقد آن الأوان للمسلمين أن يعدوا العدة لاستعادة القدس الشريف وسائر المقدسات الإسلامية من أيدي اليهود وإذلالهم تحقيقًا لما كتب عليهم من الذلة والصغار إلى يوم القيامة.

❖ ❖ ❖

---

(١) انظر: التفسير المنير (١٥/ ٢٦).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٠/ ١٦٠).

الفصل الخامس

عقوبات بني إسرائيل
في عهد عيسى عليه السلام وبعده

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى عليه السلام.

المبحث الثاني: عقوبات صاحب الجنتين.

المبحث الثالث: عقوبة أصحاب الجنة.

المبحث الرابع: عقوبة أصحاب الأخدود.

المبحث الخامس: عقوبة أهل سبأ.

المبحث السادس: عقوبة أصحاب الرس.

المبحث السابع: عقوبة أصحاب الفيل.

تمهيد

أرسل الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل على فترة من الرسل حين ساء حال بني إسرائيل وانتشر الضلال وعُبد غير الله، فدعا الناس إلى توحيد الله ـ تعالى ـ وإفراده بالعبادة، وأيده بعدد كثير من المعجزات كان منها: معجزة إنزال المائدة على بني إسرائيل، وما أصاب من كفر بها من عذاب الله، ثم آخرها معجزة رفعه إلى السماء حيًّا، وما أصاب من أراد قتله من اختلاف في شأنه، وسوف نتناول هذين الأمرين بالبحث والمناقشة؛ لما فيهما من قصد العقوبة، ثم نتناول ما قصه الله من عقوبات حدثت بعده إلى ما قبل الرسالة المحمدية.

❖ ❖ ❖

المبحث الأول

عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى عليه السلام

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت عقوبتهم من سورة «المائدة»

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١١ - ١١٥].

● ***لطائف الآيات من سورة «المائدة»:***

> **أولًا**: قصة مائدة حواري عيسى عليه السلام لم تذكر إلا مرة واحدة في سورة «المائدة» المسماة باسمها.

> **ثانيًا**: إن معنى الإيحاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

> **ثالثًا**: إن قيل: كيف قال الحواريون: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إنهم شكوا في قدرة الله على بعض الممكنات، ووصفوه بالاستطاعة، وهذا تشبيه، والحواريون خُلّص أتباع عيسى لا يصح أن يصدر منهم مثل ذلك؟

والجواب: أن هذا استفهام عن الفعل؛ لا عن القدرة، كما يُقال للغني: هل تقدر أن تعطي فلانًا شيئًا؟ وهذه تسمى استطاعة المطاوعة؛ لا استطاعة

القدرة[1].

وهذا يدل عل التلطف والتأدب في السؤال وليس شكًّا، كما سأل إبراهيم ربه حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، إنما أحبوا الانتقال من الدليل العقلي إلى الدليل الحسي الذي تأنس إليه القلوب أكثر[2].

➢ **رابعًا**: إن كان المراد ما سبق ذكره فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢]؟

فالجواب: إنكاره عليهم لأنهم أتوا بلفظ يحمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن المخلص وإن كانوا لم يريدوه[3].

➢ **خامسًا**: اشتمل قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾[4] [المائدة: ١١٤]، على نداءين؛ إذ قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ بتقدير حرف النداء مع ما سبقها من قوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ فلم كرر النداء؟

والجواب: كرره مبالغة في الضراعة والاستعطاف لله ـ تعالى ـ ليجيب دعاءهم[5].

➢ **سادسًا**: في قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ [المائدة: ١١٤]، أسند الكون للمائدة مع أن المقصود: ﴿الْيَوْمَ﴾ فكيف؟

والجواب: أن إسناد الكون عيدًا للمائدة إسناد مجازي، والعيد هو اليوم الموافق ليوم نزولها، وعلامة صحته أنه قال: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤]؛ أي: لأول أمة النصارى وآخرها[6].

---

(١) تفسير الرازي والمسمى «أنموذج جليل» ص(١٢٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧/ ١٠٥)، م٤، وهذا هو أحد الرأيين وهو الراجح، لأنهم لو كانوا متعنتين ـ كما قال بعض المفسرين ـ لما طالب الله أصحاب النبي ﷺ أن يكونوا مثلهم في مناصرة الله ـ تعالى ـ، وما جعلهم مثلًا صالحًا يتأسى بهم ويقتدي بعملهم. انظر: دعوة الرسل ص(٣٦٨).

(٣) انظر: تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(١٢٨).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٧/ ١٠٨)، م٤.

(٥) انظر: المصدر السابق (٧/ ١٠٨).

(٦) انظر: المصدر السابق (٧/ ١٠٨).

الآيات التي تحدثت عن رفع عيسى عليه السلام من سورة «آل عمران» و«النساء»:

أولًا: سورة «آل عمران»:

قال الله - تعالى -: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

ثانيًا: سورة «النساء»:

الآيات **التي تحدثت عن عيسى** عليه السلام، وادعاء اليهود قتله، وتكذيب الله لهم من سورة «النساء».

قال الله - تعالى -: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٦٠].

- **لطائف آيات سورة «آل عمران» و«النساء»**[1]:

> **أولًا**: إن قيل: ما فائدة إعادة الكفر في الآية بقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥]؟

فالجواب: لأنه قد تكررالكفر منهم؛ فإنهم كفروا بموسى وعيسى ثم محمد، فعطف بعض كفرهم على بعض[2].

> **ثانيًا**: في قوله تعالى على لسان اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ

(١) ذكرتها مؤخرة لذكر خبر المائدة.

(٢) عند القرطبي: إنه كرر «بكفرهم» ليخبر أنهم كفروا كفرًا بعد كفر. وقيل: المعنى: وبكفرهم بالمسيح عليه السلام، فحذف لدلالة ما بعده عليه. وانظر: الرازي في تفسير «أنموذج جليل» ص(١٠٤)، كلهم عن الكشاف (١/ ٥٨٦).

﴿ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، يرد سؤال هو: أن اليهود - عليهم لعائن الله - كانوا كافرين بعيسى فكيف أقروا أنه رسول الله؟.

فالجواب: أنهم قالوه على طريق الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1] [الشعراء: ٢٧].

➢ **ثالثًا:** قال هنا في سورة «النساء»: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال في سورة «آل عمران»: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، والله - تعالى - رفعه ولم يتوفه فكيف؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن الله بشره بقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب حتى يلزم من الآية موته قبل رفعه.

الثاني: أن معناه: متوفى نفسك بالنوم من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فلا تستيقظ إلا وأنت في السماء آمن مقرب.

الثالث: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا؛ تقديره: إني رافعك ومتوفيك[2].

➢ **رابعًا:** إنه وصفهم بالشك مرة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، ثم وصفهم بالظنّ أخرى بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، فكيف يكونون شاكّين ظانين[3]؟ وكيف استثنى الظنّ من العلم، وليس الظنّ فردًا من أفراد العلم؛ بل هو قسيمه؟

والجواب: استعمل الظنّ بمعنى الشك مجازًا؛ لما بينهما من المشابهة في انتفاء الجزم.

وأما أنه استثنى الظنّ من العلم فهذا استثناء من غير الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾[4] [مريم: ٦٢].

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(١٠٤). (٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٦٣).

(٣) الشك: تساوي الطرفين، والظنّ: رجحان أحدهما على الآخر. انظر: الكتاب (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ص(٥٢٨).

(٤) انظر: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(١٠٥).

➢ **خامسًا**: في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] إشكال؛ هو أن «وإنْ» في الآية معناها (ما) النافية، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فيكون التقدير: وما أحدٌ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به، ثم إننا لم نسمع أن يهوديًا آمن بعيسى عند موته فكيف؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن روحه لا تخرج حتى يؤمن بعيسى.

فعن علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، قال: «لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى»(١).

الوجه **الثاني**: أن قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾؛ أي: قبل موت عيسى؛ أي: في زمان نزوله آخر الزمان، ولا بد وأن يؤمنوا به(٢).

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

طلبهم المائدة ثم كفر من كفر منهم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآيات [المائدة: ١١٢].

قصة المائدة:

قد تقدم في النص القرآني أن الحواريين طلبوا من عيسى عليه السلام مائدة من السماء يأكلون منها، وهذه من طامّات بني إسرائيل الكثيرة؛ لكنها البشرية التي لا تزال تتطلع إلى كل غريب، والحواريون بشر ممن خلق الله، أكرمهم الله بأن جعلهم أنصارَ دينه ونبيه عيسى بن مريم عليه السلام.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣٨٢)، انظر: الدر المنثور (٢/ ٤٢٦، ٤٢٧)، والأثر صحيح.

(٢) رواه الطبري بسنده قال: حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى. ومثله عن الحسن. والآثار بأسانيدها صحيحة، انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٨٠).

فهذا النص القرآني يذكر أنهم دخلوا في محاورة ساخنة مع نبيهم يطلبون آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بما جاءهم على لسان نبيهم.

فذكرهم المسيح بتقوى الله الدال على توحيده الخالص من كل شائبة تؤدي إلى الشك في قدرة الله ﷻ، فهم بسؤالهم هذا يعيدون إلى الأذهان الدعوة الأولى حين قال لهم المسيح عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكأن الإيمان لم يرسخ بعد، فلا بد من تذكيرهم بتقوى الله ـ تعالى ـ لعلهم يكفون عن التكلف في طلب ما لا يعني!

إلا أن القوم أصروا؛ بل حددوا أغراضهم منها في أربع نقاط:

الأكل منها، ولتطمئن قلوبهم، وليعلموا صدق نبيهم فيما جاءهم به، وليكونوا عليها عند بني إسرائيل من الشاهدين على صدق نزولها لتكون لهم آية.

هنا توجه المسيح عليه السلام إلى ربه يدعوه ويطلب منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم عيدًا يعتاده بنو إسرائيل كل عام (الأولون والآخرون).

ولتكون آية حية أخرى تضاف إلى الآيات السابقات منك للتدليل على كمال قدرتك وعظيم مشيئتك، وارزقنا يا الله منها رزقًا يعيننا على طاعتك واتباع مرضاتك، إنك خير من يرزق عباده ويتولاهم، ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]. فأخبر الله ﷻ عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم المائدة المطلوبة، وعبّر باسم الفاعل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ لتحقيق الوعد بالإنزال، وأن من يكفر بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذابًا لم يعذب مثله في شدته أحدًا من العالمين؛ إذ اشترط الله للاستجابة شرطًا؛ وهو أن من آمن بها نجا، ومن كفر بها عذب عذابًا شديدًا، فهل استجابوا للشرط أم وقفوا؟ وهل نزلت المائدة أم لم تنزل؟

هذا ما لم ينص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، إلا أن هناك إشارات قوية تدل على أنها نزلت بالفعل؛ حيث أكد الله ـ تبارك وتعالى ـ تنزيلها عليهم بجملة تأكيدات، منها: أنه قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]، فأسند القول إلى نفسه المقدسة، ثم أكد تنزيلها «بإن»، بأن قال: ﴿إِنِّي

﴿مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾[1].

* قال ابن جرير في ذلك: «إن الله ـ تعالى ذكره ـ لا يخلف وعده، ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال ـ تعالى ذكره ـ مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وغير جائز أن يقول الله ـ تعالى ذكره ـ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ ثم لا ينزلها؛ لأن ذلك منه ـ تعالى ذكره ـ خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر، ولو جاز أن يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة، وغير جائز أن يوصف ربنا ـ تعالى ذكره ـ بذلك»[2]. هذا، وقد ذكر المفسرون لكيفية نزول المائدة أوصافًا معينة نزلت عليها، وفيما احتوته من ألوان الطعام وأسمائه أقوالًا كثيرة لم يثبت شيء منها بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ.

* قال ابن جرير: «وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل»[3].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

* قال ابن جرير في تفسير ذلك: «وهذا جواب من الله ـ تعالى ذكره ـ القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم من إنزاله مائدة عليهم إني منزلها عليكم فمن يجحد بعد إنزالها عليكم وينكر نبوة عيسى ﷺ ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم فعذبوا فيما بلغنا بأن مسخوا قردة وخنازير»[4].

---

(١) تهذيب التفسير (٤/ ٢٩٠، ٢٩١).
(٢) تفسير ابن جرير (١١/ ٢٣١، ٢٣٢).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٢٣٢).
(٤) انظر: المصدر السابق (١١/ ٢٣٢).

وروى أيضًا بسنده[١] إلى قتادة قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٥]، ذكر لنا أنهم حوّلوا خنازير».

هذا ما كان من أمرهم في الدنيا، وأما في الآخرة فإن عذابهم أشد لما حصل من الكفر بعد نزولها، روى ابن جرير من حديث عبد الله بن عمرو قال: «إن أشد النّاس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون»[٢]. وبعد كل هذا أخذ اليهود يناصبون عيسى ﷺ العداء، ويكيلون له ولأمه الاتهامات، وإليك بعضًا من ذلك:

عيسى ﷺ ومكائد اليهود ونهايته:

قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٤].

لقد ناصب اليهود عيسى ﷺ العداء؛ لأنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم من دعوة التوحيد، وترْك ما لم يأمر به الله، والرجوع إلى شرع الله الذي دعا إليه موسى ﷺ والأنبياء من بعده.

فلما أدرك بعد كل دعوة لهم إدراكًا قويًا جرى مجرى العيان بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه، مع إدراكه إيضًا لكفرهم وعتوهم ومكابرتهم، وأن أي وسيلة من وسائل اللين والدعوة الحسنة لن تجدي، أخذ يبحث عن أنصار ينصرونه في دعوته، ويدفعون عنه كيد الكائدين، فاستجاب له الحواريون، ومكر به الكفرة

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٦١٤)، وعند الترمذي بسند فيه ضعف عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ، فمسخوا قردة وخنازير»**. انظر: سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب (ومن سورة «المائدة») (٥/ ٢٦٠)، برقم [٣٠٦١] حيث قال: «هذا حديث غريب». قال ابن كثير بعد ذكر حديث عمار: الموقوف أصح وهو الصواب. انظر: البداية والنهاية (٢/ ٨٦ ـ ٨٧)، وانظر: ميزان الاعتدال (١/ ٦٥٨).

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (٤/ ٢٦٣): إسناده صحيح؛ ولكنه موقوف من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص.

اليهود؛ بأن احتالوا لقتله خفية؛ ولكن الله ﷻ مكر بهم وأخزاهم ورد كيدهم في نحورهم، ورفع نبيه إليه، وألقى شبهه على آخر، فأخذوه وصلبوه وقتلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

ففي هذه الآيات الكريمات بيان واضح لما آل إليه أمر المسيح عليه السلام في الدنيا؛ حيث وعده الله بوعود أربعة:

الوعد الأول: أن يتوفاه الله إليه، فلا يقتل مصلوبًا ولا غير مصلوب بعد أن يتم ما أمره الله به من دعوة بني إسرائيل.

الوعد الثاني: تطهيره من المشركين الكافرين من أن يلحقوا به أدنى أذى، وقد تحقق ذلك؛ حيث لم يتمكنوا من الوصول إليه مطلقًا.

الوعد الثالث: أن يرفعه حيًّا من الأرض إلى السماء في موضع كريم.

الوعد الرابع: أن يجعل أتباعه المؤمنين برسالته فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

وهذا صادق على أتباعه الحقيقيين الذين آمنوا به واتبعوا ما جاء به، فلما ظهر محمدٌ ﷺ آمنوا به، فجمع الله لهم الأجر مرتين، كما صح ذلك عن الرسول ﷺ(١).

وأما الذين بدلوا وغيروا وحرفوا في دين الله ﷻ فإن الموعد هو المرجع إلى الله ﷻ، فيحكم بينهم بالعدل فيما كانوا فيه يختلفون.

وما يحصل من عقاب دنيوي هو نتيجة ابتعادهم عن الإيمان الحقيقي بدين محمد ﷺ الذي جمع الله به دين الأنبياء من قبله؛ حيث يسلط الله عليهم القلق والخوف من المستقبل واليأس والحسد والقنوط من رحمة الله وغير ذلك من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] (٢/ ٤٩٠)، برقم [٣٤٤٦].

الأمور التي يُعَذّبُ بها الكافر والمشرك، حتى إذا ما جاء يوم القيامة لقي كل جزاءه، فالكافر والمشرك مآله جهنم وساءت مصيرًا!.

وأما من آمن بالله وعمل صالحًا فإن الله يوفيه أجره، ويجزيه أحسن الجزاء، ويضاعف له حسناته، ويدخله جنته ودار كرامته.

وأما عن نهاية المسيح عليه السلام على الأرض فقد قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

تبين الآيات الكريمات أن اليهود قد أجمعوا أمرهم على التخلص من عيسى عليه السلام، ويزعمون في كتبهم أنهم وشوا به إلى ملكهم الروماني متهمينه بمحاولة السطو على الملك وقلب نظام الحكم، فهجموا عليه وعلى أتباعه وأخذوه من بينهم وصلبوه وقتلوه[(١)]، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وحفظ الله نبيه ورفعه إلى السماء، ثم اختلفوا في أمره اختلافًا كثيرًا لم يجزموا برأي حول حقيقة المصلوب؛ أكان المسيح أو غيره؟ فإذا كان المسيح فأين صاحبنا الذي دلنا عليه؟ وإذا كان صاحبنا فأين المسيح؟ وكفى بها عقوبة يتحيرون فيها إلى يوم القيامة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨]، إلى سمائه وكرامته، وعيسى عليه السلام حيّ في السماء الثانية، لما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى عيسى عليه السلام في السماء الثانية، وهو هناك حتى ينزله الله إلى الأرض ويقتل الدجال كما جاءت بذلك الأخبار[(٢)].

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، وعنه

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٥٨٧).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية (٤/ ٢٨٧).

أيضًا قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»(١).

وقد أخبر الله ـ تعالى ـ أن كل نبي سيكون يوم القيامة شاهدًا على أمته، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبتهم

> **أولًا**: من نعم الله ـ تعالى ـ على الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أن يهيئ لهم أعوانًا على الدعوة، وذلك بأن يستجيبوا لدعوتهم ثم يعملوا بها معهم.

وانظر لحواري عيسى حين ألهمهم الله الاستجابة لدعوته والعمل معه لدينه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ﴾ [الصف: ١٤]، وعلى هذا فمن هدى الله إنسانًا على يده فعليه أن يشكر الله على ذلك، ثم ليحرص على أن يتعاهده بين كل حين وآخر لأمرين:

الأول: لئلا يرجع إلى ما كان عليه.

والثاني: يفقهه في الدين ليكون عونًا له فيما بعد على الدعوة وعلى نصرة دين الله. فإذا كثر الأنصار لدين الله فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أن يشكروا الله ـ تعالى ـ على هذا التآلف والترابط الإيماني والتعاون على نصرة دين الله والدعوة إليه بعد أن كان هؤلاء المستجيبون معارضين أو معرضين عنها؛ ولكن الله هداهم إلى دعوته، وألف بينهم، فلولاه ما كان ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢) [الأنفال: ٦٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم (٢/ ٤٩٠، ٤٩١)، برقم [٣٤٤٨، ٣٤٤٩]. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم (١/ ١٣٥، ١٣٧)، برقم [١٥٥].

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (١/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤).

➢ **ثانيًا:** قصة المائدة نعمة من النعم التي عددها الله وامتن بها على عيسى عليه السلام وقومه، والذي عليه الجمهور من العلماء أنها نزلت كما بيّنا ذلك، والعبرة المستفادة منها: أن الله ـ تعالى ـ استجاب لعبده عيسى عليه السلام دعاءه، وهي آية بينة على قدرته تعالى، وآية تدل على أنه يستجيب دعاء عباده المخلصين، وتدل أيضًا على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، ولوكان إلهًا ـ كما زعم النصارى ـ لما كان بحاجة إلى أن يطلب شيئًا، ثم إن إجابة الدعاء فيها دليل على أن الكل محتاج إلى الله عز وجل حتى عيسى عليه السلام، وأن الله ليس محتاجًا إلى أحد ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥](١).

➢ **ثالثًا:** مشروعية الدعاء، وأن الإكثار منه والإلحاح فيه مع إخلاص النية من أسباب إجابته، ومن هنا يُعْلَم أن استجابة الله ـ تعالى ـ لعبده ورسوله عيسى عليه السلام كانت رحمة وفضلًا ومنة من الله عليه وعلى قومه، وإلّا فإنه يلاحظ أن القوم ألحوا على عيسى في الطلب، ولم يكن البادئ بالدعاء، ومن ثم كانت المسؤولية واقعة عليهم، ثم إن الشق الآخر من الآية الكريمة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، يبيّن أبعاد هذه المسؤولية، ويقرر أن من يكفر بعد نزول المائدة فإن الله جل جلاله سوف يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من عالمي زمانهم(٢).

➢ **رابعًا:** مشروعية الأعياد الدينية «لعبادة الله بالصلاة والذكر شكرًا لله ـ تعالى ـ»، ولا يوجد في الإسلام إلا عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وإن غيرهما من الأعياد المحدثة بدعة في الدين.

➢ **خامسًا:** تحريم تهنئة الكفار بأعيادهم؛ كقول: عيدكم مبارك أو ليهنكم عيدكم ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، فمن هنأ عبدًا بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه، وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء

---

(١) انظر: التفسير المنير (٧/١١٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/٢٣٢)، وانظر: تأملات في سورة «المائدة» لحسن باجودة، ط. نادي مكة ص(٤٧٤).

والتدريس والإفتاء؛ تجنبًا لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن ابتلي الرجل فتعاطاه دفعًا لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم ولم يقل إلا خيرًا ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك[1].

➢ **سادسًا:** كفران نعمة المائدة وجحودها (كآية) من قبل بني إسرئيل شيء آخر يضاف إلى رصيدهم من قبل، وفي الإسلام نهى الله عباده أن يسألوا عن أشياء غيبية أو خفية أو ما لا فائدة فيه أو عن تكاليف سكت عنها الشرع؛ لئلا يشدد عليهم فيها، أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[2].

➢ **سابعًا:** بيان جرائم اليهود، وأنهم قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا؛ حيث رموها بالفاحشة، لعنهم الله! ثم ادعوا قتل المسيح ﷺ، فكذبهم الله في ذلك كله فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[3] [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧].

ولذلك استحقوا غضب الله بتسليط أعدائهم عليهم بتقتيلهم وتشريدهم في الأرض[4]، فعلى المسلم أن يتنبه لمكائدهم فيما يبثونه في وسائل الإعلام من التعدي على مقام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

➢ **ثامنًا:** بطلان عقيدة النصارى في أن عيسى ﷺ صُلب وقتل، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى ﷺ فهم مؤاخذون على قصدهم؛ حيث صلبوا وقتلوا من ظنّوه عيسى ﷺ[5].

➢ **تاسعًا:** الحقيقة التى ستمر لا محالة على كل يهودي ونصراني حين الموت ووقت رؤية الملك عندها يؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولكن لا ينفعهم ذلك؛ لأنه إيمان اليأس وقت الاحتضار.

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (٢/ ٩٧٥)، برقم [١٣٣٧].
(٣) انظر: ما كتب عنهم عند الحديث عن عقوبات بني إسرائيل في سورة «الإسراء».
(٤) أيسر التفاسير (١/ ٥٧٢). (٥) المصدر السابق (١/ ٥٧٢).

روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1].

وسيفاجأ النصارى يوم القيامة بشهادة عيسى عليه السلام المتضمنة تكذيب من كذبه، وتصديق من صدقه، وبراءته من ادعاء النصارى أنه ابن الله أو أنه هو الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا!![2].

❖ ❖ ❖

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، برقم [٦٥٠٧].

(٢) انظر: «التفسير المنير» (٦/ ٢٤).

عقوبة صاحب الجنتين

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت ذلك

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٤].

● **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا**: اختلف في القوم الذين ضرب لهم المثل، والأقرب أنه مثل ضربه الله لجميع من آمن بالله وجميع من كفر[(١)]، وأما الرجُلان فقد روي عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما من بني إسرائيل وهو الظاهر[(٢)]؛ لما عُلم من سياق قصتهما في

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٣٩٩).

(٢) انظر: (تفسير الماوردي) (٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، تفسير زاد المسير (٥/ ٩٧)، تفسير البيضاوي =

سورة «الصافات» حين بين حالهما في الآخرة[1].

> **ثانيًا:** من سياق القصة قد يظنّ أن حال الرجلين المضروب بهما المثل حال مفروض، والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب؛ مثل قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [الكهف: ٣٧]. . . إلخ، فقد جاء «قال» غير مقترن بفاء، وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة، فيكون هذا المثل قصة معلومة؛ لأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية[2].

> **ثالثًا:** ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣]، فهنا ترى أنه ثنّى الجنتين، وبعدها بقليل قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ [الكهف: ٣٥]، فكيف أفرد بعد التثنية؟.

والجواب: أنه أفردها ليدل على الحصر، ومعناه: ودخل ما هو جنته لا جنّة له غيرها، ولا نصيب له في الجنّة التي وعد المتقون؛ بل ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد جنّة معينة فيهما؛ بل جنس ما كان له[3].

> **رابعًا:** في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، يرد سؤال هو: كيف ينكر البعث ويحكم أنه يعطى خيرًا منهما؟.

والجواب: أن المعنى: ولئن رددت إلى ربي ـ على قولك[4] ـ وقد أعطاني في الدنيا فهو يعطيني في الآخرة.

> **خامسًا:** في هذه السورة قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وفي سورة «فصلت» قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، لك أن تسأل: قوله في الآية الأولى: «رددت» وفي الثانية «رجعت»، وهل كان يجوز إحدى اللفظتين مكان الأخرى في الاختيار؟

والجواب: أن في لفظ (الرد) من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ (الرجوع)، فلما كان الأول الذي قال: «ولئن رددت» ينقل عن جنته على غير ما يجب كان استعمال اللفظ الدال على الكراهة أولى.

= (٢/ ١١)، وانظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٦) م٧.

(١) عند قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١].

(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٢٩٩).

(٣) معاني القرآن الكريم للنحاس (٤/ ٢٤١).

(٤) ومعنى على قولك: أي على سبيل الفرض والتقدير.

أما الثاني الذي قال: «ولئن رجعت» فإنه لم يتقدمها[1] مثل ما تقدم في قوله: «ولئن رددت» من الكراهة ليقع في كل سورة ما يليق بها[2].

➢ **سادسًا**: قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٣٨].

وهذا تعريض، فإن أخاه مشرك وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشرك؛ بل الكفر؛ وهو قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٦]؟.

والجواب: إشراك أخيه حين اعتقد أن جنته وزكاءها بحوله هو وقوته؛ لا بقوة أحد غيره، يدل على ذلك قوله أخيرًا: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ﴾ [الكهف: ٤٢]، فاعترف بالشرك[3].

➢ **سابعًا**: في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ يرد بحث وسؤال هو:

أن «**لكنّا**» أصله (**لكنْ أنا**) فحذفت الهمزة، وألقيت حركتها على نون (**لكن**)، فاجتمعت النونان، وأدغمت نون (**لكن**) في النون التي بعدها. فإن قيل: (**لكن**) استدراك لماذا؟ قلنا: لقوله: «**أكفرت**»، كأنه قال لأخيه: أكفرت بالله! لكني مؤمن موحد[4].

➢ **ثامنًا**: في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠﴾ [الكهف: ٣٩]، ما فائدة أنا هنا؟

والجواب: أن «أنا» في مثل هذا الموضع يفيد حصر الخبر في المخبر عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

➢ **تاسعًا**: إن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]؟

فالجواب: أنّ (دون) تستعمل في كلام العرب بمعنى (غير)، وبمعنى (قبل)، فأما ما جاء بمعنى غير فمثل (لفلان مالٌ دون هذا)، من دون هذا؛ أي: غير هذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]؛ أي: من غيره، وهي هنا بمعنى (غير).

---

(١) لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: ٤٩].

(٢) انظر: درة التنزيل ص(٢٢٦، ٢٢٧)، البرهان في متشابه القرآن.

(٣) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٠٠).

(٤) تفسير الرازي (٢١/١٢٦)، وانظر: التحرير والتنوير (١٥/٣٢٢، ٣٢٣).

وما أتى بمعنى قبل مثل (المدينة دون مكة)؛ أي: قبلها.

لا أقوم من مجلسي دون أن تجيء، ولا يوجد في القرآن بمعنى (قبل)؛ إنما بمعنى (غير)[1].

➢ **عاشرًا**: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤]؛ أي: يوم القيامة، والولاية: (بكسر الواو) الملك والسلطان، وبفتح الواو: التولي والنصرة، وكل ذلك لله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة، فما فائدة تخصيص يوم القيامة؟

والجواب: فائدته أن الدعاوَى المجازية؛ مثل صفة الملك والرحمة والرزق وغيرها كثيرة في الدنيا، ويوم القيامة تنقطع كلها، ويسْلمُ الملك لله ـ تعالى ـ عن كل منازع[2].

➢ **الحادي عشر**: في قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، يرد سؤال هو:

أي عاقبة هي وغير الله لا يثيب ليكون الله ـ تعالى ـ خيرًا منه ثوابًا؟

والجواب: هذا على الفرض والتقدير؛ معناه: لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيرًا من طاعة غيره[3].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

الشرك بالله، والكبر، واحتقار الفقراء، وإنكار البعث والجزاء

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن

(١) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٣٠٠، ٣٠١).
(٢) المصدر السابق ص(٣٠١).
(٣) المصدر السابق ص(٣٠١، ٣٠٢).

زُدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى
خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا
﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا
وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤١].

هذا مثل ضربه الله للمشركين وأمثالهم من المستكبرين الذين أرادوا من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وهو للمؤمنين عبرة.

وهذان الرجلان أحدهما مؤمن معتز بإيمانه، صادق في نصح إخوانه وأقرانه، والثاني كافر مغرور بدنياه، آتاه الله خيرًا كثيرًا، كان منه جنتان محفوفتان بنخل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر. إنه منظر بهيج، ترتاح لرؤيته النفوس ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، ولكن الرجل هو الذى ظلم نفسه، فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر، فقال يومًا لصاحبه وهو يحاوره ـ شأن كل غني مغرور مع مؤمن فقير ـ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، ثم دخل جنته وهو ظالم لنفسه، معجبٌ بما أوتي، مفتخرٌ به، كافر بالنعمة، ظانٌّ أن هذه الجنة المثمرة لن تبيد أبدًا، منكرٌ قيام الساعة أصلًا، مقسمٌ بأنه لو رجع إلى ربه على سبيل الفرض أو كما يزعم هذا الذى ينصحه فإنه سيجد الرعاية والعناية، فصاحب الجنان في الدنيا ـ كما يظن ـ هو صاحبها في الآخرة، ولربما زلت من بعض الجهلة كلمة فقالوا كما قال صاحب الجنتين أو كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، أو قال غيره: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، أو كما قال غيره ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، هذه حال المغرورين المعجبين بما هم عليه من زخرف الدنيا، وما علموا أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وإلّا لما سقى منها كافرًا جرعة ماء(١).

فما كان من المؤمن الفقير (صاحبه) إلا أن ذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، محذرًا ومنذرًا له عاقبة بطره وتكبره، فما عند الله خير منها وأبقى، وخير من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١١٢، ١١٣).

أعراض الدنيا وزخارف الحياة وحيوية المال والمتاع، فمن كان طامعًا فيما عند الله فليكن طائعًا قبل أن تحل نقمته بعد نعمته، وعذابه بعد رحمته.

فما كان منه إلا أن عصى وتجبر وأدبر واستكبر، فدعا عليه صاحبه بقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ [الكهف: ٤٠ ـ ٤١]، لكونها أطغته وغرته، واطمأن إليها، فلعله يراجع رشده، ويتبصر في أمره.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: ٤٢ ـ ٤٤].

وحدث ما توقعه الرجل المؤمن؛ حيث تحقق ما كان يرجوه، أحيط بثمره كأنما أخذ من كل جانب، فلم يسلم منه شيء، إنه مشهد مؤثر؛ الجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة لا تكاد ترى منها شيئًا يصلح.

يراها صاحبها فيتملكه الفزع والتحسر، يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع وجهده الذاهب بين عشية وضحاها، الغني أصبح فقيرًا، القوي أصبح عاجزًا عن دفع ما حصل، إنه نادم على إشراكه بالله، يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، وذلك أنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن، فعلم أن هلاك ثمر بستانه سببه شركه وكفره بربه، ويتمنى الآن أنه لم يشرك بالله حتى تسلم له جنته؛ ولكن فات وقت التمني ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]، إذ هو القادر وحده على دفع العذاب، الذى لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه لم يقدروا.

ولا يُستبعَد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله ورزقه الله الإنابة، بدليل أنه أظهر الندم، وذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه الله في دنياه، وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام

والعقول، ولاينكره إلا ظالم جهول[1].

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، لمن كان مؤمنًا به تقيًا كان له وليًا يكرمه بأنواع الكرامات، ويدفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه فقد خسر دينه ودنياه، وأغضب مولاه، فيا لسوء عاقبته في أخراه![2].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة منها

> **أولًا**: قصة الرجلين ضربت مثلًا مع حقيقة وقوعها للوصول بمعانيها الخفية إلى الأذهان.

وذلك أن قصتهما تُضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من النّاس، فصاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى المالك الحقيقى لها وهو الله، فيحسب أنها لا تفنى، وإن رجع إلى الله ـ كما هو غير متوقع عنده ـ فسيجد أفضل مما هو فيه؛ لأنه الأولى.

وأما صاحبه المعتز بإيمانه فهو النموذج الآخر الذاكرُ لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة للحمد والثناء لمسديها؛ لا لكفرانه وجحوده[3].

ومن هنا نأخذ أنه لا دلالة على أن كثرة مال الإنسان أو قلته دليلٌ على إكرامه أو إهانته؛ لأن الله يعطي المال الكثير للمؤمن والكافر، وكل ذلك إنما هو للابتلاء والاختبار، ثم إنه لا دلالة في هذا العطاء سواءً كان كثيرًا أو قليلًا على الإهانه أو الإكرام[4]؛ إنما ليظهر مدى شكر العبد في حال غناه، ومدى صبره في حال فقره، وهذا ما لم يفقهه صاحب الجنتين. فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ الاستشهاد بمثل هذا القصص على تقريب المثل المعقول بالمحسوس؛ وخاصة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٠).
(٢) انظر: المصدر السابق (٣/ ١٦٠، ١٦١).
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ٢٢٧٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٤)، وانظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٣٠٥).

في مثل هذه الأيام التى طغت فيه المادة، وكثر الأغنياء وبخلوا في إخراج زكاة أموالهم ووضعوها في غير محلها إلا من رحم الله.

> **ثانيًا**: نعمة الإيمان والتقوى لا تقدر بثمن، فمن أوتيها لا يتأثر بفقر ولا غنى؛ لأنه يملك ما هو أعز وأفضل من المال والأولاد؛ ولهذا لا يتزعزع إيمان المؤمن إذا افتقر هو واغتنى الكافر؛ فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، ولأن الغنى والفقر مما يمتحن الله به عباده، ولا يجوز للعبد أن يعترض على الاختبار الذى يبتلي الله به عباده، فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ غرس مثل هذه الأمور في نفوس مدعويهم؛ لئلا يظن أحدٌ أن المال هو السعادة كلها وهو الحياة، فكم من غني افتقر، وكم من فقير اغتني، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

على هذا فإن الاعتبار بحال من أنعم الله عليهم نعمًا دنيوية فألهتهم عن آخرتهم وأطغتهم وعصوا الله كان مآلها الانقطاع والحرمان منها، وأن من تمتع بها قليلًا فإنه يحرمها طويلًا(١).

> **ثالثًا**: على المؤمن ألا يستكين أمام عزة الغني الكافر، وعليه نصحه وإرشاده إلى الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته، وشكر نعمه وأفضاله عليه(٢) حتى وإن تعرض للأذى؛ لأن المؤمن الداعية همه هداية الناس مهما كانت مناصبهم ووجاهتهم.

> **رابعًا**: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، قال القرطبي(٣): «قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا». وقال ابن وهب(٤): «قال لي حفص بن ميسرة(٥): رأيت على باب

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦١). (٢) التفسير المنير (١٥/ ٢٥٧).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ٤٠٦).

(٤) ابن وهب هو: عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم، أبو محمد المصري الفقيه، ثقة حافظ عابد، قال عنه الإمام أحمد: ما أصح حديثه وأثبته. مات سنة سبع وتسعين (٩٧). انظر: الجرح والتعديل (٥/ ١٨٩، ١٩٠)، التقريب ص(٣٢٨).

(٥) حفص بن ميسرة العقيلي، أبو عمر الصنعاني، نزيل عسقلان، وثقه ابن أبي حاتم، =

وهب بن منبه مكتوبًا ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]». وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «**ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟**» قلت: بلى، قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قالها العبد قال الله** ﷻ: أسلم عبدي واستسلم»[(١)]. أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى وفيه قال: «**يا أبا موسى، أو يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة - في رواية - على كنز من كنوز الجنة؟**» قلت: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»[(٢)].

ومما يدفع الإصابة بالعين قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كما في الآية ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

روى هشام بن عروة[(٣)] عن أبيه[(٤)] أنه كان إذا رأى شيئًا يعجبه أو دخل حائطًا من حيطانه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله[(٥)].

➢ **خامسًا**: مشروعية الدعاء على الكفار إذا دُعوا فلم يستجيبوا، كما في قوله: ﴿فَعَسَىٰ[(٦)] رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[(٧)] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ الآيات [الكهف: ٤٠].

= وقال عنه في التقريب: ثقة ربما وهم. قال عنه الإمام أحمد: ليس به بأس ثقة. مات سنة إحدى وثمانين (٨١). انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣/ ١٨٧)، التقريب ص(١٧٤).

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٤٠٦). والحديث رواه أحمد (٢/ ٣٣٣)، برقم [٨٣٨٧]. ورواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله (٥/ ٥٨٠)، برقم [٣٦٠١]. قال أبوعيسى: ليس إسناده بمتصل، لأن مكحولًا لم يسمع من أبي هريرة. له شواهد من حديث سعد بن عبادة، برقم [٣٥٨١]، ومن حديث أبي موسى الأشعري، برقم [٣٤٦١]. وصححه الألباني لكثرة شواهده في الصحيحة، برقم [١٥٢٨].

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله (٤/ ١٧٤)، برقم [٦٤٠٩]. ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٦)، برقم [٢٧٠٤].

(٣) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، ثقة إمام في الحديث، روى له الأئمة الثوري ومالك وشعبة وغيرهم، مات سنة خمس أو ست وأربعين. انظر: الجرح والتعديل (٩/ ٦٣ - ٦٤).

(٤) الزبير بن العوام: الصحابي الجليل المعروف.

(٥) زاد المعاد (٤/ ١٧٠).

(٦) «عسى» للرجاء؛ وهو طلب الأمر القريب الحصول، وأراد به هنا الدعاء لنفسه وعلى صاحبه الكافر المشرك. انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٤).

(٧) حسبانا: أي عذابًا من السماء، ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ أي: أرضًا ملساء لا يثبت فيها قدم. =

➢ **سادسًا**: على الدعاة إلى الله - تعالى - تبصير الناس بعاقبة من جعل ماله وثروته وسيلة إلى احتقار المؤمنين الفقراء، ووسيلة لمحاربة الله ورسوله بالربا، ووسيلة إلى إعانة الكفار بها بتخزينها في مصارفهم ومؤسساتهم وبنوكهم، أو أي وسيلة أخرى لا ترضي الله - تعالى - أن عاقبتها الخسران؛ إما في الدنيا بتلفها، أو في الآخرة بالحساب عليها، وإذا نزل البلاء فإنه لا مفر منه، ولن تستطيع قوة في الأرض على دفعه أو رفعه، ألا ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]!

➢ **سابعًا**: الدنيا جنة للكافر يتمتع فيها بما شاء من ملذات وشهوات، ويجمع المال لذلك من حله وحرمته ليقضي وطره ظانًا أن الحياة الدنيا هي المتعة، فإذا مات انقطعت متعته، كما قال الله على لسان الكفار: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر**»[(١)].

قال النوري في شرحه: «معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، فكُلف فعل الطاعات الشاقة[(٢)]، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعدّ الله - تعالى - له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد»[(٣)].

➢ **ثامنًا**: يستفاد من ذكر الصاحب في القصة جواز صحبة المؤمن للكافر؛ ولكن يشترط ألا يتأثر المؤمن بهذه الصحبة، وأن يبقى ثابتًا على إيمانه، وأن ينكر على صاحبه الكافر إذا نطق أو عمل ما يستوجب الإنكار، وأن يكون قصده العمل على إصلاحه وهدايته قدر طاقته، أما إذا كان المؤمن لا يقوى على صحبة الكافر، وخاف على إيمانه بسبب هذه الصحبة، وبسبب ما يراه من مغريات

= انظر: تفسير ابن جرير (١٨/ ٢٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٨٩).

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٢)، برقم [٢٩٥٦].

(٢) الشاقة: ليست من باب تكليف ما لا يطاق، وإنما من باب حديث «... وإسباغ الوضوء على المكاره»، ومن باب حفت الجنة بالمكاره؛ ومعناه: لا يوصل إلى الجنّة إلا بارتكاب المكاره. مسلم (٤/ ٢١٧٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/ ٩٣).

وفتن، فإنه لا يجوز له أن يستمر في صحبته، فعلى الدعاة أن يلاحظوا ذلك جيّدًا؛ لتكون صحبتهم في الأصل للمؤمنين؛ حيث يُتقوى بهم، ويُطمأن إليهم، أما الكفار فلا يصاحبون إلا بمقدار ما ذكرنا من حب هدايتهم وإنكاره عليهم إذا صدر منهم ما يدعو إلى ذلك[1].

❖ ❖ ❖

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٦١٠).

عقوبة أصحاب الجنة

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت عقوبتهم

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٣٣].

- **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا:** المال والبنون نعمة عظيمة امتن الله بها على عباده، فمن أعطيها وجب عليه شكرها وصرفها فيما يرضي الله ﷻ فإن لم يفعل فإن الله يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات إما عاجلًا أو آجلًا، والآية الأولى ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا دعت مناسبة قوله قبلها: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤ ـ ١٥]، وفي الآية ضرب الله للمشركين مثلًا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم ينتبهون من غفلتهم وغرورهم. كما ضرب المثل بما ذكرناه سابقًا في سورة الكهف، وضرب مثلًا بقارون في سورة «القصص»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٧٩).

➢ **ثانيًا**: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٨]؛ أي: ولا يقولون: إن شاء الله، فسمى الشرط استثناء، فكيف؟

والجواب: إنما سماه استثناءً لأنه في معناه[١].

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام[٢].

وقال عكرمة: «المراد به حقيقة الاستثناء»؛ أي: أنهم لا يستثنون حق المساكين، والجمهور على الأول[٣].

➢ **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]، أن الطائف لا يكون إلا بالليل، يدل عليه قوله بعده: «وهم نائمون» وهو تأكيد لوقت الطائف، وفائدته تصوير الحالة.

ثم إنه أسند فعل «طاف» إلى «طائف» ليكون بمنزلة إسناد الفعل المبني للمجهول، كأنه قيل: فَطِيفَ عليها وهم نائمون[٤].

➢ **رابعًا**: في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥]، إن كلمة «حرد» تطلق على عدة معان: ١ ـ المنع. ٢ ـ السرعة. ٣ ـ الغضب.

وفي إيثار كلمة «حرد» على غيرها نكتة من نكت الإعجاز وهي: أن كلمة «حرد» يكون لها معنى (المنع) إذا تعلقت بـ قادرين، فيكون المعنى: أي قادرين على المنع؛ أي: منع الخير، أو منع ثمر جنتهم.

ويكون معناها (السرعة) إذا تعلقت بـ «غدوا» مبينًا لنوع الغدو؛ أي: غَدَوْا غدوَّ سرعة واعتناء، فتكون «على» بمعنى المصاحبة؛ والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط.

ويكون معناها (الغضب والحنق) إذا قيل: (حَرَدَ) بالتحريك، وحَرْد بسكون الراء، إذا تعلقت بالمجرور بـ «قادرين» وتقديمه للحصر.

فيكون المعنى: غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين؛ لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم، فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها؛ أي:

---

(١) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨١).

(٣) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨١).

لم يقدروا إلا على الغضب والحنق، ولم يقدروا على ما أرادوا من اجتناء ثمر الجنة[1].

➢ **خامسًا:** قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]؛ أي: لولا تستثنون، فكيف سمى أوسطهم الاستثناء تسبيحًا؟

والجواب: إنما سماه تسبيحًا لاشتراكهما في معنى التعظيم. هذا **أولًا**.

ثانيًا: إن استثناءهم هو قول: سبحان الله.

ثالثًا: إن معناه: لو تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء[2].

و«أوسطهم» أفضلهم وأقربهم إلى الخير، والوسط يطلق على الأخير الأفضل، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

➢ **سادسًا:** إن في قوله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، إشارة إلى أنه وعظهم فعصوه وأجبروه على أن يقسم معهم على صرمها مصبحين، والدليل أنهم سبحوا وندموا على الأخذ بنصيحته فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، فيكون التسبيح على ظاهره[3].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

العزم على حرمان المساكين حقهم

القصة باختصار:

اعتاد المساكين أيام والد أصحاب الجنة أن يكون لهم حظ في ثمرها حين حصادها، وها هو قد مات وقد ضاق الورثة ذرعًا بهؤلاء المساكين، وآن الأوان في وضع حدٍّ يقطع مجيئهم، فأقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون شيئًا للمساكين، ولا يقولون: إن شاء الله، فنصحهم ناصح منهم فأبوا النصيحة، فنزل

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

(٢) تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٢٣).

(٣) فيكون المعنى الثاني أقوى المعاني الثلاثة السابق ذكرها عاليه.

على إرادتهم مكرهًا، وعقدوا العزم على تبييت نيتهم السيئة ليصرمنها بدون علم المساكين، وظنوا أنهم قادرون على منعهم، وناموا ولكن الله لا ينام يدبر غير ما يدبرون، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنها دُمرت بعذاب ليلي ذهب بكل ثمرها فأصبحت كالليل الأسود لاحتراقها، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضًا ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢]، فانطلقوا يوصي بعضهم بعضًا ويحمس بعضهم بعضًا يتحدثون؛ ولكن في خفية؛ ليجتاحوا الثمر كله، ويأتي المساكين فلا يجدون شيئًا، ويمضون في سرعة ويصلون ولكن كانت المفاجأة رأوها، ولكن يا ليتهم ما رأوها ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، الطريق، ما هذه جنتنا! الطريق هي الطريق؛ ولكن الجنة ليست هي! ويعودون فيوقنون أنهم محرومون من ثمارها ومن أجرها، هنا يعود الناصح الأول ويقول لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، هنا تستيقظ فطرتهم فيقولون بعد فوات الأوان: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، لسوء نيتنا وتدبيرنا، لكن من الذي بدأ وأشار بهذا القول؟ ومن سمع له وأصغى؟ إنهم هم جميعًا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، ثم يرجعون إلى صوابهم فيعترفون بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣١]، لكن عسى الله أن يغفر لنا ويعوضنا ما هو خيرٌ منها ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢] متجهون إليه بقلوبنا، عاقدون العزم على ذلك بصلاح نياتنا، وها نحن نطلب منه الخير، ونرجو منه العفو عما فرط منا والتعويض عما فاتنا[1].

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩ - ٢٠]؛ أي: عذاب نزل عليها ليلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾، فأبادها وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتْ

(١) عند القرطبي: ذكر أن ابن مسعود قال: «إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم جنة يقال لها: «الحيوان». قال أبو خالد اليماني: «دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم». انظر: القرطبي (١٨/ ٢٤٥)، والنسفي (٤/ ٢٨٢)، انظر: اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص (عمر بن علي الدمشقي الحنبلي) (١٩/ ٢٩٣)، الألوسي (٢٩/ ٣٣)، والتحرير والتنوير (٢٩/ ٨٩).

﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ أي: كالليل المظلم[1] مسودة محترقة قد ذهبت أشجارها وثمارها، فلما رأوها علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم، عندها أظهروا ندمهم[2].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من ذلك

➢ **أولًا**: في القصة أدب رفيع سام؛ وهو أن من كان له من الزرع أو الثمر ما يجذ ينبغي أن لا يجذه ليلًا حتى لا يحرم الفقراء من الأكل منه، وعليه أن يواسي من حضر الجذاذ والقطع شيئًا يسيرًا من ذلك، كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[3] [النساء: ٨].

➢ **ثانيًا**: المعاصي سبب لعقاب الله الدنيوي.

لأن من سنة الله أن المعاصي من أسباب حلول المصائب والنكبات التي يمكن اعتبارها من أنواع العقاب في الدنيا.

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[4] [الشورى: ٣٠]».

* قال ابن كثير: «أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها؛ بل يعفو عنها»[5]، فلا يعاقبكم عليها عاجلًا، قيل: وآجلًا.

ألا فليحذر الداعون إلى الله ـ تعالى ـ من ارتكاب المعاصي حتى يكون

---

(١) كما روي ذلك عن ابن عباس وقتادة ذكره السيوطي في الدر (٦/ ٣٩٥)، وانظر: تفسير ابن جرير (٢٣/ ٥٤٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٠).

(٣) وانظر الكلام في ذلك عند القرطبي (١٨/ ٢٣٩).

(٤) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص(٣١).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٥).

لدعوتهم نورٌ في قلوب مدعويهم، وإذا أذنبوا فعليهم الإسراع بالتوبة والاستغفار.

➢ **ثالثًا:** في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ١٨] دليل على أن العزم الأكيد يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يحرموا الفقراء نصيبهم فعاقبهم الله على فعلهم.

وبذلك يتبين أن الإنسان إذا عزم على فعل الشر أو على منع الغير حقه أو نحو ذلك من المعاصي القلبية فإنه يؤاخذ عليها.

ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1]. ومعناه هنا: العزم على قتل صاحبه.

وعند الترمذي وصححه مرفوعًا «**إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل أعطاه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فأجرهما سواء. ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل. ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء**»[2]...

* قال القرطبي[3]: «ولا يلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يهم الإنسان به وإن وطن عليه لا يؤاخذ به، ولا حجة له في قوله ﷺ: «**من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت سيئة واحدة**»[4]. لأن معنى (فلم يعملها): فلم يعزم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: ٣٢]، (٤/ ٢٦٧)، برقم [٦٨٧٥]، ورواه أيضًا في كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما (٤/ ٢٢١٣)، برقم [٢٨٨٨].

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، وقال: هذا حديث حسن صحيح. كتاب الزهد، باب (١٧) ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٣/ ٥٦٢، ٥٦٣)، برقم [٢٣٢٥].

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢١٥).

(٤) جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٤/ ١٨٩)، برقم [٦٤٩١]، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة وإذا هم بسيئة لم تكتب (١/ ١١٧)، برقم [١٢٨].

على عملها، بدليل حديث البخارى (إذا التقى)، وحديث الترمذي (إنما الدنيا..)».

➢ **رابعًا**: يستدل بهذه القصة على أن من تعمد نقص النصاب قبل الحول للفرار من الزكاة، أو خالط غيره، أو فارقه قبل الخلطة، أو فرق ماله، فإن ذلك لا يسقط الزكاة عنه، ووجه ذلك: أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم[1].

➢ **خامسًا**: مشروعية الاستثناء في اليمين، وأنه تسبيح لله - تعالى -، وأن تركه يوقع في الإثم؛ ولذا إذا حنث الحالف ولم يستثن وقع في الإثم الذى لا يمحى إلا بالكفارة الشرعية التي حددها الشارع[2].

➢ **سادسًا**: صلاح الآباء ينفع الأبناء؛ ولذا انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذى كان يتصدق على المساكين، وعلامة ذلك انتفاعهم بالتوبة[3]، فمن أراد صلاح ذريته من بعده فما عليه إلا أن يتقي الله - تعالى - ويخشاه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وقوله تعالى في قصة الغلامين اليتيمين اللذين بنى الخضر عليه السلام جدارهما: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ الآية [الكهف: ٨٢]، فما أجمل أن يكون العبد صالحًا فيحفظه الله في نفسه وفي ذريته من بعده!.

➢ **سابعًا**: الثبات على الحق منّة وتوفيقٌ من الله يثبت به أولياءه، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فإذا علم ذلك وجب على صاحب الحق الثبات عليه وإن كثر المخالفون والمبطلون والمرجفون، وعليه أن يدافع عن مبدئه بكل ما أوتي من وسيلة، مع بيان الحق بالأدلة الدامغة من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح، ولا

---

(١) تفسير القاسمي (١٦/ ٢٦١)، التحرير والتنوير (١٤/ ٨٩).
(٢) وهي أي الكفارة: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فإن لم يقدر على واحدة منها صام ثلاثة أيام. انظر أيسر التفاسير (٥/ ٤١٣).
(٣) المصدر السابق (٥/ ٤١٣).

يسكت حتى لا يظن أنه موافق لهم، فإن رجعوا للحق فالحمد لله، وإن استنكفوا عنه فإن عليه أن يعتزلهم، استفدنا ذلك من نصح أوسطهم لهم حين قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، الدال على أنه نصحهم؛ لكنهم غلبوه فخرج معهم مكرهًا.

وعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ توحيد كلمتهم ومعتقدهم المبني على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة السلف الصالح، والابتعاد عن التفرق والتحاسد والجدال بالباطل، فإن اختلفوا في شيء ردوه إلى الله والرسول وإلى أولي الأمر منهم من علماء ومصلحين، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الآية [النساء: ٨٣].

❖ ❖ ❖

عقوبة أصحاب الأخدود

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تناولت ذلك

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ ـ ١٠].

- **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا**: على قول من قال: إن جواب القسم ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ يكون المعنى: أقسم الله ـ تعالى ـ بالسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود(١).

➢ **ثانيًا**: السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان(٢)، وإشعار المسلمين أن قوة الله عظيمة، وسيلقى المشركون جزاء صنيعهم.

➢ **ثالثًا**: في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧]، جملة في موضع الحال من الضمير ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦]؛ كأنه قيل: قعود شاهدون على فعلهم بالمؤمنين، وفائدة هذه الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيم جرمه؛ إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين دون رحمة بهم(٣).

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (٤/ ٧٢٩)، التفسير الكبير (٣١/ ١١٦).
(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٧٣٠)، انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٦).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٣).

➢ رابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨ - ٩]، إجراء الصفات الثلاث (العزيز، الحميد، الذي له ملك السموات والأرض) على اسم الجلالة لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم؛ بل هو حقيق بأن يمدحوا به؛ لأنهم آمنوا برب يحب الإيمان به ونبذ ما عداه؛ لأنه ينصر مواليه ويثيبهم، ولأنه يملكهم، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئًا[(١)].

➢ خامسًا: آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، ليست خاصة بأصحاب الأخدود ولا بكفار قريش؛ وإنما هي عامة في كل من يفتن المؤمنين والمؤمنات في دينهم إلا من تاب قبل موته.

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة: فتنتهم للمؤمنين وتعذيبهم

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٤ - ٩].

هذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا وأضرموا فيها النيران، وأعدوا لها كل ما يستطيعون من وقود، ثم جاؤوا بالمؤمنين وفتنوهم، فمن لم يرجع عن دينه قذفوه فيها لقساوة قلوبهم، وغلظ أكبادهم.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٧ - ٨]، ذنبهم أنهم قالوا: ربنا الله القادر على ما يريد، الحميد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٤).

المستحق للحمد، الذى من لاذ بجانبه عز وإن كان قد قدّر على عباده هذا الذي وقع بهم، فهو العزيز الذي لا يقهر، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، وقدرة المالك لجميع ما في السموات والأرض وما بينهما، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود ينتقم منه عاجلًا أو آجلًا[1].

هذا، وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟

والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات، وذكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل، والترتيب والزيادة والتعيين، وأصحها ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب أن النبي ﷺ قص هذه القصة على أصحابه[2].

روى مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٢٤١). ذكرها الترمذي في تفسير سورة «البروج» (٥/٤٣٧)، كتاب التفسير، باب ومن سورة «البروج» برقم [٣٣٤٠]. ولولا خشية الإطالة لذكرت جميع الروايات، ولكن نكتفي بما ورد في الصحيح.

الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحدًا؛ إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع النّاس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق»[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٤/ ٢٢٩٩)، برقم [٣٠٠٥].

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة(١)

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

أي: نالوا بالأذى وحرقوهم بالنار لثباتهم على إيمانهم ورفضهم العودة إلى ما كانوا عليه من الكفر، ثم لم يتب أولئك الكفرة عما فعلوه بالمؤمنين والمؤمنات، فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق في نار جهنم، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث؛ ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آبادٌ لايعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم، ومع حريق الآخرة غضب الله، فكان الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصرى: «انظروا إلى هذا الكرم

---

(١) لم ينص على العقوبة الدنيوية لا من كتاب ولا سنة صحيحة صريحة، غير أن ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى بعد ذكر الحديث الصحيح السابق ذكره أثرًا يذكر فيه أن أصحاب الأخدود عذبوا بالنار في الدنيا؛ حيث قال: حدثت عن عمار، عن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس قال: «كان أصحاب الأخدود قومًا مؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة، وإن جبارًا من عبدة الأوثان أرسل إليهم، فعرض عليهم الدخول في دينه، فأبوا، فخد أخدودًا وأوقد فيه نارًا، ثم خيرهم بين الدخول في دينه، وبين إلقائهم في النار، فاختاروا إلقاءهم في النار على الرجوع عن دينهم، فألقوا في النار، فنجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق، بأن قبض الله أرواحهم قبل أن تمسهم النار، وخرجت النار إلى من على شَفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم، فذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا. تفسير ابن جرير (٢٤/ ٣٤١)، تفسير الرازي (٣١/ ١٣١)، وللأثر متابعة عند ابن أبي حاتم، فقد تابع عمارًا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي به (١٠/ ٣٤١٣).

وهذا الاستدلال يعترض عليه بأن في الآية قرينة؛ وهي أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم وهي: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة، وجاء بـ (ثم) التي هي للتراخي، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقامًا منهم حالًا، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة، وإلا فلهم العذاب المذكور في الآخرة. و الله أعلم. انظر: أضواء البيان (٩/ ١٤٥).

والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[1].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة منها

➢ **أولًا:** أعلم الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين من هذه الأمة ما حصل لأصحاب الأخدود من عذاب في الدنيا على أيدي الطغاة يؤنسهم بذلك، ويذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه وبذل نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار[2].

➢ **ثانيًا: حكم إفشاء السر تحت وطأة التعذيب.**

رأينا في القصة أن الرجل الأعمى الذي رد الله عليه بصره قد أفشى السر تحت التعذيب حين دل على الغلام، والغلام كذلك دل على الراهب، فقتل الراهب، وقتل الأعمى، ثم قتل الغلام حين دلهم على طريقة قتله، فما حكم فعلهم ذلك؟

والجواب: أنه لا يجوز للمكره أن يدفع عن نفسه القتل بقتل غيره؛ لأن التسبب في قتل الغير عمدًا كبيرة من الكبائر، ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في الصبر على التعذيب حتى فارقوا الحياة دون أن يتنازلوا قيد أنملة لأعداء الله؛ أمثال: خبيب بن عدي حين عذبه أهل مكة حتى قتل، وحبيب بن زيد حين عذبه مسيلمة الكذاب ثم قتله وغيرهم.

* قال القرطبي: «أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية، أما من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان[3]، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]».

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠)، في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧٤).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٩٣). (٣) المصدر السابق (١٠/ ١٨٢).

➢ **ثالثًا**: في قصة الغلام عدد من العبر نلخصها فيما يلي[1]:

١ ـ أن السحر بالتعلم، وتعلمه كفر كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وحده في الإسلام القتل، كما في الحديث «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[2]، وكما جاء في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه «اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال الراوي: فقتلنا ثلاث سواحر»[3].

٢ ـ إمكان اجتماع الخير مع الشر إذا كان الشخص جاهلًا بحال الشر، كاجتماع الغلام مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر.

٣ ـ إمكان حدوث خوارق العادات على أيدي دعاة الخير لبيان الحق والتثبيت في الأمر، كما قال الغلام: «اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر»؟

٤ ـ أن الغلام كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب؛ إذ قال: «اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك»، فسأل عن أمر الراهب ولم يسأل عن أمر الساحر.

٥ ـ اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه، كاعتراف الراهب للغلام.

٦ ـ إسناد الفعل كله لله «إنما يشفي الله».

٧ ـ غباوة الملك المشرك بالله؛ حيث ظن في نفسه أنه هو الذي شفى جليسه الأعمى وهو لم يفعل شيئًا، وكيف يكون وهو لا يعلم؟

٨ ـ اللجوء إلى البطش والانتقام عند العجز عن الإقناع والإفهام أسلوب الجهلة والجبابرة.

٩ ـ غلظ قلوب الجبابرة وشدة قساوتها؛ حيث نشروا الرجلين المؤمنين وشقوهما نصفين بدون أدنى رحمة.

---

(١) انظر: أضواء البيان (٩/ ١٤١، ١٤٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الأخدود، باب ما جاء في حد الساحر (٤/ ٦٠)، برقم [١٤٦٠]. قال الترمذي: والصحيح أن هذا الحديث موقوف على رواية جندب والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم. ورواه الدارقطني (علي بن عمر) في سننه (٣/ ١١٤)، برقم [١١٢]. ورواه الطبراني (٢/ ١٦١)، برقم [١٦٦٥]. ورواه البيهقي، كتاب القسامة، باب تكفير الساحر وقتله (٨/ ١٣٦).

(٣) مسند الإمام الشافعي (محمد بن إدريس) ص(٣٨٣). ورواه أحمد (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، برقم [١٦٥٧] وسنده صحيح، صححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٣/ ١٢٣)، وشعيب الأرناؤوط وآخرون في تعليقهم على المسند (٣/ ١٩٧).

١٠ ـ منتهى الصبر الذي التزم به كل من الرجلين المؤمنين حتى فارقا الحياة، وبيان فضل الله على هذه الأمة؛ إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان.

١١ ـ إجابة دعوة الغلام، ونصرة الله لعباده المؤمنين؛ حيث قال: «اللهم اكفنيهم بما شئت».

١٢ ـ التضحية بالنفس في سبيل نشر دعوة الله؛ حيث دل الغلام الملك على الطريقة التي يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ولو كان الوصول لذلك على حياته، وعلى هذا يجوز للمسلم أن يعرض نفسه للموت إذا غلب على ظنه أن في فعله مصلحة للمسلمين، وقد كان الصحابة ينغمسون في العدو بحضرة النبي ﷺ ولا ينكر عليهم[(١)].

➢ **رابعًا**: عظم منة الله على عباده؛ حيث يدعوهم بعد فعل الذنب إلى التوبة والرجوع إليه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠]، وفي هذا تصريح بأن التوبة تسقط أثر الذنب وترفع العقوبة[(٢)].

❖ ❖ ❖

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٥/ ٢٧٩).

(٢) التفسير المنير (٣٠/ ١٦٣).

عقوبة أهل سبأ

○ المطلب الأول ○

الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

• **لطائف الآيات:**

١ ـ إن قصة أهل سبأ لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة.

٢ ـ سبأ: اسم رجل، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؛ أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «**بل هو رجل، ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحميَر، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان**»[(١)].

---

(١) رواه أحمد (١/٣١٦)، برقم [٢٩٠٠]. وذكره الطبري (٢/٣٧٥). ورواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة «سبأ» (٥/٣١٦)، برقم [٣٢٢٢] وقال: حسن غريب. وله طرق متعددة يقوي بعضها بعضًا، قال عنه ابن كثير في تفسيره (٣/٥٣٨): وهذا حديث حسن. وقال ابن حجر في الفتح (٨/٦٨٦): قلت: حديث ابن عباس وفروة صححهما الحاكم، وفروة هو ابن مسيك عند الترمذي. وانظر: تهذيب التهذيب (٨/٢٣٨). =

٣ ـ قال علماء النسب ـ منهم محمد بن إسحاق ـ:

اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وسمي سبأ لأنه أول سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم فأعطى قومه فسمي الرائش، والعرب تسمي المال ريشًا ورياشًا[1].

٤ ـ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ: ١٥]، ولم يقل: آيتان جنتان، وكل جنّة كانت آية، فلمَ؟

والجواب: لما تماثلتا في الدلالة واتحدت جهتها فيهما جعله آية واحدة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾[2] [المؤمنون: ٥٠].

٥ ـ في قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ [سبأ: ١٨]، قدمت الليالي على

= ـ مذحج: اسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. سمي مذحج لأنه ولد على أكمة باليمن يقال لها: مذحج. انظر: عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي في النسب للحازمي الهمذاني (أبي بكر بن أبي عثمان) ص(١١١).

ـ كندة: اسمه ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد (وذكره). وسمي كندة لأنه كند أباه نعمته ـ أي: كفرها ـ. المصدر السابق ص(١٠٧).

ـ الأزد: هم بنو دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

انظر: المصدر السابق ص(١٠).

ـ الأشعريون: نسبة إلى الأشعر، واسمه أنبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. انظر: المصدر السابق ص(١٦).

ـ وحمير: هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ الأصغر بن لهيعة بن حمير ابن سبأ بن يشجب. وهو حمير الأكبر، وإلى حمير بن الغوث تنسب اللغة الحميرية. معجم البلدان (٢/ ٣٥٢)، برقم [٣٩٣٣].

ـ لخم: مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن يشجب. سمي لخمًا لأنه لطم، واللخمة: هي اللطمة المصدر السابق ص(١٠٩).

ـ جذام: هي أمه، واسمه عمرو بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد.. المصدر السابق ص(٣٩).

ـ عاملة: اسمه الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب. المصدر السابق ص(٨٣).

ـ غسان: هو مازن بن الأزد بن الغوث... انظر: المصدر السابق ص(٩٨).

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢١١)، البداية والنهاية (٢/ ١٥٨)، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٢).

(٢) تفسير الرازي المسمى «أنموذج جليل» ص(٤١٨، ٤١٩).

الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع[1].

٦ ـ أشارت آية ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبأ حتى ضرب بهم المثل في قولهم: (تفرقوا أيدي سبأ)[2].

٧ ـ جمع كلمة الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

لأنه في القصه عدة آيات وعبر، ففي مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه، وفيه آية على أنه الواحد بالتصرف، وفي إرساله سيل العرم آية على انفراده بالتصرف، وعلى أنه المنتقم، وعلى أنه واحد؛ فلذلك عاقبهم على الشرك.

وفي تبدل حالهم من الرفاهة إلى الفقر آية على تقلب الأحوال وتغير العالم، وآية على صفات الأفعال لله ـ تعالى ـ من خلق ورزق وإحياء وإماتة.

وكان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات، وآية على أن الأمن أساس العمران، وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها، وفيما صاروا إليه من التروح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره[3].

٨ ـ ما سر الجمع بين صبار وشكور في الوصف؟

والجواب: لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم[4].

* * * * *

(١) التحرير والتنوير (٢٢/١٧٦).

(٢) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (١٣/١٠٥)، لسان العرب (٦/١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٨٠).

(٤) المصدر السابق (٢٢/ ١٨٠).

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

كفران النِّعمة

بعد ما ذكر الله من حال الشاكرين لنعم الله المنيبين إليه وهما داود وسليمان عليهما السلام بيّن تعالى حال الكافرين بأنعمه، بذكر قصة أهل سبأ تذكيرًا وتحذيرًا لقريش، ووعيدًا لكل من يكفر بنعم الله ـ تعالى ـ عليه.

وبداية كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وأمروا بأن يأكلوا من رزق الله ويشكروه ويوحدوه ويعبدوه، فكانوا كذلك ما شاء الله ـ تعالى ـ، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد.

وكان من خبرهم ما قصه الله علينا في سورة سبأ؛ حيث أنعم الله عليهم ببساتين عن يمينِ واديهم وشماله، وكانت مساكنهم في الوادي، وكان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه سيول أمطارهم وأوديتهم، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا حتى ارتفع الماء، فخصبت أرضهم، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، هذا الإنعام بتوحيده وعبادته وطاعته واجتناب معاصيه «بلدة طيبة» لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها، واعتدال هوائها، وطيب مناخها، والله ـ تعالى ـ المنعم عليكم بهذه النعم رب غفور لذنوبكم متى أذنبتم واستغفرتم، وقد ذكر غير واحد من السلف(١) أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل (وهو الذي تخترف فيه الثمار) فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف؛ لكثرته ونضجه واستوائه. وذكروا أنه لم يكن فيها شيء مؤذٍ لطيب هوائها(٢)، ومن مظاهر نعم الله عليهم أيضًا: أن الله لما علم

---

(١) منهم: قتادة والسدي وابن زيد وغيرهم. انظر: الدر المنثور (٥/ ٤٣٤، ٤٣٥)، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٦٥، ٣١٦٧).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٢/ ٣٧٦).

احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة؛ من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها حتى لا يحصل لهم مشقة بحمل الزاد، وهذا من تمام نعمة الله عليهم.

فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملّوها، حتى إنهم دعوا على أنفسهم، فطلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم، ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]، بكفرهم بالله وبنعمته.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾(١) [سبأ: ١٦ ـ ١٧].

وقال سبحانه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [سبأ: ١٩]، هذا هو كفر الإعراض عن توحيد الله وعبادته وطاعته وشكره على ما أنعم به عليهم، فأرسل الله عليهم سيل العرم، بأن تحطم سد مأرب، فملأ الماء الوادي، وأغرق البساتين الخضراء، ثم يبست ودفنت البيوت تلك الجنّات ذات الحدائق المعْجَبة والأشجار المثمرة إلى أشجار لا نفع فيها، فكان ذلك جزاءً لهم، والجزاء من جنس العمل،

---

(١) العرم: جمع عَرِمَة ـ بفتح الراء وكسرها ـ وهي السد الذي يحبس الماء، وعن ابن عباس: الشديد. وقال ابن الأعرابي: السيل الذي لا يطاق. وقال قتادة ومقاتل: إنه اسم الوادي. انظر: لسان العرب (٩/ ١٧٢)، معجم البلدان (٣/ ١٢٣)، وانظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٤٩١). وقد وصفه الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب ص(١٤٧، ٢٢١)، وانظر: تفسير المراغي (٨/ ٧١)، وياقوت في معجمه (٥/ ٤١) باب الميم مع الألف، التحرير والتنوير (٢٢/ ١٦٩، ١٧٠).

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بُدلوا بالنعمة فتفرقوا وتمزقوا بعد ما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أسمارًا للناس يتحدث بهم من يتحدث، ويشمت بهم من يشمت، ويتعِظ من يتعظ، فكان يُضرب بهم المثل في التفرق فيقال: (تفرقوا أيدي سبأ)؛ ولكن لا ينتفع بالعبرة إلا من قال الله فيهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها ؛بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله - تعالى - يُقِرُّ بها ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته[١]، ويعتبر بما أصاب غيره من نقمة وعذاب، فيكون صبارًا على المصائب والمكاره، شكورًا على النعم والعطايا، وهكذا كان من أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها، ولهذا قيل: (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)[٢].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبتهم

> **أولًا**: التحذير من الإعراض عن دين الله، فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم، وسلبها الله النعم، وحاسبها عليها لتهلك في الآخرة، قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

ألا فليتق الله أناس يتعمدون الإعراض عن دين الله، لا يتعلمونه، ولا يريدون تعلمه، ولا يعملون به. وقد حقق الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه المسألة فجعلها من كفر الإعراض[٣]، بدليل قول الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٤٠: ٥٤١)، انظر: تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٨٤، ١٨٥)،انظر: تفسير المراغي (٨/ ٧٠)، تفسير القاسمي (١٤/ ١٤، ١٥)، أيسر التفاسير (٤/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٧٦).

(٣) كتاب مجموعة التوحيد لأحمد بن تيمية الحراني، ومحمد بن عبد الوهاب النجدي ص(٣٣).

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

> **ثانيًا**: قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبا: ١٧]: «في هذه الآية سؤال ليس في السورة أشد منه، وهو أن يقال: لم خصّ الله - تعالى - المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ فتكلم العلماء في هذا: فقال قوم: ليس يجازى بهذا الجزاء الذي هو الاستئصال والإهلاك إلا من كفر. قال مجاهد: يجازى بمعنى: يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يُكَفِّر الله - تعالى - عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوءِ عَمِلَه؛ فالمؤمن يُجزَى ولا يُجازى؛ لأنه يثاب. وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب. وقال قطرب[1] خلاف هذا؛ حيث جعلها في أهل المعاصي غير الكّفار وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر.

وقال النحاس[2]: وأولى ما قيل في هذه الآية وأجل ما روي فيها أن الحسن قال: مثلًا بمثل. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حوسب هلك**»؛ فقلت: يا نبي الله، فأين قوله جل جلاله: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قال: «**إنما ذلك العرض، ومن نوقش الحساب هلك**»[3]، وهذا إسناد صحيح، وشرحه: أن الكافر يجازى على أعماله، ويحاسب عليها، ويُحبط ما عمل من خير، ويبيّن هذا قوله تعالى في الأول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ [سبا: ١٧]، فأما المؤمن فيجزى؛ لأنه يزاد ويتفضل عليه ولا يجازى، ألا ترى أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم﴾ ولم يقل: (جازيناهم)[4]؟

---

(١) محمد بن مستنير، أبوعلي النحوي، لقّبه أستاذه سيبويه بقطرب، له تصانيف كثيرة منها: إعراب القرآن ومجازه، والعلل في النحو، والنوادر، وغيرها. انظر: بغية الوعاة (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) النحاس: هو الإمام أبو جعفر أحمد بن إسماعيل بن يونس المرادي، المفسر النحوي، المعروف بالنحاس أو بابن النحاس، ولد بمصر وتوفي بها، إمام محقق صاحب التصانيف التي تربو على الخمسين، رحل إلى بغداد لطلب العلم، ثم عاد إلى مصر إلى أن مات بها سنة (٣٣٨ هجرية). الأنساب للسمعاني (١٣/ ٤٤)، اللباب لابن الأثير (٣/ ٣٠٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه (١/ ٥٤)، برقم [١٠٣] وأطرافه في (٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧). ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب (٤/ ٢٢٠٤)، برقم [٢٨٧٦].

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء يحيى بن زياد (٢/ ٣٥٩)، تفسير القرطبي (١٤/ ٢٨٩).

> **ثالثًا:** الشكر موجبٌ للمزيد(١)، والإجحاف في إيفائها حقها من الشكر يعرض بها للزوال، فعلى العبد الحذر من كفر النعم بالإسراف فيها وصرفها في غير مرضاة الله؛ بل على العبد شكر الله - تعالى - بقلبه ولسانه وجوارحه، فأما شكر القلب فبأن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وليست بحول أحد وقوته، وأما شكر اللسان فالتحدث بهذه النعمة، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأما شكر الجوارح فبأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه(٢)، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

> **رابعًا:** قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ الآية [سبأ: ١٩]، إنهم دعوا على أنفسهم وظلموها، فوافقت من الله الإجابة على ما هم عليه من كفران بالله ونعمته، فعلى ذلك ينبغي للمسلم الحذر من الدعاء على نفسه وعلى أولاده وأهله في وقت شدة أو ساعة غضب، فلربما وافقت من الله ساعة يستجاب فيها الدعاء.

وفي الحديث «. . . **لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة سُئل فيها عطاءً فيستجيب لكم**»(٣).

> **خامسًا:** في الآية دلالة واضحة على تأمين الطريق وتيسير المواصلات لتيسر تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق، من أجل ذلك كان حقًّا على ولاة أمور المسلمين أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد، وحراسة السبل، وتيسير الأسفار، وإقرار الأمن في سائر نواحي البلاد، فهو من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين، وما تبذل فيه أموال أهل الخير من الموسرين(٤)، لقوله ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٥).

---

(١) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم ص(١٤٤).

(٢) انظر: الأحكام من القرآن ص(٢٢٥)، وكتاب عدة الصابرين لابن القيم (فصل شكر الله تعالى) ص(١٤٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليَسَر (٤/ ٢٣٠١)، برقم [٣٠٠٩].

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ١٨١).

(٥) رواه البيهقي في سننه، باب ما على الوالي من أمر الجيش (٩/ ٤١) وبسنده عن عبد الله بن =

➢ **سادسًا**: عاقبة من بدل وغيّر بعد أن بُلّغ التدمير الشامل أو بعضه، وتغير نمط الحياة من رفاه ونعومة إلى تعب وكد وشظف وخشونة عيش، وإن فيها لعبرة ودلالة لكل صبار عن المعاصي شكور لنعم الله ـ تعالى ـ.

❖ ❖ ❖

= عمرو بن العاص. ورواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب (١٦) ما جاء في رحمة المسلمين (٤/ ٣٢٣)، برقم [١٩٣٤] وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم (٤/ ١٧٥)، ورقمه [٧٢٧٤] لما له من الشواهد. ووافقه الذهبي. وانظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني (١٠٩)، وذكره الألباني في الصحيحة، برقم [٩٢٥]. ورواه البخاري في الأدب المفرد بلفظ «ارحموا ترحموا»، باب رحمة البهائم ص(١٥١)، برقم [٢٩٣]، صحيح الأدب المفرد.

عقوبة أصحاب الرس[1]

تمهيد

أصحاب الرس أنموذج عجيب في التعدي على الأنبياء بالنسبة لمن كذب قبلهم من الأمم؛ حيث اكتفى بعضهم بالتهديد قولًا، وآخرون جادلوا أنبياءهم وأمهلوهم حتى بلّغوا دعوة الله، ثم أرادوا قتلهم فأنجاهم الله منهم، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب.

أما أصحاب الرس فقد كذبوا من أول وهلة، وأخذوا نبيهم ورموه في بئر لهم أو حفرة عميقة حفروها، وتركوه فيها حتى مات، فجاءهم عذاب الله بغتة دون إمهال؛ حيث قطع الله دابرهم. وسوف ترى أيها القارئ أن سياق الآيات في الحديث عنهم لا يطيل ذكرهم، ولا يعدد أفعالهم السيئة، وهذا ـ والله أعلم ـ يؤيد ما ذكرنا أنهم قتلوا نبيهم بسرعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

* * * * *

زمنهم الذي عاشوا فيه:

الحقيقة أنه ليس في التعرف على أصحاب الرس وفي الكشف عن موطنهم وزمنهم ورسلهم ما يزيد في حجم أو أثر العبرة والعظة من مهلكهم[2].

---

(١) الرّس: (بفتح أوله والتشديد) وهي البئر المطوية بالحجارة. انظر: تاج العروس (٤/ ١٦١).
وفي اللسان: أهل الرس الذين يبتدئون الكذب ويوقعونه في أفواه الناس، والرس: الإفساد وإثبات العداوة، وكل ذلك صادق فيهم. انظر: لسان العرب (٥/ ٢٠٩).
وانظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (معمر بن المثنى التيمي) (٢/ ٧٥)، وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ٢٧٠)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٣٠).

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٢٠/ ٢٦).

أما ما قصدناه من ذكرهم هنا بعد زمن عيسى عليه السلام فما يلي:

أولًا: إن في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، بيان أنهم كانوا متأخرين جدًّا عن عاد وعن ثمود، بدليل ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[١]، فهناك كثير من الرسل بعثهم الله ـ تعالى ـ إلى أقوام عديدين في تلك الحقبة بين نوح وبين عادٍ وثمود وأصحاب الرس أهلكهم الله.

ثانيًا: ذكر كثير من السلف أن نبي أصحاب الرس هو حنظلة بن صفوان عليه السلام، وقد جاء ترتيبه تحت أسماء من ولد مختونًا بعد عيسى عليه السلام، قال محمد بن حبيب الهاشمي[٢]: «من ولد مختونًا من الأنبياء أربعة عشر: آدم، وشيث، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ويوسف، وموسى، وسليمان، وزكريا، وعيسى، وحنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرس»[٣].

وقد ذكر القرطبي بعد تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١]، أن أهل التفسير والأخبار قالوا: إنه أراد أهل حضور، وكان بعث نبي اسمه شعيب بن مَهْدَم، وقبره بجبل يقال له: (ضنن) كثير الثلج، وليس بشعيب صاحب مدين؛ لأن قصة حضوره قبل مدة عيسى عليه السلام وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيهم، وقتل أصحاب الرس في ذلك التاريخ نبيًّا لهم اسمه حنظلة بن صفوان[٤]. والشاهد معنا قوله: «وقتل أصحاب الرس». وهذا يقتضي أنهم بعد عاد وثمود بدهور طويلة جدًّا.

وفي الإكمال[٥] «حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس».

وفي مسائل الإمام أحمد[٦]: حنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرس؛ حيث

---

(١) أي: وأهلكنا قرونًا كثيرة بين عاد وأصحاب الرس. انظر: تفسير البغوي (٦/ ١٧٩)، اللباب في علوم الكتاب، (١٤/ ٥٣٤).

(٢) محمد بن حبيب الهاشمي: علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، كان عالمًا لا يُملُّ مجلسه، صاحب مصنفاتٍ كثيرة، مات بسامراء سنة خمس وأربعين ومائتين. انظر: بغية الوعاة (١/ ٧٣)، الأعلام (٦/ ٧٨).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٠٠).

(٤) تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٤).

(٥) انظر: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لابن ماكولا (٧/ ٥٧)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٥).

(٦) مسائل الإمام أحمد (١/ ١٣).

ذكره تحت أسماء من خُلق مختونًا منهم حنظلة بن صفوان.

وعند ابن حجر[1] «أن نبي أصحاب الرس خالد بن سنان بُعث مبشرًا بمحمدٍ ﷺ، قال ابن عباس ﵄: وردت ابنة له عجوز على النبي ﷺ فتلقاها بخير وأكرمها وقال لها: **«مرحبًا بابنة نبي ضيّعهُ قومه»**[2].

وعن سعيد بن جبير قال: جاءت ابنة خالد بن سنان العبسي إلى النبي ﷺ فقال: **«مرحبًا بابنة نبي ضيعه قومه»**.

ثم ذكر أنه لم يكن في بني إسماعيل نبيٌّ غيره قبل محمد ﷺ[3].

والمقصود أنه إن كان نبي أصحاب الرس خالد بن سنان أو حنظلة بن صفوان فما يهمنا هنا إلّا إثبات أن أصحاب الرس كانوا بعد عيسى ﵇، ولا يمنع ذلك قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، للفرق بين الرسول والنبيّ[4]، ثم لما ثبت من وجود أنبياء بشروا بنبوة محمد ﷺ قبل وبعد عيسى ﵇.

أما ما جاء عند الطبري[5] من أن أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود فسنده ضعيف[6]، هذا **أولًا**.

---

(١) الإصابة (٣/١٧٨ ـ ١٨١) وقال: رجاله ثقات إلّا أنه مرسل.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٢/١٤٩)، برقم [٣٤٤٢٩] وقال: ذكره في أماليه عن سعيد بن جبير مرسلًا ورجاله ثقات. وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٢/٩٩). وأورده الهيثمي في الزوائد (٨/ ٢١٤) عن خالد بن سنان وقال: رواه الطبراني وفيه قيس بن الرفيع وثقه شعبة والثوري، وضعفه أحمد مع ورعه وابن معين.

(٣) الإصابة (٣/١٧٩).

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص(١٥٤)، ولا يردّ عليه بقوله ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي»**، قال المناوي: أي من أولي العزم، فلا يرد خالد بن سنان بفرض تسليم كونه بينهما. انظر: فيض القدير (٣/٤٧).

(٥) تفسير الطبري (١٩/٢٦٩) وسنده: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال حدثني حجاج، عن ابن جريج، قال ابن عباس.

(٦) ضعفه الشيخ محمود شاكر لضعف الحسين بن داود (سنيد). ثم إن هذه الرواية جاءت من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وتوثيقها يحتاج إلى دقة في البحث، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة في كل ما جمع؛ وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم. انظر: التفسير والمفسرون (١/٧٩).

ثانيًا: إن ابن كثير[1] رد ذلك وذكر أن الحافظ ابن عساكر[2] ذكر في أول تاريخه أن أصحاب الرس كانوا بحضور[3]، فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له: حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرس، وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا في الأرض كلها، فبعث الله هودًا إلى عاد فكذبوه، فأهلكهم الله، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة، فالله أعلم.

وهذا اجتهاد منه يرده ما ذكرناه سابقًا من أن حنظلة بن صفوان أو خالد بن سنان نبي أصحاب الرس، وقد جاء ذكرهما بعد عيسى ﷺ، إلّا إذا كان ابن كثير - على إمامته وفضله في هذا العلم - ارتضى هذا بناءً على أن أصحاب الرس بُعث إليهم أكثر من نبي، كما أرسل إلى بني إسرائيل أنبياء كثيرون، فذكروا مرة قبل عاد وثمود، وذكروا أخرى بعد عيسى ﷺ، ولا مانع أن تتعدد العقوبة عليهم، كما تعددت على بني إسرائيل.

ثالثًا: إن الله - تعالى - قال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]؛ أي: أهلك الله أممًا كثيرة ما بين عاد وأصحاب الرس، وهذا يقتضي أن أصحاب الرس بعد عاد بدهور طويلة.

رابعًا: لا يوجد نصٌّ قاطع يبين زمن أصحاب الرس، وكل ذلك اجتهاد يحتاج إلى دليل.

* * * * *

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٢٧).

(٢) الحافظ ابن عساكر هو: علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبوالقاسم الدمشقي الشافعي عاش في بيت علم، وسمع من كثير من العلماء، وكان معروفًا بالفطنة والذكاء، عرف بعد ذلك بمؤرخ الشام وحافظ العصر، له مؤلفات كثيرة منها: تاريخ مدينة دمشق، وتُوفيَ سنة (٥٧١هـ). انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٧/ ٢١٥).

(٣) حضور: بلدة باليمن من أعمال زبيد. انظر: معجم البلدان (٢/ ٣١٤).

○ **المطلب الأول** ○

الآيات التي تحدثت عنهم

أولًا: سورة «الفرقان»:

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ ـ ٣٩].

ثانيًا: سورة «ق»:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

● **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا:** أخر ثمود هنا في الآية للفاصلة.

➢ **ثانيًا:** جاء ذكر أصحاب الرس في معرض ذكر الأقوام المكذبين، مما يدل على أن كل قوم منهم خصهم الله ببعثة رسول.

هذا، وقد اختلف أهل التفسير فيما ذكره الله من شأن أصحاب الرس، وأحسن من جمع الأقوال في ذلك صاحب زاد المسير[(١)] حيث قال:

إن في تسميتها بالرس قولين:

أحدها: إنهم رسوا نبيهم في البئر، قاله عكرمة، قال الزجاج: رسوه: أي دسوه فيها.

الثاني: إن كل بئر لم تطو فهي رس، قاله ابن قتيبة[(٢)].

---

(١) زاد المسير (٦/ ١٥)، وانظر: المحرر الوجيز (١١/ ٤٠)، تفسير البغوي (٦/ ٨٤)، تفسير أبي حبان (٦/ ٤٥٧)، والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحضية لسليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل (٣/ ٢٥٧)، تاريخ القضاعي ص(٨٨).

(٢) عبد الله بن مسلم، كان رأسًا في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة دين فاضل، قال عنه الذهبي: ما علمت أحدًا اتّهم القتيبي في نقله، له مصنفات كثيرة منها: إعراب القرآن. انظر: بغية الوعاة (٢/ ٦٣، ٦٤).

ثم اختلفوا في أصحاب الرس على خمسة أقوال:

أحدها: إنهم قومٌ كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله إليهم نبيًا من ولد يهوذا بن يعقوب فحفروا له بئرًا وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي بن أبي طالب[(١)].

الثاني: إنهم قوم كان لهم نبيٌّ يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: إنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها، وكانت لهم مواشٍ، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيبًا فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فخسف بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه[(٢)].

الرابع: إنهم الذين قتلوا حبيبًا النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، قاله السدي.

الخامس: إنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب الكلبي.

نلاحظ مما سبق ما يلي: اجتماع الأقوال في أنهم قتلوا نبيهم، هذا **أولًا**.

ثانيًا: أكثر الأقوال تذكر أنهم رموا نبيهم في بئر.

ثالثًا: اختلفوا في تحديد مكان البئر، فمنهم من قال: إنها بئر بأذربيجان. روي

---

(١) ومثله أنهم قومٌ أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة، روي ذلك عن عكرمة ومحمد بن كعب القرظي. ذكره صاحب المحرر في الحاشية وقال: أخرجه ابن إسحاق وابن جرير عن محمد بن كعب ونصه «روى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ **«أن أهل الرس قوم أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه بصخرة، فكان عبدٌ أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى ذلك البئر، فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها، وهو مؤمن بذلك النبي، فيعطيه ما يغذيه، ثم يرد تلك الصخرة، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود نومًا أربع عشرة سنة، وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به»** اهـ. قال الطبري (١٩/ ٢٧٠، ٢٧١): فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك، فذكرهم الله - تعالى - في هذه الآية ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. وفي الحاشية: أخرجه ابن إسحاق وابن جرير مطولًا عن محمد بن كعب القرظي. اهـ. وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٢٥٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٢٨) وضعفه بقوله: «إنه حديث مرسل، ومثله فيه نظر». ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي، والله أعلم.

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليماني، أبو عبد الله الأبناوي، ثقة من الثالثة. انظر: التقريب (٥٨٥).

ذلك عن ابن عباس[1].

ومنهم من قال: إنهم كانوا أهل فلج[2] وآبار كانوا عليها، روي ذلك عن قتادة[3]. ولم يرد ذكر لمكانهم.

ومنهم من قال: الرس ماء ونخل لبني أسد، وقيل: نهر من بلاد المشرق، بعث الله إليهم نبيًّا من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه[4].

ومنهم من قال: إن أصحابها كانوا بقرية باليمامة قتلوا نبيهم[5].

نلاحظ مما سبق ما يلي:

١ ـ الاختلاف في مكان البئر؛ بل إن بعضهم قال عنه: نهر، ومعنى ذلك أنه لم يصح عنده قول من قال: إنها بئر.

٢ ـ بعد دراسة سند كل منها رأيت أن أصح الأسانيد السند الذي رُوي عن قتادة[6]، ويجتمع مع ما قاله جعفر بن محمد (الصادق) فيقوي بعضها بعضًا.

٣ ـ والصواب ـ والله أعلم ـ أنهم كانوا أهل فلج وآبار كانوا عليها، ومكانهم باليمامة، كما فسره الواحدي السمرقندي بقوله: قال قتادة: «حُدثنا أن أصحاب الرس كانوا أهل فلج باليمامة»[7].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٥)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٣٠)، كتاب التفسير، سورة «الفرقان»، وقال: رواه شبيب عن عكرمة عن ابن عباس. اهـ. وعند صاحب زاد المسير (٦/ ١٥) عن عكرمة عن ابن عباس، وعند السيوطي (٥/ ١٢٩) عن ابن عباس، والشوكاني (٤/ ٧٨) عن ابن عباس ونسباه إلى ابن أبي حاتم، والقرطبي (١٣/ ٣٢) عن ابن عباس.

(٢) فَلَج: اسم بلد. وقال ياقوت: (بفتح وسكون) اسم بلد، ويقال: بطن فلْج أول الدهناء.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٥)، وقد أخرجه ابن جرير (١٩/ ١٠) من طريق ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن قتادة. وذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٣٠) عن قتادة، ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير (٦/ ١١٩) عن قتادة.

(٤) تفسير أبي حيان (٦/ ٤٥٧)، وهذا القول قاله قتادة أيضًا.

(٥) انظر: تفسير الماوردي، وانظر: تفسير الوسيط (٣/ ٣٤١)، في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٦٤).

(٦) انظر السند حاشية رقم (١)، وكذلك ذكره الماوردي في تفسيره (٤/ ١٤٥) عن قتادة. وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة، كما في الدر (٥/ ١٢٩).

(٧) اليمامة: كان اسمها قديمًا (جوت)، فسميت باليمامة بنت سهم بن طسم أحد الملوك، وبين اليمامة والبحرين مسيرة عشرة أيام للراكب على الجمال. معجم البلدان (٥/ ٤٤٢).

○ **المطلب الثاني** ○

سبب عقوبتهم
تكذيبهم لنبيهم ثم قتله

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨ ـ ٣٩].

ذكر الله ـ تعالى ـ أصحاب الرس ضمن الأقوام المكذبين؛ حيث بعث الله إليهم نبيًّا لم يرد في القرآن ذكرٌ لاسمه[(١)]، فكذبوه وقتلوه.

فعند ابن جرير بسنده[(٢)] عن عكرمة قال: «كان الرس بئرًا رسوا فيها نبيهم»، ثم قال ابن جرير بعد ذلك: «ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حفرة ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، فإنا سنذكر خبرهم بعد ذلك، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرًا إلا ما جاء عنهم أنهم رسوا نبيهم في حفرة»[(٣)].

من كل ما سبق يتبيّن لنا أن هذا طرف مما ذكره المفسرون مما يوافق ظاهر القرآن، وفيها آثار منكرة لا تصح، نبه عليها الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٤)]، قال صاحب محاسن التأويل: «ويروي هنا بعضهم آثارًا منكرة لا تصح، ولا يحل الجراءة على روايتها، ولا تنزيل الآية عليها؛ لأنه من قَفْو ما ليس للمرء به علم، ومثله يحظر الخوض فيه»[(٥)].

---

(١) ذُكر في تفسير الخازن (٣/ ٣١٤). وانظر: تفسير أبي حيان (٦/ ٤٥٧).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٢٧٠)، وزاد المسير (٦/ ١٥).
(٣) تفسير ابن جرير (١٩/ ٢٧٠). ومثله الأثر الذي أخرجه ابن كثير عن عكرمة وسكت عنه (٣/ ٣٣١)، وأخرجه السيوطي في الدر (٥/ ١٢٩) من رواية ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل كعبًا عن أصحاب الرس قال: هو صاحب البئر الذي قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، فرسه قومه؛ أي: دفنوه في بئر بالأحجار. اهـ. قلت: وقد قال ابن عباس قبلها: إنها قرية من قرى ثمود، وقد هلكوا جميعًا بالصيحة، ونجى الله صالحًا ولم يقتل. فالله أعلم.
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣١)، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٢٨).
(٥) تفسير القاسمي (١٢/ ٢٦٢).

◌ المطلب الثالث ◌

نوع العقوبة

ذُكرت عقوبة أصحاب الرس مجملة ضمن عقوبة الأقوام المكذبين دون تفصيل، وحسبنا ما ذكره الله ـ تعالى ـ من أنه أهلكهم بقوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]؛ أي: وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا، وبيّنا لهم أدلتنا، وأزحنا عنهم الأعذار، وأجبناهم على كل الشبه والاعتراضات، فتمادوا في كفرهم وطغيانهم، فأهلكناهم هلاكًا تامًّا[1]. قال أبو حيان بعد ذكره للأقوال:

---

(١) تفسير المراغي (٧/ ١٧)، التفسير الواضح (٢/ ٢٠). هذا، وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أبا بكر (محمد بن الحسن النقاش) قال: إن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعًا، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال: إني لم أمت؛ ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا، فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبيًّا، وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.
قال السهيلي: وكان يوحى إليه في النوم، وكان اسمه (حنظلة بن صفوان) فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤها، وعطشوا بعد ريهم، ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد، وصوت الضباع. فالله أعلم. انظر: البداية والنهاية (١/ ٢٢٨).
هذا، وقد ترجم ابن كثير لأبي بكر محمد بن الحسن النقاش (١١/ ٢٤٢) في البداية والنهاية وقال عنه: كان رجلًا صالحًا في نفسه عابدًا ناسكًا. ووثقه الدارقطني ثم رجع، وصرح بعضهم بتكذيبه.
قلت: فإن صح ما ذكره السهيلي فيكون ذلك عقوبة بتدرج حتى هلكوا.
وقال وهب بن منبه: كان أهل بئر الرس نزولًا عليها، وكانوا أصحاب مواش يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيبًا يدعوهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وآذوا شعيبًا، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم. تفسير الخازن (٣/ ٣١٤).
وعند أبي حيان: أنهم بعد رمي نبيهم وموته أظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص. =

«وملخص هذه الأقوال أنهم قومٌ أهلكهم الله بتكذيب من أرسل إليهم»[1].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة من عقوبة أصحاب الرس

١ ـ بيان سنة الله ـ تعالى ـ في إهلاك الأمم أمة بعد أمة؛ ولكن بعد الإنذار والإعذار لها.

٢ ـ بيان عاقبة المكذبين وما حل بهم من دمار وعذاب عاجل لينتقلوا إلى العذاب الآجل.

٣ ـ بيان أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة إنما يستفيد ويستنير منها المؤمنون، أما المكذبون المعاندون فلا ينفعهم ذلك ولو جاءتهم كل آية، كما ذكر الله في قوله تعالى في شأن كفار قريش: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

❖ ❖ ❖

= قلت: إذًا هذه ثلاثة آثار مختلفة تؤيد ما قاله القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ من أنها آثار لا تصح ويحظر الخوض فيها. فالله أعلم.

(١) تفسير أبي حيان (٦/٤٥٨).

المبحث السابع

عقوبة أصحاب الفيل

○ المطلب الأول ○
الآيات التي تحدثت عن ذلك

سورة «الفيل»:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

• **لطائف الآيات:**

➢ **أولًا:** لم تذكر قصتهم إلا مرة واحدة فقط، ولم تتكرر خلافًا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

ثانيهما: ألا يتخذ المشركون من تكراره غرورًا بمكانة لهم عند الله[(١)].

➢ **ثانيًا:** لم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن هذه الواقعة وقعت قبل بعثة النبي ﷺ؟

والجواب: المراد العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًا مساويًا في القوة والجلاء للرؤية[(٢)].

➢ **ثالثًا:** لم قال: ﴿كَيْفَ﴾ دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول، فلم يقل: ألم تر ما فعل ربك، أو الذي فعل ربك؟

والجواب: للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم بتفصيل القصة[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٤)، م١٥. (٢) التفسير الكبير (٣١/ ٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٥)، م١٥.

➢ **رابعًا**: لم قال: ﴿فَعَلَ﴾ دون غيرها من جعل أو خلق أو عمل؟

والجواب: لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالًا كثيرة لا يدل عليها غيره؛ حيث ذكر لفظًا واحدًا يشمل الكل(١).

➢ **خامسًا**: جيء في تعريف الله ـ سبحانه ـ بوصف رب مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ إيماءً إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ لنبوءته؛ إذ كان ذلك عام مولده(٢).

➢ **سادسًا**: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، مذكورٌ في معرض التعجب، فما حكمته؟

والجواب: أن الكعبة قبلة صلاتك، وقلبك قبلة معرفتك، فإذا حفظ الله قبلة عملك عن الأعداء أفلا يحفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي(٣)؟!

➢ **سابعًا**: لم قال: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ولم يقل: أرباب أو ملّاك الفيل؟

والجواب: أن الصاحب يكون من الجنس، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمة؛ بل فيه دقيقة؛ وهي أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين يقال للأدون: إنه صاحب الأعلى، ولا يقال العكس؛ ولذلك يقال لمن صحب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنهم الصحابة، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالًا وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ومما يؤكد ذلك ـ كما سيأتي ـ أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر، كأنه يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عزمي حميد فلا أتركه، وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة السيئة، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالًا منهم(٤).

---

(١) لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل، وجعل للكيفيات؛ مثل ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وعمل بعد الطلب، وفعل عام، فكان أولى، لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظ البيت، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام. التفسير الكبير (٣١/٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٦).

(٣) التفسير الكبير (٣١/٩٨).

(٤) المصدر السابق (٣١/٩٨).

➢ **ثامنًا**: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، والكيد: هو إرادة مضرة بالغير على وجه الخفية، فلِمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا؛ فإن أبرهة الأشرم كان يصرح أنه يريد هدم البيت؟.

والجواب: نعم كان يصرح بذلك؛ لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهره؛ لأنه يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى اليمن التي يحكمها(١).

➢ **تاسعًا**: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]، فلم قال: «طيرًا» على التنكير؟

والجواب: إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو التفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل(٢).

➢ **عاشرًا**: قوله تعالى: ﴿أَبَابِيلَ﴾، هل هو واحد أو جمع؟

والجواب: معناها جماعات متفرقة؛ أي: حلقة حلقة، وقيل: هي التي يتبع بعضها بعضًا، وقيل: الكثيرة، وقيل: المختلفة الألوان، فهي جمع لا واحد لها من لفظها؛ مثل كلمة (إبل) وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم(٣).

➢ **الحادي عشر**: قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤].

اختلف في معنى السجيل: فقيل: معناها: النار، وهو (السجين) أبدلت النون لامًا، قيل: مأخوذٌ من السّجل، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار؛ يعني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، واشتقاقه من الإسجال؛ وهو الإرسال، ومنه السّجْل: الدلو المملوء ماء، وهي حجارة مرسلة، لقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]. وقد رجح صاحب أضواء البيان أنها من طين شديد

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ٩٩). (٢) المصدر السابق (٣١/ ٩٩).

(٣) قال الفراء وأبو عبيدة: لا واحد لها، وقيل: واحدها إبال وإبول وأبيل، فأبابيل بمنزلة عبابيد وشماطيط وشعاليل، وإبول وإبيل مثل عِجّول وعجاجيل، وأما إباله فهي من الحطب والحشيش، وفي المثل: ضغث على إبّاله؛ أي: زيادة على وقر. انظر: لسان العرب (١/ ٤٩ و٥٠) مادة «أبل»، وانظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٩٢)، مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/ ٣١٢)، معاني القرآن للزجاج (٥/ ٣٦٣)، ومن التفاسير: تفسير الرازي «أنموذج جليل» ص(٥٧٨)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٩).

القوة، وهذا ما يشهد له القرآن؛ لما في سورة «الذاريات» ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤]، فنص على أنها من طين[١].

* * * * *

○ المطلب الثاني ○

سبب العقوبة

عزم أبرهة قائد جيش الحبشة على هدم بيت الله وكعبته

وخلاصة ذلك:

أن الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود[٢]، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلًا يقال له: **أبرهة الأشرم** فرأى حقدًا منه على العرب أن يبني كنيسة يصرف بها الناس عن قصد مكة، وليحول التجارة وطرقها ومكاسبها من مكة إلى اليمن، وعرض ذلك على ملك الحبشة فوافق وسره ذلك، ولما بنى **الكنيسة**[٣] نادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، فقصدها بعضهم ودخلها ليلًا فتغوط فيها ولطخ جدرانها بالعذرة، وكر راجعًا من حيث أتى، فلما رآها **أبرهة** استشاط غيظًا وأقسم ليذهبن إلى بيت مكة **(الكعبة)** وليخربنه حجرًا حجرًا، وفعلًا جهز جيشًا كبيرًا يتقدمهم فيل عظيم لم ير مثله، وساروا، ما يقف في وجههم حي من العرب إلا قاتلوه وغلبوه لما يريد الله بهم، حتى وصلوا إلى الطائف، فدله أهلها لطريق مكة، وأرسلوا معه من يدلهم، حتى وصلوا إلى مكان يسمى **المغمّس**[٤]، **وجرت بينهم وبين شيخ مكة وسيدها عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ سفارات، وانتهت بأن يرد أبرهة** إبل عبد المطلب التي أخذها جيشه ويخلي بينه وبين الكعبة، ففعل، ورجع

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/ ٦٠٩)، أضواء البيان (٩/ ٥٢١، ٥٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٧).

(٣) سماها القليس. انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/ ٦٠٩)، البداية والنهاية (٢/ ١٧٠).

(٤) موضع فسيح يقع بعد عرفة قليلًا من جهة الشرق على طريق الطائف السيل، وبقي على اسمه إلى اليوم. انظر: معجم البلدان (٥/ ١٨٨)، برقم [١١٤٢٨].

عبد المطلب إلى مكة وأمر رجال مكة أن يخلوا البلد ويلتحقوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم خشية المعرة التي قد تلحقهم من الجيش الظالم الذي لا يستطيع أحد من البشر ردّه، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وكان مما قال فيما اشتهر عنه[1]:

لا هُـم إن الـعـبـد يـمـ ــنـع رحـلـه فـامـنـع رحـالـك
لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ومـحـالـهـم غـدوًا مـحـالـك[2]
إن كـنـت تـاركـهـم وقـبـ ــلـتـنـا فـأمـر مـا بـدا لـك

وهنا تتدخل قوة الله التي لا تقهر لحماية بيته وحرمه، فتحول القوة إلى ضعف، والنصر إلى هزيمة، فكيف كان ذلك؟.

* * * * *

○ المطلب الثالث ○

نوع العقوبة

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٣ ـ ٥].

فلما أصبح هيأ جيشه لدخول مكة، ووجه فيله الكبير إليها؛ ولكن الفيل لم يعد الفيل المعروف! لقد برك، والقوم في أول أمرهم لم ينالوا خيرًا، وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة فقالوا: خلأت[3] القصواء، فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»[4]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق المسماة: (المبتدأ والمبعث والمغازي) لمحمد بن إسحاق بن يسار ص(٣٩)، سيرة ابن هشام (١/ ٥١)، الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٦٢).

(٢) مِحَالك: المحال ـ بكسر الميم ـ هو الكيد، ومَحِلَ به يمحَلُ مَحْلًا: كاده بسعاية إلى السلطان، ومنه قوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. وقال الأزهري: المحال القوة والشدة، وماحلت فلانًا: أي قاويته حتى يتبين أيّنا أشد. وقال أبو عبيدة: المحال: العقوبة والمكروه. انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٠) مادة «محل».

(٣) خلأت: أي تركت السير.

(٤) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢/ ٢٧٩)، برقم [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

مكة: «**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**»[1]. فهي حادثة ثابتة بنص الحديثين السابقين.

ثم كان ما أراده الله ﷻ من إهلاك أبرهة وجيشه؛ حيث أرسل الله عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين، ما يسقط الحجر على الواحد منهم إلا ذاب وتناثر لحمه، وهلك منهم من هلك، وهرب من هرب ولحمه يتناثر منهم أبرهة خرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وهلك وهلك جيشه؛ حيث جعلهم الله كورق أكلته الدواب وداسته بأرجلها، فكانت آية عظيمة من آيات الله، وإرهاصًا ينبئ عن قرب حدث عظيم آن لمكة أن تتهيأ لاستقباله، وتستعد لرؤية أنواره؛ ألا وهو ولادة خير البرية ومنقذ البشرية محمد ﷺ[2]، وهكذا كانت حادثة الفيل نصرة من الله لسكان حرمه وحماة بيته[3].

* * * * *

○ المطلب الرابع ○

الدروس المستفادة منها

> **أولًا**: دلت حادثة الفيل على عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ وعلمه وحكمته، ودلت على شرف محمد ﷺ؛ لأنه يجوز تقديم خوارق العادات على زمان البعثة تأسيسًا وإرهاصًا[4]، كما في تظليل الغمامة له ﷺ[5].

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللقطة، باب كيف تعرّف لقطة أهل مكة، ورواه مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها (٢/ ٩٨٨)، برقم [١٣٥٥].

(٢) يذكر المؤرخون أن النبي ﷺ حين حادثة الفيل كان حملًا في بطن أمه، وولد بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا، وهو أشهر الأقوال. انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٦٢).

(٣) انظر: القصة في سيرة ابن إسحاق ص(٣٨ ـ ٤٢)، تهذيب سيرة ابن هشام ص(٢٦ ـ ٢٩)، البداية والنهاية (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٦).

(٤) كان إرسال الطير إرهاصًا للنبي ﷺ، وأما بعد النبوة فلم يكن له حاجة؛ لذا لم يُعذب الحجاج بن يوسف الثقفي بتخريب البيت؛ لأنه لم يكن قاصدًا ذلك؛ وإنما أراد قتل ابن الزبير، ثم أصلح بناء البيت بعد ذلك. انظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٤١).

(٥) التفسير الكبير (٣٢/ ٩٧).

➢ **ثانيًا:** العبرة من هزيمة جيش أبرهة لأهل مكة هي كون القصة قريبة العهد، فذكرهم الله بها ليخافوا من أن يعاقبهم الله بمثلها إذا استمروا في تكذيب النبي ﷺ.

➢ **ثالثًا:** دلت القصة وما حصل فيها من عقوبة لأولئك البغاة على تكريم الله لكعبته وحرمه، وإنعامه على أهله بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ وعبادة الله وشكره على نعمائه(١).

➢ **رابعًا:** من سنة الله ـ تعالى ـ دفع العذاب الدنيوي عن قوم لأجل غيرهم، وقد يكون هذا الغير حرمة الكعبة وصيانتها من التخريب، وقد يكون الغير الضعفاء في الأمة كالأطفال والشيوخ، كما جاء في الحديث «**ابغوني الضعفاء؛ فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»(٢)؛ أي: يرد عنكم الأذى، ويرد عنكم اعتداء العدو، لا بقوتكم؛ ولكن رحمة بالضعفاء منكم بألا يمسهم أذى من العدو إذا استولى على البلاد، فيردهم عنكم لهذا السبب، وهذا تنبيه للنّاس بالعناية بالضعفاء وعدم إهمالهم، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعلموا الناس ألا يستهينوا بالضعفاء أو يحتقروهم(٣)، فربما دعوة منهم ينصر الله بها المؤمنين على عدوهم، أو يدفع الله بها نقمته عن بلدهم . . .

➢ **خامسًا:** على المسلم ألا ييئس أبدًا من نصر الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين مهما طال الليل وادلهمت الخطوب وكثرت الفتن؛ لأن الله قد أخذ على نفسه أن ينصر عباده والله لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(١) التفسير المنير (٣٠/٤٠٩، ٤١٠).

(٢) رواه أحمد (٥/١٩٨)، برقم [٢١٧٧٩]. وأبو دواد، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة (٣/٧٣)، برقم [٢٥٩٤]. النسائي، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/٤٦)، برقم [٣١٧٩].

الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين (٤/٢٠٦)، برقم [١٧٠٢] وقال: حديث حسن صحيح.

ابن حبان، كتاب السير، باب ذكر استحباب الانتصار بضعفاء المسلمين (١١/٨٥)، برقم [٤٧٦٧]. الحاكم، كتاب الجهاد (٢/١١٦)، برقم [٢٥٠٩]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي والألباني. انظر: الصحيحة (٢/٤٢٢)، برقم [٧٧٩].

(٣) انظر: تفسير القاسمي (١٥/٩)، القصص القرآني (١/٦١٦).

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ثم ليعلم المسلمون اليوم أن معركتنا مع اليهود تحتاج إلى قوة إيمان وزيادة يقين أن الله حقًّا هو الذي ينصر عباده؛ بل ويعينهم على ذلك مع الأخذ بالأسباب؛ من إعداد القوة، والالتزام بالمنهج الإسلامي الصحيح السليم الخالي من إقامة الشعارات المعادية لشعار «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]، مع الابتهال والتضرع إلى الله ـ تعالى ـ.

فهذا عبد المطلب ـ على كفره ـ لما علم بجيش أبرهة وأنهم لا يستطيعون دفعه أخذ بحلق الكعبة يدعو الله هو ومن كان معه ويستنصرونه على أبرهة وجيشه، فحمى الله بيته ومزق أبرهة وجيشه، فعلى الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ توعية الناس ودعوتهم إلى أن يثقوا بالله ـ تعالى ـ، ويتوكلوا عليه مهما كانت ق٤وة عدوهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ونحن لو صدقنا الله ـ تعالى ـ لهيأ لنا من أسباب النصر والعزة ما لايخطر لنا ببال وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

❖ ❖ ❖

(١) سبق تخريجه ص(١٤٠).

الخاتمة

وفيها أهم نتائج البحث:

أولًا: الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام المكذبين أو حذر منها الأنبياء أقوامهم ثم وقعت.

ثانيًا: التوصيات والمقترحات.

الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام

أهلك الله - تعالى - الأمم المكذبة بجمع من الأسباب حذر منها الرسل أقوامهم، فانتهكوها وكذبوا رسلهم، وإليكها متتالية حسب الأهم فالأهم؛ لأن بعضها لا ينفصل عن بعض، وإن كان عذاب كل أمة اختص بسبب معيّن، إلا أنه قد تشترك أمة أخرى معها في نفس الذنب الذي هلكت بسببه.

أولًا: الكفر بالله - تعالى -:

الكفر بالله - تعالى - من الأسباب التي يعاقب الله عليها الأمم بعد الإعذار والإنذار.

والكفر في **اللغة**: الستر والتغطية.

وسمي الكافر كذلك؛ لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان، وسُمِّي الليل كافرًا لستره الناس، وسُمِّي الزراع كفارًا لسترهم الحبَّ وتغطيته، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[1] [الحديد: ٢٠].

وأما في **الاصطلاح** فمعناه: ستر الحق بالجحود[2].

والكفر ضد الإيمان الذي معناه: التصديق والاعتقاد والإقرار بأركانه.

وقد يأتي الكفر بألفاظ أخرى، مثل: التكذيب والشرك والظلم، وإن كان بينها عموم وخصوص[3]، ويتبين ذلك بذكر الآيات التي تبيّن أن سبب العقاب جاء بهذه المعاني كلها، فعن الكفر وأنه سبب للعقاب قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(١) وانظر: مفردات الراغب ص(٤٣٢)، وانظر: تفسير المنار (١/ ١٤٠).

(٢) تفسير النسفي (١/ ١٥).

(٣) انظر: الفروق اللغوية للعسكري ص(١٩٠).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥ ـ ٦].

وقد يأتي الكفر بمعنى نفي الإيمان، قال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦].

أما **الشرك** فقد ذكر الله ـ تعالى ـ أنه سبب للعقاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[1] [الروم: ٤٢]، فكان سبب عقابهم أنهم كانوا مشركين.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

فالشرك في هذا الموضع سبب للعقاب، وعقوبته في الآية إلقاء الرعب في قلوب الكفرة[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

فكان شركهم بالله ـ تعالى ـ سببًا في قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم.

وأما عن **الظلم**[3] وأنه سبب في العقاب فيقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فهؤلاء الأقوام الذين ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم حل عليهم

---

(١) **الشرك معناه**: أن يجعل لله ندًا يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص(٣١٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/٥٣٣).

(٣) **الظلم معناه**: نقصان الحق أو بعضه. الفروق اللغوية ص(٩١، ٩٢).

عقاب الله، كما هي سنته ﷻ في خلقه[1].

وأما **التكذيب** برسل الله ـ تعالى ـ فيقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

وعن التكذيب بآيات الله يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وهذا التكذيب (تكذيب الرسل والتكذيب بآيات الله) أكثر أسباب العقاب ورودًا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ حيث يقول له: يا محمد، إن يكذبك مشركو مكة فاعلم أن الرسل قبلك كذبوا، فاستأصل من استأصل، وأهلك من أهلك بإنزال العذاب عليهم وفق سنته ـ تعالى ـ، وفي ذلك تحذير للكافرين من قريش وغيرهم في كل زمان ومكان من إنزال عذاب الله الذي لا يرد عن القوم الظالمين[2].

ومن صور التكذيب أيضًا: إنكار البعث والجزاء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ ـ ٣٥]، وكما قال قوم هود: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧ ـ ١٣٨].

ففي الآية الأولى يحذر الله الكافرين الذين ينكرون البعث والجزاء من عقابه الذي أعده لمنكريه، وأن أموالهم وأولادهم ليست هي التي تقربهم عند الله، وليست هي التي تنجيهم من عذابه؛ لظنهم أن من أحسن الله إليه في الدنيا فلن يعذبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[3] [سبأ: ٣٦]؛ أي: يوسعه لمن يشاء ويقدر، فهو

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٣٤١)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٠)، تفسير المراغي (٩/ ١٥٧)، تفسير القاسمي (١٥/ ١٥٦).

(٣) مثل قوله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦].

الذي يفاضل بين عباده ابتلاءً واختبارًا[1].

ومن صور التكذيب: تكذيب الأمة بعد مجيء الآيات التي تطلبها، فعندها يحل بها العقاب، كما جرت سنته تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2] [الإسراء: ٥٩].

قال المفسرون: «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومك؛ ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية»[3].

والمعنى: وما يمنعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هي سنة الله ـ سبحانه ـ في عباده[4].

ثانيًا: المعاصي والذنوب:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام ٦].

يبيّن الله لنبيه في هذه الآية أن سبب انتقامه من أولئك الهالكين إنما كان بسبب الوقوع فيما حرم الله من ارتكاب الذنوب؛ لأن كل مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمعت الذنوب على أمة حل بها الهلاك، وأنشأ الله أممًا أخرى غيرها[5].

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٠٥).

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير ابن جرير (١٧/ ٤٧٦)، وانظر: أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص(٢٣٧)، وأصله حديث رواه الإمام أحمد (١/ ٢٥٨) برقم (٢٣٣٣)، قال عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٥٢): سنده جيد، ورواه الحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة «بني إسرائيل» (٢/ ٣٩٤)، برقم [٣٣٧٩] وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٢٦٣).

وهكذا كلما عصت أمة أجّلها الله مدة من الزمن لعلهم يتوبون ويذكرون فيرجعون؛ فإن أبوا أغدق الله عليهم النعم ليستدرجهم من حيث لا يعلمون، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

* يقول ابن جرير رحمه الله ـ تعالى ـ: «فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقد علمت أن باب الرحمة وباب التوبة لم يفتح لهم، وأبواب أخر غيرهما كثيرة؟ قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه؛ وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم استدارجًا منا لهم أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء؛ ليتضرعوا إذا لم يتضرعوا وتركوا أمر الله ـ تعالى ـ؛ لأن آخر هذا الكلام مردود على أوله وذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥]، وهذا منه ـ كما ذكرنا ـ استدراج وإملاء لهم عياذًا بالله من مكره، فإذا هم آيسون من كل خير»[2].

* يقول صاحب المنار: «والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

أحدهما: معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

ثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الناس حقوقهم، واحتقارهم، وظلم الضعفاء منهم، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة»[3].

فما الذي أغرق قوم نوح، وحصد قوم عاد بالريح، وأهلك قوم ثمود بالصيحة، وقلب قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها وحصبهم بحجارة من

---

(١) ومعنى عفوا: كثروا وكثرت أموالهم. معاني الزجاج (٢/٣٥٩)، تفسير القرطبي (٧/٢٥٢).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٣٥٨)، تفسير ابن كثير (٢/١٣٧).

(٣) تفسير المنار (٧/٣٠٨).

سجيل، وأغرق قوم فرعون في البحر، وغيرهم كثير، إلا معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به، وهذا مشترك بين الأمم، ثم اختصاص كل أمة بظلم معين مما ذكرنا في القسم الثاني.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وفي الحديث: «**لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم**»[١].

ومن آثار الذنوب والمعاصي على الفرد والمجتمع: أنها سبب للانتقام وزوال النعم، وأكبر هذه النعم نعمة الإيمان؛ لأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي[٢]، وتزيل نعمة المال والرزق[٣]، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[٤]، كما أنها تزيل نعمة الأمن في الأوطان، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فبيّن هنا أنه بسبب الكفر بأنعم الله العديدة التي منها الأمن أذاقهم لباس الجوع والخوف بسبب ما حصل منهم، كما أنها تزيل نعمة العافية في الأبدان، لقوله ﷺ من حديث طويل رواه ابن عمر: «**لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا**

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣١٩)، برقم [١٨٣١٩]، برقم [٢٢٥٦٧]. ورواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ٥١٥)، برقم [٤٣٤٧]. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٢٠).

ومعنى (يعذروا): أي تكثر ذنوبهم وعيوبهم فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم العذر إذا علموا بعد ذلك. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٧)، مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري (٦/ ١٩١)، بتحقيق: محمد حامد الفقي ورقم (٤١٨١).

(٢) كما هو مذهب أهل السنة. انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٩٣).

(٣) كما سبق ذكره في قصة صاحب الجنتين وأصحاب الجنة وأهل سبأ.

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠). ورواه الحاكم (١/ ٦٧٠)، برقم [١٨١٤]، ووافقه الذهبي. ورواه ابن ماجه (١/ ٣٥)، برقم [٩٠، ٤٠٢٢]. وقال في الزوائد: سألت شيخنا أبا الفضل القرافي عن هذا الحديث فقال: حسن. وحسّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لشرح مشكل الآثار (٨/ ٧٩).

فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»[1]، كما أنها تلقي الرعب في القلب، وتمرض القلب، وتعمي البصر، وتُصْغِر النفوس، وتسقط الكرامة، وتجلب الذم، وتؤثر في العقل، وتوجب القطيعة بين العبد والرب، وتمحق البركة، وتجعل صاحبها من السفلة، وتجرئ الأعداء عليه، وتضعف العبد أمام نفسه، وتجلب له الهلاك، إلى غير ذلك[2].

وإذا كان فيها تلك الآثار وتلك العقوبات فحري بالمؤمن الابتعاد عنها، والحذر من الوقوع فيها؛ وخاصة في مثل هذه الأيام التي كثر فيها البلاء، واشتد فيها الإغراء بالمنكر، وقل الناصحون، وكثر السامدون، وشجع المبطلون، وزكي المفسدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثالثًا: استعجال العذاب:

لقد طلب المكذبون من أنبيائهم العذاب، فلبى الله لهم طلبهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، فهلكوا جميعًا إلا من آمن، وما كان من طلب قريش العذاب إلا من قبيل التحدي والاستكبار والعناد؛ بل إن منهم من كان يطلب العذاب من الله حتى وإن كان النبي ﷺ على حق ليظهر لهم الحق سريعًا بزعمهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، فرد الله عليهم مهددًا لهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]، فإنه إذا وقع فلن يرفع عنكم، وحينها تؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم وقد كنتم تستعجلون[3]، ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥].

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات (٢/ ١٣٣٢) (٤٠١٩). ورواه الحاكم (٤/ ٥٤٠) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ١٦٨)، برقم [١٠٦].

(٢) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص(٧٤ ـ ١٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٠١، تفسير القرطبي (٨/ ٣٥١).

ومع أن طلبهم العذاب كان تحديًا وتعجيزًا للأنبياء إلا أن سنة الله ـ تعالى ـ في خلقه ألا يعذب إلا الظالمين، ولا ينتقم إلَّا من المجرمين المصرين.

وفي هذا تحذير قوي للمصرين من العصاة حتى يراجعوا دينهم؛ لئلا يكونوا عرضة لعقاب الله وعذابه في الحياة قبل الممات، وفي الحديث: «**بينما رجل يجرُّ إزاره إذ خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[1].

رابعًا: ادعاء الألوهية والربوبية:

قال تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

لقد نصّب فرعون نفسه آمرًا ناهيًا بحق وبغير حق، وأوجب على الناس طاعته، وطغى وبغى في الأرض، وذبح أبناء بني إسرائيل، واستحيى نساءهم، وسخر رجالهم لخدمته في أشق الأعمال وأرذلها، ونصّب نفسه إلهًا يُعبد ليلًا ونهارًا، فدعاه موسى عليه السلام للإيمان بالله، وترك عبادة ما سواه، فأبى وتأبى ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وانتقم منه، فكان عبرة لغيره في الدنيا ونكالًا يُعذبُ عليه في الآخرة أشد العذاب[2]، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

خامسًا: الاستكبار:

يقول تعالى مخبرًا عن الأمم التي عاقبها وأن الكبر كان من جرائمها: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨ ـ ٤٠].

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٤/ ٥٤)، برقم [٥٧٩٠].

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١).

والاستكبار معناه: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرًا[1]. وأعظم الكبر التكبر على الله ﷻ.

وقد بيّن سبحانه في آية أخرى أن العذاب لا يقتصر على تلك الأقوام فقط؛ بل إن سنته مطردة في عقاب الأمم التي تستكبر عن عبادته، وتتكبر على الحق ولا تقبله، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ ـ ٤٣].

وأعلم أن من علامتهم الاشمئزاز عند ذكر الله، والاستكبار عند سماع «لا إله إلا الله»، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ[2] قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فكان جزاؤهم أن صرفهم الله عن الحق، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

سادسًا: قتل الأنبياء وإيذاؤهم بشتى أنواع الإيذاء:

رأينا مما سبق في الحديث عن أصحاب الرس وعن محاولة النصارى قتل عيسى عليه السلام أن ذلك كان سببًا في عقوبتهم هم وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقتل الأنبياء من أعظم الذنوب عند الله وأقبحها، وقد يكفر بعض الناس بالرسل، ولكن أن يصل إلى قتل ذلك الرسول أو النبي، فهذا يدل على الحقد

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١٣)، وانظر: الفروق اللغوية ص(٢٠٦).

(٢) أي: نفرت من توحيد الله. انظر: معاني القرآن، للزجاج (٤/ ٣٥٦)، تفسير ابن جرير الطبري (٢١/ ٣٠٠).

والغيظ الشديدين للأنبياء وبما أتوا به من هداية للبشر.

وأشهر من وقع في ذلك بنو إسرائيل؛ حيث قتلوا كثيرًا من الأنبياء كزكريا ويحيى عليهما السلام[1]، وحاولوا قتل عيسى ابن مريم عليه السلام، فنجاه الله برفعه إليه، ومع هذا فهم يزعمون إلى اليوم أنهم قتلوه ويتباهون به، قبحهم الله ولعنهم!

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيًا...**» الحديث[2].

وعند الطبري: كانوا يقتلون رُسُل الله بغير جناية جناها الرسل، منكرين رسالتهم، جاحدين نبوتهم، وحمى الله عز وجل من أراد حمايته من أنبيائه ورسله من القتل؛ لتقوم الحجة على المعاندين والجاحدين، ويؤمن من أراد الله به خيرًا حكمة بالغة وقوة قاهرة، ولا يظلم ربك أحدًا! وحمى الله نبيه محمدًا ﷺ من كيد الأعداء؛ وإلا فقد حدث له قريب مما حدث لأنبياء الله وأصفيائه وأكثر بأن عصمه الله وتولى حمايته بنفسه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس، كما عند الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة**»، قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «**من هذا؟**» فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: «**ما جاء بك؟**» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه[3].

---

(١) انظر: حاشية الجمل على الجلالين (١/ ٥٩).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٧)، برقم [٣٨٦٨]، وأخرجه البزار (٥/ ١٣٨)، برقم [١٧٢٨].
وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٣٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١١)، برقم [١٠٤٩٧]. وحكم عليه الألباني في صحيح الجامع الصغير بأنه حسن (١/ ٣٣٥)، برقم [١٠١١]. وكذلك شعيب الأرناؤوط وآخرون، انظر: تحقيقهم لمسند الإمام أحمد (٦/ ٤١٣ ـ ٤١٥).

(٣) رواه أحمد (٦/ ١٤١)، برقم [٢٥١٣٦].
والحديث في الصحيحين: رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٣/ ٣٢٧)، برقم [٢٨٨٥]. =

وعند الترمذي من حديث عائشة ﷺ قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «**يا أيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله**»(١).

ومن عصمة الله لرسوله ﷺ حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها؛ مع شدة العداوة له، ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يهيئه الله - تعالى - من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب؛ إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش؛ حيث أودع الله في قلبه محبة فطرية لرسوله ﷺ، ولو أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها؛ ولكن كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر، فهابوه واحترموه، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم (وهي المدينة)، فلما صار إليها منعوه، وكلما همّ أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب بسوء له رد الله كيده عليه؛ حيث حماه الله من اليهود حين سحروه، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما وضعوا له السم في ذراع الشاة أخبره الله به وحماه، ولهذا أشباه كثيرة جدًّا يطول ذكرها(٢).

وأما إيذاؤهم له فما أكثر ما أوردوا به من استهزاء وازدراء وسب وشتم وتهديد مرة بالإخراج وأخرى بالرجم وتشاؤهم وتطير.. إلخ!

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠، ١١، وسورة الأنعام: ١٠، وسورة الأنبياء: ٤١].

وعن الإخراج يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

= ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ (٤/ ١٨٧٥)، برقم [٢٤١٠].

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة «المائدة» (٥/ ٢٥١)، برقم [٣٠٤٦]. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٤٦)، برقم [٢٤٤٠].

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨١، ٨٢).

ويقول تعالى مخبرًا عن كفار قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

وعن التهديد بالرجم يقول تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، وقولهم لنوح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقولهم لشعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ﴾ الآية [هود: ٩١]، وغيرهم...

فصدقت سنة الله فيهم، فاستحقوا عذابه وأليم عقابه.

سابعًا: الإسراف والترف والبطر:

الإسراف: مجاوزة القصد.

وأما السرف الذي نهى الله عنه فهو ما أنفق في غير طاعة الله قليلًا كان أو كثيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

والإسراف هنا: أكل ما لا يحل أكله، وقيل: هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحله الله[(١)].

وأما كونه من أسباب العقاب الإلهي فلأنهم تجاوزوا الحد في الكفر والمعاصي، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

ويقول عن قوم لوط: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤]، وقال عن فرعون: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، وقال عن مجموعهم: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]، ونهى الله عن طاعتهم فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

وقد يأتي الإسراف بمعنى الشرك، كما جاء في تفسير ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/ ٢٤٣، ٢٤٤) مادة «سرف».

[الأنبياء: ٩]، والمسرفون في الآية هم المشركون[(١)].

وعلى هذا فكل من تجاوز حد الاعتدال فإن عمله ذلك يكون سببًا في العقاب إلا أن يتوب.

وأما الترف: فهو التنعم. والمترف: الذي أطغته النعمة وسعة العيش[(٢)]. والمترف أيضًا: المتقلب في لين العيش يصنع ما يشاء لا يُمنع[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، فهذه الآية تبيّن أن الترف والتنعم إذا أصاب أمة وانغمست في لذاتها كان ذلك سببًا في نزول العقاب بها.

* وعند الطبري: «أن الحسن البصري قال: بعث الله هودًا إلى عاد فنجى الله هودًا والذين آمنوا معه، وهلك المتمتعون، وبعث الله صالحًا إلى ثمود، فنجى الله صالحًا، وهلك المتمتعون، وذكر بقية الأمم.

ثم ذكر أن الذين ظلموا اتبعوا ما أسبغ عليهم ربهم من نعيم الدنيا ولذاتها إيثارًا على عمل الآخرة وما ينجيهم من عذاب الله.

أو واتبع الذين ظلموا ما تجبروا فيه من الملك والعتو عن أمر الله.

ثم قال: وأولى الأقوال عندي بالصواب أن يقال: إن الله أخبر ـ تعالى ذكره ـ أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت، فكفروا بالله، اتبعوا لذات الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله وتجبروا وصدوا عن سبيله، وذلك أن المترف في كلام العرب: هو المُنعم الذي قد غذي بالملذات»[(٤)].

وسبب الانتقام منهم أن من عادتهم المسارعة في تكذيب الحق ورده؛ لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة والانغماس في ملذات وشهوات الدنيا؛ لأن الإيمان معناه في نظرهم[(٥)]: ترك ما هم عليه من النعيم، ترك ما هم فيه من الجاه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤١٥)، فتح القدير (٣/ ٣٩٩).

(٢) لسان العرب (٢/ ٣٠) مادة «ترف».

(٣) انظر: القاموس المحيط (٢/ ١٠٦) فصل التاء، وانظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٥٣٧).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٢٩).

(٥) أي: لو آمنوا فإن معناه التنازل عن النعيم والوجاهة والسلطان.

والسلطان وكثرة الاتباع وعلو منزلتهم عند الناس، ترك ما هم فيه من حب التجبر والتسلط، ترك ما هم عليه من حب الظهور والاستشراف وقمع حرية الآخرين؛ وإلا لو أنهم آمنوا لانطوى في أيديهم خيري الدنيا والآخرة؛ ولكنهم اهتموا بالتنعم والانغماس في الشهوات، ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم[١].

وأما تخصيص المترفين بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]، فلأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل ﷺ لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة الدنيا، وما غلب على قلوبهم منها[٢].

وأما طاعة سفلتهم فتبع لهم؛ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى إلى قوله تعالى عنهم في محاجة بعضهم بعضًا: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[٣] [سبأ: ٣١].

ولذا مضت سنة الله ـ تعالى ـ في المترفين الذين أبطرتهم النعمة، كما رأينا من قارون وفرعون وهامان وغيرهم من قساة القلوب الذين كذبوا رسل الله وعادوا أولياءه، فمسخت قلوبهم من كل خير؛ لأن الترف كما يقول سيد قطب: «يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها، فلا ترى دلائل الهداية، فتستكبر على الهدى، وتصر على الباطل، ولا تنفتح للنور»[٤]. عندها يقصمها الله ـ تعالى ـ، ويذيقها العذاب في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣]؛ أي: يا من بطرتهم النعمة، فردوا الحق الذي جاءهم به الرسل من عند ربهم، فظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم، فاستحقوا العذاب، قيل لهم على وجه التهكم بهم لما رأوا مقدمات العذاب: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة؛ لعلكم

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ٤٣٧)، روح المعاني (١٢/ ١٦١).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٢/ ١٤٧).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٥/ ٢٦١).

(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩١٠)، وانظر: المصدر السابق (٤/ ٢٢١٧، ٢٢١٨).

أن تكونوا مقصودين في أمور الدنيا كما كنتم سابقًا مسؤولين من مطالب الدنيا وهيهات! لقد فات الأوان وحل بكم العقاب[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

لأنهم أبوا الحق، واستحقوا نقمة الله، عندها يسلط الله شرارهم فيعصون فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم[2].

وأما البطر فمعناه: الطغيان عند النعمة، وعدم القيام بشكرها[3]. ويطلق أيضًا على كفران النعمة؛ أي: سترها بترك أداء شكرها[4]. والحاصل أن البطر هو الطغيان وكفر النعم.

وسنة الله في البطر وأهله تخريب ديارهم وإهلاكهم، كما رأينا في قصة أهل سبأ وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة وغيرهم، فكما أهلك أولئك أو مزقهم في الأرض عقوبة لهم فهو القادر ﷻ أن يجري سنته على من كان مثلهم في كل زمان، وما يحصل في هذه الأزمان من دمار وحروب وزلازل وتشريد وجوع وخوف ما هو إلا من سنة الله - تعالى - التي لا تتخلف عن موعدها إذا توفرت أسبابها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال عن أهل سبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: لا يغيّر ما بقوم من النعمة والعافية بأن يسلبها منهم حتى يغيروا ما بأنفسهم مما اتصفوا به من الطاعات إلى كثرة المعاصي واقتراف المناهي[5].

وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٣). تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٧٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٠٦). وانظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣٢). ومعنى «أمرنا» في الآية: أي أمرنا أهلها بالطاعة، فعصوا وفسقوا فيها، فحق عليها القول. انظر: المصدر السابق (١٧/ ٤٠٦).

(٣) انظر: لسان العرب (١/ ٤٣٠) مادة «بطر».

(٤) انظر: مفردات الراغب ص(٤٥١).

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ٥١٧).

والأمم التي أهلكها الله بسبب بطرها كثيرة، ولا زالت بعض آثارها إلى اليوم، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا، وكان الوارث لها هو الله ﷻ فلم يكن لمساكنهم وارث، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها، لا مالك لها إلا الله الذي له ميراث السماوات والأرض[١].

ثامنًا: المكر:

المكر: هو الاحتيال في خفية[٢].

وفي تفسير المنار: «هو في الأصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب»[٣].

وما نقصده هنا: المكر الذي يصد عن سبيل الله وعن الدعوة إليه، أو المكر بأنبياء الله وإيذاءهم، قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

والمعنى: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك[٤].

وإنما خصهم بالذكر هنا لأنهم أقدر على الفساد وأقوى من غيرهم على حمل الناس على اتباعهم في باطلهم[٥].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

والمعنى: قد مكر الذين من قبلهم (أي: مشركي مكة)، فدمر الله بنيانهم من أصولها، وجاءهم العذاب من مأمنهم[٦].

* قال الشوكاني: «أكثر المفسرين على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الآية هو النمرود بن كنعان عندما بنى بناءً عظيمًا في بابل أراد به

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٦٠٢).

(٢) لسان العرب (١٣/ ١٥٩) مادة «مكر»، وانظر: الفروق اللغوية للعسكري ص(٢١٥)، وانظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٤/ ٥١٦).

(٣) تفسير المنار (٣/ ٣١٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٨).

(٥) تفسير الكشاف (٢/ ١٧٢)، القرطبي (٧/ ٧٠)، الألوسي (٨/ ٢٢).

(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٩٦).

الصعود إلى السماء ومحاربة أهلها فدمَّر الله بنيانه من القواعد[1]. ثم قال: والأولى أن الآية عامّة في جميع المبطلين»[2].

ومثل حال هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله بتبليغ شرعه حال من كان قبلهم حين دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا برسل الله، كحال قوم بنوا بنيانًا وعمدوه بأعمدة فضعفت، فسقط عليهم سقفها، فهلكوا تحته جميعًا، فما ظنوه سبب القوة والتحصين صار سبب هلاكهم، فكذلك كانت عاقبة مكرهم وبالًا عليهم[3].

*** أمثلة:**

رأينا مما سبق كيف مكر الكفرة برسولهم بمحاولة قتله وقتل أهله ما قصه الله علينا من أخبار ثمود مع نبيهم صالح ﷺ، وكيف أن رهطًا منهم اتفقوا على قتله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨ ـ ٥١].

ورأينا مدى مكر اليهود بعيسى ﷺ، وكيف أرادوا قتله غيلة[4]، فرفع الله نبيه إليه وألقى شبهه على آخر، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

ومكر كفار قريش برسول الله ﷺ وتنادوا فيما بينهم بقتله أو حبسه أو إخراجه من مكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ونجى الله رسوله من مكرهم، وحاق بهم مكرهم يوم بدر وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

* وعند ابن كثير في تفسيره والسيوطي في الدر[5] «قال محمد بن كعب

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٥٧). (٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير المراغي (١٤/ ٧٠ ـ ٧١).

(٤) تفسير الكشاف (١/ ٣٦٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٩)، الدر المنثور (٥/ ٤٨٠).

القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر، أو بغى، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]».

والمقصود من كل هذا أن سنة الله في المكر والماكرين ماضية إلى يوم القيامة يمحق الله بها الباطل وأهله، قال الله - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

تاسعًا: الصد عن مساجد الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

وهذه من المعاصي العظيمة التي يعاقب الله عليها، وتكون سببًا في انتقام الله - تعالى - ممن يفعل ذلك. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، فالآية مشعرة بأن ظلمه من أعظم الظلم بعد الشرك بالله - تعالى -(١).

وقد ذكر المفسرون أسبابًا لنزول هذه الآية لا يصح شيء منها(٢)، والصحيح أن العبرة بعموم اللفظ، كما قال الزمخشري: «إن الآية وإن كانت في مسجد معين لكن الحكم عام في كل المساجد»(٣). والمقصود أن الآية تتناول كل من منع من مساجد الله شيئًا أو خرب مدينة من مدن الإسلام؛ لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة؛ إذ الأرض كلها لهذه الأمة، لحديث: «**جعلت لي الأرض مسجدًا**»(٤).

وما أكثر من يخرب بيوت الله في بلاد المسلمين في هذه الأيام؛ إما بمنع

---

(١)(٢) صفوة الآثار (٢/ ٣١٤). (٣) تفسير الكشاف (١/ ١٧٩).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٣٩٦). الحديث رواه البخاري، كتاب التيمم، باب إذا لم يجد ماء ولا ترابًا (١/ ١٢٦)، برقم [٣٣٥]. ورواه مسلم، كتاب المساجد، الباب نفسه (١/ ٣٧٠)، برقم [٥٢١].

المصلين من الصلاة فيها، كالمسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي في فلسطين، أو بمنع خطباء مساجد الله من الصدع بكلمة الحق، أو باتخاذها هدفًا لتحصيل ما يريد حكامها وسلاطينها[1]، أو بإغلاقها كلية بزعم اتخاذها غرضًا تعادي به الدول، أو تركها ـ كما يقال ـ آثارًا تاريخية عفا عليها الزمن، وكل هذا في نظري من الصد عن سبيل الله وعن مساجده التي قال الله عنها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

وقد توعد الله الذين يكبتون الدعاة ويمنعونهم من ذكره وتوحيده في مساجده، ويسعون في خرابها حسيًّا ومعنويًّا، توعدهم أعظم الوعيد بألا يدخلوها إلا خائفين؛ سواء كانوا من المشركين أو من عصاة المسلمين أو المنافقين، لا يدخلون المساجد إلا وهم خائفون محرومون من أمن المسجد الذي هو مكانه؛ لأن ذنوبهم تخيفهم وتحرمهم من المكث فيه.

وأما خزي الدنيا فهو أن يكون الحاكم الظالم للمساجد ولأهلها مخذولًا في حكمه، والمحتل الظالم كاليهود وغيرهم غير آمن في احتلاله، كما هي عاقبة العرب المشركين، ثم الصليبيين حين احتلالهم لبيت المقدس، وكما انقرض حزب القرامطة[2] المجرمين بالخزي واللعنة بعد تخريبهم في المسجد الحرام وإخافة أهله بسرقة الحجر الأسود، كما هو مشهور في كتب التاريخ.

وأما عذاب الآخرة لهم فيكفينا وصف الله بأنه عظيم، عظيم الهول، عظيم الإيلاء، عظيم الحسرة[3].

❖ ❖ ❖

---

(١) انظر: صفوة الآثار (٣١٣، ٣١٤).

(٢) القرامطة: حركة باطنية، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها الإلحاد، وهدم الأخلاق، والقضاء على الدولة الإسلامية، تنسب إلى حمدان قرامط بن الأشعث.
انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(٣٩٥)، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن ص(١٨٧ ـ ٥٠٣، ٥٠٨).

(٣) انظر: صفوة الآثار (٢/ ٣١٦).

التوصيات والمقترحات

< ١ ـ الالتزام بأوامر الله ﷻ والبعد عن معاصيه خير عمل ينجو به العبد من عقاب الله الدنيوي والأخروي؛ لذا فإني أوصي نفسي وإخواني المسلمين وخاصة الشباب منهم بالالتزام بالدين الإسلامي، الالتزام الحق، والبعد عن التقليد والتشبه بالكفار؛ سواء كان ذلك في العادات أو اللباس أو الكلام أو غير ذلك، ففي الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»، والناظر في حال شبابنا اليوم يجد ما يندى له الجبين من تغير الحال، وسفاهة المقال، وسهر الليالي الطوال، نسأل الله ـ تعالى ـ صلاح الحال. وأقترح على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إيجاد حل لمثل هذه الأمور، ففي يدها سلطات كثيرة تستطيع ـ بإذن الله ـ القضاء عليها؛ إما بتوجيههم الوجهة الصحيحة، أو دعوتهم أو استعمالهم في مهامها، أو غير ذلك.

< ٢ ـ أوصي كل داعٍ إلى الله ـ تعالى ـ بما وصى الله به أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في قوله سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله لمحمد ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله ﷺ: «**ما يكون الرفق في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[1].

وأقترح على وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف توجيه الدعاة وتدريبهم على كيفية الدعوة اللينة، والموعظة الحسنة، والاستفادة مما كتبه العلماء في ذلك؛ فقد يكون الداعية إلى الله ذا علم لكن لا يستطيع إيصال ما يريد للناس بالطريقة الحسنة والمتزنة.

< ٣ ـ سبق وأن ذكرنا أن دين الأنبياء جميعًا هو الإسلام، وأنهم جميعًا يدعون إلى عبادة الله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

---

(١) سبق تخريجه ص(١٥٢).

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكما رأينا أن كل رسول من الرسل جاء يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف، ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وسورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، وسورة المؤمنون: ٢٣، ٣٢]؛ لأنها حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله.

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج الأديان المقارنة مع المنهج القرآني، وأنه لم يكن هناك تطور في مفهوم العقيدة الأساسي الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله، وأن الذين يتحدثون عن ذلك إنما يقولون غير ما يقوله الله ـ سبحانه(١) ـ! ويفترون على الله الكذب، إنما جاءت الرسل رسولًا بعد رسول بالتوحيد الخالص، وما حصل من انحراف في الأقوام إنما حصل حين اجتالتهم الشياطين، وطال عليهم الأمد، وكثرت المعتقدات الجاهلية، وفتحت عليهم الدنيا وغيروا وبدلوا، عندها يرسل الله رسولًا آخر ليردهم إلى الإسلام، إلى الدين الحق، إلى الحنيفية السمحة.

➢ ٤ ـ أوصي نفسي وإخواني طلاب العلم بالاستفادة من وقتهم، وذلك بإعطاء الأولوية لكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، ودراسة كتب السلف الصالح؛ وخاصة في العقيدة والتوحيد.

وأقترح أن يلزم الإنسان نفسه ببرنامج معين يسير عليه مرة في دراسة كتاب الله ـ تعالى ـ، وأخرى في سنة نبيه ﷺ، وثالثة في كتب العقيدة الصحيحة، وهكذا؛ ليكون العلم نورًا له في الدنيا، يرفع به الجهل عن نفسه وعمن يريد إصلاحه، ونورًا له في قبره، ونورًا له في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وقال ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

وأن ما يدعو إليه بعض الناس اليوم بما يسمى بزمالة الأديان، أو باسم

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٣٠٤، ١٣٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/ ١٢٥٥)، برقم [١٦٣١].

التقريب بين الأديان، وأحيانًا باسم جمعيات الصداقة بين الأديان، إنما هو انحراف عن العقيدة، وبعد عن الدين الحق، ورد لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ورد لقوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١). ولقد جاور النبي ﷺ يهود المدينة سنين طوالًا قبل أن يجليهم عنها، جادلوه خلالها وخاصموه، ودعاهم بدوره إلى كلمة الإيمان والإسلام، ولم يدعهم ولا مرة واحدة إلى التقريب بين الإسلام واليهودية، وكذلك لما جاء وفد نجران إلى المدينة، والتقوا بالنبي ﷺ ،وحاجوه في النصرانية، فدعاهم إلى المباهلة، فخافوا وأبوا أن يباهلوا، وأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ولو علم النبي ﷺ أن في القرب منهم خيرًا لفعله.

إذًا فالدعوة من هنا وهناك إلى زمالة الأديان دعوة خبيثة هدفها حب اليهود والنصارى وموالاتهم وتركهم يعيشون في الأرض الإسلامية فسادًا؛ بل دعوة أيضًا إلى ترك الجهاد في سبيل الله، والله ـ تعالى ـ قال عنهم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٠].

ولعل عذرنا في الحكم عليهم ما دهم العالم الإسلامي من الاستشراق والاستعمار في وقت من الأوقات، وهذه آثار تنضح علينا بين الفينة والأخرى لتشويه صورة الدين الإسلامي في أذهان وقلوب الناس الذين يفكرون في الخروج من الخواء الروحي الذي يعيشونه في ظل الماديات المقيتة والشهوات الرخيصة؛ لتفقد الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تميزها وصفاءها ونقاءها ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٨، ٩].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٤)، برقم [١٥٣].

لذا أدعو نفسي وإخواني المسلمين إلى الالتزام بالدين، والتمسك به، والعض بالنواجذ على مثله وقيمه العليا، والبعد عن سفاسف الأمور، وأن يكون هناك فئة من علماء المسلمين تتولى الرد على ما يثار اليوم في الصحافة والإذاعة والبث التلفزيوني وما يسمى بالإنترنت من زوبعة حول تطبيق الشريعة الإسلامية، أو حول حدودها، وأحكامها وإظهار الصورة الحقيقية للإسلام، وأنه دين المحبة والسلام.

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

❖ ❖ ❖

فهرس المصادر والمراجع

ـ أ ـ

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إبطال الحيل: لابن بطة (أبو عبد الله عبيد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي)، تحقيق: سليمان بن عبد الله العمير، ط الأولى ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة.

٣ ـ الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار التراث.

٤ ـ أحكام أهل الذمة: لابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية)، تحقيق: د. صبحي الصالح.

٥ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية: لأبي الحسن علي بن محمد البصري، ط دار الكتب العلمية.

٦ ـ أحكام القرآن: لابن العربي (أبي محمد بن عبد الله)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط دار الفكر.

٧ ـ أحكام من القرآن الكريم: محمد بن صالح العثيمين، ط دار طويق.

٨ ـ أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن: د/ سهيل ذكار، ط دار الكوثر ١٤١٠هـ، الرياض.

٩ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن الميداني، ط دار القلم.

١٠ ـ أدب الدنيا والدين: للماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري)، ط دار ابن كثير.

١١ ـ الأدب المفرد: للبخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل)، ترتيب: كمال يوسف الحوت. ط الثانية ١٤٠٥هـ، عالم الكتب.

١٢ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للشوكاني (محمد بن علي)، تحقيق: د/ شعبان محمد إسماعيل، ط الأولى ١٤١٣هـ، المكتبة التجارية.

١٣ ـ الأساس في التفسير: سعيد حوى، ط دار السلامة.

١٤ ـ أسباب النزول: للواحدي النيسابوري (أبي الحسن علي بن أحمد)، تحقيق: د/ السيد الجميلي، ط دار الريان.

١٥ ـ أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين: عبد الله التليدي، ط دار البشائر الإسلامية.
١٦ ـ الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه: عبد القادر عودة، ط دار القرآن الكريم ١٤٠٠هـ.
١٧ ـ أصول الدعوة: د/ عبد الكريم زيدان، ط مؤسسة الرسالة.
١٨ ـ أصول الفقه: محمد أبو زهرة، ط دار الفكر.
١٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن: محمد الأمين الشنقيطي، ط عالم الكتب.
٢٠ ـ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: محمد كامل عبد الصمد، ط الدار المصرية اللبنانية.
٢١ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين.
٢٢ ـ إعلام الموقعين: لابن القيم، ط دار إحياء التراث.
٢٣ ـ أفغانستان الجريحة: محمد محمد توفيق، ط مؤسسة الجزيرة.
٢٤ ـ إقامة الدليل على إبطال التحليل: شيخ الإسلام ابن تيمية، ط دار الكتب العلمية.
٢٥ ـ الاكتساب في الرزق المستطاب: محمد بن الحسن الشيباني تحقيق: محمد عرنوس، ط دار الكتب العلمية.
٢٦ ـ اقتضاء الصراط المستقيم: شيخ الإسلام ابن تيمية، دار مصر.
٢٧ ـ اقتضاء العلم والعمل: للخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي.
٢٨ ـ الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف في الأسماء والكنى والأنساب: لابن ماكولا (علي بن هبة الله)، ط الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية.
٢٩ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د/ محمد السيد الجنيد، ط دار المجتمع.
٣٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: د/ محمد عبد القادر، دار الفرقان.
٣١ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: للمرداوي (علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان)، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط مكتبة السنة المحمدية، توزيع مكتبة ابن تيمية.
٣٢ ـ الأنبياء في القرآن: سعيد صادق محمد، ط دار اللواء.
٣٣ ـ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر الرازي، ط دار الفكر المعاصر، دار الفكر دمشق.
٣٤ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر)، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥ ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لأبي بكر: جابر الجزائري، ط مكتبة العلوم والحكم.

٣٦ ـ الإيمان: لشيخ الإسلام ابن تيمية، خرج أحاديثه: الألباني، ط المكتب الإسلامي.

ـ ب ـ

٣٧ ـ البحر المحيط: وبهامشه (النهر الماد)، لأبي حيان (محمد بن يوسف)، ط دار المؤيد.

٣٨ ـ البحر المحيط: لأبي حيان، ط دار الكتب العلمية.

٣٩ ـ بدائع الصنائع: للكاساني (علاء الدين أبي بكر بن مسعود)، ط المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

٤٠ ـ البرهان في متشابه القرآن: محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، ط دار الوفاء.

٤١ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي، ط المكتبة العصرية، بتحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، صيدا ـ لبنان.

ـ ت ـ

٤٢ ـ تاريخ ابن خلدون: (عبد الرحمن بن خلدون)، ط الأولى ١٤٠١هـ، دار الفكر.

٤٣ ـ تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن علي الخطيب).

٤٤ ـ تاريخ الطبري: لابن جرير الطبري، ط الثانية، دار المعارف ـ مصر.

٤٥ ـ التاريخ الكبير: للإمام البخاري، ط دار الكتب العلمية، ط أخرى مؤسسة الكتب الثقافية.

٤٦ ـ تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله الشافعي)، ط دار الفكر.

٤٧ ـ تأملات في سورة المائدة: حسن باجودة، ط نادي مكة.

٤٨ ـ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: للزيلعي (عثمان بن علي فخر الدين)، ط دار المعرفة.

٤٩ ـ التبيين في أنساب القرشيين: لابن قدامة المقدسي (موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد)، ط عالم الكتب.

٥٠ ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ط مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

٥١ ـ تذكرة الأريب في تفسير الغريب: أبو الفرج بن الجوزي، ط الأولى، ١٤٠٧هـ، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق: د/ علي حسن البوّاب.

٥٢ ـ تذكرة الحفاظ: للذهبي (أبي عبد الله شمس الدين)، ط أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة.

٥٣ ـ الترغيب والترهيب: للمنذري (عبد العظيم بن عبد القوي)، ط مؤسسة التاريخ العربي.
٥٤ ـ التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جزي الكلبي، ط دار الكتاب العربي.
٥٥ ـ التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي: عبد القادر عودة، ط مؤسسة الرسالة.
٥٦ ـ التعريفات: للجرجاني، (علي بن محمد بن علي)، بتحقيق: إبراهيم الأبياري، ط دار الكتاب العربي.
٥٧ ـ تفسير ابن عطية: المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (لأبي محمد عبد الحق بن غالب) بتحقيق: عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال، ط أمير قطر.
٥٨ ـ تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، ط دار المعرفة، بيروت.
٥٩ ـ تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل): لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، ط دار الكتب العلمية.
٦٠ ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن، دار الباز.
٦١ ـ تفسير القرآن: لأبي المظفر السمعاني، (منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي)، ط دار الوطن.
٦٢ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي) تحقيق: أسعد الطيب، ط مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض.
٦٣ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي)، ط دار المعرفة، ١٤١٣هـ.
٦٤ ـ تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر.
٦٥ ـ تفسير معاني القرآن الكريم: للإمام أبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط معهد البحوث العلمية.
٦٦ ـ تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، ط دار الفكر.
٦٧ ـ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د/ وهبة الزحيلي، ط دار الفكر المعاصر.
٦٨ ـ التفسير الواضح: محمد محمود حجازي، ط العاشرة مكتبة دار التفسير بالزقازيق.
٦٩ ـ التفسير والمفسرون: د. محمد بن حسين الذهبي، ط دار إحياء التراث العربي.
٧٠ ـ تقريب التهذيب: لابن حجر العسقلاني (أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد) ط دار الرشيد.

٧١ ـ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: لابن حجر العسقلاني، بتحقيق: د/شعبان محمد إسماعيل، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٧٢ ـ التمهيد: لابن عبد البر (أبي عمر يوسف عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي)، ط وزارة الأوقاف بالمغرب.
٧٣ ـ تهذيب التفسير وتجريد التأويل: عبد القادر شيبة الحمد، ط مكتبة المعارف، الرياض.
٧٤ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط دار المدني ـ جدة.
٧٥ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير المنان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط دار طيبة.
٧٦ ـ تيسير المنان في قصص القرآن: أحمد فريد، ط دار ابن الجوزي.

ـ ج ـ

٧٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول: محمد بن الأثير الجزري، ط الثانية ١٤٠٣هـ، المكتبة التجارية.
٧٨ ـ جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري.
٧٩ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لابن جرير الطبري، (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري)، تحقيق: محمود شاكر، ط الثانية، دار المعارف.
٨٠ ـ الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي)، ط دار الفكر.
٨١ ـ جمهرة الأمثال: للنيسابوري الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد)، ط الأولى، دار الكتب العلمية.
٨٢ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: مجدي قاسم، توزيع مكتبة البلد الأمين.
٨٣ ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: لأبي محمد عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي، ط مؤسسة الرسالة.
٨٤ ـ الجهاد ضد الإلحاد: أحمد الحصين، نشر مكتبة البخاري.

ـ ح ـ

٨٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني (أحمد بن عبد الله)، ط دار الكتاب العربي.
٨٦ ـ الحماسة: لأبي تمام الطائي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود.

- خ -

٨٧ ـ خطبة الحاجة: محمد ناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي.

- د -

٨٨ ـ الداء والدواء: لابن القيم، ط دار الحديث.
٨٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للسيوطي، دار الكتب العلمية.
٩٠ ـ درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: لأبي عبد الله الإسكافي، ط دار السعادة، بجوار محافظة مصر.
٩١ ـ دعوة الرسل إلى الله ـ تعالى ـ: محمد أحمد العدوي، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٤هـ.
٩٢ ـ ديوان امرئ القيس: ط دار صادر.
٩٣ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى: ط دار صادر.
٩٤ ـ ديوان طرفة بن العبد: ط دار صادر.
٩٥ ـ ديوان كثير عزة: ط دار صادر.
٩٦ ـ ديوان لبيد: ط دار صادر.

- ذ -

٩٧ ـ ذم الهوى: لابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.

- ر -

٩٨ ـ الرؤية: للحافظ أبي الحسن الدارقطني، ط مكتبة المنار.
٩٩ ـ رؤية الله ـ تعالى ـ وتحقيق الكلام فيها: د/ أحمد بن ناصر الحمد، ط معهد البحوث العلمية ـ جامعة أم القرى.
١٠٠ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي (أبي الفضل السيد محمود الألوسي البغدادي)، ط دار إحياء التراث الإسلامي.

- ز -

١٠١ ـ زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي)، ط دار الفكر.
١٠٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم، ط مؤسسة الرسالة.

- س -

١٠٣ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: للألباني، ط المكتب الإسلامي.

١٠٤ ـ سنن ابن ماجه: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار البيان.
١٠٥ ـ سنن أبي داود: (سليمان بن الأشعث السجستاني)، تحقيق: عزت الدعاس، ط دار الحديث.
١٠٦ ـ سنن الترمذي: تحقيق: كمال يوسف الحوت، المكتبة التجارية.
١٠٧ ـ سنن الدارقطني: ط دار إحياء التراث العربي.
١٠٨ ـ سنن الدارمي: (أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي)، ط دار الكتاب العربي.
١٠٩ ـ السنن الكبرى: للبيهقي، (أبي بكر أحمد بن الحسين)، ط دار المعرفة.
١١٠ ـ السنن الكبرى للنسائي: ط دار الكتب العلمية.
١١١ ـ سنن النسائي بشرح السيوطي: ط دار المعرفة.
١١٢ ـ سير أعلام النبلاء: للذهبي، ط مؤسسة الرسالة.
١١٣ ـ سيرة ابن هشام: ط دار التراث.

- ش -

١١٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي (عبد الحي)، ط دار ابن كثير.
١١٥ ـ شذرات الذهب: لابن هشام النحوي، ط المكتبة العصرية، توزيع دار الفكر، صيدا ـ بيروت.
١١٦ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ط المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.
١١٧ ـ شرح ديوان جميل بثينة: جميل بن معمر، ط دار صادر، بيروت.
١١٨ ـ شرح السنة: للإمام البغوي (الحسين بن مسعود البغوي)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط المكتب الإسلامي.
١١٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، ط الثانية، مؤسسة الرسالة.
١٢٠ ـ الشرح الكبير على متن المقنع: لابن قدامة المقدسي، ط دار الفكر.
١٢١ ـ شرح مشكل الآثار: أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
١٢٢ ـ شرح المعلقات العشر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، ط دار الكتاب العربي ١٤١٣هـ.
١٢٣ ـ شرح النووي على مسلم: ط دار الكتاب العربي.
١٢٤ ـ شعب الإيمان: للبيهقي، ط دار الكتب العلمية.

١٢٥ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن القيم، مكتبة السوادي للتوزيع.
١٢٦ ـ الشواهد الشعرية في تفسير القرطبي: د. عبد العال سالم مكرم، ط الأولى، عالم الكتب.

ـ ص ـ

١٢٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي)، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة.
١٢٨ ـ صحيح الأدب المفرد: للألباني، ط دار الصديق.
١٢٩ ـ صحيح البخاري المسمى (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه): المطبعة السلفية.
١٣٠ ـ صحيح الجامع الصغير: للألباني، ط المكتب الإسلامي.
١٣١ ـ صحيح سنن ابن ماجه: للألباني، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج.
١٣٢ ـ صحيح أبي داود: للألباني، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج.
١٣٣ ـ صحيح سنن الترمذي: للألباني، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج.
١٣٤ ـ صحيح سنن النسائي: للألباني، ط مكتبة التربية العربي لدول الخليج.
١٣٥ ـ صحيح القصص النبوي: د/ عمر سليمان الأشقر، ط دار النفائس.
١٣٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: ط دار الكتاب العربي.
١٣٧ ـ صحيفة علي بن طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن العظيم: اعتنى بها راشد عبد المنعم الرجال، ط مكتبة السنة.
١٣٨ ـ صفة جزيرة العرب: للهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)، بتحقيق: محمد بن علي الحوالي، ط دار اليمامة. الرياض، سنة ١٣٩٧هـ.
١٣٩ ـ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم: عبد الرحمن بن محمد الدوسري، ط الأولى مكتبة دار الأرقم.

ـ ط ـ

١٤٠ ـ طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي، ط دار إحياء الكتب العربي.
١٤١ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: لابن القيم، ط دار الكتب العلمية.

ـ ظ ـ

١٤٢ ـ العبرة من قصة موسى: محمد خير عدوي، رسالة ماجستير.
١٤٣ ـ العجاب في بيان الأسباب: لابن حجر العسقلاني، ط دار ابن الجوزي.

١٤٤ ـ عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي في النسب: للحازمي الهمذاني، ط القاهرة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٣٨٤هـ.
١٤٥ ـ عدة الصابرين: لابن القيم، ط دار الكتب العلمية.
١٤٦ ـ العظمة: لأبي الشيخ الأصبهاني (أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان)، تحقيق: رجاء الله المباركفوري، تحقيق: رضاء الله بن محمد المباركفوري، ط دار العاصمة ـ الرياض.
١٤٧ ـ العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم: لابن أبي الدنيا (أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد)، ط دار ابن حزم.
١٤٨ ـ علل الترمذي الكبير: بترتيب أبي طالب القاضي تحقيق: حمزة ديب مصطفى، ط مكتبة الأقصى.
١٤٩ ـ العلمانية: نشأتها: تطورها، آثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ط مؤسسة قرطبة.
١٥٠ ـ علم المعاني: البيان البديع، د/ عبد العزيز عتيق، ط دار النهضة العربية.
١٥١ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، ط دار المعرفة.
١٥٢ ـ عمل اليوم والليلة للنسائي: (أحمد بن شعيب)، ط دار الفكر.
١٥٣ ـ عمل اليوم والليلة: لابن السني (أبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق)، ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٤هـ.
١٥٤ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط مكتبة ابن تيمية سنة ١٤١٢هـ.

ـ ف ـ

١٥٥ ـ فتح الباريء شرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط دار الكتب العلمية.
١٥٦ ـ فتح القدير: لكمال الدين محمد بن الواحد، ط دار إحياء التراث العربي.
١٥٧ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للشوكاني، ط أم القرى.
١٥٨ ـ الفتن: لأبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي، ط دار التوحيد.
١٥٩ ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل، ط البابي الحلبي.
١٦٠ ـ الفردوس بمأثور الخطاب: للديلمي الهمذاني (أبي شجاع شيرويه بن شهردار)، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، ط الأولى، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٦هـ، بيروت.

١٦١ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط الرابعة، المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ.
١٦٢ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبي محمد بن حزم الظاهري، ط دار الجيل.
١٦٣ ـ الفوائد: لابن القيم، ط دار مصر للطباعة.
١٦٤ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية: لأبي الحسنات الكنوي الهندي، ط مكتبة خير كثير.
١٦٥ ـ الفهرست: لابن النديم (أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالورّاق)، ط الثالثة، دار المسيرة.
١٦٦ ـ فيض القدير بشرح الجامع الصغير: للمناوي (محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي)، ط دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
١٦٧ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، ط دار الشروق.

ـ ق ـ

١٦٨ ـ القاموس المحيط: فيروزآبادي، ط إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي.
١٦٩ ـ قصص الأنبياء «عرائس المجالس»: لأحمد بن محمد الثعلبي، ط مصطفى البابي الحلبي.
١٧٠ ـ القصص في القرآن بين الآباء والأبناء: عماد زهير حافظ، ط دار القلم، دمشق.
١٧١ ـ قضية البوسنة والهرسك: الأرقم الزعبي، ط دار النفائس.
١٧٢ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد: محمد بن صالح العثيمين، ط دار العاصمة.

ـ ك ـ

١٧٣ ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني)، تحقيق: عبد الله القاضي، ط دار الكتب العلمية.
١٧٤ ـ الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عدي، ط دار الفكر.
١٧٥ ـ كتاب التوحيد: عبد المجيد الزنداني، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع.
١٧٦ ـ الكشاف: للزمخشري، ط دار التراث.
١٧٧ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: للعجلوني (إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي)، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.
١٧٨ ـ كشف المعاني في المتشابه من المثاني: بدر الدين بن جماعة، ط دار الوفاء، المنصورة.

١٧٩ ـ الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكنوي، ط الأولى، دار الرسالة.
١٨٠ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين علي المتقي البرهان فوري، ط مؤسسة الرسالة.
١٨١ ـ الكيد الأحمر: عبد الرحمن الميداني، ط دار القلم، دمشق.

ـ ل ـ

١٨٢ ـ لسان العرب: لابن منظور (محمد بن مكرم)، ط دار إحياء التراث الإسلامي.
١٨٣ ـ اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، ط دار الكتب العلمية.

ـ م ـ

١٨٤ ـ المبسوط: للسرخسي (شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي)، ط دار المعرفة ١٤١٤هـ، بيروت ـ لبنان.
١٨٥ ـ مجاز القرآن: لأبي عبيدة: معمر بن المثنى، تحقيق: د/ محمد فؤاد سزكين، ط مؤسسة الرسالة.
١٨٦ ـ مجلة رابطة العالم الإسلامي لشهر ذي القعدة ١٤٠٢هـ.
١٨٧ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، ط دار الفكر.
١٨٨ ـ مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
١٨٩ ـ مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: ط «ق» بممباي، الهند ١٣٧٤هـ.
١٩٠ ـ مجموعة التوحيد: لابن تيمية الحراني، ومحمد بن عبد الوهاب النجدي، ط دار اليقين.
١٩١ ـ محاسن التأويل: للقاسمي (محمد جمال الدين)، ط دار الفكر، بيروت.
١٩٢ ـ المحلى: لابن حزم الظاهري، تصحيح: حسن زين طلبة، ط مكتبة الجمهورية العربية.
١٩٣ ـ محيط المحيط: بطرس البستاني، ط مكتبة لبنان.
١٩٤ ـ مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة التجارية.
١٩٥ ـ مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك الحاكم: تحقيق: سعد آل حميد، ط دار العاصمة.
١٩٦ ـ مختصر طبقات الحنابلة: محمد جميل بن عمر البغدادي المعروف بابن الشطي، ط دار الكتاب العربي.

١٩٧ ـ مدارج السالكين: لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

١٩٨ ـ مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب، ط دار الشروق.

١٩٩ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة: عبد الله بن سليمان الأحمدي، ط دار طيبة.

٢٠٠ ـ مستدرك الحاكم (أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري): بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط الأولى، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية.

٢٠١ ـ المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: د/ عبد الكريم زيدان، ط مؤسسة الرسالة.

٢٠٢ ـ مسند أحمد: ط مؤسسة قرطبة.

٢٠٣ ـ مسند البزار (البحر الزخار): لأبي بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق العتكي البزار، بتحقيق: د/ محفوظ الرحمن زين الدين، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٠٤ ـ مسند الشاميين: للطبراني (أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، ط الثانية، مؤسسة الرسالة، بتحقيق: حميد السلفي ١٤١٧هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

٢٠٥ ـ مسند الشهاب: (للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي)، بتحقيق: حمدي السلفي، ط الأولى سنة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

٢٠٦ ـ مشكاة المصابيح: للخطيب التبريزي (محمد بن عبد الله)، بتحقيق: الألباني، ط الثالثة ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي.

٢٠٧ ـ معارج الصعود إلى تفسير سورة هود: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ط دار المجتمع.

٢٠٨ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: حافظ أحمد الحكمي، ط دار ابن القيم.

٢٠٩ ـ معالم التنزيل (تفسير البغوي) (أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي): بتحقيق: محمد النمر وآخرين، ط الثانية، سنة ١٤١٤هـ، دار طيبة.

٢١٠ ـ مع الأنبياء في القرآن: عفيف عبد الفتاح طيارة، ط دار العلم للملايين.

٢١١ ـ معاني القرآن: للفراء (أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء)، بتحقيق: أحمد نجاني، محمد النجار، ط دار السرور.

٢١٢ ـ معاني القرآن وإعرابه: للزجاج (أبي إسحاق إبراهيم بن السري)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط عالم الكتب.

٢١٣ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)، تحقيق: محمد علي البجاوي، ط دار الفكر العربي.
٢١٤ ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي، ط دار صادر، بيروت، ط أخرى، دار الكتب العلمية.
٢١٥ ـ معجم الصحابة: لابن قانع، ط مكتبة الغرباء الأثرية.
٢١٦ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبد العزيز البكري الأندلسي، تحقيق: مصطفى السقا، ط عالم الكتب.
٢١٧ ـ معجم مفردات القرآن: للراغب الأصفهاني، ط دار الفكر.
٢١٨ ـ معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، ط دار الفكر.
٢١٩ ـ المعجم الوسيط: د/ إبراهيم أنيس وآخرون، ط المكتبة الإسلامية باستانبول ـ تركيا.
٢٢٠ ـ معونة أولى النهى شرح المنتهى: د/ عبد الملك بن دهيش ط دار الفكر، الناشر المكتبة الإسلامية.
٢٢١ ـ المغني: لابن قدامة، ط مكتبة الرياض الحديثة.
٢٢٢ ـ مغني المحتاج: للشربيني (محمد بن أحمد شمس الدين)، ط دار الفكر الناشر، المكتبة الإسلامية.
٢٢٣ ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): للرازي، ط دار التراث العربي.
٢٢٤ ـ مفتاح دار السعادة: لابن القيم، ط دار الكتب العلمية.
٢٢٥ ـ المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، ط دار الفكر.
٢٢٦ ـ ملحمة البوسنة والهرسك: د/ عدنان النحوي، دار النحوي.
٢٢٧ ـ المنتخب في تفسير القرآن والسنة: لجنة القرآن والسنة، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢٢٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي، ط دار الكتب العلمية.
٢٢٩ ـ منتهى الإيرادات: ابن النجار (محمد تقي الدين بن أحمد شهاب الدين). ط دار العروبة.
٢٣٠ ـ من صفات الداعية: محمد لطفي الصباغ، ط الثالثة، ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي.
٢٣١ ـ من عاش بعد الموت: لابن أبي الدنيا، ط مكتبة السنة.
٢٣٢ ـ من علم الفلك القرآني: د/ عدنان الشريف، ط دار العلم للملايين.
٢٣٣ ـ منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: محمد سرور بن نايف زين العابدين، ط الأولى، الكويت، دار الأرقم.

٢٣٤ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: للهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر)، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد العرقسوس، ط الأولى ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة.
٢٣٥ ـ الموسوعة العلمية الميسرة: شاهين ود/ يوسف دياب وأحمد الخطيب، ط مكتبة لبنان.
٢٣٦ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط الثانية ١٤٠٩هـ.
٢٣٧ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: للغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، ط دار الغرب الإسلامي.
٢٣٨ ـ ميزان الاعتدال: للذهبي، بتحقيق: علي البجاوي، ط الأولى ١٣٨٢هـ، دار المعرفة.

ـ ن ـ

٢٣٩ ـ نصب الراية: للزيلعي (جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي)، ط الثالثة ١٤٠٧هـ، دار إحياء التراث العربي.
٢٤٠ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للبقاعي، ط دار الكتاب الإسلامي.
٢٤١ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، ط دار الفكر.
٢٤٢ ـ نهر الخير على أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري، ط مكتبة دار العلوم والحكمة.

ـ و ـ

٢٤٣ ـ الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: ابن القيم، ط مكتبة المؤيد.
٢٤٤ ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ط الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.
٢٤٥ ـ وفيات الأعيان وإنباء الزمان: لابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، بتحقيق: د/ إحسان عباس، ط دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
٢٤٦ ـ الولاء والبراء: محمد سعيد القحطاني، ط دار طيبة.

ـ ي ـ

٢٤٧ ـ يتيمة الدهر: للثعالبي (أبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري)، تحقيق: محمد عبد الحميد، ط دار السعادة.
٢٤٨ ـ اليهودية والماسونية: للشيخ عبد الرحمن الدوسري، ط دار السنة ١٤١٤هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
* المقدمة	٥
* تمهيد *	٢١
المبحث الأول: تعريف العقوبة	٢٣
المبحث الثاني: الفرق بين العقوبة والحد	٢٥
* الفصل الأول * العقوبة في بدء الخلق	٢٧
المبحث الأول: عقوبة إبليس	٢٩
ـ الآيات التي تناولت هذه العقوبة	٢٩
السور التي أشارت إلى العقوبة دون تفصيل	٢٩
السور التي فصلت عقوبة إبليس	٣٠
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات	٣٠
سورة «الأعراف»	٣٦
سورة «الحجر»	٤٣
سورة «الإسراء»، ولطائف الآيات	٤٧
سورة «طه»	٤٩
سورة «ص»، ولطائف الآيات	٥٢
ـ سبب عقوبة إبليس	٥٤
سبب امتناع إبليس عن السجود	٥٦
ـ نوع العقوبة	٥٨
ـ الدروس المستفادة من عقوبة إبليس	٦١
المبحث الثاني: عقوبة آدم وحواء عليهما السلام	٦٧
ـ الآيات التي ذكرت عقوبته وعقوبة زوجه من سورة «البقرة»	٦٧
ـ سبب العقوبة	٦٨
آدم وزوجه في الجنة	٦٨

الموضوع	**رقم الصفحة**

تحذير الله لآدم وزوجه من طاعة إبليس ٧٠
ضعف آدم وزوجه أمام وسوسة إبليس ٧١
ـ نوع العقوبة ٧٤
ـ الدروس المستفادة من عقوبة سيدنا آدم عليه السلام ٧٦
المبحث الثالث: عقوبة قابيل ٨٦
ـ الآيات التي تحدثت عن ذلك ٨٦
ـ سبب العقوبة ٨٨
ـ نوع العقوبة ٩١
ـ الدروس المستفادة من قصة قابيل ٩٤
تعريف الحسد، ومراتبه، أسبابه وعلاجه ٩٥

*** الفصل الثاني ***

العقوبات الإلهية من زمن نوح إلى بداية زمن موسى عليه السلام ١٠١
المبحث الأول: عقوبة قوم نوح عليه السلام ١٠٣
ـ الآيات التي ذكرت العقوبة ١٠٤
ـ السور التي ذكرت العقوبة ١٠٤
السور التي فصلت عقوبتهم ١٠٧
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ١٠٧
سورة «يونس»، ولطائف الآيات ١٠٨
سورة «هود»، ولطائف الآيات ١٠٩
سورة «المؤمنون» ١١٥
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات ١١٧
سورة «العنكبوت»، ولطائف الآيات ١١٩
سورة «الصافات»، ولطائف الآيات ١٢٠
سورة «القمر»، ولطائف الآيات ١٢٢
سورة «نوح»، ولطائف الآيات ١٢٤
ـ سبب العقوبة ١٢٦
نماذج من دعوة نوح عليه السلام ١٢٧
وقفة تأمل قبل نزول العذاب ١٣٠
ـ نوع العقوبة ١٣٣

الموضوع	رقم الصفحة

الأمر الإلهي بصنع السفينة ١٣٤
محاولة أخيرة لنوح في الدعوة ١٣٥
عظم هول العقوبة ١٣٦
نداء ومناجاة ١٣٧
توبة نوح ونجاته ١٣٨
- الدروس المستفادة من قصة نوح عليه السلام ١٣٩
درس في الدعوة إلى الله - تعالى -، وصفات الداعية ١٣٩
درس في قوة العزيمة ١٥٢
درس في الولاء والبراء حتى مع الأقرباء ١٥٩
بعض من مظاهر موالاة الكفار التي نهى الله عنها ١٦٤
درس في حقائق القرآن العلمية من قصة نوح عليه السلام ١٦٧
المبحث الثاني: عقوبة قوم هود عليه السلام ١٧٠
- الآيات التي ذكرت عقوبتهم ١٧١
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ١٧٢
سورة «هود»، ولطائف الآيات ١٧٥
سورة «المؤمنون»، ولطائف الآيات ١٧٩
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات ١٨١
سورة «فصلت»، ولطائف الآيات ١٨٢
سورة «الأحقاف»، ولطائف الآيات ١٨٣
سورة «الذاريات»، ولطائف الآيات ١٨٤
سورة «القمر»، ولطائف الآيات ١٨٥
سورة «الحاقة»، ولطائف الآيات ١٨٦
سورة «الفجر»، ولطائف الآيات ١٨٧
- سبب العقوبة ١٨٨
نماذج من دعوة سيدنا هود عليه السلام ١٨٨
وقفة تأمل قبل نزول العذاب ١٩١
- نوع العقوبة ١٩٢
عظم هلاك عاد قوم هود ١٩٢
نجاة هود والمؤمنين ١٩٦
- الدروس المستفادة من عقوبة قوم هود عليه السلام ١٩٦

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الثالث: عقوبة قوم صالح عليه السلام ٢٠٥
- الآيات التي ذكرت عقوبتهم دون تفصيل ٢٠٦
السور التي فصلت عقوبتهم ٢٠٨
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٢٠٨
سورة «هود»، ولطائف الآيات ٢١٢
سورة «الحجر»، ولطائف الآيات ٢١٥
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات ٢١٥
سورة «النمل»، ولطائف الآيات ٢١٧
سورة «الذاريات»، ولطائف الآيات ٢١٨
سورة «القمر»، ولطائف الآيات ٢١٩
سورة «الشمس»، ولطائف الآيات ٢٢١
- سبب العقوبة ٢٢٢
نماذج من دعوة صالح عليه السلام ٢٢٢
وقفة قبل النهاية ٢٢٤
- نوع العقوبة ٢٢٦
- عظم هول العقوبة ٢٢٨
نجاة صالح ومن آمن معه ٢٣١
العبر المستفادة من عقوبة قوم صالح عليه السلام ٢٣٢
المبحث الرابع: عقوبة قوم لوط عليه السلام ٢٤٤
- الآيات التي ذكرت عقوبتهم دون تفصيل ٢٤٥
السور التي فصلت عقوبتهم ٢٤٦
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٢٤٦
سورة «هود»، ولطائف الآيات ٢٤٨
سورة «الحجر»، ولطائف الآيات ٢٥٠
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات ٢٥٣
سورة «النمل»، ولطائف الآيات ٢٥٤
سورة «العنكبوت»، ولطائف الآيات ٢٥٥
سورة «الصافات»، ولطائف الآيات ٢٥٨
سورة «القمر»، ولطائف الآيات ٢٥٩
- سبب العقوبة ٢٦١

الموضوع	رقم الصفحة
نماذج من دعوة سيدنا لوط عليه السلام	٢٦١
وقفة تأمل قبل النهاية	٢٦٤
ـ نوع العقوبة	٢٦٩
نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه	٢٧١
ـ الدروس المستفادة من عقوبة قوم لوط	٢٧٣
خلاف العلماء في عقوبة اللوطي	٢٨٠
وسائل لمنع ظهور فاحشة اللواط	٢٨٤
المبحث الخامس: عقوبة قوم شعيب عليه السلام	٢٨٦
ـ الآيات التي أشارت إجمالًا لعقوبتهم	٢٨٧
الآيات التي فصلت عقوبتهم	٢٨٧
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات	٢٨٨
سورة «هود»، ولطائف الآيات	٢٩٠
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات	٢٩٣
ـ سبب العقوبة	٢٩٩
نماذج من دعوة شعيب عليه السلام وقومه	٣٠٠
وقفة قبل النهاية	٣١١
ـ نوع العقوبة، وعظم هولها	٣١٥
نجاة شعيب ومن آمن معه	٣١٧
ـ الدروس المستفادة من عقوبة قوم شعيب عليه السلام	٣١٧
المبحث السادس: عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة «يس»	٣٢٥
ـ الآيات التي تحدثت عنهم	٣٢٥
ـ سبب العقوبة	٣٣١
وقفة قبل النهاية	٣٣٣
ـ نوع العقوبة	٣٣٥
ـ الدروس المستفادة من عقوبة أصحاب القرية	٣٣٨
*** الفصل الثالث ***	
العقوبات الإلهية في عهد موسى عليه السلام	٣٤٥
المبحث الأول: عقوبة فرعون وقومه	٣٤٩
السور التي أشارت إلى عقوبتهم دون تفصيل	٣٤٩

الموضوع	رقم الصفحة

السور التي فصلت عقوبتهم ٣٥٦
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٣٥٦
سورة «يونس»، ولطائف الآيات ٣٦٠
سورة «طه»، ولطائف الآيات ٣٦٣
سورة «الشعراء»، ولطائف الآيات ٣٧١
سورة «النمل»، ولطائف الآيات ٣٨٠
سورة «القصص»، ولطائف الآيات ٣٨٤
سورة «غافر»، ولطائف الآيات ٣٩٢
سورة «الزخرف»، ولطائف الآيات ٣٩٦
سورة «الدخان»، ولطائف الآيات ٣٩٨
سورة «النازعات»، ولطائف الآيات ٣٩٩
ـ سبب العقوبة ٤٠١
استكبار فرعون وإفساده في الأرض ٤٠١
ادعاؤه الألوهية والربوبية ٤٠٢
قتله للأبناء الذكور دون النساء ٤٠٣
ظلم وفساد أعوان فرعون ٤٠٤
عناد فرعون وتجبره وتكذيبه ٤٠٤
اتهام موسى بالسحر ومحاولة قلب نظام الحكم ٤١١
جمعه للسحرة استعدادًا ليوم المفاصلة ٤١٣
اتهام السحرة بالخيانة العظمى ٤١٦
فرعون يريد قتل موسى ويصد عن قبول النصيحة ٤٢١
ما حصل له ولقومه قبل العقوبة الفاصلة ٤٢٨
إعداد موسى بني إسرائيل للخروج من مصر ٤٣٢
ـ نوع العقوبة ٤٣٨
ـ الدروس المستفادة من عرض قصة موسى وعقوبات فرعون وقومه ٤٤٤
المبحث الثاني: عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام ٤٦٥
ـ الآيات التي تحدثت عن عقوبات بني إسرائيل ٤٦٥
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٦٥
سورة «النساء»، ولطائف الآيات ٤٦٩
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٤٦٩

الموضوع	رقم الصفحة

سورة «طه»، ولطائف الآيات ٤٧٢
- الآيات التي تحدثت عن عقوبة من طلب رؤية الله ﷻ ٤٧٥
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٧٥
سورة «النساء»، ولطائف الآيات ٤٧٦
- الآيات التي ذكرت عقوبة بني إسرائيل في صحراء سيناء ٤٧٦
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٧٦
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٤٧٧
- الآيات التي ذكرت عقوبة الذين بدلوا أمر الله قولًا غير الذي قيل لهم ٤٧٨
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٧٨
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٤٨٠
- الآيات التي ذكرت عقوبة إعراضهم عن قبول التوراة ٤٨٢
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٨٢
سورة «النساء»، ولطائف الآيات ٤٨٣
سورة «الأعراف»، ولطائف الآيات ٤٨٣
- الآيات التي ذكرت عقوبة عناد بني إسرائيل في ذبح البقرة ٤٨٤
سورة «البقرة»، ولطائف الآيات ٤٨٤
- الآيات التي ذكرت عقوبة أهل التيه ٤٨٦
- سبب العقوبة ونوعها ٤٨٨
سبب عقوبة صانع العجل ٤٩٣
نوع عقوبة عبدة العجل ٤٩٤
طلبهم رؤية الله ﷻ وإعراضهم عن قبول التوراة ٤٩٦
نوع عقوبتهم ٤٩٧
تبديلهم أمر الله ٤٩٨
نوع العقوبة ٤٩٩
كفرانهم لنعم الله ورغبتهم في الرجوع إلى الذل ٥٠٠
تعداد النعم على بني إسرائيل (قوم موسى) ٥٠١
نوع عقوبتهم ٥٠٣
مراوغاتهم وتلكؤهم في عدم ذبح ما أمروا به ٥٠٥
سبب القصة ٥٠٥
نوع العقوبة ٥٠٦

امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة ٥٠٧
نوع العقوبة ٥٠٩
- الدروس المستفادة من عقوبات بني إسرائيل ٥١٠
شروط التوبة ٥١٢
رؤية الله - تعالى - حق في الدار الآخرة للمؤمنين ٥١٣
المبحث الثالث: عقوبة قارون ٥٢٩
- الآيات التي ذكرت ذلك ٥٢٩
- سبب العقوبة ٥٣١
- نوع العقوبة ٥٣٣
- الدروس المستفادة من عقوبة قارون ٥٣٥

*** الفصل الرابع ***

عقوبة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ٥٤١
المبحث الأول: عقوبة قوم منهم خرجوا حذرًا من الموت ٥٤٣
- الآيات التي تناولت تلك العقوبة ٥٤٣
- سبب العقوبة ٥٤٥
- نوع العقوبة ٥٤٦
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٥٤٦
المبحث الثاني: عقوبة قوم طالوت ٥٤٩
- الآيات التي تناولت عقوبتهم ٥٤٩
- سبب العقوبة ٥٥٣
- نوع العقوبة ٥٥٧
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٥٦٠
المبحث الثالث: عقوبة أصحاب السبت ٥٦٣
- الآيات التي تناولت ذلك ٥٦٣
- سبب العقوبة ٥٦٧
- نوع العقوبة ٥٦٩
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٥٧١
المبحث الرابع: عقوبة بني إسرائيل في أول سورة «الإسراء» ٥٧٥
- سبب العقوبة ٥٧٩

الموضوع	رقم الصفحة

- نوع العقوبة ٥٨٠
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٥٨١

*** الفصل الخامس ***

عقوبات بني إسرائيل في عهد عيسى عليه السلام وبعده ٥٨٥

المبحث الأول: عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى عليه السلام ٥٨٧
- الآيات التي تناولت عقوبتهم من سورة «المائدة»، ولطائف الآيات ٥٨٧

الآيات التي تحدثت عن رفع عيسى عليه السلام من سورة «آل عمران» و«النساء» مع اللطائف ٥٨٩
- سبب العقوبة ٥٩١
- نوع العقوبة ٥٩٣

عيسى عليه السلام ومكائد اليهود ونهايتها ٥٩٤
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٥٩٧

المبحث الثاني: عقوبة صاحب الجنتين ٦٠١
- الآيات التي تناولت ذلك مع اللطائف ٦٠١
- سبب العقوبة ٦٠٤
- نوع العقوبة ٦٠٦
- الدروس المستفادة منها ٦٠٧

المبحث الثالث: عقوبة أصحاب الجنة ٦١٢
- الآيات التي تناولت ذلك مع اللطائف ٦١٢
- سبب العقوبة ٦١٤
- نوع العقوبة ٦١٥
- الدروس المستفادة منها ٦١٦

المبحث الرابع: عقوبة أصحاب الأخدود ٦٢٠
- الآيات التي تناولت ذلك مع اللطائف ٦٢٠
- سبب العقوبة ٦٢١
- نوع العقوبة ٦٢٤
- الدروس المستفادة منها ٦٢٥

المبحث الخامس: عقوبة أهل سبأ ٦٢٨
- الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم مع اللطائف ٦٢٨

الموضوع	رقم الصفحة

- سبب العقوبة ٦٣١
- نوع العقوبة ٦٣٢
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٦٣٣

المبحث السادس: عقوبة أصحاب الرس وزمنهم الذي عاشوا فيه ٦٣٧
- الآيات التي تحدثت عنهم ٦٤١
- سبب العقوبة ٦٤٤
- نوع العقوبة ٦٤٥
- الدروس المستفادة من عقوبتهم ٦٤٦

المبحث السابع: عقوبة أصحاب الفيل ٦٤٧
- الآيات التي تحدثت عن ذلك مع اللطائف ٦٤٧
- سبب العقوبة ٦٥٠
- نوع العقوبة ٦٥١
- الدروس المستفادة منها ٦٥٢

الخاتمة ٦٥٥
- الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام ٦٥٧

الكفر بالله ـ تعالى ـ ٦٥٧
المعاصي والذنوب ٦٦٠
استعجال العذاب ٦٦٣
ادعاء الألوهية والربوبية ٦٦٤
الاستكبار ٦٦٤
قتل الأنبياء وإيذاؤهم بشتى أنواع الإيذاء ٦٦٥
الإسراف والترف والبطر ٦٦٨
المكر ٦٧٢
الصد عن مساجد الله ٦٧٤

- التوصيات والمقترحات ٦٧٦

* **المصادر والمراجع** ٦٨١
* **فهرس الموضوعات** ٦٩٥